١

# تأثير داروين

واثره على

النازية - علم تحسين النسل - الوراثة البشرية - التميز العرقي

الشيوعية - الرأسمالية - والتحيز الجنسي


جيري بيرجمان

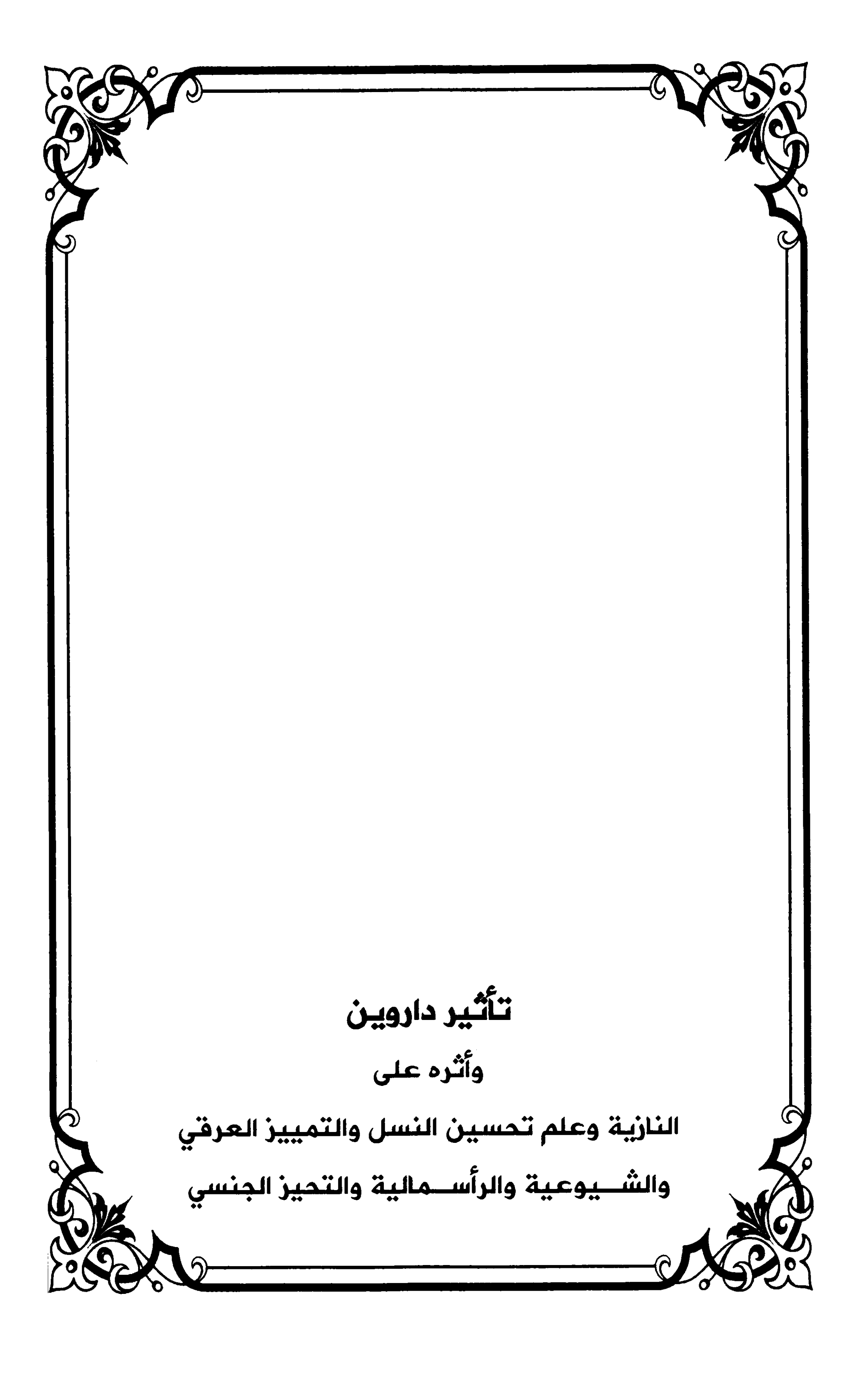
أستاذ علم الأحياء البشرية


ترجمة

القسم العلمي بمركز تبصير




لتقريب التراث
والرد على الشبهات

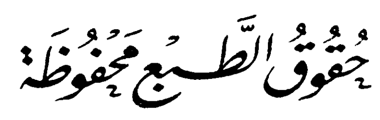


# تأثير داروين

## وأثره على

## النازية وعلم تحسين النسل والتمييز العرقي

## والشـيوعية والرأسـمالية والتحيز الجنسي






اسم الكتاب: تأثير داروين

اسم المؤلف: جيري بيرجمان

الطبعة: الأولى

مقاس الكتاب: 17 × 24

عدد الصفحات: 288

رقم الإيداع: 26062/ 2018

الترقيم الدولي: 978-977-85457-3-9





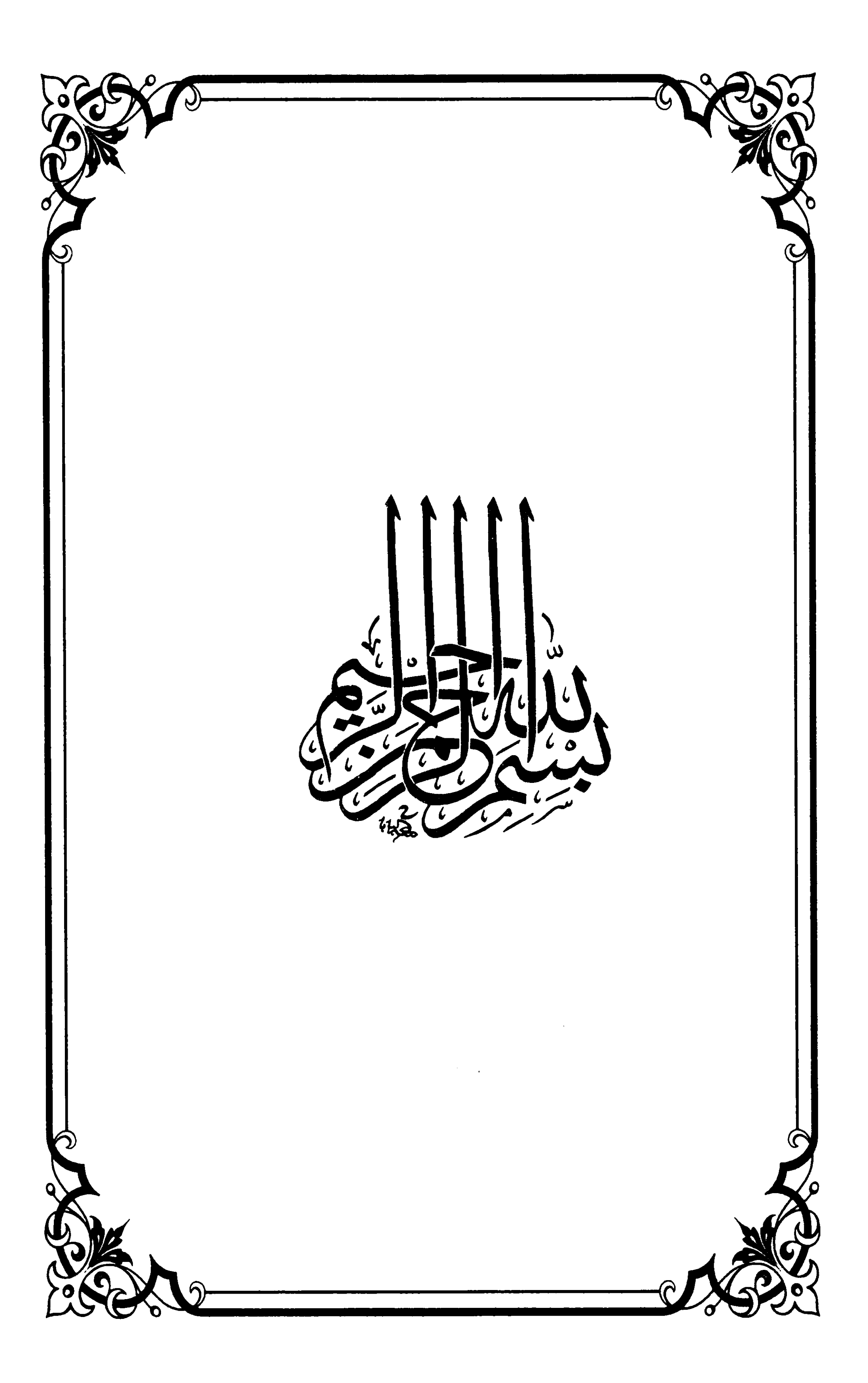



العنوان: ٣ شارع مسجد الفرقان – القناطر الخيرية – القليوبية جمهورية مصر العربية

التليفون: 01019757010 – 01102260020

website: http://tbseir.com twitter: @tabseir Fb: @tbseir

Email: tabseir@gmail.com


بسم الله الرحمن الرحيم

## مقدمة الناشر

بسم الله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه وبعد ، فإن الداروينية الآن هي أفيون الملاحدة وعليها يُبنى المذهب المادي الإلحادي ، وبدونها ينهار الإلحاد ولا تقوم له قائمة.

وقد نقل الدكتور جيري بيرجمان في هذا الكتاب ما يُظهر عوار الفكرة وخطرها على العقائد والدماء، فهذا هو ستالين السفاح الشهير يستخدم كتاب داروين ككتاب مقدس يُبشر به بالإلحاد، يقول : جي. غليور صديق الطفولة لستالين: "بدأت أتحدث عن الله، فسمعني جوزيف ستالين، وبعد لحظة صمت

قال "أتعلم! إنّهم يخدعوننا، لا يوجد إله."

لقد دُهشت من هذه الكلمات فصِحت به قائلًا: كيف يمكنك قول هذه الكلمات ؟

رد جوزيف قائلًا: "سأُعيرك كتابًا لتقرأه، سيريك أنّ العالم وأنّ كل الكائنات الحية مختلفة تمامًا عما في مُخيلتك وأنّ كل هذا الحديث عن الله هو محض هراء".

استفسرت منه: ما هذا الكتاب؟ "كتاب داروين، يجب عليك أن تقرأه" (ياروسلافسكي 1940، 8-9).

ولو أن الأمر توقف عند هذا الحد من الخطورة لكان أمرًا خطرًا ينبغي التحذير منه وبيان ما فيه من ضلال وتضليل غير أن الأمر أكبر من ذلك بكثير، لقد بدأت الداروينية كفكرة بدائية ثم تطورت حتى صارت منهج حياة ، فلا تجد شخصًا يعتقد بصحة نظرية التطور إلا وقد تغيرت حياته، فمستقل ومستكثر، وفي الكتاب نماذج عديدة سواء كان أصحابها من الحكام أو المحكومين ، وترى التفاوت في أثر الداروينية

عليهم بحسب ما معهم من إمكانات وسُلُطات ، فبعضهم يغرق في بحور الشهوات والعلاقات المحرمة وغيره يغرق في بحور الدم يستمتع بالإبادات الجماعية بحجة تحسين النسل من خلال آلية القضاء على الأقل ملائمة!.

ولأن هذا الموضوع لم يُتطرق إليه بالترجمة – كثيراً إلى العربية – حرص مركز تبصير على ترجمة هذا الكتاب الماتع.

ولا ننسى أن نشكر د.جيري بيرجمان على ما بذله في الكتاب من جهد وعلى حرصه على ترجمة الكتاب إلى العربية من خلال مركز تبصير.

والله اسأل أن يجعل هذا الكتاب حجة لنا لا علينا وأن يهدي به وأن ينفع به وأن يجعله لبنة في مواجهة موجات الإلحاد العاتية ، إنه سبحانه بكل جميل كفيل وهو حسبنا ونعم الوكيل.

**الناشر**



## ماذا يقول الآخرون عن كتاب "تأثير داروين"

أولئك الذين يتحلون "بحافز التذوق الدراسي" سيحفزهم هذا الكتاب باعتباره من المواضيع المتنوعة التي تسلب العقل. فيما تقرأه، ستستشعر عمق وشمول الموضوع، وتستمر في التطلع إلى المزيد من المواد المثيرة للاهتمام حول التأثير الشنيع للداروينية على المجتمع الحديث.

واين فراير، الحاصل على درجة دكتوراه، الأستاذ الفخري لعلم الأحياء، كينجز كوليدج، نيويورك

يعتبر كتاب جيري بيرغمان"تأثير داروين" شامل وجذاب"، ويتكشف الكتاب عبر تفاصيله، وفي الوقت ذاته يدحض دليله القائم على نظرة عالمية مدمرة تمامًا. أوصي بقراءة هذا الكتاب بشدة.

ايمرسون توماس ماكمولين، الحاصل على درجة دكتوراه، قسم التاريخ، جامعة جورجيا الجنوبية

يعد كتاب "تأثير داروين" بمثابة نظرة واقعية للواقع القاتم الذي يعكس ما يحدث للمجتمعات التي يعتقد أفرادها حقًا أن كل ما هو موجود ما هو إلا نتيجة للصدفة والزمن. لا يتحمل بيرغمان لا أي جرم أو ذنب لإلقاء الضوء على العواقب المترتبة على الفكرة الأكثر تدميرًا في القرن التاسع عشر.

ستيفن إي وودوورث، الحاصل على درجة دكتوراه، أستاذ المساعد في قسم التاريخ، جامعة تكساس المسيحية، فورت وورث، تكساس

هذا الكتاب نقيض لقصة "مسحة ميداس". فبدلًا من تحول الأشياء إلى الذهب،

يتحوّل كلّ ما تلمسه النظرة الداروينية للعالم إلى شيء قذر ومتهالك. ويوثق بيرغمان عددًا كبيرًا من الأمثلة التي تُظهر الجانب المظلم من الداروينية - العنصرية والتحيز الجنسي والشيوعية والكراهية وما إلى ذلك، ومع ذلك وعلى عكس قصة ميداس حيث يتعلم ميداس درسًا، وتتم كلها بشكل صحيح، فإلى الآن لا توجد نهاية سعيدة لقصة بيرغمان، لكن ربما يكون هناك أمل - إذا كان هناك عددًا لا بأس به من الأشخاص الذين يدركون ما تفعله الداروينية والنشوء في البشرية.

بروفيسور: ديفيد جيه. أوبيربلير، قسم علوم الحاسب، جامعة اريزونا المسيحية



# شكر وتقدير

أود أن أوجه الشكر للسيد/ ايميرسون توماس ماكمولين، الحاصل على درجة دكتوراه، وستيفاي وودورث ووين فرير ،دكتوراه الحاصل على درجة دكتوراه، وين فرير دكتوراه، الحاصل على درجة دكتوراه ود. ديفيد هيربرت وبروفيسور ديفيد اوبربريللر وبريس جوديان وبيرت ثيمبسون، الحاصل على درجة الدكتوراه وكليفورد ليلوماجستير وروبرت كوفل دكتوراه، الحاصل على درجة دكتوراه، وجودي الين، ممرض مسجل، والبروفيسور إيرون بيرغمان، الحاصل على درجة ماجستير، على تعقيباتهم على مسودات سابقة من هذا العمل. وغني عن القول، أنني أتحمل مسؤلية كافة الأخطاء الواردة. كما أود كذلك أن أوجه جزيل الشكر إلى بولتون دافيد هايزر،، الحاصل على درجة دكتوراه، وجون وودموراب، الحاصل على درجة الماجستير، وإيان تايلور على ملاحظاتهم على المسودات السابقة لهذا الكتاب.



## المحتويات

# التمهيد

في ربيع عام 2008 وخارج بوابات جامعة ويسترن أونتاريو، اقتربت من طالب فلسفة في السنة الثانية ، وسألته عما إذا كان سينجز استبيانًا يتعلق بالكتاب خاصتي الذي يحمل العنوان" الآراء الدينية لتشارلز داروين (2009). وفي محادثة لاحقة معه كونه مجاهرا بالإلحاد والتطور ، أعرب بكل وضوح أن كافة القيم الأخلاقية كانت نسبية تمامًا. وسألته إذا تحرش رجل بفتاة تبلغ من العمر سبع سنوات (وهذا كان عمر حفيدتي آنذاك)، هل يعتبر مثل هذا التصرف خطأ. أجاب بهدوء، "بالطبع لا! عليك أن تتذكر أننا لسنا أكثر من الحيوانات".

يتعقب أحدث كتاب لدكتور جيري بيرغمان جذور أسلوب التفكير الجامد لهذا الطالب الجامعي، وهذا الكتاب بعنوان "تأثير داروين". حيث حدد دكتور برغمان على نحو صحيح المؤلفات حول النشوء لتشارلز داروين، لا سيما" (كتاب "أصل الأنواع" - 1859) و"أصل الإنسان" (1871)، بوصفه عاملًا مساهمًا رئيسيًا. ولقد ظهرت نظرية التطور في عالم واقعي طبيعي بوصفها منظورا دينيا مهيمنًا في القرن العشرين. وخلال هذا الإطار الزمني، ترك علم تحسين النسل - تطبيق العقيدة التطورية على البشر - مجزرة لا توصف في أعقابها.

أسس ودعا فرانسيس جالتون، وهو ابن عم تشارلز داروين إلى حركة تحسين النسل. لم يشهد على الإطلاق المعاناة التي تعرض لها العالم بأسره نتيجة لفلسفته الشريرة هذه، وذلك حيث أنه توفي في عام 1911. لقد غرس علم تحسين النسل في عقول هؤلاء الأوتوقراطيون المهووسون مثل أدولف هتلر وجوزيف ستالين والرئيس ماو وبين أيديهم وأسفر عن غضب عارم، وقد قدر الدكتور بيرغمان أن هذا الثلاثي

الشيطاني تسبب في موت 400 مليون شخصًا.

يشتهر هربرت جورج ويلز، وهو كاتب غزير الإنتاج، حيث ألف نحو 100 كتابا، بكتابه الذي يحمل عنوان"الخطوط العريضة للتاريخ - 1920" " The Outline of History " والذي بيع منه على نحو لافت حوالي مليوني نسخة. ولا يدهشنا تحيزه التطوري المتحمّس، حيث أنه في الحقيقة كان تلميذًا لتوماس هنري هكسلي، وكان يطلق عليه اسم"تابع داروين" " Darwin's bulldog" لكن ماكان يسبب الانزعاج هو التزامه الراسخ بعلم تحسين النسل. وقد دعا علنًا إلى القضاء على ما يسمى "بالأجناس الغير لائقة"،- ويقصد بهم أولئك الذين يعانون من الأمراض المستعصية والمرضى العقليين والمعاقين. وعلاوة على ذلك، كان يتعاطف مع النازية ورغبتهم في تشكيل الجنس الأري السامي.

يوضح الدكتور بيرغمان في تصوره المؤثر حول أوتا بينغاالتأثيرات الكارثية التي يمكن أن تحدثها الداروينية على الفرد. تعد الإساءة في معاملة هذا االقزم الكونغولي وانتحاره في النهاية أحدى أتعس اللحظات التي تجسد العنصرية الأمريكية. وهذا الكتاب الذي تمت دراسته بشكل متعمق هو ملحق لمجلد رائع لـ د. بيرغمان "الجانب المظلم لتشارلز داروين (2011).

**وكتب**

**د.ديفيد هربرت**

مؤرخ (www.diherbert.ca)

(حصل الدكتور هربرت على درجة الدكتوراه من جامعة تورنتو).

**المراجع**

Herbert, David. Charles Darwin's Religious Views.

.Kitchener, Ontario, Canada: Joshua Press, 2009

# الفصل الأول

## المقدمة

يوثق هذا الكتاب عدد المرات التي أُستغلت فيها الداروينية في غايات سياسية شريرة، ومدى سهولة ذلك من خلال تشكيلة واسعة من الأشخاص والحركات (سيباستيان وبوهلين، 2009). منذ بداية القرن الماضي كان هناك عدد كبير من الأساتذة والعلماء الداروينيين وكنتيجة لذلك كان هناك تأثير هائل على المجتمع.

على سبيل المثال، كتب المؤرخ البروفيسور عزيز" أنه باستثناء عدة حالات من الشجاعة المنفردة، فقد قبلت الجامعة الألمانية بأكملها دون اعتراض، فكرة أن الأشخاص العاملين في المجال الطبي يتعين أن يتواطئوا في المجزرة" فيما يسمى بالإنسان الأقل لياقة خلال الحكم النازي في ألمانيا (عزيز 1976، 113). وأضاف عزيز أن "ما يقرب من ثلث رؤساء قسم الطب النفسي [في ألمانيا النازية] كانوا يشاركون في برنامج [تحسين النسل] كخبراء في اختيار والقضاء على المرضى العقليين" (عزيز 1976، 113). وفي كافة أنحاء العالم، حتى العديد من اليهود شاركوا أو دعموا علم تحسين النسل، على الرغم من أنه مناقض لاستنتاج اختصاصيي تحسين النسل الألمان، إلا أن المجموعات العرقية التي كانوا يعتقدون أنها أدنى درجة لم يكونوا جميعًا من اليهود (جلاد 2011)

هذا الكتاب، وكتابين آخرين في هذه السلسلة من، الجانب المظلم لتشارلز داروين وهتلر ونظرة العالم الداروينية النازية.

كيف تسببت الحملة الصليبية النازية لتحسين النسل في أكبر محرقة في تاريخ العالم، والتي وثقت حقيقة أن داروين كان مسؤولاً بشكل مباشر أو غير مباشر عن

المزيد من الإبادة والمعاناة وتدمير الممتلكات أكثر من أي شخص آخر على مر التاريخ. وكما أوضح هذا الكتاب، فإن أفكاره لم تكن مصدر إلهام للنازية فحسب، بل ألهمت كذلك الشيوعية والرأسمالية الوحشية، مما أودى بحياة ما يقدر بنحو ربع مليار شخص. وقد وثَّق باريت وآخرون أنه في القرن الماضي، قد قُتل نحو 45,5 مليون مسيحي، وهو عدد كبير على وجه التحديد عبر الحركات المستمدة عقيدتها من تشارلز داروين، الذي كان بدوره له تأثيرًا بالغًا في كارل ماركس، ,والذي كان على المسيحية ثم تحول إلى الإلحاد كما هو موثق في الفصول 14 و15 (2001). ويقال أحيانًا إن شخصًا آخر كان يمكن أن يحقق ما فعله داروين، وهذا القول قد يكون صحيحًا، لكن هذا التفسير يشبه القول بأنه لو لم يكن هتلر موجودًا، لكان شخص آخر قد تسبب في نفس الفظائع التي وقعت في ألمانيا، والتي قام بارتكابها هتلر. لذلك لم يكن هتلر رجلاً سيئاً، لأن المحرقة التي قام بها هو وأتباعه المقربون كانت لا محالة ستقع .

يُقصد بالداروينية هي النظر إلى الأصول التي أنشأها تشارلز روبرت داروين (1809–1882) . يُطلق على هذا الرأي في كثير من الأحيان اسم "الداروينية الحديثة" نظرًا لإدخال العديد من التعديلات على نظرية داروين، بما في ذلك وجهة النظر التي تقول إن المصدر الرئيس للنوع هو الطفرة بدلاً من نظرية داروين شبه اللاماركية. وتذهب الداروينية الحديثة إلى أن الجزيئات البسيطة، مثل الميثان والماء والهيدروجين والأمونيا، تطورت إلى كافة أشكال الحياة من البكتيريا إلى البشر عن طريق الانتقاء الطبيعي للأخطاء الجينية التي تسمى الطفرات عن طريق الانتقاء الطبيعي (البقاء للأصلح) والفرصة، وتفوق القانون الطبيعي، بالإضافة إلى فترات زمنية هائلة.

تتراوح الانتماءات السياسية لأولئك الذين استغلوا داروين بسبب الشر بين ما يسمى باليمين الراديكالي إلى أقصى اليسار المتطرف. وسيُسرد تاريخ دور الداروينية الحاسم في الشيوعية والرأسمالية وعلم تحسين النسل والنازية والتمييز على أساس الجنس = ويوثق في الصفحات التالية بطريقة نثرية تشبه الرواية التاريخية (إلا أنها حقيقة)، على الرغم من وجود العنصرية قبل أن ينشر داروين كتابه "أصل الأنواع" عام 1859، لكن الداروينية أعطت " نظرية التسلسل الهرمي العرقي الفائق للبشرية " احترامًا وسلطة علمية ، مما زاد من مشكلة العنصرية في العالم الغربي بمستويات مرتفعة (جولد 1977، 127)، وجزء من المشكلة يكمن في خلق عقيدة جديدة في القرن التاسع عشر، وهو العلم.

حتى تلك المعتقدات مثل العلمانية وحتى الأكثر عقلانية أكدت أن العلم سينتزع كل الأسرار الكونية من الكنائس، وأن العلم ذاته سيتولى [توجيه المجتمع].... وستُحل كافة مشكلات البشرية من خلال التوصل إلى حلول طبيعية واجتماعية (جونز Jones 2002-299-300)،

ويوضح هذا الكتاب ما حدث نتيجة لخلق هذا الإله الجديد.

إن الاعتراض الرئيسي على استنتاجاتي هو الملاحظة الصحيحة أن العوامل الأخرى ساهمت كذلك في الشرور التي نوقشت في الصفحات التالية. وليس لدي أي اعتراض على هذه الملاحظة. وبالرغم من ذلك يدور هذا الكتاب ،حول التأثير الهام للداروينية في تحسين النسل والعنصرية والتمييز على أساس الجنس والرأسمالية والنازية والشيوعية. وهناك العديد من الكتب والمقالات الأخرى التي قيمت العوامل الأخرى التي تؤثر في هذه "المذاهب"، ولكن هذه العوامل ليست هي محور هذا الكتاب. لقد وُثقت

الداروينية في الدراسات العلمية، كونها تمتلك تأثيرًا بالغًا على كافة هذه الشرور في القرن العشرين، ويحاول هذا العمل فهم بعض تفاصيل هذا التأثير (بيرغمان 2012)

لم تقدم الداروينية أية اسهامات ضخمة للمنفعة العملية للإنسانية، على الأقل مقارنة باكتشاف الحمض النووي أو المضادات الحيوية أو اختراع الترانزستور أو رقاقة الكمبيوتر أو التصوير بالرنين المغناطيسي. لقد وُضعت الداروينية في مقدمة الإعلام والتقدير العلمي، مع كونها ليست بحقيقة علمية أو تاريخية، بل من خلال برنامج علاقات عامة ضخم ومكلف يُدفع له من أموال الضرائب (سيويل 2009)

ينصب التركيز هنا على النتائج العملية والسياسية لتطبيق الداروينية على المجتمع وليس على صحته. ويتمحور التركيز الأول في غالبية الفصول حول حركة تحسين النسل المستوحاة من الداروينية، والتي اجتاحت العالم لفترات رئيسية من القرنين الماضيين، ومازالت تؤثر في الكثير منها اليوم ،في بحث علم تحسين النسل تتمثل إحدى القضايا في فهم "كيف لمجموعة متماسكة من العلماء أن يذهبوا (وغالبية الممثلين الرئيسيين في هذه القصة كانوا علماء – علماء أحياء وعلماء حيوان وعلماء نفس وأطباء) يذهبوا في محاولة للترويج لفكرة مقتصرة لدى العامة؟ كيف قاموا بالتنظيم والحشد والتأثير على السياسيين؟ وكيف نجحوا في سن قوانين تتناسب مع أغراضهم الأيديولوجية (سيويل 2009 — 11-12)

يشرح هذا العمل الضرر الهائل الذي نجم عن هذه الحركة المقتصرة على فئة معينة من المجتمع، ويوثق بدقة هذا الاستنتاج بمئات المراجع.

كتب دانيال دينيت أن التطور هو حمض عالمي يذيب كل نظام معنوي وأخلاقي يصادفه (1995). وإن مدى التطور هو في الواقع مثل "حمض عالمي" يساعد في

تفسير الانحلال المجتمعي والذي سيتم سرده بشيء من التفصيل. وبالنسبة لبعض الأشخاص فأن التطور يقدم حتى تفسير وتبرير عند بعض التطوريين للاغتصاب (ثورنهيل وبالمر 2000)

يُعلِم التطور أن الطبيعة تختار تلك الكائنات الحية التي تترك ذرية أكثر، وكلما كان الشخص أكثر عدوانية جنسيًا، كلما زاد تكاثره، وينقل الجينات التي تسبب العدوان الجنسي إلى عدد غير متجانس من النسل. ونتيجة لذلك يعلم الدارونيون أن هذه السمة ستصبح أكثر شيوعًا بين السكان.

تغطي العديد من مقالاتي العلمية التأثير العكسي للداروينية على المجتمع، لكن الهدف من هذا الكتاب هو إعداد عمل قابل للقراءة، ومثير ومدعوم جيدًا يوثق هذا الارتباط. أحد التأثيرات المعاكسة الرئيسة للداروينية، وهى فكرة علم تحسين النسل، وهو مصطلح صاغه ابن عم داروين فرانسيس جالتون (1822 - 1911).

علم تحسين النسل هو الاعتقاد بأن التحسينات في المجتمع تتطلب استيلاد أشخاص أفضل باستخدام تقنيات مشابهة لاستيلاد حيوانات أفضل. ويعلّم "تحسين النسل" أن البشر إنما هم مثل الحيوانات تمامًا ، واستخدام التعقيم القسري، أو في الحالات القصوى التي يتم فيها قتل الأشخاص الأقل شأنًا مثلما فعل النازيون. و "لا شك في الارتباط الوثيق بين [الداروينية] وعلم تحسين النسل ذاته" سوف يتسبب في تطور الجنس البشري في اتجاهات مرغوبة ، و بدت حركة تحسين النسل في "السنوات التي سبقت الحرب العالمية الأولى= كأنها شركة عائلية منتمية لعائلة تشارلز داروين" على وجه التحديد.

استبدل ابن داروين ليونارد ابن عمه جالتون كرئيس للجمعية الوطنية لتحسين

النسل في عام 1911. وفي العام ذاته تأسس فرع للجمعية في كامبريدج. وكان من بين أبرز أعضائها ثلاثة من أبناء تشارلز داروين، وهم هوراس وفرانسيس وجورج. وكان أمين الصندوق في المجموعة محاضرًا شابًا في الاقتصاد في الجامعة، وهو جون ماينارد كينز، والذي تزوج أخيه الصغير "جيفري" فيما بعد من حفيدة داروين "مارجريت". وفي هذه الأثناء جلست والدة كينز "فلورنسا"، وابنة هوراس داروين "روث" معًا في لجنة جمعية كامبريدج لرعاية المعاقين عقليًا... وهي منظمة رئيسة لعلم تحسين النسل (سيويل 2009،54)

سعى المؤلف إلى عدم تمثيل الداروينية، لكنّه شعر كذلك بأنه مجبر على تغطية التفاصيل التي في الغالب ما تُهمل في الكثير من مؤلفات التطور. والصورة الموثقة في هذا العمل ليست جميلة – ولكنها تجمع بين الحزن والمأساوية. إن كلمات كبار العلماء الداروينيين، مثل تشارلز داروين وإرنست هايكل، والذيت كانت مؤلفاتهم تحمل في طياتها أفكارهم العنصرية بوضوح وغالباً ما سُمح لهم بالتحدث عن أنفسهم.

كما أقنع ريتشارد دوكينز العديد من الأشخاص بأن "هناك حالة دفع لأسفل أو معارضة [قائمة ] لأجل التخلي عن أي بحث عن معنى أو هدف أو توجه في الأمور التي تخص البشرية (سويل 2009،8)، ولم يكن المؤرخ دينيس سيويل واثقًا تمامًا من صحة حالة داوكينز:

ربما يكون علم تحسين النسل قد ظل في محله ثابتا حيث بدأ، على هامش الحياة السياسية البريطانية، وهو أمر يمكن مناقشته في قاعات اجتماعات الجمعية العقلانية (وبالنسبة إلى الداروينيين/الملحدين قد أصبح بالفعل محورًا راسخًا). وعلى عكس العديد من النظريات المقصورة علي فئة معينة اليوم... يمكن لحركة تحسين النسل أن

تعتمد على دعم ليس فقط من أسسوها، ولكن كذلك على دعم من أكاديميات كامبريدج وزملاء الجمعية الملكية وعدد كبير من العاملين في مجال الطب ذاته، ثم خلص سيويل إلى أنه تم اطلاق محور الداروينية/الإلحاد. مما يثبت أنها كانت حملة ضغط سياسي لافت. ففي فترة زمنية قصيرة بشكل ملحوظ، انتشرت المفردات والمبادئ الأساسية لعلم تحسين النسل من خلال الطبقة الوسطى، وأصبحت القاعدة تقريبًا وليس الاستثناء. وكان هذا التعميم السريع، لِما ظهر كمجموعة ملتوية من الأفكار أشبه بالطريقة التي تطورت بها الحركة البيئية في عصرنا (سيويل 2009,55)

## هتلر والنازية

إن أفضل وأحد الأمثلة الأكثر تطرفًا لمحاولة تطبيق تحسين النسل على البشر هو حزب العمال القومي الاشتراكي أو الحركة النازية. وأوضح هتلر في كتاباته وخطبه أنه كان يعتقد أن جزءًا صغيرًا فقط مما يُنظر إليه عادة للبشرية يتكون من البشر – ولا سيما أولئك الذين تخيل أنهم من أصل شمالي.... أما الباقي – الذي أطلق عليهم اسم "مزيج عرقي" – فهم لا ينتمون إلى الجنس البشري، بل إلى نوع أقل شأناً... ببساطة إنهم حيوانات متنكرة في صورة بشر (كوهن 1967,187)

يوثق البروفيسور نورمان كوهن أن هذه الفكرة العنصرية كانت "متخفية كحقيقة علمية" من قبل الحكومة الألمانية، والعلماء العنصريين والأكاديميين في الجامعات الألمانية الرائدة. ثم استخدمت هذه الفكرة لترويع "أوروبا من القناة الإنجليزية إلى الفولجا" (كوهن 1967، 187). واقتبس كوهن لدعم هذا الاستنتاج، من وثيقة أصدرتها الحكومة الألمانية، تخلص إلى أن البشر من خارج بلدان شمال أوروبا أو الغير آريين هم

مخلوقات دون بشرية تبدو بيولوجيًاكما لو كانت من النوع ذاته تمامًا ومنحته الطبيعة الأيدي والقدمين ونوع من الدماغ، مع عينين وفم - مع ذلك هناك اختلاف كلي، مخلوق مخيف، هو مجرد محاولة ليكون إنسان، مع ما يشبه الوجه البشري، ولكنه أقل في العقل والروح من أي حيوان (كوهن 1967، 188).



**أدولف هتلر وبينيتو موسوليني في أكتوبرعام 1936، مع إعلان ألمانيا وإيطاليا لتحالفهم**

أوضحت الوثيقة أن داخل أشباه البشر هؤلاء "فوضى قاسية من المشاعر الوحشية الجامحة: رغبة محمومة للتدمير وأكثر الشهوات بدائية،والدنائة السافرة" (مقتبس من كوهن 1967، 188). وخلصت الدراسة إلى أنه يجب القضاء على هؤلاء الأشخاص

الأضعف لصالح المجتمع، وكما توضح الفصول من 1 إلى 11 من هذا الكتاب، فإن وجهة نظر هتلر كانت متأصلة في الداروينية (بيرغمان 2012). إن انتقال حركة علم تحسين النسل من النظرية إلى السياسة، ثم إلى السيطرة الاجتماعية يتطلب توسيع انتشار وكالات الدولة وتوسيع نطاقها للدخول في حياة الفقراء بل وتوجيهها في النهاية. ويقول ليونارد داروين: "سيُنشأ بلا شك نظام لمراجعة تاريخ العائلة لكافة أولئك الذين أدرجوا في السجل على أنهم مختلين عقليًا بلا جدال ."

خاصة فيما يتعلق بالوقوع في الجريمة والجنون واعتلال الصحة والافتقار إلى وجود أقارب لهم.... إذا تم كل هذا، فإنه بالكاد يمكن الشك في اكتشاف العديد من السلالات التي لا يمكن لأحد أن ينكر أنها يجب أن تموت لصالح الأمة [حيث أصبح ذلك في ألمانيا خطوة قصيرة نحو المحرقة] (سيويل 2009 -54-55)

وكانت النتيجة هي المحرقة ؛ ولقد تم تحرير معسكر الاعتقال النازي "داخاو" من قبل الجيش الأمريكي قبل ما يقرب من شهر من وصول كتيبة المهندسين الخامسة عشر في مايو عام 1945. وكان الجندي مارتن جاوديان من الولايات المتحدة مجند في تلك الكتيبة. وكتب أن أول ما رآه لدى وصوله إلى داخاو كان طفلًا يبلغ من العمر ما بين 8 إلى 10 سنوات يقف بجانب فرن يتحدث إلى جندي آخر. وكان يعرض عليه بعض صور الجثث التي وضعت في الأفران. وكان لديه العديد من الصور التي باعها للجندي. وذكر أن والديه تعرضوا للغازات والحرق. وفي اليوم ذاته أتذكر رؤية برج الماء الذي استخدمه الأطباء لإجراء تجارب لمعرفة مدى بقاء البشر على قيد الحياة خلال الأشهر الباردة في المياه المتجمدة. ثم أتذكر رؤية هذا المستودع الضخم الذي لا يبعد كثيرًا عن

المبنى المصنوع من الطوب الذي أقمنا فيه. ومشيت إلى المبنى وذهبت إلى الداخل. الجزء الأول الذي دخلت فيه كان مثل غرفة دخول صغيرة بها رفوف على الحائط. وكان هناك رف كبير يحتوي على جرات فيها أجزاء بشرية في محلول سائل. أتذكر رؤية العين والأذن والقلب والأعضاء التناسلية والأصابع وما إلى ذلك. ثم دلفت إلى قسم المستودع في المبنى. وكانت هناك طاولات ضخمة محملة بكافة أنواع الأدوات الدقيقة – مثل المنقلة وأدوات القياس والأدوات والكماشات وأجهزة أخرى للحياكة وحراب... كانت الغرفة ضخمة، ربما بطول 200 قدم وعرض 50 قدم (جوديان 2010-1).

ساهمت العنصرية الداروينية ليس فقط في علم تحسين النسل، ولكن كذلك في المحرقة. ففي خطاب ألقاه القائد الألماني لأوكرانيا المحتلة في 5 مارس 1943 إريك كوخ قال : "إن الآريين هم السلالة الرئيسة، ويجب أن تحكم بحسم وقوة... سأخرجهم جميعًا من هذه البلاد. لم آتي لنشر السعادة.... يجب على السكان العمل والعمل والعمل مرة أخرى.... لقد جئنا إلى هنا لوضع أساسًا للنصر. نحن سلالة رئيسة، يجب أن نتذكر أن أضعف عامل ألماني عرقيًا وبيولوجيًا وحيويًا أكثر قيمة ألف مرة من السكان هنا [في أوكرانيا] (مقتبس في بيوتروسكي 1998 -30).

وقد استخلص المؤرخ تادوسيز بيوتروسكي أن" ضخامة رعب تلك المحاولة للإبادة الجماعية ستطارد البشرية إلى الأبد". كما تشاركت الدوافع الداروينية ذاتها كذلك مع الستالينية [ نسبة إلى ستالين]، مما أدى إلى نتائج مماثلة، بل كانت اسوأ فقط ( جيير وفيتزباتريك 2009). وكانت بشكل خاص مهنة الطب من بين اسوأ الأمثلة على تطبيق الداروينية بواسطة المؤسسة العلمية.

كتب طبيب في معسكر أوشفيتز، دكتور مكلوس نيسلي، أن تطلع الأطباء النازيين لدراسة التوائم من شأنه أن يحل مشكلة التناسل الأسرع للأعراق السامية من خلال التقدم خطوة واحدة نحو فك لغز تناسل الأجناس المتفوقة المقدر لها أن تحكم وكان ذلك "هدف نبيل". إذا كان من الممكن تحقيقه في المستقبل، على أن تحمل كل أم ألمانية أكبر عدد ممكن من التوائم! كان هذا المشروع الذي صممه منظّرو الرايخ الثالث[الحكم النازي] جنونًا تامًا. وكان الدكتور مينجيلي، كبير الأطباء في معسكر اعتقال أوشفيتز كيه زي، "الطبيب الجنائي سيئ السمعة"، تم تفويضه للقيام بهذه التجارب (نيسلي 2011-60).

وأضاف أنه من بين العديد من المذنبين والمجرمين، والنوع الأكثر خطورة كان "الطبيب الجنائي"، وخاصة عندما يكون مستقويًا بصلاحيات مثل تلك الممنوحة للدكتور منجيل. لقد أرسل ملايين الأشخاص إلى الموت لمجرد أنهم - وفقا لنظرية عنصرية - كانوا كائنات دنيا، وبالتالي فهم مصدر ضرر للبشرية (نيسلي 2011-60).

اعتمد د. نيسيلي لطرح هذا الإدعاء على خبرته ومعرفته المباشرة ليستخلص استنتاجه عن الأطباء والنازية. حيث كتب أن منجيل أمضى ساعات طويلة بجانبي، سواء يعمل علي المجهر أو على أفرانه المطهرة وأنابيب الاختبار أو واقفًا بصبر بالقرب من طاولة التشريح، إن ثوبه كان ملطخًا بالدماء، ويداه الدمويتين تفحصان وتختبران. وكان الهدف المباشر هو زيادة تناسل الألمان الخالصين بأعداد كافية لتحل محل التشيكيين والمجريين والبولنديين، الذين كان محكومًا عليهم بالهلاك، لكنهم كانوا يعيشون في تلك اللحظة في تلك الأراضي المعلنة بأنها أماكن حيوية للرايخ الثالث

[النظام الناوي] (نيسيلي 2011، 60).

لقد كتب الكثير عن محرقة اليهود ، لكن هذا الحدث لم يكن سوى جزء من ثمار علم تحسين النسل القبيح. على مقربة من عدد مذهل بنحو 12000 بولنديا قد توفوا في المقاطعات المحتلة نتيجة لبرنامج القتل الرحيم النازي. من هذا المجموع كان 10000 أتوا من المستشفيات من ذوي الإعاقة العقلية. وكان هذا مجرد بداية للخطة النازية لخلق نسل متفوق من البشر، وهو ما تؤكده نية آرثر جرايسر لإبادة 25000 إلى 35000 بولنديًا في كراج وارتي (بيوتروسكي 1998,26).

وكان المبرر المقدم لهذه الجرائم هو أن الضحايا "عانوا من مرض السل"، وهو مرض معدي يعتقد النازيون خطأ أنه مرض وراثي. وأحد الأمثلة التي يتجاهلونها في كثير من الأحيان للعنصرية الداروينية هو أن العديد من اليهود والبولنديين لم يلقوا حتفهم في معسكرات الاعتقال النازية فحسب، لكن كذلك الغجر، الذين مثلهم مثل اليهود قُتلوا بهدف الإبادة كاملة. وعلى الرغم من أن ملك الغجر الأوروبيين ورئيس الغجر في الحكومة العامة، رودولف كفيك عرض التعاون في عام 1942 في مقابل الحصول على معاملة أفضل لشعبه، لكن لم يكن هناك استجابة لاقتراحه، من بين 75000 إلى 85000 من الغجر في بولندا قبل الحرب، تُوفي أكثر من 50,000 (بيوتروسكي 1998,29).

وافترض بيوتروسكي أنه إذا كانت ألمانيا "قد فازت بالحرب، فلا شك أن نطاق برنامج القتل الرحيم النازي من الممكن توسيعه ليشمل كافة أولئك الذي نلم يتمكنوا – لأي سبب كان – من المساهمة في تحسين الوضع الاقتصادي للرايخ الثالث "(بيوتروسكي 1998,28).

وقد استنتج البروفيسور مايكل بورلي من الأدلة أن أهداف هتلر كانت تكاد أن تكون بلا حدود. كما لم يعيق تخطيطه أي استفسارات عن التكلفة سواءً كانت التكلفة البشرية أو غيرها، لأن الحرب في رأيه كانت لها قيمة إيجابية وتجددية "لصحة" النسل والأمة. كما قال "قد يكون أمامنا مائة عام من النضال. إذا كان الأمر كذلك،- فإن ذلك هو الإنجاز الأفضل - وإن كان سيمنعنا من الذهاب إلى النوم (بورليه 1999,343)

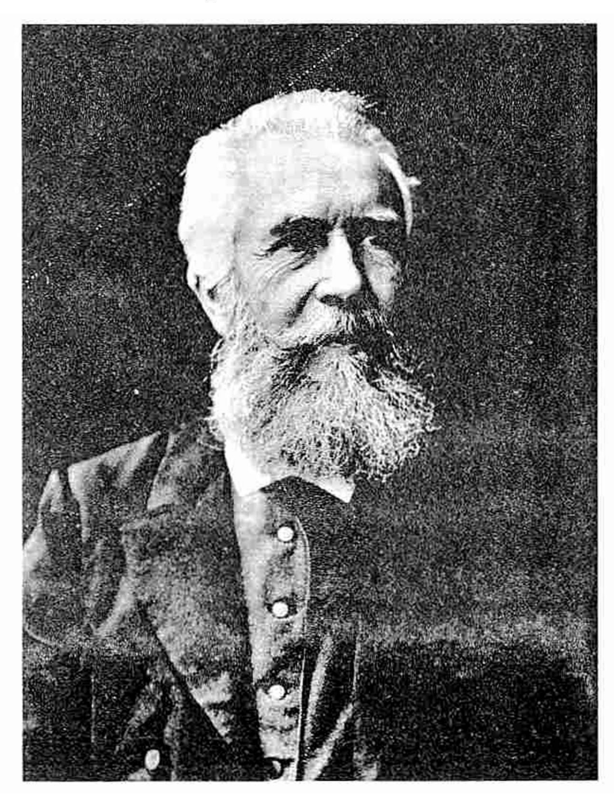
على الرغم من أن الاستنتاج العنصري كان عالمياً في يوم من الأيام بين العلماء الداروبين، مثل التأكيد على أن "السود كانوا أقرب في النطاق التطوري إلى القردة من الأشخاص البيض"، فإن هذا الاعتقاد تم إقراره "من قبل العلماء اليوم بوصفه خطأ شنيعًا. "للأسف، لم يتحمل العلماء التطوريون المسؤولية عن هذا الخطأ، ولا تزال آثار علم تحسين النسل الدارويني قائمة في أذهان الملايين، مما يؤثر على الاتجاهات نحو العرق في كل مكان(سيويل 2009,19).

والدليل على هذه الحقيقة، أن سيويل أشار إلى أن جيمس واتسون، الحائز على جائزة نوبل،" شرح تكهناته القائمة حول التطور الاجتماعي والاقتصادي في أفريقيا" بحجة أنه لا يمكننا أن نتوقع "أن القدرات الفكرية للأشخاص المفصولين بيانياً في تطورهم يجب أن يتطوروا ليصلوا إلى مستوى البيض الأعلى تطورًا من حيث التقنية المتطورة (سيويل 2009، 19).

## أهمية الداروينية في الحركة الشيوعية

لقد وثق نيال فيرغسون، الأستاذ في جامعة أكسفورد، أهمية الداروينية في نجاح الحركة الشيوعية، كما هو موضح في الفصلين 14 و15، حيث كتب أنه في الوقت

الذي بدأت فيه الشكوك في مهاجمة الماركسيين، فإن تقدمًا في مجال العلوم غير ذي صلة قد وفر مصدراً جديدًا حيويًا لاثبات صحة نموذجهم حول التغيير الاجتماعي. لقد استند إنجلز على بيان داروين الثوري لنظرية الانتقاء الطبيعي على الفور بوصفه دليلًا جديدًا على نظرية الصراع الطبقي - على الرغم من أنه لم يمض وقت طويل قبل أن يقدم العلماء نفس الادعاء النظريون حول الصراع العرقي .



**كان إرنست هيجل ألمانيًا، عالم تاريخ طبيعي وبيولوجي**

**واستاذ علم التطور**

الذين أساءوا تفسير رسالة مجمع نظريات داروين بشكل فج. (وفي بعض الأحيان بشكل متناقضة). فقد أخذ بعض الكُتّاب مثل توماس هنري هكسلي وإرنست هايكل بنظريات

جوبينيو العرقية السابقة وقاموا بتحديثها بنموذج بسيط من الانتقاء الطبيعي والتي أصبح فيها التنافس بين المخلوقات الفردية صراعًا بين الأعراق (فيرجسون 1999، 41-42).

وأضاف أن "بيان داروين الثوري لنظرية الانتقاء الطبيعي" سرعان ما أصبح "العملة المشتركة لكثير من الجدل السياسي في مطلع القرن". وأن "الداروينية الاجتماعية" اكتسبت بسرعة مجموعة من الأشكال المختلفة: العمل الزائف من منظري نظريات تحسين النسل... وفي نهاية الأمر، بالطبع الأوهام العنيفة المعادية للسامية لهتلر التي جمعت العنصرية والاشتراكية، فيما اثبتت الإيديولوجية الأكثر تفجرًا في القرن العشرين، لكن ما ربطهم كان دافعهم الحتمي (في بعض الحالات، والعنيف )، واللامبالاة بمفهوم الإرادة الحرة الفردية. بالنظر إلى هذا التقارب الظاهري بين ماركس وداروين - على الرغم من أصولهما الفكرية المختلفة بشكل صارخ - فإنه من غير المستغرب أن الاعتقاد بإمكانية وجود قوانين تاريخية حتمية كان منتشراً للغاية خلال هذه الفترة الزمنية وبعدها (فيرجسون 1999، 42).

وقد وثّق فيرجسون الدور المركزي للعرق في الحركة النازية من خلال تفصيل خططهم بعد فوزهم في الحرب. كافة الأجناس المتدنية، مثل السلالة السلافية (وهي مصدر كلمة عبد التي نتداولها)، والتي ستكون عبيداً للعرق المتفوق، ولن يتمكنوا بموجب القانون من الحصول على تعليم أو يتمكنوا من حكم أنفسهم في نظام يشبه إلى حد كبير نظام العبودية الذي كان في أميركا.

## لا يزال علم تحسين النسل معنا حتى اليوم

لم ينتهي "علم تحسين النسل" إلى اليوم، ولكنه أصبح أكثر ذكاءًا. وأحد الأمثلة

على ذلك هو حالة الداروينية الاجتماعية بيكا إيريك أوفينن، الطالب الفنلندي في المرحلة الثانوية الذي يبلغ من العمر 18 عامًا، والذي قتل في السابع من نوفمبر 2007، ستة طلاب وممرضة ومدير المدرسة وجرح أكثر من اثني عشر آخرين في مدرسة جوكيلا الثانوية في جوكيلا، وهي بلدة في بلدية توسولا، فنلندا (وليامز 2007، ثقافة غريبة، مصدر مجهول 2007)

شعر أوفينن بالقلق لأن البشر قد اابطأوا أو عكسوا التطور في المجتمع الغربي، وقرر شخصيًا أن يفعل شيئًا حيال ما اعتبره المشكلة (سيويل 2009,45). وكتب في مدونته أن "االأشخاص الأغبياء ضعفاء العقول يتكاثرون... أسرع من الأشخاص الأذكياء الذي يتمتعون بذهن قوي مثله (سيويل 2009، 45). وأضاف أوفينين أنه يكره المسيحية وغيرها من "الأديان المستعبدة "، وفي المقابل كان يفضل "علم التطور" (مصدر مجهول 2007، 1).

فكر اوفينن بعناية من خلال التبعات الفلسفية لحجة داروين، وخلص إلى أن البشر، مثل كافة الحيوانات الأخرى، ليس لديهم قيمة خاصة لأن إلتطور قد أثبت أن الحياة كانت دون غرض أو معنى على المدى الطويل، بل كانت ببساطة نتيجة السبب والنتيجة. عملية طويلة من البقاء للأصلح (سيويل 2009، 45) كما كتب: "أنا وجودي ساخر"، و"داروين اجتماعي" و"ملحد"، مضيفًا أن "الحياة هي مجرد مصادفة لا معنى لها" "نتيجة عملية طويلة من التطور والكثير من العوامل والأسباب والآثار"، و"لا توجد قوانين عالمية أخرى من قوانين الطبيعة وقوانين الفيزياء".

وأضاف قائلًا: التطور هو نظرية وحقيقة على حد سواء، وعملية الخلق ليست

واحدة الأشخاصالمتدينون وآلهتك لا شيء ولا توجد إلا في رؤوسكم. أخلاقك لا تعني شيئًا.... الحياة البشرية ليست مقدسة. البشر هم مجرد نوع من الحيوانات الأخرى، والعالم لا يوجد فقط للبشر. الموت [والقتل] ليس مأساة، إنه يحدث في الطبيعة طوال الوقت.... ليست كل الأرواح البشرية هامة أو تستحق البقاء. (أوفينن 2007).

وأردف قائلًا: يجب أن يظل الأفراد المتفوقين (الأذكياء وذوي الوعي الذاتي والعقل القوي) على قيد الحياة، بينما يجب أن يهلك الأفراد الأقل شأنًا (الأغبياء والمتخلفين، وضعيفي الذهن). اليوم أصبحت عملية الانتقاء الطبيعي مضللة تمامًا. لقد عُكست... إن الجنس البشري الحديث لم يخن أسلافه فحسب، بل الأجيال القادمة كذلك. حان الوقت لوضع "الانتقاء الطبيعي" و"البقاء على قيد الحياة للأصلح على المسار الصحيح (أوفينن 2007).

استنتج أوفينن أنه "تطور خطوة أعلى" عن غالبيتنا. كانت حجته أن أفعاله ستؤدي إلى قيام المجتمع بدور الداروينية الاجتماعية بجدية أكبر. وشدد أوفينن على أن الأفلام والتليفزيون وألعاب الكمبيوتر والموسيقى لم تكن مصدر دوافعه لقتل أولئك الذين يحكم عليهم بالدونية ، بل كان الدافع له هو الداروينية (سيويل 2009,46)

علاوة على ذلك، اختار ضحاياه بعناية، " في محاولة للتخلص من أولئك الذين كانوا من وجهة نظره غير لائقين" (سيويل 2009,46). بالنسبة لبعضنا غير المشبعين بالأفكار الداروينية، فإننا ننظر إليه كمضطرب عقليًا، أو على أقل تقدير شابًا شريرًا مضللًا. كان يريد التسبب في إراقة الدماء إلى أقصى حد، وكان معه 500 خرطوشة واستخدم ما مجموعه 69 من علب الخرطوش (مصدر مجهول 2007). إن كلماته كما

طُبعت في بيانه الخاص بالانتقاء الطبيعي، كالتالي:

كيف تحول الانتقاء الطبيعي إلى اختيار أيديولوجي؟ اليوم عملية الانتقاء الطبيعي مضللة تمامًا، لقد عُكست. فقد انحدر الجنس البشري قبل وقت طويل من الآن. إن الأشخاص المتخلفين والأغبياء الضعفاء يتم استيلادهم أكثر وأسرع من الأشخاص الأذكياء ذوي العقول القوية. وتحمي القوانين الغالبية المتخلفة التي تختار قادة المجتمع. والجنس البشري الحديث لم يخن أسلافه فحسب، بل الأجيال القادمة كذلك. الإنسان العاقل، صحيح! هو أشبه بالإنسان الأبله بالنسبة لي! عندما أنظر إلى الأشخاص، أرى كل يوم في المجتمع والمدرسة وفي كل مكان... ولا أستطيع أن أقول إنني أنتمي إلى العرق ذاته مثل الجنس البشري الحقير والبائس والمتكبر والأناني! لا! لقد ارتقيت خطوة واحدة للأمام!

البشر هم مجرد نوع من الحيوانات الأخرى، والعالم لم يوجد فقط للبشر. الموت والقتل ليس مأساة، إنه يحدث في الطبيعة طوال الوقت بين كافة الأنواع. ليست كل الأرواح البشرية هامة أو تستحق البقاء. يجب على الأفراد المتفوقين (الأذكياء وذوي الوعي الذاتي، والعقل القوي) البقاء على قيد الحياة في حين يجب أن يهلك (الأغبياء والمتخلفين وضعيفي العقل).

يوجد كذلك حل آخر للمشكلة: الأشخاص الأغبياء يعيشون كالعبيد والأذكياء يكونون أحرارًا....، هم الذين لديهم عقول حرة، وقادرون على التفكير الوجودي والفلسفي الذكي ويعرفون ما هي العدالة، يجب أن يكونوا أحرارًا وحكامًا... والجماهير الروبوتية، يمكن أن يكونوا عبيدًا لأنهم لا يمانعون ذلك الآن، ولأن عقولهم على مستوى متخلف للغاية. وبالطبع سيحصل أفراد العصابات الذين يحكمون المجتمعات الآن على

ما يستحقونه (ثقافة غريبة، 2007).

واختتم قائلًا: " إن الحياة مجرد مصادفة لا معنى لها... نتيجة لعملية طويلة من التطور والعديد من العوامل والأسباب والتأثيرات ''(ثقافة غريبة، 2007)

القتلة الكولومبين – الذين وصفهم سيويل بأنهم " اثنين من هواة الداروينية الاجتماعية" – قاموا بحجج مماثلة مثل التي قام بها أوفينين (سيويل 2009،47)، وقع إطلاق النار في المدرسة في 20 أبريل 1999، في مدرسة كولومبين الثانوية في كولومبين، وهي منطقة غير مدمجة في مقاطعة جيفرسون، كولورادو. شرع طالبان كبيران، وهما ايريك هاريس وديلان كليبولد، في إطلاق نار، مما أسفر عن مقتل 12 طالبًا ومعلمًا ، وإصابة 21 آخرين بشكل مباشر وثلاثة آخرين أثناء محاولتهم الفرار، ثم انتحر الطالبان.

ارتدى "إيريك هاريس" قميصًا مكتوب عليه "الانتقاء الطبيعي" في يوم المجزرة التي أُرتكبت في مدرسة كولومبين الثانوية، وأدلى كل من القتلة بملاحظات على شريط فيديو عن المساعدة في الانتقاء الطبيعي عبر القضاء على الضعفاء بين البشر. كما أنهم أشاروا بشكل متكرر إلى التطور، كل ذلك تجاهلته الصحافة (سيويل 2007).

مثال آخر هو جيمس جاي لي، 43 عاما، الذي سلح نفسه بمسدس وقنابل واحتجز ثلاثة رهائن، واثنين من الموظفين، وحارس أمن في مبنى قناة ديسكفري في ولاية ماريلاند. وشملت مطالبه "يجب علي قناة ديسكفري والقنوات التابعة لها بأن يكون لهم برامج تليفزيون يومية في وقت الذروة... [يضم] كبار العلماء الذين يفهمون ويوافقون على علم مالتوس – داروين "[1].. وطالب الشبكة" بتطوير عروض تشير إلى

(1) إشارة إلى فكر توماس مالتوس والذي كان يدعو إلى أن أنظمة الحكم ليست هي المسؤولة عن البؤس والظلم، وإنما =

العلوم المالتوسية حول كيفية إنتاج الغذاء الذي يؤدي إلى الزيادة السكانية من الجنس البشري. وتحدث عن التطور، وعن مالتوس و داروين حتى يتشبع بها عقول الأشخاص الأغبياء! "(برومفيلد و ميلر 2010).

أطلقت الشرطة النار عليه عندما حاول بتعمد قتل أحد الرهائن. وبينما كان الرهائن مستعدين لمنعه، سمع الضباط الذين كانوا يتنقلون صوتًا ظنوا أنه قد يكون إطلاق نار أو انفجار قنبلة. وردًا على ذلك، أطلقوا النار على **لي** وأردوه قتيلًا، منهيًا بذلك الدراما التي استمرت لما يقرب من أربع ساعات. وكانت قنابل **لي** قنابل أنبوبية محلية الصنع، وقد انفجرت واحدة منها عندما أُطلق عليه الرصاص، وكانت عبارة عن عبوات بروبان تحتوي على قذائف طلقات نارية. وقد عثرت السلطات على أربعة أجهزة مشابهة وقاموا بتفجيرها.

أمضى الرهائن الثلاثة غالبية الوقت ملقيين علي الأرض خلال المواجهة، ولم يقم **لي** إلا بالحديث معهم بشكل متقطع، لكنه قال: "أنا لا أهتم بهؤلاء الأشخاص"، موضحًا أن هدفه في الحصول على الشبكة كان لإظهار أن المزيد من المواد الداروينية

---

=

تقع المسؤولية على الطبيعة ذاتها. فقد لاحظ مالتوس تزايد كل من السكان والموارد الغذائية مع مرور الزمن، ولكنهما لا يتزايدان بنفس المعدل. ويؤدي هذا الإختلال في معدل الزيادة إلى ظهور المظالم الإجتماعية. ولإبراز فكرته، عمد مالتوس إلى تشبيه زيادة السكان بمتوالية هندسية في حين أن زيادة المواد الغذائية تكون في شكل متوالية عددية. وأشار مالتوس إلى أن السكان قادرون على المضاعفة مرة كل 25 عاماً إذا لم تقم عقبات تحول دون ذلك. أما الإنتاج الزراعي فإنه لا يستطيع مواكبة هذه الزيادة. ويؤدي الإختلال بين الزيادة في السكان والزيادة في المواد الغذائية إلى ضرورة تدخل عوامل خارجية من شأنها إعادة التوازن بين نمو السكان ونمو المواد الغذائية. وقد بين مالتوس في أول الأمر أن هذه العوامل تتكون مما أسماه بالموانع الإيجابية مثل الحروب والمجاعات والأوبئة والأمراض.( الناشر)

أكثر أهمية. وقال قائد شرطة مقاطعة مونتجمري توماس مانجر إن لي لم يتوقع الخروج على قيد الحياة، "وأخبرنا عدة مرات على مدار ساعات أنه مستعد للموت" (برومفيلد وميلر 2010).

وهناك مثال آخر إنها قضية القاتل المتسلسل جيفري دامر. في مقابلة مع ستون فيليبس على ديتلاين ان بي سي- NBC ، التي بثت في 29 نوفمبر 1994، قال دامر إنه إذا كان الشخص لا يؤمن أن هناك إلهًا يتحمل المسؤولية أمامه، فما فائدة محاولة تعديل سلوكك ليكون في حدود النطاقات المقبولة؟ هذا هو ما فكرت فيهعلى أية حال. كنت دائمًا أؤمن بنظرية التطور كحقيقة، لأننا جميعًا خلقنا من الطين. تعلمون أننا عندما نموت فلا يوجد شيء، وهذا هو الحال، ومنذ ذلك الحين أعتقد أن المسيح هو حقًا الله، وأعتقد أني وكل شخص آخر سنكون مسؤولين أمامه (مقتبس من راتكليف 2006، 55).

قام القس راتكليف، ماديسون، ولاية ويسكونسن، كنيسة كريست مينستر، بتأليف كتاب عن دامر بعد أن أعلن إيمانه بالمسيحية. وتجدر الإشارة إلى أنه تم ازالة هذا المقطع من نسخة اسطوانة الفيديو الرقمية للمقابلة (فيليبس 2006).

تُظهِر هذه الأمثلة القليلة الحديثة مدى سهولة أن تؤدي كتابات داروين، أو على الأقل تأثيرها إلى إتباع طرق التفكير والتصرفات المضطربة للغاية. إن استخدام الإجهاض لتحسين تناسل البشر والبرامج الحكومية للقرارات الطبية المستندة إلى علم تحسين النسل الحديث هي أمثلة أخرى معاصرة (بيرغمان 2008). لا يشعر غالبيتنا بالراحة في حالة ترك هذه الأحكام للعلماء أو السياسيين.

أحد الأمثلة على الإجهاض المستخدم لاستيلاد أطفال "أصحاء" هو امرأة أجهضت أول طفلين لها بسبب إظهار الموجات الصوتية أن لكل منهما إصبعًا إضافيًا. وعلم طبيب الحالة لاحقاً أن الأم قد وُلدت بالحالة ذاتها، والتي كانت في حالتنا تعالج بفعالية من خلال عملية بسيطة إلى حد ما. ومع ذلك ذكر الطبيب أنها اختارت إجهاض طفلين ورثوا عيبها الطفيف، وهو عيب يتسبب في بعض العواقب الوخيمة (إن وجدت) (سيويل 2009).

سلوك هؤلاء من أمثال بيكا - إيريك أوفينن وجيمس لي وإريك هاريس وجيفري دامر، وإن كان على نطاق ضيق، لا يختلف عن المواقف التي كانت شائعة في ألمانيا النازية. إن الإنفجار في علم النفس التطوري، الذي يحاول وصف كل سلوك إنساني على حدا، بما في ذلك الدين والتهميش الجنسي والمصالح المهنية وأخلاقيات العمل كما هو محدد جينياً، هي أمثلة حديثة أخرى.

لقد تسببت الداروينية في تجريد البشر من الإنسانية على نطاق واسع. لقد ضللتنا الداروينية في الماضي، وما زالت تفعل ذلك اليوم - ومن المرجح أن تستمر في فعل ذلك في المستقبل القريب نتيجة لثورات الوراثة والقدرة على اختيار ما يسمى بالأطفال "الأصح" من خلال تقنيات مثل تسلسل الحمض النووي للإخصاب في المختبر. ويجادل بعض الأشخاص بشكل صحيح للدفاع عن داروين بأنه يمكن إساءة استخدام أي شيء - الجنس والمأكل والدين والوقت والنشوء والمال. في حالة الداروينية، كانت الانتهاكات في كثير من الأحيان تطبيقًا مباشرًا ومنطقيًا لنظرة العالم الداروينية للبقاء للأصلح.

# المراجع


- Anonymous. 2007. Finland Gunman Suicide Note Found. http://news.bbc.co.uk/2/hi/
- europe/7085329.stm accessed April 18, 2012.
- Auvinen, Pekka-Eric. 2007. The Pekka Eric Auvinen Manifesto. http://oddculture.com/oddcrime/
- the-pekka-eric-auvinen-manifesto/ accessed April 18, 2012.
- Aziz, Philippe. 1976. Doctors of Death. Vol 4, In the Beginning was the Master Race. Geneva: Ferni
- Publishers.
- Barrett, David, George Kurian, and Todd Johnson. 2001. World Christian Encyclopedia. New
- York: Oxford University Press.
- BBC News. 2007. Finland Gunman Suicide Note Found. http://news.bbc.co.uk/2/hi/
- europe/7085329.stm accessed April 18, 2012.
- Bergman, Jerry. 2008. Birth Control Leader Margaret Sanger: Darwinist, Racist and Eugenicist.
- Journal of Creation 22(3):62–67.

- ———. 2012. Hitler and the Nazis Darwinian Worldview: How the Nazis Eugenic Crusade for a
- Superior Race Caused the Greatest Holocaust in World History. Kitchener, Ontario, Canada:
- Joshua Press.
- Burleigh, Michael. 1999, in Ferguson, 1999. Virtual History: Alternatives and Counterfactuals.
- New York, NY: Basic Books, ch. 6, Nazi Europe: What if Nazi Germany Had Defeated the
- Soviet Union.
- Brumfield, Sarah, and Kathleen Miller. 2010. Police: Discovery Channel Hostages Planned
- Escape. http://news.yahoo.com/s/ap/us_discovery_channel_gunman. September 2,
- accessed April 18, 2012.
- Cohn, Norman. 1967. Warrant for Genocide. New York: Harper and Row.
- Dennett, Daniel. 1995. Darwin's Dangerous Idea: Evolution and the Meanings of Life. New York,

- NY: Simon and Schuster.
- Derbyshire, John. 2010. Remarks at a Panel Discussion. University of Pennsylvania Law School,
- April 5, 2010. http://www.johnderbyshire.com/Opinions/HumanSciences/upennlaw.htm
- accessed April 18, 2012.
- Ferguson, Niall. 1999. Introduction to Virtual History: Alternatives and Counterfactuals. New
- York, NY: Basic Books.
- Gaudian, Martin C. 2010. Memories of Dachau Concentration Camp Experience — May 1945.
- Unpublished manuscript. 12/9/2010.
- Geyer, Michael, and Sheila Fitzpatrick. 2009. Beyond Totalitarianism: Stalinism and Nazism Compared.
- Cambridge, NY: Cambridge University Press.
- Glad, John. 2011. Jewish Eugenics. Washington, DC: Wooden Shore Publishers.
- Gould, Stephen Jay. 1977. Ontogeny and Phylogeny. Cambridge, MA: Harvard University Press.

- Jones, J. Sydney. 2002. Hitler in Vienna, 1907–1913: Clues to the Future. New York: Cooper
- Square Press.
- Odd Culture. 2007. Deadly Finnish School Shooting Pekka-Eric Auvinen Goes On Rampage.
- http://oddculture.com/odd-crime/deadly-finnish-school-shooting/, accessed April 18, 2012.
- Nyiszli, Miklos. 2011. Auschwitz: A Doctor's Eyewitness Account. New York: Arcade Publishing.
- Phillips, Stone. 2006. Inside Evil: Serial Killers Jeffrey Dahmer & Son of Sam. New York: NBC
- News. This is the edited DVD version of the show aired on November 29, 1994.
- Piotrowski, Tadeusz. 1998. Poland's Holocaust: Ethnic Strife, Collaboration with Occupying Forces
- and Genocide in the Second Republic, 1918–1947. Jefferson, NC: McFarland & Company.
- Ratcliff, Roy, with Lindy Adams. 2006. Dark Journey Deep Grace. Abilene, TX: Leafwood Publishers.

- Sebastian, Sharon, and Raymond Bohlin, 2009. Darwin's Racists. Yesterday, Today and Tomorrow.
- College Station, TX: VBW Publishing.
- Sewell, Dennis. 2009. The Political Gene: How Darwin's Ideas Changed Politics. London: Picador.
- Thornhill, Randy, and Craig T. Palmer. 2000. A Natural History of Rape: Biological Bases of Sexual
- Coercion. Cambridge, MA: The MIT Press.
- Williams, David. 2007. YouTube Massacre: Schoolboy Gunman Posts Threat on the Internet
- Then Kills Eight. http://www.dailymail.co.uk/news/article-492268/YouTube-massacre-
- Schoolboy-gunman-posts-threat-internet-kills-eight.html, accessed April 18, 2012, and
- http://www.dailymail.co.uk/news/article-492268/YouTube-massacre-Schoolboy-gunmanposts-
- threat-internet-kills-eight.html#ixzz1OB9Arehw, accessed April 18, 2012.

# الفصل الثاني

## أصول العنصرية البيولوجية

لم تكن العنصرية البيولوجية موجودة كما نعرفها اليوم في غالبية التاريخ. العنصرية ظهرت حديثًا بشكل مفاجئ مواز لصعود الفكر التطوري. يمكن إرجاعها إلى عصر النهضة، ليس قبل ذلك. يوثق هذا الفصل أهمية الداروينية في إنتاج مفهوم الجنس البيولوجي، جنبًا إلى جنب مع العنصرية والفتنة التي ازدهرت في أميركا وأماكن أخرى خلال القرنين الماضيين. إذا كانت كافة الأجناس تتناسب بالقدر ذاته، كما هو الحال في الواقع، فإن التطور لا يمكن أن يحدث. ذلك لأنه إذا تمكن جنس ما من النجاة، أو لم ينجو، فذلك يعتمد على الصدفة، وليس على التفوق العرقي المزعوم. فالعرق ليس بيولوجيًا، بل مفهومًا اجتماعيًا.

## تاريخ قصير من العنصرية البيولوجية

كان أصل الحضارة الغربية (والعديد من الحضارات الحديثة الأخرى) في أراضي الشرق الأوسط والبحر الأبيض المتوسط - وهي منطقة في العالم ما زالت بشكل ما تشبه ما كانت عليه منذ آلاف السنين -: حيث كانت موطنًا لأرسطو وأفلاطون وموسى والمسيح، وهذا الجزء من العالم خلق الأساس الفلسفي والثقافي والديني والعلمي لعالمنا المعاصر. إننا محظوظون لحصولنا على قدر كبير نسبيًا من الكتابات التي تنسب لهؤلاء الذين عاشوا في هذه المنطقة قبل ظهور المسيح بعدة قرون. ومن هذا يمكننا التأكد من أن جموع الأشخاص الذين عاشوا في الشرق الأوسط قبل المسيح كانوا مزيج من المجموعات العرقية.

وكان من بين هؤلاء عدد كبير من محيط أفريقيا. وكانت القارة الأفريقية في الزاوية الجنوبية الغربية من العالم الشرق الأوسطي ووجد فيها العديد من الأفارقة السود الذين لعبوا في النهاية دورًا بارزًا في تشكيل ما نعرفه اليوم في القرن الواحد والعشرين كمجتمعنا. ومع ذلك، يمكننا فقط أن نخمن إذا كان شخص معين من أصل أفريقي. فإذا قيل إن أحدهم من أثيوبيا فيمكننا أن نخمن ذلك ونحن أكثر ثقة، ولكن وفقا للسجل التاريخي، فغالبا لايوجد سوى تلميحات غير مباشرة للعرق البيولوجي لشخص ما (هوللر 1971). والسبب في ذلك بسيط للغاية: فعلى مدار تاريخ البشرية لون البشرة لم يكن له أي صلة بمناقشات البشر فضلًا عن لون العينين والشعر.

قد يشير التاريخ أحيانًا إلى أن شخصًا ما أعسر، ولديه شعر كثير في الجسم، ويمتلك بشرة بنية اللون، ولكن هذه الحالة عادة ما تكون فقط إذا كانت هذه المعلومات ذات صلة بالوضع الذي يُناقش الآن، ونادراً ما تؤخذ هذه السمات في الاعتبار. ويكمن السبب في عدم ذكر السمات الجسدية في أنه لم يصنف الأشخاص على مر التاريخ بالسمات البيولوجية "العرقية" ولكن وفقًا للثقافة أو اللغة أو الدين أو غير ذلك من العوامل غير العرقية. المدينة التي عاش فيها الإنسان كانت هامة للغاية كذلك أهمية خلفيته القبلية، على سبيل المثال من أي قبيلة من ال 12 قبيلة الاسرائيلة يكون؟ لكن "العرق" البيولوجي لم يكن هامًا. لم يكن حتى جزء من وعى الأشخاص.

كان لون البشرة ضئيل الأهمية في غالبية أنحاء العالم على مدار التاريخ المسجل. أحد الأسباب – وهو ينطبق على الشرق الأوسط –: هو أن غالبية الأشخاص هناك كانت لهم بشرة بنية زيتونية بشكل طبيعي، ويرجع ذلك بنسبة ما إلى التزاوج بين

مختلف الشعوب هناك على المدى البعيد. في الواقع، غالبية الأشخاص غير الشرقيين في العالم آنذاك كان لديهم بشرة بنية (كوتاك 2004). غالبية الأشخاص في ذلك الوقت قضوا ساعات طويلة في الشمس مما أدى إلى تصبغ بشرتهم لدرجة طغت على اللون الموروث. في البرتغال (وغالبية البلدان الأخرى في تلك المنطقة من العالم)، كان (ولا يزال موجودًا لليوم) صعوبة في التمييز بين أجناس البشر الذين يعيشون هناك.

## أصول العنصرية البيولوجية

وعلاوة على ذلك فهناك توجه عالمي ينص على أنه كلما اقترب الأشخاص من خط الاستواء كلما كان لون بشرتهم أكثر قتامة. وكلما بعد الأشخاص للعيش في الشمال، من المرجح أن تكون بشرتهم أفتح. إن أكثر الأشخاص من ذوي البشرة الشقراء هم الأوروبيين الشماليين (خاصةً الإسكندنافيين والألمان الشماليين)، في حين أن الأوروبيين الأكثر قتامة هم أولئك الذين يعيشون في الجنوب.

وينطبق الشيء ذاته على أفريقيا، حيث لون البشرة والسمات العرقية الأخرى للأفارقة تتفاوت اليوم بشكل كبير. وكثيراً ما يكون لدى الأميركان رؤية خاطئة عن لون البشرة ويرجع ذلك جزئياً إلى أن غالبية الأمريكيين الأفارقة جاءوا في الأساس من غرب وسط أفريقيا بالقرب من خط الاستواء، في حين أن غالبية البيض هاجروا من شمال أوروبا. ونتيجة لذلك، عاش هذان اللونان الأكثر تفاوتًا في العالم جنبًا إلى جنب في أميركا لعقود من الزمان.

كان من الملائم أن يأتي المسيح والحواريون من هذا الجزء من العالم، حيث لا يمكن تصنيفهم بدقة إن كانوا بيضًا أو سودًا، لأن شعوب الشرق الأوسط عمومًا لديهم لون

البشرة البني الزيتوني (لون في الوسط) وشعر قاتم اللون غالبًا أسود. صحيح أن العديد من اليهود في إسرائيل اليوم لديهم بشرة بيضاء للغاية، ولكن هذا يرجع جزئياً إلى أن العديد من المجموعات الفاتحة اللون هاجرت إلى إسرائيل من دول مثل روسيا.

## بداية فكرة "العرق البيولوجي"

اعتقد أغلب الأشخاص في كلا العالمين الغربي والعالم اليهودي المسيحي المسلم - وحتى تقريبا وقت داروين - أن كل الرجال والنساء كانوا من نسل آدم وحواء، وهي وجهة نظر تسمى أحادية النسل، وهكذا، كان كافة البشر إخوة وأخوات حرفياً (هام وآخرون 1999 وجونسون 2000) وبالتالي فإن أكثر ما يمكن أن يقال هو إنه يمكن لفرع واحد من العائلة أن يكون بشعر مموج وفرع آخر بشرته أفتح وآخر لديه ملامح وجه معينة.

ولاتعني الاختلافات أكثر مما كما لو كان بعض الأعضاء من نسل عائلة كبيرة اليوم لديهم شعر أحمر، وهي سمة غالباً ما يعلقون عليها بالقول مثلا "الابنة الصغيرة لديها شعر جدتها الأحمر". لم يخطر مفهوم "العرق" كما نفكر فيه اليوم ببال الإنسان حتى وقت الثورة العلمية في القرن السادس عشر وزاد انتشار هذا الفكر بشكل ملحوظ بعد داروين. فقد قال البروفيسور جولد، "ربما كانت المناقشات البيولوجية للعنصرية شائعة قبل عام 1859، لكنها زادت أكثر بعد قبول نظرية التطور" (1977، 127).

قديمًا كان الناس يميلون إلى افتراض أنهم أفضل من أولئك الذين كانوا مختلفين ثقافياً عنهم، لكن غالبية أفكار الدونية العرقية البيولوجية حديثة العهد نوعاً ما. وعلى الرغم من أن بعض الأفراد قد طوروا أفكارًا مبتكرة لتبرير استنتاج أن السود كانوا أقل شأنًا، مثل أن الله خلقهم كعرق مستقل (جادل البعض بأن "وحوش الأرض" التي وردت في

سفر التكوين كانت تشير إلى العرق الأسود) هذا الرأي لم يكن ذو أهمية كبيرة قديمًا في اللاهوت المسيحي - البروتستانتية أو الكاثوليكية أو الأرثوذكسية (هاسكارل 1898، هول 1977، إشيروود 2000، إفولا 1970) كما عبر عن رأيه بروكتور: "كان من الصعب قبل داروين المناقشة ضد المفهوم اليهودي المسيحي لوحدة الإنسان وذلك على أساس الخلق الوحيد لآدم وحواء. وتقترح نظرية داروين أن البشر قد تطوروا على مدى مئات الآف والملايين من السنين وأن أجناس البشر قد تباينت أثناء تكيفهم مع الظروف المحلية المحددة. لقد كان تأثير نظرية داروين هائلاً (1988، 14)."

حتى ظهور القبول الواسع النطاق للتطور؛ كان التبرير الديني الوحيد للعنصرية هو الاعتقاد بأن الله لعن بعض الجماعات أو خلق أناسًا آخرين أقل شأناً قبل أن يخلق آدم – وجهة نظر تسمى الأصول المتعددة. بعض أنصار التطور أدانوا ما يسمى بالمزج العرقي القائم مبررين ذلك بمعتقد الأصول المتعددة وهو أن الجنس الأبيض ينحدر من قرود الشمبانزي والسود من الغوريلا والشرقيين من إنسان الغاب (كروكشانك 1924، 1931).

ويمكن تحديد هذه الأجناس الدنيا من خلال السمات المادية مثل لون البشرة. أكد آخرون أن بعض المجموعات تدهورت بيولوجياً أكثر من غيرها، لكنها لا تزال من أشقائنا. وكما في ملاحظات جولد: "كل العلماء تقريبًا كانوا من مناصري نظرية الخلق قبل عام 1859، ومعظمهم لم يتحول لنظرية الأصول المتعددة" (1996، 75). وقد استنتج كلا من البروفيسور وول بانك والبروفيسور تايلور ذلك.

أدت الداروينية إلى العنصرية ومعاداة السامية، وكانت تستخدم لتظهر أن الجنسيات والأعراق "المتفوقة" فقط هي من كانت صالحة للبقاء. وهكذا، كان من بين الشعوب

الناطقة باللغة الإنكليزية من حُمّل" عبء الرجل الأبيض "، وهي مهمة إمبراطورية قام بها الانجلوسكسونيين[1]..... وبالمثل، كان الروس يبشرون بعقيدة القومية السلافية والألمان بالقومية الألمانية (1961، 361- المجلد رقم 2).

كان أحد أوائل الخارجين عن نموذج الأسرة البشرية كما ورد في سفر التكوين هو تصنيف لينيوس للإنسان في نظام تمت تسميته ذي الحدين مثل الإنسان العاقل والأنسان الشاذ والإنسان المتوحش (فيدلر 1978، 240). وقد استنتج فيدلر أن في تصنيف لينيوس كان "افتراض وجود نظام هرمي، والذي يبدأ بـ" الرجل مشهوه الخلقة" ثم يتصاعد إلى" الرجل الوحشي "، ويستمر في الصعود مرورًا بالرجل الأسود والبني والأصفر والأحمر إلى أن يصل إلى الذروة عند الأوروبيين البيض. وكانت النتيجة نظامًا تصنيفيًا ساهم في نشأة "أسطورة العرق" التي لاحقا بلغت ذروتها مع الداروينية الاجتماعية عبر العنصرية البيولوجية (فيدلر 1978، 240).

أحد تلاميذ لينيوس - يدعى فابنكوس - حاول تفسير أن "دونية الزنوج" كانت نتيجة "التزاوج بين البشر والقرود (السياميين).... من ناحية أخرى فإن مزيدًا من التزاوج بين السود والبيض - وهذا يعني تهجين من الدرجة الثانية - أنتج - وفقا لعلم الانسان في القرن التاسع عشر - خلاسيين[2]. وهم نسل عقيم مثل ما ينتج من تزاوج الخيول والحمير" (فيدلر 1978، 240).

---

(1) الانجلوسكسونيون: هم القبائل الجرمانية التي غزت وسكنت بريطانيا في القرنين الخامس والسادس. هم قبائل الأنغلز، والسكسون، واليوت. موطنهم الأصلي ألمانيا وهولندا والدنمارك. استُخدم هذا المصطلح للتفريق بين الغزاة والسكان الأصليين لبيريطانيا ما قبل مجيئهم ( الناشر ).

(2) :الخلاسيين: يقال : وَلَدٌ خلاَسِيّ وهو من وُلِدَ بيْنَ أبويْنِ أبيَضَ وأَسْوَد (المعجم الوسيط) — الناشر

وقد ساهم مفكر آخر بمساهمة كبيرة في المفهوم الحديث للعرق يدعى فولتير. في أواخر القرن السابع عشر، قال إن "الرجل الأبيض بالنسبة للرجل الأسود مثلم الأسود للقرد" (مقتبس في فيدلر 1978، 240). واستنتج فيدلر أن: "مثل هذه الأساطير العنصرية لم تلعب دورا رئيسيا في تصور [العنصريين الجدد] لغير الأوروبيين بواسطة الأوروبيين حتى انتصار نظرية التطور العضوي في كتاب داروين "أصل الأنواع عن طريق الحفاظ على الأعراق المفضلة في صراعها من أجل الحياة" وامتداده قياسًا إلى الأنثروبولوجيا التنموية المبكرة. أوضح داروين أنه دون الانحراف والتكيف و"البقاء للأصلح" فإن التطور لن يحدث أبداً (فيدلر 1978، 240). لقد فهم أكثر قراء داروين الأوائل بأنه استنتج أن الصراع من أجل البقاء لا يتوقف عند انتقال الإنسان من المستوى البيولوجي إلى المستوى الاجتماعي أو الثقافي. هذا الثاني "ارتقاء الإنسان" في علم الأنثروبولوجيا الحديث قد نقل الإنسان من "البدائية" أو "الوحشية" إلى "الحضارة"، ومن ثقافة دون أبجدية أو عجلة إلى ثقافة يوجد فيها صحافة وتقنيات متقدمة، باختصار؛ من حياة "بغيضة وبهيمية وقصيرة" بالكاد تُعاش في غالبية أنحاء العا لم إلى النوع المستمتع به في أوروبا (فيدلر 1978، 240-241).

واستنتج فيدلر أن نظرية العنصرية البيولوجية الجديدة كانت مشتركة بين "داروين وماركس ومؤسسي الأنثروبولوجيا الحديثة". وقد أصبحت هذه العنصرية البيولوجية أكثر شيوعًا بعد عام 1859، وقد صُورت بوحشية في رواية "ليوبارد سبوتس" أصدرها توماس ديكسون جونيور. ونشرت عام 1902، واستخدمت في عام 1915 في فيلم جريفيث العظيم "ولادة أمة"، والذي يمثل قصة رومانسية عن عبءالرجل الأبيض - 1865-

1900 وفقًا لعنوانه الفرعي، يسعى الفيلم لتبرير سلوك كو كلوكس كلان في مشهده العظيم حيث يقول الأب الأبيض :إلى "الخلاسي" المتعلم في هارفارد الذي طلب يد ابنته، "لقد أدركت حقيقة هامة وهي أن رجلاً أو امرأة من أصل زنجي، على الرغم من مرور قرن، سيتكاثرون فجأة وينتجوا طفل زنجي خالص وجلده سميك وذو رأس غريب وبأنف مسطحة وذو بشرة سوداء. ويمكن لقطرة واحدة من دمك في عائلتي أن تدفعنا إلى الخلف ثلاثة آلاف سنة "(فيدلر 1978، 241-242). و على العكس من ذلك، فقد نصّت تعاليم المسيحية [ وجميع الديانات السماوية] (وهو ما اعتقده غالبية العالم الغربي على مدار التاريخ) على أنه بغض النظر عن السمات الجسدية التي يمتلكها الشخص، فهو أو هي لا يزال جزءًا من الأسرة البشرية الواحدة (هام وآخرون 1999). وبالقدر ذاته من الأهمية، نصّت الأديان كذلك على أن قيمة الشخص يحددها مافي قلبه[ وما يقوم به من أعمال] ولذا فإنّ السمات الجسدية لأفراد العائلة لا تقوم بتقسيمها، ولكن يمكن للصفات السلوكية أن تفعل ذلك أحيانًا.

حتى أثناء التطور المبكر لأميركا - على الرغم من وجود صراعات واضحة بسبب الجنسية والمنافسة والاختلافات اللغوية - كان من النادر وجود انقسامات بسبب "العرق". عاش عدد كبير من السود في الولايات المتحدة في بداياتها. في عام 1800، تم احصاء حوالي 20٪ من السكان على أنهم "زنوج"، وبدأنا الآن فقط في إدراك المساهمة الهامة التي قدموها في التاريخ الأمريكي المبكر.

كان كريسبس أتوكس من أحد الرجال الأوائل الذين ماتوا في الحرب الثورية الأمريكية وهو رجل أسود — وهي حقيقة نادرًا ما كانت تذكر لسنوات عديدة على

الأقل من قبل الشماليين - والسبب في ذلك أن لون بشرته لم يكن أكثر أهمية من سماته البدنية الأخرى، لكن ما فعله هو ما كان جديرا بالاهتمام. وطبعا لم يكن الوضع كذلك في الولايات الجنوبية.

وتكمن صعوبة معرفة لون بشرة الشخصيات التاريخية الهامة في حقيقة أن لون البشرة لم يكن معتبرًا في أغلب الأحيان وبالتالي نادرا ما يُذكر. حتى بالنسبة للأشخاص الذين نعرف عنهم الكثير فلا نعرف كثيرًا عن السمات التي تساعدنا في تصنيفهم وفقًا للانقسامات البيولوجية "العنصرية" الحالية. توجد بعض الأدلة على أن مجموعة متنوعة من الأشخاص المعروفين قد يكون لديهم ما نعده اليوم صفات زنجية مثل هانيبال[1] وغريمالدي[2] وشيوبوس (تبرز شهرته بسبب النصب التذكاري هرم شيوبيس العظيم، والذي يعد واحدًا من عجائب الدنيا السبع في العالم القديم) وربما حتى موسى وغيرهم.ومن الواضح أن العيلاميين (وربما بعض الفرس والفينيقيين) كان لديهم بعض سمات "الزنوج." ويتضح بشكل خاص من خلال اللوحات التاريخية والتماثيل أن الأشخاص الذين لديهم سمات "زنجية" موجودون في مراكز أصول الثقافة الغربية. ولعل أشهر مثال على ذلك هو تمثال أبو الهول في مصر. لا أحد يعرف على وجه اليقين

---

(1) حنبل بن حملقار برقا شهرته حنا بعل أو هانيبال. هو قائد عسكري قرطاجي من عائلة بونيقية عريقة ينسب إليه اختراع العديد من التكتيكات الحربية التي ما زلات معتمدة حتى اليوم. قاد جيوش قرطاج في الحرب البونيقية الثانية واجتاز جبال الألب حتى وصل إلى حوض نهر البو بإيطاليا متفوقًا على الإمبراطورية الرومانية ( الناشر).

(2) فرانسوا غريمالدي: ما يُعرف عنه أنه استولى على قلعة موناكو يوم 8 يناير (كانون الثاني) عام 1297 إثر تغلبه على غريم إيطالي، وذلك بعد تستره بزي كاهن فرنسيسكاني وقيادته جيشا صغيرا من الأعوان نجح في احتلال القلعة باسم الولاء للكرسي البابوي. وظلت عائلة غريمالدي تحكم إمارة موناكو لسنوات ( الناشر).

السمات العرقية للعيلاميين لأنه لم يُنظر إليها على أنها ذات صلة بتاريخهم.

وفي كل العصور، كان يحدث تزاوج بين مختلف "الأجناس" والمجموعات إلى حد أن كافة البشر جاءوا من سلالة عنصرية مختلطة. عندما أخرج موسى بني إسرائيل من مصر أخذوا "خليطًا متعددًا" معهم. وبالرغم من الإسرائيليين الذين تعرضوا للتوبيخ الشديد في السجل التوارتي بسبب زواجهم من "زوجات أجنبيات" وتفسير سقوط الملك سولومون أنّه بسبب اتخاذه العديد من الزوجات أو السراري الأجنبيات [ الإماء]، فإنّه مع ذلك، لم يكن القلق أبدًا في مايخص "الاختلاط العنصري"، بل كان القلق دائمًا هو الأثر السلبي للثقافات الوثنية ومعتقداتها على بني إسرائيل.

وفي حقيقة الأمر، فقد حدث الكثير من الاختلاط العرقي على مدار التاريخ فحتى لو طُبق هذا التصنيف المفيد اليوم، فإن أعداداً كبيرة من السكان سيكونون ما كان يوصف سابقًا بـ "الخلاسيين" (روجرز 1970). فما يسمى بخلط الأعراق (التزاوج المختلط) كان شائعاً حتى في بدايات أميركا. وربما هذا مثال بارز وهو أن الرئيس الثالث للولايات المتحدة، توماس جيفرسون - أو أخوه أو أبناء أخيه - من الواضح أنه كان والدًا للعديد من الأطفال الخلاسيين (روجرز 1970، 8). كان اختلاط الأعراق موجودًا لدرجة أن بعض المؤرخين قد قدروا أن إجمالي سكان أميركا البيض اليوم هو بنسبة 5٪ من السود (ستيوارت 1973). وفي دراسة عن الزواج بين الأبيض والأسود في الولايات المتحدة في الفترة من 1864 إلى 1965، وجد "بروس" و"رومان" (1973) أنه كان مقدرًا بالآف، حتى عندما حظر القانون مثل هذا الزواج!

## لا توجد "أعراق" بيولوجية

ويؤكد استخدام ما أُقتبس فيما يخص مصطلح "العرق" في العنوان إلى حقيقة أن الأبحاث الخاصة بعلم دراسة الإنسان قد أظهرت اليوم أن العرق بالمعنى البيولوجي الدقيق، لا وجود له (كوتاك 2004). فقد لاحظ بارزون أنه: "خلافًا للرأي العام، لا توجد مجموعة من الخصائص الثابتة في البشر كعلامة مميزة ثابتة للعرق. فمن يعرفون ب"النورديين" يتميزون بالجماجم الطويلة، وكذلك يتميز بها العديد ممن يطلق عليهم الزنوج والأسكيمو والقردة الشريانية. يولد "المنغوليين" بين البيض، وكثيراً ما ظهر على الأينو[1] اليابانيون صفات تجعلهم يمكن أن يصنّفوا "نورديين" (بارزون 1965،8).

وفي دراسة واسعة النطاق للعرق، استنتج فيليب إف. توبييس من جامعة ويتواترسراند في جوهانسبرغ، جنوب أفريقيا، أنّ: "مصطلح عرق ما هو إلا مجرد ملخص للعديد من السمات الفسيولوجية والوراثية التي تثبت الاختلاف بشكل كبير وذلك بعد فحصها بدقة" (اقتبس في بلوج 1970، 196).

وحتى تحديد العرق محفوف بالمشكلات. أحد الأسباب هي أن الفرق بين "الأجناس" المختلفة للبشر صغير مقارنة بالكثير من الحيوانات (أنواع الكلاب المختلفة على سبيل المثال). إن مقارنة حتى أكثر البشر تباعدًا مثل الأستراليين الأصليين والسويديين، سيتضح أن المجموعتين متشابهتين بالنسبة لما لو قارنّا لاسا أبسو وشيواوا

(1) سكان اليابان الأصليين قبل وفود أسلاف اليابانيين من البر الصيني. يتميز الأينو بملامح ولغة وثقافة مختلفة عن مثيلتها اليابانية. ويظهر الاختلاف في الملامح الشكلية في أنّ الأينو يتميزون بأجساد أكثر طولا وضخامه من اليابانيين كما يتميزون بكثرة الشعر في أجسادهم مقارنة باليبانيين الحاليين ( الناشر).

أو الكلاب السلوقية والبيكيني[1].


صورة توضح الفرق بين السلالتين في الهيئة

يرى الناس اختلافات كبيرة بين بعض المجموعات البشرية، ولكن المقارنات الفيزيائية الموضوعية للسمات في الحيوانات (مثل أصغر وأكبر كلب) تكشف عن اختلاف أكثر مائة مرة من الموجود بين البشر - كما لو قارنّا العرق قصير القامة فإنّ متوسط الأطوال تكون حوالي أربعة أقدام والعرق الطويل فإنّ أكثرهم طولًا على الاطلاق هو فوق عشرة أقدام في المتوسط. حتى ملامح الوجه في الكلاب تختلف بشكل كبير. قارن أنف الكلاب البكيني - الذي يكاد يكون غير موجود - مع أنف الكولي الطويل، الذي يبلغ طوله ثماني مرات أو أكثر طول أنف البكيني.

إن الاختلافات بين البشر قليلة للغاية لدرجة أن البشر جميعهم "سلالة" واحدة فقط على النقيض، هناك أكثر من 206 سلالة من الكلاب. علاوة على ذلك، فإنّ الاختلافات الجسدية بين السكان الأصليين الأستراليين والأميركيين الأفارقة - مثلا - أكثر منها بين نموذج الأمريكيين الأفارقة والأمريكيين الأوروبيين.

فكرة أن هناك ثلاث "أعراق" من البشر، إنما أصّلها علماء الأنثروبولوجيا

---

(1) (لاسا أبسو) - (شيواوا) - (الكلاب السلوقية) - (البيكيني): سلالات مختلفة من الكلاب تظهر فروق كبيرة فيما بينها من حيث السمات الجسدية والسلوكية ( الناشر)

الفيزيائيين الذين اعتقدوا أنه في الأصل كان هناك مجموعات متباينة من الزنوج والقوقاز والمغول، وأن الأنواع الوسيطة التي لا تعد ولاتحصى والتي تربط الآن بين الأعراق المتباينة قد نشأت نتيجة التهجين" (لينتون 1955,21). لقد رأوا أن العديد من الأعراق المعينة، مثل "الزنوج" هم "الحلقة المفقودة" بين القردة والبشر (هاسكارل 1988).

وقد سمحت الأنواع البشرية "الوسيطة اللامعدودة" - والتي لا تتوافق مع أي من الأعراق النمطية الثلاثة - بالقبول بمفهوم الأعراق الثلاث مع الحد من تعدد الاستثناءات الموجودة. أدركنا هذه الأيام أن هذه الفكرة خاطئة - فهناك الكثير من الاستثناءات - ولايوجد دليل على وجود ثلاثة "أعراق" أو الانحدار من ثلاثة أنواع رئيسة، كما كان شائعًا (مونتاجو 1999 وويليامز 1997).

منذ قرن من الزمان، استخدم نظام الأعراق الثلاث وهو ما يسمى بالأعراق البيضاء والسوداء والصفراء. بعد ذلك أجبرت الأنثروبيولوجيا الباحثين على إضافة عدة فئات جديدة، بما في ذلك البولينيزية والهنود الحمر والإسكيمو والأستراليين الأصليين والقبيلة الأفريقية وغيرها. وبالمزيد من البحوث ثبت وجود12 عرقًا، ثم أصبحوا 18، وسرعان ما تطلب الأمر وجود 27 عرقًا مختلفًا لتصنيف كافة البشر الذين كانوا معروفين آنذاك.

في نهاية المطاف، معرفتنا التي زادت كثيراً جعلت من مفهوم العرق وسيلة غير قابلة للتطبيق لتصنيف البشر (كوتاج 2004). وكان هذا واضحا في ما قالته عالمة الأنثروبولوجيا الشهيرة روث بينيدكت: "قصة الكتاب المقدس لآدم وحواء، أب وأم كافة الجنس البشري، حكيت منذ قرون مضت... كانت تتعلق بالحقيقة ذاتها التي أظهرها العلم اليوم؛ أن كافة شعوب الأرض هم عائلة واحدة ولهم أصل مشترك" (1943، 171).

جادل بعض المسيحيين بأن الخلق من أجناس منفصلة قد حدث، ولكن: "كان هذا هجومًا على المؤمنين الذي فضلوا ما كان متوافقًا مع الزوج الأصلي التوراتي" (بريس و ليفنجستون 1999، 209). وقد وصف بارزون "العرق" بأنه "خرافة" وأضاف أنه في الماضي، دعم غالبية العلماء للأسف "التفكير العرقي". ومن الأمثلة على ذلك السير آرثر كيث، الذي قضى "قدرًا كبيرًا من وقته ومجهوده للتشديد على قيمة التعصب العرقي في الحياة الحديثة، كما حث على ضرورة الصراع بين الأعراق كوسيلة لتحسين الأنواع" من خلال البقاء للأصلح عبر التطور (بارزون 1965,5).

ويقر البروفيسور ريتشارد جولدزبي (1971) بحقيقة أن التنوع موجود بين البشر، ولكنه توصل إلى أن النظام الذي يعمل على أفضل وجه من أجل تقسيم الأشخاص إلى أعراق يستخدم سمات يمكن قياسها علميًا، فلون البشرة أسلوب شائع ولكنه ينهار عند فحص المزيد من الأشخاص. فمثلا يمتلك ما يقرب من ثلث سكان العالم بشرة سوداء داكنة وسميكة، ولكن ملامح وجوههم تكون "بيضاء" للغاية، وبالتالي يُصنفون على أنهم "بيض". وهذا يشمل الأشخاص في الهند وسريلانكا والعديد من الدول الأخرى ذات البشرة الداكنة. (كوتاك 2004).

تمكن الآلاف من الأمريكيين الأفارقة ذوي البشرة الفاتحة قليلا من "المرور" كل عام والعيش في العالم "الأبيض" لتجنب التمييز وذلك بسبب العنصرية الأمريكية قبل عام 1960. وتوجد مشكلات مماثلة مع أي سمة أو في الطريقة نستخدمها (حتى الوراثية منها) لتصنيف البشر إلى أعراق، ويستنتج جولدزبي أنه لكي نكون علميين، فإن التصنيف يجب أن يستخدم نظام فصائل الدم، لأن علم فصائل الدم قدم لنا أكثر

المؤشرات الموثوقة والموضوعية عن "الهوية العرقية". هذا بالكاد ما يعتقده غالبية الأشخاص اليوم عندما يشيرون إلى العرق.

وأصبحت صعوبة التصنيف العرقي بارزة بشكل خاص في البلدان التي سعت إلى إرساء الوقع القانوني على أساس العرق - مثل ألمانيا النازية التي تُحدد بموجب القانون أن الشخص يهودي إذا كان: "ينحدر من ثلاثة أجداد على الأقل ذوي الأصول اليهودية بالكامل [أو]... شخص ينحدر من أبوين يهوديين بالكامل إذا (أ) كان ينتمي إلى جماعة يهودية وقت إصدار هذا القانون أو انضم إلى المجتمع فيما بعد (ب) إذا كان متزوجًا من شخص يهودي في الوقت الذي صدر فيه هذا القانون أو تزوج بعد ذلك (ج) إذا كان من ذرية زواج يهودي وفقًا للقانون لحماية الدم الألماني والشرف الألماني. (د) إذا وُلد خارج نطاق الزواج - علاقة غير شرعية - من نسل يهودي(نقلاً عن غولدسبي 1971، 6-7).

كان من المستحيل تقريباً تطبيق هذا القانون بشكل ثابت وموضوعي حيث أنّه هو القانون الذي حدد العرق حسب الأصول وكذلك المشاركة الاجتماعية الحالية. وبما أن هذا القانون لم يحدد إلى أي مدى يحتاج المرء إلى الرجوع لسنوات عديدة لتحديد ما إذا كان هذا المرء لديه ثلاثة أجداد يهوديين" من أصول عرقية يهودية بالكامل" لذا فإن الجزء الأول من التعريف ينطبق على عدد كبير من الأوروبيين.

وهناك مثال آخر له صلة بخلفية المؤلف العرقية الفنلندية -"العرق" المختلط مع المنغوليين الأصليين من مونغوليا - أناس ليسوا أوروبيين تمامًا كما هو مفترض في بعض الأحيان. هؤلاء الشرقيون الذين بقوا في أوروبا لتكوين عائلات بعد الغزوات المنغولية في

أوروبا، اختلطوا مع الشعوب الأصليين ونتج عنهم الفنلنديين المعاصرين. غالبية الأشخاص ليسوا على علم بهذه الحقيقة لأن غالبية الفنلنديين اليوم وبسبب التزاوج بين الجنسين لا يملكون سوى مؤشرات ضعيفة على أن أصلهم منغولي. وينطبق الشيء ذاته على الهنغاريين (والتي تسمى تاريخيًا باسم ماجيار كوزتارسارس)

## أصل مفهوم "العرق" البيولوجي

لقد افترض أنصار التطور العديد من النظريات المتباينة لشرح التنوع البشري. وإحدى النظريات التي كانت مقبولة بشكل عام لسنوات كانت تشير إلى أن السود هم الأقل تطوراً بين البشر بينما البيض هم الأكثر تطوراً من كافة الأجناس البشرية. إن كتاب علم الأحياء لهنتر، وهو كتاب أميركي شائع استخدمه جون سكوبز لتدريس نظرية التطور عندما كان يدرس كبديل لعلم الأحياء، ثم احتل مكانًا بارزًا في تجربة سكوبز وبهذه الطريقة صنف الأعراق البشرية.

أحد العوامل الرئيسة التي تم استخدمها قديمًا لتصنيف العرق كان حجم المخ. وبالبحث الدقيق حول استنتاج أن الأجناس تختلف في هذه السمة (خاصة القشرة الدماغية) يتضح أنّه وعلى الرغم من أن حجم المخ مرتبط بشكل واضح بحجم الجسم والعمر، فإنّ الاختلافات بين أفراد العرق أكثر من الموجودة بين الأعراق المختلفة (بلوج 1970) وقد كشفت الأبحاث التي أجريت على الأشخاص الموهوبين فكريًا أن حجم المخ يختلف بشكل كبير بينهم (بلوج 1970,196-197).

يعتقد العديد من أنصار التطور أن لون بشرة الأسلاف كان بنيًا داكنًا في الأساس ولم يتطور إلا مؤخرًا الي درجات أخف. عندما يرسم الفنانون أسلاف الإنسان المفترضة

مثل أوسترالوبيثيكس وآخرون، عادة ما يقومون برسمهم بلون بشرة بني داكن وصفات الوجه النمطية "الزنجية". وفي الواقع ليس لدى العلماء أية فكرة عن ألوان البشرة للمخلوقات التي يُفترض أنها أسلاف بشرية. وإذا قمت بحلاقة شعر الغوريلا أو الشمبانزي أو إنسان الغاب، فستجد أن بشرتهم بيضاء!

اللون الداكن للبشرة والشعر هو حماية من سرطان الجلد؛ فكلما كان لون البشرة أخف زاد احتمال الإصابة بسرطان الجلد. وعلى الرغم من أن العديد من سرطانات الجلد مثل الحرشفية والقاعدية، ليست قاتلة في أحيان كثيرة، فإنّ ورم الميلانوم قاتل. تصبّغ البشرة باللون الداكن هو استجابة الجسم للأشعة فوق البنفسجية الخطرة، حيث يحمي اللون الداكن البشرة من هذه الأشعة، والتي تعد السبب الرئيسي لسرطان الجلد. إذا تطورت البشرة للأفتح، فسيكون ذلك مثالاً على التراجع، لأنه فقد لنظام الحماية البيولوجي الموجود عند أولئك الذين يعيشون قرب خطوط العرض الساخنة والمشمسة.

لا ترجع الاختلافات في لون البشرة بين "الأجناس" إلى عدد الخلايا الصبغية (الخلايا التي تنتج صبغة الميلانين)، ولكن إلى فرق في مستويات إنتاج الميلانين. فالبيض والسود على حد سواء لديهم العدد ذاته من الخلايا الصبغية والفرق يكون فقط في كمية الميلانين التي تفرزها (يعتبر أطباء الأورام لون البشرة الفاتح "نقصًا في الميلانين"). ومما يزيد من صعوبة تصنيف الأشخاص على أساس لون البشرة هو أن اللون يتغير بسبب النضج أو المرض أو التغيرات الهرمونية: "يولد العديد من الأطفال من كافة الأعراق ببشرة أفتح من تلك التي يتمتعون بها كبالغين. ويولد الكثير من الأطفال بعيون فاتحة وشعر أشقر أكثر مما يكون لديهم عند النضج. تتحول بعض عيون الأطفال إلى

اللون البني في الأشهر الأولى من حياتهم، في حين أن شعرهم قد يزداد تدريجيًا خلال الفترة الأولى وحتى خمس سنوات من مرحلة الطفولة. والذين يصلون إلى سن المراهقة بشعر بني فاتح سيكون لديهم شعر بني داكن في منتصف العمر، ويبقى مجموعات قليلة للغاية ذوي شعر فاتح طوال حياتهم. من ناحية أخرى لا يولد الأطفال العاديون ببشرة أو عيون أو شعر داكن ثم يصبح أفتح تدريجيًا عند نموهم" (جورني 1973,611-612).

## لماذا العرق بهذه الأهمية البالغة بالنسبة للتطور؟

العنوان الكامل للكتاب الأكثر شهرة لداروين هو: أصل الأنواع عن طريق الانتقاء الطبيعي أو الحفاظ على الأجناس المفضلة في الصراع من أجل الحياة. لم يكن مفهوم العرق مفهومًا بالغ الأهمية للنظرية الداروينية بأكملها فحسب، بل كان يستند كذلك إلى استنتاج مفاده أن بعض الأجناس كانت متفوقة وبالتالي ستنتصر في نهاية المطاف في الصراع من أجل الحياة. ناقش داروين أولا التطور البشري في كتابه أصل الإنسان والاختيار فيما يتعلق بالجنس والذي نُشر عام 1871. وقد بنى استنتاجه هذا على حقيقة أن هناك اختلافات بيولوجية ملحوظة ليس فقط بين أنواع الحيوانات ولكن كذلك بين أفراد النوع الواحد.

اتجهت النظرية إلى أبعد من ذلك وذهبت إلى أن مثل هذه الاختلافات يمكن أن تمنح ميزة تطورية تساعد في النضال ضد الحيوانات الأخرى مدى الحياة، سواء من نوع الحيوان الخاص بها أو أنواع أخرى من الحيوانات. وبعبارة أخرى، فإن الأرنب الذي يمكن أن يسير بسرعة أكبر أو يتمتع بسمع أفضل قليلاً من الأرانب الأخرى من المرجح أن يهرب من أعدائه، ونتيجة لذلك من المرجح أن يبقى على قيد الحياة وينقل هذه الميزة إلى نسله.

تعد نظرية "البقاء للأصلح" هي الداعم الرئيسي للتطور وتمثل المساهمة الرئيسية التي قدمها داروين لنجاح مفهوم التطور. وكان أحد الجوانب الرئيسية للتطور هو الاعتقاد بأن الأجناس المتفوقة ستنتصر في منافستها على الطعام والأقران وكل شيء آخر مطلوب للحياة، بينما يكون "الأقل صلاحية" من الناحية التطورية أكثر عرضة للموت، وسيترك عددًا أقل من الذرية، ونتيجة لذلك سينقرض في النهاية. فنحن كما أكد أنصار التطور نسل الناجين في الصراع من أجل الحياة. فإذا لم يكن هناك اختلافات بين الأعراق فلن يحدث التطور والسبب أنه يجب أن توجد اختلافات كبيرة حتى يكون للاختيار الطبيعي شيئًا يمكن الاختيار منه. ويلخص جون كوستر وجهة نظر داروين بشأن العرق على النحو التالي: "لم يعتبر داروين أبدًا أن "الأجناس الأقل تحضراً إنساناً أصيلًا.... كتاباته مملوءة بكافة أنواع الازدراء للشعوب "البدائية". وقد نمت العنصرية في ثقافة الفيكتوريين المتعلمين من خلال بعض الحيل "العلمية" مثل قياس مورتون للدماغ باستخدام طلقة BB لإثبات أن الأفارقة والهنود لديهم أدمغة صغيرة وبالتالي لديهم قصور في العقل والذكاء (1988,50)".

كلمات داروين نفسه كانت واضحة حول هذه النقطة عندما كان يقارن ما سماه "الأجناس البدائية" مع الأوروبيين فقال: "ما كنت لأصدق هذا الفرق الشاسع بين الإنسان الهمجي والمتحضر؛ حيث إنه أكبرمن الفرق بين الحيوانات البرية والحيوانات الأليفة.... رؤية مثل هذا الرجل تجعل من الصعب على المرء أن يصدق أنهم مخلوقات تشبهنا تسكن العالم نفسه".

استنتج داروين أن "الأعراق الهمجية" تشمل الزنوج والأستراليين الأصليين

(الأبوريجينيون) وغيرهم، جميعهم كانوا أدنى مستوى وبالتالي سينقرضون في النهاية (بيرجمان 1993). ورأى الكثيرون أنّ اكتشاف "الشعوب الغريبة" الناتج عن الاستكشاف العالمي الذي حدث في القرنين السادس عشر والسابع عشر على أنّه تأكيدًا للتطور - لم تكن "الحلقة المفقودة" مفقودة حقيقةً، ولكنها كانت حية وموجودة في أستراليا وأفريقيا.

الداروينية عنصرية للدرجة التي تجعل العنصرية مرادفة للفكر التطوري. والمصطلح المستخدم الآن هو "من قبيل المصطلحات الجديدة"، على الرغم من أن بعض أنصار التطور يستخدمون مصطلحات أكثر احتراما مثل "البقاء التفاضلي". في نهاية المطاف تنص الداروينية على أن سبب وجودنا يحتوي على الطفرات، وأن الأجناس الدنيا ستنتهي بالإنقراض وذلك نتيجة لحقيقة أن أعضاء هذه المجموعات أقل صلاحية، وهذه هي الدونية. وذهب كثير من أنصار التطور إلى أبعد من داروين، وفي الواقع فإنّ كافة أنصار التطور تقبلوا فعليًا فكرة الدونية البيولوجية وذلك حتى وقت قريب (هولر 1971). أدرك العديد من مؤرخي العلوم اليوم أن كافة العلماء تقريباً كانوا من أنصار حقيقة الخلق قبل ظهر التطور (جولد 1980، 43).

وبعد أن فقدت فكرة الخلق هيمنتها في مجال العلوم؛ تمكنت الأفكار العنصرية البيولوجية من التطور إلى الحد الذي وصلت إليه على مدار التاريخ. وُجدت العنصرية التي أسسها داروين تقريبا في كل كتاب علمي ظهر في الفترة ما بين منتصف القرن التاسع عشر وحتى ثلاثينات القرن التاسع عشر. باختصار: "أدت الداروينية إلى العنصرية ومعاداة السامية[1]، وكانت تستخدم لإظهار أن الجنسيات والأعراق "المتفوقة"

---

(1) تطلق السامية على الشعوب الشرق أوسطية والذين يتكلمون بلغات متقاربة وإن كان اليهود ليسوا أصحاب أرض في =

فقط كانت صالحة للبقاء على قيد الحياة" (وولبنك وتيلور 1961,361). كان ذلك فقط في أربعينيات القرن العشرين، وبسبب أعمال مثل كتاب مونتاجو عام 1953، الأسطورة البشرية الأكثر خطورة: مغالطة العرق انخفضت العنصرية البيولوجية بشكل كبير.

على الرغم من أن كتاب داروين كان هامًا للغاية في تعميم التطور، فقد نوقشت الأفكار التطورية على نطاق واسع من قبل العلماء قبل أن ينشر كتابه الكلاسيكي "أصل الأنواع" فقد طور جدّ داروين، "إيراسموس داروين"، في كتابه الكلاسيكي "زنوميا" نظرية تطور تشبه إلى حد كبير نظرية داروين التي صاغها في النهاية. وكما قال كينغ – هيلي: "إن الفضل في تقديم نظرية التطور بشكل جيد مع أمثلة ودعملها لا يرجع إلى تشارلز داروين ولكن إلى إيراسموس داروين" (1963، 67). واستنتج الكاتب ذاته أن إيراسموس "آمن بالتطور لسنوات عديدة، ربما منذ عام 1771" (1963، 67).

لهذا السبب إلى حد ما، كان الدليل على التسلسل الهرمي التطوري للأجناس موضوعًا بارزًا في اللعديد من الكتب والمقالات قبل نشر أعمال داروين. ويشير بريس وليفنجستون إلى أن محاولات اثبات عدم المساواة الاجتماعية على أساس الاختلافات البيولوجية الفطرية يمكن أن تعود إلى عصر النهضة، ويرجع ذلك جزئياً إلى تطوير ما قبل الداروينية "شكل من أشكال التطور عن طريق تخيل غير دقيق لنوع من الانتقاء الطبيعي"(1999، 209). رفض العديد من المسيحيين هذه الآراء العنصرية، على الرغم من أن البعض حاول التوفيق بينهم وبين المسيحية لأنهم شعروا بأن العلم "أثبت" أن ذلك حقيقة.

---

=

الشرق الأوسط إلا أن هذا المصطلح يُدخلهم في هذا المسمى وعلى كل حال فهو مصطلح غير دقيق ( الناشر)

## تطبيق التطور على السياسة الاجتماعية

كانت النتيجة النهائية للعنصرية التي علّمها داروين هي محاولة تطبيق استنتاجات العلماء الداروينيين على الحكومة. أفضل مثال على ذلك هو أدولف هتلر الذي سعى إلى إنتاج عرق متفوق بمنع الأجناس المتدنية من التناسل مع تلك "المتفوقة". وتشمل الأجناس المتدنية كما رأى هتلر "الزنوج واليهود والغجر" ومجموعات أخرى على حد تعبير تيننباوم: "الفلسفة السياسية للدولة الألمانية قامت على أفكار الكفاح والانتقاء والبقاء للأصلح، وكافة الأفكار والملاحظات التي وصلت إليها بواسطة داروين" (1956، 211).

كانت للداروينية دور حساس بالنسبة للنازية، "وعلى الرغم من أنه ليس من السهل تحديد الدوافع المتضاربة لهتلر وحزبه، إلا أنّه من الواضح أن علم تحسين النسل لعب دورًا هامًا. لو كان الحزب النازي قد اعتنق تمامًا وعمل دائما بناءا على الاعتقاد بأن جميع البشر أخوة، متساوون أمام الله ... ربما لم تحدث المحرقة (الهولوكوست) مطلقًا"

لقد أدرك الكثير من العلماء على مدار التاريخ نقطة الصراع المباشر بين المسيحية [والأديان السماوية بشكل عام ] وبين الداروينية في مجال أبحاث السلالات. وأكد السير آرثر كيث – وهو عالم أحياء بيولوجي بريطاني حارب لأجل مساهماته العلمية – : "لا تفرق الأديان بين العرق أو اللون. إنها تسعى إلى كسر كافة الحواجز العرقية. وفي هذا الصدد تعد المسيحية ضد طبيعة [التطور][1]. أوليست أعراق البشرية هي الحصاد

(1) جدير بالذكر أن النصرانية تعاني من بعض النصوص التي تظهر فيها العنصرية واضحة وفي قصة المرأة الكنعانية في الأناجيل دليل على ذلك انظر انجيل متى الإصحاح الخامس عشر من العدد 21 وحتى 28 ، ومنها أن المسيح قال للمرأة الكنعانية " :«لَمْ أُرْسَلْ إِلاَّ إِلَى خِرَافِ بَيْتِ إِسْرَائِيلَ الضَّالَّةِ». 25 فَأَتَتْ وَسَجَدَتْ لَهُ قَائِلَةً:«يَا سَيِّدُ، أَعِنِّي!» 26 فَأَجَابَ وَقَالَ:«لَيْسَ حَسَنًا أَنْ يُؤْخَذَ خُبْزُ الْبَنِينَ وَيُطْرَحَ

التطوري الذي كدّت الطبيعة عبر العصور الطويلة لإنتاجه؟" (1946، 72).

كانت معارضة العديد من العلماء في الماضي للدين هي بسبب حقيقة أنهم يؤمنون بأن المسيحية تعمل ضد التطور من خلال مساعدة الأجناس المتدنية ومناهضة العنصرية. فقد رأى علماء التطور يوما ما أن الانتقاء الطبيعي قضى على الضعفاء، مما قلل من احتمالية استنساخهم ونقل جيناتهم الدنيئة إلى النسل. وعلى النقيض، ركزت المسيحية على دعم الضعفاء ومساعدة المحتاجين وحماية أولئك الذين لا يستطيعون حماية أنفسهم. ولقد أعرب هتلر في الواقع عن ازدرائه للمسيحيين نظرًا لمساعدتهم "الزنوج" في أفريقيا، واعتقد أن الزنوج كانوا "مسوخ ما بين البشر والقردة" ثم "انتقد حقيقة أن المسيحيين ذاهبون إلى "وسط أفريقيا" لإقامة "بعثات الزنوج"، مما أدى إلى تحول "البشر الأصحاء إلى أوباش فاسدين" (هامبر 1987، 2).

ناقش هتلر هذا الموضوع على نطاق واسع في أحد فصول كتابه بعنوان "الأمة والعرق"، حيث استنتج فيه أن الأقوى يجب أن يسيطر على الأضعف. وأدان الزواج بين

---

=

لِلْكِلاَب» " وهذا بلا شك تمييزًا عرقيًا بين اليهود وغيرهم إذ بُعث المسيح في اليهود وكان منهم ، وبحسب النصرانية المُحرفة لم يكن يبذل شيئًا من دعوته إلىٰ لمن اعترف بأفضلية اليهود علىٰ غيرهم كفضل البشر علىٰ الكلاب ، وحتىٰ إن قبل إن المسيح بعث لليهود فحسب ، فهذا ليس مبررًا ولا دليلًا يدل علىٰ جواز احتقار غيرهم أو منع الدعوة عمن يريدها من غير اليهود ، والنصوص الدالة علىٰ ذلك كثيرة في العهد القديم والجديد ، ولم يكن من ذلك شيء في الكتاب الذي أنزله الله علىٰ الأنبياء وإنما ذلك من تحريف المحرفين ، لذلك تجد في كتاب الله جل وعلا وسنة نبيه صلىٰ الله عليه وسلم أن الناس كلهم لآدم وآدم من تراب وأنه من آمن وعمل صالحًا سواء كان عربيًا أو كان أعجميًا سواء كان من نسل اسرائيل أو من غيرهم فإن الله يقبل منه وربما بلغ منه مالم يبلغ غيره من أصحاب الأنساب والأحساب في الآخرة بعمله ( الناشر )

الأجناس المتدنية، وأعتبر أن الحق الداروينى "الطبيعي" للأعراق العليا هو استعباد الأجناس الدنيا. وهذا هو السبب في دفع هتلر إلى سن تشريع واسع النطاق لمنع "الآريين" من "التزاوج" مع "الأجناس الدنيا"، بما في ذلك "اليهود والزنوج وغيرهم" (هامبر 1987، 2).



**طبعة 1934 لكتاب هتلر (كفاحي)**

استنتج النازيون أن نظريتهم قد أثبتها العلم، والذي كان أحد الأسباب وراء معارضتهم للمسيحية (بيرليه 2000). وقام علماء ألمان بنشر 13 مجلداً علمياً مكرساً لـ "التطهير العرقي"، كما أنشأت العديد من "المؤسسات العلمية" ارتبط العديد منها بجامعات كبرى أو مراكز أبحاث مكرسة "للعلوم العرقية" (بروكتور 1988). ولم تجذب العنصرية اهتمام ألمانيا وحدها. وفي الواقع، اعتمد علماء تحسين النسل الألمان بشكل كبير على العلماء الذين يجرون أبحاثًا في بريطانيا وأميركا

نظرًا لأن أبحاث تحسين النسل كانت أكثر تقدمًا في الولايات المتحدة (على الرغم من الاهتمام الهائل الذي أعطته الحكومة الألمانية له). كان أحد محاور التركيز الرئيسة لهذا البحث هو تحديد أي من الأجناس كان لديه "السمات العرقية البدائية" وأي تلك السمات التي كانت بارزة في الأجناس الدنيا مثل الإنسان البدائي.

## الزواج بين الأعراق وعلم الأحياء

لقد أدان غالبية أنصار التطور يومًا ما ، ما كان يُسمَّى الزواج المختلط (الزواج بين الأجناس) لأنهم اعتقدوا أن الزواج من أحد أفراد "العرق الأدنى" من شأنه أن يُنتج

أطفالًا أقل شأناً وستؤدي اختلاط الدماء فقط إلى تلويث الأعراق، فقد كانوا يخشون التراجع. كان الحد من الاختلاط جزءًا من حركة تحسين النسل (المولود الحسن). وقد قبل غالبية العلماء في أوائل القرن العشرين هذا الاستنتاج، ونظرًا لهذا الاعتقاد، أصدرت العديد من الدول قوانين ضد الزواج بين الأجناس. حتى أن العديد من المجتمعات أدانت الاختلاط بين الأعراق (جولاغير 1999).

نعلم الآن أن ما يسمى بالزواج بين الأعراق ينتج أطفالا أكثر صحة جسديًا من المتوسط. والسبب هو أنه كلما اقترب الزوجين وراثيًا كلما ازدادت احتمالية أن يكون لدى كلاهما ذات الطفرات المتنحية (التي قد تظهر في النسل كمرض). ومع ذلك إذا تزاوج شخصين مختلطين – عرقيًا فلأنهما يختلفان جينيًا عن بعضهما البعض فإن احتمال حصول كل منهما على طفرة من الجين ذاته تكون ضئيلة للغاية. إن فقر الدم المنجلي، وهو مشكلة رئيسية بين السود، نادر للغاية في الجيل الأول من التزاوج بين أعراق مختلفة. مرة أخرى أظهرت الأبحاث العلمية أن نظرية العرق الداروينية كانت خطأ.

للأسف يتأثر المسيحيون في كثير من الأحيان بالمجتمع من حولهم لذلك، ولسنوات، أدانوا الزواج بين الأعراق. هذا هو السبب في أن الكتاب المقدس يعلم المسيحيين أنه يجب أن يكونوا "بلا دنس من العالم" (رسالة بطرس الأولى 1: 19)[1] وحياتهم تسترشد بالكتاب المقدس. بالإضافة إلى ذلك يدين البعض الزواج بين الأعراق

---

(1) وهذا بلا شك ما يدعو إليه الإسلام ، وهو ما دعا إليه المسيح عليه السلام بلا شك ، غير أن بولس المدعو رسولًا ، في العهد الجديد كان له رأي آخر إذ قال في رسالته الأولى إلى أهل كرونثوس في الإصحاح التاسع منها : " فَإِنِّي إِذْ كُنْتُ حُرًّا مِنَ الْجَمِيعِ، اسْتَعْبَدْتُ نَفْسِي لِلْجَمِيعِ لأَرْبَحَ الأَكْثَرِينَ. 20فَصِرْتُ لِلْيَهُودِ كَيَهُودِيٍّ لأَرْبَحَ الْيَهُودَ. وَلِلَّذِينَ تَحْتَ النَّامُوسِ كَأَنِّي تَحْتَ النَّامُوسِ لأَرْبَحَ الَّذِينَ تَحْتَ النَّامُوسِ." اهـ ( الناشر)

لسبب عملي للغاية، وهو بالتحديد أنه إذا استمر تواتر الزواج بين الأعراق مرتفعًا فسيؤدي في النهاية إلى اندثار الاختلافات الجسدية الفريدة لكل مجموعة. ولأن سمات البنيّة تكون سائدة، فإن الزواج بين الأعراق سينتج أشخاصًا يغلب فيهم الشعر البني والبشرة البنية والعيون البنية. ولقد أدى التزاوج بالفعل إلى الحد من العديد من الاختلافات العرقية التي كانت موجودة أصلاً بين الأمريكيين. غالبية الأمريكيون هم خليط من عدة أجناس – وهو شائع بشكل خاص في الأجناس الداكنة –.

## ما الذي يخبرنا به هذا التاريخ ؟

ما تمكنت من استنتاجه هو أنه إذا كان السجل التوراتي للأصول البشرية مقبولاً بشكل كامل ووُضع موضع التنفيذ، فإن الكثير من الحزن والأسى الذي نجم عن النزاع "العرقي" في أميركا وألمانيا وفي أماكن أخرى لم يكن ليحدث مطلقًا: "آدم وحواء هما الزوجان التقليديان للإنسان في العالم المسيحي، لكنهما لا يساعدان كثيراً عند البحث عن أعراق مختلفة في الجنس البشري. ومن الواضح أن زوجًا واحدًا من الأسلاف سيجعلنا جميعًا جنسًا واحدًا. كيف يمكن اعتبار "الاختلافات المذهلة" التي لفتت انتباهنا في وقت سابق مشكلة؟" (بارزون 1765,9)

إن فكرة العرق البيولوجي هي فكرة حديثة تطورت جزئياً من الطبيعة التطورية "وكانت طريقة تفكير مستأصلة في الحضارة الغربية و[هي] ظاهرة غربية"(بارزون 6). لسوء الحظ: "فان أعظم وأضعف العقول من القرن الماضي قد استسلمت لإغرائه"(بارزون، 6). كان من الممكن تفادي مأساة العرق والمحرقة وذبح ما يقرب من مليار شخص منذ عام 1900 فقط في الحروب والتطهير والإبادة الجماعية وغيرها من عمليات القتل

المنظمة، وذلك إذا استوعب الأشخاص تمامًا التعاليم التوراتية بأن كافة البشر أبناء آدم جميعهم أخوة وأخوات. فقط عندما ندرك أن الأجناس البيولوجية غير موجودة – وأن كل البشر نوع واحد يتجلى فيه الكثير من التنوع – سيتحقق الانسجام "العرقي" الكامل(هام وآخرون 1999). العرق هو البناء الاجتماعي.



# المراجـــع


- جاك بارزون(Barzun, Jacques) 1965. "العرق: دراسة في الخرافات". نيويورك: هاربر ورو.

- روث بنديكت(Benedict, Ruth) 1943. العرق والعلوم والسياسة. الطبعة الثانية. نيويورك: مطبعة فايكنج.

- جيري برغمان(Bergman, Jerry) 1992. "علم تحسين النسل وتطوير سياسة العرق النازي." وجهات نظر حول العلوم والإيمان المسيحي، 44 (2): 109-123

- 1993 "تطور وأصول نظرية العرق البيولوجي." مجلة التكنولوجيا 7(2): 155-168.

- بريس سي لورنج وفرانك ليفينجستون (Brace, C. Loring, and Frank Livingstone) 1999 "عن الزحف الجينسيني" في مونتاجو 1999.

- بروس جيمس دي وهيمان رودمان(Bruce, James D., and Hyman Rodman) 1973. "الزواج بالبيض والسود في الولايات المتحدة: مراجعة للأدبيات التجريبية". الفصل التاسع في ستيوارت وأبت 1973.

- مايكل بيرلي(Burleigh, Michael) 2000. الرايخ الثالث؛ تاريخ جديد. نيويورك: هيل ووانج.

- كروكشانك اف جي(Crookshank, F.G) 1924 المغول بيننا :دراسة للرجل ووجوهه الثلاثة. نيويورك: إي. بي. داتون وشركاه.

- 1931 المغول بيننا: دراسة للإنسان ووجوهه الثلاثة، نُقح بشكل كبيرالإصدار. لندن كيجان باول – ترينش تروبر والشركة

- تشارلز داروين(Darwin, Charles) 1959 رحلة البيجل. نيويورك: هاربر ورو.
- يوليوس إيفولا(Evola, Julius) 1970 العرق كفكرة ثورية. العربية،ال ايه معهد بحوث الوحدة الغربية
- ليسلي فيدلر(Fiedler, Leslie) 1978 النزوات: الخرافات وصور الذات السرية. نيويورك: سايمون وشوستر
- نانسي جالاجر(Gallagher, Nancy)،1999 تربية أفضل لفيرمونتيرس. مشاريع تحسين النسل في ولاية الجبل الأخضر هانوفر في تي مطبعة جامعة نيوانجلاند
- ريتشارد أ جولدسبي(Goldsby, Richard A.) 1971 – العرق والأعراق نيويورك: شركة ماكميلان
- رودريك جورني(Gorney, Roderic.) 1973 جدول الأعمال الإنساني. نيويورك: كتب بانتام. كامبريدج، ماساتشوستس: بيلكناب هارفارد.
- ستيفين جي جولد(Gould, Stephen J.) 1977" اونتوجيني و فيلوجوني" كامبريدج ام ايه بيلكناب هارفارد
- 1980" والاس والعيوب القاتلة" التاريخ الطبيعي، يناير 89(1)
- 1996 القياس الخطأ للانسان – نيويورك نورتون
- جون اس هوولر دجونيور(Haller, John S., Jr.) 1971 المنبوذون من التطور - المواقف العلمية للدونية العرقية، 1859-1900 اوربانا اي ال مطبعة جامعة الينوس
- هول ومارشال وساندر(Hall, Marshall, and Sander). 1977. العلاقة بين التطور والنظرية والعنصرية .ليكلاند اف ال الناشرون بي ار

– كين وهام وكارل فيلاند ودون باتن.(Ham, Ken, Carl Wieland, and Don Batten)
1999. دم واحد: الجواب الكتابي على العنصرية. جرين جرين، أركنساس: ماستر بوكس.

– جي اتش هاسكارل(Hasskarl, G.H.)، 1898 الرابط المفقود؛ أو الوضعية العرقية للزنوج شامبريسبيرج بي ايه الأخبار الديموقراطية

– بول هامبر(Humber, Paul)، 1987 "صعود العنصرية" التاثير فبراير 1-4

– اتش بي ايشهروود(Isherwood, H.B.) 2000. مانز العنصرية الطبيعة ميتريني ال ايه أبناء الحرية

– فيليب جونسون(Johnson, Phillip)، 2000اصل الحقيقةدونيرز جروف إلينوي: انترفاريستي

– آرثر كيث(Keith, Arthur)، 1946 التطور والأخلاقيات. نيويورك: ج. ب. بوتنام وأولاده.

– ديسموند كينج هيلي(King-Hele, Desmond)، 1963 ايراسموس داروين: جد تشارلز داروين. نيويورك: أبناء تشارلز سكريبنر.

– جون كوستر(Koster, John)، 1988 مرض الإلحاد برينتوود تي ان الناشرون ويلجمث وحياة

– كونراد كوتاك(Kottak, Conrad)، 2004الأنثروبولوجيا: استكشاف التنوع البشري. نيويورك: مكجرو هيل.

– لينتونرالف(Linton, Ralph). 1955شجرة الثقافة. نيويورك: الفريد أ. كنوبف.

– آشلي مونتاجو(Montagu, Ashley)1953مانز الأسطورة الخطرة: مغالطة

العرق. نيويورك: هاربر.

– (محرر). 1999.العرق ومعدل الذكاء نيويورك: مطبعة جامعة أكسفورد.

– فريد بلوج(Plog, Fred)،1970"الأنثروبولوجيا"، في الكتاب السنوي للكتاب لعام1971 شيكاغو اي ال. مؤسسة المشروعات التعليمية الميدانية.

– روبرت إنبروكتر(Proctor, Robert N)،1988 النظافة العنصرية. الطب تحت سيطرة النازيين. كامبريدج، ماساشوستس: مطبعة جامعة هارفارد.

– جيه ايه روجرز(Rogers, J. A.)، 1970. "100 حقيقة مذهلة عن الزنوج: مع إثبات كامل". نيويورك: هيلجا م. روجرز.

– ايرفينغ آر ستيوارت، ولورانس إي. (Stuart, Irving R. And Lawrence E. Abt) 1973. "الزواج بين الأعراق: التوقعات والواقع". نيويورك: جروسمان ناشرون.

– جوزيف تيننباوم (Tennenbaum, Joseph)،1956 العرق والرايخ. نيويورك: تويني الناشرون.

– تي والتر ولبنك والاستير م تيلور(Walbank, T. Walter, and Alastair M. Taylor) 1961 الحضارات السابقة والحاضرة. الطبعة الرابعة. نيويورك: شركة سكوت فورمان.

– ديفيد ويليامز(Williams, David)،1997 "العِرق والصحة: أسئلة أساسية، اتجاهات ناشئة"، حوليات علم الأوبئة. 7: 322-333



# الفصل الثالث

## ابن عم داروين، السير/ فرانسيس جالتون، وحركة تحسين النسل

كان علم تحسين النسل ركيزة هامة في النازية والشيوعية وغيرها من الحركات الاستبدادية الشمولية (بيرجمان، 2012). وكانت اليوجينيا، وهي علم تحسين أعراق الإنسان بالتحكم العلمي في التناسل، وقد تم عرضها من قبل نسبة كبيرة من علماء الحياة، والأساتذة والمصلحين الاجتماعيين لأكثر من قرن باعتبارها وسيلة هامة، إن لم تكن وسيلة رئيسية لتحقيق الجنة علي الأرض(سيويل 2009).

المؤسس الرسمي لهذا العلم الجديد هو السير فرانسيس جالتون، وهو ابن عم تشارلز داروين وأحد المقربين منه. وكان عمل جالتون حاسماً في توفير الأساس للحركة التي بلغت ذروتها في المساهمة في خسارة عشرات الملايين من الأرواح، وما يصاحبها من معاناة مئات الملايين من الأشخاص.

نشأت حركة اليوجينيا المشينة من مجموعة من المفاهيم الأساسية للتطور البيولوجي – تلك الأفكار التي طرحها تشارلز داروين في المقام الأول – (جولد 1996، هيملفارب 1959، شانون 1920، هولر 1971، بارزون 1958). في الواقع ليس فقط جالتون وإنما كل الشخصيات الرائدة في حركة اليوجينيا – بمن فيهم بيرسون ودافنبورت وفوريل وبلويتز وشالمير وغيرهم – كانت الداروينية دائما هي الأساس في علم تحسين النسل بالنسبة لهم.

سيطرت فكرة تحسين النسل على غالبية دول أوروبا الغربية والولايات المتحدة، حيث تُرجمت إلى سياسة اجتماعية، ولا تزال البقايا موجودة في فلسفة أكاديمية تسمى "علم البيولوجيا الإجتماعية" (ساهلينز 1977). علم تحسين النسل هو "الابن الشرعي

للتطور الداروييني، وهو بلاشك نمو طبيعي لا مفر منه للتيارات الفكرية التي تطورت بسبب نشر كتاب تشارلز داروين" أصل الأنواع" في عام 1859 (هوللر 1984، 3). وأفضل مثال على ذلك هو مقتبس من كتاب داروين " أصل الإنسان "1871: "نحن - الرجال المتحضرون نبذل قصارى جهدنا للتحقق من عملية التطهير؛ نبني المصحات..... ونضع قوانين ضعيفة.... لقد حمى التلقيح الآلاف من ذوي البنية الجسدية الضعيفة الذين كان يمكن في السابق أن يموتوا بمرض الجدري. هؤلاء الأعضاء الضعفاء في المجتمعات المتحضرة يتكاثرون ويزيدون من نوعهم. لا أحد ممن شهدوا تربية الحيوانات الأليفة سيشك في أن هذا يمكن أن يكون ضارًا للغاية بالجنس البشري. إنه لأمر مثير للدهشة كيف أن الرغبة في الرعاية أو توجيهها بشكل خطأ يؤدي إلى انحطاط السلالة المستأنسة؛ ولكن باستثناء حالة الإنسان ذاته، لا يوجد أحد جاهل بالقدر الذي يجعله يترك أسوأ حيواناته تتكاثر." (1871، المجلد رقم 1، 168).

وفي الاقتباس التالي - من نص كان مستخدمًا في علم الحيوان على نطاق واسع في عام 1920- مثال على العنصرية التي أنتجها داروين: "إن الفجوة بين الأجناس الأكثر تحضراً وقدرة من الأوروبيين وبين الأقزام الأفارقة أشباه البهائم هائلة جدا لدرجة دفعت بعض الجهات إلى الاقرار بأنها تنتمي إلى أنواع مختلفة، أو على الأقل إلى أنواع فرعية." (نيومان 1925، 403).

في نهاية المطاف ساهم التطبيق المأساوي للداروينية - وقد يجادل البعض بأنه سوء تطبيق - في المحرقة النازية وغيرها من الحركات الاجتماعية المدمرة مثل علم تحسين النسل (بروكتور 1988). وكان لفرانسيس جالتون ابن العم الأصغر لتشارلز داروين -

دورًا هامًا للغاية في هذه الحركة (1822—1911). كان ثريًا ولم يشغل أي منصب علمي أو تدريسي. اشتهر بعمله كمؤسس لعلم تحسين النسل(اليوجينيا)، لقد زعم أن علم الوراثة ("الطبيعة") هو الذي حدد العقل البشري عمومًا، لذلك فإن مصيرنا كان مبنيًا على هذا التصور. ولاعتقاده بأن بعض الأشخاص كانوا متفوقين، فقد دعا بقوة إلى التحكم في التكاثر للحفاظ على الطبقات السائدة (تايلور 2001).

بدأت حملة جالتون العنيفة لتحسين النسل المستادم بقبوله للتطور الكبير(الماكروي). (بينوم 2002، 379). أدى نشر "أصل الأنواع" لداروين إلى تغيير حياة جالتون والتخلص من "أي مشاعر دينية باقية" كانت لديه قبل قراءة كتابات داروين (بينوم 2002،379). كتب جالتون في سيرته الذاتية ما يلي: "لقد أحدث كتاب أصل الأنواع – لتشارلز داروين – نقطة تحول مميزة في تطوري العقلي الخاص كما فعل في فكر البشر بشكل عام. فقد كان تأثيره هو هدم العديد من الحواجز العقائدية بضربة واحدة، وإثارة روح التمرد ضد كل السلطات القديمة التي تتناقض تعاليمها المفروضة والغير المصدق عليها مع العلم الحديث" (1908، 287).

اعتقد بيرسون أن جالتون كان مخلصًا لأفكار داروين "بولاء نادر جدا" مقارنة بما هو موجود حاليًا (1914، ص 7). فقد قبل جالتون الداروينية لعدة أسباب قائلاً عن نظرية داروين: "لقد قادتني بعيدا عن خرافاتي القديمة وجعلتني أقبل بعقيدة علمانية خالصة في التطور. إن المعتقدات الروحية التقليدية في الخلق المتدني والخلاص الإنساني من خلال نعمة إلهية قد أفسحت المجال للفكرة المادية بأن الإنسانية ترتقي بالتطور التدريجي." (لارسون 1995، 18–19).

لكي نفهم السبب وراء نمو حركة "اليوجينيا" بهذا القدر وبهذه السرعة علينا أولًا أن نفهم كيف كان يُنظر إلى التطور في أميركا وأوروبا في أواخر القرن الثامن عشر وبدايات القرن التاسع عشر. استخدم العديد من العلماء التحليل الداروويني لتقييم مختلف "الأعراق" البشرية، وخلصوا إلى أن بعض الأعراق قد تطورت أكثر من غيرها. ثم بعد ذلك زعموا أن وجود بعض المجموعات العرقية في الولايات المتحدة وأوروبا يشكل - على المدى البعيد - خطرًا على الجودة البيولوجية وصحة الأمة، واستنتجوا من ذلك أن التكاثر الانتقائي هو خطوة ضرورية لحل الكثير من المشكلات الاجتماعية الكبرى. (هوللر، 1984، 10)



المزارع وليام دونتا يحمل بندقية بعد مسيرة كو كلوكس كان وإحراق الصليب على منزله في مقاطعة جاكسون. أوهايو. 1987

ندرك الآن تمامًا النتائج المأساوية لهذا الاعتقاد حتى أن أغلب الناس يشعرون بالذهول من مثل هذه التصريحات عندما تصدر من المؤمنين بسيادة البيض والجماعات العنصرية المعاصريين مثل الأمة الآرية وحركة كو كلوكس كلان. ومع ذلك فإن العديد من الجماعات المتطرفة اليوم غالبًا ما يقتبسون ومن ثم يعيدون نشر وتوزيع المؤلفات الأدبية والعلمية ذات الصلة بعلم تحسين النسل (اليوجينيا) من ذلك الوقت.

بالرغم من أن اليوجينيا تعود إلى عمل داروين الأصلي إلا أن العديد من الاكتشافات عام 1880 جعلتها محترمة علميًا. فبعد الفهم الأساسي لآلية الوراثة، وإعادة اكتشاف علم الوراثة المندلية بعد فترة وجيزة من بداية القرن العشرين، أصبح

الكثير من العلماء - أكثر من أي وقت مضى - مقتنعين أنهم قد كشفوا سر الوراثة وبالتالي أوجدوا مفتاح التطور. (كرافنس 1978، 39-47)

لقد أدت هذه الاكتشافات إلى فهم جديد كامل عن مكان البشر في الطبيعة، وكانت المفتاح لمنهج جعل الكثيرين يشعرون بوجود إمكانات كبيرة لتحسين المجتمع. فكما أن الاختلافات في الأنواع الحيوانية جعلتها أكثر أو أقل قدرة على البقاء التطوري، جادلوا في أنه كذلك فإن الاختلافات بين المجموعات العرقية البشرية جعلت مجموعة أكثر أو أقل قدرة على البقاء التطوري من المجموعات الأخرى - فكرة ترجمت إلى تصنيف الأعراق إلى أدنى أو أعلى (هوللر، 1984، 10-11)

## مؤسس نظرية تحسين النسل، فرانسيس جالتون ابن عم داروين

في أواخر خمسينات القرن التاسع عشر عندما كان فرانسيس جالتون في أواخر الثلاثينات من عمره، بدأ بحثه علي طول حياته لتحديد السمات البشرية التي جمعها في "الأعراق". وكان هدفه هو تحسين الجنس البشري وراثياً. وقد استنتج جالتون، الذي كان متأثرا بشدة بابن عمه الأكبر سنًا، تشارلز داروين، أن مفتاح التقدم البشري هو التطبيق المباشر للداروينية في المجتمع بموجب القانون والبرامج الوطنية (غلاغير1999).

كان مذهب تحسين النسل بالنسبة لجالتون مهمًا لدرجة أنه في غضون ست سنوات من نشر أصل الأنواع: "توصل جالتون إلى العقيدة التي عليه أن يبشر بها ما تبقى من حياته... لقد أصبحت بالنسبة له أخلاقيات جديدة ودين جديد." (هوللر 1984,10). ثم شرع في تقديم أدلة مقنعة عن "دينه الجديد" علم تحسين النسل. وقد سمحت له الثروة التي ورثها جالتون عن والده في سن مبكرة عن عمر 22 عام: "بتوسيع

نطاق معرفته بالعديد من الأنواع العرقية من خلال الرحلات العالمية الواسعة التي شملت استكشاف أجزاء من أفريقيا غير معروفة للأوروبيين.... حيث عاد جالتون من أسفاره باقتناع قوي بأن هناك تسلسلاً هرمياً طبيعياً للأعراق البشرية التي وضعت الانجلوسكسونيين فوق الآخرين كافة. حيث حفزه كتاب ابن عمه أصل الأنواع... للتحقيق في كيفية تطور النوع البشري من خلال التباين والاختيار والوراثة التي كانت القوى المحركة للتطور الدارويني." (لارسون 1995، 18).

وفي عام 1865، نشر جالتون أفكاره لأول مرة عن تحسين النسل في سلسلة من المقالات المكونة من جزأين لمجلة ماكميلان، والتي توسعت في النهاية إلى كتاب بعنوان العبقرية الوراثية (1869). ركزت مقالاته على مصدر السمات الإنسانية المختلفة بما في ذلك الفكر والشخصية وحتى الصفات الأخلاقية، خاصة تلك التي مكنت المرء من أن يصبح قائدًا فعالاً. كما بحث في المهارات اللازمة للتفوق في الفنون والعلوم والأدب، وفي المساعي الإنسانية الإيجابية بشكل عام.

صرّح جالتون علناً بأن هدفه كان "إنتاج جنس موهوب الى أقصى حد من البشر عن طريق الزواج الحكيم خلال عدة أجيال متعاقبة". وكان السبب لديه هو أن الإنسان يمكنه أن "يحصل عن طريق الاختيار الدقيق على سلالة دائمة من الكلاب أو الخيول الموهوبة بقدرات غريبة على الجري، أو من القيام بعمل أي شيء آخر، لذلك سيكون من الممكن عمليا إنتاج جنس موهوب من البشر عن طريق الزواج الحكيم خلال عدة أجيال متتالية." (جالتون 1869، 1).

اقترح جالتون في مقالته في ماكميلان عام 1865 أن الدولة تقوم برعاية "اختبارات"

تنافسية لتحديد "أفضل" البشر وأن الفائزين الذكور سيحصلون على الفائزين الإناث كعروس. حتى أنه ذهب إلى أبعد من ذلك إذ اقترح أن تصنف الدولة الأشخاص حسب مستويات التفوق التطورية، ثم تستخدم المكافآت النقدية لتشجيع أولئك الذين احتلوا مرتبة عالية على إنجاب المزيد من الأطفال. ومن يصنفون في مكانة أدنى يُعزلون في الأديرة لمنع نوعهم هذا من التكاثر." (كيفليس 1985، 4). وأحد الأسباب التي جعلت جالتون محافظاً في تعليقاته مقارنةً بالنازيين أنه أدرك - كما فعل داروين - أن المطالب الجذرية سوف تؤدي إلى إخفاق قضيتهم التي تخص تحسين النسل.

"لم تكن طريقة جالتون في التبشير بتحسين النسل صالحة لدى" شو"؛ فقد كان متطرفًا للغاية واستفزازيًا بطريقة متعمدة بينما كان جالتون يدعو إلى الحذر للحصول على قبول الرأي العام." (فورست 1974، 258).

كان جالتون يعلم أنه لكي تكون أهدافه ناجحة؛ فعليه تجنب ما يعتبره عامة الأفراد تصريحات متطرفة. لذا فقد اعتمد في أبحاثه على منهجية لدراسة العبقرية ، والتي استخدمها العديد من الآخرين منذ ذلك الحين (انظر جيورتزيل وجيورتزيل 1962). وكانت الموسوعة البيبليوغرافية "قاموس رجال من الزمن" والتي نشرت في 1865 هى المصدر الثاني لعينة السكان التي امتدت على مدى قرنين. وعلى غير المتوقع وُجد أن العديد من أولئك المدرج أسماؤهم في هذا العمل المرجعي الضخم - ويفترض أنهم من أبرز رجال الدولة والعلماء والرسامين ورجال القانون في عصره - كانوا أقرباء.

واستنتج جالتون أن العائلات ذات الأعضاء المتفوقين كانوا أكثر احتمالًا من غيرهم لإنتاج ذرية ذات كفاءة وفقًا لعلم الوراثة. بعد ذلك استنتج الباحثون، مثل كارل

بيرسون، أن 90% من ذكاء الشخص موروث بالكامل (هوفستاتر 1955)، والنسبة المتعارف عليها اليوم هي 70%، مما يعني أن البيئة الجيدة يمكن أن ترفع معدل ذكاء الطفل من المتوسط (معدل الذكاء 100) إلى 130، مما يؤهل الطفل للبرامج المخصصة للأطفال الموهوبة في غالبية المدن.

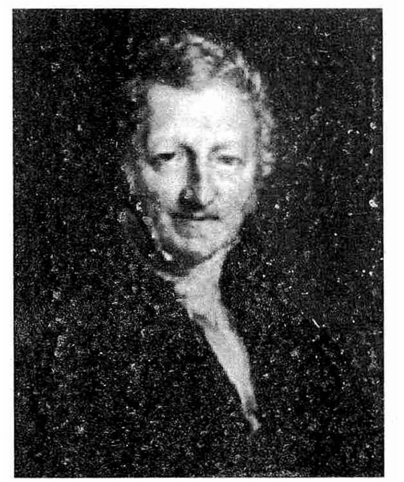
كان هدف جالتون النهائي هو إنتاج جنس متميز للتحكم في عالم الغد، وهو حلم لم يكتبه فقط، بل روج له بنشاط طوال حياته. لوصف استخدامه للتطور من أجل تحسين البشر، صاغ جالتون كلمة اليوجينيا (من كلمتين يونانيتين تعني مولود جيد). كما طرح مصطلحات "الطبيعة" و"التغذية" للمناقشات العلمية، مما أثار جدلاً حول الطبيعة/التغذية مازال هذا النقاش قائمًا حتى اليوم. ومصطلح تحسين النسل كان هامًا لأنه: "- من خلال إعطاء اسم شعبي للنظريات التي بدأ بالفعل في تطويرها من المفاهيم التطورية لابن عمه تشارلز داروين - أسس جالتون حركة اجتاحت أوروبا وأميركا الشمالية لنصف قرنٍ من الزمان" (لارسون، 1995، 18).

وأسس جالتون في عام 1901 (المجتمع التعليمي لعلم تحسين النسل) في قسم الإحصاء في كلية لندن الجامعية (جونز1980). وازدهرت هذه المنظمة حتى أنها أنتجت مجلة بيومتريكا، التي أسسها وحررها جالتون، ثم كارل بيرسون لاحقاً. وعلى الرغم من أن المجلة مازالت رائدة إلى اليوم، إلا أن محرريها رفضوا - منذ ذلك الحين - الفلسفة الأساسية وراء تأسيسها.

واستنتج جالتون أنه ليس فقط الذكاء بل كذلك العديد من السمات الإنسانية هي نتاج الوراثة بالمقام الأول،إن لم يكن الأول والأخير ، وبالتالي تحددها "الطبيعة".

كما أنه يعتقد أن كل سمة بشرية يمكن تقييمها إحصائيًا، وأن البشر يمكن مقارنتهم كمياً باستخدام عدة مئات من السمات، واقتنع جالتون تمامًا بأن قانون البقاء للأصلح ينطبق على البشر، وأن التكاثر يجب أن يقتصر على أولئك الأكثر ذكاءًا والأكثر مسئولية (بيرسون 1914، 1924، 1930).

كانت الطبقة الاجتماعية ترى أن ابن العامل لا ينبغي أن يطمح إلى حياة أفضل لأن غالبية عائلات العاملين يفترض أنها أدنى وراثيًا.



صورة لتوماس مالتوس سنة 1833

وقد استنتج جريين مباشرة بعد أن لاحظ أن العديد من البريطانيين تأثروا بشدة بكتابات البعض مثل آدم سميث وتوماس مالتوس: "ليس من قبيل المصادفة أن كافة الرجال الذين توصلوا إلى بعض الأفكار حول الانتقاء الطبيعي في النصف الأول من القرن التاسع عشر - مثل ويليام ويلز، وباتريك ماثو، وتشارلز ليل، وإدوارد بليث، وتشالز داروين، وأيه. آر. والاس، وهربرت سبنسر - جميعهم كانو بريطانيين. وإن كان هناك في تاريخ العلم مثال واضح جدًا على تأثير السلوك الشعبي في التفكير على تطوير النظرية العلمية فسيكون هذا." (جريين 1981)

وسرعان ما بدأ جالتون - وهو طفل خارق في حد ذاته - يبحث عن بشر متفوقين آخرين لدراستهم من خلال قياس حجم رؤوسهم وأجسادهم وأدمغتهم. ولقد ابتكر جهاز قياس متطور لهذا الغرض من المفترض أنه كان لا يقوم بقياس الدماغ

والذكاء فحسب، ولكن أيضًا كل سمة بشرية أخرى يمكن قياسها دون جراحة. بل إنه صمم صافرة لقياس النطاق الأعلى من السمع البشري تسمى الآن بصافرة جالتون، وهي أداة لا تزال من معدات القياس في المختبر الفسيولوجي.

كان عمله عادة دقيق للغاية واعتمد بشكل كبير على الطريقة التجريبية والتقنيات الإحصائية المعقدة التي طوّر بعضها خصيصًا لعمله في علم تحسين النسل. في الواقع، يعد جالتون وزميله - كارل بيرسون - مؤسسي مجال الإحصاء الحديث وكلاهما قدم مساهمات كبيرة، فقد كانت أبحاثهم الدقيقة والمفصلة مقنعة للغاية خاصة للأكاديميين. وكان الأساتذة الألمان من بين الأوائل الذين اهتموا بكل إخلاص ليس بالتطور الدارويني فحسب، بل كذلك بالنظرة العالمية إلى تحسين النسل التي أدت في النهاية إلى المحرقة. أعاد إيليوت سلاتر - وهو طبيب نفسي - صياغة هَوَس جالتون بقياس كل نشاط بشري يمكن تصوره. ووضح ذلك في محاضرته عن جالتون عام 1960 (سلاتر 1960).

## تحسين النسل في أميركا

تم دعم تحسين النسل ليس فقط من قِبل العلماء البريطانيين؛ ولكن كذلك العلماء الأمريكيين. فقد كان عدد مشتركي المجلة الخاصة بعلم تحسين النسل - بيومتريكا - في الولايات المتحدة أكثر بكثير منه في بريطانيا العظمى. حتى أنّ اختصاصي علم تحسين النسل - كارل بيرسون (1857-1936)- في وقت ما فكر في الانتقال إلى الولايات المتحدة حيث ظنّ أنّ أفكاره حول تحسين النسل ستلقى احترامًا أكثر هناك. وكان الهدف الأول للمؤسسين منذ استقرار أميركا هو تجنب تكرار الحروب التي مزقت أوروبا لقرابة 500 عام وذلك في محاولة منهم للحد من الاختلافات الثقافية، وبعد 1890

تقريبا، تم القيام بجهود قوية للتأكد من أن المجتمع الأمريكي متجانس وغالبا ما يكون من البيض والانجلوسكسونيين والبروتستانتيين (تايلور 2001). "إذا دُعمت نظريات العرقية عن طريق العلم، فلن يكون هناك تعصب. وبالتالي كان تحسين النسل هو الحل المثالي وتم تطبيقه بقوة في موانئ الهجرة – في نيويورك علي سبيل المثال – وكان المهاجرون غالباً ما يُمنعون من الدخول على أساس قياس حجم الرأس، أو قياس المسافة بين طرف الاصبع والرضفة[1] (إذا كانت قصيرة جدا هذا معناه أن هذا الشخص لم يتطور بما يكفي!)." (تايلور 2001، 1).

فكرة أن البشر يستطيعون تحقيق تقدم بيولوجي يؤدي في النهاية إلى إنتاج جنس متفوق لم يكن يُنظر إليها على أنها هرطقة أو أن لها هذه الآثار الرهيبة في النازية بالنسبة للفكر الفيكتوري كما هي الآن. شهد جالتون ثمار التطورات الحديثة في التكنولوجيا ونتائج الثورة الصناعية، وكلاهما أثبت له أن البشر يستطيعون التفوق على الطبيعة غير الحية (كيفليس 1985,2). لقد أدرك البشر أن المزارعين يمكنهم الحصول على سلالات أفضل من كل من النبات والحيوان عن طريق الانتقاء الدقيق للانتخاب، ولذلك كان من المنطقي أن يُحَسَن الجنس البشري بالمثل بالطريقة ذاتها(جونس 1980).

كانت النتيجة التي توصل إليها جالتون هي: أنه من أجل مستقبل البشرية؛ يجب وقف تلويث مجموعة الجينات الثمينة المتفوقة لبعض الفئات عن طريق منع تزاوجهم مع السلالات الأدنى. وكانت الخطوة التالية هي أن البشر يجب أن يُوجّهوا بذكاء تطور

---

(1) الرضفة: هي عظمة رأس الركبة، هي عظمة سمكية مستديرة ومثلثة الشكل تتمفصل مع عظم الفخذ وتغطي الجزء الأمامي لسطح مفصل الركبة.

جنسهم بدلاً من ترك مثل هذه العملية الحيوية للصدفة وحدها. ومن المثير للاهتمام أن جالتون لم يكن وحده في استنتاجه هذا، بل كان هناك أيضًا كافة المؤيدين الرئيسيين للتطور، بمن فيهم تشارلز داروين، وألفريد رسل والاس (المعروف في كثير من الأحيان بالمؤسس المشارك في نظرية التطور الحديثة)، وإي. راي لانكستر، وإيراسموس داروين، الذين كانوا يعتقدون أن "التطور يُقر برنامج تكاثر للإنسان" (هولر 1984، 17).

"الطريق إلى إنتاج جنس بشري موهوب هو استخدام العلم للتحكم في من يتزوج من." (جالتون 1869، 1). وفي مسعاه إلى أن يكون لبقاً في مناقشاته حول التناسل العرقي، استخدم جالتون مصطلحات مثل "الزواج الحكيم" و"تثبيط التناسل عند السلالات الأدنى". لم يرَ نفسَه وحشياً - على الأقل في كتاباته - بل آمن بأن مقترحاته كانت من أجل الخير للبشرية على المدى الطويل.

رفض جالتون تماما ما جاء في العقيدة المسيحية عن مساعدة الضعفاء والإحسان إلى الفقراء وهاجمها وكتب ضدها الكثير. وعلى خلاف ما حدث مع كارل بيرسون أحد مؤسسي علم تحسين النسل)؛ حيث وُصف بأنه رجل رياضيايّ بارد بلا مشاعر أو تعاطف، تلقى جالتون العديد من الألقاب الشرفية على عمله بما في ذلك ليس فقط الميداليات المرموقة لداروين والاس، ولكن كذلك ميداليات هوليكس وكوبلي. حتى حصل على رتبة فارس من قبل الحكومة البريطانية، وبالتالي أصبح لقبه السير فرانسيس جالتون (جالتون 1908).

## حجم المخ والذكاء

لإثبات نظريته، اضطر جالتون أن يثبت أولًا كيف أن أجناس البشرية تختلف

جذريًا عن بعضها البعض. وكان عليه أن يثبت أن هذه الاختلافات كانت موروثة. لقد تأثر جالتون بشكل كبير بالطبيب الفرنسي بول بروكا الذي أكد أن الذكاء البشري يرتبط بشكل مباشر بحجم المخ. وكان جالتون يدرك أن بعض الرجال الأذكياء لديهم رؤوس صغيرة وأن العديد من الرجال الجهلة لديهم رؤوس كبيرة، لكنه حاول أن يفسر هذه الحالات مشددًا على أن هذه العلاقة بصفة عامة موجودة.

يجب النظر إلى العلاقة ما بين هذه الآراء والمناخ العلمي السائد في ذلك الوقت (كيفليس 1985،8). إذا كانت العلاقة بين حجم المخ أو العرق والذكاء موجودة، فهي ليست للأسباب العنصرية التي افترضها جالتون. أدت الأنظمة الغذائية والظروف البيئية الجيدة إلى إنتاج أطفال أكبر حجماً جسديًا؛ وبالتالي كان لديهم أدمغة أكبر. لذلك فقد كان الأطفال من الطبقات العليا غالباً ما يكونوا أفضل تغذية وأفضل تعليماً ولديهم وقت فراغ أكبر لمتابعة المؤسسات الفكرية. أمّا الأطفال الذين تربوّا في الأحياء الفقيرة فكانوا يتمتعون بنظام غذائي فقير ويعيشون في بيئات عقلية وجسدية سلبية. ونتيجة لذلك، غالباً ما كانوا يتمتعون بقوام أصغر وبالتالي عانَوّا عيوباً أخرى. وكما هو معروف اليوم، فإن الأطفال من العائلات المرموقة لديهم فرصة أكبر بكثير من غيرهم في الحصول على ببيئة منزلية مُحفزة فكريًا، والذهاب إلى مدارس أفضل، وتلقي تعليم أفضل، وقد يكون لديهم كذلك المزيد من الدعم والتشجيع، والدافع لتحقيق التفوق.

لهذه الأسباب؛ وُجد العديد من الحالات التي استخدمها جالتون لدعم نظريته في تحسين النسل. وجود علاقة بين حجم المخ والذكاء لا يثبت أن أحدهم تسبب في الآخر وهي مغالطة إحصائية واضحة جدا ولكن جالتون تجاهلها. وعلى الرغم من أن

متوسط حجم المخ يختلف بشكل عام، فإنه يميل إلى أن يرتبط بشكل أساسي بالنضج وحجم الجسم. وباستثناء حالات المرض أو التطور غير الطبيعي فإن حجم المخ الإجمالي لا علاقة له بالذكاء أو أي سمة أخرى يمكن ملاحظتها، وبالتالي فمن الواضح أنه خاصية غير وظيفية لا تؤثر في البقاء على قيد الحياة. هناك عدد من أكثر الرجال ذكاء في التاريخ لديهم أدمغة صغيرة للغاية، في حين أن آخرين لديهم أدمغة كبيرة وكانوا متخلفين عقليا، وهي حقيقة لم تثن جالتون عن الترويج لنظريته كما لوحظ (بيردزيل 1972-516 ولوربر 1980).

يعتقد جالتون أن الذكاء أو "الموهبة" وراثية (فطرية) وأنها ستتطور بغض النظر عن البيئة، لأنه يعتقد أنه "نادرًا ما يضعف الذكاء من خلال الحرمان الاجتماعي". لقد افترض أن الطفل لا يحتاج إلى عائلة متميزة لتطوير ذكائه أو مواهبه ولإثبات أن الموهبة نادرا ما كانت تنقصها العوائق الاجتماعية؛ اختار جالتون أمثلة من أفراد جاءوا من عائلات متواضعة لكنهم كانوا ناجحين (كيفليس 1985-4). واستنتج أنه نظرًا لأن عددًا قليلاً من الأطفال الذين ينتمون إلى خلفيات متواضعة قد حققوا نجاحًا، فمن الممكن أنّ غالبيتهم لم تكن لديهم الجينات المطلوبة. جالتون لم يتعامل بشكل كاف مع احتمال أن يكون الأشخاص ذوي القدرات العالية الذين ينشؤون في الفقر يمكن يحققوا نتائج أفضل بكثير لو أنهم ولدوا في عائلة متميزة ولديهم مزايا اجتماعية أخرى.

وأحد "البرهاين" على نظرية علم تحسين النسل كانت أميركا حيث خَلص جالتون إلى أنّ الهيكل الطبقي الجامد الذي كان موجود في بريطانيا العظمى قد تم القضاء عليه فعليًا. فإذا كانت الثقافة تمنع الأشخاص الموهوبين من تحقيق إنجازات أكبر فإن عدد

الأشخاص في مجال الفنون والعلوم في أميركا سيفوق بالتأكيد عدد الأشخاص في بريطانيا لكن استنتج جالتون إلى أن العدد لم يكن كذلك، وبالتالي "لو أن عوائق صعود العبقرية قد أزيلت من المجتمع الإنكليزي تمامًا كما أُزيلت من أميركا"، فلن تصبح بريطانيا أكثر ثراءًا فيما لديها من شخصيات مرموقة.(جالتون 1986 -40-43)

كانت المشكلة الخطيرة في هذا التعميم هي الاختلاف في الحكم على "الطبقة الأولى من الأعمال الأدبية أو الفلسفة أو الفن". تجاهل جالتون إلى حد كبير حقيقة أن أميركا وأوروبا يمتلكان قيمًا وقواعد فنية مختلفة – وهي حقيقة منعت صعود الأشخاص المولودين في الطبقات الاجتماعية الدنيا في أوروبا –. وأنتج العديد من الأمريكيين الفن الذي كان موضع تقدير في الولايات المتحدة ولكن ليس في بريطانيا. لن يتوصل الكثير من البريطانيين إلى أن أميركا لديها فنانين أو كتاب أكثر تميزًا وما إلى ذلك (تشيس 1980).

## نشأة جالتون

دحضت تنشئة فرانسيس جالتون نظريته من نواح متعددة. فقد ولد في عام 1822 لعائلة عريقة اكتسبت ثروتها في الأصل من خلال تصنيع الأسلحة النارية، وكان والد جالتون مصرفيًا عندما تزوج من ابنة إيراسموس داروين، جد تشارلز داروين. استثمرت عائلته الكثير من الوقت والطاقة في تنميته الفكرية. وعلى الرغم من أن فرانسيس جالتون كان طفلاً موهوبًا بشكل واضح، لكن الفضل الكبير في تفوقه يرجع إلى أخته، التي كانت تبلغ من العمر 12 عامًا حيث درَّست جالتون بطريقة فعالة منذ أن كان في عمر سنتين ونصف حتى أتقن القراءة الأساسية. وفي عمر الرابعة استطاع الكتابة. وعلى عكس فرانسيس جالتون، لم يقدم شقيقاه أداءً جيدًا كبالغين، فقد كان الوحيد

في عائلته الذي حقق هذا القدر من النجاح.

وقد أعجبت عائلة جالتون بإيراسموس داروين وكثيراً ما أشادوا بتميزه في مجال الطب والبيولوجيا. كانت عائلته تنتمي إلى جمعية الأصدقاء الدينية (كويكرز)[1] ، لكن والد فرانسيس تحول إلى الكنيسة الأنجليكانية[2] بناءًا على إصرار زوجته فيوليتا. عمل ذلك لصالح فرانسيس لاحقًا حيث جعله قادراً على الذهاب إلى الجامعات الرائدة في إنكلترا، والتي كانت في ذلك الوقت مقتصرة فقط على الأنجليكانيين.

على الرغم من أن جالتون كان طفلاً سابقًا لعصره، إلا أن أداءه لم يكن جيداً في المدرسة. التحق بكلية طبيّة في عمر 16، لكنه لم يؤدي جيدًا هناك (بيرسون 1914). ذلك لأنه كان يشعر بالملل وغياب التحفيز، وغالباً ما كان يحضر العديد من اللقاءات الاجتماعية في وقت متأخر من الليل. لقد سافر كثيرا في محاولة لإيجاد نفسه. وفي عام 1844، وعندما كان فرانسيس في الثانية والعشرين من عمره توفي والده وترك له ميراثًا كبيراً.

وحتى مع وجود العالم في انتظاره، وتوفر الإمكانيات المالية لاستكشافه؛ فإن رغبة جالتون في القيام بذلك لم تكن من جيناته ولكن من تأثير من يحيطون به. كان جالتون مطرِقًا، ومكتئبًا، وبدون أهداف. قام جالتون باستشارة عالم في فراسة الدماغ،

---

(1) الكويكرز أو جمعية الأصدقاء الدينية: جماعة من المسيحيين البروتستانتيين نشأت في القرن السابع عشر في إنكلترا على يد جورج فوكس. (الناشر)

(2) الكنيسية الأنغليكانية: باللاتينية (ecclesia anglicana وتعني الكنيسة الإنكليزية. ويقصد بها كنيسة انكلترا والكنائيس المرتبطة بها تاريخيًا. ويستخدم هذا المصطلح لوصف الناس والمؤسسات والتقاليد الدينية المتعلقة بهذه الكنائس. تأسست في القرن السادس عشر على يد هنري الثامن. من المرجح أنها تتبع المذهب البروتستانتي لكن البعض يزعم أنها كاثوليكية معدلة.(الناشر)

هذا العالم ذكر أن الرجال ممن لهم نوع رأس جالتون يكونون أكثر ملاءمةً للأنشطة مثل الاستعمار والاستكشاف (كيفليس 1985-6). واقتناعًا بأن هذه النصيحة - التي من الواضح أنها خاطئة - قد تكون صحيحة؛ قام جالتون في عام 1850 باستكشاف جزء من العالم كان في ذلك الوقت غير معروف إلى حد كبير للأوروبيين وهو أرض أفريقيا السوداء.

عاد جالتون إلى إنكلترا بفضول متجدد حول العالم الطبيعي وترتيب الأعراق من الأدنى إلى الأعلى. وكان ذلك فقط بعد قراءة كتاب داروين "أصل الأنواع" في عام 1860، حيث وجد دعوته الحقيقية وقضى بقية حياته واضعًا كافة طاقاته الهائلة لتطوير علم تحسين النسل. على الرغم من أن علم تحسين النسل كان خطأ وتسبب في الكثير من الأذى، لكن مساهماته في علم الإحصاء وخاصة في مجال بصمات الأصابع كانت انجازات علمية فارقة. وسرعان ما حصل على ميدالية ذهبية من الجمعية الجغرافية العالمية وانتُخب زميلًا للجمعية الملكية نتيجة لإنجازاته. وقادته هذه التجربة كذلك إلى إلقاءالمحاضرات والكتابة حيث برع فيهما، وطُبعت غالبية كتبه عدة طبعات أثناء حياته.

ومن هذه النقطة فصاعدًا تطورت أفكار جالتون حول تحسين النسل بشكل سريع. وقد ساعدت الانطباعات التي حصل عليها خلال رحلاته الإفريقية في تأكيد معتقداته حول الأجناس المتدنية وكيفية تحسين المجتمع. وهذا الاستنتاج يؤيد بقوة مؤلفات كل من جده وابن عمه تشارلز داروين. ولأن جالتون كُرّم لاسهاماته العلمية، فقد اعتقد أنّه من المحتمل أن تكون أعماله في مجال تحسين النسل طريقة أخرى تمكنه من تحقيق المزيد من الأوسمة. وخلص إلى أن هذا العمل يعتبر أكثر أهمية من ذلك الذي

أكمله عن المجتمعات الجغرافية المختلفة، بل وأكثر أهمية حتى من بحثه الذي ساعد في جعل نظام بصمات الأصابع جزءًا من نظام التحقيق الجنائي في بريطانيا.

ترتبط نظرية تحسين النسل ارتباطًا وثيقًا بتاريخ التطور. قال هولر (1984، 9) — وهو مؤلف لواحدٍ من أكثر الأعمال الحاسمة في تاريخ حركة تحسين النسل -: "نشأ علم تحسين النسل من نظرية التطور الدارويني محاولًا تطبيقها على البشر. انطوت نظرية تحسين النسل على التطبيق - أو سوء التطبيق - للعديد من الاكتشافات في علم الوراثة التي أحدثت تحولًا بعد ذلك في الفهم العلمي للكائنات الحية والطرق التي يحدث بها التطور." وكتب جالتون في رسالة إلى داروين: "شكّل ظهور كتابك "أصل الأنواع" أزمة حقيقية في حياتي" مما أدى إلى هدم مسيحيته "كما لو كانت كابوسًا، وكان أول ما منحني حرية الفكر" (مقتبس من هوللر 1984-198). جانب آخر من دوافع جالتون - باعتباره محايدًا دينيًا -: "أنه وجد في علم تحسين النسل عاملًا عاطفيًا مكافئًا للدين. "الحماس لتحسين العرق هدف نبيل للغاية" وصرح أنه: "قد يزيد من الشعور بوجوب الالتزام الديني." (مقتبس من هوللر 1984-17).

بل إن جالتون أيّد وجهة النظر القائلة بأنه ينبغي استخدام "القانون والعرف" لدعم نظرية تحسين النسل لتحقيق "تحسين الأعراق" (هوللر 1984 -17). وهذا بالضبط ما فعله الحزب الاشتراكي القومي (النازي) بعد عدة سنوات في ألمانيا.

أصبحت طريقة تحليل السلالات التي طورها جالتون - والتي أطلق عليها "إحصائيات من خلال المقارنة"- فيما بعد نظامًا شائعًا لتقييم الاختبارات النفسية. سمح هذا المقياس لجالتون "بإعداد عدد من البيانات العامة حول مقارنة قدرات

الأعراق المختلفة، تلك البيانات التي كانت تتوافق مع" - في نواحٍ كثيرة كانت مجرد إعادة تعبير عن الانحيازات الموجودة في عصره "(ستينجلر 1986، 272).

ومن المثير للاهتمام أن جالتون صنف قدرة الأثينيين[1] القدماء بأنها: "تقريبا درجتين أعلى من درجتنا نحن - أي بقدر ما تتفوق سلالتنا على السلالة الأفريقية الزنجية" (جالتون 1869، 342). ولكن الطريقة التي مكنت جالتون من ذلك لم تكن واضحةً تماماً، لكن من المتحمل أنه اعتمد كلياً على مؤلفات المتثقفين الأثينيين القدماء.

على الرغم من أن علماء الأحياء في عصر جالتون قدموا الكثير من الدعم الفكري والتجريبي للنظرية لكن دُعمت حركة تحسين النسل بشكل أكبر من خلال عمل مُدراء المصحات المخصصة لمن يعانون من التأخر العقلي، والمجانين، ومدمني الكحول، بالإضافة إلى حراس السجون والأطباء وعلماء الاجتماع والأخصائيين الاجتماعيين وغيرهم من المشاركين في رعاية الأشخاص الذين يعانون من مشكلات عقلية أو جسدية (هوللر 1984 -5). ويعتقد أعضاء هذه المهن عموماً أن المجتمع يتحمل مسؤولية رعاية هؤلاء الأشخاص، لكنهم شعروا كذلك أن المجتمع ينبغي أن يمنع هؤلاء الأشخاص من تلويث أجناس المستقبل.

ومفهوم هذا الاستنتاج أن: أولئك الذين يعملون مع المتخلفين عقليًا، والمجرمين ومصابي المتلازمة المؤسسية[2]، والفقراء، وغيرهم اكتشفوا أن عملهم الذي قاموا به

---

(1) الأثينيون: نسبة إلى أثينا. إحدى أقدم المدن في العالم، كانت عاصمة الحضارة اليونانية في العقد الأول قبل الميلاد.( الناشر)

(2) 2- المتلازمة المؤسسية: يصبح الشخص مصابًا بهذه المتلازمة عندما يفقد تدريجيًا القدرة على التفكير والتصرف بشكل مستقل بسبب العيش لفترة طويلة بموجب قواعد مؤسسة ما، كالسجن والمستشفى والمدارس الداخلية وغيرها.( الناشر)

محبِط بشكل لا يصدق (دورنر 1981). غالباً ما يكون من الصعب للغاية مساعدة الأشخاص على تغيير طرقهم عن طريق المحادثة أو النصح. لقد ادّعوا أن الفشل العام في مساعدة هؤلاء الأشخاص ليس بسبب قصور أو ضعف كفائة العاملين (الأخصائيين الاجتماعيين والمؤسسات والأطباء المشاركين)، ولكن سببه أنّ حالة المريض كانت في المقام الأول نتيجة للوراثة، وبالتالي كان هناك القليل الذي يمكن القيام به لمساعدتهم؛ وعليه فإخفاق مقدم الرعاية لم يكن ناتجا عن خطأه.

على افتراض أن ظروف المرضى كانت بسبب الوراثة فالخطوة المنطقية التالية هي إيجاد طرق لتقييد انتشار هؤلاء الأشخاص وتمرير العديد من القوانين التي تتطلب تعقيم مجموعة واسعة من الأفراد الذين - لأسباب مختلفة - ووجدوا أنفسهم في نوع معين من المؤسسات. إذا نظرنا إلى الوراء الآن، فإننا سندرك أسباب إخفاق العديد من العلاجات المزعومة ونظام المؤسسات ككل (فالينستين 1986 ودورنر 1981).

وفي نحو عام 1900 تم الاعتراف بشرعية علم تحسين النسل بشكل كامل من قِبَل الطبقة المتعلمة (بلاكر 1952). ونتيجة لذلك "أصبح معتقد جالتون جزءا - بنفس أهمية جنون آينشتاين - في الحركات العلمانية في عشرينات القرن العشرين" (كيفليس 1985، 59). أصبحت كتب علم تحسين النسل من أكثر الكتب مبيعًا، كتب ألبرت إي. ويجام أربعة كتب شهيرة عن علم تحسين النسل، وجميعها كانت تباع بشكل جيد للغاية (ويجام 1922، 1924، 1925، 1927)، وارتبط اسم عائلة داروين المرموق بحركة تحسين النسل لسنوات، كان الرائد ليونارد داروين - ابن تشارلز - رئيسًا لجمعية تحسين النسل البريطانية في الفترة من 1911 إلى 1928.

كان تأثير حركة تحسين النسل على القانون الأمريكي عميقًا على نحو خاص. ففي عشرينيات القرن العشرين، مرر الكونجرس العديد من القوانين التي تهدف إلى تقييد تدفق "الأجناس الدنيا"، بما في ذلك أولئك القادمون من جنوب وشرق أوروبا وكذلك الصين. كما انعكست معتقدات تحسين النسل على كل شيء من الكتب المدرسية إلى السياسة الاجتماعية. وقد واجه الأمريكيون السود بشكل خاص وطأة هذه القوانين (ستانتون 1960). ويحظر القانون الزواج بين الأعراق في غالبية الولايات ويمنعه الضغط الاجتماعي في كافة الولايات.

وأضاف أن "الأنف العريض المفلطح، والمظهر المائل للوجه الزنجي، متوسط سعة الجمجمة الأصغر -كما قيل- جعلت الزنوج أقرب إلى الأنثروبويدين[1]" (هوللر 1984-52)، وبما أنهم كانوا أقل شأناً فقد اعتُبِر اختلاط الأجناس هو "الطريق إلى الانحطاط العرقي". وخلص علماء تحسين النسل إلى أن الاعتقاد الأمريكي بأن التعليم يمكن أن يفيد كل فرد كان غير علمي وأنه كان من الخطأ الاقتناع بأن الإصلاح الاجتماعي والعدالة الاجتماعية يمكن أن تقلل بدرجة كبيرة من البؤس البشري الذي كان خطرا معلنًا (هوللر 1984، 6).

وقد كان ذلك بين الأعوام 1870 و1900 حيث توجّه المثقفون الأمريكيون لقبول الأشكال المختلفة للعنصرية القائمة على تحسين النسل (هوللر 1984، 6). وقد كان عام 1870 تاريخًا هامًا وذلك: "بسبب عدم وجود فلسفة عنصرية متطوّرة بما يكفي في العالم الغربي قبل الحرب الأهلية، وكذلك الاعتقاد العام بأن كافة البشر ينحدرون من

(1) الأنثروبويدين: هم الحيوانات أشباه البشر مثل القردة.(الناشر)

آدم وحواء، كل هذا كان يؤخر نمو المفاهيم العرقية. كانت النظريات العرقية ذات أهمية فقط بالنسبة لأولئك الذين يدافعون عن عبودية الزنوج من الهجوم المريع المتزايد عليها. أما في فترة ما بعد الحرب الأهلية، فإن الخلفية العامة للفكر التطوري وكتابات العنصريين الأوروبيين قد وفروا المناخ اللازم لتغذية التفكير العرقي" (هوللر 1984، 50 – 51).

وخلال سفرياته المتوسعة؛ لم يقض جالتون الكثير من الوقت في دراسة الأجناس فحسب، بل أيضًا في القراءة بتوسع في مجال الأنثروبولوجيا، كما كان مشاركًا رسميًا في المعهد الملكي للأنثروبولوجيا، حيث تمكّن من أن يتقابل مع علماء آخرين مهتمين بالأعراق. واستنتج أن الأنجلوساكسون كانوا أعلى بكثير من الزنوج الذين كانوا بدورهم متفوقين على السكان الأصليين الأستراليين (جالتون 1880، 17). وفي حين أن جالتون لم يؤيد الانقراض المتعمد للأعراق، إلا أنه صرّح بأنّ وجهة النظر المناهضة لانقراض العرق الأدنى غير عقلانية؛ مما يمهد الطريق بوضوح للإنتهاكات اللاحقة (جالتون 1879، 605-606). كان جالتون صريحًا للغاية في آرائه حول الدونية الفكرية للزنوج، حيث كتب أن:

"عدد الزنوج – الذين يجب أن نسميهم معاقين ذهنيًا – كبير للغاية. جميع الكتب التي جاءت على ذكر الخدم الزنوج في أميركا مليئة بالأمثلة. لقد تأثرت كثيراً بهذه الحقيقة خلال رحلاتي في أفريقيا. كانت الأخطاء التي ارتكبها الزنوج في أمورهم الخاصة طفولية وغبية وبالسذاجة التي جعلتني في كثير من الأحيان أشعر بالخجل من نوعي الخاص." (مقتبس في جريفز 2001، 96).

كما لاحظ جريفز أن جالتون يعتقد أن "سلالات مختلفة من الكلاب كانت أعلى في الفكر من بعض أجناس البشر" (2001، 96).

وقد روج كثير من المفكرين اليهود للرسالة ذاتها، على سبيل المثال: أعرب الحاخام هنري ماي ماير عن قلقه في خدمة في مدينة كانساس سيتي حيث قال: "دمائنا تُغَش بتسرب دماء من الدرجة الأدنى إليها" - أي الزنوج - (مقتبس من كيلفيس 1985، 61) حتى أن بعض الوزراء البروتستانت والكاثوليك انضموا إلى هذا العمل، مشيرين إلى أن الإنجيل قد نصّ على علم تحسين النسل. وأننا ملزمون أمام الله بتطبيق "القوانين" التي اكتشفها علماء تحسين النسل. بالطبع نص الإنجيل على أن كافة البشر من نسل آدم وحواء، وبالتالي فإن كافة البشر مترابطون، ولا توجد مجموعة عرقية أدنى (فيلاند 2011).

كثير من أولئك المتورطين كانوا "متحررين من دين التوراة، وبعضهم كانوا من المتعصبين، والبعض الآخر بشكل افتراضي أو في حالة يأس قد اعتنقوا دين العلم" (كيلفيس 1985-68). و "مع المعجزات الحديثة ذهب الكهنوت الحديث إلى أن: العلماء المختصين في علم الوراثة عددهم ليس صغير. وفي أميركا تضمن كهنوت تحسين النسل الكثير من القيادة المبكرة المسؤولة عن امتداد المندلية" (كيلفيس 1985، 69).

مثالًا على تحليلات جالتون هي " دراسته للانحرافات عن المتوسط " حيث استخدم البيانات حول سمات مثل طول القامة، وأنتج رسمًا بيانيًا باستخدام خط ونقط نمطية لتمثيل كل حالة. تمثل كل نقطة قامة رجل واحد، سيظهر النمط النقط مركزة في الوسط وهناك نقاط قليلة حادت عن الوسط. وفي الوقت الحالي يُعبر عن المفهوم ذاته بالمنحنى العادي.

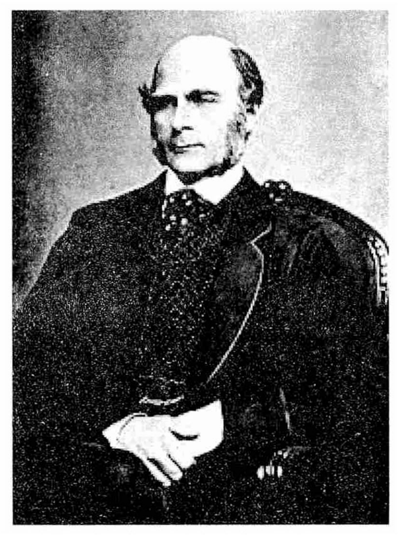
وبحلول عام 1875، طور جالتون طريقة جديدة لعرض هذه البيانات التي أطلق عليها اسم منحنى تكراري، وهو مصطلح استوحاه من مجال العمارة. ونشير الآن إلى هذا التوزيع على أنه دالة توزيع تراكمية عادية عكسية. ولأن هدفه هو إظهار اختلاف الأعراق، فقد بدأ جالتون في استكشاف طرق تقييم هذه الاختلافات. وأعطيت الدرجة الوسطى (أو المتوسطة) قيمة صفر والرقم الأعلى قيمة واحدة والرقم الأدنى يمثل قيمة سالب واحد. وتطورت هذه الطريقة فيما بعد إلى مفهوم الانحراف المعياري (كووان 1985).

## الاستنتاجات

إدّعى البعض أن الداروينية أُسيء استخدامها لدعم علم تحسين النسل، وأنه لا ينبغي انتقاد داروين ولا جالتون بسبب إساءة استعمال نظرياتهم، لكن مثل هذا الادعاء لا يتوافق مع التاريخ. علاوة على ذلك، "فإنّ العنصرية على بعد خطوة واحدة فقط من علم تحسين النسل، تلك المدرسة الداروينية التطبيقية التي أسسها فرانسيس جالتون بهدف تحسين لياقة الجنس البشري من خلال تطبيق "نظرية الوراثة والاختلافات ومبدأ الانتقاء الطبيعي". ولم تكن قفزة كبيرة للإبادة الجماعية بعد علم تحسين النسل" (هسو 1986، 11).

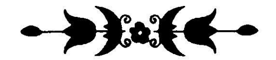
أخفقت حركة تحسين النسل جزئيًا في النهاية نظرًا للتجاوزات الناجمة عنها مثل - النازية -. وفي البداية شجع جالتون فقط الرجال الأصلح للزواج من النساء وإنجاب أطفال، وهو اقتراح أصبح يُعرف باسم "تحسين النسل الإيجابي". ثم اقترح لاحقاً فصل غير الصالح في الأديرة لمنعهم من التكاثر، وهو اقتراح يسمى "تحسين النسل السلبي". (لارسون 1995، 19). وبمرور الوقت أبدى تلاميذ جالتون اهتمامًا متزايدًا بتحسين

النسل السلبي، ويعود ذلك جزئيًا إلى أنه كان يمكن تطبيقه بسهولة أكبر.



السير فرانسيس جالتون (1822 – 1911)
في عمر 66 عامًا

والحقيقة أن تحسين النسل السلبي أصبحت محورًا أساسيًا للعديد من علماء تحسين النسل بعد ذلك مما أدى إلى استفحال برنامج هتلر لتحسين النسل، والذي أدى في النهاية إلى فقدان ملايين الأرواح وانتهاكات واسعة النطاق لحقوق الإنسان. على حد تعبير عالم الأحياء في جامعة هارفارد، إرنست ماير: "لقد صمم مؤسسو علم تحسين النسل كوسيلة للارتقاء بالبشر نحو الكمال الأسمي. ومن المؤسف أن هذا الهدف الأصلي النبيل فد ادى في النهاية إلى بعض ابشع الجرائم التي شهدتها البشرية على الإطلاق" (1988، 80). وعلى الرغم من أن جالتون أسس حركة تحسين النسل، لكنه لم يفِ شخصياً بالتزاماته الخاصة بتحسين النسل؛ كان سليل عائلتين إنكليزيتين بارزتين وتزوج من بنت ثالثة لكن لم يكن مطلقًا له ذرية من نسله (تيلور 1987؛ جيلهام 2001).



# المراجع

جاكبارزون، 1958. داروين و ماركس و واغنر. وجاردن سيتي وكتب دبلداي انكور.

جيري برجمان، 2012. هتلر ونظرية العالم الداروينية النازية: كيف أحدث الحملة الصليبية النازية لتحسين النسل لعرق متفوق أكبر محرقة في تاريخ العالم. كيتشنر - أونتاريو - كندا: مطبعة جوشوا.

جيهبيبيرديسيل،1972 - تطور البشر، اي ال،راند ماكنيلي وشركاه.

تشارلز بلاكر 1952، تحسن النسل: جالتون وتابعيه. كامبريدج مطبعة جامعة هارفرد.

دبليو اف بينوم 2002 - "فرانسيس جالتون"، في موسوعة التطور. حرره مارك باجيل. أوكسفورد، المملكة المتحدة؛ نيويورك: مطبعة جامعة أكسفورد.

آلان تشيس، 1980. تراث مالتوس: التكاليف الاجتماعية للعنصرية العلمية الجديدة. نيويورك: الفريد كنوبف.

روث ششوارتزكوان، ششوارتز1985. السير فرانسيس جالتون ودراسة الوراثة في القرن التاسع عشر. نيويورك: جارلاند للنشر.

هاملتون كرافينز، . 1978. انتصار التطور: العلماء الأمريكيون والوراثة.

الجدل حول البيئة 1900-1941. بيتسبرج، بنسلفانيا: مطبعة جامعة بنسلفانيا.

تشارلزداروين، 1871. أصل الإنسان، والاختيار فيما يتعلق بالجنس. لندن: جون موراي.

كلوس دورنر،1981، جنون الرجال والبرجوازية، التاريخ الاجتماعي للجنون والطب النفسي، اكسفورد، المملكة المتحدة، بلاكويل.

دي دبيلو فورست،1974فرانسيس جالتون: حياة وعمل عبقرية فيكتوريا. نيويورك:

تابلينجر.

نانسي جالاجر، 1999. تربية أفضل لمن يقيمون في فيرمونت، هانوفر، مطبعة جامعة نيو إنغلاند.

فرانسيسجالتون،. 1865. "موهبة وراثية وشخصية." ماكميلان، مجلة ام جي اتش 327-318-166-12:157

1869عبقرية وراثية. لندن: ماكميلان.

1880الاستعلامات في كلية الإنسان وتطورها. الطبعة الثانية. نيويورك: إي. بيداتون، إنك.

1897 "معدل التغيير العنصري الذي يرافق درجات مختلفة من الخطورة في الاختيار – الطبيعة." 55-605-.606

1908 ذكريات حياتي. لندن: ميثون.

نيكولاس رايت جيلهام، 2001. حياة السير فرانسيس جالتون. نيويورك: مطبعة جامعة أكسفورد.

فيكتور جورتزيل وميلدرد جورتزيل 1962،مهد الإيمان. بوسطن، ماجستير: ليتل براون.

ستيفين جي جولد،1996 الخطأ في قياس الأنسان، نيويورك دبليو دبليو نورتون.

جوسيف ال.جونيورجريفز 2001، ملابس الإمبراطور الجديدة: النظريات البيولوجية للأعراق في الألفية، نيوبرونسويك، ان جي،مطبعة جامعة روتجرز.

جون سي جرين، = 1981 العلوم والأديولوجيا وعرض العالم، بيركلي، سي ايه، جامعة كاليفورنيا.

جون س حي ار هوللر،1971، منبوذة من التطور: المواقف العلمية للدونية العرقية، 1859–1900، اوربانا اي ال،مطبعة جامعة الينوس.

مـارك هـوللر،1984، تحسـن النسـل المواقـف الوراثيـة في الفكـر الأمريكـي، نيـو برونسويك، ان جي،مطبعة جامعة روتجر.

جيرترودهيملفارب،1959. داروين والثورة الداروينية. نيويورك: دوبليداي.

ريتشاردهوفستـاتر،1955الداروينيـة الاجتماعيـة في الفكـر الأمريكيبوسـطن، أم ايـه مطبعة بيكون.

كينيث هسو،1986. الموت الكبير: الكارثة الكونية الديناصورات ونظرية التطور. نيويورك: مطبعة هاركورت جوفانوفيتش.

جريتا جونز، 1980. الداروينية الاجتماعية والفكر الإنكليزي: التفاعل بين النظرية البيولوجية والاجتماعية. المرتفعات الأطلسي، نيوجيرسي: مطبعة الإنسانيات.

دانيـال جـي كيفليس ،1985، باسـم تحسين النسل،تحسـين النسـل واستخدامات الوراثة الإنسانية، نيويورك، الفريد أ،نوبف.

إدوارد لارسـون، 1995. الجنس، والعـرق، والعلـوم. بـالتيمور، دكتـوراه في الطـب: مطبعة جامعة جونز هوبكنز.

جون لوربر، 1980. "هل دماغك ضروري حقا؟" العلم، 210: 1232.

إرنست ماير، 1988. "أصول الأخلاق البشرية،" في نحو فلسفة جديدة من علم الأحياء: ملاحظات من التطوري. كامبريدج، ماساشوستس: مطبعة جامعة هارفارد.

هوراشيو هاكيـت نيومـان، 1925. الخطوط العريضة للعلم الحيوان العام. نيويورك:

ماكميلان.

كارل بيرسون، 1914. حياة ورسائل وعمال فرانس جالتون. المجلد. 1، 1914؛ المجلد. 2، 1924؛ و 3، 1930. مطبعة جامعة كامبريدج، جامبردج.

روبرت ان بروكتر، 1988. النظافة العنصرية: الطب تحت النازيين. كامبريدج، ماساشوستس: مطبعة جامعة هارفارد.

مارشال ساهلينز، 1977. استخدام وإساءة استخدام علم الأحياء: نقد أنثروبولوجي لعلم الاجتماع الاجتماعي. آن أربور، ميتشيجان: مطبعة جامعة ميتشيجان.

دينيسسيويل، 2009. الجين السياسي: كيف غيّرت أفكار داروينالسياسة. لندن: بيكادور.

اليوت سلاتر،1960" ارث جالتون" مراجعة تحسن النسل 52(2)91-103.

ويليام ستانتون 1960،مواقع ليوبارد، الاتجاهات العلمية نحو الأعراق في أميركا،1815 -1859، شيكاغو اي ال، مطبعة جامعة شيكاغو.

ستيفين ام ستيجلر،1986، تاريخ الاحصاء، قياس عد اليقين قبل 1900، كامبردج أم ايه، مطبعة بيلكناب جامعة هارفارد.

إيان تايلور، 1987. في عقول الرجال.، مينيبوليس أم ان، الناشر تي اي اف....2001 المراسلات الشخصية.

اليوت اس فالينستين،1986العلاجات الكبيرة اليائسة، نيويورك: ناشرو الكتب الأساسية.

كارل ويلاند، 2011عائلة بشرية واحدة: الكتاب المقدس والعلم

والثقافة.اطلانطا، ناشرو الكتب الإبداعية.

ألبرت إدوارد ويغام، 1922. الحوار الجديد للعلوم، جاردن سيتي، ان جي، جاردن سيتي، شركة الناشر.

1924فاكهة شجرة العائلة. انديانابوليس، شركة بوبس ميريل.

1925علامات رجل متعلم، انديانابوليس شركة بوبس ميريل.

1927العصر القادم للإنسان، انديانابوليس شركة بوبس ميريل.



# الفصل الرابع

## تفسير كبار الداروني ين للعنصرية لأكثر من قرن

## مقدمة

كانت الآراء العنصرية للداروني ين في وقت مبكر مدعومة على نطاق واسع، ليس فقط من قبل عدد قليل من العلماء المتمردين، ولكن من قبل غالبية علماء الأحياء البارزين حتى خمسينيات القرن الماضي على الأقل. يوضح هذا الدعم من المجتمع العلمي العالمي أن الداروينية قدمت تبريرًا علميًا للأحقاد المسبقة التي سمحت بتصنيف الأشخاص وفقًا للصفات الجسدية بناءً على معايير تطورية على مستوى لم يسبق له مثيل في التاريخ.

## مفهوم العرق

كان الباعث الحديث على المفهوم البيولوجي للعرق - كما نعرفه اليوم - هو اعتناق العديد من العلماء والإصلاحيين الاجتماعيين لما يسمى الآن "بالداروينية الاجتماعية" في النصف الأول من القرن التاسع عشر (توباخ وآخرون 1974؛ وديفيدهيسير 1969). الداروينية الاجتماعية هي الاعتقاد بأنه يمكن تحسن المجتمع والبشرية عن طريق تطبيق أفكار داروين، وتحديدًا فكرة "البقاء للأصلح". كان الاعتقاد السائد هو أن التطور يتحسن من خلال التخلص من الأقل صلاحًا والإبقاء علي الأصلح ليتكاثروا، وبالتالي تحسين العرق، والمجتمع، والبشرية.

أصبحت نظرية داروين وبالتحديد الاعتقاد الذي كان لدى الكثيرون في أيامه أن بعض الأجناس مثل السود كانوا أدنى من الآخرين، وأصبح مقبولًا على نطاق واسع من قبل المجتمع العلمي أن "موضوع الدونية العرقية كان أكثر من حساس في أواخر القرن

التاسع عشر" (هوللر 1971، 132). وفي بداية القرن العشرين كانت المناقشات حول المشكلات الاجتماعية تتضمن عادة المفاهيم الداروينية عن الطبقة والعرق، فقد كان تقريبا "لكل واحدة من هذه النظريات بعض التطبيق العملي ولها نتيجة طبيعية في المجالات: السياسية أو الاجتماعية أو الثقافية. في هذه الأثناء كان البحث في المجالات البيولوجية والأنثروبولوجية، وعلوم اللغة تجري بشكل مكثف، لكن هذا لم يقلل من استخدام التفكير العرقي" (بارزون 1958، 19).

في فترة ما قبل الحقوق المدنية كانت العديد من الكتب المدرسية الرئيسية عنصرية بشكل علني. على سبيل المثال عرّف نيومان (1932، 190) التطور على أنه "تغيير عنصري"، مضيفًا أن "الأجناس هي الوحدات التطورية للحياة" (التأكيد في النص الأصلي)، وإذا "لم يوجد اختلاف، فلا يمكن أن يكون هناك تطور" (1932، 539). واستنتج (ص 539) أن الأجناس ليست متساوية، وحالة المساواة "غير مرغوب فيها بشكل كبير من وجهة نظر تطورية بحتة، لأن التطور العضوي يعتمد على النضال بين المخلوقات التي تملك اختلافات متعددة وما يترتب على ذلك من اختيار تلك الاختلافات التي تشكل حيازتها الأفضلية في التكيف أو التلاؤم مع بيئة محددة" مما يعني بقاء العرق الملائم. ويمكن لأي شخص يجمع كتب البيولوجيا القديمة أن يلاحظ سريعًا أن هذه الأمثلة كثيرة جدًا، وخاصة في تلك الكتب التي تركز على التطور.

وكما ذكرنا من قبل، كان ابن عم داروين - السير فرانسيس جالتون - مؤسس حركة تحسين النسل. والذي لعبت كتاباته دورًا حاسمًا في نمو العنصرية البيولوجية، لا سيما في تعزيز الحتمية البيولوجية (جالتون 1880). والحتمية البيولوجية هي فكرة أن

مصير الشخص في الحياة يتحدد بشكل كبير عن طريق الجينات وليس البيئة. وعلاوة على ذلك، فقد افتُرض أن وجهات نظره حول الدونية العنصرية قد لاقت - إلى حد كبير - قبولًا من العلماء والعامة على حد السواء. وكان نتيجة هذه العوامل أن العديد من الداروينيين الأوائل - إن لم يكن كلهم - قد أصبحوا عنصريين صريحين. يدعي المؤرخ ريتشارد فيكيرت أنه قبل تسعينيات القرن التاسع عشر؛ اعتنق كافة العلماء ذوو النفوذ من الأنثروبولوجيين وعلماء الأجناس الداروينيين - وأيضًا غالبية علماء الأحياء الداروينية ومبسطين العلوم - العنصرية العلمية. وفي الواقع كان الماديون الداروينيون والأحاديون[1] هم الرسل البارزين للعنصرية العلمية في ألمانيا. بالرغم من أن العنصرية العلمية لا تعتمد بشكل رسمي على النظرية الداروينية، إلا أنّها استعانت بالداروينيين بسبب تشديدها على الحتمية البيولوجية وعدم المساواة (2004، 114). ونتيجة لذلك، لم يكن علم تحسين النسل (اليوجينيا) ولا العنصرية البيولوجية محل نقاش أو قلق من قبل غالبية العلماء (هيكرافت 1895؛ وستانتون 1960). ولاحظ ماركس قوة العنصرية

عندما قام عالِم الأنثروبولوجيا أشلي مونتاجو بنشر أبحاثه المبكرة ضد العنصرية في علم الأحياء (1941)، حيث واجه غضب "أقوى علماء الأنثروبولوجيا الفيزيائية وعلماء البيولوجيا في منتصف القرن" (ماركس 1999-11).

تأصلت العنصرية التطبيقية في حركة تحسين النسل بشكل جيد بين علماء الأحياء وغيرهم في المجالات الأخرى ذات الصلة، وخاصة في ألمانيا، فقد لاحظ المؤرخ إدوارد

(1) 1- الفلسفة الأحادية: هي نظرية فلسفية تقول أن الأشياء المتنوعة الموجودة في الكون تتكون من مادة واحدة وتنكر وجود أي اختلاف أو ازدواجية بين الأشياء فلا فرق بين المادة والعقل ولا فرق بين الإله والعالم.

لارسون أنه حتى في الولايات المتحدة "أيد علماء الأحياء بشكل عام أو على الأقل لم يعارضوا علانية، حركة [تحسين النسل] خلال سنوات تكوينه" (1995، 30). وأضاف أن "الجمعيات المهنية" العلمية اتبعت الأسلوب ذاته بشكل نموذجي وأن "عدد قليل من النخبة من الأفراد والمؤسسات الخيرية" - بما في ذلك معهد كارنيجي ومؤسسة روكفلر - قدمت الكثير من الدعم المالي للحركة (1995، 30).

استنتج عالم الأنثروبولوجيا - بيير فان دن بيرغ - أن الذكاء الغربي بأكمله "قد أصيب بعدوى العنصرية والداروينية الاجتماعية" وذلك منذ منتصف القرن التاسع عشر عندما نشر داروين كتابه أصل الأنواع (1859) حتى عشرينيات القرن العشرين (1967، 2). ولاحظ أن أحد الاستثناءات القليلة كان عالم الأنثروبولوجيا فرانز بواس.

كما استنتج المؤرخ جون هوللر أن "العلم أصبح أداة أثبتت الدونية المفترضة للزنوج، وبررت سياسات التهميش والفصل العنصري بجعلها مصطلحات علمية اجتماعية" وأن فهم "سلوك الدونية العرقية في سياق العلوم والعلوم الاجتماعية في القرن التاسع عشر هو الخطوة الأولى لمعرفة مدى عمق التحيز العنصري في يومنا هذا" (هوللر 1971، 10).

وأضاف أن الإيمان بدونية بعض الأعراق "كان في الأساس ضمن إطارها التطوري وظلت كذلك حتى تحولت من أسطورة اليقين العلمي إلى قمة "الحقيقة". والطريق لرؤية التعصب من وجهة نظرهم العلمية هو فهم لماذا استمر سلوك الدونية العرقية في التفشي في الثقافة الغربية؟" (هوللر 1971 ، 10-11).

وعلى الرغم من أن العنصرية البيولوجية لم تصل إلى حد الإبادة الجماعية إلا في ألمانيا، لكن تأثير علم تحسين النسل كان قويًا على السياسات الحكومية العنصرية

وقرارات المحاكم في أميركا وأماكن أخرى (جولاغير 1999). حتى أن المؤرخ مايكل بيرلي قال أن: "السمة المميزة لألمانيا النازية كانت هوسها بالعرق" وأن "النخبة المثقفة، بمن فيهم: علماء الأنثروبولوجيا والأطباء والاقتصاديين والمؤرخين والمحامين والأطباء النفسيين" تعهدوا بالعنصرية الداروينية للحد الذي يجعلهم متورطين في "تشكيل وتنفيذ السياسات النازية" (بيرليغ2001-507).

كانت العنصرية موجودة في الغرب من قبل دارويين، ويرجع ذلك بشكل كبير إلى الأفكار التي انبثقت عن الحركة العلمانية المناهضة للمسيحيين -"التنوير"[1]-. وكما وضّح فيكارت أن: فكرة التعددية كانت إحدى ثمار التنوير التي أدت إلى العنصرية العلمية، وفكرة أن "الأجناس البشرية لم تنحدر من أسلاف مشتركة"، هي فكرة نشأت في القرن الثامن عشر حيث تعارضت مع الفلسفة الأحادية، والتي كانت مسيطرة لعدة قرون، ذلك لأن تعاليم المسيحية حتى هذا الوقت كانت تُلحق كل سلف البشرية بزوج واحد مخلوق في الماضي غير البعيد. وقد استخدم فولتير - وبعض المفكرين الآخرين في عصر التنوير - التعددية[2] كسلاح لمهاجمة العقائد المسيحية المزعومة والتي عفا عليها الزمن. واستمرت التعددية مسيطرة خلال القرن التاسع عشر حتى أواخره عندما

---

(1) 1- التنوير: هي حركة فكرية أوروبية ظهرت في أواخر القرن السابع عشر وامتدت للقرن الثامن عشر، كانت تؤكد على مذاهب العقل والفردية بدلًا من التقاليد. كانت متأثرة بشدة بفلاسفة القرن السابع عشر مثل: ديكارت ولوك ونيوتن، ومن أبرز أنصار هذا المذهب: كانط وغوتة وفولتير وروسو وآدم سميث.(الناشر)

(2) 1- النظرية التعددية: هي النظرية القائلة بأن البشر لهم أصول متعددة، على عكس النظرية الأحادية. وهي -على عكس ما يعتنقه اليهود والمسيحيون والمسلمون أن البشر من نسل زوجين فقط (آدم وحواء)- تنص على البشر ينحدرون من أكثر من "شخص أول".( الناشر)

دحضتها التفسيرات الداروينية لأصل الأجناس (2004، 104).

وعلى العكس من هذه النظرة البيولوجية؛ كانت النظرة البيئية التي تبناها كثير من مفكري القرن التاسع عشر، وقد زعموا أن "العقل البشري كان عبارة عن صفحة فارغة (سجل نظيف، كما سماه لوك)"، وأن تفاوت البشر يرجع إلى الاختلاف في الخبرات والتدريب والتعليم. ولهذا فإنّ الأجناس "غير المتحضرة" يمكن أن ترتقي إلى مستوى الأوروبيين ذاته من خلال التعليم. وقد عكف العديد من قادة الأنثروبولوجيا الألمان في أواخر القرن التاسع عشر – وخاصة الشخصيات البارزة كرودولف فيرشو وأدولف باستيان ويوهانس رانك – على إعادة النظر في هذا المنظور الليبرالي، وعارضوا بقوة توغل العنصرية البيولوجية – وأيضًا الداروينية – في مجالهم (فيكارت 2004، 104).

وفي النهاية خسر هؤلاء المفكرون المعركة أمام الداروينية.

## أهمية مؤلفات داروين وأفكاره

كانت مؤلفات داروين حاسمة في تطوير نظرية التطور، وأفكاره حول تطبيق نظريته أيضا هامة جدًا لفهم تاريخ العنصرية. وعلى الرغم من أنه كان معروفًا عنه بأنه رجل لطيف ونبيل، لكن داروين دعم علانية العديد من أفكار تحسين النسل وكذلك العنصرية التي تولّدت منها نظريته. لقد كان مقتنعًا تمامًا أن نظرية النسل كانت صالحة و"امتدح جالتون قائلًا: "نحن الآن نعلم من خلال عمل السيد جالتون المثير للإعجاب أن تلك العبقرية أقرب إلى أن تكون موروثة"." (كيلفيس 1985، 20). الوراثة هي أحد العوامل في تطوير بعض السمات مثل القدرة الموسيقية. لقد قام جالتون وعلماء تحسين النسل بتوسيع أثر عامل الوراثة هذا إلى ما هو أكثر من سمة واحدة منفصلة ليشمل

مجموعة كبيرة من العوامل المنفصلة والمحددة والتي من الواضح أن البيئة تلعب دورًا رئيسيًا في تكوينها. وعلى الرغم من أن داروين كان أقل عنصرية بكثير عن العديد من تلاميذه (مثل سبنسر وهيجل وهوتون وبيرسون وهكسلي)، لكن نظريته قدمت الأساس لعنصريتهم المتطرفة إلى الحد الذي ظهر في حركة تحسين النسل، وهي الفكرة التي دعمها علنا رغم أنه عارض الأشكال المتطرفة من اليوجينيا مثل التعقيم القسري الذي دعَمه كثيرون في عصره. أنهى داروين كتابه عن التطور البشري، مشيراً إلى أن: "النهوض بمصلحة البشرية أمر معقد للغاية". وكما لاحظ السيد جالتون أنه: إذا تجنب العاقل الزواج بينما تزوج الطائش؛ فإن الأعضاء الأدنى يميلون إلى استبدال الأعضاء الأفضل في المجتمع. لا شك أن الإنسان - كأي حيوان - آخر تطور إلى حالته الراقية الحالية من خلال الصراع من أجل البقاء. ونتيجة لتضاعفه السريع، لأنه لا زال يريد التقدم أكثر من ذلك، فيُخشى أنه يجب أن يبقى مستمرًا في صراع حاد. أما إذا غرق في الجمود فلن يتفوق البشر الأكثر موهبة على الأقل موهبة في معركة الحياة. ويجب أن تكون هناك منافسة مفتوحة لكافة البشر وألا يُمنع الأكثر قدرة منهم بالقوانين أو العادات من التفوق وتربية أكبر عدد من النسل (1896، 618).

هذه الفكرة نالت تدريجيًا قبولًا داخل المجتمع العلمي في أوروبا والولايات المتحدة وكذلك في أماكن أخرى. ونظرية الخلق - العرق الواحد - فقدت صلاحياتها تدريجيًا. فمثلًا، ما زال داروين يعتقد أن كافة البشر لديهم أصل مشترك، ولكن هذا الاعتقاد لا يعني بأية حال المساواة العرقية، ففي الواقع أدعى العديد من الدارسين أن الداروينية أثبتت عدم المساواة بين البشر بما في ذلك عدم المساواة العرقية. فقد أكد داروين وغالبية

الداروينين على التنوع البيولوجي داخل كل نوع. وعند تفسير التطور البشري كان داروين في حاجة إلى الرّد على أولئك الذين أصروا على أن العقلانية البشرية والكلام والأخلاق أمور يتفرد بها البشر، ولا يمكن أن تكون نتاج التطور (فيكارت 2004، 105).

من أجل التعامل مع هذه المخاوف الصحيحة، حاول داروين أن يبيّن أن الحيوانات - خصوصًا القرود - لديها كذلك مستوى معين من القوة المنطقية والكلام وحتى الأخلاق. وفي المقابل أكد داروين أن بعض الأعراق تمتلك مَلَكات فكرية وأخلاقية أدنى بكثير من تلك التي يمتلكها الأوروبيون. ومن ثم فإن التأكيد على عدم المساواة العرقية قد أدّى وظيفة هامة في محاولة داروين سد الفجوة بين القرود والبشر. وعلى الرغم من أنه عارض العبودية وأبدى أحيانًا تعاطفًا مع الأجناس غير الأوروبية، لكنه اعتقد أن هناك فجوة واسعة تفصل بين "الأعراق العليا" و"الهمج الدونيين" - كما أطلق على الذين كانوا أقل شأناً من الأوروبيين من الناحية الفكرية والأخلاقية -. لم تكن هذه نقطة هامشية عابرة، فقد ذكر داروين في المقدمة بوضوح أن أحد الأهداف الثلاثة لكتابه هي النظر في "قيمة الاختلافات بين ما يسمى بسلالات الإنسان" (فيكارت 2004، 105).

كان داروين على علم تام بتداعيات العنصرية على أساس نظريته في التطور. في الفصل السادس من "أصل الإنسان"، توقع أن ضغوط البقاء للأصلح ستقضي في نهاية المطاف ليس فقط على عرق الزنوج، ولكن أيضًا على كافة "الأجناس الدنيا". واستنتج أنه "بالنسبة للهمج، فإنّ ضعفاء الجسم أو العقل سيتم القضاء عليهم بسرعة" (1896، 133) وأن "الأجناس المتحضرة قد امتدت، وهي الآن في كل مكان توسع

نطاقها حتى تحل محل الأجناس الدنيا" (1896، 135). أوضح داروين أن الانتقاء الطبيعي فعل ومازال يفعل الكثير "من أجل تقدم الحضارة" (1887، 316). أعطى مثالًا على ذلك: الخطر الذي تعرضت له أمم أوروبا، ولم يكن ذلك قبل عدة قرون من كونها تحت سيطرة الأتراك، الآن هذه الفكرة أصبحت سخيفة! لقد هزم الجنس الأكثر تحضرًا - المسمى بالقوقازيين - جنس الأتراك الأجوف في صراع البقاء. فإذا نظرنا إلى العالم في الماضي القريب مثلًا، فسنرى عدد لا نهائي من الأجناس الدنيا التي قُضِيَ عليها من الأجناس الأكثر تحضرًا في كافة أنحاء العالم (داروين 1887، 316).

كان عالم الأحياء إرنست هيجل هو المتحدث الرسمي باسم داروين في ألمانيا، وهو يعد "الجد الأكبر" لعلماء الأحياء النازيين (بولياكوف -284 1974). وقد أوضحت أبحاث جرت خلال أربعة عقود حول النازية أن "الهوس النازي مع المثالية العنصرية كان متأصلاً في الداروينية" (لاكوير 2001 -282). ومن المهم أن نلاحظ أن داروين لم يفعل الكثير لمعارضة استنتاجات العنصريين في أعماله وكتاباته التي انتشرت بسرعة بين الطبقات المتعلمة (انظر الفصل رقم 7، "عن أجناس البشر" في كتابه "أصل الإنسان").

## عنصرية داروين

استنتج داروين أن أحد أقوى الأدلة على التطور هو وجود "الأجناس البدائية" الحية التي يعتقد أنها كانت تطوُّرًا بين "الأجناس البشرية المتحضرة" والغوريلا وذلك على الرغم من أنه عارض شخصيًا كافة أشكال العبودية. كما أنه يعتقد كما ذُكر أعلاه، أنه في المستقبل غير البعيد فإن الأجناس البشرية "المتحضرة" المتطورة ستقوم بالقضاء تمامًا على الأجناس الهمجية واستبدالها في كافة أنحاء العالم وأيضًا سيتم إبادة القردة التي

تشبه البشر. ستكون الفجوة بين الإنسان وأقرب الأنواع الأخرى إليه أوسع. ذلك لأنه ستتدخل بين البشر في الدول الأكثر تحضراً، فنأمل أن يصل الفرق إلى ما بين القوقازيين وبعض القرود الدنيا مثل السعدان بدلاً مما عليه الآن بين الزنجي أو الأسترالي والغوريلا (داروين 1896، 156).

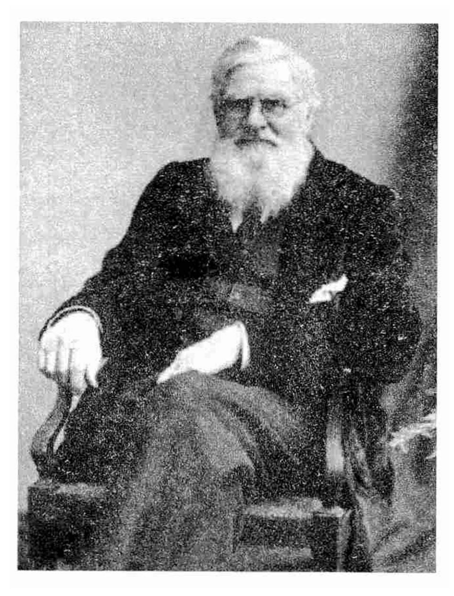
كما يوضح هذا الاقتباس رأي داروين حول أن"الأجناس الهمجية" تقع بيولوجيًا بين القرود والبشر. ولهذا السبب استنتج العديد من أنصار التطور في ذلك الوقت أن الحلقة المفقودة لم تكن مفقودة، بل كانت موجودة في أستراليا والأراضي البعيدة الأخرى (دي لوبينفيلز 1949). كان داروين ينظر إلى وجود هذه الأجناس صراحة كدليل لا يمكن نكرانه على تدرج الكائنات الحية؛ أي "ربط" البشر بالقرود والتعبير المستخدم اليوم هو "ربط البشر مع أسلافنا من الرئيسيات الأساسية" بدلاً من القرود. وفُسر هذا "الاستشهاد العلمي" بوصفه دليلًا مقنعًا للتطور ونتيجة لذلك فقد ناقشت غالبية كتب علم الأحياء في ذلك الوقت "التسلسل الهرمي للأجناس". وكما يلاحظ جون كوستر، لم يَعُدّ داروين "الأجناس الأقل تحضراً" من البشر أصلًا. وفيما يخص كافة كراهيته للعبودية فإن كتاباته كانت تتخللها كافة أنواع ازدراء الأشخاص "البدائيين". وقد كُييفت العنصرية ثقافيًا للفيكتوريين المتعلمين من خلال بعض الحيل العملية مثل قياسات مورتون للدماغ لإثبات أن الأفارقة والهنود لديهم أدمغة صغيرة، وبالتالي لديهم عقول ومفكرين غير كاملين. كتب داروين بعد مقابلة مع الهنود البسطاء في تييرا ديل فويجو: "لم أكن أصدق الفرق بين البشر الهمج والمتحضرين، إنه أكبر من الفرق بين الحيوانات البرية والأليفة، وبالنظر إلى مثل هؤلاء البشر، يصعب تصديق أنها

كائنات رفيقة وأنهم سكان من العالم ذاته" (1988، 50).

واستنتج داروين كذلك إلى أن القرَدة الأكثر تقدمًا وأن "القردة الشبيهة بالإنسان" ستنقرض كذلك.

## معاصرو داروين

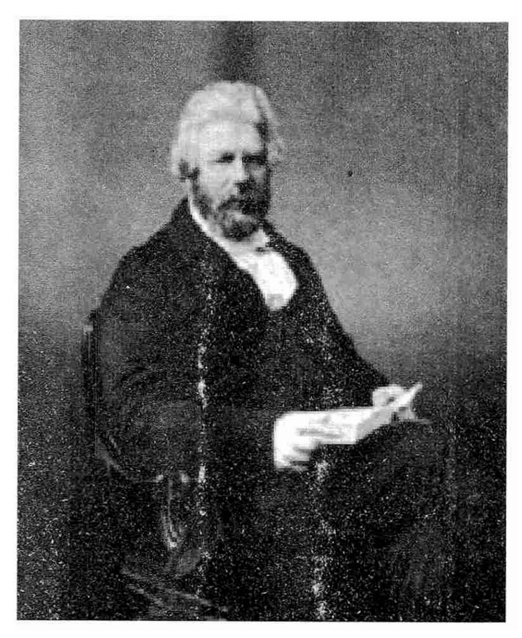
كان الكثير من التطوريين الذين عاصروا داروين أيضًا عنصريين. ألفريد راسل والاس، والذي له نفس الفضل في التنظير لنظرية التطور من خلال الانتقاء الطبيعي تمامًا مثل داروين. تبنى نفس أفكار داروين لكن فقط تلك الأفكار المتعلقة بغير البشر (بروكس 1984، والاس 1890). في كلماته: "عمومًا، الأصلح يعيش، وهذه العملية الذاتية قد "تحسن العرق" لأنه في "كل جيل، سيتم حتمًا قتل الأفراد الدنيا" و"الأصلح" سيبقى وهذا هو "البقاء للأصلح" (مقتبس من وارد 1927، 288). هذا هو خلاصة الداروينية، والكفاءة النسبية الناجمة عن الاختلافات (العنصرية) هي جوهرها.



*عالم الأحياء والطبيعة والجغرافيا البريطاني ألفريد راسل والاس، 1895*

ذكر روبرت تشامبرز في كتابه "آثار التاريخ الطبيعي للخلق" والذي قال عنه داروين أنّه من دون هذه الآثار ربما لم يكن بمقدوره تأليف كتابه "أصل الأنواع" مطلقًا. الزنوج "أدني من" المغول (السلالة الصفراء) والقوقازيون كانوا في القمة (كروكشانك 1931، 4 – 6).

وأوضح تشامبرز كذلك أن "مختلف الأجناس البشرية، هي ببساطة مراحل التطور للأعلى أو للقوقازيين" وأن الزنوج كانوا الأقل تطورًا، والقوقازيين هم أعلى السلالات تطوراً (كروكشانك 1931، 4). وقد أشار فيكارت إلى أن العلاقة بين "الداروينية والعنصرية العلمية تبدوا أكثر إثارة للدهشة عندما نقارن بين علماء الأنثروبولوجيا الدراونة والإثنولوجيين مع نظرائهم غير الدراونة. كان كلا من رودولف فيرشو، وأدولف باستيان، ويوهانس رانكي من أبرز الشخصيات المسيطرة في المجتمع الأنثروبولوجي الألماني في أواخر القرن التاسع عشر حيث كانوا أشهر أخصائي علم الأمراض (وزعماء السياسيين ليبراليين) وجميعهم عارضوا النظرية الداروينية" (2004، 114-115).



*روبرت تشامبرز، محرر الاسكتلندي وبائع كتب وعالم. حوالي عام 1863.*

وأضاف أن فيرشو أغضب تلميذه السابق هيجل عام 1877 "من خلال التشكيك في مدى ملاءمة تدريس التطور في المدارس، حيث كانت النظرية مجالًا للتأمل" و لرفضه أن الإنسان البدائي كان سلفا للإنسان مدعيًا أنه كان مجرد عينة مرضية. كان رانكي معروفًا كذلك بموقفه المناهض للداروينية، وقد أذهل هرمان كلاتش في مؤتمر الأنثروبولوجي في عام 1899 عندما وصف وجهات نظره الداروينية حول تطور الإنسان

أنها خيال وليست بعلم. وبجانب رفض الداروينية فإن كلًا من فيرتشو وباستيان وورانكي قد رفضوا أيضًا العنصرية البيولوجية. بل وأكدوا على المساواة العرقية وأحادية المنشأ وتأثير البيئة والتعليم على الأشخاص، وأن علم الأنثروبولوجي العلمي لم يُوَلّد بالضرورة نظريات عدم المساواة البيولوجية كما تُظهر الأنثروبولوجيا الألمانية (2004، 115-114).

## لماذا أصبح الكثير من العلماء "عنصريين" بشكل صريح ؟

إن النجاح في تربية الأبقار والكلاب والحيوانات الأخرى ذات الخصائص المرغوبة قد أعطت دعمًا تجريبيًا لمفهوم "التكاثر العنصري" كما دعا إليه في البداية علماء تحسين النسل، ثم وضعه هتلر وآخرون في السياسة العامة (ستاين 1988؛ وفيندنج 1989). لاقت فكرة "تحسين النسل" - وهو الفكرة القائلة بإن البشر يمكن أن يحسنوا السلالة عن طريق التربية الانتقائية - قبولًا واسعًا خاصة في أوروبا والأمريكاتين (غلاغير1999، وتشيس 1980، وكرافينز 1978، وكامبل 1955). والأهم حركة تحسين النسل التي دعمها غالبية العلماء الأكثر شهرة بعد داروين(كيلفيس 1985 وهوفستادتير 1955).

من السمات الرئيسة للداروينية أن هناك الكثير من الأمثلة التي توضح كيف يمكن تصنيف البشر الأحياء من الأكثر إلى الأقل تطوراً. وأحد الأمثلة النموذجية كان استجابة للعالم أوستن إتش. كلارك - عالم الأحياء في معهد سميثسونيان - الذي اقترح أن يعمل التطور على شكل "طفرات" (فونك 1929، 28). ولاحظ أن الاقتباس يستخدم كدليل إنسان بلتداون "Piltdown Man " - الذي لم يعد يصدّق به الآن - وكذلك الإنسان البدائي (نياندرتال) وكروماجنون[1] حيث أنّ جميعهم أظهروا اختلافات

(1) إنسان بيلتداون: في عام 1912 قُدمت بقايا عظام جمجمة جمعت من منجم حصى في بلتداون في إنكلترا. كانت =

عديدة عن البشر.

– إنسان نياندرتال وكروماجنون: أنواع منقرضة من البشر والفرق بينهم أن: النياندرتال عاش قبل الفيضان العالمي بينما الكروماجنون عاش بعده، الكروماجنون هم الأوروبيون الأوائل. وتستند هذه النتائج إلى نتائج تحليل الحمض النووي الخاص بالبقايا التي عثر عليها، وتشير النتائج إلى أن الكروماجنون أقرب إلى الحمض النووي للإنسان الحالي.

بهدوء خالف د. كلارك القول القديم بإن الطبيعة لا تتطور من خلال طفرات، وأكد أن هذه هي الطريقة الوحيدة لها. ومع ذلك، فإن الإنسان تطور بخطى بطيئة – كما يبين لنا تاريخ الجمجمة بوضوح – فقد تدرج من الإنسان المنتصب[1] مرورا بإنسان بلتداون ونياندرتال وأخيراً كروماجنون الذي يمثل بوضوح النوع الحديث منه (فونك 1929، 28).

ردًا على كلارك جادل فونك أنه إذا استمر التطور في قفزات واسعة – كما ادعى د. كلارك – فإنه كان يجب أن يُظهر الإنسان الأول نوع الإنسان شديد التحضر اليوم. ولا نحتاج العودة إلى الحفريات، فإن أقل نوع من البشر الذين يعيشون الآن هم الهمج الأستراليون والذين لا ينتمون بأي شكل إلى النوع المتحضر مما يسقط نظرية د.

=

موضع جدل حتى عام 1953 حين ظهرت حقيقة أنها مزورة فالفك السفلي هو لقرد الغاب وبقايا الجمجمة تعود لجمجمة إنسان حديثة. ( الناشر)

(1) الإنسان المنتصب: باليونانية (Pithecanthropus erectus) وتعني الإنسان القرد المستقيم أو المنتصب. كان يعتقد أن هذا الإنسان قد بدأ في الانقراض عندما بدأت الأنواع الأخرى في الظهور أي ما يقارب من 400 ألف سنة، لكن بعض الدراسات والأحافير وخصوصا تلك التي تمت على جزيرة جاوة الأندونيسية أثبتت بأن هذا الإنسان عاش إلى ما يقارب الخمسين ألف سنة مضت، مما يعني أنه عاصر الإنسان الحالي. ( الناشر)

كلارك والذي بدلًا من أن يجمع النقاط الجيدة في نظريات الخلق والتطور؛ جمع الصعوبات من كل منهما (راجع، فونك 1929، 28).

كتب توماس هكسلي – العالم الذي كان مسؤولا في المقام الأول عن القبول الواسع للداروينية في القرن التاسع عشر – أنه بعد فترة وجيزة من تحرير العبيد السود في أميركا "لا يوجد أي رجل عقلاني مدرك للحقائق يعتقد أن متوسط الزنوج يكافئ متوسط البيض حيث أنه لا يزال أقل تفوقًا. وإذا كان هذا صحيحًا، فمن غير المعقول أن نفترض أنه

عند إزالة كل ما يعوقه سيكون قادراً على التنافس بنجاح مع منافسه ذو العقل الأكبر والفك السفلي الأصغر حجماً وفي منافسة يتم تنفيذها بالأفكار وليس بالأسنان" (1871، 20).

كان أنصار التطور ينظرون إلى الزنوج على أنهم أقل شأناً من القوقازيين، وذلك من عدة جهات (منتز1972–387). وأشارت أحد الأعمال التي وثقت هذه الحقيقة إلى أبعد من ذلك وهو أنه بعد عام 1985 أثارت الخطة التطورية أسئلة إضافية، خاصة إذا لم يستطع الأمريكيون من أصل أفريقي البقاء في المنافسة في علاقاتهم القريبة مع البيض. كانت الإجابة العظيمة [من العلماء] لا. كان الأفريقي أدنى حيث كان يمثل الحلقة المفقودة بين القرد والتيوتون[1] (برنهام 1972، 506–507).

لم تركز العنصرية التي نمت في أميركا من الداروينية على الأفارقة الأميركيين فقط. بل استنتج تشارلز دافنبورت – وهو واحد من العنصريين الأمريكيين البارزين والمتعلم في

(1) 1– التيوتون: أحد قبائل جرمانيا الشمالية كانت تسكن في جزيرة يوتلاند، لكن يستخدم هذا المصطلح لوصف الشعوب التي تتحدث بلغة جرمانية في العموم.

جامعة هارفارد، وهو المؤسس والمدير للمختبر البيولوجي "كولد سبرينغ هاربور"- أن الأجناس التي كانت أدنى من القوقازيين تشمل "البولنديين والأيرلنديين والإيطاليين... العبرانيين" وحتى الصرب واليونانيين والسويديين والبوهيميين (كيفليس 1085، 46-47). وأرجع ذلك الى مجموعة واسعة من الخصائص العنصرية السلبية لكل مجموعة من المجموعات التي استنتج أنها كانت أقل شأنًا: فقد كان البولنديون يميلون إلى

الاستقلال (على الرغم من التواكل)، بينما كان الإيطاليون يميلون إلى ارتكاب جرائم العنف الشخصي، كذلك السويديون والألمان والبوهيميون. أحد أكبر مخاوفه أن المهاجرين الذين يتهافتون للوصول إلى الولايات المتحدة سيتسببون بسرعة في جعل الأمريكيين أكثر قتامة في اللون وأصغر في المكانة وأكثر تورطًا في جرائم السرقة والاختطاف والاعتداء والاغتصاب والقتل.

وأوضح البروفيسور دافنبورت أنّ المرأة لا يجب أن تتزوج دون معرفة دقيقة بتاريخ خاطبها البيولوجي ونسبه. فقد شعر أن المرأة يجب أن تتصرف مثل مربي الماشية الذي عليه أن يتحقق بدقة من نسب مهره أو عجوله. جادل دافنبورت بأن على الدولة تحدد من يستطيع أن يتكاثر،مبررًا ذلك بأنه إذا كان للدولة الحق في أن تأخذ حياة الشخص فمن المؤكد أنها يمكن ألّا تعطي الإذن بالتناسل. وكعالم لم يحظى باحترام كبير، كانت أفكار دافنبورت ضرورية في ذلك الوقت ولم تكن أكثر راديكالية من تلك التي نادى بها العديد من العلماء والمثقفين الآخرين كما هو موثق في الفصول الأخرى. كانت السياسات التي دعت إليها ألمانيا حيث كانت من بين أكثر الدول تقدمًا في العالم في أواخر الثلاثينات من القرن العشرين متشابهة للغاية (كيفليس 1985-46-47).

صرح السير آرثر كيث - وهو أحد علماء علم الانسان التطوريين الرائدين في العالم في القرن العشرين - بأنه كان فخوراً بأن "القائد الألماني" كان "تطوريًا" وأنه "سعى بشكل واعي لجعل ممارسة ألمانيا تتوافق مع نظرية التطور" وذلك بتطبيق تحسين النسل على السياسات الحكومية (1946، 230). وقد توصل ستيفن جيه. جولد - وهو تطوري من جامعة هارفارد - إلى أن العنصرية البشرية كانت منتشرة في هذا الوقت بين علماء الأحياء، حتى أن ألفريد رسل والاس صديق داروين كان أحد القلة التطوريين الغير عنصريين في القرن التاسع عشر. واستنتج والاس أنه على عكس الحيوانات، يرجع أصل البشر إلى الله.

وأضاف جولد أنه نتيجة لهذا الاستنتاج اعتقد والاس بكل فخر "أن كافة المجموعات البشرية لديهم قدرات فكرية متساوية". ودافع والاس عن "مساواته غير التقليدية بحجتين؛ الأولى تشريحية، والأخرى ثقافية". وأبدى ادعاءات عكس ماكان سائدًا لدى غالبية التطويريين في عصره أن "أدمغة" الهمجيين "ليست أصغر بكثير ولا أضعف تنظيماً من أدمغتنا" وأنه في "دماغ أدنى الهمج - على حد علمنا - من أجناس ما قبل التاريخ، لدينا عضو أقل حجمًا وتعقيدًا من الأنواع الأعلى" (جولد 1981، 36).

وعلى عكس كل المعتقدات واسعة الانتشار من داعمى التطور من حوله استنتج والاس أن الاختلافات السلوكية بين الأجناس السوداء والبيضاء كانت بسبب التكييف الثقافي - الذي يمكن أن يجعل أكثر الهمج خشونة أن يتكييف في الحياة التي نعيشها نحن الآن -." وقد فسر جولد السبب وراء "المساواة غير التقليدية" لوالاس على النحو التالي: "والاس — الرجل الانتقائي الذي لام داروين لعدم رغبته في رؤية عمل الانتقاء

الطبيعي في كل شكل من الأشكال العضوية الدقيقة - توقف فجأة أمام الدماغ البشري. جادل والاس قائلًا: إن فكرنا وأخلاقنا لا يمكن أن يكونا انتقاءًا طبيعيًا. لذلك، بما أن الانتقاء الطبيعي هو طريقة التطور الوحيدة، فإن بعض القوى الأعلى - الإله - يجب أن تتدخل لبناء أحدث وأعظم الابتكارات العضوية (1981، 35).

كما لاحظ جولد أن داروين "أصيب بالاشمئزاز من التحول الكامل والمفاجئ لولاس في النهاية" فيما يخص التطور وتحديدا في البشر (1981، 35). كتب داروين لوالاس في عام 1869 عن بدعته، قائلاً: "إنني أختلف بشكل كبير عنك، وأنا آسف للغاية على ذلك." كان والاس حساسًا للتعنيف حتى أنه أشار لاحقًا إلى نظريته غير العرقية عن العقل البشري قائلًا: "إنها بدعتي الخاصة".

## نهاية العنصرية الداروينية

كان آشلي مونتاجو (1941) أحد الباحثين الرئيسيين الأوائل المناهضين للعنصرية التي كانت تهيمن على البيولوجيا والأنثروبولوجيا. بعد نشر أعماله الناجحة أصبحت الآراء العنصرية للعلوم السائدة تدريجياً أقل تأصيلا وذلك لأسباب عديدة اجتماعية وعلمية (ليونتن 1077). كانت حركة الحقوق المدنية وقرارات المحاكم عاملاً هامًا للغاية، واستغرق هذا التغيير أكثر من 30 عامًا ولكنه كان مكتملًا إلى حد أن علماء الأنثروبولوجيا البارزين مثل روث بنديكت وجين فيلتفيه ذكروا تحت عنوان "عرق بشري واحد" أن "شعوب الأرض هي عائلة واحدة ولها أصل مشترك". والسبب المنطقي خلف استنتاجهم هذا ينطوي على "تركيبة معقدة للجسم البشري" و"كافة أعضاءه المختلفة المتعاونة في حفظنا على قيد الحياة وتشريحه الغريب الذي لم يكن من الممكن أن

يحدث ليكون هو ذاته في كافة البشر إذا لم يكن لديهم أصل مشترك" (1951، 3-4).

إنهم يقدمون بنية القدم البشرية بوصفها دليلًا على استنتاجهم: "عندما تحصي عدد كل العظام والعضلات الصغيرة ومفاصل أصابع القدم من المستحيل تخيل أنها قد تتكرر. أو خذ مثلاً أسناننا: الكثير من الأسنان الأمامية والعديد من الأنياب والكثير من الأضراس. من ذا الذي يتخيل العثور على الترتيبات ذاتها في نوعين بشريين إذا لم يكونا من عائلة واحدة؟ وهذا يثبت حقيقة وحدة الجنس البشري في تشريحها. لم يؤثر أي اختلاف بين الأجناس البشرية على الأطراف والأسنان والقوة النسبية بحيث يكون أحد السلالات مُجهزًا بيولوجياً مثل الأسد وآخر مثل الحمل (1951، 4-5).

واستنتجوا أن "كافةالاختلافات العرقية تكون في الأشياء غير الضرورية مثل نسيج شعر الرأس وكمية شعر الجسم وشكل الأنف أو الرأس أو لون العينين والبشرة" (1951، 5).

كان أحد أسباب هذا التغيير هو الاعتراف بأن كل الاختلافات كانت ما كان يعده بنديكت "غير أساسي". هناك بعض الاختلافات الموجودة لكنها لا تميز بقاء عرق واحد على آخر. وأن وجود غير الأساسيات لا يؤثر علي الصلاحية؛ وبالتالي لا علاقة لها إلى حد كبير بالبقاء على قيد الحياة. فمثلا نسيج الشعر لا يتعلق بالبقاء، ولكنه على الأغلب سيعطي راحة شخصية في التكيف مع مناخات معينة - وهي ميزة تتأثر إلى حد كبير بالتكنولوجيا مثل الملابس والمنازل - لأن هذه الابتكارات كانت جزءًا من الثقافة منذ تسجيلات التاريخ الأولى، وهذه الصفات لم يكن لديها ميزة اختيار محددة (هوللر 1971).

يعد لون البشرة هو الفرق الأكثر وضوحًا بين الزنوج والقوقازيين (ومن ثم عبارة

"السود" و"البيض"). وتمنح البشرة السوداء الزنوج بعض الحماية من أشعة الشمس القوية وبالتالي سرطان الجلد وخاصة في المناطق المدارية، ولكن يمكن للبيض حماية أنفسهم من خلال عملية دباغة طبيعية وباستخدام الملابس والقبعات وخوذات الشمس وحاليًا باستخدام واقي الشمس. وهذا يساعدهم على البقاء على قيد الحياة مع بعض المشكلات في المناطق الاستوائية. يساعد الجلد الداكن على الراحة الفردية أكثر من البقاء على قيد الحياة (دونز و بليبترو 1969). لا تمثل الاختلافات في لون البشرة اختلافًا في الجودة، ولا توجد سوى اختلاف في الكمية فلون البشرة يكون أكثر قتامة إذا ازدادت كمية الميلانين التي تفرزها الخلايا الصبغية، ويكون لون البشرة أكثر صفارا نتيجة ازدياد إفراز الكاروتين (سبب الصبغة الصفراء).

لدى كل البشر تركيز الخلايا الصبغية ذاته في بشرتهم (هول 1990، 168). وترجع الاختلافات إلى حد كبير إلى كمية الميلانين التي تنتجها هذه الخلايا فكلما زادت كمية الميلانين التي تُفرز في الطبقات السفلية من البشرة، كان لون البشرة أكثر قتامة (جارن 1962). باستثناء المهق الذين يفتقرون تمامًا إلى الصبغة، وتظهر في كافة الأجناس ويتأثر كل شخص مهما كان داكنًا أو فاتحًا بالشمس بالطريقة ذاتها (كوماس 1976، وجولدسبي 1971).

ليس لكل هذه الصفات أي علاقة بالبقاء خلال سنوات الإنجاب أو قبلها، وبالتالي لا يفسرها التطور. ويبدو أن هذه الاختلافات موجودة في المقام الأول لزيادة التنوع الواضح في العالم الحي، وهو تنوع لا يجعل من إقامتنا على الأرض أكثر متعة فحسب بل يساعدنا كذلك على التمييز بين أعداد الأشخاص الذين يعيشون اليوم

(دى سوزا 1995، ودون 1959).

وتشمل الاختلافات العرقية الأخرى التي زُعم أنها مواد في الدم، وبالتالي التعبير "علاقات الدم" والتصنيفات "الدم الآري" أو "الدم الصيني" أو "دم الزنوج". توجد العشرات من أنواع الدم المعروفة في كل عرق و أنواع الدم الرئيسة هي (A وB وAB وO) وهي في كافة الأجناس على الرغم من اختلاف النسبة. وبالتالي يمكن نقل الدم دون اعتبار للعرق - لا يتطلب سوى تطابق نوع الدم -. وقد وجدت الدراسات على مخلوقات أخرى المشكلة ذاتها مع الانتقاء الطبيعي. على سبيل المثال فاجأ لي فان فالن - أستاذ علم الأحياء بجامعة شيكاغو - العالم العلمي من خلال توثيقه لعشوائية انقراض الأنواع من خلال العمل مع البيانات المجدولة من الكتب والأوراق العلمية لكثير من العلماء الأفذاذ. فقد قام فان فالين بتعداد الأنواع وحساب مدى حياتهم على مدى ملايين السنين. ووفقاً للنظرية الداروينية المعيارية، فيجب أن تستمر الأنواع المتكيفة بشكل أفضل لفترة طويلة وتموت تلك الأنواع غير المتكيفة بسرعة. كما توقعت النظرية أنه كلما طال بقاء الأنواع، انخفض احتمال انقراضها في الفترة الزمنية التي تليها. ومع ذلك، يشير التحليل الإحصائي لفان فالين لحياة الأنواع إلى أنه لا يوجد مثل هذا الاختلاف. تشير أبحاثه إلى أن عملية الانقراض لا تميز بين الأنواع (راب 1979، 208، أنظر كذلك راب 1991).

هذا البحث العلمي هدم ببطء الرأي القائل بأن بعض الأجناس تكون أقل بيولوجيًا من غيرها، مما يدل على الأخوة لكافة البشر كما ذكر في سفر التكوين[1].

---

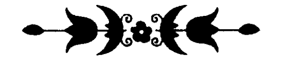
(1) وهذا ما جاءت به جميع الأديان السماوية .(الناشر)

## الاستنتاجات

وتعمل الأبحاث العلمية بشكل متزايد على دعم الرأي السائد الآن بين العلماء: السماح للبيئة، لا يوجد فرق فطري كبير بين السود والبيض (بالمر وسولوموس 1999). ولاحظ ريتشارد ليكي - ابن عالم علم الإنسان الشهير لويس ليكي - أن حياة والده أثبتت أن الاختلافات العرقية سطحية (ليكي ولوين 1978، 78).

ولهذا السبب استنتج بينديكت أن: "أعراق البشرية هم - كما يقوله الإنجيل - إخوة" (1957، 171). على الرغم من ذلك تتطلب الداروينية أن تكون الاختلافات حتى وإن كانت في مجموعة صغيرة للغاية من الأشخاص ستضفي على تلك المجموعة من الأشخاص ميزة البقاء على قيد الحياة (وولبوف وكاسبيري 1997). وبالتالي فإن هذه المجموعة ستصبح أكبر وأكبر ومع استمرار الاختيار ستصبح مختلفة بشكل متزايد عن السكان في خارج المجموعة.

وعلى الرغم من ذلك، لا يحدث هذا الآن مع البشر كما هو موضح في حقيقة أن السكان المنفصلين لا يتطورن من سكان رئيسيين. هذا الوضع يعني أنه من دون أي اختلافات واضحة لا يوجد شيء يمكن اختياره. ودون اختيار لا يمكن أن يحدث التطور. ويحاول العديد من التطوريين إنكار هذا المتطلب الهام لنظريتهم في محاولة لإنكار العنصرية (فيلاند،2011).



## المراجـــع


جاك بارزون،1958. داروين و ماركس و فاجنر، جاردن سيتي، دبلداي انكور بوكس.

روثبنـديكت. 1957. العـرق والعلـوم والسياسـة. نيويـورك: مطبعـة فـايكنج.وجين ويلتفيش. 1951. أعراق الجنس البشري. نيويورك نشرة الشؤون العامة:، رقم 85.

جون لانجدون بروكس، 1984. فقط قبل المنشأ. نيويورك:مطبعة جامعة كولومبيا.

بلمبر مارتن وجون سولوموس (المحررين) 1999، العنصرية، اكسفورد نيويورك مطبعة جامعة اكسفورد.

مايكــل بــيرلي،2001. "العنصــرية"، في والترلاكويرموســوعة المحرقــة (الهولوكوســت). نيوهافين مطبعة جامعة ييل 507-514.

جـون سـي بيرنهـام،1972- منبـوذات التطـور (نظـرة عامـة علي الكتـاب) علـوم (4021):506-507.

بيرام كامبل 1955نظريات العرق الأمريكية. نقد لأفكارهم وطرقهم. سان دييجو، كاليفورنيا - الباحثين عن الحقيقة.

آلان تشيس، 1980تراث مالثس. التكاليف الاجتماعية للعنصرية العلمية الجديدة. نيويورك: الفريد أ. كنوبف.

خوان كوماس،1976الأساطير العنصريةويستبورتمطبعة جرين وود.

هاملتون كرافينز،1978 انتصار التطور العلماء الأمريكيون جدل بينالوراثة - البيئة 1900-1941. فيلادلفيا، بنسلفانيا: مطبعة جامعة بنسلفانيا.

اف جـي كروكشـانك،1931 المغـول في وسـطنا. دراسـة للانسـان وجوهـه الثلاثـة.

الطبعة الثالثة. لندن: كيجان، بول، ترينش، تيربينر.

تشارلز داروين، 1896. هبوط الرجل، والاختيار في العلاقة بالجنس؛ أعمال تشارلز داروين. الطبعة الثانية. نيويورك، نيويورك ابلتون والشركة (أعادت طباعته مطبعة أ ام س 1972).

1887الحياة والحروف. حرره فرانسيس داروين. لندن: جون موري. المجلد1.

بولتون ديفيدهايزر، 1969. "الداروينية الاجتماعية." جمعية أبحاث الإبداع ربع السنوية 5 (4): 151.

ام.دبليو دي لوبنفلز،1949،مسابقة علوم الحياة، نيويورك، برينتزهول.

جيمس ف داونز وهيرمان ك بليترو 1969، اختلاف البشر، مقدمة الي علم الإنسان الفيزيائي، بيفرلي هيلز، سي ايه، مطبعة جلينو.

دينيش دي سوزا،1995، نهاية العنصرية، نيويورك، المطبعة الحرة.

ال سي دون 1959 الوراثة والتطور في السكان البشريين، كامبردج أم ايه مطبعة جامعة هارفارد.

ال سي فنك،1929" نظرية الانسان الجديدة فلي الخلق" الندوة الادبية 16 فبراير 100 (7) 27-28.

ال سي جلاجر 1999، الفصل 3 – البحث عن تحسين نسل فيرمونت" 1925-1931 – تنشأة أفضل لسكان فيرمونت. مشروع تحسين النسل في ولاية الجبل الأخضر، هانوفر ولندن مطبعة جامعة نيو إنغلاند 71-126.

جالتون، فرانسيس. 1880. استفساراتفي طبيعةالإنسان وتطورها. الطبعة الثانية.

نيويورك، نيويورك: داتون.

ستانلي جارن،1962 العرق البشري. سبرينجفيلد، إلينوي: تشارلز سي توماس.

ريتشاردأ جولدسبي 1971، العرق والأعراق، نيويورك شركة ماكميلان.

ستيفن جاي جولد، 1981والاس والعيوب القاتلة" التاريخ الطبيعي، يناير 89(1)26.

جون اس جونيور هوللر 1971، منبوذات من التطور، الاتجاهات العلمية نحو الدونية العرقية 1859-1900،اي اي ال اوربانا ، مطبعة جامعة الينوس.

جون باري هايكرافت، 1895. الداروينية والتقدم العرقي. نيويورك: سكريبنير.

ريتشارد هوفستاتر، 1955. الداروينية الاجتماعية في الفكر الأمريكي. بوسطن، م ايه:مطبعة بيكون.

جون دبليو هول،1990 - التشريح البشري وعلم وظائف الأعضاءدوبوك اي ايه دبليو م براون بوب.

توماس هكسلي، 1871. عظات، عناوين ومراجعات. نيويورك: أبلتون.

آرثر كيث، 1946. التطور والأخلاقيات. نيويورك: ج. ب. أبناء بوتنام.

دانيال كيلفيس،1985؛ باسم تحسين النسل: علم الوراثة واستخدامات الوراثة البشرية. نيويورك، نيويورك: ألفرد أ. كنوبف.

جون كوستر، 1988.، مرض الالحاد، برينتوود ت انالناشرون وولجماث وحياة.

والتر اكير، 2001. موسوعة المحرقة (الهولوكوست). نيو هافن، سي تي: مطبعة جامعة ييل.

إدوارد جون لارسون، 1995. الجنس، والعرق، والعلوم: تحسين النسل في أعماق الجنوب. بالتيمور، م دي: مطبعة جامعة جونز هوبكنز.

ريتشارد ليكي وروجر لوين. 1978. الأصول. نيويورك: إي. بي. بوتنام.

ريتشارد سي ليونتين وآخرون علم الأحياء كسلاح اجتماعي. مينيابوليس، مينيسوتا: بورجيس.

جوناثان ماركس، 1999 .اشلي مونتاجو يموت، تقارير المركز الوطني لتعليم العلوم 19(5):11.

سيدني دبليو مينتيس،1972 منبوذات من التطورنظرة عامة على الكتاب، عالم أمريكي 60 (3): 38.

آشلي مونتاجو، 1941. "مفهوم العرق في الأنواع البشرية في ضوء علم الوراثة." مجلة الوراثة 23-234-247.

هوراشيو نيومان،1932. التطور والوراثة وعلم تحسين النسل. شيكاغو،اي ال مطبعة جامعة شيكاغو.

ليون بولياكوف، 1974. الأسطورة الآرية. نيويورك: كتب أساسية.

ديفيد ام روب 1979" ثورة في التطور" جريدة كتب العالم للعلوم السنوية1980، شيكاغو اي ال، عالم الكتبز

1991 الانقراض – الجينات السيئة أم سوء الحظ ؟ نيويورك دبليو دبليو نورتون وكمباني.

ويليام ستانتون 1960، نقاط ليبورد :المواقف العلمية تجاه العرق في أميركا 1815-1859- شيكاغو اي ال مطبعة جامعة شيكاغو.

جورج ستين 1988" العلم البيولوجي وجذور النازية" العلماء الأمريكيين يناير – فبراير 76(1):50-58.

ايثيل توباخ وجون جياموسيس، هوارد ار توباوف و تشارلز ج جروس 1974، الفرسان الأربعة، العنصرية التحيز الجنسي والنزعة العسكرية والداروينية الاجتماعية نيويورك،المنشورات السلوكية.

بيير فان دي بيرجي،1967، العرق والعنصرية، نيويورك جون ويلي وأبناءه.

الفريد روسيل والاس،1890" الانتقاء البشري" العلوم العامة الشهرية نوفمبر 38(93).

هينشو وارد،1927. تشارلز داروين، الإنسان ورفاهيته — نيويورك شركة بوبس ميريل.

ريتشارد ويكارت،2004، من داروين الي هتلر الأخلاق التطورية، علم تحسين النسل، والعنصرية في ألمانيا - نيويورك بالجريف ماكميلان.

بول يبرهن، 1989. الصحة، العرق والسياسة الألمانية بين الوحدة الوطنية والنازية - 1870-1945. كامبريدج م ايه مطبعة جامعة كامبريدج.

كارل فيلاند، 2011. عائلة واحدة: الكتاب المقدس والعلوم والعرق والثقافة.اتلانتا جي ايه الناشرون كرييشن بووك.

ميلفورد ولبوف وراتشيل كاسبيري 1997العرق وتطور الإنسان. نيويورك: سايمون وشوستر.



# الفصل الخامس

## اتش. جي. ويلز: تلميذ داروين واختصاصي تحسين النسل الفذ

## المقدمة

تحول هربرت جورج بعد تعرضه للداروينية في المدرسة، - كما ادّعى - من الشاب المسيحي المتدين إلى الدارويني المخلص ، وقضى بقية حياته في التبشير لداروين وعلم تحسين النسل. وقد وثّق رحلته على طول هذا الطريق وكذلك العوامل التي أثّرت في كتاباته (برومي 1951). خلال فترة طويلة من حياته دعا ويلز إلى مستوى من تحسين النسل كان أكثر تطرفًا من هتلر بالدرجة التي تجعل العقاب الصحيح الوحيد للانحراف الاجتماعي هو الموت.

## خلفيته

كان اتش. جي. ويلز أحد أشهر كتّاب الخيال العلمي والعلوم في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين وأوائله في العالم الناطق بالإنكليزية. زعم بعض المؤرخين أنّه غير عقل أوروبا والعالم ولذلك كان يُسمى "الحكيم العظيم" في عصره (آخينباخ 2001، 112). ولد ويلز في بروملي، كينت، إنكلترا، في 21 سبتمبر 1866 (ويلز 1924) توفي في لندن في 13 أغسطس 1946.



*هربرت جورج (اتش جي) ويلز. كاتب بريطاني مشهور بكتاباته في الخيال، والروايات التي تناقش قضايا السياسة والاجتماعية والخيال العلمي.*

على الرغم من أنه من عائلة فقيرة إلا أنّ ويلز قد درس في المدرسة العادية للعلوم في جنوب كنسينغتون تحت إشراف تلميذ داروين الكبير

توماس هنري هكسلي. وحصل على شهادة البكالوريوس في العلوم مع مرتبة الشرف الأولى في علم الحيوان ومرتبة الشرف الثانية في الجيولوجيا. وكانت أطروحة رسالة الدكتوراة التي حصل عليها من جامعة لندن بعنوان: "جودة الوهم في استمرارية الحياة الفردية في الميتازوا الأعلى مع الإشارة بشكل خاص إلى أنواع الإنسان العاقل بالإنكليزية: (Homo sapiens)". وبعد تدريسه في المدارس الخاصة لمدة أربع سنوات بدأ ويلز تدريس دورات في الكلية في عام 1891 وتزوج ابنة عمه إيزابيل في العام نفسه.

وبسرعة أصبح ويلز مؤلفا وكاتبا لأكثر من 100 كتاب في مسيرته الطويلة، ويشمل ذلك كلاسيكيات الخيال العلمي الأكثر مبيعاً (وهو نوع الذي جعله أكثر شهرة) مثل آلة الزمن (1895) والرجل الغير مرئي (1897) وحرب العوالم (1898) **والرجل الأول على القمر** (1901). كما نشر الكثير من كتب الخيال العامة ثم تفرع إلى مجالات أخرى بما في ذلك التاريخ والعلوم. وكان كتابه الأكثر مبيعاً (ولا يزال يطبع): الخطوط العريضة للتاريخ (1920) وكذلك كتابه علوم الحياة والذي يتألف من أربعة مجلدات (1931) وقد بيع بشكل جيد للغاية وقد تعاون فيه مع ابنه الأكبر جورج فيليب ويلز والسير جوليان هكسلي. وقد بيع أكثر من مليوني نسخة من ملخص التاريخ (ويست 1984، 82). وقد جاء كل من ملخص التاريخ وعلوم الحياة بتفاصيل عظيمة للدفاع عن الرؤية الداروينية للعالم (كورين 1993).

كان ويلز يكتب ما لا يقل عن كتابين في السنة بالإضافة إلى مقالات في مجلات مثل المراجعة نصف الشهرية، وبالرغم أنه بدأ مسيرته المهنية في كتابة العلوم العلمية، لكن سرعان ما انتقل إلى كتابة الكتب التي من شأنها أن تساعد في حل ما خلص إليه

من "تعقيدات اجتماعية عميقة" (ويلز 1979، 4). كان أحد اختصاصاته التنبأ بالمستقبل - الذي ظهر ليس فقط في كتابات الخيال العلمي فحسب، بل كذلك في كتب مثل تنبؤات (1902 والذي أعيدت طباعته في عام 1999)، البشرية في النشأة (1903)، اليوتوبيا الحديثة (1905)، والعقل في نهاية حده (1945) - وهو العمل الذي أعرب فيه عن تشاؤمه حول مستقبل البشرية أكثر مما ذكر في أي من كتبه الأخرى -. لا يزال العديد من أعماله تحت الطباعة[1].

## من المسيحية إلى الإلحاد الدارويني

تشرح كتابات ويلز بالتفصيل كذلك تحوله من الإيمان إلى الداروينية، وقد كتب أنه عندما كان شابًا كان يعتقد تمامًا أن الله خلق الكون ولكن في وقت لاحق بدأ في استنتاج أنه "كان هناك خللًا ما في هذا الافتراض" (1934، 126). أعجب ويلز بأفكار داروين، ولكنه حاول في البداية أن يوفق بينها وبين ما يؤمن به "بمفهوم بسيط وقوي علمته له والدته عندما كان صغيرا وهو أنه يجب أن يكون هناك شخص ما خلق كل هذا" (ماكنزي وماكنزي 1973، 42).

ذكر ويلز أنه عندما كان شابًا: "تصور الداروينية بشكل غير ناضج"، ولكن فقط عندما كان في الكلية أقتنع بالداروينية تمامًا (1934، 126). ونتيجة لذلك، رفض المسيحية وفي النهاية رفض الإيمان بالله. ومن بين الكتب التي قرأها كان قانون هنري

(1) انظر ما يلي :

:http://www.online-literature.com/wellshg/

وهناك أيضًا مجتمع مستقل خاص بويلز له موقع الكتروني خاص: http://www.hgwellsusa.50megs.com

( المصنف )

دروموند الطبيعي في العالم الروحي. حيث كان دروموند عالم تطوري كتب العديد من الكتب الأكثر مبيعا للدفاع عن الداروينية ومحاولة للمواءمة بين الداروينية والمسيحية.

من الأسباب الهامة التي تجعل المؤمن المتدين سابقًا ملحدًا، هو صعوبة قبوله كلًا من الإيمان بالله والمسيحية، لأنه - كما قال ويلز - عندما كان آمن بالتطور لم يعد بإمكانه قبول سفر التكوين (1934، 127). واستنتج من الناحية المنطقية أنه إذا كان التطور صحيحًا فمن المستحيل تحقيق أساس المسيحية بما في ذلك هبوط آدم إلى الأرض وموت المسيح كقربان لخلاص البشر.

أدرك ويلز أن "العلم الجديد" والخاص بالداروينية "قد وجهت الداروينية الكثير من الضربات للدين لكنها لم تأت بأي بديل روحاني" (ماكنزي وماكينزي 1973، 42). ولاحقا عندما صادف المجلة الأسبوعية الملحدة المسماة المفكر الحر تأكدت "أسوأ شكوكه" عن المسيحية وأصبح ملحدًا ملتزمًا وبسرعة بدأ يستمتع بالسخرية من المسيحية (ماكينزي وماكينزي 1973، 43). وبعد أن رفض ويلز الإيمان بالله اعتنق الاشتراكية ولاحقا الشيوعية على النمط السوفييتي، ولكنه رفضهما في النهاية بعد أن خاب أمله.

على الرغم من أن معلمه تي. إتش. هكسلي كان يطلق عليه كلب داروين طيلة حياته وهو يناضل من أجل الداروينية وقد كان يسمى ويلز بأحد كبار رسل داروين (ماكينزي وماكينزي 1973، 53). كان لدى هكسلي وويلز وغيرهم من "رجال العلم البارزين" "إيمان متشدد" بأن العلم وحده هو الحل لكل "البؤس الإنساني" (ماكنزي وماكينزي 1973، 55).

كان ويلز ناشطًا في الكتابة والدفاع عن دينه الجديد - أي الداروينية - طوال

حياته، ولتحقيق هذه الغاية كان عنده : "القدرة على إثارة الحماس مثل أي صحوة دينية" (ماكنزي وماكينزي 1973، 55). حتى كتبه الروائية دافعت بنشاط عن الداروينية – استنتج كيمب أن كتابه ألة الزمن كان "مزيجا من كل من ماركس وداروين" (1982، 14).

بالإضافة الي كل ماسبق كان ويلز ناشطا للغاية في مهاجمة كل أشكال المسيحية وخصوصا الكاثوليكية على سبيل المثال ألف كتابًا كاملًا ينتقد الكنيسة الكاثوليكية بعنوان كروكس أنساتا "Crux Ansata " الذي هاجم الكنيسة الكاثوليكية وقدم تاريخًا مشوهًا أحادي الجانب لجرائم الكنيسة المفترضة ضد الإنسانية (1944). ومثال آخر على نشاطه المضاد للكنيسة شمل هيلاري بيلوك – الكاثوليكي البريطاني الذي كتبت ردا مكونا من 119 صفحة علي كتاب ويلز ملخص التاريخ بعنوان: رفيق ملخص التاريخ للسيد ويلز (1926)، يدحض مناهضته للمسيحية وانحيازه للداروينية.

اضطر ويلز للرد على الكتاب وقد نُشر لاحقاً في العام ذاته تحت عنوان اعتراضات السيد بيلوك (1926). وقد استنتج جاردنر أن رد ويلز على بيلوك كُتب وهو في "حالة مزاجية غاضبة" (1957، 134). وصف ماكينزي وماكينزي كتاب ويلز بأنه "تشهيريًا" وتوقع أن ويلز كان "غاضبا" من بيلوك (1973، 348). ولاحقا وجه بيلوك طعنة إلى كتاب ويلز اعتراضات السيد بيلوك بكتابه مازال السيد بيلوك يعترض (1927) حيث دافع فيه بيلوك عن اعتراضاته على الداروينية وانتقد هجوم ويلز على الإيمان بالله.

## علم تحسين النسل

بعد أن دمرت الداروينية "اللاهوت التقليدي" في أذهان غالبية المفكرين البريطانيين، كان السؤال في أذهانهم هو – هل كان بإمكان داروين "توفير أساس بديل

للأخـلاق؟" (مـاكنزي ومـاكينزي 1973، 55). المشـكلة - كمـا لاحـظ مـاكنزي وماكينزي - هي أن بريق الشهرة والتفاؤل حول نظرية داروين للتطور قد حلت ببساطة محل الهدف الإلهي من خلال عملية الانتقاء الطبيعي. وظل الإنسان هو الإنجاز الأسمى للتبـاين الجيـني. ولكـن هكسـلي لم يقبـل هـذه النظـرة المتعسـفة للطبيعـة فقـد تسـاءل:" لنفـترض أن ظهـور الأنـواع البشـرية كـان حادثـا، وربمـا كـان ظـاهرة مؤقتـة. ولنفـترض أن الطبيعة كانت في أحسن الأحوال محايدة وفي أسوأ الأحوال عدائية. ولنفترض أن تطور الأنواع يمكن أن يؤدي بسهولة إلى الركود والتراجع كما يؤدي إلى التقدم. وبناءًا عليه ربما يكون الإنسان العاقل[1] مصاب بلعنة بالتأكيد وفقًا لقوانين التطور كما هو الحال في الخطيئة الأصلية[2] ففي الحالتين سيكون هناك يوم قيامة(1973، 56).

اعتقـد ويلـز وآخـرون كثـيرون أن جـزءًا مـن حـل هـذه المشـكلة كـان تحسـين النسـل. بالنسبة لويلز وغيره من الدارينيين كان علم تحسين النسل هو مفتاح التقدم البشري.

كـان علـم تحسـين النسـل هـو المجـال الـذي قـام فيـه ويلـز "بـالتجرد مـن الداروينيـة"، وأحد الأمور التي دافع عنها معظم حياته. وكشف ذلك بوضوح في كتابه عن أمله في

---

(1) الإنسان العاقل: (باللاتينية: Homo Sapiens) النوع الوحيد الغير منقرض من السلالات البشرية والتي ينحدر منها الإنسان المعاصر.( الناشر )

(2) الخطيئة الأصلية: هو معتقد نصراني ظهر في العهد الجديد ولم يكن له أي ذكر في العهد القديم بل كان العهد القديم يُحارب فكرة أن يرث الأبناء ذنب الآباء كما في سفر حزقيال الإصحاح الثامن عشر إذ جاء فيه " 2 ما لكم أنتم تضربون هذا المثل على أرض إسرائيل، قائلين: الآباء أكلوا الحصرم وأسنان الأبناء ضرست 3 حي أنا، يقول السيد الرب، لا يكون لكم من بعد أن تضربوا هذا المثل في إسرائيل 4 ها كل النفوس هي لي . نفس الأب كنفس الابن، كلاهما لي. النفس التي تخطئ هي تموت" وأما في النصرانية فهو ميل الجنس البشري إلى فعل الخطيئة، وهو شئ موروث من آدم أبو البشر. ذلك الشئ الذي تسبب في الهبوط من الجنة إلى الأرض.( الناشر )

مستقبل البشرية تحت عنوان "التوقعات" حيث كان أول كتاب غير خيالي ينشر لويلز وحقق نجاحًا تجاريًا رائعًا (أخنباخ 2001، 118). كان لهذا العمل "تأثير هائل على المثقفين البريطانيين ونظرائهم الأوروبيين" (غاردنير 1999، 3). على الرغم من أن الكتاب يحتوي على العديد من الأفكار المفيدة مثل: أن الكتب يجب أن "يشرحها الكُتّاب ذوي الآراء المعاكسة"، إلّا أنّه أيضًا دافع فيه عن "برنامج متطرف لعلم تحسين النسل السلبي" (غاردينير 1999، 9-10).

لقد دعت كلمات ويلز بشكل علني إلى تفضيل "تناسل ما هو حسن وفعال وجميل في الإنسانية - أجسام جميلة، وقوية وعقول نقية وقوية -. ووقف التناسل في الأنواع الحقيرة والذليلة التي تحمل كل ما هو قبيح وبهيمي في النفوس والأجساد وعادات البشر" (ويلز 1999، 167-168). كان من المقرر أن يكتمل هذا الهدف بـ "الموت" أو "القتل الرحيم" لمن لا يصلحون. ونص ويلز أولئك المشاركين في عالم تحسين النسل بأنه "لا شفقة" على من لايصلحون، و"ألّا يكونوا حساسين" نحو إلحاق الموت بغير الصالحين، لأن هؤلاء الذين يقتلون الضعفاء سيكون لديهم "إدراك بإمكانيات الحياة أكمل من الذي نمتلكه. سيكون لديهم هدف يجعل القتل يستحق الوقت" (ويلز 1999، 169). كان اهتمامه هو السيطرة على "قوانين التطور بحيث يمكن للبشرية أن تصبح سيدها وليس ضحيتها" (ماكنزي وماكينزي 1973، 120).

وشمل "غير الصالح" الذي أضافه ويلز إلى قائمته أشخاصًا يعانون من "الأمراض المعدية، الاضطرابات العقلية، والتشوهات الجسدية، والجنون، وحتى الإدمان على الكحول!. يجب أن يُقتل الكافة بطريقة إنسانية - بتخديرهم أولًا لتجنيبهم معاناة لا

داعي لها!" (غاردينر 1999، 10). لم يدعُ ويلز إلى القتل الرحيم فحسب، بل إلى التعقيم وتحديد النسل بوصفها طريقة فعالة لتخليص الأرض من الأجناس والشعوب "الدونية" (غاردينر 1999، 9). ويعتقد ويلز أن التطور إذا ترك يعمل من تلقاء ذاته فلن يحدث "تقدمًا" فهو بحاجة إلى "توجيه" من النخبة المتعلمة. لهذا السبب عمل بنشاط نحو تأسيس برامج تحسين النسل.

كان السؤال الذي كان يدور في أذهان كثير من الأشخاص هو مكان اليهود وما أسماه ويلز "الأجناس الدنيا" في المجتمع (ويلز 1999، 177). استنتج ويلز أن الوجوه اليهودية "قبيحة للغاية" وكذلك العديد من غير اليهود. كما خلص ويلز إلى أن العديد من اليهود مبتذلين بشكل كبير في اللباس والمادة والبراعة وكذلك العديد من غير اليهود. كان يعتقد أن التزاوج في نهاية المطاف سيؤدي إلى توقف اليهود عن الوجود ك "عرق" مميز جسديًا.

كان ويلز أقل رحمة بكثير فيما يخص "الأجناس الداكنة"، واستنتج أن "تلك الأسراب من السود، والبُنيين، والبيض القذرين والصُفر عليهم أن يرحلوا" (غاردينر 1999، 9). يعلق غاردينر بأن كلام ويلز حول الأجناس المتدنية واستخدام القتل كأداة للتخلص من غير الصالحين اقترب بشكل خطير من جهود هتلر لتوليد عرق آري متفوق و"حل لغز اليهود" بمساعدة غرف الغاز" (1999، 11).

واستنتج غاردينر أنه - حسب علمه - لم يتراجع ويلز أبدا ولم يعتذر على الإطلاق عن هذه التصريحات، بل إنه قال أن كتاب "التوقعات" هو حجر الزاوية في حياته (1999). وفي مذكراته عام 1934: كان ويلز لا يزال يدعوا إلى تخليص العالم من أولئك الذين وصفهم بـ "غير الصالحين" لكنه لم ينادِ بقتلهم بل أراد الاعتماد على

التعقيم. ويطلق على هذا في كثير من الأحيان اسم "الطريقة اللينة لتحسين النسل" على عكس رأي ويلز السابق "تحسين النسل بالطريقة الشديدة".

وُجد مثال على الطريقة اللينة لتحسين النسل في كتاب ويلز العمل والثروة وسعادة البشرية (1931). دعا ويلز في هذا الكتاب إلى عزل وتعقيم غير الصالحيين ولكنه أدرك أن التنوع في البشر يمكن أن يكون مفيدًا. كما نادى في العديد من أعماله بالحكم المطلق لطبقة النخبة المتعلمة وانتقص من السكان العاديين الأقل تعليمًا. ولهذا السبب كان يعارض الديمقراطية وشعر بأن العالم يجب أن يحكمه نخبة مستنيرة مدربة على العلم - أي العلماء - (ماكينزي وماكينزي 1973، 59). نادى ويلز - لفترة طويلة من حياته - بحكومة عالمية. وكما أشار أخينباخ، فإن فكرة ويلز حول "اليوتوبيا العلمية التي يديرها نخبة قوية كانت مرتبطة بشكل ما بالأهوال الاستبدادية لألمانيا النازية والاتحاد السوفييتي" (2001، 123).

كما جادل ويلز بأن البشر الأدنى يجب أن ينتحروا، مؤكدا أن - في عالمه اليوجيني - سيعتبر المجتمع "بشكل طبيعي" أنّ "الانتحار من الكآبة المزمنة، أو انتحار المرضى أو العاجزين؛ عمل شجاع يجب القيام به وليس جريمة" (1999، 169). خلص ويلز إلى أن فترات السجن الطويلة لأولئك الذين يرتكبون الجرائم "أسوأ بكثير من الموت". وبدلاً من ذلك، يعتقد ويلز أن على الدولة أن تعدم كافة الأشخاص الذين أدينوا بجرائم خطيرة (1999، 169).

بالنسبة للمجرمين الآخرين، أوصى ويلز بضرورة فرض عقوبة رادعة "علميا عقوبة تسبب الألم ولا تترك سوى الذكرى"، لكنه لا يخوض في التفاصيل حول كيفية القيام

بذلك (1999، 169). بل إنه جادل بأنّه حتما سيأتي الوقت الذي تكون فيه العقوبة الوحيدة هي القتل، ولأن المجتمع في المستقبل "سيكون أقل استعداداً للتعذيب من القتل". يعتبر العلم أن القتل وفقًا للشروط الصحيحة شئ أقل عدوانية بكثير. فالأشخاص الذين لا يستطيعون العيش بسعادة وحرية في العالم دون إفساد حياة الآخرين، من الأفضل أن يكونوا خارجه (1999، 169-170).

استنتج ويلز أنه يمكنهم إنقاذ المجتمع من هذه المشكلة من خلال قتل أنفسهم. "إن غالبية أنواع البشر - الغير مرغوب فيها وفقًا للمعايير الحضارية - ستكون مستعدة تماماً للموت إنّ شجعهم العالم قليلاً" (1999، 171). صحيح أن ويلز عدل في وقت لاحق عن هذا الموقف المتطرف، فلا شك أن قدرا أكبر من الحكمة والنضج قد ساعده على فهم غباء بعض أفكاره السابقة. ومع ذلك، استمر في الدفاع عن علم تحسين النسل ولكن بدلاً من استخدام القتل اقترح التعقيم (انظر الفصل الخامس من كتابه اليوتوبيا الحديثة، 1905).

كان أحد أقواله الأكثر إثارة للاهتمام يتعلق بفكرته عن جمهورية يوتوبية جديدة: "وكيف ستتعامل الجمهورية الجديدة مع الأجناس الدنيا؟ كيف ستتعامل مع العرق الأسود؟ كيف ستتعامل مع الرجل الأصفر؟ كيف ستعالج النمل الأبيض الموجود في الخشب - يقصد اليهود -؟ بالتأكيد ليست أعراقًا على الإطلاق. وستهدف إلى إنشاء دولة عالمية ولغة مشتركة وقوانين مشتركة في كافة أنحاء العالم، لها معاييرها وقوانينها وأجهزة التحكم الخاصة بها، والتي تجعل تكاثر أولئك الذين يقعون خلف معيار معين من الكفاءة الاجتماعية غير سارة وصعبة، فإذا كان لدى اليهود نزعة تطفل اجتماعي

غير قابلة للشفاء - ونحن نجعل التطفل الاجتماعي مستحيلاً - فيتوجب علينا أن نضع نهاية لليهود. وبالنسبة للبقية - تلك الأسراب من السود، والبنيين، والبيض القذرين والصُفر - الذين لا تتوفر لديهم أية كفاءة؟ حسنا، إن العالم ليس مؤسسة خيرية، وأنا أرى أن عليهم الرحيل. فكل معنى ومضمون العالم - كما أراه - أنّه بقدر ما يخفقون في تطوير شخصيات عاقلة وقوية ومميزة، لعالم عظيم في المستقبل، فإن هذا الجزء عليه أن يموت ويختفي (ويلز 1902، 340 - 342)

## ويلز والمسيحية

كان لدى ويلز أفكارًا قاطعة، وسلبية للغاية، حول المسيحية - كشخص ناضج - على سبيل المثال: فقد شعر بأن الإله الذي يعبده المسيحيون "سخيف" (1999، 160). في البداية لم يكن بإمكانه قبول نظرة عالمية ملحدة وحاول لسنوات أن يحل محل الإله المسيحي بإله صنعه - إله سمح له بانتهاك الأخلاق المسيحية، ومع ذلك أعطى معنى للكون والتاريخ البشري -.

سينكر ويلز ذاته وجود الله فيما بعد تمامًا، معلناً بأنه "ملحد مخلص" (غاردينير 1999، 9). لكن كاتب سيرة حياته توصل إلى أن معتقدات ويلز الدينية الشابة لا تزال تؤثر فيه، حتى لو كان ذلك دون وعي وأنه "سعى دوما إلى التوفيق بين المفاهيم العلمية التي اكتسبها في جنوب كنسينغتون والمعتقدات الإنجيلية المسيحية" (ماكينزي وماكينزي 1973، 121).

ومع ذلك، استنتج ويلز أن أفكار مالتوس "أيُقِظَت بشكل متزامن في ذهن كلا من داروين ووالاس" مجموعة من الأفكار التي "كانت مؤثرة في نظرية الانتقاء الطبيعي"

(ويلز 1999، 162). الانتقاء الطبيعي - بعد أن تمّ استيعابه وفهمه بشكل أكبر من قِبل العقل العام - قد دمر بهدوء وبشكل كامل - الإيمان بالمساواة الإنسانية التي تتضمنها كافة حركات "التحرر" في العالم. لقد أصبح من الواضح أن هناك كتل بشرية بالكامل، هي بأكملها متدنية تطالب بمستقبل كالكتل الأخرى، لكن لا يمكن منحهم أي فرص أخرى أو الثقة في تسليمهم سلطة كما يُوثق في الشعوب المتفوقة وهذا لأن نقاط ضعفها هذه معدية وضارة للنسيج الحضاري ونطاق عجزهم يغري ويضعف الروح المعنوية. إن منحهم المساواة يعني السقوط إلى مستواهم، وحمايتهم والاعتزاز بهم يعني الغرق في نسلهم (ويلز 1999، 162 - 163).

وعلاوة على ذلك، استنتج ويلز أن "الداروينية دمرت عقيدة هبوط آدم التي يرتكز عليها النسيج المسيحي الكامل. لأنه دون الهبوط لا يوجد فداء ومن ثم فالنظرية والمعنى الكاملان لنظام بولين باطلة" (1999، 163). وأكمل ويلز مشيرا إلى أن الاكتشافات العلمية أدت إلى فقدان "عادة الفكر الذي نشأ منه الايمان بالهبوط" (1999، 163). التطور - كما يؤكد ويلز - وضّح لنا حقائق غير مفهومة مثل الموت وجعلها مفهومة. إنه يساعد في شرح الكثير من الأشياء لأن الانتقاء الطبيعي يجعل كل الأشياء "منتظمة في نظام كامل: فوجود الضحية يصنع القاتل، ووجود الذئب يدفع الحصان إلى السرعة، ويستدعي النمر الحكمة والشجاعة في الإنسان" (1999، 164).

وبالإضافة الي ذلك فقد تنبأ ويلز أنّ المسيحية البروتستانتية ستتفكك ببطء وأن الكثير ممن تخلوا عن البروتستانتية سيتحولون إلى طوائف زائفة مثل الروحانية والأديان الشرقية والسحر وعبادة الشيطان. ورأى أن النشاطين الأخيرين يمثلان حركة التمرد أكثر من الإيمان

الصادق. واستنتج غاردينر أنّ ويلز كان "دقيقًا للغاية" في هذا التنبؤ (1999، 10). وانعكست هذه الآراء المناهضة للمسيحية في العديد من الكتب المؤثرة التي كتبها ويلز، بما في ذلك كتابيه الكلاسيكيين 1917: "الله الملك الخفي" و"روح أسقف".

## ويلز والأخلاق

كان هناك جملة ساخرة في كتابة توقعات حيث قال "الله ليس أخلاقيا" (1999، 160). ورأى ويلز كذلك أن "الأخلاق الجنسية للعالم المتحضر هي أكثر الأنظمة التي يمكن تخيلها من حيث اللا منطقية وتفكك، تتكون من الرُخص الهمجية والحظر اللامعقول والتسامح الأحمق والقسوة الوحشية" (ويلز 1999، 170). كان من أوائل المدافعين عن الحب الحر وهى فكرة جعلها "بشكل فاضح" موضع التنفيذ (أخنباخ 2001، 112). وعلى العكس من ذلك، شعر كذلك أنه يجب حماية الشباب من التدخل الجنسي السابق لأوانه (راكانيم 1962).

وبعد فترة وجيزة تزوج ويلز من إيزابيل في عام 1891، "حيث انكسرت شهوته" و "أصبحت عينه تائهة" (أخنباخ 2001، 115). وسرعان ما أصبح على علاقة مع إحدى الطالبات الصغار - أيمي كاثرين روبينز - التي وصفها أحد الأصدقاء بأنها "واحدة من أجمل البنات" التي شاهدها (ويست 1984، 210). ثم تزوجها ويلز وغير اسمها إلى جين لأنه لم يحب اسمها "المسيحي" (ويلز 1977، 29).

أنجبت له جين ولدين وأدارت منزل الأسرة وكانت تحرر نصوصه لجعلها قابلة للقراءة. حتى أنها كتبت كل ما كتبه ويلز (أخنباخ 2001، 115 وويلز1977). بعد وقت قصير من الزفاف، كان ويلز على علاقة بالعديد من النساء الأخريات، وكانت

جين "متسامحة بلا حدود" عن مغامراته، واستمرا معا على الرغم من سلسلة علاقاته الطويلة.

من بين "علاقاته غير الرسمية التي سمحت بها جين" كانت علاقة لمدة عشر سنوات مع الكاتبة الشهيرة ريبيكا ويست (ويست 1984، 83). وأوضح انتوني ويست - ابنها غير الشرعي من ويلز - أن والده وجين ويلز كانا لديهما "تفاهم" من شأنه أن يسمح لويلز "بالعلاقات غير الرسمية". لقد استفاد ويلز من هذا النظام بالعيش بنشاط بفلسفته هذه (ويست 1984، 83). ومن علاقاته الأخرى شملت الآنسة روزاموند بلاند وأمبر ريفز، وهما بنات أصدقائه. ومع ذلك، كانت مارجريت سانغر - وهي امرأة كان عل علاقة غرامية بها - هي المرأة التي قضت الكثير من حياتها في حملة من أجل التحرر الجنسي للرجال والنساء داعية إلى البيع غير المقيد لموانع الحمل، وبعد ذلك تأسيس منظمة الأبوة المخططة (ويست 1984، 83).

## تأثير الداروينية

كتب ويلز في سيرته الذاتية أنه كان يعتقد أن كلا من تي. إتش. هكسلي وتشارلز داروين "رجال عظماء للغاية" "حاربوا بجرأة وحذر وبكل بساطة" و"تكلموا وكتبوا دون خوف وبصراحة" و"كانوا محررين فكريين" (1934، 162). ودرس ويلز كلا من علم الأحياء وعلم الحيوان على يد هكسلي، واستنتج أن السنة التي قضاها في فصله "كانت أبعد ما تكون عن التساؤل حيث أراها أكثر السنوات تعليمًا في حياتي" (1934، 161). لقد كان إعجاب ويلز بهكسلي كبيرًا لدرجة أنه قال إن هكسلي كان "المراقب الأدق، والمعمم الأبرع، والمعلم العظيم، والمحاور الأكثر وضوحًا وبسالة" (1934، 159).

ذكر أنتوني ويست ابن ويلز غير الشرعي أن والده كان "طالبًا مبتدئًا" عندما درس البيولوجيا على يد "توماس هنري هكسلي العظيم" (ويست 1984، 57). بعد الدراسة على يد هكسلي "ألهمت نظرية داروين ويلز في تأليف كتاباته بعد ذلك والى الأبد" (أخنباخ 2001، 115).

ثم تحدث ويلز عن التطور كحقيقة غير قابلة للجدل، والتي كان لها "قاعدة من الأدلة القاطعة" (1934، 162). واستنتج كذلك أن الكنيسة "كانت دائمًا تعرف كل شيء عن التطور ومكان الإنسان في الطبيعة تمامًا كما كانت تعرف دائمًا عن مكان النظام الشمسي في الفضاء"، لكن الكنيسة لم ترغب في الكشف عن هذه الحقائق حتى تُبقي الأشخاص في الظلام. تتحدث حياة ويلز بشكل بليغ عن تأثير الداروينية على أفكاره ومعتقداته المسيحية المحافظة. وفي المقابل أثر ويلز على الملايين من الآخرين ليعيشوا حياة شبيهة بحياته. ولحسن الحظ، فإن علم تحسين النسل التابع لويلز – حيث "أهل النخبة في المستقبل سيقتلون الأعضاء المريضة أو غير الذكية من الجنس البشري" الذين لن ينجحوا أبداً – (أخنباخ 2001، 123)

وفي أواخر حياته، أصبح ويلز متناقضًا للغاية مع العلم كمنقذًا ومدركًا بأن هذا العلم يمكن كذلك أن يصبح وسيلة رئيسة للشر كما حدث في ألمانيا النازية. وفي النهاية، كان ويلز يعتقد أن للإنسانية نهاية محتومة، وأن مستقبلها ليس خلاصاً، بل إنه انقراض. على الرغم من كل آمال ويلز في العلم لإنقاذنا فقد عرف أن العلم في النهاية "ظلام مستمر" (ماكينزي وماكينزي 1973، 124). توفي ويلز في عام 1946، ومات وهو "غارق في الإحباط" ورجل مكسور. استنتج بوريللو أن الداروينية التي درّسها –

كلب داروين – تي. إتش. هكسلي "نقلت إلى ويلز طريقة فهم للحياة والتي أبقت حالة التشاؤم متقدة داخله حتى عندما رُحب به كرسول للتفاؤل. أعطاه هكسلي ذلك الخوف على مستقبل الإنسان الذي عجل باليأس الذي سيطر على سنوات حياته الأخيرة" (1972، 6).

## الاستنتاج

كانت خسارة ويلز لعقيدته المسيحية جزءًا من نتيجة قبوله للداروينية. أثبتت حياته، و"اليأس الذي أظلم سنواته الأخيرة" بوضوح النتائج النهائية للداروينية (أخنباخ 2001، 124 انظر كذلك سميث 1986 وبوريللو 1972). ومع ذلك، لا يزال يكرمه البعض اليوم. توجد جمعية ويلز للحفاظ على أعماله، وما لا يقل عن 25 من كتبه لا تزال تطبع (بوريللو 1972). يجب أن يبقى في الذاكرة ليس كبطل، بل كإشارة مأساوية للتأثير المثير للداروينية على الإنسانية.



## المراجع

جول أكنباش2001." العالموفقا لويلز 32(1) 111-124 إبريل.

هيلاير بيلوك 1926رفيق للسيد ويلز "الخطوط العريضة للتاريخ" سان فرانسيسكو - كاليفورنيا: الناشر وكالة الفضاء الأوروبية

1927- اعتراضات السيد بيلوك،لندن: شيد وارد.

ألفريدبوريلو، 1972 هـ.ج ويلز: مؤلف في عذاب كابونديل وادواردسيفيل اي ل. مطبعة جامعة الينوس الجنوبية.

فينسنتبروم1951هـ.ج ويلز سيرة ذاتيةلندن لونجمانز جرين وشركاه.

مايكل كورين،1993الرجل غير المرئي: حياة وحريات هـ. ح .ويلز. نيويورك.

مارتن جاردينر،1957البدع والمغالاة باسم العلم. نيويورك: دوفر.

1999مقدمة في طبعة دوفر من التوقعات التي كتبهاهـ.ج.ويلز. مينولا، نيويورك دوفر.

بيتر كيمب،1982 هـ. ج - الموضوعات البيولوجية والإيجابيات المتخيلة. لندن مطبعة ماكميلان المحدودة.

نورمان ماكنزي،وجين ماكينزي1973هـ.ج ويلز سيرة ذاتية بواسطة نورمان وجين ماكينزي.نيويورك سايمون وشوستر.

إنجفالد راكانيم1962 هـ. ج. ويلز ونقادهأوسلو، النرويج: الكتب الجامعية الاسكندينافية.

ديفيد سي سميث 1986 هـ. ج ويلز مأساوية مميتة نيو هافن سي تي: جامعة ييل.

فرانك ويلز،1977 هـ.ج ويلز سيرة ذاتية مصورة لندن: جوبيتر بوكس.

هربرت جورجويلز الله الملك غير المرئي. نيويورك: ماكميلان.

1902توقعات لردة التقدم الميكانيكي والعلمي: عند الإنسان.

الحياة والفكر. نيويورك: هاربر وإخوانهأعيد طبعه من قبل دوفر، مينيولا، نيويورك.

1903صنع البشريةلندن: تشابمان اند هول.

1905المثالية الحديثة. لندن: تشابمان اند هول.

1917روح أسقف. نيويورك: ماكميلان.

1920مخطط التاريخ. نيويورك: ماكميلان.

1924هربرت جورج ويلزرسم تصويريعن حياته وأعماله. نيويورك: أبناء تشارلز سكرينر.

1926. اعتراضات السيد بيلوك. نيويورك: دوران.

1931العمل و الثروة وسعادة البشريةجاردن سيتي، نيويورك: دوبليداي — دوران.

1931 علوم الحياة. نيويورك: دوبليداي، دوران والشركة.

1934تجربة في السيرة الذاتيةبوسطن، ماجستير: ليتل براون.

1944كروكس أنساتانيويورك: شركة اجورا للنشر.

1945 عقل في نهايته حد. لندن: دبليو هينمان.

1979الخيال العلمي الكاملكنز هـ.ج ويلز. نيويورك: كراون.

1999توقعات من ردود الفعل من التقدم العلمي والعلمي على الإنسان الحياة والفكر. لندن: منشورات دوفر - 1902: لايبزيج: بيرنهارد تاوتشنيتز.

أنتوني ويست،1984 هـ.ج ويلز جوانب الحياةلندن: هاتشينسون.



# الفصل السادس

## الداروينية والإبادة الجماعية في تسمانيا

### المقدمة

لم يكن داروين أول المؤسسين لنظرية التطور عن طريق الانتقاء الطبيعي، لكن كتابه عام 1859 كان حاسماً في قبولها على نطاق واسع. إن أكبر مثال موثق للتأثير السلبي للنظريات العنصرية قبل الداروينية هي قصة الإبادة الكاملة للشعوب الأصلية في تسمانيا في القرن التاسع عشر.

تقع تسمانيا – وهي جزيرة تبلغ مساحتها 26 ألف ميل مربع (67,000 كيلومتر مربع) تبلغ ما يقرب من حجم إيرلندا – على ما يقرب من مائتي ميل جنوب البر الرئيسي الأسترالي، تقريبًا جنوب ملبورن مباشرةً. كانت تسمى هذه الجزيرة في السابق باسم أرض فان دي مان، والآن هى جزء من أستراليا. لم يكن التسمانيون الأصليون على اتصال مباشر مع غيرهم من البشر لآلاف السنين حيث كانوا معزولين تماما، ويتكونون من حوالي 70 قبيلة وخمس مجموعات لغوية (بلوملي 1983، 1991 وجونز 1971). وكانت مواصلاتهم البحرية الوحيدة عبارة عن قوارب صغيرة حيث كانت عملية فقط للرحلات القصيرة (مولفاني 1969).

لم ينشر داروين كتابه "أصل الأنواع" حتى عام 1859، ولكن كان يؤمن بالتطور في أشكال مختلفة على نطاق واسع العديد من علماء الأحياء والجيولوجيين وغيرهم في أوائل القرن التاسع عشر (أوسبورن 1929). وكان إيراسموس جدّ داروين واحداً من أوائل الباحثين الذين قاموا بحفر قبر أحد السكان الأصليين وعرضه في الكلية الملكية

للجراحين - وكانت أول جثة يصل إليها من الـ 10000 جثة "لمحاولة إثبات دونيتهم العرقية" وليوثق الارتباط "المفقود بين إنسان العصر الحجري والبيض(غريبر 1994، 32). وقد صرح كينغ - هيل (1963، 75): "بعد عام 1794، جاءت تصريحات مبدأ الانتقاء الطبيعي والتطور بسرعة إلى حد ما". وقد نوقشت هذه الأفكار على نطاق واسع وأثرت في التفكير في العرق، وخاصة مكان ما يسمى "الأشخاص البدائيون" في المملكة الحيوانية.

في أوائل القرن التاسع عشر رأي النخبة من المتعلمين أن سكان أستراليا الأصليين الذين غالباً ما يطلق عليهم الأبوريجينيين الأستراليين لأنهم يُعَدون من البشر البدائيين الذين كانوا "حلقة الوصل بين الإنسان وفصائل القرود" (ترافرز 1968، 135). وتوقع العديد من المراقبين أن "السود في أستراليا" كانوا "عرقا مصيره محتوم منذ سنوات عديدة حتى قبل القضاء عليهم" (هاتون - فينش 1885، 148). واستنتج داروين بذاته أن انقراض الأجناس المتدنية كان جزءًا من عملية التطور التي يجب قبولها كأمر لامفر منه.

يحدث الانقراض بشكل رئيسي من تنافس القبيلة مع القبيلة والعرق مع العرق. ويُجرى الفحص المتنوع بصفة مستمرة للحد من أعداد كل قبيلة همجية مثل المجاعات الدورية، والعادات البدوية وما يترتب على ذلك من وفيات الرضع، والرضاعة لفترات طويلة، والحروب، والحوادث، والمرض، والخيانة، وسرقة النساء، ووأد المواليد، وبالأخص تقليل الخصوبة. إذا زادت قوة أيًّا من هذه الخصائص - حتى ولو بشكل طفيف - فإن القبيلة المتأثرة بذلك تميل إلى قلة العدد؛ وعندما تصبح أحد قبيلتين متجاورتين أقل عددًا وأقل قوة من الآخرى، تسوى المسابقة بسرعة من خلال الحرب والجفاف وأكل

لحوم البشر والعبودية والامتصاص (داروين 1896، 182).

أضاف داروين أنه حتى عندما لا يُقضى على قبيلة ضعيفة بسرعة فإن عددها يبدأ في التناقص، وتستمر في التناقص بشكل عام حتى تنقرض. عندما تتعامل الدول المتحضرة مع البرابرة، يكون الكفاح قصيرًا، إلا في الحالات التي تخدم فيها الظروف العرق الأصلي. بعض من الأسباب التي تؤدي إلى انتصار الدول المتحضرة يكون بسيطا وسهلا، والبعض الآخر يكون معقدا وغامضا.

يمكننا أن نرى كيف أنّ زراعة الأرض بالنسبة لهؤلاء الهمجيين عملية قاتلة من عدة جوانب، ذلك لأنهم لن يستطيعون أو لن يغيروا من عاداتهم (داروين 1896، 182).

## التسمانيون كحلقة تطورية

كان يُعتقد في القرن التاسع عشر وعلى نطاق واسع أن التسمانيين كانوا حلقة تطورية حية بين البشر المعاصرين وأسلافهم الرئيسيين. وكانوا أشخاصاً ذوي بشرة داكنة، وكانت تشمل أصولهم العرقية في الغالب - كما ذُكر - زنجية، وأندامانيز، وموراپي (بيردزيل 1949). بالنظر إلى الافتراض الشائع للتطور الطبيعي، فإن "الجنس" التسماني كان يُنظر إليه على أنه أقل من البشر، وبالتالي شعر العديد من الأشخاص أنه ليس من الخطأ أو من غير الأخلاق معاملتهم مثل الحيوانات. أثر هذا الموقف في النهاية على السلوك الذي أدى إلى إبادة كاملة للتسمانيين الأصليين. واليوم من المعترف به عالمياً أنهم مجموعة عرقية مميزة شبيهة بالأبوريجينيين الأستراليين، وعلى الرغم من أنهم يمتلكون ثقافة فريدة من نوعها، لكنهم كانوا من البشر تمامًا (مالفاني وغولسون 1971)

## تاريخ تسمانيا والصراع

تُسمى تسمانيا على اسم الهولندي آبل يانسن تاسمان، قائد سفينتين هولنديتين صغيرتين، الذي اكتشف الجزيرة في عام 1642. وقد زار الجزيرة العديد من الأشخاص الآخرين مثل الفرنسيون في 1772 (كاستيلين 1988 وبلوملي 1983 وغارانغر 1985 وهال 1870). وفي عام 1777. وقد تعامل كابتن كوك مع السكان الأصليين ووصفهم بـ "معتدلين ومبتهجين، دون تحفظ أو غيرة من الغرباء" (بونويك 1870، 6). وقال كذلك إنهم تصرفوا مثل "الحيوانات وانتشروا على طول السواحل والغابات" (ترولوب 1873، 61). وهذا التصور من شأنه أن يحدد طريقة الاتصالات اللاحقة مع التسمانيين الأصليين، والتي يطلق عليهم أحيانًا اسم الأبوريجينيون التسمانيون على غرار الأبوريجينيين الأستراليين.

توصل المستكشفون الآخرون الذين كان لديهم اتصالات مكثفة مع التسمانيين إلى أن التسمانيين كانوا أشخاصًا يتمتعون بالبهجة ومهذبين وودودين ويتميزون بالدقة ومخلصين وأذكياء وذوي مهارة فائقة في الغوص وصيد السمك (بلوملي 1983 وبونويك 1870). ووُصفت النساء المتزوجات على أنهن أمهات ممتازات، ومهتمات، ويتصفن بالحنان واللطف، ويظهرن حنان الأمهات بشكل ملحوظ (ويست 1987). ووصفت النساء الأصغر سنًا بالحنان واللطف وروحهن الرائعة. على الرغم من أن السكان الأصليين يمتلكون "عقلية بدائية"، لكن "بلوملي" نقل عن أحد المستكشفين الذي وصفهم بأنهم: "أذكياء، يمكنهم بسهولة فهم كل حركاتي. بدا لي منذ اللحظة الأولى أنهم فهموا أمري تمامًا، وقد كرروا عدة مرات الكلمات التي لم أتمكن من فهمها في المرة

الأولى، وغالبًا ما كان يغمرهم الضحك عندما كنت أحاول تكرار ما قالوه فأرتكب خطأ أو أنطقها بشكل سئ" (بلوملي 1983، 64).

ونتيجة لاتصاله المستمر مع التسمانيين، ذكر بيرون أن الأشخاص لديهم "ثقة لطيفة" في فريق بيرون كما هو موثق من خلال "كرمهم الذي لم يتوقفوا عن إظهاره تجاهنا" ووضوح سلوكياتهم، وسذاجة مداعبتهم أثارت مشاعر طيبة في داخلنا. الاتحاد الحميم بين مختلف أفراد الأسرة حركنا بقوة. ورأيت بسعادة لا يمكن وصفها تحقق تلك الأوصاف اللامعة للسعادة والبساطة في حالة الطبيعة والتي شعرت بالانجذاب إليها مراراً وتكراراً في قراءاتي (بونويك 1870، 27).

كانوا يرتدون القلائد والحلي الأخرى، وكان لديهم الأكواخ المبنية، والرماح المصنعة، والعصيّ، والملاعق، وأوعية المياه، والوسائد، والسلال، والحبال، وطوافات الزوارق، والعديد من الأشياء الأخرى (بلوملي 1983). وُصفت تضاريس الجزيرة وأوراق الشجر بأنها الجنة، كانت التضاريس متنوعة في المناظر الطبيعية والمناخ. تحتوي منطقتها الصغيرة على كتل ضخمة من الجبال وغابات كبيرة وبحيرات لا حصر لها وشلالات مياه وأودية خصبة وربما أكثر البلدان التي يصعب الوصول إليها في كافة أنحاء أستراليا. المناخ معتدل: صيف حار وشتاء معتدل. تتساقط أمطار متوسطة على السواحل تصل إلى 40 بوصة – الهضبة الوسطى أكثر جفافا – ولكن على بُعد بضعة أميال في الحزام الغربي يكون المطر متواصلًا فعليًا، في بعض الأحيان المتوسط يزيد على 100 بوصة في السنة (لاسيرون 1972، 139).

يتألف التسمانيون الأصليون من الصيادين الذين كانوا يشبهون بيولوجياً السكان

الأصليين الذين يعيشون في البر الأسترالي الرئيسي. وقد وصفهم موريس بأنهم كانوا صغيري الحجم ولكن ذوي أرجل طويلة، ولونهم كان يميل إلى البني الأحمر بدلاً من الأسود، وحواجبهم مثل الخنفساء وفمهم واسع وعريض وأنفهم عريض وعيونهم بنية عميقة. كانت لحى وسوالف الرجال كثيفة الشعر وكانوا يصففون شعرهم في جدائل متعرجة مصبوغة باللونه الأحمر الأوكسيدي. وكانت النساء تقص شعرها قصيرًا وكن أيضًا لديهن شعر كثيف على أجسادهن، وفي سن الشيخوخة غالباً ما كان يكون لديهن شوارب خفيفة. ومن الناحية البدنية، يبدو أن التسمانيين كانوا يفتقرون إلى القدرة على التحمل: لقد كانت حواسهم حادة بشكل غير عادي، ولكنهم لم يكونوا أقوياء للغاية ولا حتى يتميزون بالرشاقة بشكل خاص، على الرغم من أنهم كانوا بارعين في الركض على أربع (1972، 62).

بعد مراجعة الاتصالات الإيجابية المبكرة مع التسمانيين، لاحظ بونويك – للأسف – أن هؤلاء الأشخاص، رغم أنهم في البداية كان يُنظر إليهم بشكل إيجابي من قبل المستعمرين الإنكليز، إلّا أنهم بعد بضع سنوات، أصبح يُنظر إليهم على أنهم مخلوقات تستحق التدمير بجدارة وتدميرهم شئ ضروري. عليك الابتسام مثل بيرو"Pe´ron"  ببساطة حيث كان يؤمن بأن إيماننا بالمخلوقات الفقيرة أشبه بتلك الفرنسية الحنونة ، ربما كان القارئ قد نجا... بسجل حافل من "آخر التسمانيين" (بونويك 1870، 27).

كان هذا التغير في الاتجاه نتيجة لعوامل كثيرة تشمل الطمع والاقتصاد والاختلافات الثقافية والاجتماعية واللغوية، بالإضافة إلى عدم الثقة في كلا الجانبين وحدود التاريخ، لكن العامل الذي نركز عليه هنا هو التأثير الحاسم للتطور. رغم أنه من

الصعب في الوقت الحالي تقييم الدور الدقيق الذي لعبته الداروينية في الأحداث التي أعقبت وصول الأوروبيين إلى تسمانيا، لكن من الواضح أن دورها لم يكن صغيراً وساعد في تبرير الفظائع الكثيرة التي حدثت بعد أن تطورت نزاعات تسمانيا وصفها الأوروبيون الآن بأنها "قبيحة"، وبعضها "مثير للاشمئزاز" مع "تعبير الوجه الأكثر بشاعة" (موريس 1972، 62). ثم لخص دايموند النظرة "العلمية" لهم حيث لاحظ أنّ: التسمانيين جذبوا اهتمام العلماء، الذين اعتقدوا أنهم هم الحلقة المفقودة بين البشر والقرود ومن ثمّ فعندما توفي آخر رجل وهو ويليام لانر في عام 1869، اتجه فريق من الأطباء بقيادة د. جورج ستوكيل من الجمعية الملكية لتسمانيا، ود. دبليو. إل. كروثر من الكلية الملكية للجراحين. قاموا بالتناوب بنقل جسم لانر وإعادة دفنه مما أدى إلى قطع أجزاء منه وسرقتها. قطع كروثر الرأس، وقطع ستوكيل اليدين والقدمين وقطع شخص آخر الأذنين والأنف (1988، 9).

وقد عبر دايفيد كولينز – وهو قاضي من القرن التاسع عشر – عن الموقف المشترك بشأن تسمانيا حيث كتب أن التسمانيين كانوا سُذَج (فيشر 1968، 24). ويلخص هذا الاعتقاد عالم التطور الألماني البارز – إرنست هيجل – الذي استنتج أنه "بما أن الأجناس الدنيا – مثل فيدا، أو الزنوج الأستراليين – أقرب إلى الثدييات – الكلاب والقرود – من الأجناس الأوروبية المتحضرة، فيجب علينا إذن، تحديد قيمة مختلفة تمامًا لحياتهم" (1905، 390). وأوضح مولفاني الوصف الغربي للثقافة التسمانية كالتالي: "كانوا بدائيين جدًا، حتى أن النظريين التطوريين اعتبروهم فيما بعد، مخزن للحقائق الأحفورية. وأطلق إدوارد تايلور على تسمانيا لقب "ممثلين عن رجل العصر الحجري

القديم". وقد نفى جون لوبوك ضمنا إنسانيته بحكمه الميكانيكي: "إن فان دايمنر [التسمانيين] وسكان أميركا الجنوبية هم بالنسبة لجامع المقتنيات الأثرية مثل حيوان الأبوسوم والكسلان بالنسبة للجيولوجي" (1969، 133).

وضح دايموند نتيجة هذا الاعتقاد بشكل جيد عندما قال: إذا طلبت من أي عالم أنثروبولوجي أن يوجز في إحدى العبارات ما هو الأكثر تميزًا حول التسمانيين فإن الإجابة ستكون بالتأكيد: "أكثر البشر - الذين لا يزالون على قيد الحياة في القرون الأخيرة - بدائيةً". من الواضح أن التسمية "البدائية" كانت نغمة عِرقية مُدوية. وفي القرن التاسع عشر أدى تطبيقها إلى عواقب مأساوية (1993، 51).

وقعت المناوشة الكبرى الأولى مع التسمانيين الأصليين في 3 مايو 1804. وكان هذا الحدث بداية سلسلة من الصراعات التي أدت في النهاية إلى هجوم واسع النطاق عليها. وأمر ضابط بريطاني - لأسباب غير واضحة حتى اليوم - رجاله بفتح النار على التسمانيين مما أسفر عن مقتل وجرح ما لا يقل عن 50 ضحية. وكانت النتيجة أن "السلوك الودي للسكان الأصليين تغير تمامًا بعد هذا الهجوم غير المبرر وما ترتب عليه من وفيات. إن العداء والانتقام قد نتج عن هذا العمل الوحشي البربري وكانت النتيجة سلسلة من اللقاءات البسيطة التي هُزم فيها السكان الأصليون باستمرار وفقد كثير منهم حياتهم" (نايتون 1886، 272).

كان الملازم مور - وهو الضابط الذي أعطى الأمر لإطلاق النار - مخموراً من "جرعة زائدة من الخمر"، ويبدو أن عملية إطلاق النار قد وقعت لكي يراهم وهم يفرون. وهربوا وهم خائفون "من الإعدام" الذي ترك فيهم "كراهية عميقة الجذور

للوجوه البيضاء التي لم تزُل بعد ذلك" (نايتون 1887، 272). جاءت بداية الذبح بعد فترة طويلة من بدء الأوروبيين الاستقرار في تسمانيا ولخصها بشكل واضح دايموند قائلا: قام البيض باختطاف أطفال من تسمانيا كعمال، واختطاف النساء كسبايا، وتشويه أو قتل الرجال، والاعتداء على أراضي الصيد الخاصة بهم، وحاولوا طرد التسمانيين من أراضيهم. ونتيجة لعمليات الاختطاف، خُفض عدد السكان الأصليين في شمال شرق تسمانيا في نوفمبر 1830 إلى اثنين وسبعين من الرجال البالغين، وثلاثة من النساء البالغات، ولا يوجد أطفال. وأطلق النار أحد رعاة الغنم على تسعة عشر تسمانياً بمسدس ونصب أربعة رعاة آخرين كمينا لمجموعة من السكان الأصليين وقتلوا فيه ثلاثين ورموا جثثهم على جرف يعرف اليوم باسم فيكتوري هيل (1988، 8).

سمحت محاولات التسمانيين غير الفعالة للدفاع عن أنفسهم للحاكم - السير جورج آرثر - بأن يأمر كافة التسمانيين بمغادرة مناطق الجزيرة التي استقر فيها الأوروبيون (بونويك 1870). ومن الواضح أنهم لم يعجبه التعامل مع الموقف بهذا القرار فقط؛ ففي نوفمبر 1828، أذن آرثر لرجاله بالقتل على مرأي البصر لأي تسمانيًا لا يزال يعيش أو يتجول في المناطق التي أقام فيها الأوروبيون (دايموند 1993، 57). حتى أن الحكومة قامت بدعم "المجموعات المتجولة" المكونة من المدانيين والسجناء الذين قادتهم الشرطة لمطاردة وقتل التسمانيين. بعد ذلك أُعلن عن مكافأة على رؤوس السكان الأصليين: خمسة جنيهات بريطانية لكل شخص بالغ، وجنيهان لكل طفل يُقبض عليهم أحياء -"صيد السود" كما كان يطلق عليه نظرًا للبشرة السوداءالتسمانية -. وأصبح ذلك نشاطًا تجاريًا كبيرًا للمجموعات الخاصة والمتجولة الرسمية. أُعدت لجنة

للتوصية بسياسة شاملة تجاه السكان الأصليين، وبعد دراسة المقترحات الخاصة باعتقالهم للبيع كرقيق أو تسميمهم أو احتجازهم أو اصطيادهم بالكلاب، استقرت اللجنة على استمرار المكافئات واستخدام شرطة الخيالة (دايموند 1988، 8-9).

أحد روايات العنف الذي تطور إليه الصراع الأوروبي - التسماني كانت كما يلي: "كان فريق من شرطة ريتشموند يمر عبر دَغل في عام 1827 عندما رأهم أحد القبائل وهم يصدعون التل ورشقوهم بالحجارة. أطلق الآخرون النار عليهم في المقابل ثم ضربوهم بالحربة. لدينا تصريح من السيد جورج أوغستس روبنسون لإعلان أنّ: "فرقة من العسكرية وقوات الشرطة وجدوا عددًا من المواطنين بين صخرتين متعامدين على رف صخري، قتلوا سبعين منهم، وجرجروا النساء والأطفال من شقوق الصخور، وهشموا رؤوسهم" (بونويك 1870، 64، والتركيز على الأصل).

وفي تقرير آخر من عام 1830: أصبحت رياضة جديدة شائعة في تسمانيا وانتشرت عبر أستراليا: "صيد السكان الأصليين". وكان أكبر "صيد" في تسمانيا حتى الآن عندما انتشرت مجموعة من الصيادين في أنحاء الجزيرة واستهدفوا السكان الأصليين بفوهات بنادق الصيد، وكانوا ينظرون إلى المستوطنين غير المتعلمين على أنهم من الهوام بهدف إخضاعهم وذبحهم (ميرسر 1999، 448).

كانت الوحشية ضد من رآهم بعض القوقازيين كمنافسين أقل شأنًا، مخيفة للغاية. كان اغتصاب النساء شائعًا، وكثير منهن حملن أطفالاً من المستوطنين الأوائل. ويُزعم أن العديد من المستوطنين "استمتعوا بإخصاء كافة الرجال المحليين الذين تمكنوا من القبض عليهم". وكان ذلك موضوع تفاخر متبادل فيما يتعلق بالأعداد التي تم

إخضائها (نايتون 1886، 274).

يستنتج نايتون أن سجل تسمانيا بأكمله كان "سجلا شاملًا للتعدي والتعذيب والتشويه والقتل والسطو، وقاموا بالتخفيف منه هنا وهناك من خلال الأعمال الخيرية النبيلة والتفضل بالإحسان" (1886، 283). وباختصار كانوا "مطاردين مثل الوحوش البرية" لأن هذا ما اعتقده الكثير من الأوروبيين بأنهم وحوش برية (بونويك 1870، 66). على الأقل قاموا بتجاهل تعاليم الكتاب المقدس بأن كافة الرجال من نسل آدم وحواء. وقد وصف "دياموند" الوحشية الأوروبية على النحو التالي: عندما انتشر المستوطنون البريطانيون في تسمانيا في عشرينيات القرن التاسع عشر، بدأوا بتكثيف الصراع العنصري. ورأوا المستوطنين التسامينيين أكثر قليلاً من الحيوانات وعاملوهم وفقًا لذلك. إن تكتيكات مطاردة التسمانيين شملت ركوب الخيل لإطلاق النار عليهم، وإعداد الفخاخ الصلبة للقبض عليهم، ووضع الطحين السام حيث قد يجدونه ويأكلونه. لقد قطع رعاة الأغنام القضيب والخصيتين للرجال الأصليين حتى يمكنهم مشاهدة الرجال يركضون بضعة ياردات قبل أن يموتوا (1993، 57).

لم تكن قضية تسمانيا مجرد نزاع بين الثقافات ولكن تأثرت كذلك - من وجهة نظر نايتون (1886، 268)- بمعتقدات "علماء العرق " الذين استنتجوا أن "المحاولات لتحقيق تحضر الأستراليين هي غير مجدية تمامًا - كما اعتقد الكثيرون - لقد كان من الأسهل أن يتدنى البيض للوصول إلى مستوى السكان الأصليين بدلًا من رفع السكان الأصليين إلى مستوى البيض. وقد يجاب عن ذلك بأن الكثير من البيض قد تدنوا بالفعل إلى مستوى السود من خلال جهودهم الذاتية" (1886، 268).

روّج البعض لوضع تسمانيا من خلال الاستنتاج بأن "النضال من أجل الحياة الذي يدور حولنا الآن، [و] كما كان منذ ظهور الإنسان على الأرض" حقيقة من حقائق الطبيعة (نايتون 1886، 269). حاول العديد من المسيحيين ورجال الدين مساعدتهم وبعضهم حقق نجاحًا كبيرًا لكن مساعدتهم كانت متأخرة للغاية (بونويك 1869، 1870).

كانت وزارة الخارجية في لندن تدرك تمامًا أن مجموعة كبيرة من الشعوب الأصلية تعيش في المستعمرات البريطانية. كانوا قلقين أكثر بكثير بشأن حكم إمبراطوريتهم الشاسعة من إثبات نظريات التطور ولذلك أمروا بمعاملة السكان الأصليين بمودة ولطف. وبالتالي سعى العديد من السكان المحليين - عدد كبير منهم من المدانيين - والحكومة البريطانية المحلية، إلى التعامل معهم بشكل عادل وشرعي. ومع ذلك سرعان ما علم الأشخاص أن أفضل لعبة هي اغتصاب وتشويه نساء تسمانيا وقتل وتشويه رجال تسمانيا. فلا توجد رقابة على هذه الممارسة. ولذلك قاموا بقتل الأطفال وإخصاء الرجال واختطاف النساء من قبائلهم "(شيفرد 1990، 3).

وعلى الرغم من أن بعض البيض حاولوا إلقاء اللوم في هذه الصراعات على التسمانيين، فإن العديد من المستوطنين أدينوا بالجريمة ودعمت الأدلة استنتاج أن غالبية العنف غير المبرر جاء من الأوروبيين (بونويك 1870). وكما أشار نايتون فإن العديد من الجرائم ضد السكان الأصليين "لا يمكن إثباتها في المحاكم بسبب عدم وجود شهود حيث كان الشهود الوحيدون هم الرجال البيض الذين ارتكبوا الاعتداءات" (1886، 273).

لم تساعد كلمات عالم الأحياء الذي عارض التطور على وقف المذابح ضد التسمانيين، كما أنها لم تساعد في وقف الإبادة الجماعية لحل لمشكلة "القبيلة الهمجية"

بالكامل. ولاحظ فينش هاتون بعد أن ربط كيف استخدم شخص ما مادة الإستركنين لقتل عدد كبير من السود بشكل عام، "كان عدد قليل من الأشخاص طموحين" بما يكفي للاندماج في هذه المذابح بالجملة، وعندما يكون السود مزعجين تكون العقوبة كافية للخروج واطلاق النار على واحد أو اثنين حيث يقومون بتثبيطهم بسهولة في حالتهم الوحشية هذه، وخاصة من خلال أي شيء لا يمكنهم فهمه" (1885، 149–150).

حتى أن بعض الكنائس الرئيسة رضخت لوجهة النظر القائلة بإن التسمانيين كانوا جنسًا أدنى، لا يحبهم الإنسان ولا الله: "تجاهل رجال الدين في الأيام الأولى للمستعمرة السكان الأصليين تمامًا، معتقدين أنهم حتى الآن دون مستوى الإنسانية، بحيث لا يستحقون التدريس. وفي أواخر عام 1829 – بعد ستة وعشرين عامًا من الاستيطان الأول – كتب هنري ويدوسون أن (الكنيسة) لم تبدِ أية محاولة لتنصير "البؤساء المساكين" – كما قال – وأضاف "لم أسمع أبداً ولا أعتقد، أن أي معلم للإنجيل انتقل ستة أميال من مدينة هوبارت للاستفسار عن أوضاعهم". في الحقيقة، عندما طلب الحاكم آرثر من الجمعية التبشيرية في الكنيسة في عام 1828 إرسال مبشر تم رفض طلبه (ترافرز 1968، 35).

## آخر التسمانيين

في عام 1830 – بعد 30 عامًا فقط من استيطان البريطانيين بشكل أساسي في تسمانيا – جمع جورج أغوستوس روبنسون آخر 135 من السكان الأصليين، الذين كانوا حوالى 3000 إلى 5000 شخص تقريبًا، ونقلوا إلى جزيرة فلندرز على بعد 48 كم شمال شرق تسمانيا. (جونز 1971). تقع جزيرة فلندرز – وهي عبارة عن عدد قليل

من الأشجار ولا توجد بها أنهار وتتميز بالرياح الباردة العنيفة والأمطار المتكررة ويغطيها الشجر العشبي والأغصان الكثيفة - مباشرة شمال الزاوية الشمالية الشرقية من تسمانيا(فيشر 1968). وكافح روبنسون من أجل مصالح السكان الأصليين، حتى أنّه تعلم لغتهم، وكان مقتنعاً تمامًا أن اللوم يقع على المستوطنين الأصليين في المستوطنات (بونويك 1870).



صورة لآخر 4 سكان أصليين من أصل تسمانيا، تروجانيني تجلس على اليمين.

على الرغم من أنه قد دُفع له ثلاثمائة جنيه مقدمًا، وكان من المقرر أن يتقاضى سبعمائة جنيه إذا قام بتخليص تسمانيا من السكان الأصليين، فقد أدرك على الأرجح أن هذه كانت الفرصة الوحيدة لإنقاذ ما تبقى من تسمانيا (هورمان 1949). كان "مسيحيًا متحمّسًا، وغير مقتنع بأنّ هؤلاء المتوحشين المزعومين تجاوزوا الخلاص" (ترافرز 1968، 157). وكان نجاحه الهائل في العمل معهم أكبر بكثير من الحكومة، ويرجع ذلك جزئياً إلى أنه "اعتقد أنهم بشر عقلانيون وليسوا متوحشين وأقرب إلى القرود" (ترافرز 1968، 179). ولسوء الحظ أثبت روبنسون أنه ليس جيدًا كمدير، وكانت الظروف المعيشية في الجزيرة سيئة، وكان العديد من السكان الأصليين يشعرون بالحنين الشديد، وتفشى المرض. وسرعان ما توفي الأشخاص تم نقلهم حديثًا بسبب الالتهاب الرئوي المزمن أو الإنفلونزا أو أمراض

الجهاز التنفسي الأخرى، تمامًا مثل كافة الرضع الذين ولدوا في الجزيرة. لقد شعروا بأنهم قد أخذوا هناك ليموتوا، وبعد ثلاثين عامًا في عام 1869، لم يبق سوى ستة من التسمانيين الأحرار فقط، بمن فيهم ويليام لان (أو لاني)، وامرأة "ذات سمات واضحة" تدعى تروجانيني، وامرأة أخرى تسمى "ميني". مات لان من الإسهال الكوليري في سن 34 في 3 مارس، 1869، وتوفيت آخر امرأة في 8 مايو 1876 عن عمر يناهز 73 سنة (تيرنبول 1948). إنّ اهتمام الناس بهؤلاء الأشخاص الثلاثة - حتى في هذه المرحلة - لم تكن إنسانية، ولكن: "لاهتمام العلم بتأمين هيكل عظمي مثالي من الذكور الأصليين التسمانيين. حيث يوجد الآن هيكل عظمي لأنثى في المتحف، لكن لا يوجد ذكر، وبالتالي فإن موت "بيلي لان" وضع الجراحين في حالة تأهب. وكتبت الجمعية الملكية المتلهفة للحصول على الهيكل العظمي للمتحف إلى الحكومة بخصوص الأمر، موضحة بالتفصيل الأسباب التي تدعو إلى تأمين الهيكل العظمي لهم إذا أمكن ذلك. وقد اعترفت الحكومة في الحال بأحقيتها لذلك وتفضيلها على أي مؤسسة أخرى. وأعرب المجلس عن استعداده في أي وقت لتقديم القوالب والصور الفوتوغرافية وكافة التفاصيل الأخرى لأي مجتمع علمي يطلبها. لقد كان هذا الهيكل العظمي بالأهمية التي لا تسمح له أن يبقى في القبر، وبالتالي ربما لم يكن ليوجد أي اعتراض على أخذه، طالما سيأخذه أولئك الذين يحق لهم الاحتفاظ به لصالح العامة والعلوم" (بونويك 1870، 397-398).

وكانت هناك مؤسسات علمية أخرى إلى جانب الجمعية الملكية مصممة على إضافة الهيكل العظمي لبيلي إلى مجموعتها. دخل أحد السارقين إلى المستشفى في ليلة

الجمعة و"قُطعت الرأس وأُخذت الجمجمة بعيدًا" ولإخفاء الجريمة: وُضعت جمجمة مريض تُوفي في المستشفى داخل جلد رأس المواطن الأصلي البائس، ورُسم وجهه حتى يكون له مظهر مكتمل. كان أعضاء مجلس الجمعية الملكية منزعجين بشكل كبير بسبب هذه التشويه الذي اكتُشِف، وشعورا وبثقة من أنّ هدف الحزب الذي أخذ الجمجمة كان بعد ذلك أن يأخذ الجسم من القبر، وهكذا يمتلك الهيكل العظمي بالكامل، لذلك تقرر فصل القدمين واليدين وتقديمهم في المتحف (بونويك 1870، 397-398).

كان الطلب على العظام وأجزاء الجسم الأخرى في المقام الأول نتيجة لأهمية تسمانيا في توثيق وبحث التطور. أدرج متحف الكلية الملكية للجراحين جماجمها من السكان الأصليين باعتبارها "الأكثر بدائية بين كافة أشكال البشر الموجودة" (مونغان 1991، 30). ولاحظ دايموند قبل وفاة آخر امرأة من أصل تسماني - تورجانيني - أنها كانت تخشى من التمثيل بجثتها كما حدث، فطلبت عبثًا أن تدفن في البحر. وحدث ما كانت تخشاه، فقد قامت الجمعية الملكية بالحفر واستخراج هيكلها العظمي وعرضته على الجمهور في متحف تسمانيا، حيث بقيت هناك حتى عام 1947. وفي ذلك العام استسلم المتحف أخيراً للشكاوى ونقل الهيكل العظمي لتروجانيني إلى غرفة حيث كان بإمكان العلماء فقط مشاهدته. وأخيرًا في عام 1976 - بعد مائة عام على وفاة تروجانيني - حُرق هيكلها العظمي بسبب اعتراضات المتحف، وأصبح رمادها مبعثرًا في البحر كما طلبت (1988، 9).

كانت مشكلة انتهاك حرمة القبور منتشرة جدًا في مجال العلم لدرجة أن بعض أعظم الأسماء في العلوم البريطانية كانت تشارك في تجارة خطف الأجساد بنسب كبيرة.

ما بين 5000 و10000 من السكان الأصليين قد نبشت قبورهم وتم تدمير جثثهم وقطع أجزاء منها. وشارك في هذا كل من جورج روليسون من متحف تشريح جامعة أوكسفورد، والسير ريتشارد أوين والسير آرثر كيث من الكلية الملكية للجراحين. تشارلز داروين كذلك كان متورطًا من خلال الرسائل المكتوبة في 1870 وما بعدها ووجدت في أرشيف هوبارت في منتصف 1970 وما بعدها (موناغان 1991، 33).

نجا عدد قليل من التسمانيين المختلطين وكانت فاني كوشرين سميث آخر تسمانية أصلية. كانت سيدة من السكان الأصليين وكانت تعمل بجد وتعيش في نيتشولز ريفوليت أخذتها عائلة من البيض، وقُبلت بسهولة في المجتمع الأبيض. وتزوجت من وليام سميث في 2 أكتوبر 1854 في الكنيسة المستقلة في هوبارت. كان لديهم أحد عشر طفلاً. استمرت فاني في الضغط على إدعائها بأنها هي - وليست تروجيني - كانت آخر تسمانية أصلية. وأقنعت أخيراً البرلمان وكانت النتيجة أن قراراً قد صدر في عام 1884 يمنحها أرضاً تبلغ مساحتها مائتي فدان بالإضافة إلى الأرض التي كانت لديها بالفعل في ميناء سايجنيت. وتنتمي فاني ووليام إلى الكنيسة الميثودية (المنهاجية). كان لدى فاني صوت غنائي جميل، وسجلت بعض الأغاني قبل عامين من وفاتها في 25 فبراير 1905 وهي في عمر أربعة وسبعين عامًا. كانت تستلم دفعة سنوية من الحكومة قدرها 50 جنيهاً سنوياً، وبعد وفاتها نقلت ممتلكاتها إلى الكنيسة الميثودية. ولا يزال أحفادها يعيشون في المنطقة ذاتها (ويست 1987، 91).

خلص ترافرز إلى أن آخر تسماني أصلي توفي في عام 1888. على الرغم من أنه لا يُعرف إلا القليل عن آخر الناجين بعد تروجاني، لكن هناك أدلة على أن ثلاث نساء

على الأقل قد اختطفن على يد البحارة، وأنهنّ كنّ قد تقدمن بطلبات فيما يتعلق بتراثهن (موليسون وإيفريت 1978 وبونويك 1869).

## هل كان التسمانيون عرق متدني؟

الدافع للذبح على اساس العرق والمعتقدات التطورية غير قابل للجدل. بحلول منتصف القرن التاسع عشر كان الاهتمام العلمي بعظام السكان الأصليين الأستراليين يكتسب شعبية حيث سعى الباحثون في نظريات التطور الأوائل للحصول على دليل. وقد زاد الاهتمام بشدة بعد أن نشر تشارلز داروين كتابه "أصل الأنواع في عام 1859" (موناغان 1991، 34). وكان السبب في ذلك، في كتابه عن التطور البشري "أصل الإنسان"، استخدم داروين الأستراليين كدليل حاسم على نظرياته: "في بعض الفترات المستقبليّة، ليس بعيدة بالقدر الذي يُقاس بالقرون، فإنّ سلالات الإنسان المتحضّرة بالتأكيد ستقوم بإبادة واستبدال الأجناس الهمجية من كل العالم." كان يتوقع داروين أنه في غضون 20 عامًا سيتحقق ذلك في تسمانيا. كتب داروين بنفسه إلى أحد المتاحف التابعة له، طالباً جماجم تسمانيا الأصلية إذا لم يضايق ذلك المواطنين الأصليين. كان ما تبقى أربعة فقط من السكان الأصليين التسامنيين. كانت نظريات داروين قد وضعت السكان الأصليين كصلة تطورية محتملة بين الإنسان والقرد. وطالب أمناء المتاحف من كافة أنحاء العالم بالحصول على الجماجم. وكانت مجموعة كاملة من جماجم العرق كانت ضرورية لأية دراسة. وكانت جماجم السكان الأصليين الأستراليين - ولا سيما التسمانيين النادرين - مطلوبة بشكل كبير على نحو متزايد (مونغان 1991، 34).

وبكلمات داروين، فإن "الأجناس البشرية المختلفة" تتصرف مع بعضها البعض

بالطريقة ذاتها التي تتصرف بها الأنواع المختلفة من الحيوانات - حيث يبيد الأقوى دائماً الأضعف -" (داروين 1965، 230). إنّ الاهتمام بفهم مساهمة محرقة تسمانيا في التطور إنما هو لأنّ الذبح بدأ قبل أن ينشر داروين عمله الكلاسيكي في عام 1859. كما قال ألتيك: "إنّ معظم مكونات ما وضعه داروين بشكل رسمي كنظرية التطور كانت في موجودة في دوائر مطلعة عليها لفترة طويلة قبل ظهور أصل الأنواع " (1978، 287). وحينما نشر داروين كتابه قبل العديد من العلماء انتشرت أفكاره الأساسية بالفعل. وقدم داروين بكل بساطة ما كان آنذاك من أفضل الحالات توثيقًا والأكثر إقناعاً لفكرة مقبولة بالفعل على نطاق واسع من قبل العديد من النخبة المثقفة.

ادّعى كثيرون أن التسمانيين كانوا جنسًا "بدائيًا"، وحُكم عليهم بذلك لمشابهتهم السكان الأصليين الأستراليين في الصفات الجسدية (ثورن 1971). ومما دعم هذا الاستنتاج هو ملاحظة أن العديد من ممارساتهم الثقافية مثل مراسم الدفن كانت متشابهة (هيات 1969). وفي دراسة أجريت في أستراليا ما قبل التاريخ استنتج مالفاني (1969) أن الانتماءات العرقية التسمانية لا تزال متخيلة.

إنّ التسمانيين لم يكونوا "عرقًا أدنى" وكان ذلك واضحًا من ملاحظات العديد من الباحثين المؤهلين. رداً على سؤال "هل كان السود في تسمانيا مؤهلين لحضارة حقيقية؟" أجاب بونويك "نعم، بلا شك"، وقدم مثالا على ذلك والتر جورج آرثر - وهو من السكان الأصليين التسمانيين الذين عرفهم شخصيا -. أُخذ آرثر عندما كان مجرد طفل رضيع، ونما وترعرع وتلقى تعليمه في مدرسة الملكة للأيتام (في مدينة هوبارت). كانت أفكاره إنكليزية تمامًا، ولم يكن لديه أي قدر من الهمجية في داخله.

لقد كان رجلاً محبوبًا للغاية ومغرما بالقراءة ويتحدث ويكتب الإنكليزية بطريقة فصيحة تمامًا. وكانت كتابته صحيحة كذلك. كان هذا الرجل يمتلك مائة فدانا من الأرض، وكان يعرف حقوقه فيما يتعلق بها تماماً كما تفعل أنت. [وهو كان كذلك] جدير بالاحترام لفطنته وإحساسه بالصواب ومشاعره النبيلة. (بونويك 1870، 353).

وفي أواخر عام 1926، كان العديد من العلماء المحترمين لا يزالون يدرسون أن الأستراليين الأصليين "ترجع أصولهم إلى الإنسان البدائي وأن "السكان السابقين في تسمانيا [كانوا] عرقًا ربما يكون أكثر بدائية من الأستراليين" (وايلدر 1926، 341-342). وقد زعم هاجيس أنه "بحلول سبعينيات القرن التاسع عشر، كان لدى تسمانيا من الفقراء والمثليين والأيتام والمعاقين أكثر من جنوب أستراليا وكوينزلاند مجتمعة وتركز في عدد سكان أقل من نصف سكانها" (1987، 593). كان هذا صحيحًا إلى حد ما، لأن عددًا كبيرًا من المدانين السابقين عاشوا هناك ولكن، وفقًا لهاجيس كان السكان غير المدانين يحصلون على اسوأ الوظائف وأقل رأس مال وأقل تعليم وكانوا أكثر عرضة للقتال ، وكانوا أكثر عرضة للاتهام والادانة بالجرائم.

ووفقًا للأبحاث التاريخية، هناك أدلة قليلة على الانحرافات السلوكية المزعومة الشائعة وغيرها من الأدلة المزعومة على "البدائية" البيولوجية للسكان الأصليين والتسمانيين بشكل عام (بيرنهام 1980 وتوماس 1981 ومالفاني 1969 ولوكوود 1963 وتوماس 1959 وتيرنبول 1962 وهيلي 1978 وهايدون 1980) وبالتالي، من الصعب الاستنتاج من الأدلة على أن العرق "المتفوق" للأفراد احتلوا مجموعة "الأدنى".

وبالإضافة إلى ذلك، فإن النظام الاجتماعي والسكان غير المدانين لم يفعلوا شيئًا

يـذكر للمسـاعدة في هـذه الأمـور: "قـدمت أسـتراليا لهـم الكثـير مـن الإجحافـات الاجتماعيـة ذاتها الـتي دفعتهم [السكان المدانين] إلى الجريمة في بريطانيـا"، و"مجموعة المستعمرين الصغيرة التي عاشت على الجزء الأكبر من الأرض، والتي نهبت واستولت على الأراضي، والنقدية وكـانوا أيضًا مهوسـهين بالـذهب فنهبوه " أدى هـذا كلـه إلى تفاقم الأمور (هاجيس 1987، 588). كانت الظروف شديدة إلى حد أن هاجيس عبر عن دهشته "مع مثل هذه الأخلاق الاجتماعية لم يكن معدل الجريمة مرتفع". كان مستوى الجريمة بين المدانين منخفضًا نسبياً مقارنة بالمعدل الموجود بين الأشخاص في متوسط المدن الأمريكية الكبيرة اليوم.

ويقـدر هيـوز (1987) أنـه في منتصـف أربعينيـات القـرن التاسـع عشـر، كـان عـدد المدانين الجنائيين في أستراليا قليلًا – حيث يقدر بحوالي 6 بالمائة – وكانـت جرائم ارتكبهـا السـكان الأصـليين. ويسـتنتج أن جـزءًا مـن السـبب هـو أن السـكان الأصـليين كـانوا "عمال لدى العائلات ولهم مصلحة في مجتمعهم". ويعتقد بيتس (1973، 64) أنه في اللحظة التي دخل فيها الأوروبيون حياتهم "كل المحرمات الاجتماعية والجنسية المحلية كُسرت" مما أدى إلى ضرر كبير للسكان الأصليين. كما أنهم كانوا يمتلكون نظامًا اجتماعيًا دمره الأوروبيون (براون 1988، ومـاكجرو 1987، وجيـودي وهـارمون 1983). وكان لتشجيع السلطات على العنف ضد التسمانيين جزء كبير من المشكلة : "لقد أُطلق النار عليهم في الغابة، وقاموا بمطاردتهم كما تطارد الوحوش الفريسة، ولوثت سمعة نسائهن، وقطعت أعناقهن أو أطلق عليهم النار من قِبل السكان البريطانيين – الذين دعوا أنفسهم بالمتحضرين – ولم تسجل الحكومة في حالة واحدة فقط ولا في مناسبة

واحدة أنها عاقبت أو هددت بمعاقبة جرائم القتل الثابتة ضد السكان الأصليين (هوبارت تاون تايمز إبريل 1836. اقتبس في بونويك 1870، 70).

حلت إبادة التسمانيين المشكلة الأصلية عن طريق الحل النهائي النازي. الطريقة نفسها لم تنجح جزئيًا مع سكان أستراليا الأصليين في البر الرئيس جزئياً لأنهم كانوا أكثر عددًا بكثير من أن يُبادوا بالطريقة ذاتها مثل التسمانيين على الرغم من أن المستوطنين الجدد اقتربوا من تحقيق ذلك. ادعى دايموند أنه بعد وصول المستعمرين البريطانيين في عام 1788 انخفض عدد السكان الأصليين الأستراليين من 300,000 إلى 60,000 نسمة بحلول عام 1921. وكان السكان الأصليون الأستراليون مختلفين بعض الشيء عن الشعوب الأصلية الأخرى في هذا الجزء من العالم مثل البولينيزيين (جراتان 1942، 40)، ونتيجة لذلك فقد قاموا "بذبحهم بوحشية في بعض الأحيان مثلما يذبح الشخص الهوام "، كما حدث في العلوم؛ "فقد ذبحوا من أجل تجارة أجزاء الجسم" لتوفير العظام لإثبات التطور للعامة (موناغام 1991، 33).

كشف أحد الدارونيين الأوائل عن الموقف من الإبادة الجماعية التي خلص إليها الهيكل العقائدي للداروينيين: "وحده الزنجي من الأجناس السوداء الذي يبدو أنه قادر على الكفاح العظيم من أجل البقاء عندما يدخل في منافسة مع الرجل الأبيض. قد نأسف من الحقيقة، لكن لا يمكننا تغيير قوانين الطبيعة" (نايتون 1886، 285). كان من المتوقع أن تُمحى الأجناس الدنيا في الصراع الكبير من أجل البقاء الذي اعتقد الدارونيون أنه خلق الحياة كلها. ومثل الحيوانات البرية، كان السكان الأصليين في طريق المستوطنين الجدد، ولأنهم تداخلوا مع السكان الجدد كان من الضروري عدم إظهار أي

رحمة بهم، ولكن كان يجب إزالتهم لصالح العرق الأصلح.

لقد عبر المؤرخ البريطاني أنطوني ترولوب عن الموقف السائد في القرن التاسع عشر تجاه السود الأستراليين: "إنه من المقدر محوهم وقد قاموا بإخفائهم بالفعل" (1873، 75). وكجنس أدنى، "لا يمكن للزنجي أن يعيش على قدم المساواة مع الرجل الأبيض" (69). وقد اعتُبر السكان الأصليين الاستراليين "أدنى بكثير" من "الزنوج الأفريقيين" (69). عندما قُتلوا على يد البيض، لم تُبلغ الشرطة بالقتل لأنه "فقط الأحمق هو من سيتكلم عن ذلك" (ترولوب 1973، 73) هم بالضبط مثل "النمر أو الثعبان" الذي عليه "أن يموت"، ولكن "يجب أن يموت دون معاناة لا داعي لها" (ترولوب 1873، 76): "إذا سألت ما هو نوع العرق الأسود في أستراليا، فسيجيب تسعة أشخاص من أصل عشرة على الفور أنهم جسديا وفكريا أكثر السلالات انحدارا في العالم. ولقياس خصائصهم الجسدية والفكرية يمكننا فقط عن طريق مقارنة [الأجناس] مع بعضها البعض. وعند مقارنتهم مع تلك الدول في العالم القديم، فإنّ الأسود الأسترالي هو، بطبيعة الحال، عينة رديئة للغاية من الجنس البشري (هاتون فينش 1885، 137).

استخدم داروين بذاته السكان الأصليين ومحرقة تسمانيا بوصفهما دليلًا رئيسًا على نظريته في الانتقاء الطبيعي (موناجان 1991؛ داروين 1896، 182). وتوضح كلماته حول زوالهم مثالًا على عنوان كتابه عام 1859، "أصل الأنواع بواسطة وسائل الانتقاء الطبيعي" أو "تحضير الأجناس المفضلة في الكفاح من أجل الحياة": عندما استُعمرت تسمانيا لأول مرة، احتُسب عدد السكان الأصليين بنحو 7000 نسمة، بينما في أماكن أخرى وصلوا إلى 20000 نسمة. وسرعان ما انخفض العدد إلى حد

كبير، وذلك أساسًا نتيجة للقتال مع الإنجليز ومع بعضهم البعض. وبعد اصطيادهم من قبل كافة المستعمرين وعندما سلم السكان الأصليون الباقون أنفسهم إلى الحكومة، كانوا يتألفون فقط من 120 فردًا، الذين نُقلوا في 1832 إلى جزيرة فلندرز (داروين 1897، 183-184).

وبعد أن أُجبروا على مغادرة وطنهم ونقلهم إلى جزيرة فليندر، لاحظ داروين أنهم لا يستطيعون التنافس مع الأجناس الأكثر تقدمًا: "وما زال المرض والوفاة يطاردونهم، وفي عام 1864، نجا رجل واحد (توفي عام 1869)، وثلاث نساء مسنات فقط. وفيما يتعلق بالسبب الاستثنائي وراء حدوث هذه الأشياء، فإن موتهم جاء بعد محاولات لتَحَضُّر السكان الأصليين. "إذا تُركوا لأنفسهم للتجول كما كانوا معتادين ولا يضايقهم شيء لكانوا قد قاموا بانجاب المزيد من الأطفال، ولكان هناك عدد أقل من الوفيات". وقال أحد مراقبي السكان الأصليين وهو السيد ديفيس، "كانت الولادات قليلة والوفيات عديدة "(1896، 184)

ولا شك أن كلمات داروين وأتباعه شجعت على إبعاد السكان الأصليين الأستراليين بعد عام 1859 وذبحهم بالجملة، و"نبش عظامهم من قبورهم المقدسة". "فما حدث لهم لم يكن مجرد قتل جماعي وإبادة جماعية، ولكن وفقًا لما قاله الدكتور بروكا: ارتكب الإنجليز "فظائع أفظع من أن تغتفر، أفظع مئات المرات من تلك الجرائم الغير مسبوقة التي ارتكبها الإسبان الذين تسببوا في القرن السادس عشر في مذبحة جزر الأنتيل" (اقتبس في بونويك 1870، 66).

وامتدت المذبحة إلى الحد الذي أصبحت فيه فكرة "الدونية العرقية" "صناعة جديدة

تصدرها" أستراليا (جريبر 1994، 32). كان الدافع هو إثبات أن "السكان الأصليين كانوا "الحلقة المفقودة" بين رجال العصر الحجري والجنس الأبيض المتطور بالكامل" (جريبر 1994، 32). على حد تعبير شيفرد: "وبطريقة ساخرة، كان التسمانيون أكثر إثارة للاهتمام وهم أموات من وهم على قيد الحياة. وضعت نظرية داروين هذا المجتمع في مكانة منخفضة للغاية على مقياس التطور لدرجة أن أسلوب حياتهم وجثثهم أصبحت مثيرة للعلماء. نُبشت قبورهم حتى يتمكن الأطباء وعلماء الأنثروبولوجيا من دراسة تشريحها؛ وعذرهم كان العلم. وكان اكتشاف بقايا رجل الإنسان البدائي موازياً لاكتشاف المجتمعات التسمانية التي تتساوى معه في البدائية تقريباً. كان لدى الكلية الملكية للجراحين في لندن أكبر مجموعة من الهياكل العظمية التسمانية، وحدث الظلم النهائي عندما دُمرت هذه المجموعة بواسطة قنابل ألمانية خلال الحرب العالمية الثانية (1990، 4).

واستُخدم التسمانيون بشكل عام كحلقات لإثبات التطور البشري. على سبيل المثال حاول هيجل إثبات أن "الفجوة بين البشر وأقاربهم من الحيوانات الأقربين يمكن سدها من خلال تدرجات غير محسوسة" (فيكارت 2004، 106). تتألف مقدمة الطبعة الأولى من أعمال هيجل الشهيرة، "التاريخ الطبيعي للخلق" (1868)، من مجموعة تتكون من 12 مظهرًا شخصيًا للوجه، تبدأ بالأوروبية وتهبط إلى شرق آسيوية، ثم الفويجية، ثم الأسترالية، ثم الأسود الأفريقي، وفي الأخير تسمانيا. "أدنى إنسان"، والذي كان مشابهًا للغاية للغوريلا في الملف الشخصي السابع.

وبعد الغوريلا جاءت خمسة أنواع أخرى من الجنس القردي/السيميان. أثبتت "الخطوات" الست بين الأجناس البشرية "الأعلى" و"الأدنى" و"خطوة" واحدة فقط بين

الجنس البشري "الأدنى" والغوريلا، والتي أثبتت وجهة نظر هيجيل حول مدى قرب أدنى البشر وصولًا للقرود. ولضمان عدم إغفال أي شخص لهذه النقطة، أشار هيجيل في تعقيبه إلى أن الرسوم التوضيحية التي قدمها أظهرت بوضوح أن "الاختلافات بين أدنى البشر وأعلى القرود هي أصغر من الاختلافات بين الأقل والأدنى بين البشر" (مقتبسة من فيكارت 2004، 106). ويضيف فيكارت أن القرب من الأجناس "الدنيا" أو "الأدنى" إلى السيميان هو موضوع متكرر في كتابات هيجل. وأشار إلى أن السكان الأصليين الأستراليين وبوشمن من جنوب أفريقيا على غرار القردة (افينالينش) ووصف كذلك بعض الأجناس في أفريقيا وآسيا بأنه لا يوجد لديه مفهوم الزواج أو الأسرة مثل القردة، ويعيشون في قطعان ويتسلقون الأشجار ويأكلون الفاكهة. وهذه الأعراق ليست قادرة على تعلم الثقافة الأوروبية، لأنه "من المستحيل أن نزرع التربية البشرية (بيلدونج)، حيث الأرضية الضرورية لذلك هي تطور المخ البشري وهذه ليست موجودة. لقد بالكاد ارتفعوا قليلاً فوق تلك المرحلة الدنيا من الانتقال من القردة إلى الرجل القرد" (2004، 106).

## الاستنتاجات

إن الإبادة الجماعية في تسمانيا هي مثال جيد على تأثير الداروينية حتى قبل أن ينشر داروين كتابه الأول الذي يعتنق التطور في 1859. وأدت المعتقدات التطورية دورًا واضحًا في سلسلة التأثيرات الاجتماعية والثقافية والدينية وغيرها، إن لم يكن كبيرًا في وفاة السكان التسمانيين المحليين (ويلاند 1995). علّم داروين أن الأجناس "الأدنى" ستنقرض، وقد أثرت هذه التعاليم على العديد من العلماء والقادة السياسيين المهمين (بيرجمان 1992).

تأثر العديد من المسيحيين في هذه الفترة الزمنية بشكل كبير بأفكار العرق الأدنى، وحاول البعض حتى محاولة استخدام الحجج الكتابية لتبرير معتقداتهم الدونية العنصرية، مثل استنتاج أن بعض الأجناس كانت ليست آدمية، فهى خلقت قبل آدم وهكذا لم يكونوا بشرًا. مثال آخر هو استنتاج أن بعض الأعراق كانت "وحوش الأرض" أو أن البشرة السوداء كانت علامة على اللعنة التي وضعها الله على لحم الخنزير وكافة أصحابه المذكورين في سفر التكوين ( 14:3، 21:7 و17:8 ) (باسويل 1964).

والدور السلبي الذي تؤديه نظرية داروين في التاريخ واضحًا، والمعاناة التي تسببها الداروينية كانت ولا تزال هائلة (تشالك وجوناسون 1990). فإذا كان البريطانيون يؤمنون ويتصرفون بشكل ثابت على الاعتقاد بأن كافة البشر هم أبناء آدم وأنهم جميعًا أخوة وأخوات كما علمهم جينيسيس، فمن المحتمل عدم حدوث محرقة تسمانيا وكذلك عدم حدوث "سلسلة طويلة من القسوة والمِحن" التي حلت بهؤلاء الأشخاص (بونويك 1870، 56). وكما أشار دايموند قائلًا: "ونظرًا لأن التسمانيين كانوا قليلي العدد، فقد أثرت ابادتهم بشكل كبير للغاية في التاريخ الأسترالي لأن تسمانيا كانت أول مستعمرة أسترالية تُحل مشكلة سكانها الأصليين بواسطة التخلص منهم جمعًا" (1988، 9).



## المراجع

ريتشارد ألتيك،1978عروض لندن. كامبريدج، ماساشوستس: مطبعة جامعة هارفارد.

ديزي بيتس، 1973 مرور السكان الأصليين: أي قضاء عمر بين سكان أستراليا. نيويورك: كتب الجيب.

جيري بيرجمان 1992" علم تحسين النسل وتطوير سياسة العرق النازي - وجهات نظر حول العلم والعقيدة المسيحية – يوليو 44(2) 109-123.

جوزيف بيردزيل 1949" أصل العنصري لتسمانيا المنقرضة – سجلاتمتحف المملكة فيكتوريا223:2-231.

جيمس بونويك 1869 آخر التسمانيين – لندن سامسون لو – سن و مارستون.

1870 الحياة اليومية وأصل التسمانيين أو الحرب السوداء لفان ديمن – لندن – سانسون لو – سن و مارستون.

دوروثي براون1988استعراض "كبرياء ضد التحيز - ذكريات تسمانياالسكان الأصليين، من قبل إيدا الغربية. "مجلة الجمعية البولينيزية 97 (2): 225—226.

جون سي بورنهام 1980" أوهام ذهانية كمفتاح للثقافات التاريخية تسمانيا 1830-1940 مجلة التاريخ الاجتماعي، الربيع 13(3) 368-383.

باسويل جيمس او 1964" العبودية والعزل والكتاب المقدس" جراند رابيدز ايردمانز.

آناماريكاستيلين1988" البحث عن قارة استراليا.بعثة بيودين 1801-1804 مواصفاتعلمالاجتماعالاقتصاديوالثقافي،علمالاثنولوجيايونيو 9:9-36.

فرانك تشاك، وكورت جوناسون1990. تاريخ وعلم الاجتماع من الإبادة

الجماعية. نيو هافن: مطبعة جامعة ييل.

تشارلز داروين، 1896هبوطالبشر، والاختيار فيما يتعلق بالجنس. نيويورك: د ابليتون.

1897أصل الأنواع عن طريق الانتقاء الطبيعي أو الحفاظ على الأفضلية.

الأجناس في الكفاح من أجل الحياة. نيويورك:دي ابليتون وشركاه.

1965 رحلة عبر الجبال الزرقاء إلى باثورست في يناير 1836." أربعة عشر رحلة فوق الجبال الزرقاء في نيو ساوث ويلز 1813-1884. إد. بواسطة جورج ماكانيس. لندن هارويتس جراهيم.

جاريد دياموند،،1988" .في البيض والسود؛ كيف يكون الأشخاص العاديون، في كثير من الأحيان من خلال التاريخ البشري، وتسببوا لأنفسهم في ارتكاب جريمة الإبادة الجماعية ؟ "التاريخ الطبيعي، أكتوبر، 97 (10): 8-14.

1993 عشرة آلاف سنة من العزلة"، اكتشف، مارس، 14 (3): 49—57.

جون فيشر، 1968. الأستراليون: من 1788 إلى العصر الحديث. نيويورك: شركة تابلينجرللنشر.

جرانجر ج 1985" بعثة بيودين والاصول التسمانية 1802 – بواسطة ن ج ب بلوملي" عالم الانثروبولوجي < 89)3(434-435.

جيودي أ وآر اس هارمون 1983- راديوماتريك التي يرجع تاريخها من سبيليوثيمزتسمانيا - أدلة على تطور الكهف وتغير المناخ. مجلة الجمعية الجيولوجية الاسترالية 30)1-2)89-100.

هارتليجراتان=،1942التعريف بأستراليا. نيويورك: شركة جون داي.

علي جريبر،1994 السود ونظرية العلون عنتفوق البيض صحيفةديلي تليغرافميرور (سيدني — استراليا) 26 إبريل ص 32.

إرنست هيجل،1868 .Naturliche Schopfungsgeschichte .برلين: جورج ريمر.

1905 عجائب الحياة. نيويورك: هاربر.

هارولد هاتون فينش، 1885 تقدم أستراليا! حساب من ثماني سنوات العمل، التساؤل والتسلية في كوينزلاند ونيو ساوث ويلز وفيكتوريا. لندن: دبليو اتش. ألين وشركاه.

توم هايدون،. 1980آخر تسمانيا - أيهأفلام ماجروهيلاالجزء الأول الأسلاف — الجزء الثاني الانقراض.

جيه جيه هيلي1978المؤلفات والسكان الأصليين في أستراليا 1770-1975. نيويورك: مطبعة سانت مارتن.

بيتي هيات،1969"حرق الجثث في أستراليا الأصلية." البشرية، ديسمبر، 7 (2): 104—119.

بي ال هورمان،1949الانقراض والبقاء: دراسة رد فعل السكان الأصليين على التوسع الأوروبي. شهادة د. اة أطروحة. شيكاغو، :ILجامعة شيكاغو.

روبرت هيوز، 1987الشاطئ الممبت ملحمة تأسيس أستراليا1987نيويورك: الفريد أ. كنوبف.

هيو م هول،1870محاضرة عن السكان الأصليين في تسمانيا. هوبارت، تسمانيا:مطبعة ميركوري ستيم

ريس جونز، 1971. "الديموغرافيا للصيادين والمزارعين في تسمانيا". الفصل 19،

ص. 271—287 فيمالفاني وجونسون 1971

ديزموند كينغ هيل 1963 .ايراسموس داروين. جد تشارلز داروين. نيويورك: أبناء تشارلز سكريبنر.

وليام نايتون، 1886. كفاح من أجل الحياة. لندن: وليامز ونورجيت.

تشارلز فرانسيس ليزرون،. 1972 (ج.ن جيننجز – المحرر)وجه استراليا. تشكيل قارة. سيدني، أستراليا: أنجوس وروبرتسون.

دوغلاس لوكوود،،1963. نحن، السكان الأصليين .ويستبورت سي تي مطبعة جرين وود

ماكجرو دبليو سي 1987 أدوات للحصول على الطعام. مقارنة بين السكان الأصليين في تسمانيا وتانزاونيان الشمبانزي ". مجلة أبحاث الأنثروبولوجيا 43(3) 247-258.

ديريك ميرسر، 1999. الألفية سنة بعد سنة. نيويورك: دورلينج كيندرسلي. "الأوروبيون يقتلون السكان الأصليين في تسمانيا."

ميليسون ب و سي اي موليفيريت 1978 السكان الأصليين تسمانيا وذريتهم. هوبارت: جامعة تسمانيا.

ديفيدموناجان،1991" جسد الخاطفين. النشرة (سيدني، أستراليا)، 12 نوفمبر 113 (5795): 33-38.

جيمس موريس، 1972"الحل النهائي، أسفل،" في هورايزون شتاء 1972، 9 (1): 61 - 70. نيويورك: التراث الأمريكي.

دي جي مولفادي 1969الشعوب القديمة والأماكن. ما قبل التاريخ من استراليا. المجلد. 65 في السلسلة، دانيال، جلين، محرر. لندن: التايمز وهدسون.

دي جيه مولفاني وجي حولسزنمحررين1971رجال السكان الأصليين والبيئة في أستراليا. كانبيرا: الصحافة الوطنية الأسترالية.

هنري أوزبورنفيرفيلد. 1929. من اليونانيين إلى داروين. تطور فكرة التطور خلال أربعة وعشرون قرنا. نيويورك: أبناء تشارلز سكريبنر.

إن. جيه بلوملي،1983بعثة بيودين والسكان الأصليين تسمانيا، 1802. هوبارت تسمانيا مطبعة بلابر هيد.

محرر1991و جورجون جورجنسن السكان الأصليين في أرض فبان ديمان خليج ساندي،تسمانيا مطبعة بلابر هيد.

آن شيفرد،1990آخر تسمانيا. دليل المعلمون لأفلام ماكجرو هيل،ديل مار، كاليفورنيا.

إليزابيث مارشال توماس،. 1959. الأشخاص بلا ضرر. نيويورك: الفريد أ. كنوبف.

نيكولاس توماس، 1981"النظرية الاجتماعية والإيكولوجيا ونظرية المعرفة. قضايا نظرية في عصور ما قبل التاريخ - تراليان ". البشرية، ديسمبر، 13 (2): 165-177.

أيه جي ثورن 1971 "الانتماءات العرقية وأصول السكان الأصليين الأستراليين." الفصل 21 ص 316-325 في مولفاني وجولسون 1971

ترافرز، روبرت. 1968التسمانيون — قصة العرق المنكوبة.سيدني: كاسيل استراليا.

أنتوني ترولوب، 1873أستراليا ونيوزيلندا. لندن: تشابمان آند هول. الفصل 4: "السكان الأصليين"، ص. 59-76.

كولين م تيرنبول 1962" أهل الغابة" نيويورك:شركة سايمون وشوستر.

كلايف تيرنبول، 1948. الحرب السوداء: إبادة السكان الأصليين في تسمانيا.

ملبورن: إف دبليو شيشاير.

يتشاردويكارت، 2004. من داروين إلى هتلر: الأخلاقيات التطورية، علم تحسين النسل، والعنصرية في ألمانيا. نيويورك: بالجريف ماكميلان.

إيدا ويست . 1987الكبرياء مقابل التحيز كانبيرا، أستراليا: المعهد الأسترالي لدراسات السكان الأصليين.

كارل فيلاند، 1995. "ثقافة الطبقة." الخلق، يونيو - أغسطس 17 (5): 42-44.

هاريس هوثورن وايلدر، 1926. النسب للعرق البشري. نيويورك: هنري هولت وشركاه.



# الفصل السابع

## وصول حركة تحسين النسل إلى أميركا

### المقدمة

هناك اعتقاد شائع بأن حركة تحسين النسل، التي بدأت في المقام الأول في أوروبا، تم تقديمها بواسطة النازيين، لكن في الواقع، فقد نشأت الحركة في بريطانيا العظمى. وإحدى أوائل الدول التي ترسخت وازدهرت فيها أفكار داروين حول تحسين النسل إلى جانب ألمانيا، كانت أميركا (اوردوفر 2003 وجونز 1980) لقد أثرت حركة تحسين النسل الأمريكية بشدة ليس فقط على التشريع الجديد، ولكن كذلك على قرارات المحكمة. وكانت النتيجة أن العلم أثر على النظرة العالمية الجديدة مما أدى إلى عدد كبير من انتهاكات حقوق الإنسان والتي تتساوى مع بعض التي كانت موجودة في ألمانيا النازية (غرين 1981).

نمت حركة تحسين النسل من الأفكار الجوهرية للتطور البيولوجي، وبشكل أساسي تلك التي شرحها ونشرها تشارلز داروين (بارزون 1958). نمت حركة تحسين النسل بسرعة بعد نشر داروين كتابه أصل الأنواع في 1859. وقد صاغ نظرية النسل الأساسية ابن عمة داروين السير فرانسيس جالتون (1869 - 1880). فقد وثق أن "علم تحسين النسل (اليوجينيا) هو النسل الشرعي للتطوُّر الدارويني، وهو بلا شك، النمو الطبيعي للتيارات الفكرية التي تطورت بعد نشر داروين لأصل الأنواع عام 1859" (هوللر 1984، 3).

تحسين النسل هو: علم تحسين الجنس البشري من خلال التحكم العلمي في

التناسل، كان ينظر إليه من قبل الكثيرين - إن لم يكن غالبية العلماء - لأكثر من قرن كوسيلة رئيسة لخلق الجنة على الأرض. وقد خلص هؤلاء العلماء إلى أن غالبية السمات البشرية - بما في ذلك السلوك - كانت وراثية في الأصل، وأن الأشخاص الذين نتجوا من "أسر جيدة" وراثيًا يميلون إلى التحول إلى الأفضل أكثر بكثير من أولئك الذين نتجوا من أسر متدنية وراثيًا. ولذلك كان من الطرق الرئيسة لتحقيق هذه الجنة، تشجيع الأسر الجيدة جينيًا على إنجاب المزيد من الأطفال، والأسر الفقيرة جينيًا على إنجاب أطفال أقل، أو عدم الإنجاب أصلًا.

ومن هذه المشاهدات البسيطة، تم تطوير واحدة من أكثر الحركات تأثيرًا في التاريخ الحديث، والتي أسفرت عن إزهاق ملايين الأرواح ومعاناة الكثيرين في ألمانيا النازية في المقام الأول. فقد أحبطت محاولات بناء مستشفيات للمرضى العقليين أو حتى مساعدة المرضى والفقراء وكافة الذين يُعتقد أنهم "أدنى وراثياً"، بما في ذلك الأشخاص الذين يعانون من عدد كبير من الأمراض النفسية والجسدية. وكان الهدف النهائي هو إنقاذ المجتمع من "البشر الأقل تطورًا" (هوللر 1984، 17).

وسائل تحقيق هذا الهدف كانت تشتمل على: التعقيم، الحجز القضائي الدائم على "المختلين عقليًا أو جسديًا" من قِبل الدولة، تقييد الزواج. وفي ألمانيا تراوحت وسائل التخلص من الغير صالحين بين رفض مساعدتهم حتى وصلت إلى القتل الصريح. وفي العصر الحديث كان التأثير السلبي لهذه الحركة على المجتمع أكبر من أي إيديولوجية أخرى - باستثناء الماركسية والتي تطورت من فكرة كان يُروج لها على أنّها علمية وبلغت ذروتها مع المحرقة المشينة، وسرعان ما تراجعت بعد ذلك حتى اليوم، والآن

يعتبرها غالبية الأشخاص مخزية بما في ذلك غالبية العلماء -. وامتدت حركات تحسين النسل لتشمل الطيف السياسي من الاشتراكيين المحافظين إلى الاشتراكيين الراديكاليين. الذين يجمعهم الإيمان بالداروينية والإيمان بأن العلم - ولا سيما علم الوراثة التطوري - هو مفتاح تحسين الإنسانية.

## نمو حركة تحسين النسل في أميركا

تأسست حركة تحسين النسل الأولى في أميركا في عام 1903 وتضمنت العديد من علماء الأحياء البارزين في البلاد: كان ديفيد ستار جوردان (عالم الأحياء البارز ومستشار جامعة ستانفورد) رئيسها، ولوثر بوربانك (عالم البستنة الشهير) وفيرنون ال كيلوج (عالم أحياء في ستانفورد) وويليام آي كاسل (أحد علماء جينات هارفارد) وروسويل إتش. جونسون (عالم جيولوجي وأستاذ في علم الوراثة) وشارلز آر. وهندرسون من جامعة شيكاغو، جميعهم كانوا أعضاء نشطين.



*لوثر بوربانك، عالم البستنة الأمريكي، 1915*

كان تشارلز بنيديكت دافنبورت أحد أبرز علماء تحسين النسل في الولايات المتحدة، حصل على الدكتوراة من هارفارد (فتكوفسكي وإنغليس 2008). عمل دافنبورت كمدرس لعلم الأحياء في جامعته حتى أصبح أستاذًا مساعدًا في جامعة شيكاغو عام 1898 (تشيس 1980، 118). وفي عام 1904 أصبح مديرًا لمحطة جديدة

للتطور التجريبي في جولد سبرنج في لونج أيدلاند.

إلى جانب آخرون نشطون في مجتمع تحسين النسل الأمريكي الجديد مثل مارجريت سانجر وهي مؤسسة منظمة الأبوة المخططة ومخترع الهاتف - ألكسندر غراهام بيل - والذي أصبح "واحدًا من أكثر المدافعين عن احترام النسل في القرن الماضي، إن لم يكن واحدًا من أكثرهم حماسة". (كرافينس 1978 وهوللر 1984، 33 وهوللر 1971). ونشر بيل العديد من الأبحاث في المجلات العلمية، وتحديدًا حول الوراثة وتأثيرها على بعض حالات الصمم.

ومن علماء الوراثة الأمريكيين المعروفين اليوم بـ رواد الجينات الرئيسيين كان توماس هانت مورجان وليام بيتسون وهيرمان جيه. مولر (كيفليس 1985، وشانون 1920، وجيورتزل وجيورتزل 1962) جميعهم من الشخصيات المحورية البارزة من موظفين وأعضاء مختلف جمعيات تحسين النسل التي نشأت في غالبية المدن الأمريكية الكبرى. وفقًا لهوللر: "كانت حركة تحسين النسل من ابتكار علماء البيولوجيا وعلماء الاجتماع وغيرهم مع إيمانهم بأنّ العلم قدم دليلاً للتقدم البشري. في الواقع، خلال العقود الثلاثة الأولى من القرن الحالي، كان علم تحسين النسل هو نوع من الدين العلماني لكثير من الذين كانوا يحلمون بمجتمع يولد فيه كل طفل بصحة قوية وعقل صحيح" (1984، 3).

تقريبًا كل كلية وجامعة كان فيها أساتذة "ملهمون بالعقيدة الجديدة"، وقدمت غالبية الكليات الكبرى دورات دراسية حول تحسين النسل (هوللر 1984، 73-74). وعادة ما كانت هذه الفصول تحظى بحضور جيد، وقُبل محتواها على نطاق واسع كجزء من العلم المثبت. كما حاضر العديد من علماء تحسين النسل على نطاق واسع وأعدوا

دورات جديدة، سواء في معاهدهم أو في أماكن أخرى، للمساعدة في تثقيف الجمهور حول تحسين النسل (ستانتون 1960).

كما هاجمت حركة تحسين النسل فكرة الديمقراطية ذاتها. واستنتج العديد من علماء تحسين النسل أن ترك الأشخاص الأدنى يشاركون في الحكومة كان عملا ساذجا، إن لم يكن خطرا. وبالمثل، يبدو أن توفير الفرص التعليمية والمزايا الحكومية لكل مواطن هو إساءة استخدام للموارد: لا يجب أن يحتفظ المرء إلا بأفضل الأبقار للتكاثر ويذبح الحيوانات الأقل شأنًا لتحسين السلالات. ويتعين تطبيق قوانين الطبيعة هذه على "الحيوانات البشرية".

بالإضافة الي ذلك استنتجت الحركة عموماً أن عامل الوراثة هو العامل الرئيس المحدد للطبيعة السلوكية للبشرية، وبالتالي فإن الإصلاحات البيئية عديمة الجدوى وبناءً على ذلك، فإن الأشخاص يكونون في "قاع" المجتمع نتيجة لدونيتهم البيولوجية وليس بسبب الظلم الاجتماعي، ولا بقرارهم الحر، أو التمييز (تشيس 1980).

## ازدهار حركة تحسين النسل الأمريكية

وفي مجال علم النفس التربوي والقياس والتقييم التربوي، لا يوجد الكثير من الأشخاص في نفس أهمية إدوارد لي ثورندايك من جامعة كولومبيا، الذي كتب العديد من النصوص الجامعية التي كانت معيارًا قياسيًا لسنوات، ليس فقط في مجال علم النفس التربوي ولكن كذلك في القياس التربوي وعلم نفس الطفل. لا يزال يُعد كتاب ثورندايك اليوم مرجعًا في هذا المجال، ويعد كتابه عن الاختبار والقياسات معيارا في هذا المجال، ومع ذلك فقد كان يجهل إلى حد كبير (أو يتجاهل) الأدلة الهائلة المتراكمة ضد

العديد من وجهات النظر الأساسية حول تحسين النسل.

عندما تقاعد ثورندايك من كلية كولومبيا للمعلمين عام 1940، ألف كتابًا من 963 صفحة بعنوان الطبيعة البشرية والنظام الاجتماعي. في ذلك الكتاب، أعاد التأكيد على كافة المفاهيم الخاطئة الشديدة والتشويهات لعلماء تحسين النسل. وكما يقول تشيس: "في سن السادسة والستين، كان لا يزال يبيع الأساطير التي فقدت مصداقيتها منذ فترة طويلة حول مرض الصرع الذي أعاد جالتون إحياءه عندما كان ثورندايك فتى في عمر تسع سنوات. على الرغم من استخدام ثورندايك لمثل هذه الكلمات العلمية في القرن العشرين مثل "الجينات" ودعوته لممارسة محكمة النازية الحالية لتعقيم الأشخاص الذين حصلوا على علامات منخفضة في اختبارات الذكاء ويمتلكون الأخلاق "الأدنى"، كان هذا (الكتاب) في الأساس كتاب جالتون المقدس، عام 1869، هو العقيدة الأرثوذكسية التي تشير إلى أن كافة الأمراض والاضطرابات العقلية على الأقل 80% منها وراثي و20% منها بيئي (1980، 354-355).




***مارغريت هيجينز سانغر كانت ناشطة أمريكية في مجال تحديد النسل، ومؤسسة ما أصبح اتحاد تنظيم الأسرة في أميركا.***

جادل هافلوك إليس وآخرون بأنه ينبغي فصل الرضا الجنسي عن الإنجاب، وذلك مع تقدم أساليب التحكم في التناسل البشري. فقد أوضح إليس أن تحديد التناسل

البشري لا يمكن أن يساعد الأزواج فقط على التحكم بحجم أسرتهم بل قد يمكن أيضًا الدولة من المشاركة بنشاط في تحسين الجنس البشري جسديا. أدرك العديد من علماء تحديد النسل أن قلة من الناس سوف يمتنعون عن النشاط الجنسي أو حتى الزواج فقط من أجل تحسين العرق لذلك يجب على الدولة التدخل. وقد استنتج هافلوك إليس ومارغريت سانغر والعديد من المؤسسين الآخرين لحركة تحديد النسل أنه إذا كان الجنس هو مجرد مسألة متعة شخصية وليس فيما يتعلق بالزواج أو الإنجاب، يمكن أن تنظم الدولة الإنجاب لصالح المجتمع.

وعلى الرغم من أن العديد من علماء تحسين النسل لم يدعموا سيطرة الدولة على الإنجاب، لكنهم غالباً ما دعموا استخدام وسائل منع الحمل على نطاق واسع. ومع ذلك كان هناك قلقًا من أن استخدام وسائل منع الحمل الذي من شأنه أن يفصل العاطفة عن المسؤولية عن الإنجاب، أن يعزز ويرخص ممارسة الجنس غير الشرعي (بروكتور 1988).

وبالإضافة إلى ذلك شارك العديد من الذين أيدوا تحديد النسل في الحركة النسائية التي عارضها العديد من علماء تحسين النسل لأنهم كانوا يخشون من أن تؤدي الحركة إلى أن يكون لدى النساء المتميزات بشكل كبير أسر صغيرة (أو لا توجد أسر على الإطلاق). فقد جادلوا بأن النساء المتعلمات والأذكياء يجب أن يكون لديهن أسر أكبر على الرغم من أن الاتجاه الحالي لهذه الطبقة الاجتماعية هو أن يكون لديها أسر أصغر. لهذا السبب، عارض العديد من علماء تحسين النسل تعليم النساء العالي لأنهم أدركوا أن التعليم سيوجه طاقة النساء المتفوقات بعيداً عن الإنجاب إلى التعليم.

وشمل الدعم لهذه الآراء دراسة وجدت أن خريجات الجامعات أقل احتمالا للزواج

وأن الذين لديهم أقل من طفلين يكون لديهم من الصفات أقل من نصف ما يلزم للحفاظ على خط تحسين النسل. وغالباً ما كان أولئك الذين أيدوا التعليم العالي للنساء وحركة تحسين النسل يدعون أن الطبقة الاجتماعية والتعليم قضايا منفصلة. عندما سيطروا على الطبقة الاجتماعية، وشعروا بأن غالبية الاختلافات التي استشهد بها علماء تحسين النسل ستختفي. قاموا بعمل دراسات خاصة بهم زعموا فيها أن النساء المتعلمات في الجامعة من المحتمل أن يتزوجن، وكذلك أن يكون لديهن عدد أكبر من الأطفال مثل أخواتهن الأقل تعليماً (هيميلفارب 1959).

على العكس من ذلك، جادل أولئك الذين دعوا إلى حرية الوصول إلى وسائل منع الحمل بأن رفضها بشكل علني شجع زيادة مرض الزهري والصرع والمقعدين والمجرمين ومدمني الكحول ومجموعة متنوعة من غيرها من الانتكاسات الجينية. استخدم كل من مارغريت سانغر في أميركا وماري ستوبس في بريطانيا العظمى علم تحسين النسل كحجة لحشد الدعم لفكرة الوصول الحر إلى المعلومات الخاصة بتحديد النسل. وشددوا على أن العديد من الفقراء يرغبون في السيطرة على مثيراتهم الجنسية، ولكن ضعف الإرادة الناتج من عوامل وراثية يتدخل بشكل سلبي في كل من عملهم وعاداتهم الجنسية. علاوة على ذلك، فإنّ جيناتهم المسؤولة عن فقرهم وعدم سيطرتهم الجنسية، وبالتالي أنتجت عائلات كبيرة.

ومع تزايد نمو حركتهم ربطت كلا من مارغريت سانغر وماري ستوبز بشكل متزايد المفهوم بمخاوف تحسين النسل (جرانت 1988). فقد شعرن أن المجتمع يستطيع أن يفعل الكثير لمساعدة الأشخاص من خلال منحهم وسائل التحكم الأسرية التي

يحتاجونها حتى لا يتكاثرون بشكل عشوائي. كما شددوا على أن الأغنياء لديهم وسائل للسيطرة على أسرهم ولكن الفقراء لم يفعلوا ذلك ونتج عن ذلك خلل وظيفي. من خلال إعطاء الفقراء وسائل منع الحمل وتشجيعهم على استخدامها، سيكون لدى الأفراد الصالحين عدد أكبر من الأطفال والغير صالحين سيكون لديهم أطفال أقل (هوفستاجتر 1955).

## تشارلز دافنبورت، أحد كبار علماء تحسين النسل الأمريكيين

كان تشارلز دافنبورت أحد أهم الشخصيات في حركة تحسين النسل الأمريكية. وبينما كان يعمل مدرسًا لعلم الحيوان في جامعة هارفارد قرأ بعض أعمال كارل بيرسون وداروين في مجال تحسين النسل فاعتنقها بسرعة. وأثناء رحلته إلى إنجلترا زار جالتون وبيرسون وويلدون ثم عاد إلى بوسطن مقتنعًا تمامًا بآرائهم. وفي عام 1904 أقنع معهد كارنيجي بإنشاء محطة "للدراسة التجريبية للتطور" في ميناء كولد سبرنج على بعد حوالي 30 ميلاً من مدينة نيويورك، حيث قام دافنبورت بتوظيف طاقم للعمل هناك في مشاريع بحثية جينية مختلفة.

ولحسن الحظ لم يكن دافينبورت مستبدًا مثل العديد من علماء تحسين النسل مثل كارل بيرسون نتيجة لذلك عمل طلابه في مجموعة متنوعة من المجالات إلى جانب تحسين النسل. فمثلا لدراسة علم الوراثة البشرية قاموا بإنشاء نظام لجمع البيانات يتضمن إرسال مئات من نماذج "السجلات العائلية" إلى مؤسسات طبية وعقلية وكذلك إلى العديد من الأفراد. تطلب كل نموذج ثلاثة أجيال من البيانات، ونشرت النتائج في كتاب عام 1911 بعنوان "الوراثة وعلاقتها بعلم تحسين النسل".

من بين العديد من المشكلات الخطيرة في بحث دافنبورت كان افتراضه أن كافة السمات كانت نتيجة لصفة مندلية واحدة بينما نعرف الآن أن غالبيتها متعددة الجينات في الأصل. تفسيره الخطأ هذا أدى إلى المبالغة في التبسيط إلى حد كبير للانتقال من النمط الوراثي إلى النمط الظاهري. وجادل بأن التوريث كان له تأثير كبير في كل شيء من الإجرام إلى الصرع ومن الإدمان على الكحول إلى الفقر والعوز.

بالإضافة الي ذلك فقد تجاهل دافنبورت آثار البيئة إلى درجة أنه وصف أولئك الذين "أحبوا البحر" على أنهم يعانون من مرض حب البحر واستنتج أن هذه السمة مرتبطة بالجنس لأنها كانت دائما عند الذكور! واستنتج دافنبورت أن الدعارة قد نشأت ليس بسبب عوامل اجتماعية أو ثقافية أو اقتصادية ولكن بسبب سمة وراثية سائدة جعلت المرأة تصبح مهووسة بالجنس.

يميل دافنبورت لتصنيف السمات على أساس الأعراض وليس المسببات. كانت هذه مشكلة خطيرة بشكل خاص مع تصنيفه للانحرافات الذهنية. نحن نعلم الآن أن - التشنجات على سبيل المثال - يمكن أن تكون ناجمة عن عدة أسباب مثل العدوى إلى شرب الكحول وأن الإصابات الرأسية حتى أو الأمراض الفيزيائية يمكن أن تساهم في حدوثها. كان دافينبورت والعديد من الآخرين في ذلك الوقت "مصابون بالعمى بسبب تحرر تحسين النسل" (كيفليس 1985، 49).

كان لديهم كمية هائلة من البيانات لأفكارهم - منذ أن أُسس مختبر ميناء كولد سبرنج في عام 1904 حتى أُغلق في عام 1924- خلال هذه الفترة وُظف أكثر من 250 عاملا ميدانيا لجمع البيانات، وحوالي ثلاثة أرباع مليون حالة من الحالات انتهوا

منها. واستخدمت هذه البيانات كمصدر للنشرات والمذكرات والمقالات والكتب حول تحسين النسل. رفض دافينبورت عقيدة أبيه واستبدلها بعبادة العلوم والإنسانية وتحسين البشرية وعلم تحسين النسل. وتذكر مارغريت سانغر، راعية تنظيم الأسرة أن دافنبورت، في التعبير عن قلقه من تأثير وسائل منع الحمل على الناتج الأفضل، "اعتاد أن يرفع عينيه بشكل محترم، وأن يرفع يديه كما لو كان في حالة دعاء و يرتعش أثناء تنفسه ويقول "بروتوبلازم، نريد المزيد من البروتوبلازم" (كيفليس 1985، 52).

يعتقد دافنبورت أن الفجور الجنسي كان سببًا في صفات سلبية عديدة. ومن المفارقات أنه كان يعارض تحديد النسل لأنه يقلل من الموانع الطبيعية ضد الجنس. لقد كان مُجِدًا في العمل أكثر من اللازم، وكان شديد التطلب، كان يصف الموظف بالخائن إذا اشتكى بطريقة مباشرة أو غير مباشرة.

## بعض أسباب زيادة عدد علماء النسل الأمريكيين بسرعة كبيرة

جزء من السبب في أن حركة تحسين النسل انتشرت بسرعة كبيرة بسبب إخفاق العديد من البرامج الإصلاحية المبتكرة والإصلاحية الأخرى المصممة لمساعدة الفقراء والمجرمين والأشخاص الذين يعانون من مشكلات عقلية وجسدية. وأدى ارتفاع معدل الإخفاق في أفضل البرامج إلى جعل العديد ممن عملوا في هذه المؤسسات مقتنعين بأن غالبية الفقراء يمتلكون جينات متدنية تعوقهم في النضال من أجل الحياة، ولا ينبغي السماح لهم بأن يتكاثروا دون تمييز. فقد منحهم التطور إجابة على الصعوبات التي واجهوها.

عمل تشارلز لورنس بريس بجد من أجل فقراء نيويورك وأصبح "مفتونًا بالتطور الذي قرأه وأعاد قراءة أصل الأنواع ثلاث عشرة مرة" وأفاد أنه خلال فترة الكساد في

شتاء عام 1873 – 1977، حذر أولئك المتضامنون مع الأعمال الخيرية من الإعانات العشوائية للفقراء، ولكن لم يهتم أحد لهذه التحذيرات ونتيجة لذلك تلاقى الصعاليك في نيويورك وترك العديد من الأسر الفقيرة وظائفهم وفقد العديد من العمال صناعتهم الثابتة (هوللر 1984، 33).

باختصار، قال إنّ هذه الأعمال الخيرية كانت تضر بالناس بدلًا من مساعدتهم، عن طريق تدمير عاداتهم الإيجابية في العمل وتمكينهم من إنجاب المزيد من الأشخاص المتدنيين وراثيًا. كل أولئك الذين بدأوا في مجال مساعدة الفقراء سرعان ما أدركوا أن معظم – إن لم يكن كل – برامجهم قد تسببت في ضرر أكبر من المساعدة.

ثمة مشكلة رئيسية في حركة تحسين النسل وهي أن العديد من قادتها افترضوا أن كل سلوك يرفضونه تقريبًا هو أساس جيني، وبالتالي فإن أولئك الذين يفعلون هذا السلوك كانوا أدنى بيولوجيًا، وأنّ الأشخاص الذين ليس من السهل التعامل معهم، والمتدينين والخجولين والكسالى، وأي شخص يرتكب أي سلوك مصنف على أنه غير مرغوب، كلهم اعتبروا متدنيين بيولوجيًا! وكانت الخطوة التالية هي ترجمة علم تحسين النسل إلى كل من البرامج والسياسات.

## من النظرية إلى السياسة الاجتماعية

تُرجم علم تحسين النسل إلى سياسة ظهرت في أشكال متعددة. في أميركا، كان أحد الأمثلة على ذلك سياسة تعقيم مجموعة واسعة من الأفراد الذين شعروا بأنهم يعانون من "مشكلات في الوراثة". وكان على رأس القائمة المجرمون والمتخلفون عقلياً والمرضى عقلياً وغيرهم. كان أول قانون تعقيم مرر في الولايات المتحدة في ولاية إنديانا

ينص هذا القانون على التعقيم الإلزامي "للمجرمين والأغبياء والبلهاء والمغتصبين، يتم ذلك في مؤسسات الدولة، بعد أن يوصى مجلس خبراء بذلك" (هوللر 1984، 50).

كان الإنجاز الثاني لحركة تحسين النسل هو تمرير مجموعة متنوعة من القوانين التي تقيد هجرة "الأجناس المتدنية" - وهي مجموعة لم يتفق بشكل تام عليها، ولكن في أميركا غالبًا ما شملت ما يسمى بالأعراق الداكنة - السود والسلوفاك واليهود والإغريق والأتراك والمجر والروس و البولنديين وحتى الإيطاليين.

على الرغم من أن المحاكم الأمريكية طعنت في العديد من قوانين تحسين النسل، لكن هناك قضية واحدة فقط، هي قضية بيل ضد باك 274، أميركا 200 (1927) وصلت إلى المحكمة العليا للولايات المتحدة. بنحو8 أصوات مقابل صوت واحد، وأيدت المحكمة العليا التعقيم لأسباب تتعلق بتحسين النسل، وخلصت إلى أن "البلاهة" سببها وراثي، وبالتالي فإن الدولة تتحمل مسؤولية السيطرة عليها عن طريق وسائل تحسين النسل. وقد صاغ رأي المحكمة القاضي أوليفر ويندل هولمز الذي استخدم معرفته العلمية في كتابة رأيه المستنير. لقد أنشأ علاقة بين تحسين النسل والوطنية بما في ذلك أن علم تحسين النسل كان حقيقة مستمدة من العلم التجريبي. وسرعان ما مررت العديد من قوانين التعقيم في نصف الولايات، وكان العديد منها عقابي أكثر منه إنساني (هوفستاندتر 1955).

وتضمنت القضية التي أثارت هذا الحكم في المحكمة ابنة كيري باك، التي أعلن أنها تعاني من نقص عقلي. أيدت المحكمة العليا تعقيم كيري كي لا تنجب المزيد من "الأطفال ذوي القصور العقلي" مثل فيفيان وهي طفلة تبدو بطيئة عقلياً. ومن

المفارقات، أنه بحلول الوقت الذي بدأت فيه فيفيان المدرسة، كان معلموها يعدونها مشرقة للغاية، ولكن للأسف ماتت بسبب اضطراب معوي وهي في الصف الثاني (كيلفيس 1985، 112).

بعد قرار المحكمة العليا في الولايات المتحدة، اتبعت العديد من الدول بما في ذلك فنلندا والدنمارك والسويد وألمانيا، وغيرهم قوانين خاصة بتحسين النسل (بروكتور 1988). وسريعا تم تعقيم الملايين من الأشخاص الذين لم يصابوا بخلل وراثي سواء كان عقلياً أو غير ذلك. وشمل ذلك العديد من حالات تعقيم "الأشخاص غير مرغوب فيهم" في المدن، مثل "الهيبيلي - أشخاص يسكنون المناطق الجبلية في أميركا -".

يعتقد العديد من علماء تحسين النسل أن السمات السلبية التي اكتسبها الشخص خلال حياته يمكن أن تنتقل وراثيًا. كانت نظرية الوراثة للخصائص المكتسبة مقبولة على نطاق واسع ولم يُعترض عليها حتى ظهور أوغست وايزمان. حيث قام وايزمان بقطع ذيل 901 فئران لخمسة أجيال متتالية ووجد أن طول الذيل لكل جيل جديد كان دائما في إطار المنحنى الطبيعي للجيل السابق له.

وكان هناك دليل آخر على الدراسة التي قاموا فيها بقياس طول القلفة[1] لدى الأطفال اليهود وغير اليهود ولم يجدوا أي فرق وعلى الرغم من تخلص اليهود منها على مدار 4000 سنة. وكان الرأي الجديد يسمى بالداروينية الجديدة التي علمت أن الخصائص المكتسبة لا يمكن أن تكون موروثة. وهكذا كان الأمل الوحيد للتحسين الدائم للبشر هو من خلال التأثير على العملية الانتقائية لمن يستطيع ومن لا يستطيع

(1) 1- جزء من الجلد يغطي القضيب عند ذكر الإنسان ويتم إزالته في عملية الختان. ( الناشر )

أن يتكاثر (ورنر 1894، 120-121). ونتيجة لذلك، أصبح دحض نظرية توريث الصفات المكتسبة "خطوة رئيسية على الطريق إلى قبول تحسين النسل" ذلك لأنه فتح الباب أمام قبول الداروينية الصارمة وعلم تحسين النسل (هوللر 1984، 61).

وتجاهل مؤيدي حركات تحسين النسل مرارًا الأدلة الواضحة ضد نظريتهم أو حاولوا أن يفسروا الأدلة التي تعارض فرضيتهم. ومن بين الأدلة التي استخدمها علماء تحسين النسل دراسة "جوك" غير المعروفة والتي أكملها الإصلاحي ريتشارد إل. دوجديل، الذي كان يدعم عمومًا حركة تحسين النسل. تتبعت هذه الدراسة الطولية ما يسمى "بالعشيرة المنحلّة" ووجدت أنها أنتجت العديد من المجرمين الجنائيين وغير الأسوياء مجتمعيًا.

كان العديد من علماء تحسين النسل من مدرسة "الوراثة هي القدر"، وعلى الرغم من استخدام مؤيدي الوراثة لبحوث جوكز لدعم قضيتهم، كان دوجديل بذاته حريصا على التأكيد على أهمية كلا من الوراثة والبيئة. وقد أشار مراراً إلى أنه "في حين قد يرث الأطفال الميول إلى الجريمة والشهوانية والافتراء فإن البيئة التي يربون فيها تعزز المحاولات بشكل ثابت تقريباً" (كما ورد في هولر 1984، 22). ومن المثير للاهتمام أن توصيته الرئيسة لم تكن حلًا لتحسين النسل، بل هي أخذ أطفال الفقراء والجنائيين من أبائهم ومن البيئة المحيطة بهم ومنحهم التدريب المهني ومساعدتهم في التغلب على الآثار السلبية للبيئة الأولى. تجاهل هذه التوصيات غالبية علماء تحسين النسل الذين وضعوا المزيد من الثقة في الداروينية أكثر من الدراسات الاجتماعية.

شارك كثير من الأشخاص في حركة تحسين النسل وكانوا مقتنعين ومكرسين أنفسهم للقضية وكانوا يتجاهلون الدلائل التي لا تدعم نظرياتهم. ومع ذلك، فإن

الكثيرين كانوا يعرفون أن الفرضية الأساسية لعلم تحسين النسل غير صحيحة لكنهم غالباً ما حاولوا ترشيد مشكلاتها العديدة. حتى مؤسس علم تحسين النسل - جالتون - "يبدو أنه لم يكن مطلقًا في سلامة تام، فقد كان يعاني باستمرار من درجات متفاوتة من الانهيار العصبي" (كيلفيس 1985، 9).

ابتكروا طرقًا جديدة لتوضيح الحقائق عندما لا تتفق البيانات مع توقعات تحسين النسل. قام البروفيسور هاري إتش. لافلين، الذي حصل على شهادة الدكتوراة في علم الأحياء من جامعة برينستون، قال في مؤتمر نوفمبر 1922 أنه على الرغم من أن المهاجرين قد يتمتعون بصحة جيدة في العقل والجسم، لكن كانوا يحملون جينات سيئة متنحية مما يسبب مشكلات في الأجيال القادمة. كان هذا الإدعاء رداً على البيانات التي جمعها لوفلين ذاته بدقة والتي وجدت أن العديد من المشكلات بين المهاجرين، مثل الضعف والتورط الإجرامي كانت في كثير من الأحيان وفي كثير من الحالات أقل فعليًا من الأمريكيين المولودين في الولايات المتحدة.

في آواخر القرن التاسع عشر، "عندما فكر الكثير من الناحية التطورية، كان من الطبيعي تقسيم الإنسان إلى اللائق وغير اللائق". حتى غير المؤيدين الذين اخفقوا في العمل وانتهوا بالفقر، أو الذين نجوا من النهب حكم عليهم بأنهم "غير لائقين" وأنهم في مستوى أدنى من الناحية التطورية وذلك وفقًا لعلماء تحسين النسل (هوللر 1984، 35-36).

لأن المجرمين وغير المجرمين متشابهين أكثر من كونهم مختلفين، لذا فإن التحديد الجنائي القائم على السمات الجسدية، كان أمرًا بالغ الصعوبة. كما أن علماء تحسين النسل يتجاهلون عادة جرائم الطبقة العليا والياقات البيضاء والعديد من الجرائم التي

يرتكبها ضباط عسكريون رفيعو المستوى ومسؤولون حكوميون وكثيرًا ما تكون جرائمهم معروفة من قبل الشعب، لقد حددوا بشكل صحيح بعض المخاوف الوراثية لكنهم أخطأوا في تسمية العديد من الأشياء غير الموجودة (مثل الفقر والعوز) وتجاهلوا التأثير الهائل للبيئة في تشكيل كل ما نحصل عليه بالوراثة. لقد اعتقدوا خطاءًا أنه بما أن غالبية المشكلات والظروف الاجتماعية وراثية، فإنه لا يمكن تغييرها ولكن يمكن التحكم فيها عن طريق التعقيم (كيث 1946).

## سقوط حركة تحسين النسل

أحد الأبحاث التي أفقدت بعض أفكار تحسين النسل مصداقيتها كان يدور حول ما يسمى بالمخلوقات البسيطة مثل ذبابة الفاكهة (دروسوفيلا ميلانوجاستر). والذي أثبت أنّ العلاقة بين النمط الوراثي والنمط الظاهري أكثر تعقيدًا بكثير مما كان يُتصور في السابق. بالإضافة إلى ذلك، فإدراك أنّ البشر ينتجون من حوالي 23000 جين، وأنه من الصعب للغاية تحديد ما إذا كان أي جين بينها "متفوق" على آخر كما كان يعتقد العديد من علماء تحسين النسل لعقود. نحن ندرك الآن أن غالبية السمات تنتج بواسطة مجموعة من الجينات.

في أحسن الأحوال، يمكن للمرء محاولة إجراء الأحكام المتعلقة بتفوق سمة واحدة محددة مقارنة مع سمة أخرى. يتم تحقيق ذلك بسهولة أكبر في حالة حدوث طفرة. يمكن اعتبار الشخص الذي ظهرت لديه طفرة تسبب الهيموفيليا أقل شأنًا مقارنة بالشخص الذي لديه عامل طبيعي "Factor 8 (F8) gene". هذه الطريقة تعتبر جينًا واحدًا فقط، والشخص الذي ليس لديه الخلل الوراثي لمرض الهيموفيليا يمكن أن يكون

أدنى من حيث سمات وراثية أخرى، لأن الطفرات أو الجينات التي تنتج سمات دونية موجودة في كافة البشر. على سبيل المثال قد يكون لدى الشخص طفرة للصلع ويصبح أصلع في وقت لاحق في حياته.

حتى الشخص الذي لديه سمات معينة مثل ذكاء أقل من المتوسط قد يكون هذا الشخص متفوقًا جينياً بطريقة أخرى - وهو شئ لا يمكننا احتسابه حتى يتم تحديد كافة الجينات المقدرة بـ 23000، ومقارنتها مع كافة السكان. وحتى في هذه الحالة، لا يمكن إصدار الحكم على المقارنة إلا على أسس مبسطة للغاية، مثل حساب إجمالي عدد الجينات التي تُعد "دونية" أو "متفوقة". وحتى هذه الطريقة قاصرة، لأنّ بعض الجينات الفردية يمكن أن تسبب مشكلات أكثر بكثير من غيرها، وعلى العكس يمكن أن تمنح الشخص مزايا أكثر من غالبية الجينات الأخرى - مثل الجينات التي تؤدي إلى إنتاج مستويات أعلى من المتوسط من الجلوتاثيون ترانسفيرين - انزيم يوجد في الكبد يساعد على تخليص الجسم من السموم -. فهذه السمة من شأنها أن تقلل من احتمال الإصابة بأمراض مثل مرض السرطان أو القلب أو السكتات الدماغية، ومن ثم سيكون من الضروري تقييم كل جين فردي وكل تفاعلات الجينات - وهو شيء لم يتحقق القيام به حتى الآن -.

وبالإضافة إلى ذلك، فإنّ العديد من الجينات المتدنية هي في الواقع طفرات حدث في الجينات البشرية في وقت ما في الماضي ثمّ نُقلت إلى الذرية بعد ذلك. من بين الأمراض المعروفة، يوجد أكثر من 5000 منها نتيجة للطفرات الموروثة، ولم يكن أي من هذه الـ 5000 موجودًا في الماضي قبل الطفرة التي تسببت في إدخالها إلى الجينات

البشرية. مع تراكم هذه الطفرات، فإنّ النتيجة تكون تدهور الجينوم الذي يدعى "الانحطاط"، وهو حدث عكس هدف تحسين النسل في محاولة خلق العرق الأكثر خُلوًا من العيوب، ثم قصر التكاثر على أعضاء هذا العرق فقط. لكن هذا الهدف يعوقه تراكم الطفرات الذي يؤدي إلى أن تصبح كافة "الأجناس" أقل مثالية (سالينز 1977).

على الرغم من أن صحة العديد من دراسات تحسين النسل ومدى قابلية تطبيقها على الإنسان كانت مصدر قلق خطير، لكن زوال حركة تحسين النسل كان له علاقة بالعوامل الاجتماعية أكثر منه نظرًا للاكتشافات العلمية الجديدة. وشملت هذه العوامل الاجتماعية "صعود النازية والمحرقة والنضال الأمريكي في الحرب العالمية الثانية لهزيمة هتلر ألمانيا. أيضًا حركة الحقوق المدنية في 1950 وما بعدها و1960 وما بعدها، فضلًا عن الحروب على الفقر في 1930 وما بعدها (هوللر 1984، 11).

بالإضافة إلى ذلك، لاحظ هوللر أنه على الرغم من أن الحياة الأكاديمية الأمريكية والأوروبية كانت في يوم من الأيام "محمية من الانجلوساكسون البيض"، لكن بعض الأقليات العرقية أصبحت تنضم إليها بشكل متزايد، بما في ذلك الآسيويون والهنود والشرقيون والأميركيون الأفارقة، والعديد من أعضاء هذه المجموعات إما رفضوا حركة وصفتهم بأنهم أقل شأنًا أو أثروا على الحركة لقبولهم باعتبارهم مساويين للآريين.

علاوة على ذلك، تسبب علم تحسين النسل في ارتكاب الفظائع سواء في الداخل وفي أوروبا مما جعل معتقدات تحسين النسل التي كانت محترمة في السابق أمرًا بغيضًا، رغم أن نظرية التطور الأساسية كانت لا تزال مقبولة بشكل واسع من قبل المجتمع العلمي. كان هناك عامل آخر وهو إعادة تقييم الأبحاث التي دعّمت علم تحسين

النسل مثل بحث سيريل بيرت - وهو أحد الباحثين البارزين في الأساس الجيني الأدنى البشري مثل معدل الذكاء - **حيث اكتُشفت عيوب خطيرة في بحثه بعد الفحص وفي النهاية أشارت الأدلة إلى وجود احتيال.** قام بيرت بتزوير بيانات دراسته التي ادّعى فيها أنها أثبتت أفكاره في تحسين النسل وكان ذلك بمثابة ضربة كبيرة للحتمية البيولوجية المتطرفة (غولد 1996).

على الرغم من أن الحركة فقدت مصداقيتها، لكن بقاياها كانت لا تزال موجودة في القرن العشرين. ففي أواخر عام 1955، أشار أستاذ علم الأحياء الكندي إلى أنه "من الممكن أن يكون أهم ما في الأمر هو أن (داروين) أخيرًا حرر البشرية من قدر كبير من التعصب للكنيسة وجعلها محرمة، وفاز أتباعه بقدر من حرية الفكر التي كانت غير معروفة لقرون" (روان 1955، 12). ثم جادل روان بأن الحد من تأثير الكنيسة في المجتمع سمح باكتشاف ليس فقط وسائل التطور، ولكن كذلك معرفة أن البشرية لديها الوسائل إما لتوجيه التطور أو السماح له أن يحدث من تلقاء ذاته أو - ما هو أسوأ - وقفه عن طريق التصدي القوى له، مثل السماح للأدنى وراثيا أن يتكاثروا مما يسبب التراجع.

جادل روان بأن البشر قد اختاروا - بشكل مأساوي - الاختيار الأخير: "لا يزال الاختيار حيويا للتقدم البشري كما كان سابقا، فيظل المبدأ الدارويني العظيم قائماً". ثم أضاف: "عندما اكتسب الإنسان ذكاءً بدأ في مسار جديد تمامًا دون سابقة في عالم الحيوان حيث لا يعتمد مساره الآن على تغييرات جسدية أخرى، ولكن على التطور الفكري والاختيار الفكري بالتساوي" (1955، 13). ولسوء الحظ، استنتج أن البشر "تحافظ على" الأدنى من الناحية الفكرية ويخفقون في ترتيب شؤونه وفقاً لقوانين

البيولوجيا (1955، 13). هذه المناقشة لبقة إلا أنها واضحة: يجب القضاء على أولئك الذين يُعدون أقل ملائمة من الناحية التطورية، أو على الأقل يجب أن نقلل جهودنا في الحفاظ عليهم وأن ندع الطبيعة تقوم بعملها. علماء تحسين النسل علموا أن عدم القيام بذلك سيؤدي إلى نهاية البشرية.

إن أهمية دراسة حركة تحسين النسل اليوم لا تقتصر على مساعدتنا على فهم التاريخ فحسب، بل كذلك لضمان عدم تكرارها. المجال الذي أخذ في النمو من حيث التأثير والمكانة هو البيولوجيا الاجتماعية، وهو يشبه إلى حد ما حركة تحسين النسل. تدّعي هذه المدرسة أيضًا أنّ كلًا من السمات البيولوجية والاجتماعية لها أساس وراثي موجود نتيجة لعملية البقاء للأصلح. على الرغم من أن العديد من علماء البيولوجيا الاجتماعية يواجهون صعوبات في التنصل من أية صلة مع حركة تحسين النسل، إلا أنّ التشابه مدهش. هذه الحقيقة هي النقطة التي أشار إليها كثير من منتقديه مثل ستيفن جي. غولد من جامعة هارفارد وغيرهم (سالينز 1977 ومونتاجو 1999).

## تحسين النسل يتعارض مع التعاليم المسيحية

في مقابل ذلك، قدمت تعاليم المسيحية استنتاجات مختلفة تمامًا عن علم تحسين النسل. أعلنت المسيحية أن أي شخص يقبل رسالة المسيح[1] يمكن تغييره. ويعطينا

(1) جدير بالذكر أن تغير الأخلاق والسلوك لا يُشترط فيه قبول فكرة تزعم وجود خطيئة أصلية وقع فيها آدم أبو البشر، ولم تُقبل توبته بل وُرثت الخطيئة لذريته حتى تجسد الإله لكي يُصلب كفارة للبشر !! قبول مثل هذه العقيدة ليس شرطًا لتغير الأخلاق والسلوك، بل يتغير الإنسان لها ولغيرها من الأفكار والعقائد، فضلًا عن عقيدة توحيد الإله وتنزيهه عن كل نقص، ومعرفة أنه سبحانه مطلع على السر وأخفى وأنه يجزي عن الخير خيرًا وزيادة، ويعاقب من أساء ولم يعط كل ذي حقٍ حقه، وأنه سبحانه لا يحاسب عبدًا على ما لم يفعل .(الناشر)

الكتاب المقدس والتاريخ العديد من الأمثلة عن الأفراد الذين كانوا كاذبين ولصوصًا وأخلاقهم منحلة، والذين تحولت حياتهم بشكل جذري بعد تحولهم إلى المسيحية. وكان دائمًا تحويل الفاسقين من العوامل الجاذبة للمسيحية. فمن أول أيامها، كان أحد الأدلة على صحتها، تأثيرها في حياة أولئك الذين اعتنقوها. إنّ مساعدة الفقراء والضعفاء والمضطهدين والمقعدين والذين يعانون من العرج، كل هذا لم يكن شيئًا ثانويًا بالنسبة المسيحية. في الحقيقة، فبالإضافة إلى الإيمان بيسوع المسيح بنعمة من الله، كانت هذه الأمور من جوهر الدين - الدليل الخارجي على الإيمان في الداخل -.

أولئك الذين لم يزوروا المرضى والفقراء، أو لم يساعدوا أولئك الذين في السجن، أو لم يعطوا الشراب والطعام للمحتاجين، كانوا "ملعونين" وسيُرسلون إلى المصير "المعدّ للشيطان وأتباعه" (متى 25: 35-45، نسخة الملك جيمس الجديدة). وبالنسبة لذلك الذي "وأما من كان له معيشة العالم، ونظر أخاه محتاجا، وأغلق أحشاءه عنه، فكيف تثبت محبة الله فيه" (رسالة يوحنا الرسول الأولي 3: 17). وهذا لم يكن مطلوبًا فقط من المسيحيين، ولكنه كان مطلوبًا كذلك من اليهود: "إِنْ كَانَ فِيكَ فَقِيرٌ، أَحَدٌ مِنْ إِخْوَتِكَ فِي أَحَدِ أَبْوَابِكَ فِي أَرْضِكَ الَّتِي يُعْطِيكَ الرَّبُّ إِلهُكَ، فَلاَ تُقَسِّ قَلْبَكَ، وَلاَ تَقْبِضْ يَدَكَ عَنْ أَخِيكَ الْفَقِيرِ، بَلِ افْتَحْ يَدَكَ لَهُ وَأَقْرِضْهُ مِقْدَارَ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ..... لأَنَّهُ لاَ تُفْقَدُ الْفُقَرَاءُ مِنَ الأَرْضِ. لِذلِكَ أَنَا أُوصِيكَ قَائِلاً: افْتَحْ يَدَكَ لأَخِيكَ الْمِسْكِينِ وَالْفَقِيرِ فِي أَرْضِكَ." (سفر التثنية 15:7-15، 18 وسفر اللاويين 25:35-43... إعادة صياغة)[1]. كان

(1) جاء دين الإسلام العظيم بمثل ذلك بل بأعظم منه ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **«ليس المؤمن الذي يشبع وجاره جائع إلى جنبه»**. وصححه الذهبي في التلخيص، والألباني في صحيح الأدب المفرد. ، من قبل ذلك تجد قول =

هناك صراع آخر حول حقيقة أن الكنيسة شددت على مساعدة الضعفاء والمنكوبين. تقريبا كافة الطوائف استنتجت من الكتاب المقدس والتاريخ أن العديد ممن يبدو أنهم بلا أمل، يمكن "إصلاحهم" ويمكن أن يتولوا مناصب مسؤولة في المجتمع. ويمكن للكنائس بسهولة أن تشير إلى العديد من الأمثلة - الموثقة جيداً - على هذا الادعاء. علاوة على ذلك، وعلى النقيض من علم تحسين النسل، غالبًا ما عزا القادة الدينيون سبب الانحطاط الجسدي والعقلي إلى الخطايا الفردية والمجتمعية. وكثيرا ما ناقشت العلوم السلوكية أنّ ما هو ضروري لتحسين المجتمع لم يكن تغييراً جينيًا لكنه تغييرا اجتماعيًا. وفي ملخص لتاريخ علاج الأمراض العقلية استنتج ساراسون وساراسون أنّه: "لا يمكن تقدير مدى أهمية روح العمل الخيري المسيحية أثناء العصور الوسطى، وخاصة تجاه المجموعات غير الطبيعية مثل الأشخاص الذين يعانون من اضطراب عقلي شديد. على سبيل المثال في غيل في بلجيكا أنشأت الكنيسة مؤسسة خاصة لرعاية الأطفال المرضى النفسيين وذوي الاحتياجات الخاصة، وعندما كان يتحسن هؤلاء الأطفال كانوا في كثير من الأحيان تتبناهم بعض الأسر من الجوار (1989، 33-34).

ليس من المستغرب أن الكثير من المعارضة لبرامج تحسين النسل جاءت من المجتمع الديني. لم يكن من الممكن أن تكون الظروف مثل البلاهة - المصطلح العام لما يسمى

---

=

الله جل وعلا ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خُلَّةٞ وَلَا شَفَٰعَةٞۗ وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾﴾ (254) (البقرة) وقوله تعالى : ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٞ ﴿٩٢﴾﴾ (92) (آل عمران) ، والآيات والأحاديث كثيرة وليس هذا موطن التوسع في ذكرها . (الناشر)

اليوم بطئاً عقلياً بسبب الجينات أو في كثير من الأحيان البيئة - والأمراض العقلية، سمات موروثة فقط لأن هؤلاء الأشخاص كانوا جزءًا من خلق الله، ويشير جينسيس إلى أنه عندما خلق الله آدم وحواء كانا "جيدان للغاية". يجب أن يكون سبب هذه الظروف شيئًا آخر غير البرنامج الجيني الوراثي البشري الموروث.

كان العديد من الكاثوليك ينتقدون علم تحسين النسل بشكل خاص لأنهم يعتقدون أن الروح البشرية لها أهمية قصوى وليس الجسد البشري والله لا يحكم على الأشخاص وفقا لاختبارات الذكاء أو أشكال الجمجمة ولكن وفقا لصفاتهم الروحية. كان العديد من الأشخاص المتخلفين حقا مرغوبين وودودين ومنتجين وغير متجاوزين. وكمثال جيد علي ذلك الشخص المصاب بمتلازمة داون (ولد 1996). كان الكثير من نقد الكنيسة ضد التطور ذاته، إذ يعتقد غالبية علماء تحسين النسل أن البشر جاءوا من "حيوانات" أقل وإذا كانت هذه الفكرة خطأ فإن أساس حركة تحسين النسل كان معيباً.

كان الصراع بين المسيحية وعلم تحسين النسل كذلك بسبب صراعات تحسين النسل مع عقيدة المسيحية الرئيسة - أي أن البشر من خلال الخطيئة قد سقطوا من حالتهم المرتفعة -[1]. وعلى النقيض من ذلك، فإن عقيدة تحسين النسل تنص على

---

(1) هذا الزعم – أعني توارث خطيئة آدم عليه السلام – قد رد عليه الكتاب المقدس نفسه كما مر ذكر ذلك في سفر حزقيال الإصحاح الثامن عشر : "«مَا لَكُمْ أَنْتُمْ تَضْرِبُونَ هذَا الْمَثَلَ عَلَى أَرْضِ إِسْرَائِيلَ، قَائِلِينَ: الآبَاءُ أَكَلُوا الْحِصْرِمَ وَأَسْنَانُ الأَبْنَاءِ ضَرِسَتْ؟ 3 حَيٌّ أَنَا، يَقُولُ السَّيِّدُ الرَّبُّ، لاَ يَكُونُ لَكُمْ مِنْ بَعْدُ أَنْ تَضْرِبُوا هذَا الْمَثَلَ فِي إِسْرَائِيلَ. 4 هَا كُلُّ النُّفُوسِ هِيَ لِي. نَفْسُ الأَبِ كَنَفْسِ الابْنِ، كِلاَهُمَا لِي. اَلنَّفْسُ الَّتِي تُخْطِئُ هِيَ تَمُوتُ. 5 وَالإِنْسَانُ الَّذِي كَانَ بَارًّا وَفَعَلَ حَقًّا وَعَدْلًا، 6 لَمْ يَأْكُلْ عَلَى الْجِبَالِ وَلَمْ يَرْفَعْ عَيْنَيْهِ إِلَى أَصْنَامِ بَيْتِ إِسْرَائِيلَ، وَلَمْ يُنَجِّسِ امْرَأَةَ قَرِيبِهِ، ... وَسَلَكَ فِي فَرَائِضِي وَحَفِظَ أَحْكَامِي لِيَعْمَلَ بِالْحَقِّ فَهُوَ بَارٌّ. حَيَاةً يَحْيَا، يَقُولُ السَّيِّدُ الرَّبُّ." اهـ . ، لذا فالإسلام لا =

أن البشر قد ارتفعوا من حالة أدنى. حقيقة أن حركة تحسين النسل كانت على خلاف مباشر مع التعاليم المسيحية واليهودية لم تكن غائبة عن مؤيدي الحركة: عدد كبير من علماء تحسين النسل كانوا ينتقدون المسيحية علانية بمن فيهم إيراسموس، وروبرت، وتشارلز وليونارد داروين، بالإضافة إلى جالتون، وهكسلي، وديفينبورت، وويلز، وبيرسون، جميعهم كانوا من الملحدين.

فرانسيس جالتون مؤسس علم تحسين النسل لم يكن فقط ملحدًا، بل كان كذلك معادياً للدين بشكل علني: "بينما كان متسامحًا مع ممارسة زوجته لوليز للدين في البيت، فإنه نادراً ما أضاع فرصة للتعبير عن رأيه في رجال الدين" (كيلفيس 1985، 11). دعا المدافعون عن نهج تحسين النسل معارضيهم بأنهم "عاطفيون" وادعى علماء تحسين النسل أن "الحليف الطبيعي" للعاطفي كان "الواعظ" (هوللر 1984، 46).

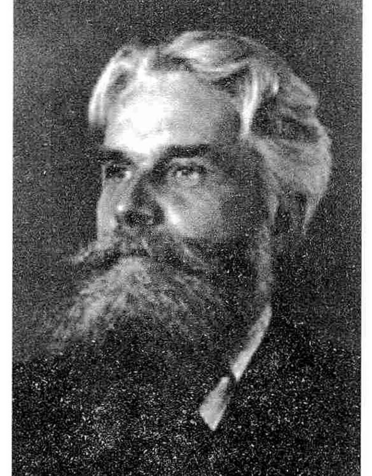
## معارضة أخرى

كانت النظرة الداروينية إلى أن التقدم البيولوجي للإنسان ناتج عن اختيار الأصلح والقضاء على غير الصالح عرضة لإثارة الصراعات ليس فقط "لغير الصالح"، ولكن كذلك لأولئك القريبين منهم مثل الوالدين. كانت قيمة الإنسان المتفوق هي السبب

=

يدعم هذا الاعتقاد الخاطيء بأن الإنسان قد تدنى بسبب الخطيئة بعدما كان أفضل ، ولكن كل إنسان خلقه الله وجعل له إرادة حرة وهيئ له أسباب الفلاح قال تعالى ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾ [الإنسان: 2، 3] وهذا ينطبق على كل إنسان سواء كان قبل داروين أو بعده أو لم يولد بعد ، حتى هؤلاء الذين قدر الله لهم العيش في أماكن بعيدة ولم يسمعوا بالنبي صلى الله عليه وسلم ولا بدعوته فإنهم سيُمتحنون في الآخرة ، وإذن لم يتدن الإنسان بما لم يعمل ، ولم يرتفع بما لم يعمل، وكل إنسان قادر على أن يكون في أعلى عليين أو أسفل سافلين. ( الناشر )

وراء انتقاد داروين لكل المحاولات المسيحية لمساعدة الضعفاء. حيث صرح في كتابه "أصل الإنسان والاختيار وعلاقته بالجنس" أننا: نبني المصحات ونضع القوانين السيئة؛ ويبذل أطباءنا قصارى جهدهم لانقاذ حياة الجميع حتى آخر لحظة. لقد حمى التلقيح الآلاف من ذوي البنية الجسدية الضعيفة الذين كان يمكن في السابق أن يموتوا بمرض الجدري. هؤلاء الأعضاء الضعفاء في المجتمعات المتحضرة يتكاثرون ويزيدون من نوعهم. لا أحد ممن يعرفون عن تربية الحيوانات الأليفة سيشك في أن هذا يمكن أن يكون ضارًا للغاية بالجنس البشري. إنه لأمر مثير للدهشة كيف أن الرغبة في الرعاية أو توجيهها بشكل خاطيء يؤدي إلى انحطاط السلالة المستأنسة؛ ولكن باستثناء حالة الإنسان ذاته، لا يوجد أحد جاهل بالقدر الذي يجعله يترك أسوأ حيواناته تتكاثر." (1896، 133-134).



صورة لهافلوك إليس من عام 1913

ولم يكن عالم تحسين النسل متفقًا بشأن الأسئلة الأساسية المتعلقة به. فقد انتقدوا منهجيات بعضهم البعض، والتقنيات الإحصائية التي استخدموها، وبالطبع استنتاجات كل منهم. فقد وقعت حروب شخصية لا تعد ولا تحصى بين أبرز علماء تحسين النسل حول تطبيق السياسة، وكان هناك الكثير من الغيرة حول الدور الذي يقوم به كل واحد منهم.

توجد العديد من النزاعات بين العديد من أنصار تحسين النسل حول الموضوعات الرئيسة ويشمل ذلك مستوى تأثير النمط الجيني على النمط الظاهري وخاصة كيفية

تطبيق هذه المعلومات من أجل تحسين المجتمع. خلص هافلوك إليس إلى أنه يجب تطبيق التعقيم الإجباري كآخر ملاذ لهم. ورأى أن الوسيلة الأساسية يجب أن تكون تعليم ومساعدة الأفراد المتدنيين على إدراك أنّ واجبهم المدني ومسؤوليتهم تجاه عرقهم ألا ينتجوا أكثر من نوعهم، ويجب تطبيق التعقيم الإجباري فقط على القِلة الذين لم تنجح هذه الأساليب معهم. لكن كان واضحًا أن طريقة التعليم هذه لم تنجح أبدًا.

## سقوط نهائي لحركة تحسين النسل الأمريكية

ومع اكتمال العديد والعديد من البحوث التجريبية التي أجراها العلماء، والتي كانت على صلة بالكنائس، أصبح من الواضح أن الاستنتاجات الرئيسة لحركة تحسين النسل كانت غير صالحة خاصة أن كثيرًا من الاستنتاجات الرئيسة المختلفة التي استخدمها المتخصصون في تحسين النسل لدعم موقفهم كانت من دراسات ارتباطية لا تثبت السببية. ولذلك كانت استنتاجات سببها التأثر بالاعتقاد السائد ، ولم تكن من الأدلة التجريبية. كان المنطق العقائدي واضحًا بشكل خاص: كان واضحًا للغاية أن الغير إخلاقيين كانوا ضعيفي العقل، وأدت البلاهة إلى سلوك غير أخلاقي.

والمشكلة الأخرى هي أنّ عددًا قليلًا للغاية كان يعرف عن علم الوراثة في مطلع القرن. ولذا تحول بعض العلماء ببطء ضد الحركة أو على الأقل ضد بعض الجوانب الرئيسية للحركة ومنهم هيرمان جيه. مولر وجيه. بي. إس. هالدين، وهربرت جينينجز، وحتى جوليان هكسلي. ليس فقط بسبب التقدم في العلوم، ولكن كذلك التغييرات السياسية، وخاصة تلك التي حدثت في أ لمانيا النازية وفي أميركا. عندما أصبحت معروفة أدرك الكثيرون أن استنتاجات تحسين النسل الأساسية لم تكن خطاءًا فحسب

لكنها تتعارض كذلك مع حقوق الإنسان الأساسية.

دعا العديد من علماء تحسين النسل مثل ألبرت إدوارد ويجام إلى تحسين النسل. (1922، 1924، 1925، 1927) كتب ويجام العديد من الكتب والمقالات التي تدافع عن تحسين النسل المتطرف التي باعت الآلاف من النسخ. بعد هزيمة النازية والوعي العام بنتائج تحسين النسل في أوروبا، نفر العديد من الأشخاص المؤثرين من حركة تحسين النسل حيث كان عاملًا مهمًا في سقوطها (موس 1966).

كما رأى الكثيرون احتمال دعمها البشع للانتهاكات، لقد كان أحد الصراعات الرئيسية فقط لتحديد من هو الأدنى. وتحت تأثير الألمان ضم العديد من علماء تحسين النسل اليهود كجنس أدنى، وهي مشكلة لأن العديد من علماء الأحياء البارزين وعلماء الأنثروبولوجيا كانوا يهودًا كذلك. أحدهم كان فرانز بواز من جامعة كولومبيا وهو مهاجر يهودي ألماني حيث أصبح عالم أنثروبولوجيا بارزا. ولكونه عالم يحظى باحترام كبير كتب العديد من الكتب الشعبية لكل من المتخصصين والجمهور العام، وعندما هاجم حركة تحسين النسل لاقى اهتمام الكثيرين. عندما انقلب علم تحسين النسل ضد العلماء اليهود، أحتشد اليهود وزملائهم ضد الحركة ككل.

كانت المشكلة الخطيرة في النظرية هي أنها أرجعت بعض السمات مثل الخجل للجينات وكشفت الأبحاث في وقت لاحق أن العديد من الأطفال الخجولين يصبحون عند البلوغ قادرين واثقين من أنفسهم. ويتضح أن هذه السمات ليست ثابتة بيولوجيًا. وقد تسببت هذه الملاحظات في جعل الباحثين يتساءلون بجدية حول صحة تقييمات الأداء ككل، الأمر الذي أدى إلى الربط مع الاستنتاج بأن مجموعات معينة كانت دون

المستوى من الناحية الفكرية في كافة المجالات. أظهرت هذه الدراسات أن الذكاء الفعال للشخص يتأثر بشكل كبير بتفاعل الوراثة والبيئة. علاوة على ذلك وجدوا أن المزيد من الاختلافات موجودة داخل العرق وليس بين الأعراق المختلفة.

وبسرعة أصبح من الواضح للكافة تقريباً في هذا المجال أن العديد من مزاعم علماء تحسين النسل كانت ضعيفة أو خطأ بشكل علني. حيث أظهر البحث الذي أجراه علماء الأنثروبولوجيا كيف أن الثقافة والتعلم كانا مهمين للغاية حتى في تشكيل الفروق الدقيقة في السلوك. وبينما وصلت المجموعات المزعوم أنها متدنية بيولوجيا إلى الجيل الثاني والثالث في أميركا، فإن الكثيرين أدّوا بشكل جيد للغاية، ووثّقوا حقيقة أن مثل هذه المجموعات لم تكن بها أية عيوب بيولوجية. كانت هناك مشكلة أخرى وهي أنه لم يُحَدَد السود واليهود فقط باعتبارهم أقلية عرقية، بل كذلك كانت هناك أجناس أخرى مثل أيرلندا وويلز والعديد من المجموعات الأخرى.

أثبت باحثون آخرون أن النظام الغذائي والظروف الصحية هامة للغاية قبل وبعد الولادة على حد سواء، وخاصة في ما يسمى بسمة البلاهة. ومن المفارقات أن هناك افتراض قائل بإن البلاهة موروثة دائمًا، لكن الأبحاث أكدت أن العديد من الأشخاص الذين يعانون من نقص عقلي بشكل واضح ينتجون نسل طبيعي تمامًا، ويرجع ذلك جزئيًا إلى العودة إلى الظواهر المتوسطة. كان هذا ينطبق بشكل خاص على الأطفال الذين كان يربيهم الأقارب العاديين وكان لديهم طعام صحي وبيئات إيجابية. إنّ ما كانت تقوم به الحكومة في السابق من تعقيم الأشخاص البلهاء نظرًا لأوضاعهم البيئية السيئة لم يعد معترفا به الآن.

حتى نظرية الانتقاء الطبيعي تعرضت للهجوم. فقد تزايد الإدراك بأن العديد من المصادر المفترضة للاختيار الطبيعي خاصة الحرب والأوبئة والأمراض لم تقتل في الغالب الضعفاء في المقام الأول. لكن كانت الفرصة هى أحد العوامل الرئيسة التي أثرت في من لقوا حتفهم. في حالة الحرب - على سبيل المثال - لم يُقبل أولئك الذين أخفقوا في الجيش، وبالتالي من كان أكثر عرضة للقتل كانوا الأكثر ملاءمة، وذلك عكس الانتقاء الطبيعي. وأولئك الذين قد يكون لديهم القدرة الفطرية لمقاومة مرض معين غالباً ما يعانون من ضعف فطري للتعرض لأمراض أخرى.

وكما أعلن جيه. بي. إس. هالدين في عام 1932، أن مجتمع البشر الذي كان مثالياً سيظل ينتج مجتمعًا ناقصًا. التنوع الوراثي الهائل بين البشر - وكذلك بين النباتات والحيوانات - مهم لأنه سيسمح دائمًا لبعض الأفراد بالحفاظ علي بعض التغيرات البيئية المختلفة. عندما جاء المهاجرون إلى أميركا، كان عدد قليل منهم لديهم الميول الوراثية التي مكنتهم من البقاء على قيد الحياة في بيئة غريبة في أميركا مع الجراثيم الأجنبية ومتطلبات المعيشة الجديدة. ربما لم يكن أولئك الذين بقوا على قيد الحياة الأقوى في الأماكن التي أتوا منها لكنهم كانوا أقوى في البيئة الجديدة. إذا كان كافة الذين جاءوا متطابقين من الناحية الجينية، فمن المحتمل ألا يكون أي منهم قد نجا (جاكوارد 1984).

وعلى الرغم من أن بعض علماء الأحياء الأمريكيين البارزين ظلوا ملتزمين ببرنامج تحسين النسل الأساسي والفكرة القائلة بإن الجنس البشري يمكن أن يتحسن بشكل كبير من خلال أساليب تحسين النسل، لكن البعض الآخر تخلصوا بهدوء من أفكار

العرق. ولسوء الحظ فإن غالبية العلماء لم يعترفوا بأخطاء الماضي حتى عندما تحول الرأي العام بقوة ضد العنصرية الوقحة ككل. وبالنسبة لغالبية الباحثين أصبح أكثر وأكثر وضوحا أن العديد من استنتاجات علماء تحسين النسل لم تكن فقط خطأ ولكنها خطأ بشكل مأساوي تسبب في معاناة هائلة في العالم حتى في أميركا (غلاغير 1999).



## المراجع

جاك بارزون، 1958داروين، ماركس، فاجنر. جاردن سيتي، نيويورك دبلداير انكور بوكس.

آلان تشيس، 1980تراث مالتوس؛ التكاليف الاجتماعية للعنصرية العلمية الجديدة. نيويورك: الفريد كنوبف.

هاملتون كرافينز، 1978انتصار التطور. العلماء الأمريكيون والوراثة – البيئة الجدل 1900–1941. فيلادلفيا، بنسلفانيا: مطبعة جامعة بنسلفانيا.

تشارلز داروين، 1896نزول الرجل، والاختيار في العلاقة بالجنس؛ أعمال تشارلز داروين نيويورك د شركة ابلتون نشر أول مرة بواسكةمطبعة امس، 1972

نانسي جالاجر، 1999تربية أفضل لفيرمونت. هانوفر ان اتش مطبعةجامعة نيو انجلاند.

فرانسيس جالتون، 1869. عبقرية وراثية. لندن: واتس.

1880 تساؤلات في قدرة الإنسان وتطورها. الطبعة الثانية. نيويورك، نيويورك اي بي دوتون.

فيكتور جيورتزل، وميلدرد جيورتزل 1962، مهد الأيمان. بوسطن، ام ايهليتل، براون وشركاه.

ستيفن جاي غولد، 1996. سوء قياس الانسان. الطبعة الثانية. نيويورك: دبليو. نورتون.

جورج جرانت، 1988. جراند أووز؛ تراث تنظيم الأسرة. برينتوود، تينيسي ولجمات وحياة.

جون سيجرين 1081 العم والأيديولوجية ورؤية العالم. بيركلي، كاليفورنيا: مطبعة

جامعة كاليفورنيا.

جون اس جونيور هالر ، المنبوذين من التطور: المواقف العلمية للدونية العرقية، 1859-1900، اوربانا اي ال — مطبعة جامعة اليوس

مارك اتش هالر1984،؛ المواقف الوراثية في الفكر الأمريكي. نيو برونزويك، نيوجيرسي: مطبعة جامعة روتجرز.

جيرترود هيملفارب، 1959. داروين والثورة الداروينية. نيويورك: دوبليداي.

ريتشارد هوفستاتر، 1955. الداروينية الاجتماعية في الفكر الأمريكي. بوسطن، ام ايه: بيكون.

ألبرت جاكار، 1984. في مديح الاختلافات. نيويورك: مطبعة جامعة كولومبيا.

جريتا جونز، 1980. الداروينية الاجتماعية والفكر الإنجليزي. التفاعل بين النظرية البيولوجية والاجتماعية. نيو جيرسي: الصحافة الإنسانية.

آرثركيث، 1946. التطور والأخلاقيات. نيويورك: ج. ب. أبناء بوتنام.

دانيال جيه كيفليس 1985 باسم علم تحسين النسل؛ علم الوراثة واستخدامات الوراثة البشرية. نيويورك، نيويورك: ألفريد أي كنوبف.

آشلي مونتاجو، 1999. العرق ومعدل الذكاءنيويورك: أكسفورد.

جورج ال موس 1966 الثقافة النازية؛ الحياة الفكرية والثقافية والاجتماعية في الرايخ الثالث. نيويورك، نيويورك: شوكين.

انسيأودوفر، ن2003 علم تحسين النسل الأمريكيالنسل، علم التشريح الغريب وعلم الالقومية. مينيابوليس، مينيسوتا: مطبعة جامعة مينيسوتا.

روبـرت ان بـروكتر، 1988. النظافـة العنصـرية: الطـب تحـت النـازيين. كامبريـدج، ماساشوستس: مطبعة جامعة هارفارد.

روان دبليـو 1955، تشـارلز داروين "في معمـاري الفكـر الحـديث. تورونتو.تورنتـو: براوند كاستنج كوربس.

مارشالسـاهلينز، 1977. استخدام وإسـاءة استخدام علـم الأحيـاء نقـد البيولوجيـا الاجتماعية.. آن أربور،ام اي: مطبعة جامعة ميشيغان.

ساراسـون واروين وباربـارا ساراسـون،1989. علـم النفس الشـاذ. الطبعـة السادسـة نيويورك برنتس هول

شانون تي دبليو 1960. علم تحسين النسل. توبيكاكي اس شركة ستاندار للطباعة

مارشالستانتون، 1960.صبغة ليوبارد المواقف العلمية نحو العرق في أميركا، 1815 – 1859. شيكاغو، اي ال: مطبعة جامعة شيكاغو.

مارشالوارنر، 1894. الجمعية الخيرية الأمريكية. نيويورك، نيويورك: توماس وكرووبل.

ألبرت إدوارد ويجام، 1922 الحوار الجديد للعلوم جاردن سيتي شركة النشر.

1924فاكهة شجرة العائلة. إنديانابوليس، اي إن: بوبس ميريل.

1925 علامات رجل متعلم. إنديانابوليس، اي إن: بوبس ميريل.

1927العمر القادم للإنسان. إنديانابوليس، إي ان: بوبس ميريل،

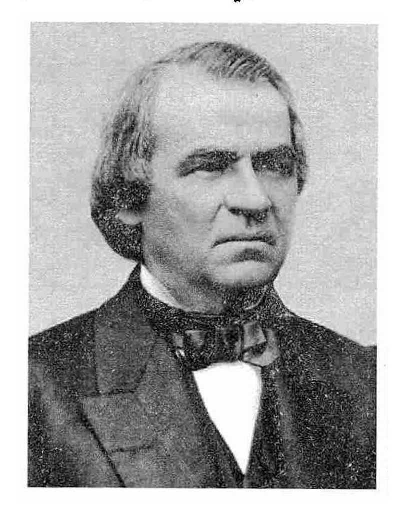
ويتكوسـكي جـان ايـه و جـون ار انجلـيس (الناشـرين) 2008 دافنبـورتس دريم: تأملات القرن الواحد والعشرين حول الوراثة وعلم تحسين النسلميناء كولد سبرنج. ان واي. مكتبة ميناء كولد سبرنج.

# الفصل الثامن

## تأثير الداروينية الهام على كو كلوكس كلان

### مقدمة

العنصرية هي مشكلة اجتماعية كبيرة في العديد من الأمم اليوم، بما في ذلك أميركا. وكانت أكثر المجموعات كارهة العنصرية الأمريكية نشاطاً هي حركة كو كلوكس كلان. ففي القرن الماضي كان لدى كو كلوكس كلان الملايين من الأعضاء (فري 1922). وفي الماضي كان الأطباء والقضاة والمحامين وحتى بعض أعضاء الكونجرس يشاركون بنشاط في كو كلوكس كلان (جيتلين 2009). على الرغم من أن كو كلوكس كلان فقدت الكثير من دعمها خاصة بعد عام 1980، إلا أنّها لا تزال نشطة إلى اليوم. ولهذا السبب فإن دوافع هذه المجموعة تثير الكثير من الإهتمام للحد من هذه المشكلة الاجتماعية (لي 2003). باختصار،



الرئيس أندرو جونسون، ونقض مشروع قانون الحقوق المدنية لعام 1866

ما كان يوجّه كلان هو وجهة النظر بأنّها: " سوف تحمي الفضائل النبيلة التي يعرف كل أبيض جنوبي أبديتها. باختصار، كان الكلانسمِن[1] ينظرون إلى السود على أنهم جنس أدنى يجب إخضاعه، لحماية البيض من انعدام القانون والجريمة واستئصال السلالة البيضاء" (مارتن 2007، 18).

هذا الهدف قبله الرئيس أندرو جونسون، الذي استخدم حق النقض ضد مشروع قانون

(1) الكلانسمِن: هم أعضاء حركة كو كلوكس كلان.(الناشر)

الحقوق المدنية لعام 1866. أوضح الرئيس الأمريكي أنّ السبب وراء استخدام حقه في النقد هو أنّ: "الحكومة الفيدرالية لم تستطع حماية أي مجموعة من التمييز والزنوج بشكل أكبر. وبتعبير غير مؤكد، أعرب عن رأيه بأنّ: "التمييز بين العرق واللون يكون من خلال مشروع القانون الذي ينفذ لصالح اللون والمناسب ضد العرق الأبيض". استشهد بمخاوف التزاوج العنصري والتعبير عن ايمانه بأنّ السود يفتقرون إلى الفهم الكافي "لطبيعة وخصائص مؤسساتنا"، وكرر ما كان منتشرًا في جميع أنحاء البلاد بأنّ الزنوج ببساطة، أقل شأنًا من البيض. وأكّد جونسون - خلافًا لسلفه - بأنّه غير قادر أو غير راغب في المساومة أو أن يأخذ في الاعتبار أي آراء أخرى خلافًا لرأيه" (مارتينز 2007، 37).

## استخدام حركة كو كلوكس كلان الداروينية لتبرير وجهة نظرها حول دونية السود

كانت المقارنة الداروينية بين السود مع القردة و "المتوحشين" موضوعًا شائعًا في خطابات وأدبيات كو كلوكس كلان. وكما كتبت "كلان ووتش"، فإن "النظريات الرسمية للتفوق العرقي والدونية لم تظهر حتى أوائل القرن التاسع عشر، وقد أتت هذه النظريات من مختبرات وجامعات أوروبا، من رجال العلم (تيرنر 1982، 34) وقد أضاف تيرنر أنه في أوائل القرن التاسع عشر: "كان علم الأنثروبولوجيا متورطا في جدل حول ما إذا كانت كافة أجناس البشر تنحدر من سلف واحد مشترك أو ما إذا كانت الأجناس المختلفة ذات أصول مختلفة. كان النقاش الثقافي فى كثير من الأحيان متطابقًا فى أميركا باعتقاد العديد من البيض أن السود والهنود ليسوا بشرا. أقنعت نظرية تشارلز داروين غالبية العلماء أنّ لدى كافة البشر أصول مشتركة، ولكن البعض استمروا في

الاعتقاد بأن هناك اختلافات هامة بين الأعراق وأن العرق الأبيض كان متفوقًا على كافة الآخرين" (تيرنر 1982، 34).

وقد استنتج بروفيسور هارفارد - ستيفن جاي غولد - أن "الحجج البيولوجية للعنصرية من الممكن أنها كانت شائعة قبل عام 1859، لكن زادت أهميتها بعد قبول نظرية التطور" بعد أن نشر داروين أعماله الملحمية حول التطور في عام 1859 (1977، 127). على الرغم من القبول الواسع للتطور العنصري، لم يستطع العلماء إنكار حقيقة أن التداخل كان معيارًا مقبولًا لتحديد الأنواع الشائعة وقد كثرت الأدلة على أن الأزواج المختلطين العرقيين يمكن أن يولّدوا نسلًا خصبًا. وعادة ما ينسب تنوع المظاهر المادية بين الشعوب من مختلف أنحاء العالم إلى آثار البيئة والمناخ والنظام الغذائي. لقد كان يُعتَقد أنّ الحضارة يمكنها تغير لون البشرة، والهيكل العظمي والعمليات الفسيولوجية. وبمرور الوقت يتكيف السكان مع بيئات جديدة. على سبيل المثال، أدت كثافة الشمس في المناطق المدارية إلى جعل بشرة الأفارقة داكنة، الأمر الذي جعلهم أكثر قدرة على تحمل المناخ الحار. وهكذا، فإن القصة الإنجيلية لنزول الجنس البشري عن آدم وحواء كانت مدعومة إلى حد كبير بفكر علمي. وكانت وحدة الأنواع تنطوي على أصل مشترك وكانت القدرة البشرية على التكيف مع البيئات مسؤولة عن التنوع العنصري (نيلسون 2003، 165).

عندما أصبحت الأفكار الداروينية مقبولة على نطاق واسع، أصبحت العلاقة بين العلم والمسيحية متوترة. وبحلول القرن الثامن عشر، كان من الصعب الضغط على الأوروبيين لجعل أفكارهم تتوافق مع الكتاب المقدس، وبدأ بعض المفكرين الاستمتاع بفكرة أنّ البشر ربما

ليسوا جميعًا جزءًا من العائلة ذاتها. وليس من المستغرب رفض غالبية المسيحيين لنظرية الأصول المتعددة محتجين بأنّ قصص الخلق في سفر التكوين، والمعتقدات المسيحية حول عموم الخطيئة وتضحية المسيح من أجل الخلاص كل هذا يُثبت نظرية الأصل الواحد، أي أنه يوجد أصل واحد لكل الأعراق البشرية (نيلسون 2003، 165-166).

بحلول عام 1871، بدأ قبول داروين المتزايد بشكل سريع في تغيير هذا، ونتيجة لذلك أصبحت ما قبل الآدمية أكثر شعبية حتى حركة الحقوق المدنية. كانت معظم المراجع التي استخدمها كو كلوكس كلان لدعم العنصرية كانت لعلماء عاشوا وعملوا من أواخر القرن التاسع عشر إلى حوالي 1950. وقد استعرضت إحدى نشرات كو كلوكس كلان عام 1934 قضية العنصرية الداروينية عن تفوق العرق الأبيض، وأضافت: "بعد أن انتشل البيض الزنوج من الهمجية، ليس مفروضًا علينا أن نحمله على أكتافنا. - القراءة والكتابة والحساب وكل ما يمكنهم أن ينتفعوا من استيعابه - بغض النظر عن عدد الكتب التي تدخلها في رأسه، لقد خلقته الطبيعة متدنيًا. ولو في وقت نزل الرجل الأبيض بمستواه إلى مستوى الزنجي. فستكون جريمة ضد الحضارة يعاقب عليها. وعادة



*موكب كو كلوكس كلان عام 1926*

ما يكون الزنوج الذين يبدوا عليهم الذكاء مهجنين، يسير في أوردتهم دم رجل أبيض. إنّ السود أنقياء الدم الذين أظهروا صفات فكرية وأخلاقية متفوقة على صفات القرد قليلون ويوجدون على فترات متباعدة (مقتبس من نيوتن 2010، 96).

وعلى العكس من ذلك، يعلن الكتاب المقدس بشكل لا لبس فيه عن تماسك العائلة البشرية، مثلًا: أن "الله قد خلق كافة أمم البشر من دم واحد" (العهد الجديد 17: 26، طبعة الملك جيمس)، وآدم كان "الرجل الأول" أب لكافة البشر (1 كورنثوس 15:45، 47). علاوة على ذلك: قرأ غالبية المسيحيين الأمريكيين في أوائل القرن التاسع عشر قصص الخلق في الكتاب المقدس على أنها تاريخ حقيقي. لقد اعتقدوا أن الله قد خلق آدم وحواء قبل حوالي ستة آلاف عام - بعد فترة وجيزة من بدء باقي الكون -. ثم تكاثر نسل أول زوجين بسرعة كبيرة - ربما بسبب طول العمر الاستثنائي - وبسرعة ملأوا الأرض. هذه المعلومات - المستقاة من الكتاب المقدس - لم تتوقف على الفكر المسيحي وحده، فقد دعمها العلم بمزيد من التفاصيل (نيلسون 2003، 162).

على الرغم من أنّ العديد من الكلانسمِن يعتقدون أن الإنجيل هو كلمة الله، لكنهم غالباً ما حاولوا الجمع بين التطور والمسيحية في شكل من أشكال التطور الإلهي، مما أدى إلى التناقض التالي: "إن العديد من العنصريين المتشددين يتأثرون بمجرد رؤية شخص أسود يتجول في الشارع ويشعرون بالاشمئزاز الشديد من مظاهر الاختلاط العرقي وخاصة تلك الزيجات المختلطة. بل إن البعض يدّعي بأنهم

استخلصوا دليلاً من الكتاب المقدس على دونية السود ومخاطر الاندماج معهم" (2009، 47).

إنّ الذين اعتمدوا على الكتاب المقدس لدعم وجهات نظرهم العنصرية التطورية كان عليهم في كثير من الأحيان تشويه تعاليمه الواضحة بشكل كبير. على سبيل المثال: قدّم القس روبن سوير العقيدة البريطانية - الإسرائيلية - وكثيرًا ما يطلق اليوم عليها "الهوية المسيحية"- إلى الكلانسمين في ولاية أورغون. وقد أعلن مذهبهم العنصري أنّ الأوروبيين القدماء - وليس اليهود الحاليين - كانوا في الواقع "قبائل إسرائيل المفقودة" ولهذا السبب كانوا :"ورثة شرعيين لعهد الله القديم. واليهود الذين يتظاهرون بأنهم "الشعب المختارون" من قِبل الإله فإنّهم محتالون، والأسوأ من ذلك أنّ بعض الطوائف تعتقد أن اليهود الأوائل جاءوا من تزاوج حواء مع إبليس في جنة عدن (الذي أنتج أول قاتل - قابيل). وقاموا بدورهم بإجراء تجارب مختلفة في عصور ما قبل التاريخ أدت إلى زعم إنشاء "أجناس من الطين" - غير البيض - الذين كانوا يسكنون إفريقيا وآسيا وأميركا ما قبل كولومبوس (نيوتن 2007، 42).

محاولة أخرى شائعة للجمع بين التطور والمسيحية تعد شكل من أشكال نظرية الأصول المتعددة (فكرة أن الأجناس لها أصول منفصلة) تسمى نظرية ما قبل الآدمية والتي نصّت على: "أن خلق الله الأجناس الدنيا - ويطلق عليها "وحوش الأرض" في سفر التكوين 2:20- قبل خلق آدم وحواء. وهكذا فإن "هيمنة" آدم المعترف بها إلهيًا على تلك "الوحوش" يبرر العبودية أو الفصل العنصري أو حتى الإبادة الجماعية. وقد اعتنق حلفاء كلان - وليام دادلي بيلي وجيرالد إل. كيه. سميث - الهوية المسيحية في ثلاثينات القرن العشرين، في حين ظهر " الكلانسمِن " ويزلي سويفت باعتباره الناطق الرسمي باسم الطائفة بعد الحرب العالمية الثانية (نيوتن 2007، 42).

لطالما رفضت الكنيسة المسيحية نظرية ما قبل الآدمية، وأولئك الذين "اعتنقوا نظرية ما قبل الآدمية بالتأكيد مدانون" (براون، 2003، 122-123). هذه النظرية ما قبل الآدمية وردت بالتفصيل في ما كتبه المحامي وقائد حركة كو كلوكس كلان - روس بارنيت - : "أعتقد أن الرب الصالح فعل الفصل العنصري الأساسي. فخلط الأجناس يؤدي حتمًا إلى إنتاج هجين أدنى. الزنجي مختلف لأن الله جعله مختلفًا: جبينه يميل إلى الخلف وأنفه مختلف وشفاهه مختلفة ولونه مختلف بالتأكيد" (اقتبس من كتاب نيوتن 2010، 117).

يعد هذا الرأي مجموعة متنوعة من نظرية ما قبل الآدمية، وبعض نظريات ما قبل الآدمية تذهب لما هو أبعد من ذلك. أحد مؤيدي القوة البيضاء النشطين - آدم وايت (وهو اسم مستعار للي هولواي)- كتب أن الزنجي "هو وحش الأرض وهو مُغوي حواء". توضح نظرية وايت لماذا "استمر العديد من الأمريكيين الأفارقة في النظر إلى الأصول المتعددة باعتبارها تهديدًا أكبر من الداروينية" لحقوقهم المدنية (نيلسون 2003، 176). وقد اعتنق نظرية وايت الأكثر تطرفًا بعض أنصار كو كلوكس كلان وغيرهم من العنصريين. تنص النظرية على أنّه "لا يوجد حيوان غير الزنجي، يطابق وصف الحيوان الذي يسمى" الثعبان" في جنة عدن". والأدلة على هذا الإدعاء هي:

1. قوة الثعبان في الكلام. لقد تحدث الشيطان عن طريق الثعبان. والزنجي يلائم الوصف على أنه "وحش الأرض" القادر على الكلام، لأن الزنجي كان يمتلك دائماً القدرة على الكلام.

2. يمتلك الزنجي درجة مرتفعة من الذكاء مقارنة بالحيوانات الأخرى. إنّ وصف "الثعبان" على أنه "أكثر دهاء" أو أكثر حكمة هو الأنسب في تصور أنّه زنجي.

3. وفقًا للسجلات، لم تُظهر حواء أية مفاجأة من قدرة الثعبان على الكلام. إذا كان المغوي شئ مألوف كالزنجي، فمن الواضح أنها لم تكن مفاجأة لحواء.

4. اللعنة الملقاة على الثعبان لجعله يمشي على بطنه لها معنى حقيقي عند تطبيقها على الزنجي.

وأضاف أن الزنجي:

لُعن دونًا عن وحوش الأرض الأخرى، كان فوق كل الوحوش الأخرى بإجباره عل الزحف.

5. وحش الحقل كان من آكلي لحوم البشر وآكلي الخضروات. مثل هذه العادات الغذائية موجودة تحديدًا لدى الزنجي، ولا سيما في حالته البرية أو الطبيعية. إن الزنجي معروف جيدًا بأكل لحوم البشر.

6. إذا كان الثعبان زنجيًا، فلدينا مخلوق موضوع تحت هيمنة آدم وهو ما يفسر كيف كان آدم يبقي جنة عدن في حالة ملائمة. القليل فقط من الحيوانات يمكن استخدامه في العمل، والزنجي هو الحيوان الوحيد القادر على القيام بأعمال يدوية صغيرة تتطلب أدوات. الزنجي هو الأكثر قدرة على إتباع الأوامر المنطوقة من الحيوانات الأخرى. "وحش الحقل" (الزنجي) موصوف بشكل محدد في إرميا 27: 6 على النحو الذي أعطى به للملك نبوخذ نصر "لخدمته". من الواضح أن كان الزنجي خادمًا للإنسان من البداية (وايت 1966، 5-6).

أوضح وايت أن أكل الفاكهة المحرمة كان تمردًا على سلطة الله، لأن آدم قبل "مشورة حيوان – الزنجي –. حواء وآدم كان عليهم سيادة الحيوانات وليس العكس. بالكاد يمكن أن يكون هناك شئ مثير للغضب أكثر من التفكير في البشر – الذين خلقوا

على هيئة الله القدير[1]- يتدنون بحيث يسمحون لمن هم أدنى بتقديم النصح لهم. هذا هو بالضبط ما فعله آدم وحواء. وسرعان ما تبعت خطيئة آدم وحواء في اعتبار نصيحة مجرد حيوان فوق الأوامر الإلهية المباشرة، خطيئة الاندماج (التزاوج بين البشر والزنوج). على ما يبدو أن هذه هى الخطيئة الأولى ارتكبها قابيل - القاتل الأول -. لإثبات هذه النقطة أشرنا ببساطة إلى حقيقة أن قابيل كان لديه زوجة قبل أن يكون لدى آدم وحواء أي بنات. لم يتبق سوى احتمال أن تكون زوجة قابيل زنجية" (وايت 1966، 6).

ثم وثق وايت استنتاجاته بالاقتباس من العديد من العلماء والأساتذة التطوريين المعروفين مثل إرنست هيكيل الذي كتب في كتابه "تاريخ الخلق" أن: "عالم الحفريات الممتاز كوينستيدت كان على حق في قوله إن "إذا كان الزنوج والقوقازيون من القواقع فإن علماء الحيوان سيوافقون في كافة أنحاء العالم على أنهم يمثلون نوعين مختلفين للغاية لا يمكن أن يكونا قد خُلقوا من زوج واحد عن طريق التباعد التدريجي" (مقتبس من وايت 1966، 7).

يضيف وايت نقلاً عن أنصار التطور - تشارلز موريس (1988) وإرنست هيكيل - : "قد يمكن ملاحظة أن كافة القبائل الهمجية في الأرض تنتمي إلى الأجناس الزنجية أو المنغولية، ومن ناحية أخرى فإن الاجناس القوقازية تمثل الحضارة. لم يسجل أي مسافر

(1) هذا وفقًا للنصرانية، وأما في الإسلام فإن أئمَّة الدين قرروا وكرروا في كتبهم: أن ثمة قدرًا مشتركًا بين الخالق والمخلوق؛ فالله سبحانه وتعالى سميع بصير عليم، وإن كان الإنسان يُوصف أيضًا بأنه سميع وبصير وعليم، مع الفارق الكبير بين سمع الخالق وسمع المخلوق، وبصر الخالق وبصر المخلوق، وعلم الخالق وعلم المخلوق، وكذلك إن اتصف الإله بصفة كصفة اليد أو صفة الوجه؛ فإن الفارق بين يد الخالق ويد المخلوق كالفارق بين سمع الخالق وسمع المخلوق، فالاختلاف بين صفة الخالق وصفة المخلوق كالاختلاف بين ذات الخالق سبحانه وذات المخلوق، وهذا هو معنى الحديث الصحيح: "**إن الله خلق آدم على صورته**"، يعني: سميعًا بصيرًا، وكل ذلك يدخل تحت قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [آية 11، سورة الشورى]. (الناشر).

أو مؤرخ قبيلة همجية من القبائل القوقازية" (الجنس الآري 1888، 23). على الجهة الأخري البعيدة من الخليج يقف الزنجي الجاهل الذي لا يسجل له التاريخ أي إنجازات. عاش آلاف السنين على الأرض دون إنجازات كما هو الحال مع الغوريلا. على الرغم من وجوده الكامل إلا أنه يعيش فقط باعتباره همجيًا أو خادمًا. لا "توجد أمة ذات شعر مجعد لها تاريخ هام" (وايت 1966، 7).

بعد ذلك اقتبس وايت من أتباع نظرية التطور الآخرين، مثل البروفيسور وايمان لدعم نظريته: "لا يمكن إنكار أنّه مهما اتسع الفاصل بين الزنجي وإنسان الغاب إلا أنّهما يستوفيان النقط التي - عند النظر في الهيئة العامة لكل منهما - تجعل الإنسان والحيوان يتقاربان". ويقتبس البروفيسور هيكل [من أحد المسئولين] حيث يقول: "أرى الزنجي بوصفه نوعًا أدنى من البشر، ولا أستطيع اعتباره بشر أو أخ، لأن الغوريلا عندئذ يجب أن تُقبل في العائلة." ... "يقول توبنارد في شرح السبب الحقيقي للفروق في البشرة المشاهدة بين ما يسمى "بالأعراق البشرية": "وهكذا أظهرت أعلى السلطات العلمية أن بشرة الزنجي السوداء عديمة اللون نتجت من تخلل الصبغة السوداء بين طبقتي الجلد الداخلية والخارجية ... والفرق بين دم الرجل الأبيض ودم الزنجي أُثبت من خلال اختبار تجريبي. بشرة الرجل الأبيض تصبح سوداء عند دمجها مع لحم زنجي. وتتحول البشرة السوداء المدمجة مع رجل أبيض إلى اللون الأبيض. لا شيء سوى الدم يمكن أن ينتج هذا التغيير" (مقتبس من الأنثروبولوجيا للشعب) (وايت 1966، 7).

ويضيف وايت أن الشعر الطويل المنسدل للعرق الأبيض "في تناقض تام مع الشعر القصير والمتعرج للزنجي"، وعلاوة على ذلك فإن "الجمجمة الواسعة نسبياً للبيض

تتناقض تناقض تام مع الجمجمة الطويلة الضيقة للزنجي". واستنتج أن "طول وضيق جمجمة الزنجي هي سمة من سمات القرد" (وايت 1966، 7).

ويضيف وايت نقلاً عن أستاذ علم الأنثروبولوجيا في جامعة ميتشيغان ألكسندر وينشل (1978)، الذي حاول مزج المسيحية والتطور معًا، يقول البروفيسور وينشل: "يبدو أن عرضًا نسبيًا معينًا للجمجمة يرتبط بالطاقة والقوة والقدرة التنفيذية". وهذا يفسر افتقار الزنجي إلى القدرة التنفيذية؛ لقد جعله الله كذلك. يمكن رؤية أهمية هذا بسهولة عندما نتوقف مؤقتًا لإظهار أن المهمة التي أُسنِدت للإنسان عند خلقه تتطلب أعلى قدرة تنفيذية. ... يبلغ متوسط وزن المخ للأوروبيين ذكورًا وإناثًا 1340 جرامًا، بينما الزنجي 1178، والهوتنتوت[1] 974، والأسترالي 907."

أوضح وايت أن أهمية هذه المقارنات تصبح واضحة عندما نقرأ أنّ: "بروكا – أبرز علماء الأنثروبولوجيا الفرنسيين – قال أنّه عندما ينخفض المخ الأوروبي إلى ما دون 978 جرامًا (يعني الذكور والإناث) فإن النتيجة هي البلاهة ... لون مخ الزنجي أكثر قتامة من لونه عند البيض، وكثافته وقوامه أدنى. تكون التلافيف أقل وأبسط وتقارب تلك الموجودة في ذوات الأربع (الرئيسيات ولا تشمل الإنسان) (مقتبس من وينشيل في ما قبل الآدمية).

"إن الفك القصير والضيق نسبيًا للبيض يتناقض مع الفك الطويل العريض عند الزنجي. طول وعرض فك الزنجي من سمات القردة. فك الزنجي – مثله مثل أي قرد آخر – "يمتد إلى الأمام على حساب تناسق الوجه وإلى الخلف على حساب تجويف المخ" يقول كاترفاغز: "من المعروف جيدًا أن وجه الزنجي وبخاصة الجزء السفلي

(1) الهوتنتوت أو الخويخوئيون: هم أحد المجموعات العرقية التي تتواجد في جنوب غرب افرقيا؛ نامبيا بالتحديد.( الناشر)

كل شئ فيه متوجهه إلى الأمام" (مقتبس من أنواع الإنسان).

ثم يقتبس وايت من عالم الأنثروبولوجيا الفرنسي الشهير بول توبينارد الذي كتب: "إنّ المساحة بين عيني الزنجي أكبر وأوسع من الأبيض" (توبينارد 1894، 489) (وايت 1966، 8-9). هذا الرأي يتطلب رفض التعاليم الكتابية الواضحة حول أصول كل البشر. كما أن مراجعة كتابات العنصريين المعاصرين المعروفين - مثل ديفيد ديوك - أكدت كذلك أن الأفكار الداروينية هامة للغاية في تطوير أفكارهم العنصرية والحفاظ عليها. ترأس ديوك - وهو أبرز عنصري في أميركا اليوم - أكبر منظمة مؤمنة بسيادة البيض في العالم. يمكن قياس تأثيره من خلال حقيقة أنّه انتُخِب للعمل في كونجرس ولاية لويزيانا. كتاباته واسعة النطاق حول التأثير المركزي للأفكار الداروينية على تطوير وجهات نظره العنصرية مُراجعة أدناه:

"بدأت نظريات ما قبل الآدمية في منتصف القرن السابع عشر، لكن كان ينظر إليها دائمًا على أنها بدع ابتدعها المسيحيون الرئيسيون. على سبيل المثال، حاول إيزاك دي لا بيرير أن يشرح ليس فقط التعاليم التطورية المبكرة حول الإنسان البدائي، بل تعاليم بعض آيات الكتاب المقدس الإشكالية. فقد جادل بأنّ الكتاب المقدس نص على أن آدم وحواء لم يكونا أول البشر فعلًا، بل مجرد أبوين للشعب اليهودي، وأنّ كافة الأجناس الأخرى خُلقت قَبل آدم وحواء لكن لا تنتمي إلى قصص العهد القديم الذي لا يهتم إلا بالشعب اليهودي. لقد فسرت ما قبل الآدمية - وجود بشر قبل آدم - عددًا من المشكلات المحرجة في بعض القصص التوراتية، مثل كيف وجد قابيل زوجة عندما كان هو وأخوه ذريتا آدم وحواء فقط، ومن كان يسكن أرض نود التوراتية. وقد

أُدين العمل اللاهوتي للا بيرير بأنّه هرطقة طوال القرنين السابع عشر والثامن عشر. وقد تدفقت العديد من الأفكار الأوروبية حول ما قبل الآدمية لأكثر من قرن بعد لا بيرير. اضطر لا بيرير نفسه للتراجع، ولكن أفكاره لم تُنس" (نيلسون 2003، 164).

ومع ذلك ساد العلماء لأن نشطاء التطور الأوائل وعلماء الأعراق كانوا متأثرين بالاختلافات بين البشر أكثر من أوجه التشابه بينهم. وفي أوروبا وأميركا، استمرت القصص المثيرة التي تناولت تزاوج الهوتنتوتس مع الغوريلا أو الأورانجوتان كدليل على مدى الاختلاف بينهم وبين هؤلاء الأشخاص البعيدين. كما اقترحوا تدرجًا للأنواع البشرية من أولئك الأقرب إلى الحيوانات إلى الأبعد (نيلسون 2003، 165).

تأثير داروين العنصري في كو كلوكس كلان والجماعات العنصرية الأخرى ظهر في تحول ديفيد ديوك من مسيحي مؤمن بنظرية الخلق إلى تطوري ملحد.

## قصة ديفيد ديوك

ديفيد ديوك، زعيم العديد من الجماعات العنصرية – بما في ذلك كو كلوكس كلان والحزب النازي الأمريكي – "أصبح نجم موسيقى الروك السياسي" وواحد من أكثر الأمريكيين شهرة في العقد الماضي (زاتارين 1990، 10) علاوة على ذلك، عمل ديوك مع كل عنصري أمريكي بارز تقريباً خلال الثلاثين سنة الماضية (بريدجيس 1994، 41، 115). يمكن قياس مدى شعبية ديوك بحصوله على 680,000 صوت في جولة مقاطعة لويزيانا الانتخابية عام 1991 وأُنتخب ليعمل في الكونجرس لولاية لويزيانا (بريدجيس 1994، 2).

## خلفية ديفيد ديوك الدينية

نُشأ ديوك منتميًا إلى الميثودية البروتستانتية (كان والده مدرسا في مدرسة الأحد) وحضر في وقت لاحق كنيسة المسيح (ديوك 1998، 256). يشرح ديوك في سيرته الذاتية تفاصيل نشأته الدينية المبكرة ولماذا رفض فكرة الخلق "وأن هناك أصل واحد لكل الأعراق من آدم". لتعلم "كيف نشأت الاختلافات العرقية" كان عليه أن يدرس نظرية التطور بالتفصيل (ديوك 1998، 89). باختصار عندما قبِل الداروينية رفض الكتاب المقدس وتعاليم كنيسته ولكن، بدلاً من ذلك اعتمد على العلم الذي كان حقيقة بحسب استنتاجه.

وبمجرد إدراكه لتعاليم الداروينية حول "حقائق الاختلاف العرقى"، أدرك أنه "من خلال التعرف على القوى التطورية التى خلقت الأعراق المختلفة يمكننا أن نفهم شخصية وسلوك مختلف الأعراق، بما فى ذلك عرقنا نحن" (1998، 90). وأشار إلى أن العديد من الداورينين استخدموا مصطلحات "العرق" و"التكاثر" بالتبادل ومن ثمّ أُجريت البحوث على تطور "السلالات" الحيوانية إلى البشر.

لم تكن صراعات ديوك مع الكنيسة فقط حول الداروينية، ولكن كذلك وخصوصًا مع معارضة الكنيسة للعنصرية. وقد تحسّر على حقيقة أنّه عندما تخرج من الكلية في منتصف السبعينيات، تزايد عدد الكنائس التي تُعلّم أنّ العنصرية خطيئة (257).

## معركته الدينية

حاول والد ديوك - وهو جيولوجي - التوفيق بين التطور والمسيحية من خلال الاستنتاج بأن التطور هو الوسيلة التي استخدمها الله لخلق الحياة. وضعت هذه الخلفية

الأساس لقبول ديوك فيما بعد للداروينية. بينما كان يقرأ أكثر فأكثر حول "القضية العلمية للعرق" أصبح ممزقاً بين دينه وعلمه (زاتارين 1990، 80). كان يقرأ وهو صبي بانتظام عن العلوم في مجلة ملخص العلوم وناشيونال جيوغرافيك، ومجلات علمية أخرى (ديوك 1998، 21).

شارك ديوك في الأبحاث حول الداروينية بينما كان لا يزال يحضر مدرسة كنيسة المسيح في نيو أورليانز. ونتيجة لدراسته للتطور، تحدّى ديوك علانية معلميه في مدرسة الأحد من خلال مناقشة أفكاره المتطورة حول أصل البشر وتأثيرهم في العنصرية. عند السعي إلى دمج معتقداته الداروينية العنصرية مع المسيحية استخدم ديوك العديد من التفسيرات التي استخدمها أنصار التطور من الموحدين اليوم لتسويغ العبارات البسيطة حول نظرية الخلق في سفر التكوين.

وفي النهاية إتخذ ديوك جانب الداروينية ورفض فكرة الخلق. وخلص إلى أنّه "في كل يوم يمر يظهر المزيد من الأدلة على الاختلافات الديناميكية الوراثية بالولادة – البدنية والفسيولوجية – بين الأعراق" (1998، 103). لذلك أنهى "التزامه العابر" بالمسيحية الأرثوذكسية (بريدجيس 1994، 7). على الرغم من أنه لا يزال يستخدم في كتاباته العبارات الدينية مثل: لو "أمكنني أن أحرك شعبنا بوصة واحدة نحو الله، حياتي ستكون ذات أهمية" (ص 273).

تحكي حياته قصة مختلفة تمامًا. باختصار، بعد قبوله للداروينية، صنف ديوك دون خجل كلا من الأعراق الأوروبية والآسيوية على "أنّها مستوى أعلى من التطور البشري من العرق الأفريقي" (1998، 103). وخلص إلى أنّ "تطور الإنسان من البدائية إلى

حالته الحديثة من صنع الطبيعة" (1998، 104). يؤمن ديوك الآن بقوة بأن "كل الحياة على الأرض قد تطورت ولا تزال تشهد تغيرًا" (1998، 101).

كان من العوامل المهمة بشكل خاص في تحول ديوك إلى الداروينية: "الدليل القاطع على عمر الأرض الطويل - مثل العصور الجيولوجية التي استغرقها رفع جبل إيفرست من قاع البحر" (1998، 103). هذا الدليل جعل ديوك يرفض فكرة الخلق في الكتاب المقدس (بالرغم من أنها مفسرة بتوسع) وقبول تفسير الداروينية. يبرز دليل عمر الأرض الطويل كذلك في الحجج العنصرية التي تبناها ديوك. وخلص إلى أن مقدار الوقت الذي يعتقد الداروينيون أن السود والبيض استغرقوه لينفصلوا عن طريق التطور هو أكثر من كافي لإنتاج ما يعتبره اختلافات عميقة موجودة بين الأجناس البشرية (ديوك 1998، 90-91).

كما جادل ديوك بأنّ: "إنكار حقيقة العرق هو مثال جيد على تعلق المؤمنين بالمساواة بين البشر بأي قشة. وهناك مجموعة هائلة من الأدلة العلمية التي تثبت وجود سمات وخصائص تميز السلالات المختلفة وراثياً من الجنس البشري، تماماً كما توجد سلالات مختلفة وراثياً من الكلاب أو القطط" (1998، 87). وتأكيدًا على نظرية داروين التدريجية، جادل ديوك بأنّ الزيادة في متوسط معدل الذكاء لإنتاج ما خلص إلى أنّه الانحراف المعياري القياسي للفرق القائم اليوم بين معدل الذكاء لدى السود والبيض، ولتقليل تأثير عامل البيئة في النتائج، يتطلب الأمر زيادة متوسط معدل الذكاء بمقدار ضئيل للغاية - جزء صغير من الواحد بالمائة (0,003)- في كل جيل من البيض. اعتمد هذا الاستنتاج على أعمال أخرى مثل أعمال بنديل (1951)، والتي

أعادت النظر في أبحاث معدل الذكاء والعرق، وخلصت إلى أن الوراثة تلعب "دورًا رئيسيًا في القدرات العقلية" (ص 188).

قام ديوك بطريقة ساخرة بتسمية "المؤمنين بنظرية الخلق - الذين يؤمنون بأنّ الله خلق البشرية وكل الطبيعة بشكل فوري - "مؤيدي المساواة بين البشر"، وتحسّر على حقيقة أن المساواة بين البشر أصبحت "عقيدة عصرنا". كان ينتقد بشكل خاص نظرية الخلق لأن المؤمنين بها يؤمنون بالمساواة ويقولون بأنّ "الله خلقنا جميعًا سواسية". وقال إنه استغرب كيف ساعد الإعلام الجماهيري في تحويل "كلًا من المجتمع العلمي - الذي تبنى نظرية التطور - والمجتمع المناقض له تمامًا - من أنصار نظرية الخلق - على إطلاق عقيدة تقريبًا متطابقة تنص على المساواة بين البشر" (1998، 102-103). أدعى ديوك أنّ "أي شخص في المجتمع الديني تجرأ على قول حقيقة العرق - دونية الزنوج - اتُّهِم بأنه ضد الله ذاته" (ديوك 1998، 103).

لم يستخدم ديوك الحجج الداروينية فقط لتبرير العنصرية، بل استخدم كذلك اقتباسات من الكتاب المقدس موضحًا مدى أهمية الإيمان في الوصول إلى النتائج. على سبيل المثال، اقتبس من الكتاب المقدس الآيات التي ذكرت أن العبيد يجب أن يكونوا مطيعين لأسيادهم على الأرض (أفسس 6: 5، تيموثاوس 6: 2، وتيتوس، 2: 9-11). لا يمكن استخدام هذه الحجة لتبرير العنصرية الأمريكية لأن العبودية في الأيام التوراتية كانت مختلفة تمامًا عن تلك التي كانت تمارس في الجنوب الأمريكي قبل الحرب الأهلية. ففي الأيام التوراتية، يمكن أن يصبح العبد في روما حرًا من خلال الجدارة والعمل (حتى أن البعض أصبحوا ملوكًا أو مسئولين كبار).

ومن أساسيات عنصرية ديوك الاستنتاج القائل بإن علم الوراثة أساسي لتحديد مجموعة كبيرة من السمات، بما في ذلك الانحراف الجنسي والاختلافات بين الذكور والإناث والشذوذ الجنسي وغير ذلك من السمات. تتشابه استنتاجاته في هذا المجال مع استنتاجات رواد تحسين النسل الأوائل الذين لعبوا دورًا هامًا في التاريخ الأمريكي في مطلع القرن الماضي، وكذلك في ألمانيا أثناء الحكم النازي. ناقش ديوك بشيء من التفصيل كل من تحسين النسل الإيجابي والسلبي مع دعمه لكليهما.

أحد المخاوف التي ناقشها ديوك باستمرار هي تردّي السلالة؛ انحطاط العرق الذي خلص إلى أنّه ينتج - من بين عوامل كثيرة - عن تزاوج القوقازيين مع الأعراق الأدنى. يوضح ديوك في سيرته الذاتية أن عنصريته لم تنشأ فقط عن قبوله الداروينية بل أيضًا عن قبوله لتحسين النسل الذي هو نتيجة منطقية للداروينية. كما يكرر ديوك كل الحجج التي نُشرت في الأعمال الأدبية البيولوجية الرائدة حتى حركة الحقوق المدنية الأمريكية، على سبيل المثال: ادعاء أن الاختلافات بين الأجناس الرئيسية لا يرجع فقط إلى لون البشرة وملمس الشعر، لكن أيضًا إلى حجم المخ وتركيب الجمجمة والذكاء والبنية العضلية والأسنان والمستوى الهرموني والسلوك الجنسي والطباع وحتى الشخصية (1998، 86).

## ديوك يواجه منتقدي العنصرية

انتقد ديوك أيضًا مختلف الحجج العلمية ضد العنصرية، مثل أسطورة البشر الأكثر خطورة: مغالطة العرق لآشلي مونتاجو. وقد خلص إلى أنّ "أسطورة العرق" لمونتاجو أشبه بالقول بأنّ سلالات الكلاب هي مجرد أسطورة لأن المرء يستطيع إيجاد صفات

مشتركة بين السلالات المختلفة؛ "فكرت طويلًا وكثيرًا وتسائلت: هل لأنّه يوجد بعض الصفات المشتركة بين سلالات الكلاب المختلفة فلا يوجد سانت برنارد أو شيواوا؟" (ديوك 1998، 85).

كما انتقد ديوك حجج جاريد دايموند ضد العنصرية والتي حاول دحضها من خلال الإشارة إلى أنّ "الأقرب إلى الإنسان هم الرئيسيات الحديثة والتي أيضًا تتقارب معه نسبيًا في الحمض النووي. فالشمبانزي - على سبيل المثال - يشترك في 98,5 بالمائة من الحمض النووي مع الإنسان" (ديوك 1998، 103-104). لكنّه جادل بأن هذا الادعاء يبطله الإدعاء بأنّ اختلاف الحمض النووي بين السود والبيض أقل من واحد بالمائة. لكن ديوك خلص إلى أنّه إذا كان الفرق في الحمض النووي بين البشر والشمبانزي الذي هو 1,5 بالمائة فقط أنتج البشر الذين لديهم أدمغة تبلغ ضعف حجم أدمغة الشمبانزي؛ يمكن أن تؤدي الاختلافات الطفيفة في الحمض النووي إلى اختلافات كبيرة بين الأجناس البشرية (1998، 85-86). وخلص ديوك إلى أنّه "بحسب مبدأ دياموند لا يوجد اختلاف بين البشر والشمبانزي، لأننا نستطيع العثور بشكل عشوائي على مجموعات من الصفات الوراثية المشتركة بينهما" (1998، 85).

غالباً ما تستخدم نسبة الـ 98 بالمائة كحجة لصالح الداروينية، وقد [أكد] ديوك دون تفكير على الرغم من أن الفرق بين البشر وقردة الشمبانزي لا يمكن تحديده بدقة حتى يتم معرفة الكثير حول الجينوم البشري والشمبانزي، خاصة وظيفة وبنية جينات الشمبانزي. التشابه بين البشر والشمبانزي يقدّر الآن بأقل من 80 بالمئة (بيرجمان وتومكنز 2012، تومكنز وبرجمان 2012). ويخلص ديوك إلى أن "الغالبية العظمى من

الجينات الأساسية التي تُشكّل الأجناس ليست مشتركة بين أجناس البشر فقط، بل تشترك فيها كذلك كافة الثدييات وحتى كافة الكائنات الحية الأخرى. النسبة الصغيرة المختلفة بين الجينات هي ما يصنع الفروق الهامة التي تؤثر على بنية وتكوين أشكال الكائنات الحية تلك" (1998، 86).

## الداروينويين الذين أثّروا على ديوك

يعترف ديوك بأن اهتمامه "بآثار التطور على العرق" كان يثيره في الأساس البروفيسور " كارلتون كون " الذي كان لا يزال أستاذًا نشطًا عندما كان ديوك يقوم بأبحاثه. كانت أفكار كون العنصرية آنذاك أساسية وأثرت على مئات من طلابه الذين أصبحوا أساتذة في الأنثروبولوجيا في العديد من الجامعات الرائدة في أميركا. كان آنذاك عالم الأنثروبولوجيا الفيزيائية الرائد ورئيس الرابطة الأمريكية لعلماء الأنثروبولوجيا الفيزيائية. ونشر كون العديد من كتبه مع كبار الناشرين، وقبل وفاته كان باحثًا مشاركًا في متحف بيبودي في جامعة هارفارد.

قرأ ديوك كافة كتب كون التي تمكّن من العثور عليها، بما في ذلك: الأعراق البشرية الحية، وقصة الإنسان، وأصل الأعراق، وأعراق اوروبا. وقد زعم زاترين أن كون هو الذي "ساعد ديوك على الاطلاع على الرأي القائل بإن العرق كان عاملا رئيسًا في تطور الإنسان الحديث" (1990، 79). كما تأثر ديوك بشكل كبير بالعديد من الداروينيين الآخرين وخاصة بروفسور جامعة هارفارد للأنثروبولوجيا إيرنست هوتون. على الرغم من أن ديوك اعتمد على العديد من كتابات التطوريين ما قبل الستينيات حيث كانت العنصرية موضوعًا مهيمنًا إلّا أنّه استشهد كذلك بالداروين المعاصرين.

بعد دراسة النظريات الأنثروبولوجية حول أصل الأجناس، لخّص ديوك النظريتين السائدتين للتطور - فرضية أحادية المنشأ وفرضية المراكز المتعددة[1] (التي دعا إليها البروفيسور ميلفورد وولفوف من جامعة ميشيغان)-. ناقشت نظرية أحادية المنشأ أن الأجناس المختلفة عبرت عتبة الإنسان العاقل (الهومو) بشكل منفصل أثناء التطور. كان ديوك منبهرًا بشكل خاص بالأبحاث التي افترضت أن الإنسان العاقل (الهومو) الذي تطور لأول مرة في أفريقيا، ثم "تطور مرة أخرى إلى مجموعتين جينيتين مختلفتين، أفريقية وغير أفريقية، منذ حوالي 120,000 عام" (1998، 90-91).

كان اعتقاد ديوك بأن الأجناس الرئيسة موجودة منذ عشرات الآلاف من السنين يعني أن هناك "وقتًا كافيًا للجغرافيا والمناخ ليخلق (من خلال التطور) الاختلافات العميقة القائمة" اليوم بين الأعراق (ديوك 1998، 91). استنتاج الداروينية أن المجموعات القوقازية والزنجية قد انقسمت منذ ما لا يقل عن 110,000 سنة مما جعل ديوك مقتنعًا بوجود اختلافات كبيرة بينهما (1998، 91). وفي المقابل، انقسم القوقازيون والآسيويون منذ 40,000 سنة فقط.

ولهذا السبب توجد اختلافات أقل بكثير بين الآسيويين والقوقازيين مما هو موجود بين الزنوج والقوقازيين الذين انفصلوا قبل ذلك بوقت طويل. وأكد ديوك مرارًا وتكرارًا

(1) نظرية المراكز المتعددة (multiregional evolution): هو نموذج علمي يقدم تفسير للتطور بدلًا من فرضية أحادية المنشأ – أن البشر جميعًا تطوروا من أصل واحد- وتنص على أنّ البشر تطوروا من الأشكال الأكثر بدائية للأشكال الحالية وفقًا للإقليم الجغرافي –على سبيل المثال: الإنسان الأفريقي الحديث تطور من الإنسان الأفريقي البدائي والإنسان الأوروبي الحديث تطور من الإنسان الأوروبي البدائي وهكذا- خلافًا للنظرية أحادية المنشأ التي تقول بأن الإنسان الأوروبي الحديث تطور من الإنسان البدائي مرورًا بالإنسان الأفريقي وباقي الأجناس الأخرى. ( الناشر)

أن استنتاجاته حول العرق استندت على البحث العلمي الذي قام به عدد من العلماء الرواد في العصر الحديث، وأن هذا البحث أجبره على رفض رواية الخلق في الكتاب المقدس الذي تربى على الايمان به (ماغينيس 1992).

## تأثير البروفيسور إلمر بيندل

كان لكتابات البروفيسور إلمر بيندل آثر آخر كبير على ديوك بما فيها: لماذا تُدمّر الحضارات ذاتيًا (1977) والجنس مقابل الحضارة (1967). خلص كلا الكتابين إلى أنّه يجب التركيز أكثر على مسألة الجودة البشرية، بدلاً من التركيز على الكمية البشرية (1998، 109). د. بيندل هو محرر ومؤلف أحد المراجع الرئيسية (1942). قام بالتدريس في جامعة كورنيل، وجامعة ولاية بنسلفانيا، وكلية بالدوين - والاس. حصل على شهادات من جامعة كورنيل وجامعة شيكاغو.

وقد استقى ديوك من بيندل على فكرة أن الأقل ذكاء والأقل ملاءمة، ككل يتكاثر أسرع من الأكثر ذكاء والأكثر ملائمة (ديوك 1998، 109). وكان الحل الذي توصل إليه بيندل هو قيام الدولة بتنظيم التكاثر وفقًا لمبادئ تحسين النسل، والتي تترجم إلى تعقيم البشر "الأدنى" (بيرش وبيندل 1945، بيرش وبيندل 1947). عزز بيندل وجهة نظر ديوك بأن "التفوق الثقافي هو نتاج البيولوجيا" (بريدجس 1994، 123) حتى أن آراء ديوك العنصرية قد تطرقت إلى قضية الإجهاض: "من الواضح أن اعتقاد ديوك بأن العديد من البشر كانوا "حثالة" ولا يستحقون العناية كان بعيدًا كل البعد عن الأساس المسيحي لحركة الحق - في - الحياة[1]. لكن اعتقاد ديوك بتحسين النسل جعله يعارض الإجهاض، لكن معارضته للإجهاض ليست لأنه آمن بقدسية الإنسان كما فعل

المسيحيون الإنجيليون، بل لأنه اعتقد أن حظر الإجهاض سينتج عنه زيادة في المواليد المزيد من الجنس الأبيض وعدد أقل منهم بالنسبة للأقليات (بريدجيس1994، 125).

وشدد البروفيسور بيندل على أن "المصدر الوحيد للأدمغة هو الوراثة"، ومفتاح التطور هو "القضاء" في الأقل ملاءمة (1960، 20، 23). ونتيجة لذلك "إذا تم القضاء على الأفراد ما دون المتوسط، وارتفع المتوسط إلى أعلى؛ فقد نجح جانب التطهير في التطور البيولوجي في الأنواع البشرية كما نجح في الأنواع الأخرى". وأنّ "انتقاء المجموعات البشرية أساس للتطور العقلي"(1960، 23، 28، 116-117). خلص بيندل إلى أنه كان "يتبع" داروين فقط (1960، 208).

## اختلاط الأعراق

من الواضح أنّ الداروينية كانت محور جدل ديوك العنصري؛ العديد من حججه كانت مستقاه من كبار أتباع النظرية الداروينية، بعضهم من حقبة ما قبل الحقوق المدنية ولكن أيضًا العديد من العلماء المعاصرين الذين يحظون بالاحترام على نطاق واسع. يدعم ديوك تحسين النسل بنشاط، ولهذا السبب يعارض كل محاولات "تلويث العرق" عن طريق التزاوج بين الأعراق المتخلفة، والذي يعتقد أنه يُنتج "اختيار متراجع جينيًا". وهو يعارض "اختلاط الأعراق"، لأنّه يعتقد أنّ "انتحار العرق" يتم التعجيل به إذا سمحنا "بهجرة أعداد هائلة من عرق غريب" إلى مجتمعنا و"فقدان البقاء الجيني من خلال الاختلاط العنصري" (ديوك 1998، 106).

يعد اختلاط العرق تحديدًا لعنة بالنسبة لديوك، وهذا هو السبب في أنه مهتم للغاية بأمر الفصل العنصري. إن الحفاظ على التركيب الوراثي القوقازي أمر هام للغاية،

والزواج بين الأعراق مطلوب منعه ولا يمكن ذلك إلا بفصل الأجناس، وهو أمر مطلوب لمنع انتكاس الجينوم البشري. حتى أن ديوك يدّعي أن الزواج بين الأعراق هو إبادة جماعية، وليس أقل فظاعة مما حاول الألمان فعله ضد اليهود؛ وستكون النتيجة النهائية - كما يؤكد - متطابقة (1998، 108-109). إن الحفاظ على العرق القوقازي شرط مسبق لمواصلة تطوره إلى مستوى أعلى (1998، 110).

لكل هذه الأسباب، يساور ديوك قلق بالغ بشأن ما يخلص إليه من الآثار السلبية لكافة الجهود القائمة على المساواة وخاصة التكامل والدفع نحو المساواة في التعليم للأعراق. ويخلص إلى أن التحدي الكبير اليوم هو مسألة "مساواة الأجناس"، وأنه من أجل الارتقاء بالسلم التطوري يجب أن يصبح البشر أكثر ذكاءً وصحة وذلك عبر عتبات جينية تجعل السفر إلى القمر وغيره عمل روتيني (1998، 110). يؤمن ديوك بأن الداروينية والعنصرية هما أمران أساسيان لمستقبل المجتمع الغربي بشكل واضح، وبالتالي كان لديه دوافع قوية لمعارضة كافة الجهود التي تسعى للمطالبة بالمساواة، ودعم كلًا من الفصل العنصري و"تقدم" القوقازيين.

ويؤكد ديوك أن العديد من الصفات المتناقضة للقوقازيين والزنوج كانت نتيجة للتطور. أشار ديوك على سبيل المثال إلى أنه عندما بحث في التطور، قارن بين سلوك "الزنوج" والقوقازيين. مثال على ذلك المباراة بين محمد علي وتشاك وينر (قوقازي). وخلص إلى أن علي يمتلك "ميزة تطورية" في المباراة، مضيفًا: "ربما كنت الشخص الوحيد في الجوار الذي فكر في الاختلافات العنصرية التطورية بين علي وويينر مع إعادة ظهور المباراة على التلفزيون" (ديوك 1998، 97).

وسرعان ما تعرّف أولئك المشاركين في الحركات العنصرية إلى فكرة أنه ليس "الزنوج" المتدنيون وحدهم ولكن اليهود كذلك. وبالمثل، استجاب ديوك لهذه القضية وتناولها من خلال دراسة "تطبيقات البيولوجيا التطورية لتنمية الشعب اليهودي" (1998، 450). وخلص إلى أن اليهود هم أقل شأنا للعديد من الأسباب؛ هي ذاتها التي تبنّاها هتلر. هذا الاعتقاد يرجع جزئيا إلى مشاركته النشطة في الحزب النازي الأمريكي.

يجادل ديوك بأنّ "تشارلز داروين في دراسته لتطور وتغير شخصية كافة أنواع الأحياء، أظهر أن مبادئ الوراثة بالاشتراك مع ما سماه "الانتقاء الطبيعي"، قد طورا القدرات الاستثنائية للجنس البشري نفسه. ويحمل كتابه أصل الأنواع عنوانًا فرعيًا يعبر عن فكرته بالكامل باختصار: الحفاظ على الأجناس المفضلة في الصراع من أجل الحياة"(ص 640). كما أشار ديوك كذلك إلى أن مفهوم داروين حول الحفاظ على الأجناس المفضلة في الصراع من أجل الحياة يعالج الانتقاء الطبيعي ليس فقط على المستوى الفردي، بل كذلك "والأهم على عملية الاختيار التي تشمل الأنواع والأنواع الفرعية (الأجناس)" كما يوضح العنوان الفرعي لـ "رائعته"[كذا أطلق عليها] (1998، 450 - 451).

## تأثير إتش. جي. ويلز على ديوك

تعرف ديوك على الداروينية في وقت مبكر من حياته. وذكر ديوك أن أحد الكتب الأولى التي أعطاها له والده للقراءة في المدرسة الابتدائية كانت العمل الكلاسيكي ملخص التاريخ (1922) لإتش. جي. ويلز. كان ويلز مؤيدًا نشطًا للداروينية طيلة

حياته منذ أن تعرّف على النظرية في الكلية من قِبل معلمه - تابع داروين الشهير - تي. إتش. هكسلي. يحاول ملخص التاريخ أن يدافع ليس فقط عن الداروينية، ولكن كذلك عن استخدام علم تحسين النسل بدعم من الدولة لانتاج البشر المتفوقين جينيًا (1998، 118-119).

جادل ويلز بأنّ التطور هو عنصر أساسي في صعود وسقوط الأمم؛ التداخل مع الأعداء المنهزمين يؤدي إلى الخلل، وتبدأ العملية التي تؤدي إلى سقوط الأمة لأنّ المنتصرين المتفوقين يتزاوجون مع الخاسرين المتدنيين، وينتجون ذرية أدنى؛ ونتيجة لذلك فإن الغزاة أنفسهم يتم غزوهم. يشير ديوك إلى أنّ موضوع كتاب ويلز هو أنّ "الأمم العظيمة تنشأ ويكون لديهم الذكاء والقوة والطموح" ويخلقون مجتمعًا قويًا ويغزون جيرانهم الأدنى. سرعان ما تحدث "عملية استيعابهم للمنهزمين في دولتهم القومية" وتبدأ الصفات التي أدت بهم في الأصل إلى النصر والهيمنة بالضياع لأنهم يتأثرون تدريجيًا بالمهزومين الذين استوعبوهم في مجتمعهم. وتبدأ العملية مرة أخرى من جديد، ويأتي أشخاص آخرون إلى الساحة ويقومون بالغزو مرة أخرى فقط لكي يستوعبوا المهزومين. أصبح من الواضح لي أن عامل العرق موجود في صعود وسقوط كل حضارة. في الواقع في كل حضارة سقطت كان هناك تغيير عنصري في السكان الأصليين المؤسسين. إن التبرير الحقيقي الوحيد لبقاء أمة هو التبرير العنصري؛ بقاء تلك المجموعة المحددة ككيان جيني متميز، كمصدر للجيل التالي (1998، 118).

أقنعت كتابات ويلز ديوك عندما كان لا يزال شابًا أن العرق كان أساسيًا في التطور. من قراءة كتب ويلز وبندل، توصل ديوك إلى استنتاج أن حملته ضد العرق

الأسود هي مسألة بقاء أميركا ذاتها، وهي الدولة التي يقول مرارًا وتكرارًا أنّه يحبها (1998، 118-119). على الرغم من أنه تلميذ ويلز فقد كان ديوك يعمل بالفعل لتحقيق أهداف أكثر اعتدالا من معلمه. لم يجد ويلز أي غضاضة في الاعتراف بحلّه لمشكلات العالم؛ وهو برنامج جذري لتحسين النسل الذي تضمن علناً قتل الكائنات المتدنية. أفضل تلخيص لموقف ويلز هو قوله: "هناك شئ واحد فقط عقلاني ومنطقي يجب فعله مع الأجناس المتدنية، ألا وهو الإبادة" (مقتبس من ترومبلي 1988، 32).

كما تأثر ديوك كذلك بعدم مساواة الأجناس للكونت آرثر دي جوبينو، وهو عمل كلاسيكي لا يزال إلى اليوم يُطبع ويُستخدم من قبل العنصريين في الغالب (1998، 119-120). على الرغم من أن دي جوبينو ألف كتابه الشهير قبل نشر داروين لكتابه أصل الأنواع، فإن العديد من الأفكار متشابهة. جادل دي جوبينو أن الحضارة كانت في نهاية المطاف نتاج البيولوجيا وتحديدًا الخصائص العنصرية لمؤسسيها. الحضارات التي تراجعت كان بسبب تغير التكوين الأساسي لمؤسسيها؛ أي أن جودتها العرقية انخفضت بسبب "الاختلاط العنصري". فسّر ديوك هذه المخاوف - لا سيما تلك المتعلقة بالحالة في أميركا - بأنها نتيجة الاختلاط بين الأمريكيين - الأفارقة والقوقازيين.

كما استخدم ديوك الفكرة التي دعا إليها دي جوبينو 1966 والعديد من الداروينين الآخرين الذين أكدوا أن الحضارات انهارت لأنّه بعد فوزهم في الحرب، أدخل المنتصرون المنهزمين كعبيد إلى مجتمعهم؛ وانتهى الأمر باستيعاب جيناتهم في مجموع جينات الأمة المنتصرة. وكانت النتيجة انهيار حضارة المنتصر بسبب ضعفه الوراثي بالتزاوج مع الأشخاص الذين خسروا الحرب. يفترض ديوك هنا الفكرة العامة (الخاطئة)

لتحسين النسل بأنّ أولئك الذين ينتصرون في الحروب متفوقون جينيًا، وأولئك الذين يخسرون الحروب متدنيون جينيًا.

كان علم الأحياء الاجتماعية، كما دعا إليه إدوارد ويلسون من جامعة هارفارد وغيره من علماء الأحياء مهمًا كذلك في تطور تفكير ديوك. كان على وجه الخصوص "العمل البارز للدكتور إدوارد ويلسون علم الأحياء الإجتماعية؛ توليفة جديدة". قرأ ديوك هذا العمل بعد بضعة أشهر من ظهوره و"وجده رائعًا" (1998، 451). وخلص إلى أن ويلسون قدم أدلة قوية على أن السلوك كان له أساس بيولوجي مدفوع بالحافز للحفاظ على التركيب الوراثي وذلك في كل المخلوقات من البدائية مثل النمل إلى المعقدة مثل الإنسان ذاته. اتضح أنّ صلة الدم الوراثية هي عامل قوي في التطور والسلوك. في مثل هذا السياق أصبح الولاء للمجموعة والإيثار مفهومين من وجهة النظر التطورية على أنّ الفرد قد يضحي بحياته وتناسله الفردي لضمان بقاء النوع" (1998، 451).

كانت فكرة دوكينز "الجينات الأنانية"، كما هو موضح في هذا البيان من قبل ديوك، هامة للغاية كذلك.

## التطوريون الآخرون الذين أثروا على ديوك

من بين العديد من الأشخاص الذين يدرجهم ديوك، والذين أثروا في وجهات نظره العنصرية كان غالبيتهم من الداروينيين المحترفين بما في ذلك جوليان هكسلي وجورج برنارد شو (ص 640). درس كذلك كتب هنري جاريت الرئيس السابق لقسم علم النفس بجامعة كولومبيا ورئيس الجمعية الأمريكية لعلم النفس، ونشأة أفريقيا لروبرت أودري (زاتارين 1990-79-88). واعتمد ديوك كذلك على كتاب السير "آرثر كيث"

"الديناميكي"، "النظرية الجديدة للتطوُّر البشري" (1949)، والذي شدد على أن من يتعرض لضغوط تطورية ليس فقط الأفراد،بل الجماعات كذلك (مثل المجموعات العرقية).

حتى أن ديوك اعتمد على كتابات فرانسيس جالتون، الرجل الذي صاغ مصطلح "تحسين النسل" وسعى للسيطرة على التكاثر البشري لتحسين "الصفات الوراثية للعرق" (1998 – 640). يلاحظ ديوك أن داروين كتب إلى جالتون، حيث قدم دعمًا لوجهات نظر جلوتن النحوية – وخلص ديوك إلى أن الاعتماد على رجال عظام مثل داروين وجالتون (بالإضافة إلى أساتذة هارفارد ويلسون وهوتين وكاون وآخرين، بما في ذلك العديد من الأضواء الرائدة للحضارة الغربية ") قدم الدعم العلمي لأفكاره، وتمكينه من الاستمرار في حملته بثقة ونشاط (1998 – 640).

وقد أعادت العديد من المجموعات العنصرية الحديثة طبع العديد من الأعمال البيولوجية التي أنجزها العلماء المشهورون الذين قرأ لهم ديوك. أحد الأمثلة على ذلك هو كتاب جامعة تكساس في أوستن للبروفيسور روجر جاي ويليامز، "حر وغير متكافئ" الأساس البيولوجي للحرية الفردية والذي نشر أصلا في عام 1953 من قبل مطبعة جامعة تكساس وأعيد طبعه في مطبعة الحرية وهي منظمة عنصرية. يشدد الكتاب على أن الأجناس سواء في الفئران أو الجرذان أو الخيول أو الحشرات.

قد تطورت جميعها من خلال التطور – وأنه "إذا إخفق البشر في تطوير الأجناس فإنهم يشكلون الاستثناء الوحيد في المملكة البيولوجية بأكملها" (1953 – 210).

كما يشير ويليامز إلى أنه على الرغم من أن القوقازيين وغيرهم من الأعراق يمكن أن يتكاثروا، فإن هذا لا يثبت المساواة. كذلك يؤكد على أن أساس التطور بأكمله هو

التباين وأن بعض الاختلافات البشرية تفوق غيرها. ووفقا لكلام وليامز، "التباين هو أساس الحياة البشرية وكل الحياة. إن مفهوم التطور كما لدينا اليوم هو مفهوم لا غنى عنه تمامًا. لا يمكن دون التباين الوراثي أن يحدث التطور وتمشيا مع الفكر المقبول حاليًا، فإن البيولوجيا ذاتها لن تكون موجودة ! "(1953 - 56).

وعلى الرغم من أن هذا العمل عنصري بشكل معتدل مقارنة بالكثيرين هذا التغير هو ما يختاره التطور من الآثار العنصرية الواضحة - وهذا هو السبب في أن مطبوعات الحرية قامت بطباعته يوضح البروفيسور ويليامز أن كتابات داروين وابن أخيه جالتون، هما أساس علم تحسين النسل. ويعترف وليامز بأن أفكارهم حول تحسين العرق لم تكن لها ميزة في معرفة "مدى تعقيد الوراثة"، وهم "لم يكتفوا بمواجهة التعليم الديني بل كانوا أكثر تبسيطًا لدرجة أنهم أصبحوا يعتبرون غير صحيحين علمياً" (1953، 314-315). ويشير ويليامز إلى أن تحليلًا أكثر تعقيدًا للمشكلة قد يقودنا إلى برنامج تحسين للنسل عملي عمليًا.

اعتمدت الكتب التي ذكرها ديوك على أنها هامة في تطوير أفكاره كذلك بشكل كبير على الداروينية. على سبيل المثال، أحد أكثر الكتب عنصرية سمعة في القرن الماضي، "عرق وبوتنام والسبب: وجهة نظر يانكي" (1961) وقد نشرتها دار الصحافة العامة في واشنطن العاصمة حيث يقدم المقدمة روجلز جيتس ودكتور هنري جاريت دكتوراه في العلوم وروبرت جيريوويسلي جيم جورج دكتوراه و جميعهم من العلماء الداروينين البارزين. قدم المقدمة تي ار وورنج الذي أكد أن د.جيتس "يُعترف به عمومًا على أنه أحد أبرز علماء الوراثة البشرية في العالم" (بوتام 1961- الرابع.(كان جيتس أستاذًا في علم الحيوان في جامعة كاليفورنيا لعدة سنوات وأنهى حياته المهنية كزميل لأبحاث

في علـم الأحيـاء في جامعـة هارفـارد. كـان جـاير رئـيس تحريـر "البشـر الفصلية"أسـتاذ الأنثروبولوجيا ورئيس قسـم الدراسات العليا في علـم الأجناس البشرية بجامعـة سـوجور في الهند. وتشمل منشوراته العديدة مجموعة من ثلاثة مجلدات بعنوان الإثنولوجيا.

كان ويسلي جورج أستاذ علم التشريح في جامعة نورث كارولينا، حيث كان رئيس قسـم لمدة عشر سنوات. كمـا كـان مؤلـف العديـد مـن المقـالات حـول تطور البشر والفقاريات الأخرى. يخلص وارينج إلى أنه : "لا يمكن أن يكون هناك شك في أن تأييد هؤلاء الرجال جنباً إلى جنب مع أدلة علماء آخرين والذين يسميهم الكاتب شهود يضمن السلامة العلمية للعرق والعقل ويؤكد سلامة أماكن عمله". (بوتنام 1961 – الخامس). كـان هـذا الكتـاب هـو "بـدء رحلـة ديوك الفكريـة" باعتبـاره أكثـر العنصريين سيئي الصيت (بوتام 1961–256)

وبصرف النظر ما نقل عن علماء الأنثروبولوجيا والداروين الذين اتفقوا مع موقفه العنصري فقد هـاجم بوتنـام كذلك العلمـاء الـذين اختلفـوا معـه. كـان مـن أبرزهـم فرانـز بـواس وطلابـه ولا سـيما آشـلي مونتـاجو وجـين ويلتفـيش. كـان بـواس أحـد علمـاء الأنثروبولوجيـا الأوائـل الـذين يعارضـون حركـة النسـل صـراحةً وبشـكل نشـط ومحـاولات إلقـاء العنصـرية علـى العلـوم. ويلاحـظ بوتنـام أن بـواس وتلاميـذه "أبـو الأنثروبولوجيـا الاندماجية في أميركا" (بوتنام 1961، 23).

قـام بـواس وهـو يهـودي بتـدريب العديـد مـن علمـاء الأنثروبولوجيـا بمـا في ذلـك مارجريت ميد (الذي كان له تأثير عميق في الأنثروبولوجيا). بدأ بـواس بالتدريس في جامعة كولومبيا في عام 1896 وكان في الأصل عنصريا كذلك (ما يسميه بوتنام "غير

متساوٍ") حتى "تغير في آواخر العشرينات" (بوتنام 1961 - 18) مع صعود معادلة السامية على أساس داروين. بعد وفاة بواس يلاحظ بوتنام أن كولومبيا استأجر رالف لينتونا "غير المتساوٍ" - الذي فصل كافة الأشخاص المعينين الذين لم يحظوا بالتأييد من بواس وأطلقوا النار على فيلتفيش بتهمة "طويلة الأمد" (بوتنام 1961 -18).

كانت جهود بوتنام الرامية إلى استبعاد أفكار بواس بمثابة دعوة إلى الأسماء، مثل أن أفكاره كانت "دعاية ذكية وغريبة تشكل اسم العلم وجهود عقيمة في إثبات نظريات غير قابلة للحياة" (بوتنام 1961 - 18). كان قلق بوتنام، كيف كان "من الممكن أن يتأثر جيل كامل من الأمريكيين... بكتابات بواس"؟ (بوتنام 1961، 18-19)

على الرغم من أن بوتنام لم يحاول مطلقًا تفنيد استنتاجات بواس (وقد أثبت التاريخ أن الكثير منها صواب) لكنه ذكر أنه وجد"علماء محترفين كثيرين رأوا ما رأيته" -" - أي أن كتابات بواس التي كانت تناقش الحقوق المدنية للأمريكيين من أصل أفريقي باطلة علمياً. ويخلص بوتنام إلى أن حجة بواس تستند إلى "افتراض الاختلافات الثقافية بين عصر الزنوج والأعراق الأخرى، وليس بسبب أي قيود طبيعية، بل إلى العزلة والحوادث التاريخية" (بوتنام 1961 - 24).

إن سبب اعتراض بوتنام على الاندماج سواء في المدارس أو في أي مكان آخر كان وفقًا لرسالة من أستاذ علم وظائف الأعضاء في إحدى المدارس الطبية الرائدة: "دمج المدارس هو التكامل الاجتماعي والتكامل الاجتماعي يعني معدل متزايد من التزاوج. (هذا صحيح بغض النظر عما إذا كانوا سيفصلون الجنسين في المدارس. لا يزال الأخ الأصغر يجلب صديقه الجديد إلى المنزل بعد المدرسة.) وبصفتي عالم أحياء. أرى أن

هذه العملية هي مزيج من الجينات الزنجية في بلازما الجرثومة البيضاء، وهي عملية لا يمكن أن يكون هناك خلط بينها (بوتنام 1961 - 37).

الحجة الأساسية ضد الزواج بين الأزواج هي الاستنتاج القائل بإن لدى الزنوج ذكاءًا أقل وراثيًا - من 10 إلى 20 نقطة أو أكثر - وأن الخلط سيقلل من معدل الذكاء البشري الإجمالي. كدليل على ذلك يستشهد بوتنام بالمجلات الرئيسة مثل مقال بقلم فرانك سي. ماك. ماكجورك نُشر في فصل الشتاء لعام 1959 في مجلة هارفارد التعليمية. كما أنه يقتبس خبراء مثل جامعة وايلد بينفيلد، التي ذكرت: "ليس هناك شك في أن الفص الجبهي للنيجرو النموذجي أصغر والقشرة الدماغية أقل تجعيدا من القشرة البيضاء النموذجية" (بوتنام 1961 - 41). تركت العديد من الاقتباسات المشابهة الانطباع بأن علماء الأحياء وعلماء الأنثروبولوجيا اتفقوا على هذه المسألة. وللتأكيد أكثر على وجهة نظره ويقتبس بوتنام نصف دستة من الكتب لأساتذة ينشرها كبار الناشرين.

يستميل بوتنام باستمرار العلم، مدعيًا أن نظرته إلى الاختلاط العرقي لها "صلاحية علمية" (بوتنام 1961 - 84). العديد من العلماء والمجلات العلمية الرئيسة التي تدعم وجهات نظره تشمل د.رزينزكي الذي جادل بأن تكتل "العناصر العرقية والإثنية" في أميركا الآن "يجعل من التدهور الثقافي شيء لا مفر منه" (بوتنام 1961 - 85). يجادل بوتنام حتى أن العنصرية تفيد أولئك الذين يميزون ضد - نهج أقنع العديد من الأشخاص في وقت كتابة هذا الكتاب.

يزعم بوتنام أن الأمثلة القليلة للأميركيين الأفارقة الذين قاموا بعمل جيد لديهم جينات بيضاء. على سبيل المثال، كما يقول، "يُعد جورج واشنطن كارفر عالما زنجيًا

مثاليًا، لكن جيناته البيضاء تظهر في عينيه الزرقاوين" (بوتنام 1961، 92). الذكاء وخصائص أخرى مشابهة و الخداع هي سمات بيضاء ويضيف أن "قيود الزنوج في عالم الشخصية والذكاء" (بوتنام 1961 - 94).

ويستنتج بوتنام أن قرار براون مقابل قرار مجلس إدارة التعليم يستند إلى "بواس أنثروبولوجيا"وهو ما يتناقض مع ما يُقال عنه (وهذا يعني ضمنا) تقريبا العالم العلمي بأكمله. علاوة على ذلك، لم تفحص الأنثروبولوجيا المتساوية لدى بواس على النحو الصحيح ".

ويقتبس بوتنام كذلك من الأستاذ في جامعة هارفارد كلايد كلوخهون الذي قال: "في ضوء تراكم المعلومات المتعلقة بمختلف الجينات المعيّنة بشكل كبير بين مختلف الأشخاص يبدو من غير الحكمة أن نفترض بشكل قاطع أن" قدرة الإنسان الفطرية لا تختلف من مجموعة واحدة إلى أخرى. " الذي استنتجه بوتنام أنه "لم يعد من الممكن افتراض المساواة العرقية في الفكر" (بوتنام 1961 -51).

ثم يستنتج بوتنام، بعد أن اقتبس من العديد من الأساتذة البارزين الآخرين (غالبيتهم من علماء الأنثروبولوجيا والداروينين)، أنه سيكون "على استعداد للتنازل عن احتمال أن الزنجي قد يتجاوز من خلال العمليات الطبيعية للطفرة والانتقاء الطبيعي... في نهاية المطاف العرق الأبيض. "هذه العملية، على الرغم من ذلك يقدرها بخمسمائة مليار سنة ! (بوتنام 1961 - 53). التطور جعل "البيض" متفوقين، ولا يمكن كسر قانون التطور، ولكن يجب أن يستجاب له.

## تأثير ديوك في العنصرية الحديثة اليوم

يبدو أن كتابات ديوك على العرق، والتي اقتبست العديد من العلماء البارزين

(سيرته الذاتية وحدها تسرد 45 صفحة من المراجع، غالبيتها أكاديمية) ستكون مقنعة للغاية للعديد من غير المؤيدين لنظرية الخلق الذين يخالفون الحجج التطورية. ووفقا لمراجعات أمازون كوم لسيرة ديوك لعام 1998 والتي هي أكثر اعتذارًا عن العنصرية العلمية والحجج العنصرية التطورية مقنعة للغاية للعديد من الأشخاص اليوم. اعتبارًا من عام 2014، من أصل 146 مراجعة (كانت الغالبية العظمى من الكتب لديها عدد أقل من المراجعات)، كان متوسط تقييم العملاء مرتفعاً بشكل استثنائي (4,4علامة من إجمالي 5).

أعطى غالبية المراجعين كتاب ديوك خمس نجوم، وقامت حفنة من النجوم بإعطائه نجمة تحت عناوين مثل "غير دقيقة ومتعصبة" أو "دعاية في أضيقها". أدان العديد من المراجعين "علم" ديوك، ولم يدركوا أن العديد من أفكاره أُخذت بشكل مستقيم من كتابات العلماء الذين يحظون باحترام كبير - على الرغم من أن العديد من العلماء، ولكن ليس جميعهم كانوا من علماء الجيل السابق في مجال الحقوق المدنية. بعد "تقاعد" ديوك عام 1980 ولم يتمكن أي زعيم من قبيلة كلان من تحقيق فاعليته ونتيجة لذلك فقد كلان الكثير من نفوذه (نيوتن 2007 - 39).

## ملخص لتأثير الداروينية في كلان

البروفيسور مارتن جيتلين، في دراسة بحثية تاريخية واسعة النطاق من كلان، خلص إلى ما يلي:

يعتقد غالبية كلاً من "كلانسمان" وغيره من المفكرين البيض ليس فقط في الدونية البيولوجية للسود، بل كذلك في داروينية العصر الحديث التي اعتنقها هتلر والنازيون. يؤكد هذا الرأي... يتفوق العرق الأبيض الآري على كافة الأنواع الأخرى. وأن السود

هم الأكثر انخفاضًا مع العديد من الأجناس الأخرى التي تقع في مكان ما بينهما. إنهم يشعرون أن النظام الطبيعي للجنس البشري لا يختلف عنه في عالم الحيوان الذي لا ينجو منه إلا الأقوياء. إن العنصريين المتشددين الذين لديهم عزيمة سياسية يشعرون بحرب عرقية سيقومون إما بتطهير أميركا من ما يعدونه العرق الأسود الأدنى أو في الأقل توفير الفصل (للأعراق) (جتلين 2009، 49).

علاوة على ذلك، على الرغم من أن فقدان كلان الكثير من نفوذه في آواخر عشرينيات القرن العشرين قد أدى إلى نهاية مشاركة واسعة النطاق من جماعة كلان، لكن العديد من العلماء "اعتقدوا أنه من العبث أن يدعم رجال كلان ونساء كلان بأمانة أو يناضلن من أجل الحقوق الدستورية للعرق أسود". لقد اعتبروا دائما أقل شأنا "(جتلين 2009، 58). أحد الأمثلة على حقيقة أن الاعتقاد الإيضاحي لعقيدة الدونية السوداء كان له تأثير هائل على تاريخ كلان كما يلي:

في ضوء قوة كو كلوكس كلان واسعة الانتشار في الولايات الجنوبية، فإن حيادية أي محلف أبيض بغض النظر عن المكان الذي يقيم فيه ستكون موضع شك.... تاريخيا، كانت شهادة الرجال السود ضد الرجال البيض في المحاكم الجنوبية تسبب مشكلة.

في بعض الحالات، لا يُسمح للسود بالشهادة ضد البيض. حتى عندما يسمح بشهاداتهم تميل هيئات المحلفين إلى النظر إلى السود باعتبارهم أقل شأنا من البيض. وبالتالي، نادراً ما كان المحلفون البيض يؤمنون بالشهادة التي يقدمها السود، أو إذا كانوا يصدقونها، فإنهم لا يعطوها إلا القليل من الاهتمام في مداولاتهم (مارتينيز 2007-166)

وكانت النتيجة التاريخ الطويل للظلم ضد السود في أميركا. مثل ملاحظات نيوتن:

لم تذكر الوصفات الأصلية لكلان لعامي 1867 و 1868 تفوقًا للبيض لمجرد أنه لم يكن ضروريًا. لقد ولد ونشأ رجال كلان في مجتمع استعبد السود... لقد رأوا من المسلمات أن السود هم من غير البشر غير القادرين على أي مظهر من مظاهر التكافؤ مع البيض - أقل بكثير من المساواة التامة مع شبح التضليل و"الاندماج" الذي ما زال قائما على الدوام. حتى في أيامها الأخوية "البريئة"، ربيع 1866 وأبريل 1867، حافظت كو كلوكس كلان على التقاليد العنصرية من خلال ارتداء الملابس كأشباح لتخويف العبيد السابقين.... وحقيقة أن هؤلاء "غير المرغوب فيهم" كانوا دائماً تقريباً من السود فيما يتعلق بعقلية كو كلوكس كلان (2007-38).

وهكذا كان يعتقد على نطاق واسع "أن السود كانوا أدنى من البيض وبالتالي يستحقون حماية قانونية أقل" (مارتينز 2007-169). هذه النظرة الداروينية عززتها كتب مثل "رجال كلان" وهو عمل شُبع بالعنصرية في كل صفحة تقريبًا، وكان أكثر أعمال ديكسون شيوعًا. حيث كانت نظرته إلى السود عدائية ومهينة. وكتب عن "زنجي مغمور ذو شفاه سميكة وأنف مطموس زنجي ينضح برائحة الحيوان الغاضبة". كانت هذه الجملة واحدة من العديد من هذه الأوصاف. بالنسبة لقرائه المخلصين، كانت وجهات نظر ديكسون حول العرق بعيدة كل البعد عن كونها غير عادية. حيث وصف ما يعتقده العديد من البيض بالفعل مما أذهل الجمهور. وبدلاً من ذلك، استهدفت خطوط المؤامرة المفتعلة بشكل مثير للسخرية كانت موجهة إلى البيض(مارتينز 2007-242).

وفي مراجعة لمواقع كو كلوكس كلان التي أجريت في عام 2011 حيث لا تزال تُقتبس من نظرية التطور لتبرير معتقداتها، مثل المجلد 19، صفحة 344 من الطبعة

الحادية عشرة المشهورة من موسوعة بريتانيكا: "يبدو أن الزنجي يقف على مستوى أقل تطورا من الرجل الأبيض، وترتبط بشكل أوثق بأعلى البشر مستوى.... وعقليا الزنجي هو أقل شأنا بالنسبة للبيض. كما أنهم يستخدمون الكتاب المرجعي القياسي العلوم الشعبية - المجلد رقم 11 صفحة رقم 515، الذي ينص على: "إن الحكم (من العلم) هو أن الزنوج لا ينتمون إلى جنس أدنى. وأن قدرة دماغه أكثر فقراً وبناءها أبسط. "غالباً ما أهملوا ملاحظة أن هذا الاقتباس من طبعة 1931 من العلوم الشعبية[1].

## الاستنتاجات

يتضح من المراجعة لكتابات العديد من أبرز المتعصبين اليوم أن الدعم الرئيس لمعتقداتهم كان كتابات علماء التطور الرئيسيين لما قبل عام 1950. إن "حقائق" العلم وقبول كبار العلماء لاستنتاجاتهم العنصرية لا سيما أولئك من مدارس ايفي ليجو مثل هارفارد أقنعت العديد من العنصريين بأن مفتاح صفقة أميركا هو تقليل الضرر الناجم عن الأجناس المتدنية، وخاصة الأمريكيين الافارقة واليهود (وايز 2003 - روز 1992). وبهذه المعرفة، كان ديوك وآخرون مصممين على حمل رسالتهم الخاصة بالداروينية وعلم تحسين النسل إلى حيث تقودهم أي العنصرية إلى العالم.

اختتم ديفيد ديوك سيرته الذاتية بالكلمات التالية: "أعتقد حقاً أن مستقبل هذا

---

(1) انظر http://kkk.org and

http://www.thebirdman.org/Index/Others/Others-Doc-Blacks/+Doc-Blacks-Intelligence&Competence/ScientificFactsOfBlackIntelligence.htm.

على سبيل المثال يستخدم نظرية ما قبل الآدمية في محاولة لمواءمة التطور مع الداروينية ، انظر أيضًا

http:// kkk.bz/shocking_story_of_real_slavery_i.htm. ( المصنف )

البلد والحضارة والكوكب مرتبط ارتباطاً وثيقاً بمصير جنسنا الأبيض" (1998 -273). لقد كرس هو وآخرون حياتهم لهذا الهدف على الرغم من حقيقة أن الحجج الداروينية العنصرية التي اعتمد عليها ديوك قد دُحضت بعناية وتم توثيقها على أنها ضارة من قبل كل من مؤيدي نظرية الخلق والمتطرفين (بيرجمان 1993).



## المراجع

جيري برغمان، 1993 "التطور وأصول نظرية العرقالبيولوجي. مجلة سي آي ان التكنولوجية 7(2) 155-168.

وجيفري تومكنز،2012. "هل الجينوم البشري متطابق تقريباً مع الشمبانزي؟ - إعادة تقييم المؤلفات ". مجلة الخلق 25 (4): 54-60.

تايلر بريدجيس. 1994. صعود ديفيددبوك. جاكسون، م اس: جامعة ميسيسبي.

هاروود براون،2000 (طبعة إعادة الطبع). ورقات - اقرأ في اجتماع فرسان التنانين الكبار لفرسان كو كلوكس كلان في اجتماعهم السنوي الأول الذي عقد في آشفيل، كارولاينا الشمالية، يوليو 1923. نورث ستراتفورد، نيو هامبشير الناشرون شركة اير

جانيت براون، 2003." الطوفان، السفينة، وتشكيل التاريخ الطبيعي،الفصل 5 ليدنبيرج 2003

بيرش وجاي إيرفينج وإلمر بندل. 1945. الطرق السكانية نحو السلام أو الحرب. واشنطن العاصمة: مكتب المراجع السكانية.

1947تربية البشر وبقائهم: طرق سكانية للسلام أو الحرب. نيويورك: كتب بينجوين.

آرثر دي جوبينو،1966. عدم المساواة في الأجناس البشرية: دراسة رائدة لعلوم الأجناس البشرية. لوس أنجلوس، كاليفورنيا: نون تايد للنشر.

ديفيد دوق، 1998. إدراكي: طريق للتفاهم العنصري. كوفينجتون مطبعة فري سبيتش.

هنري فري 1922 كو كلوكس كلان الحديث بوسطن، ماساتشوستس مينارد وشركة.

مارتي جيتلين، 2009. كو كلوكس كلان المرشد الي الثقافة الفرعية الأمريكيةسانتا

باربرا، كاليفورنيا: جرينوود.

ستيفن جاي جولد، 1977.اونتوجوني وفوتوجني. كامبريدج، ماساشوستس: مطبعة جامعة هارفارد.

سير آرثركيث، 1949. نظرية جديدة للتطور البشري. نيويورك: المكتبة الفلسفية.

مارتن أيه لي 2003" تفاصيل ديفيد ديوك "مركز قانون الفقر الجنوبي

http://www. splcenter.org/get – informed/intelligence – report/browse – all –issues/2003/spring/detailing – da– vid – duke.

ديفيد ليندبرج ورونالد نمبرز. 2003. عندما التقى العلم والمسيحية. شيكاغو،: مطبعة جامعة شيكاغو.

جون ماجينيس، 1992.العبور للدب باتون روج مطبعة دارهورس

جي مايكلمارتينيز، 2007.، فرسان كو كلوكس كلانفضح الإمبراطورية غير المرئية أثناء إعادة الإعمار. نيويورك رومان وليتلفيلد.

تشارلزموريس، 1888. العرق الآري: أصوله وإنجازاته. شيكاغو، إلينوي:جريس والشركة

جاري بلير نيلسون، 2003. "الرجال قبل آدم! مناظرات أميركية حول وحدة الإنسانية وتاريخها. "الفصل السابع، ص. 161—181 2003 – ليدنبيرج.

مايكل نيوتن، 2007 كو كلوكس كلان، تاريخ ومؤسسة ولغة وتأثير وأنشطة أميركا جيفيرسون ما كفرلاند

2010 كو كلوكس كلانفي مسيسيبي: تاريخ. جيفرسون، كارولاينا الشمالية: مكفارلاند.

إلمر بيندل، (محرر). 1942. المجتمع تحت التحليل، مقدمة لعلم الاجتماع.

لانكستر، بنسيلفانيا: كاتيل.

1951- السكان علي حريتهم. نيويورك: ويلفريد فونك.

1960- الحضارة القادمة. دالاس، تكساس: شركة النشر الملكي.

1967 - الجنس مقابل الحضارة. لوس أنجلوس، كاليفورنيا مطبعة نونتايد

1977 - لماذا التدمير الذاتي للحضارات. كيب كانافيرال، فلوريدا: هوارد ألن إنتربرايزيز.

كارلتون بوتنام، 1961. العرق والعقل: عرض يانكي. واشنطن العاصمة: مطبعة الشؤون العامة.

كاترفيدجس أ ديالأنواع البشرية. نيويورك د. ابيلتون كامباني 1879

دوجلاس ديروز، (محرر). 1992. ظهور ديفيد ديوك وسياسة العرقتشابل هيل مطبعة جامعة شمال كارولينا

جيفري تونكينز وجيري بيرجمان 2012تقديرات متطابقة تقريبًا بين الإنسان والشمبانزي تشابهقيم باستخدام البيانات المحذوفة 25 (4) 94-100.

بول توبنارد، 1894. الأنثروبولوجيا. لندن: تشابمان اند هول

ستيفن ترومبلي، 1988. الحق في التكاثر: تاريخ التعقيم القسري. لندن: فيدينفيلد ونيكلسون.

جون تيرنر، 1982كو كلوكس كلان: تاريخ العنصرية والعنف. مونتجمري، أل: مركز قانون الفقر الجنوبي.

هربرت جورج ويلز 1922ملخص التاريخ. نيويورك: كولير.

آدم وايت، 1966. الزنجي... الحيوان أم الإنسان؟ الإسكندرية، فرجينيا: آدم وايت.

روجر جون ويليامز 1953، الحرية وعدم المساواة: الأساس البيولوجي للحرية الفردية. انديانابوليس مطبعة الحرية

ألكساندروينشل، 1978. إثبات من النقص الزنجي. ميتريري أبناء الحرية

ألكساندروينشل، وروبرت بيرناسكوني. قبل الأدمية. بريستول، إنجلترامطبعة ثوميس 2002

تيك وايز، 2003. خدعة بيضاء كبيرة: الرد على ديفيد ديوك وسياسة القومية. سياتل، واشنطن: تحالف الشمال الغربي من أجل كرامة الإنسان.

مايكل زاتارين 1990 – ديفيد ديوك تطور رجال كلان جرينتا ال ايه مطبعة بيليكان



# الفصل التاسع

## استغلال غير الغربيين كدليل على التطور

### مقدمة

اسْتُغِل الأفارقة وغيرهم من غير الغربيين في السيرك والعروض الغربية لعقود بصفتهم دليلًا على نظرية التطور. لأكثر من قرن كانت هذه العروض نقطة جذب رئيسة في العديد من المعارض والعروض الجانبية. ربما أثّرت على ملايين الأشخاص لقبول الاعتقاد بأن البشر تطوروا من بعض الرئيسيات الأدني الأقل تطوراً. على الرغم من أن المال كان عادة الدافع الأساسي، إلا أنّ مروجي هذه البرامج حاولوا بشكل مخادع الترويج لفكرة أنّ مختلف الشعوب غير الغربية تعتبر الحلقة المفقودة أو على الأقل بشر بدائيين أقل تطورًا من الغربيين. كان لهذه العروض تأثيرًا كبيرًا على العنصرية وكانت دعمًا هامًا لحركات مثل كو كلوكس كلان. واليوم، نرى هذا التاريخ كمثال كبير على الاستغلال غير الأخلاقي للأقليات.

لعقود من الزمان قامت المعارض الرئيسة أو المتنزهات الترفيهية أو أماكن الجذب الكرنفالية بعرض الأفارقة أو الآسيويين أو الأمريكيين الجنوبيين أو الأستراليين بالإعلان عنهم بوصفهم أنّهم "عرض علمي للبشر البدائيين" أو البرابرة أنصاف البشر "البشر – القرود" أو البربرية "البرجية"، "الرجل القرد" و"المرأة القرد"، أو"الحلقة المفقودة" (بوغدان 1988، 177). عادةً ما كان هؤلاء غير الغربيين "مزينين بشكل متقن" وكانوا يباعون للجمهور باختلاق "مجموعة من الحكايات المبتكرة" عُبِئت جميعًا "ضمن إطار أنثروبولوجي زائف" (بوغدان 1988، 178). "عوامل الجذب هذه أشاعت المفاهيم

الداروينية للتقدم العرقي من "الهمجية" إلى "الحضارة" (ريديل 1999، 140).

ونتيجة جزئية لذلك أنّ الجمهور – من أواخر القرن التاسع عشر إلى أوائل القرن العشرين – كان "مفتونا، أو مدمنًا لعروض البشر البدائيين" (برادفورد وبلوم 1992). وفي الماضي كانت هذه العروض الشعبية – على الأقل بالنسبة للكتلة الجماهيرية – واحدة من الأدلة الأكثر إقناعا بالداروينية (جوردون 1999 وبارسونز 1999). منذ أوائل القرن التاسع عشر وحتى اليوم، زار مئات الملايين من الأشخاص في كافة أنحاء العالم المعارض والسيرك. وكانت المعارض وسيلة ترفيهية رائدة لأكثر من قرن من الزمان وظلت شائعة لبعض الوقت حتى بعد ظهور الرسوم المتحركة (دورانت ودورانت 1957 وبراندا وسبينس 1952). ونتيجة لذلك، تعرض الملايين لهذه البرامج الدعائية الداروينية خلال فترة "يطلق عليها أحيانًا عصر داروين" (ليندفورز 1999، 6).

واستخدمت هذه العروض الأفارقة والأقليات العرقية الأخرى التي شُكّلِت لتظهر في صورة بشر بدائيين بشكل مقنع؛ حلقة الوصل بين البشر والقرود كما تتطلب نظرية داروين (لينفورز 1999). على الرغم من أن المثال الكلاسيكي هو عرض القزم المسمى أوتا بينغا في حديقة حيوان برونكس، لكن هذه الممارسة كانت مستمرة منذ عقود (برادفورد وبلوم 1992، بيرجمان 1993). من المعروف الآن أن كافة هذه "الحلقات المفقودة لداروين" كانت من البشر العاديين من الدول والثقافات غير الغربية. وعادة ما يكونون الأفارقة، ولكن كذلك الآسيويين والأستراليين وسكان جزر الجنوب.

عرض السيرك الشهير بارنوم وبيلي بانتظام عروض البشر التي زعموا أنها على الأقل قدّروا أنّها دليل على نظرية داروين للتطور البشري، أو في أغلب الأحيان وجهت الزائر

بطريقة مخادعة إلى استنتاج أنه دليل سليم على الداروينية (بيرغمان 2002).

صُممت العديد من الإعلانات لهذه المعارض خصيصًا لتلبية فضول الجمهور حول داروين. واستنتج أحد الباحثين أن بارنوم كان خبيرا في التوصل إلى الأنواع الوسيطة المزيفة، وأن "الحلقة المفقودة كانت تخصصه، وأبقى متحفه معبأً بهم سواء من أجل اخراج السلسلة الكبرى للوجود، أو لدعم نظرية التطور، وذلك بعد عام 1859 عند ظهور أصل الأنواع لداروين" (بلوم 1999، 190). ولاحظ كونهاردت وآخرون أهمية هذه العروض عند تدوينهم تاريخ بي. تي. بارنوم.




**عرض بارنوم وبيلي الأعظم على وجه الأرض!! مع أصغرجل على قيد الحياة و"عملاق الكونغو"**

ربما كان أهم عرض قدمه بارنوم في حياته المهنية بالكامل هو "ملتقي الأمم العرقي الكبير" المكون من "القبائل" الأصلية من كافة أنحاء العالم. وكان يخطط لمثل هذا التجمع منذ عام 1860 عل الأقل – وربما منذ عام 1851-. وفي 1880 وما بعدها، أراد أن يعرض أكثر عن "الأجناس غير المتحضرة." كتب في أغسطس 1882 "أنا أرغب في مجموعة من أزواج أو غير ذلك من كافة الأجناس غير المتحضرة في الوجود". وبتوظيف عملاء في كل قارة، في النهاية بدأ المشروع في تقديم "العينات" التي طال انتظارها من الزولو والبولينزيين والنوبيين والهندوس وهنود التودا والأفغان والأبورجينين الأستراليين وهنود السو واللابيين (الساميين)[1]. هذا الشئ لم يُرَ له مثيل من قبل في أميركا أو في أي مكان آخر. كان الافتتان العام بمؤتمر "بارنوم" شديدًا. وخصوصًا الجماهير البيضاء الذين صاحوا في سخرية من الكائنات "المتدنية" المعروضة. لخصت جريدة شيكاغو تريبيون مواقف الأمريكيين من خلال وصف السكان الأبورجينين الأستراليين بأن لهم "بشرة سوداء فاحمة" و"ملامح غوريلية" (1995، 296).

العديد من العروض "العلمية" زادت من المشكلة. على سبيل المثال: عرض "القرى الأصلية" في المعرض الكولومبي 1893 في شيكاغو "ألهم السيرك لتوسيع عروضه حول أهل القبائل" (بوغدان 1988، 185). أحد المؤشرات على ارتفاع مستوى شعبية

(1) الزولو: مجموعة من القبائل الافريقية اشتهرت بأنها الأقوى. يسكنون جنوب أفريقيا. – البولينزيون: سكان جزر بولينزيا؛ وهي مجموعة من الجزر في المحيط الهادي. – النوبيون: هم سكان شمال السودان وجنوب مصر. تودا: قبائل تعيش جنوب الهند. - قبائل السو: هم السكان الأصليون للولايات المتحدة. وقد قادوا الكثير من حركات التمرد ضد الأوروبيين لكنها باءت بالفشل. أشهر زعمائهم هو "الثور الجالس" الذي يعد أخطر المتمردين. – اللابيون أو الساميون: هم الاسكندنافيون -سكان المناطق الشمالية لأوروبا التي تمثل الآن السويد والنرويج وفنلندا-.(الناشر)

عروض "البشر البدائيين" هو المعرض العالمي لعام 1917. حصلت عروض الأنثروبولوجيا حول الإنسان "البدائي" في هذا المعرض على 40٪ من كافة التقارير الصحفية. "الطبيعة الحيوانية" للأفارقة كانت السمة التي اعْتُقِد أنها تضعهم "بعيداً عن أنواع البشر الأخرى الأكثر عقلانية" (ليندفورز 1983، 8). هذا المعرض - كما فعل الكثير من المعارض غيره - عرض مجموعة من الأقزام - ويبين "السجل التاريخي أن الأقزام كانوا مطلوبين بشكل كبير من قديم الازل" (برادفورد وبلوم 1992، 18).

وعلى مدار عدة عقود، كان يُعتقد حتى من قِبل بعض "الخبراء"، أنّ الأقزام كانوا نوعًا من القرود" (برادفورد وبلوم 1992، 20). الأقزام "بالكاد يشبهون البشر ... ليسوا أكثر ذكاءً من بابون مُدرّب على دراجة" (غرين 1999، 172). و"كانوا موضوع بحث ونقاش من قبل علماء الإثنولوجي في الأوساط المتعلمة" (بوغدان 1988، 188). كثير من هؤلاء الأشخاص البدائيين - كما ادّعى كذبًا رجل العروض - لم يكن لديهم لغة معترف بها، ولا حالة اجتماعية، وعاشوا مثل الحيوانات. وفي الواقع كان الأقزام "بطرق عديدة أفضل من الأشخاص الأوروبيين العاديين"؛ كانوا يحترمون الممتلكات و" القتل والسرقة والجنس قبل الزواج كانوا غير معروفين بالنسبة لهم تقريبًا" (مارشاند 2003، 300).

وبالمثل، تم تسويق أشخاص آخرين من أفريقيا (مثل قبيلة الزولو) على أنهم "مخلوقات أشباه قرود" و"أفارقة همجيين" (بوغدان، 1988، 187). كان كثيرًا ما يُعرض الهوتنتوت ويُسَوّقون على أنّهم "أمثلة على أكثر البشر بدائية في العالم" (بوغدان 1988، 187). وكثيرًا ما زعمت الإعلانات اليومية أنّه من وجهة نظر تطورية، كان الأفارقة أقرب إلى القرود منهم إلى البشر. لم يدّعوا صراحة - في كثير من الأحيان - أن الزنوج

هم الحلقة المفقودة، بل يستخدمون عبارات أخرى مثل: " لايسعنا إلا أن نتساءل عما إذا" كان الأفارقة "حلقة داروين المفقودة" (بوغدان 1988، 192).

اعتُبِر العديد من الأعراق الأخرى أيضًا أقل تطوراً من البيض؛ "روابط" حية مع ماضي التطور البشري. توافد الناس لرؤية هؤلاء "القردة" في المعارض حتى دحض العلماء تمامًا أفكار تحسين النسل حول الدونية الإنسانية العرقية وحركة تحسين النسل كلها. وقد أوضح غرين أنه في أسبوع واحد "كان أكثر من عشرة آلاف بريطاني يتسلّون بالأقزام الكونغولية" (1999، 174). كان عمل ترنبول في خمسينيات القرن العشرين فقط هو السبب في الفهم الصحيح أن الأقزام بشر، ودَحَض تمامًا ونهائيًا الاستنتاج القائل بإنهم كانوا "البشر - القرود" (ترنبول 1968).

كانت كتابات داروين حاسمة في انتشار وجهة النظر القائلة بأنّ البشر تطوروا من بعض الأسلاف أشباه القرود. كان عمله كذلك دافع هام للغاية لاستغلال غير الغربيين في عروض غريبي الأطوار. على سبيل المثال، دعّمت كتابات داروين استنتاج "أن بعض أنواع البشر أقرب إلى أسلافهم البدائيين من غيرهم" (بوغدان 1988، 249). خصص داروين فصلاً كاملاً للأشخاص "البدائيين" في كتابه "مجلة الباحثين" (يعرف الآن باسم "رحلة البيجل") الذي صدر عام 1839. ادّعى فيه أنهم كانوا بدائيين إلى درجة أنه "عندما يتعرضون للضغط في الشتاء بسبب الجوع يقتلون ويفترسون نساءهم قبل أن يقتلوا كلابهم" (1839، 214).

بعد فترة وجيزة من مناقشة موضوع التطور للنقاش على نطاق واسع (وقبوله إلى حد كبير بعد ذلك) بسبب عمل داروين: ازدادت أعداد وأنواع تواتر عروض "غريبي

الأطوار" بشكل مطرد (روتفلز 1996، 164). تحت عنوان "البحث عن أسلاف الإنسان" أشار سميث وآخرون أنه بعد داروين "كان علماء الأنثروبولوجيا وعامة العلمانيين مهتمين جدًا بإمكانية العثور على حلقات أخرى لأسلاف الإنسان، سواء كانت ميتة أو حية" (1931، 20).

لقد كان يمكن للناس - من خلال هذه العروض - رؤية بشر يشبهون إلى حد الكبير البشر بعد فترة قصيرة من "تركهم القرود وراءهم" (روتفلز 1996، 164). استخدمت القبائل أشباه القرود كدليل على التطور قبل أن ينشر داروين عمله الكلاسيكي "أصل الأنواع"، لكن الكثير من الأشخاص - على الأقل حتى منتصف القرن التاسع عشر - كانوا يعتقدون أن دونية الأفارقة كانت بسبب البيئة (ايرلمان 1999، 112 وفيدلير 1978، 240). استُغلت بعض مجموعات عرقية محددة قبل عصر داروين، ولكن المشكلة أصبحت أكثر سوءًا بعد أن تمّ نشر التطور من قبل علماء (مثل إيراسموس داروين في أوائل القرن التاسع عشر) وكُتّاب (مثل روبرت تشامبرز في أربعينيات القرن التاسع عشر).

على الرغم من أنه كان معروفًا على نطاق واسع في زمن ما قبل داروين أن العديد من البشر الذين عاشوا في ظروف بدائية أو غير حضارية، ما زالوا يُعدّون كائنات نبيلة خُلقت بواسطة إله مُحب (سنيجروفيتش 1999). تغير كل هذا بمجرد اعتناق الجماهير للداروينية. وبمجرد أنّ قُبلت فكرة أنّ البشر تطوروا من أسلاف أدنى على نطاق واسع، أصبح هؤلاء الهمج ليسوا بشرًا يعيشون في ظروف بدائية، بل مخلوقات بدائية بيولوجيًا أقل تطوراً من الغربيين.

كان يعتقد أن بعض الأجناس (مثل هوتينتوس) هي "الحلقة المفقودة" بين البشر والحيوانات (ستروثر 1999، 10) عندما أصبح البشر "مجرد قرود متحولة" - كنتيجة للداروينية - يمكننا أن نتوقع العثور على بعض البشر الذين ما زالوا يتحولون ويتطورون (سنيجروفيتش 1999). حتى أن بعض الدارونيين زعموا أن "الزنوج كانوا نتيجة للتزاوج المتبادل بين البشر والسياميين" (فيدلر 1978، 240). وفُسر الدافع وراء عرض غير الغربيين في المعارض على النحو التالي: "مع اكتشافات مثيرة مثل اكتشاف الإنسان البدائي - أحد أهم غريبي الأطوار في كل العصور - في كهف خارج دوسلدورف في 1856، والأهم من ذلك نشر أصل الأنواع لتشارلز داروين في عام 1859، والذي استقبله العلماء الألمان بفارغ الصبر؛ لاقت فكرة التطور رواجًا على المستوى العلمي والشعبي في ألمانيا على عكس ردود الفعل في البلدان الغربية الأخرى. أصبحت قطاعات واسعة من العامة والجمهور العلمي مفتونة بما اقترحته نظرية الانتقاء الطبيعي حول تطور الإنسان من الأنواع غير البشرية، وكدلك مع ما ينطوي عليه عن أصل الأجناس والثقافات. بتذكر تسارع الاهتمام بالنظرية التطورية في ألمانيا، صرح عالم الأنثروبولوجيا كارل ستراتز في عام 1904 بأنّ: "تم فحص الأجناس البشرية البدائية المختلفة لتشابهها مع القرود، وجمعت قائمة بخصائص البشر (أشباه القرود)، وجرى البحث بعد ذلك بحماس عن الحلقة المفقودة - آخر رابط حلقة بين الإنسان والقرد - " (روثفلز1996، 162).

لم يختاروا الرجال والنساء لهذه العروض فقط لجانب المظهر، بل دربوا في كثير من الأحيان على أداء الأدوار كذلك - على سبيل المثال، أخبروهم بكيفية التصرف وكثيراً ما أعطوهم دعائم مثل عصى للتعكز عليها مما يدل على أنه ليس من عادتهم المشي على قدمين ولكنهم يتحركون مثل القرود. وكان بعضهم يرتدون مآزر فقط، وكانوا يُدرَّسون "لغة الأدغال" - مع همهمات بشعة - لمساعدتهم على أداء التمثيلية الداروينية الهزلية، الرجل القرد. كان العديد من الممثلين جيدين وأقنعوا الملايين بالاعتقاد أنهم كانوا في الواقع من البشر القردة (كوك 1996).

على الرغم من أن غالبيتهم كانوا أدنى من الذكاء العادي، فقد تعلموا كيف يتصرفون بغباء (وكان عليهم أن يكونوا ممثلين جيدين لجذب الحشود اللازمة لكسب المال). شمل التشويه الشائع لثقافتهم المزاعم بأنهم كانوا من أكلة لحوم البشر الذين مارسوا تعدد الزوجات، صيد الرؤوس أو التضحيات بالبشر، وأكلوا القوارض والحشرات والأوساخ. وكان هناك بعض "الأكاذيب والإدعاءات الزائدة والمبالغ فيها" الأخرى الشائعة (بوغدان 1988، 107). كان توظيف هؤلاء "الممثلون الزولو" "سهل ورخيص وكانوا متعاونين" (بوغدان 1988، 176). بعد القبول الواسع النطاق للداروينية حدث إرتفاع سريع في استغلال الأجناس الأجنبية وذلك لم يكن متوقعًا: "أعطى التنظير التطوري لداروين فرصة لتكهنات أكثر تشدداً حول طبيعة الوسيط بين "الإنسان" والقرد في الخيال الاجتماعي الفرنسي. وقد انتشرت معارض مثل (الرجال والنساء القردة) وأنواع مختلفة أخرى من الوسطاء والبدائيين في المعارض والكرنفالات وغيرها من

أمـاكن الترفيـه الشـعبي مثـل قاعـات الموسـيقى والمقـاهي والحفـلات الموسـيقية. التقـارير والمقـالات الصـحفية، والأعمـال الأدبيـة والدراميـة، هجـت وسـخرت وبطريقـة أخـرى خمّنت الوسيط المحتمل بين "الإنسان" والقرد (سنيجروفيتش 1999، 57).

سبقت "أطفـال الأزتـك"[1] وغيرهـا مـن العـروض في أوائـل الخمسينات مـن القـرن العشرين الانتشار الواسع للتطور، لكن بعد ذلك أصبحت الداروينية عاملًا رئيسيًا في اعتبار مجموعة كبيرة من الأفراد على أنهم غريبي الأطوار (روثفلز 1996، 162). مثال ذكره روثفلز (ناقشه داروين كذلك في كتاباته الكلاسيكية): هو شعب تييرا ديل فويغو[2].

استنتج روثفلز ما يلي: "يقدم معرض "تييرا ديل فويغو" حالة كلاسيكية. حيث جلس "الفويغـان" بهـدوء، ومشـوا في الأرض، وأعـدوا طعـامهم علـى النـار مباشـرة دون استخدام الأواني. الجمهور - على الرغم من الملل الظاهرة على هـذه الأنشطة - كـان متحمسا بشكل مذهل. في باريس، زار أكثر من 50000 شخص هذا العرض في أحد أيام الآحـاد. وفي حدائق الحيوانـات في برلين، "من أجل تجنب المشهد الوحشي المبكر من تـدافع الجمهور، كـان هنـاك مسرح كبير ارتفاعه حوالي أربعة أقدام مُشيد وموضـوع فوقه الفويجيان". أغلب العامة كانوا أكثر من راضين بمجرد التحديق في هؤلاء "البشر البدائيين" (1996، 164)

---

(1) الأزتك: هم السكان الأصليين للمكسيك قبل الغزو الإسباني. كان للأزتك حضارة كبيرة، بنوا مدن كبيرة، ووضعوا أنظمة اجتماعية وسياسية ودينية. كانت عاصمتهم تينوتشتيتلان (مكسيكو ستي) حاليًا أكبر مدينة في العالم تقريبًا وقت الغزو الأسباني. (الناشر)

(2) أرض النار: مجموعة جزر في أقصى جنوب أميركا الجنوبية بين المحيط الأطلسي والهادي ويمثل الآن الأرجنتين وتشيلي.(الناشر)

بعض الأمريكيين - الذين تنكروا في صورة أفارقة في المعارض - كانوا فيما بعد يكشفون عن طبيعتهم المتحضرة (سنيجروفيتش 1999، 59 وكيلينجراي وهندرسون 1999) ويدعي ليندفورز أن "العديد" من "المؤدين" الزولو كانوا يومًا ما محتالين (1983، 11). على الرغم من ذلك، فإن هؤلاء "المتوحشين المزيفين" كانوا بنفس القدر من الزيف كهمجي حقيقي يُمثل كونه حلقة داروين بين الإنسان والقرد. واستشهد بوغدان بعدة حالات لأمريكيين مولودين في الولايات المتحدة والذين تم تقديمهم كأجانب. على سبيل المثال: الأقزام في ولاية أوهايو الذين زُعِمَ أنم من بورنيو، الأسود طويل القامة من شمال كارولينا الذي زُعم أنه من داهومي[1]، و"الأفارقة الأصليين" - والذين كانوا في الواقع سود البشرة - الذين جئ بهم من قاعات لعب البلياردو في شيكاغو (1988، 107-196).

داهومي: مملكة أفريقية تاريخية تمثلها حاليًا دولة بنين.

مثال آخر: عندما كان يتم طي شعر الأزتك إلى الأعلى وربطه في صورة قنزعات للتأكيد على أنّ رؤوسهم صغيرة وكثيرًا ما كان يتم تصويريهم من الجانب لعرض "جباههم المنحدرة التي تشبه القردة" وأنوفهم (سنيجروفيتش 1999، 58). وارتدى الأشخاص في العديد من المعروضات سراويل قصيرة من جلد النمر أو ملابس مماثلة لتبدو أكثر بدائية وأكثر شبهاً بالحيوان (بيكوك 1999، 97). قام قسم الماكياج بعمل جيد لدرجة أن بعض الأفارقة "بالكاد بدوا بشرًا" (غرين 1999، 172).

(1) بورنيو: هي جزيرة أسياوية كبيرة. مقسمة الآن بين ماليزيا وإندونيسيا وبروناي.(الناشر)

## الأوبانغي: أشباه القردة من الكونغو البلجيكية[1]

وخير مثال على استغلال الأفارقة كانت قبيلة أوبانغي. كان الأوبانغي عبارة عن مجموعة من النساء اللواتي نُقلن من الكونغو البلجيكية لأداء دور حلقة داروين المفقودة في سيرك بارنوم. وللتأكيد على بدائية الأفارقة، كانوا يُعرَضون في كثير من الأحيان شبه عراة، وغالبًا مع القردة وصوت الطبول في الخلفية (بوغدان 1988، 195). إعلانات عرض الأوبانجي ادّعت أنّهم كانوا يعيشون "مثل الحيوانات"، ورائحتهم مثل "رائحة الخنازير"، وعندما يُلقى إليهم الموز -"كما لو أنّهم من الشمبانزي"- كانوا يأكلونه "مثل القرود" (براندا 1952، 245). كان من السهل إطعامهم، حيث كان نظامهم الغذائي يتكون من وجبتين فقط في اليوم "الموز مع البرتقال المقشر، والسمك النيء" (براندا وسبنس 1952، 245). أفاد كل من برادنا وسبينس أنّ: "الأوبانجي كان لهم تأثير السحر، ولم يكن الجمهور يكتفي منهم أبدًا. لقد كان الرجال والنساء يقفون أمامهم فاغري أفواههم لمدة خمس دقائق أثناء العرض، ثم يعودون في العرض التالي لإلقاء نظرة أخرى (1952، 246). لقد زعموا أن نساء قبيلة أوبانجي استقطبت حشودًا أكبر

من أي عرض آخر تم تقديمه في السيرك (1952، 318). وقد استمر عرض الأوبانغي حتى عام 1932 على الأقل (ليندفورز 1983). لقد كانت شعبية مثل هذه العروض كبيرة لدرجة أنّه: "بحلول القرن التاسع عشر، استضافت غالبية مدن أوروبا معارض الشعوب "الغريبة"، بما في ذلك العرض التقليدي لأفارقة جنوب الصحراء الكبرى والمور والساميين وشعوب العالم القديم الأخرى وكذلك الشعوب الأصلية للعالم

(1) كانت الكونغو مستعمرة بلجيكية من عام 1908 حتى استقلالها عام 1960.(الناشر)

المكتشف حديثًا من الأمريكيين الأصليين وشعوب الإنويت وسكان جزر بحر الجنوب[1]. في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ازداد تنوع وعدد برامج الشعوب "الغريبة" جدًا، ومن بين المعارض الأكثر شعبية في النصف الأخير من ذلك القرن في ألمانيا كانت تلك التي ركزت على الشعوب "البدائية"، الذين - مثل "كراو"[2]- لغرابة أطوارهم يمكن أن يمثّلوا السلف التطوري للأوروبيين (روثفلز 1996، 164).

## تأثير الرجل القرد على الأشخاص العاديين

كانت إحدى الأساطير الهامة المستمدة من الداروينية هي الاعتقاد بأن المخلوقات الوسيطة بين الإنسان والإنثوبويدات يجب أن تكون موجودة. وترتبط هذه الفكرة بفكرة التراجع أي أنّ نسلنا (أو نسل أبنائنا) قد يعودوا إلى المخلوقات دون البشرية التي كانت موجدة ذات يوم في الماضي البعيد (فيدلر 1978، 241).

وفقًا لتعبير أوديل: "كان العالم يستعد تدريجيًا لداروين، ويفحصه من خلال بارنوم" (1931، 413). معارض الإنسان - القرد هذه بلا شك مثيرة للإعجاب ومقنعة للغاية بالنسبة للجماهير الكبيرة الساذجة وغير المتعلمة الذين شاهدوها بانتظام. وإلا، فلماذا يتدفق الملايين لمشاهدة العروض بسعر لم يكن رخيصًا في تلك الأيام؟ كم من

(1) 1- أفارقة جنوب الصحراء الكبرى: هم الزنوج سكان جنوب القارة الأفريقية. – المور: البربر سكان شمال أفرقيا (المغرب العربي). – الإنويت: شعوب الإسكيمو الذين يسكنون السواحل الشمالية لأميركا الشمالية وشمال شرق سيبريا، ويتميزون ببشرة سمراء نسبيًا. – سكان جزر بحر الجنوب: هم من نسل الإستراليين، يعيشون في الجزر الموجودة في بحر الجنوب غرب المحيط الهادي.(الناشر)

(2) كراو: مؤدية عروض أمريكية، ولدت بمتلازمة فرط الشعر –معدل غير طبيعي لنمو الشعر في الجسم- مما جعلها مناسبة لـ "عروض غريبي الأطوار" في أوروبا وأميركا.(الناشر)

مئات الملايين من الأشخاص زاروا معارض "الإنسان - القرد" ونتيجة لذلك أصبحوا مقتنعين بأن الداروينية كانت صحيحة. من المعروف أنّ هذه البرامج "تركت انطباعًا دائمًا" عند عدد كبير من الأشخاص (بونديسون 1997، 217).

هذه المعارض لم تكن فقط تجرد من الإنسانية بشكل سافر، كانت غير شريفة كذلك، لأنّ العارضين تقريبًا في كافة الحالات ضللوا الجمهور بخداع من خلال معارضهم إما لإثبات نظرية داروين للتطور، أو في بعض الأحيان على شكل تراجعات تطورية تسمى التأسل الرجعي. غالبية (البشر - القرود) كانوا يصنفون بشرًا عاديين حتى في القرن التاسع عشر (غولد وبيل 1896).

لم يكن الدافع الرئيسي للسيرك والعارضين هو إثبات التطور، وفي الواقع وفي العديد من الحالات (بل غالبيتها) كانوا يعلمون أن عروضهم كانت بشرية بالكامل. كان الدافع الرئيسي في غالبية الحالات هو الدافع المالي إلى حد كبير حيث كانت "مشروعًا كبيرًا" مكن الكثير من الأشخاص من أن يصبحوا أغنياء (بوغدان 1988، 198). ومع ذلك، كانت النتيجة النهائية هي المساعدة في إقناع عامة الأشخاص بحقيقة الداروينية مما جعلها عاملاً آخر مؤثر في التحول السريع لشرائح واسعة من السكان إلى الاعتقاد بالتطور الداروينى.

## الاعتراضات الشائعة على المعارض

أحد أكثر الاعتراضات الشائعة على المعارض، كان قلق رجال الدين تحديدًا من أنّه يمكن أن يجعل الناس يتساءلون عن الأصل الإلهي للحياة. هناك اعتراضات محددة تضمنت الاعتقاد بأنها يمكن أن تجعل بعض الجمهور يشك في أنّ "الحياة كانت نتيجة

"شرارة الخلق الإلهية"، بالإضافة إلى ذلك، فإنّ الحياة البشرية وُهَبت مميزات خاصة من عند الله مثل العقل والإبداع والكلام" (سينجروفيتش 1999، 62).

وبطبيعة الحال، كان هذا الاعتراض صحيحًا تمامًا لأن العروض ساعدت على إقناع أعداد كبيرة من الأشخاص بالداروينية، وقبول (أو تعزيز) العنصرية كذلك. كانت عروض غريبي الأطوار "مصاحبة لظهور حركة تحسين النسل وهي استخدام خبيث للداروينية الاجتماعية التي حذرت الأمة من أن حماية المجتمعات الحديثة لضعفائها سيعطل عمل مبدأ البقاء للأصلح" (بوغدان 1988، 62).

وقد اعترض كثير من الأشخاص على هذه العروض لأن المعارض كانت في كثير من الأحيان مضللة، وحاولت عمدًا ترك إنطباع بأن هؤلاء الأفراد كانوا أقل من البشر ويُشاهدون مثل الحيوانات في حديقة الحيوان. وقد أدرك العديد من الأشخاص أن العروض لا تسهم في العنصرية فحسب، بل كذلك في العنف وخاصة ضد السود.

## غالبية العلماء التزموا الصمت

بشكل عام "جعل العلماء تعليقاتهم قاصرة على معارض محددة، بوصفها و التأكيد على أهميتها العلمية" (بوغدان 1988، 64). أدرك بعض العلماء أن العديد من هذه المعارض مضللة على أحسن تقدير. بالرغم من أنّ داروين خلص إلى أنّ الفويجيين "هم أدنى الأنواع البشرية المكتشفة حتى الآن"، إلا أنّ علماء آخرين - مثل عالم الأنثروبولوجيا الألماني رودولف فيرشو - أدركوا



صورة غير مؤرخة لعالم الأنثروبولوجيا الألماني رودولف فيرشو

أنّ هذه المجموعات العرقية لا تمثل أيًّا من "أشكال المرحلة الانتقالية بين القرود والبشر" (روثفلز 1996، 165). الرؤية اللاحقة لم تتجه لمساعدة مشروع الإنسان القرد، كما أنّها لم تدعم الداروينية، لذلك تم تجاهلها بقدر الإمكان.

"التصور الشائع ... التصور المتأصل في الطريقة التي عُرض بها "الهمجيون" على أنهم غريبو الأطوار التي كانت تميل إلى التركيز على الاختلافات العميقة بينهم وبين الأوروبيين" (روثفلز 1996، 165). وبالتالي، كانت وجهات نظر العلماء مثل فيرتشو عادة صامتة (أو مُسكتة). فقد قال كارليون عن رجل العروض - دان ايس - إن "العنصرية في ذلك اليوم اشتملت على الفئات العنصرية "الداكنة" التي يصحب تحديدها فهي ليست بالأبيض ولا الأسود ولا الملون"، ولم تساعد متاحف تلك الأيام في توضيح الأمر.

كان من بين العناصر الهامة في المتحف قاعة المحاضرات التي جعلت ادعاء التعليم واضحًا. بالرغم من أنّ مزيج المعالم الجاذبة في المتحف كانت تبدو غير علمية إلا أنّها لم تكن عبثية. جاء عالم الطبيعة الشهير وأستاذ جامعة هارفارد - لويس أجاسيز - إلى نيو أورلينز، وفي نفس الموسم وللأسباب ذاتها جاء د. كوش، لإلقاء محاضرة حول التاريخ الطبيعي للمواطنين الفضوليين. ربّما كان البشر الوحشيون في بورنيو عبيدًا - كما كان العديد من "المواطنين الأصليين" الذين عُرضوا، وربّما كان الزيوغلادون[1] مزيفًا، ولكن نظرًا لأن البشر حولوا نظرهم إلى البحار الهادئة أو إلى عصور ما قبل التاريخ، فإنّه كان يجري تجهيز القواعد الأساسية لعمل علماء الأنثروبولوجيا، ولأفكار داروين (2001، 154-155). عادة ما

---

(1) 1- أحد أنواع الحيتان القديمة التي عاشت من ملايين السنين، وجدت أول حفرية له في الولايات المتحدة وأجريت عليها العديد من الدراسات حول التطور. (الناشر)

كانت الصحافة الأكاديمية تتجاهل مشكلة استغلال غير الغربيين، ونادرًا ما كان يتم انتقاد أو معارضة الأذى الذي تسببت فيه عروض "الإنسان – القرد". في كثير من الأحيان تم استغلال غير الغربيين من قبل الداروينيين أنفسهم لتوثيق قضيتهم حتى في ستينيات القرن العشرين (لمثال، انظر كوون 1962). حتى أنّ شتاينيتز اقتبس كلمات داروين في مجلة الباحثين (1839) القائلة بأنّه: "من الصعب اعتبار الفويجيان على أنهم مخلوقات يسكنون العالم ذاته" مثلنا نحن الغربيون. بل بالعكس: "كانوا مخلوقات فجة ومخيفة لطخوا وجوههم القبيحة بالطلاء" (اقتبس من روثفيلز 1996، 165). لا شك أن كتابات داروين وغيره ممن لديهم أفكار مشابهة (بمن فيهم ابن عمه فرانسيس جالتون) ساهمت في "الإبادة الجماعية بإطلاق النار" في وقت لاحق "عندما كان المستوطنون الأوروبيون يطاردون الفويجيان بلا رحمة" (هازيلوود 2000، 12 والتوضيح ص 273). يضيف هازيلوود أنّ قصة تييرا ديل فويجو تمّ قصها مرات عديدة من قبل العديد من الكتاب بمن فيهم داروين، ولكن في كل هذه القصص: لم يرد ذكر الفويجيان إلا على اعتبارهم بِدع وأشخاص غريبي الأطوار، أو مضايقات وعقبات أمام تقدم الإنسان الأبيض وحضارته. بالنسبة لغالبية الأوروبيين والأمريكيين الشماليين الذين غامروا بزيارة هذه الأجزاء فقد كانوا مجموعة متوحشة وبائسة من الهمجيين والملحدين الخارجين عن القانون الذين عاشوا في بؤس؛ كما يقول داروين: "كانت من أكثر المخلوقات – التي رأيتها في أي مكان – حقارةً وبؤسًا"، وبالتالي فهي كائنات لا تستحق أن يكون لها تاريخ. وفي النهاية وعندما بدأ يُسمع لهم كما في سجلات مركز مهمات أوشوايا، الذي أنشئ في 1870، كان الأمر متأخرا للغاية. والأكثر مأساوية – وفقا للمؤرخين وعلماء الأنثروبولوجيا وعلماء الآثار والاثنوغرافيين الذين لديهم منهج مختلف

وأكثر تعاطفاً مع السكان الأصليين الذين وصلوا إلى المشهد - لم يكن هناك أحد تقريباً للدراسة. قُضي على جزء كبير من تاريخ شعوب الفويغو في حرب الإبادة الجماعية بإطلاق النار، وانتشار الأمراض الغربية (2000، 12).

أُدرجت أفكار داروين لعلم تحسين النسل (وأتباعه) في كتب النصوص الرئيسة في أواخر عام 1962 (كوون 1962). كان لحركة الحقوق المدنية تأثير كبير في إنهاء استغلال الأجناس غير البيضاء خاصة الأفريقية منها. مثل هذه العروض لا يمكن تصورها في العالم الغربي اليوم. لا يمكن لهذا التنوير الجديد أن يغير حقيقة أن "نظرية التطوّر" دفعت على مدى عقود إلى البحث عن أفراد مثل "كراو"، بل حتى شعوب بأكملها مثل "الفويجيان"، الذين يمكن أن يُفسَّروا على نحو ما على أنهم يمثلون الحلقات المفقودة في التطور البشري" (روثفلز 1996، 165). ومن المثير للاهتمام أن داروين كان في البداية يَصف الفويجيان بالبشر البدائيين لكنه غير وجهة نظره عنهم لاحقًا، بعد أن أدرك التغيرات التي طرأت على حياتهم بعد تحولهم إلى المسيحية. ونتيجة لهذه التجربة ساهم تشارلز داروين شخصياً في عمل مركز المهمات في تييرا ديل فويغو (هازيلوود 2000).

## الادعاء بأن البشر - الحيوانات هم حلقة داروين المفقودة

عرضت بعض المعارض مخلوقات زُعم أنها ناتجة عن "التهجين بين البشر والحيوانات والتي تتضمن الحلقة البيولوجية" (بوغدان 1988، 106). وكان هناك تفسير شائع آخر بأنّ البشر المعروضين كانوا انتكاسات أو ارتداد لمراحل تطورية سابقة من الجنس البشري (بوغدان 1988، 106). كما أن الحيوانات - ولا سيما الرئيسيات المدربة بما فيها القرود والشمبانزي وإنسان الغاب - وصفها العديد ممن في السيرك والعروض بأنهم

"روابط مفقودة" بين الحيوانات والبشر. على سبيل المثال، في أربعينيات القرن التاسع عشر عرض بارنوم - في معرض شهير للغاية - إنسان الغاب العادي على أنّه "الرابط بين الإنسان والحيوان" (ساكسون 1989، 98). يحكي كونهاردت وآخرون قصة إحدى الرئيسيات التي أصبحت "حلقة مفقودة" شهيرة: "في عام 1846 اشترى بارنوم "إنسانة الغاب الوحيدة على قيد الحياة في إنجلترا أو أميركا الشمالية مقابل 3000 دولار". والتي سميت بالآنسة فاني إيلزلر على اسم راقصة الباليه الرائعة فاني إيلزلر. روّج بارنوم للحيوان على أنه حلقة مفقودة محتملة. وذكرت إحدى الصحف أن "أفعالها وصوتها أثناء الضحك والبكاء تقترب نوعًا ما من الأنواع البشرية". "فقد كانت يديها ووجهها وأقدامها بيضاء ناصعة وتمتلك بشرة ناعمة مثل أي طفل حي" (1995، 110).

## ملخص

استغل الدجالون لسنوات عديدة غير الغربيين باعتبارهم "حلقة داروين المفقودة" من أجل الربح والترفيه. لقد أظهر مروجي هذه البرامج بصورة مخادعة في كثير من الأحيان العديد من غير الغربيين على أنهم الحلقات المفقودة، أو على الأقل شعوب بدائية وأقل تطورًا مقارنة بالغربيين. أُستغل الأفارقة وغير الغربيين الآخرين في العروض الجانبية لأكثر من قرن كدليل على الداروينية. كانت هذه العروض نقطة جذب رئيسة في العديد من المعارض ومن المحتمل أنها أثرت على ملايين الأشخاص لقبول نظرية تطور البشر من القرود.

وكانت مساهمة هذه العروض في العنصرية والحركات العنصرية مثل كو كلوكس كلان هامة أيضا. فكثير من هؤلاء غير الغربيين "عاشوا حياة بائسة"، استغلوا بشكل

عام وعوملوا بشكل سيء. لكن لم يكن "يهم جمهور ما قبل أربعينيات القرن العشرين الأمريكي؛ فعلى كل حال، هؤلاء المعرضون كانوا أكلة لحوم بشر وهمجيون وبرابرة" (بوغدان 1988، 198-199).



## المراجع


جيري برجمان. 1993 قصة الأقزام العرض في حديقة الحيوان." مجلة جمعية البحوث 30(3) 140-149.

2002- أشباه القردة عند داروين واستغلال البشر المشوهين".تي جي المجلة ا لتقنية 16(3) 116-122.

هارفي بلوم 1999 بيرنيث ليندفورز – المحرر"اوتا بينجا و بارنوم بيربلكس". الأفارقة على المسرح: دراسات في الأعمال الإثنولوجية - بلومنجتون اي امطبعة جامعة انديانا.

روبرت بوجدان 1988عرض غريب. تقديم الشكاوى الإنسانية للتسلية والربح.شيكاغو اي ال مطبعة جامعة شيكاغو.

جان بونديسون1997 مجموعة من الصفات الطبية - قصة غريبة من جوليا باسترانا". إيثاكا، نيويورك: مطبعة جامعة كورنيل. ص. 216-244.

فيليبس فيرنر برادفورد وهارفي بلوم 1992الأقزام في حديقة الحيوان. نيويورك: مطبعة سانت مارتن.

فريد برادنا وهارتزل سبنس1952القمة العظمى: السنوات الأربعون التي قضيتها مع أعظم عرض على الأرض من قبل فريد برادنا كما تم إخباره هارتزل سبينس بما في ذلكقاعة المشاهير في السيرك. نيويورك: سايمون وشوستر.

ديفيد كارليون،2001دان رايس: الرجل الأكثر شهرة لم يسمع به من قبل. نيويورك: مطابع الشؤون العامة.

جيمس دبليو جونيور كوك 1996 "من الرجال – فقدان الروابط - المهنة الغريبة ل بي تي بـارنون" ماهـذا العـرض" ص 138-157 في روزمـاري جارلانـد تومسـون 1996 المرئيات الثقافية للهيئة الاستثنائية. نيويورك: مطبعة جامعة نيويورك.

كارلتون كون 1962 أصل الأعراق. نيويورك: الفريد كنوبف.

تشارلز داروين 1839مجلة الباحثين في الجيولوجيا والتاريخ الطبيعي لمختلف البلدان التي زارها اتس ام اس. بيجل. لندن: هنري كولبورن.

جون ديورانتوأليس ديورانت 1957 التصويرية للسيرك الأمريكي. نيويورك: ايه اس. بارنز.

فيـت إيرلمـان 1999 حـرره بيرنـث ليندفورز" شـهوة الطمـوح": الجوقـة الأفريقيـة في إنجلترا، 1891-1893. "الأفارقة على المسرح: دراسات في الأعمال الإثنولوجية عرض الأعمال.بلومنجتون اي ان مطبعة جامعة انديانا.

ليسلي فيـدلر 1978النزوات: الخرافـات وصـور الـذات السـرية. نيويـورك: سـايمون وشوستر.

روبرت جي جوردون 1999تم تحريره بواسطة برنس ليندفورس رجال "بياان بوش": مشـاهد في معـرض الإمبراطوريـة، 1936. "الأفارقـة علـى المسـرح: دراسـات في عـرض الأعمال الإثنولوجيةبلومنجتون اي ان مطبعة جامعة انديانا.

جورج ام جولد ووالتر ل بيلي 1896 الشذوذ والسمات الطبية – فلاديلفيا بي ايه دبليو بي سونديرز.

جيفيري بي جرين 1999 حرره بيرنـث ليندفورز" الوحي في الإنسـانية الغربيـة: ستة

الأقزام الكونغو في بريطانيا 1905-1907 في الأفارقة على المسرح: دراسات في الأعمال الإثنية عرض الأعمال – بلومنجتون اي ان مطبعة جامعة انديانا.

نيك هازيلوود 2000 – حياة وأوقات جيني باتون – نيويورك سان مارتنز.

ديفيد كلينجري وويلي هندرسون 1999 حرره بيرنث ليندفورز" باتا كينيدي المجوزا ابن لوباجولا و قصة نشأة الأفارقة العبيد: دراسات في عرض الأعمال العرقية: بلومنجتون اي ان مطبعة جامعةانديانا.

فيليب بي جونيور كونهارتد - فيليب ب كونهارتد 3 و بيتر دبليو كونهارتد 1995- بي تي بارنوم أعظم عروض العالم – نيويورك الفريد أ نوب.

بيرنت ليندفورس 1983: السيرك الافريقي: مجلة الثقافة الامريكية 6(2) 9-14.

(محرر)1999الأفارقة على المسرح: دراسات في الأعمال الإثنية عرض الأعمال اي ان بلومنجتونمطبعة جامعة إنديانا. مؤلف كتاب "تشارلز ديكنز وزولوس".

مارشاند2003 اس "الكهنة بين الأقزام: فيلهلم شميدت والإصلاح المضاد للإثنولوجيا في النمسا" في المقاطعات العالمية: الأنثروبولوجيا الألمانية في عصر الإمبراطورية. آن أربور، ام ايمطبعة جامعة ميشيغان.

جورج اودل 1931حوليات نيويورك المرحلة. المجلد. السادس [1850-1857]. نيويورك: مطبعة جامعة كولومبيا.

نيل بارسونز 1999 حررهبيرث ليندفورز كليكو: فرانز تيبوش رجل الترفيه في جنوب أفريقيا في إنجلترا، فرنسا، كوبا، والولايات المتحدة، 1908-1940، "في الأفارقة على المسرح: دراسات في الأعمال الإثنية عرض الأعمال.بلومنجتون اي ان – مطبعة

جامعة انديانا:

شين بيكوك1999 حررهبيرث ليندفورز. "أفريقيا تقابل فاريني العظيم." الأفارقة على المسرح: دراسات في عرض الأعمال الإثنولوجية.، دراسات في الأعمال الإثنية عرض الأعمال.بلومنجتون اي ان – مطبعة جامعة انديانا.

نايجل روثفلز، 1996 "الأزتيك، السكان الأصليون، وشعب القردة: العلوم والنزوات في ألمانيا 1850–1900"، في طومسون 1996.

جيفري بي ريديل 1999 حرره بيرنث ليندفورز" أحلك أفريقيا": عروض إفريقية في المعارض العالمية الأمريكية، 1893–1940، "في الأفارقة على المسرح: دراسات في الأعمال الإثنية عرض الأعمال بلومنجتون اي ان – مطبعة جامعة انديانا.

أيه اتش ساكسون 1989 – الأسطورة والرجل – نيويورك كلومبيا نيويورك: مطبعة جامعة كولومبيا.

جي ايليوت سميث والسير ارثر كيث واف جي بارسونز ام سي وبوكيت هارولد جي ايه بيك و جي ال ميريز 1931 الإنسان المبكر: أصله وتطوره وثقافته. لندن: إرنست بين ليميتد.

ديانا سنيجرولويز1999. "الجنس و السيمانيين و العرض في فرنسا في القرن التاسع عشر؛ أوكيف نخمن وجود "رجل" من قرد. "المجلة الكندية للتاريخ 34: 51—81.

زي اس ستروثر 1999 حرره بيرث ليندفورز. "عرض لهيئة هوتينتوت "في الأفارقة على المسرح: دراسات في الأعمال الإثنية عرض الأعمال بلومنجتون اي ان – مطبعة جامعة انديانا.

روزماري جارلاند طومسون1996: فريكيري العروض الثقافية غير العادية للهيئة.
نيويورك: مطبعة جامعة نيويورك.

كولين تيرنبول1968. سكان الغابة. نيويورك: سايمون وشوستر.



٢

# تأثير داروين

واثره على

النازية - علم تحسين النسل - الوراثة البشرية - التميز العرقي

الشيوعية - الرأسمالية - والتحيز الجنسي


جيري بيرجمان

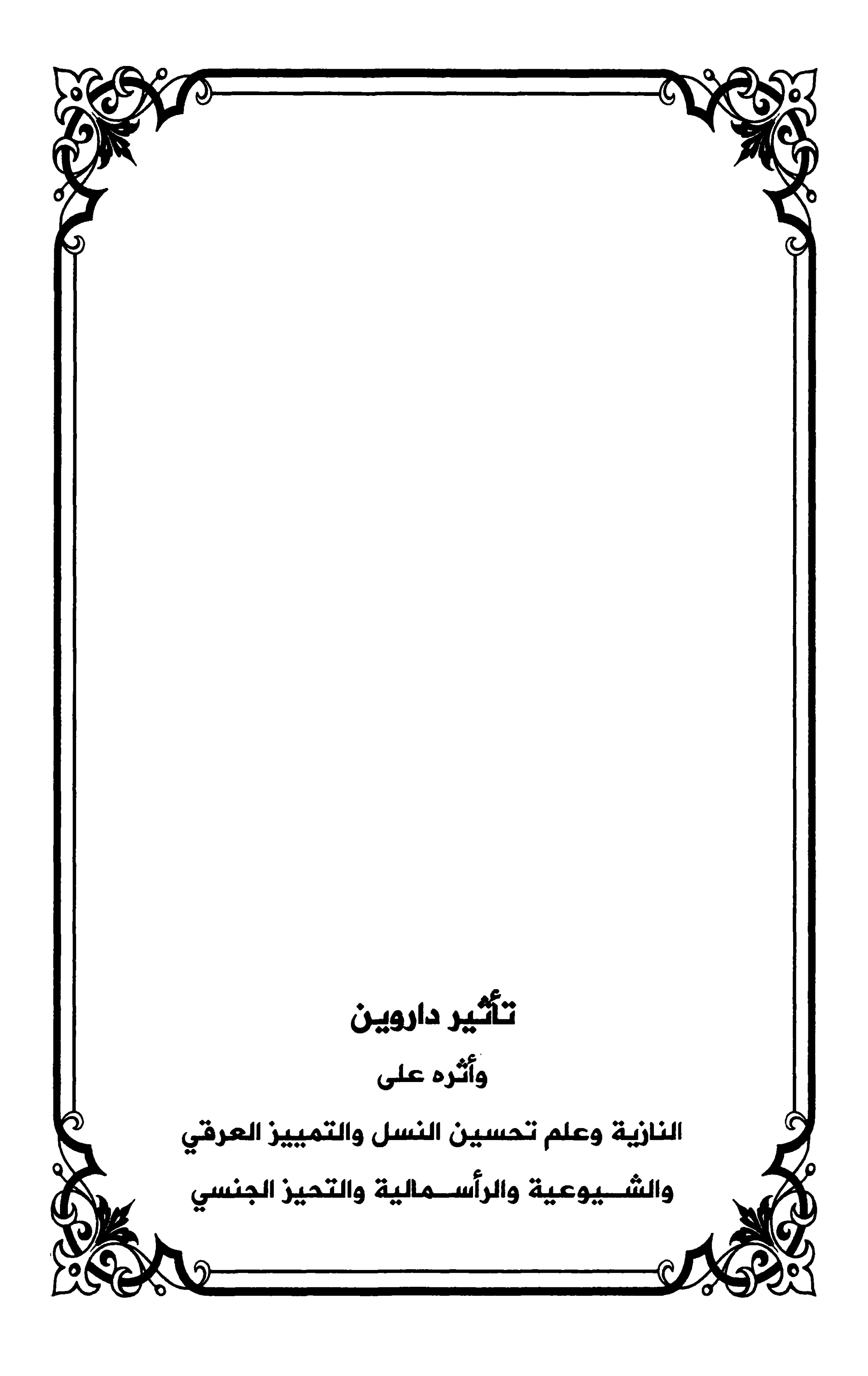
أستاذ علم الأحياء البشرية


ترجمة

القسم العلمي بمركز تبصير




لتقريب التراث
والرد على الشبهات

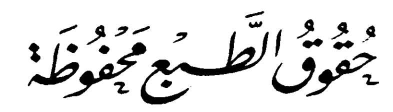


# تأثير داروين

## وأثره على

## النازية وعلم تحسين النسل والتمييز العرقي

## والشيوعية والرأسمالية والتحيز الجنسي






اسم الكتاب: تأثير داروين

اسم المؤلف: جيري بيرجمان

الطبعة: الأولى

مقاس الكتاب: 17 × 24

عدد الصفحات: 292

رقم الإيداع: 26062/ 2018

الترقيم الدولي: 978-977-85457-3-9





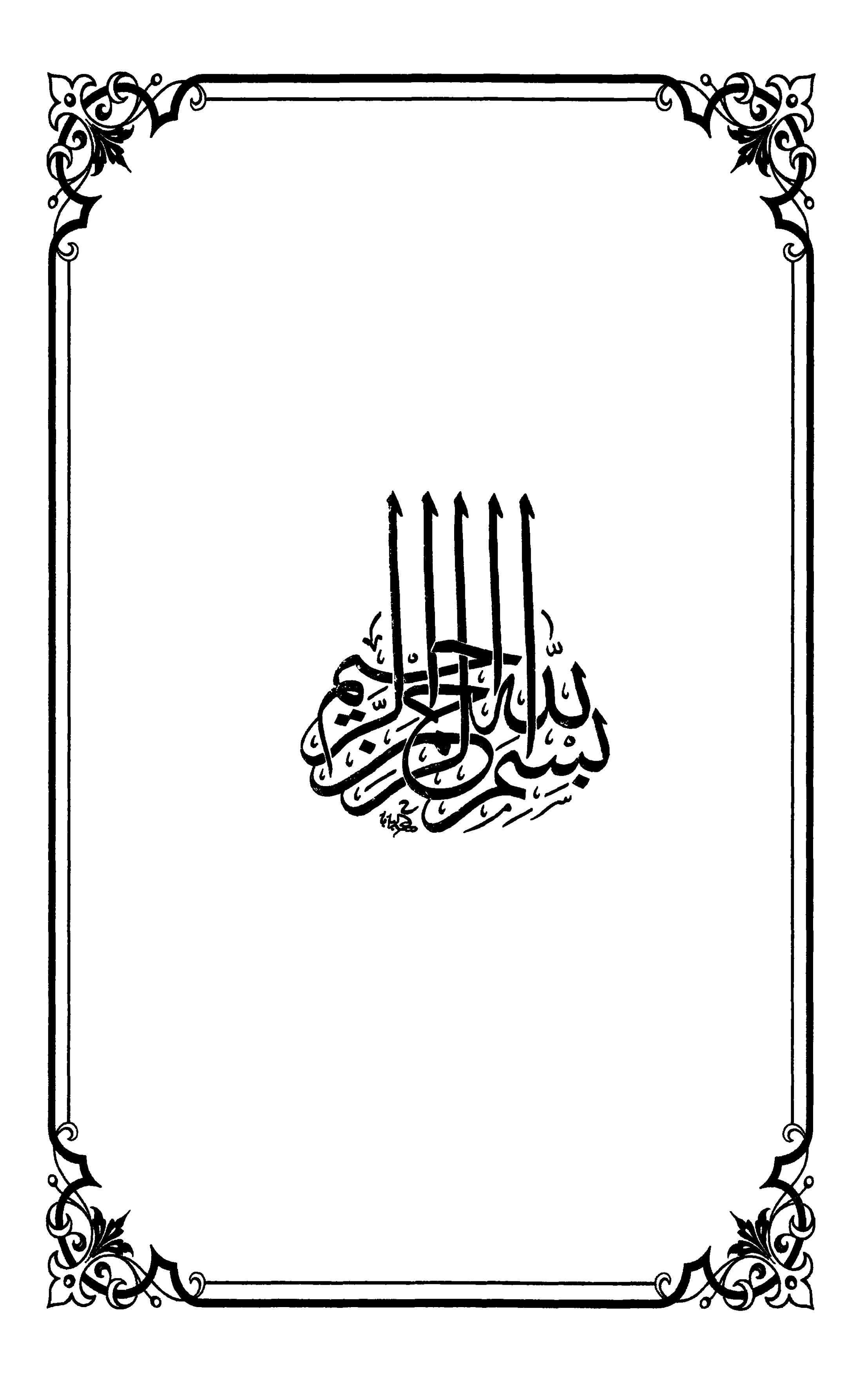



العنوان: ٣ شارع مسجد الفرقان – القناطر الخيرية – القليوبية جمهورية مصر العربية

التليفون: 01019757010 – 01102260020

website: http://tbseir.com twitter: @tabseir Fb: @tbseir

Email: tabseir@gmail.com


بسم الله الرحمن الرحيم

# الفصل العاشر

## أوتا بينجا: القزم الذي عُرض في حديقة الحيوان

أحد أكثر القصص التاريخية إثارة عن الآثار الداروينية هي قصة أوتا بينجا، وهو قزم وُضع للعرض في حديقة حيوان أمريكية كمثال على السلالة المتدنية في أفريقيا من الناحية التطورية. يكشف هذا الحادث بوضوح عن العنصرية المستلهمة من الداروينية ومدى استحواذ النظرية على قلوب وعقول العلماء والصحفيين في أوائل القرن العشرين. وكلما ابتعد البشر عن هذا الوقت من التاريخ، كلما تمكنا من النظر بموضوعية أكثر في بعض الفظائع التي سببتها الداروينية في المجتمع. تعد قصة أوتا بينجا مثالًا مؤثرًا والتي أصدرت اليوم مؤتمرات أكاديمية لدراسة الحالة.



**أوتا بينجا معروض في حديقة حيوان برونكس عام 1906.**

إن وجود الاختلافات الوراثية أمر حتمي عند الداروينية لأنها المصدر الأساسي الوحيد للتغير المطلوب لحدوث التطور. التاريخ والتقاليد لديهم في كثير من الأحيان عواقب مأساوية، وتجمعت الاختلافات البشرية معًا في فئات تسمى الآن الأجناس. تعمل الأجناس كوحدات اختيار تطورية من الأهمية بحيث، كما ذُكر في فصل سابق، تحت العنوان الفرعي لكتاب داروين الأصلي لعام 1859، أصل الأنواع، أنها تحافظ على الأجناس المفضلة في الكفاح من أجل الحياة. كان هذا العمل قاطعًا في إثبات أهمية مبدأ كفاءة العرق، وخاصة مفهوم "البقاء للأصلح". كان السؤال المطروح في أوائل القرن العشرين، "من كان، ومن لم يكن إنسانًا؟" هذا السؤال كان مصدر قلق كبير في أوروبا وأميركا في مطلع القرن.... كان الأوروبيون يسألون هذا السؤال ويجيبون عليه بشأن الأقزام... عادةً متأثرين بالتفسيرات الحالية للداروينية، لذا لم يكن السؤال ببساطة من كان إنسانًا، ولكن من كان أكثر إنسانية، وأخيرًا من هو الأكثر إنسانية، التي كانت تهمهم (برادفورد وبلوم 1992، 29).

أعطت الداروينية الدعم العلمي للاعتقاد بأن بعض الأجناس كانت جسديًا أقرب إلى الرئيسيات الدنيا ولذلك كانوا أدنى. وكانت الرؤية أن السود تطوروا من الغوريلا القوية ولكنها أقل ذكاءً، وتطور الشرق أسيويون من إنسان الغاب، وتطور البيض من الرئيسيات الأكثر ذكاءً، وهو الشمبانزي (كروكشانك 1924). استنتج العديد من أنصار التطور الأوائل أن السود كانوا أقل تطورًا من البيض وأنهم سينقرضوا في النهاية. إن الثمار الناشئة عن التطور، من مفهوم النازيين للتفوق العرقي إلى استخدامه في تطوير السياسة الحكومية، جميعها موثقة جيدًا (ويكارت 2004).

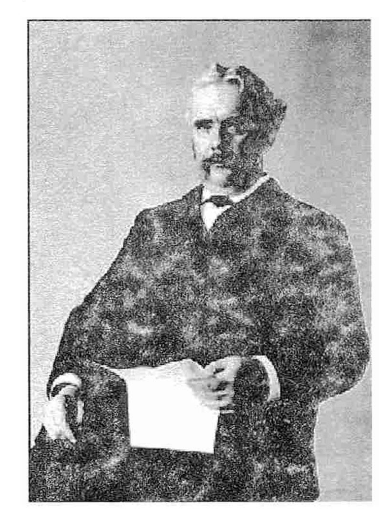
رأى بعض العلماء أن الحل لمشكلة العنصرية في أوائل القرن العشرين في أميركا، هو السماح للانتقاء الطبيعي الدارويني للعمل دون تدخل. لاحظ كل من برادفورد وبلوم أن داروين قام بتعليم أنه "عندما تُترك ل ذاتها، فإن الانتقاء الطبيعي سيؤدي إلى انقراض" السلالات الأدنى. فدون العبودية لاحتضانهم وحمايتهم، أو كما كان يُعتقد، فإن على السود أن يتنافسوا مع القوقازيين من أجل البقاء. والبيض كان لديهم كفاءة أكبر لهذا السباق [كما أعتقد بعد ذلك] بعد النزاع. واختفاء السود كجنس، سيكون فقط مسألة وقت (1992، 40).

أظهر كل تعداد أمريكي جديد أن هذا التنبؤ لداروين كان خطأ، لأنه" لم يظهر أي علامات من التناقص العددي للسكان السود، وربما حتى يكون آخذًا في الارتفاع". ومن غير المضمون" انتظار الاختيار الطبيعي لمعرفة الإجابة، "حاول أحد الذين نالوا رتبة " سيناتور " حتى إنشاء برامج لإقناع – أو حتى إرغام – من هم أمريكيين من أصل أفريقي – للعودة إلى أفريقيا (برادفورد وبليمى 1992، 41).

واحدة من أكثر الحوادث المؤثرة في تاريخ الداروينية والعنصرية هي قصة الرجل الذي عُرض في حديقة الحيوان (بيركس 1992). جلب من الكونغو البلجيكية في عام 1904 من قبل المستكشف الأفريقي صموئيل فيرنر، في نهاية المطاف "قدمه فيرنر إلى برونكس مدير حديقة الحيوان، ويليام هورناداي "(فيرنر ١٩٠٤؛ ١٩٠٤ب؛ ١٩٠٤ج؛ ١٩٠٤ د؛1905؛ سيفاكس 1984، 253). الرجل القزم الذي يدعى أوتا بنجا الملقب ب "باى" التي تعني "صديق" بلغة بنجا الأصلية، ولد عام 1881 في وسط أفريقيا (فيرنر 1904أ). عندما وضع في حديقة الحيوان، كان وزن أوتا البالغ من العمر

23 عامًا والبالغ طوله 11 قدمًا وبطول 11 بوصة، 103 رطل فقط. غالبًا ما يُشار إليه باسم الصبي، كان في الواقع أب وله زوجتين - زوجته الأولى وطفليه قتلوا من قبل المستعمرين البيض، وتوفيت زوجته الثاني من لدغة ثعبان سامة (بريدجز1974).

عُرض أوتا لأول مرة مع الأقزام الآخرين كجزء من عروض "الوحشية الرمزية" في جناح الأنثروبولوجيا في معرض سانت لويس العالمي عام 1904. كان المعرض تحت إشراف ويليام ج. ماكجي من قسم الأنثروبولوجيا في المعرض. كان طموح ماكجي في معرضه "أن يكون علميًا بشكل شامل من خلال شرحه لمراحل التطور البشري".



1900 صورة لويليام ج. ماكجي،الرئيس السابق لجمعية الأنثروبولوجيا الأمريكية

لذلك، فقد احتاج لعرضه الأنثروبولوجي أن يكون به السود مقارنة بالبيض و"أفراد" أقل ثقافة معروفون بالجهل "مقارنة بآخرين أعلى تحضرا" (برادفورد وبلوم 1992، 94- 95).

ومن المفارقات أن البروفيسور فرانز بواس من جامعة كولومبيا "أقرضه" إلى المعرض الأنثروبولوجي. وكان ذلك مفزعاً لأن بواس، وهو يهودي كان من أوائل علماء الأنثروبولوجيا الذين عارضوا العنصرية الداروينية، أمضى حياته في محاربة حركة النسل السيئة السمعة (برادفورد وبلوم 1992، 113). وقد اختير الأقزام لأنهم جذبوا الكثير من الاهتمام كمثال مثالي على السباق "البدائي" (فيرنر 1906، 471). ذكرت إحدى

المقالات العلمية الأمريكية تحديدًا أن أقزام الكونغو كانوا "مخلوقات صغيرة شبيهة بالقرود، ومخلوقات قبيحة ومؤذية" تعيش في الغابات الكثيفة المتشابكة في وحشية مطلقة، ولكن تظهر عليهم العديد من السمات الشبيهة بالقرود في أجسادهم، يمتلك بعضهم اليقظة، والتي يبدو أنها تجعلهم أكثر ذكاء من غيرهم من الزنوج.... إن وجود الأقزام هو الشيء الأكثر وقاحة؛ فهم لا يمارسون الزراعة، ولا يحتفظون بالحيوانات الأليفة. إنهم يعيشون عن طريق الصيد والغطس، ويخرجون هذا عن طريق السرقة من الزنوج الكبار، على مشارف قبائلهم التي يقيمون عليها عادةً مستعمراتهم الصغيرة، على الرغم من أنهم غير مستقرين مثل المياه، ويعيشون في نطاق بعيد وعريض عبر الغابات. ويبدو أنهم أصبحوا على دراية بالمعادن فقط من خلال الاتصال مع الكائنات المتفوقة (كيان 1907، 107- 108).

خلال فترة إقامة الأقزام في أميركا، أجري عليهم دراسة من قبل العلماء لتعلم الفروق بين "الأجناس الهمجية" بالمقارنة مع القوقازيين "المتأخرين عقليا" في اختبارات الذكاء وكيفية استجاباتهم للأشياء مثل الألم (برادفورد وبلوم 1992، 113- 114).إن الأنثروبومترين وعلماء النفس خلصوا إلى أن اختبارات الذكاء أثبتت أن الأقزام يشبهون "الأشخاص الذين يعانون من نقص عقلي، مما جعلهم يقعون في العديد من الأخطاء الغبية وأخذ كمية هائلة من الوقت" (برادفورد وبلوم 1992، 121). وضع العديد من الداروينيين أصل تطور الأقزام بقوة في العصر الحجري القديم، وخلصوا إلى أن لديهم "قسوة الرجل البدائي" (جاتي 1937، 122).

لقد كان أداءهم ضعيفًا حتى في الألعاب الرياضية: "السجل المشين الذي وضعه

المتوحشون المتخلفون" كان ضعيفًا إلى درجة أنه لم يحدث من قبل في تاريخ الرياضة... "(برادفورد وبلوم 1992، 122).

بعد ذلك، لم يقس علماء الأنثروبولوجيا البشر الأحياء فقط، ولكن في إحدى الحالات كان الرأس "البدائي" "مقطوعًا من الجسم وأصبح جمجمة". على افتراض أن حجم الجمجمة كان "مؤشرًا للذكاء، كان العلماء مذهولين" لاكتشاف أن" "الجمجمة البدائية" كانت "أكبر من تلك التي كانت تنتمي إلى رجل الدولة دانيال وبستر" (برادفورد وبلوم 1992، 16).

وخلص محرر في مجلة ساينتفيك أميركان إلى أنه "من بين القبائل الأصلية التي يمكن مشاهدتها في المعرض، فإن الأكثرية البدائية هي الزنوج... ولا شيء يجعلهم سعداء للغاية بقدر إظهار مهاراتهم، عن طريق إصابة عملة الخمس سنتات في غصن شجرة على مسافة خمسة عشر قدم. وهناك قرية الصيد الرئيسة إيجوروتيس، وبها عرق جيد من البرابرة الزراعيين" (مون وكومباني 1904، 64). بعد الإشارة إلى الأقزام "كذوي بشرة سوداء صغار يشبهون القرود افترض مون أن تطور القردة شبيهة الإنسان سرعان ما تبعه" أول نوع من الإنسانية التي دخلت القارة السوداء، وهذه كذلك، كانت إحدى نقاط القوة التي أصر في استخدامها لإثبات نظريته من قبل العشائر الأوائل، الذين اضطروا تدريجيا للعيش في أعماق الغابات العظيمة" (مون 1905، 107).

وأضاف أن البشر المعاصرين في كافة الاحتمالات، ظهروا لأول مرة من القردة في جنوب شرق آسيا، وربما في الهند.... وحتى يومنا هذا، يعيش الزنوج الذين يشبهون القردة في الغابات المظلمة، التي لا شك في أنهم أحفاد هذه الأنواع المبكرة من البشر،

والذين ربما كانوا يشبهون أسلافهم على الأرجح.... فوجوههم مشعرة إلى حد ما، مع بروز في الفك العلوي، وتراجع الذقن، في حين أنهم بشكل عام غير أذكياء وخجولين، ولديهم تماسك قبلي متدني،ويعيشون عادة على أطراف القبائل الأعلى. وقد أخذت الأنواع الأخرى في الانخفاض حتى الآن، مما يشير إلى أن الاثنين كانوا، إلى حد ما مندمجان في العصور السابقة (مون 1905، 107).

أثناء العرض، تعامل مع الأقزام بطريقة مختلفة للغاية عن الطريقة التي عاملوا بها البيض الذين جاءوا إلى أفريقيا لرؤيتهم. عندما زار فيرنر الملك الإفريقي، "قُوبل بالأغاني والهدايا، والطعام ونبيذ النخيل، والطبول، وحُمل في أرجوحة". وعلى النقيض من ذلك، عندما كان الباتوا في سانت لويس كان الأشخاص يقابلوهم بالضحك. بالتحديق. ويأتي الأشخاص لالتقاط صورهم والفرار... [و] جاؤوا كذلك للقتال معهم.... وقد تعاقد فيرنر على إعادة الأقزام بأمان إلى أفريقيا. كان في كثير من الأحيان في صراعا فقط لمنعهم من أن يمزقوا إلى قطع في المعرض. مرارًا وتكرارًا... الحشود أصبحت مضطربة وقبيحة.في كل مرة كان "أوتا" و"الباتوا" يُتركون فقط بصعوبة. "وفي كثير من الأحيان، استدعوا الشرطة (برادفورد وبلوم 1992، 118- 119).

## لماذا أتى أوتا إلى الولايات المتحدة

بينما كان أوتا بنجا يصطاد بعيدًا عن قبيلته، ذبحت القوة العامة شعبه. وكانت فرقة القوة العامة مجموعة من البلطجية الذين يعملون لحساب الحكومة البلجيكية سعيًا لاستخراج الجزية (أو بعبارة أخرى، سرقة العمالة والمواد الخام) من الأفارقة الأصليين الذين يعيشون في الكونغو البلجيكي. بعد أن نجح أوتا في قتل أحد الأفيال في الصيد،

عاد إلى شعبه مع الأخبار السارة. ثم علم بفقدان شعبه وزوجته وأطفاله. شُوهت جثثهم في حملة من الإرهاب قامت بها الحكومة البلجيكية ضد "السكان الأصليين البدائيين" (برادفورد وبلوم 1992، 104). قُبض على أوتا في وقت لاحق وبيع كعبد.

في هذا الوقت، كان يبحث فيرنر عن العديد من الأقزام لعرضهم في معرض لويزيانا ورصد أوتا في سوق العبيد. انحنى فيرنر "وسحب شفاه القزم" لفحص أسنانه. وكان مبتهجًا. حيث وجد أن الأسنان صغيرة وحادة وكانت هذه إحدى تلك المواصفات التي يبحث عنها... وقد اشتراه بالملح والقماش من أجل الحرية والداروينية والغرب "(برادفورد وبلوم 1992، 106). وحُطم عالم أوتا من قبل البيض، وعلى الرغم من أنه لم يكن يعرف ما إذا كان الرجل الأبيض الذي أصبح الآن سيده لديه النية ذاتها، كان يعلم أنه ليس لديه خيار سوى الذهاب معه. إلى جانب ذلك لم تكن أحداث سوق العبيد سوى حدث واحد آخر في حياة أوتا والتي كانت كالكابوس الذي بدأ باكتشافه بذبح وتشويه عائلته كلها. تمكن فيرنر من العودة بأربعة أقزام فقط، وهو رقم "قليل للغاية مقارنة... بقائمة التسوق التي بلغت "18 أفريقيًا (برادفورد وبلوم 1992، 110).

بعد هذا المعرض، عاد فيرنر بأوتا وباقي الأقزام إلى إفريقيا، وتزوج أوتا من جديد على الفور، لكن زوجته الثانية توفيت. هو الآن لم يعد ينتمي إلى أية عشيرة أو عائلة لأنهم قتلوا جميعًا أو بيعوا كعبيد. كما أن شعبه الآخر نبذه، واصفًا إياه بأنه عفريت، وأدعى أنه اختار أن يدخل في عالم الرجال البيض. كان الرجال البيض محل إعجاب وخوف، وكانوا ينظرون إليه شاعرين بالرعب والقلق: كانوا قادرين على القيام بأشياء مثل تسجيل الأصوات البشرية على الفونوغرافات التي تستخدم فيها أسطوانة إيديسون

والتي رأى الأقزام أنهم كائنات تسرق "الروح" من الجسم، مما يسمح للجسم بالجلوس والاستماع إلى روح الحديث (فيرنر 1906أ). بعد أن قام فيرنر بتجميع القطع الأثرية من المتاحف، قرر إعادة أوتا إلى أميركا (على الرغم من أن فيرنر يدعي أنها كانت فكرة أوتا) لزيارته - وعد فيرنر أنه سيعيده إلى أفريقيا في رحلته القادمة. سعى فيرنرمرة واحدة في أميركا لبيع حيواناته إلى حدائق الحيوان، وأقفاصه التي أعادها من أفريقيا إلى المتاحف. لم يحقق فيرنر المال الذي كان يتوقعه، لذا لم يعد بإمكانه أن يعتني بأوتا - لذلك اضطر لإيجاد مكان له.

عندما عُرِض أوتا على هورناداي مدير حدائق حيوان برونكس، كان من الواضح أن نية هورناداي كانت "عرض" أوتا. حافظ هورنادي على النظرة الهرمية للأجناس... كان بالنسبة له الحيوانات الكبيرة الأكثر تعقلا... "الأفضل تطورا ويجب أن يقدمها" (برادفورد وبلوم 1992، 167). "مؤمنا بالنظرية الداروينية"، خلص كذلك إلى أن هناك "تشابه وثيق في الوحشية الأفريقية والقرود" (نيويورك تايمز، 11 سبتمبر، 1906، ص 2). في البداية كان أوتا حرًا في التجول في حديقة الحيوان، حيث يساعد باقي الحيوانات، ولكن سرعان ما تغير هذا الأمر جذريًا. كان هورنادي ومسؤولوا حدائق الحيوانات الآخرون قد خضعوا لحلم متكرر، حيث لعب رجل مثل أوتا بينجا دورًا رائدًا... كان يُجري إعداد فخ، مصنوع من الداروينية، البارنيتومية، عنصرية صافية وبسيطة... وقد اتحدت هذه العناصر بسلاسة بحيث يمكن للمسؤولين في وقت لاحق أن ينكروا، أنه كان هناك فخ أو خطة على الإطلاق. لم يكن هناك من يلام، كما قالوا، إلا إذا كان القزم متمردًا أو لديه اتصال بالصحافة (برادفورد وبلوم 1992، 174).اضطر أوتا بعد

ذلك لقضاء المزيد من الوقت داخل منزل القرد. وقال إنه استلم قوسا وسهما وشجعوه على إطلاق الأسهم كجزء من "العرض" كان أوتا محبوس في قفصه. - وعندما سُمح له بالخروج من قفص القرد"، حدق به الحشد، وبقي الحارس قريبًا منه" (برادفورد وبلوم 1992، 180). في غضون ذلك بدأت الدعاية -"بوشمان يشارك قفص مع برونكس في حديقة القرود" يوم 9 سبتمبر، صرخ عنوان صحيفة نيويورك تايمز على الرغم من أن المدير د.هورنادي أصر على أنه مجرد عرض "لمعرض الفضول "لتنوير الجمهور" على ما يبدو لم يكن هناك فرق بين الوحش الجامح والرجل الأسود الصغير. [و] لأول مرة في أي حديقة حيوان أمريكية، عُرض إنسان في قفص. أعطي [بنجا] قفص - معتم لإبقاءه في صحبة الأسر مع - ببغاء وإنسان غاب يُدعى دوونغ" (سيفاكس 1984، 253). ويعتقد هورناداي أنه "هناك بعد شاسع بين الأجناس البشرية العليا والدنيا... أعلى الحيوانات فكريًا أفضل من أدنى الرجال" (هورناداي 1922، 67).

وقد ذكر حساب معاصر أن أوتا: لم يكن أطول من إنسان الغاب. فرؤوسهما متشابهة إلى حد كبير، ولكلاهما ابتسامة بالطريقة ذاتها (برادفورد ولبوم 1992، 181). جلب فيرنر "شمبانزي صغير "والذي أودع كذلك مع مجموعة من القرود في بيت الرئيسيات" (هورنادي 1906، 302). ظهر انجذاب هورنادي لمعرضه الرئيس الجديد في مقال كتبه لنشرة جمعية الحيوان التي بدأت على النحو التالي:

في 9 سبتمبر، كان الأقزام الإفريقيون الحقيقون، يصنفوا كسلالة فرعية معروفة بشكل عام، تحت مسمى "الأقزام".... أوتا بنجا وهي ما يعني رجل صغير ذو نمو مستمر، ذو رأس جيد، عيون مشرقة، ووجه جميل. وهو ليس مشعرا، ولا يغطيه "الشعر

الكثيف" الذي وصف من قبل بعض المستكشفين.... فهو يشعر بالسعادة عندما... يصنع شيء بيديه (مائل في الأصل، 1906، 301). ثم يقول هورنادي عن كيفية حصوله على الأقزام من فيرنر الذي كان مهتمًا بشكل خاص بالأقزام، بعد أن عاد مؤخرًا إلى منازلهم على نهر كاساي أنصاف الرجال والنساء من هذا المعرض الذين جُلبوا إلى هذا البلد من خلاله للعرض في قسم الأنثروبولوجيا في معرض سانت لويس [المعرض العالمي] (هورنادي 1906، 302؛ انظر كذلك في فيرنر 1916).

## تأثير التطور

لقد كانت العوامل العديدة التي حفزت فيرنر لجلب أوتا إلى الولايات المتحدة معقدة، ولكن من الواضح أنه "تأثر كثيرًا بنظريات تشارلز داروين" نظرية التطور التي تطورت تاريخيًا، وأصبحت البشرية تنقسم على نحو متزايد بشكل تعسفي معقد (ريمر 1992,3). كان فيرنر يعتقد كذلك أن الأفارقة كانوا "جنسًا أدني (فيرنر 1908 أ، 10،717). ويظهر هاليت أن داروين شعر كذلك بأن الأقزام كانوا من البشر الأقل شأناً: العقيدة الداروينية للتطور البطيء والمتدرج من أسلاف وحشية... ساهمت في التاريخ الزائف للبشرية. في الصفحة الأخيرة من كتابه "أصل الإنسان"، عبّر داروين عن رأيه بأنه يفضل أن ينحدر من قرد أكثر من "متوحش". وقد استخدم كلمات وحشية، منخفضة ومتدهورة لوصف الهنود الأمريكيين، جزيرة أندامان. إن الأقزام وممثلو كل مجموعة عرقية تقريبا يختلف مظهرهم وثقافتهم البدنية عن ثقافتهم.... وصف تشارلز داروين "السكان المنحدرين والمتدهورين لجزر أندامان" في كتاب "أصل الإنسان". وقورنت أقزام غابة إيتوري "بالكائنات الحية (هاليت 1973، 358-359).

على الرغم من أن العنصرية البيولوجية لم تبدأ بالداروينية، إلا أن داروين قام أكثر من أي شخص آخر بتعميمها. في وقت مبكر من عام 1699، درس الطبيب الإنجليزي إدوارد تايسون الهيكل العظمي الذي يعتقد أنه ينتمي إلى الأقزام، وانتهى إلى أنهم قردة. اتضح فيما بعد أن الهيكل العظمي الذي استند إليه هذا الاستنتاج كان في الواقع شمبانزي (بارفورد وبلوم 1992، 20).

كان الاستنتاج الذي وافق عليه غالبية العلماء في يوم فيرنر هو أن داروين "أظهر أن كافة البشر ينحدرون من القرود"، مما يثبت "أن بعض الأجناس قد انحدرت أكثر من غيرها... [و] أن بعض الأجناس، أي البيضاء منها، تركت القردة خلفهم، في حين أن الأجناس الأخرى، خاصة الأقزام، لم تنضج على الإطلاق "(برادفورد وبلومى 1992،20). اتفق العديد من العلماء مع عالم الاقزام السير هاري جونسون الذي خلص إلى أن الأقزام كانوا" مثل القرود في مظهرهم [و] بشرتهم المشعرة، وطول أذرعهم، وعاداتهم تشير جميعها إلى أن هؤلاء الأشخاص يمثلون الرجل في أحد أشكاله السابقة "(كين 1907، 99).

خلصت واحدة من أكثر الدراسات المبكرة في مجموعة الأقزام إلى أنهم "وحوش صغيرة" وأن "الحالة المتدنية لنموهم العقلي تظهر من خلال" حقيقة أنهم "ليس لديهم أي اعتبار للوقت، أو أية سجلات أو تقاليد للماضي. لا يوجد دين معروف بينهم؛ إنهم لا يسعون إلى معرفة المستقبل بوسائل غامضة.. باختصار هم... أقرب صلة مع قرد الإنسان الدارويني الأصلي القديم "(بارووز 1905؛ 172، 182).

كانت الأقزام في الواقع مجموعة موهوبة – وخبراء في التقليد ورشقاء بدنياً ويركضون

بسرعة ولديهم فطنة وصيادين فائقين، لكن الداروينيون لم يبحثوا عن هذه السمات، لأنهم أصيبوا بالعمى بسبب نظريات تطورهم (جونستون 1902؛ 1902 أ؛ لويد 1899). وقد أظهرت دراسة حديثة أنه بإلقاء ضوء أكثر دقة على الأقزام ما يدل على عبثية النظرة العالمية للتطور في القرن التاسع عشر (ترنبول 1968).

كان أوتا بينجا "رجلاً صغيراً لامعاً"، قام بتعليم فنان كيفية صنع مجموعة من "الأوتار الخيطية"، وهي مادة أدرجها في فصل واحد من كتابه حول هذا الموضوع (جان 1962، 276). وبناء على صنع مجموعة من "الأوتار الخيطية" الذي تفوق فيها أوتا، كتب هاليت، في الدفاع عن الأقزام:

لقد افترض داروين أن الأشخاص البدائيين – أو "المتوحشين" – كما وصفهم – لا يفعلون ولا يتصورون أي إبداع عالميًا. دراسة شيبستا الممتازة... يشرح بشكل صحيح أن دين غابة الأقزام في إيتوري مبني على الاعتقاد بأن "الله يمتلك مجمل القوة الحيوية، التي يوزع جزءًا منها على مخلوقاته، وهو الفعل الذي يجلبه إلى الوجود أو يكملها" (1973)، 14-15).

واختتم هاللت قائلًا: لا يزال العلماء يقبلون أو يؤيدون نظرية التطور الديني التي طرحها داروين وزملاؤه في القرن التاسع عشر. لقد أكدوا أن الدين تطور من الروحانية البدائية إلى الشهوة إلى الشرك إلى مرتفعات التوحيد الديني اليهودي المسيحي. إن أقزام غابة إيتوري هم أكثر الكائنات الحية البدائية من جنسنا، ولكن بعيداً عن كونهم الحيواني، فإنهم لا يعرفون مخاوف القبائل الزنوج المحلية من الأرواح الشريرة. "إذا كان هو الظلام، فالظلام هو جيد،" وفقًا لقبيلة الأقزام المفضلة. "من صنع النور صنع الظلام

كذلك" (1973، 14-15).

كما استنكر الأقزام:

تخاريف الزنوج من التماثيل الدينية السحرية وغيرها مما يسمى الأوثان. كانوا ينظرون نظرة قاتمة إلى الأكواخ الكنسية التي زينت بتماثيل مثل دمية يسوع ومريم. وتعد عبادة الأوثان من قبل أقزام غابة إيتوري، الذين يعتقدون أن القوة الإلهية للكون لا يمكن أن تكون محصورة داخل حدود مادية. من المؤكد أن مؤلفي العهد القديم بالعبرية موافقون على ذلك، حيث إنهم تابعوا الوصية المعروفة التي تحظر "الصور المحفورة" أو الأصنام (1973، 14-15).

## معتقدات فيرنر الداروينية

لم يكن فيرنر أكاديميًا غير مطّلع لكنه "جمع سجلًا أكاديميًا لم يسبق له مثيل في جامعة ساوث كارولينا"، وفي عام 1892 تخرّج لأول مرة في فصله في سنّ التاسعة عشرة (برافورد وبلومى 1992، 69). وفي دراسته، درس فيرنر أعمال تشارلز داروين، بما في ذلك أصل الأنواع وإنحدارالإنسان، والتي "ارتبطت بالمستوى الفكري لفيرنر، حيث وعدت نظرية التطور بإعطاء الدقة العلمية للمسائل العرقية التي طالما أزعجته. وفقا لداروين... وكان "من المحتمل أكثر أن أسلافنا الأوائل عاشوا في القارة الأفريقية أكثر من أي مكان آخر" (برافورد وبلومى 1992,70).

دفعته دراساته للإجابة على بعض الأسئلة الأساسية حول الأقزام، مثل:

هل هم رجال أم من القردة العليا؟ ومن وكيف كان أسلافهم؟

ما هي علاقاتهم العرقية مع الأجناس الأخرى من الرجال؟ هل قاموا بالانحدار من رجال

أكبر، أم أن الرجال الأكبر هم تطور لأجداد الأقزام؟ هذه الأسئلة تنشأ بشكل طبيعي، وتعمق المحقق في المناقشات العلمية الأكثر سخونة من هذا الجيل (فيرنر 1902أ، 192).

إحدى الفرضيات التي اعتبرها هي أن الأقزام لم يتغيروا منذ التطور لأول مرة، وهي النظرة التي تتعارض مع التطور والانقراض. صحيح أن هؤلاء الأشخاص الصغار حافظوا على ما يبدو أنه كيان مادي لم يتغير منذ خمسة آلاف سنة. ولكن هذا يقود لأساس الجدال من أصل الأنواع. وهي النقطة محل الخلاف الواضحة. هل جاء الأقزام من رجال كانوا سلفًا مشتركًا للعديد من الأجناس بعيدين عن بعضهم البعض كصديقي تيكو من قرية بتوا من نسل الرئيس الراحل ماكينلي؟ (فيرنر1902أ، 193).

رأى كثير من الأشخاص صراعا واضحا بين التطور والمسيحية، و "بالنسبة لغالبية الرجال، فإن القرارات الأخلاقية لمبشر مثل ليفينغستون وطبيعة داروين ألغت كل منهما الآخر". لكن بالنسبة لفيرنر، لم يكن هناك تناقض: فهناك توافق بين التبشير الملائكي والتطور، ليفنجستون وداروين "(برادفورد وبلوم 1992، 70، 72). باختصار "الفجوة الضخمة بين الدين والعلم" لم تكن تهم فيرنر. سرعان ما ذهب إلى أفريقيا "لإرضاء فضوله بشكل مباشر بشأن أسئلة من التاريخ الطبيعي وتطور الإنسان "(برادفورد وبليوم 1992، 74). لقد رأى فيرنيكوك أن الاقزام كانت "السلالة الأكثر بدائية للجنس البشري" وكانت "تقريبًا منازلها في الأشجار مثل القرود" (1902أ، 189- 190).

وفي وقت لاحق، كتب الكثير عن رحلاته الإفريقية، حتى أنه دافع عن سيطرة البيض على إفريقيا وإدارة البلاد "مدريرين ودودين" (فيرنر 1908أ، 10718). وجادل كذلك بأن السود في أفريقيا يجب أن يُحافظ عليهم من قبل "العرق الأبيض" وأن

النزاعات الاجتماعية والقانونية بين الأجناس يجب حلها عن طريق "القانون المحلي" (1906أ، 8235؛ 1907، 8736). لم يكن فيرنر شخصًا معنيًا ولا مراعيا للأجناس الأخرى، ولكن هذا الاهتمام جاء مخالفا لما هو عليه بشكل كبير بعد معتقداته التطورية (فيرنر 1902).

## معرض حديقة الحيوان

قضى هنري فيرفيلد أوسبورن، المدافع القوي لداروين، الكثير من حياته في تبشير بدينه ومهاجمته لأولئك الذين كانوا ينتقدون التطور، وخاصة ويليام جينينغز براين، الذي أدلى بتصريحاته الافتتاحية عندما افتتح معرض حديقة أوتا لأول مرة (برادفورد وبلوم 1992، 175).

يعتقد أوسبورن ومسؤولي حديقة حيوان بارزون، أنه ليس فقط أن أوتا الأقل تطوراً، لكن هذا المعرض سمح لأجناس من شمال أوروبا بأن يكون لهم حق "الوصول إلى البرية من أجل الشعور بأفضليتهم. العرق الأعظم، كما كان يطلق عليهم أحيانًا، بحاجة إلى مكان يلجئون إليه الآن، ولربما في هذا المكان يمكنهم أن يطلقوا غرائزهم البدائية (برفورد وبلومى 1992,175).

وُصف معرض أوتا من قبل المشاهدين المعاصرين بأنه مملوء بالإحساس والمشاعر - فقد أحب الحشود على وجه الخصوص إيماءات وجوه أوتا (برفورد وبلومى 1992,180) ربما نفى بعض المسؤولين ما كان يحاول المعرض تحقيقه، لكن الجمهور كان يعرف تمامًا هدفه: "كان هناك دائمًا حشدًا أمام القفص، وفي غالبية الأحيان كانوا يتجولون ضاحكين، ومن كل ركن من أركان الحديقة تقريبًا يسمع السؤال "أين هم الأقزام؟" وكان

الجواب، "في بيت القردة" (نيويورك تايمز، 10 سبتمبر، 1906، ص 1). كانت الآثار المترتبة على المعرض واضحة كذلك من أسئلة الزوار: هل كان رجلاً أم قردًا؟ هل كان هناك شيء بينهما؟ سأل أحد المتفرجين الألمان "هل هو رجل؟"... لا أحد يخطئ حقا بين القردة أو الببغاوات والبشر. ولكن ها هو أقرب لهذا السؤال. هل كان رجلاً؟ هل كان قردا؟ هل كانت مرحلة منسية من التطور (برفورد وبلومى 1992,179).

وقد اقترح أحد الأستاذة العلميين أنه ينبغي استخدام هذا المعرض للمساعدة في توعيه الجمهور عن حقيقة التطور البشري: ومن المؤسف أن د.هورناداي لا يقدم نظام المحاضرات القصيرة أو المحادثات المتعلقة بمثل هذه المعارض. هذا من شأنه أن يؤكد على الطابع العلمي للخدمة، ويعزز بشكل لا حد له فائدة حديقة الحيوان لجمهورنا بشكل عام، ويساعد رجال الدين لدينا على الإلمام بآرائهم العلمية بحيث تكون غريبة للغاية بالنسبة للكثير منهم (جبريل 1906، 6).

كان عرضه غير قابل للجدل: فقد نُشرت لافتة على العلبة تقول "الأقزام الأفارقة، أوتا بنجا. العمر، 23 عامًا. الطول، 4 أقدام و11 بوصة. الوزن 103 رطلا. جلب من نهر كاساي، ولاية الكونغو الحرة، جنوب أفريقيا الوسطى من قبل د.صموئيل فيرنير. العرض بعد ظهر كل يوم خلال شهر سبتمبر "(نيويورك تايمز، 10 سبتمبر، 1906، ص 1).
ويا له من معرض:

قلد إنسان الغاب الرجل. قلد الرجل القرد. معانقين بعضهم، متعلقين في أذرع بعضهم البعض. انتزع دوهو( إنسان الغاب ) القبعة المنسوجة من القش من على رأس أوتا ووضعها على رأسه.... هتف الحشد وصفق.... صرخ الأطفال من البهجة. أما

عن البالغين كان هناك جانب أكثر جدية في العرض.

حيث كانت الحدود البشرية متمثلة في هذا القفص. في مكان ما هناك رجل صنف كغير إنسان. ربما إذا نظروا بجدية كافية يمكنهم رؤية لحظة الانتقال.... لجيل زاد الحديث بشأنه وخاصة هذا النجم الغائب عن التطور، و"الحلقة المفقودة"، ومشهد إنسان الغاب وأوتا في بيت القرد كان واضحاً (برادفورد وبلوم 1992، 108). كان هدف المعرض واضحا كذلك لمراسل صحيفة نيويورك تايمز الذي قال: "لم تكن الأقزام أطول من إنسان الغاب، وكانت الفرصة سانحة لدراسة نقاط تشابههم. ورأسيهما متشابهتان إلى حد كبير، وكلاهما لديه ابتسامة بالطريقة ذاتها عندما يشعران بالسعادة "(10 سبتمبر 1906، ص 1). إن استهزائه أمرًا لا يقبل الجدل أيضاً: فقد منحه زوجًا من الأحذية، و"ضحك الحشد مرارًا وتكرارًا بينما كان جالسًا في الإعجاب البسيط بهم" (نيويورك تايمز، 10 سبتمبر، 1906، ص. 1). وفي مقال آخر في صحيفة نيويورك تايمز، كتب أحد المحررين، بعد دراسة أوتا في قفصه، ما يلي:

أوتا بنجا... هو عينة طبيعية من عرقه أو قبيلته، مع تطور في قدراته العقلية مقارنة بباقي أعضاء قبيلته. وسواء أكانوا مقتصرين على أن يكونوا نماذج للتطور، وأقرب إلى القردة الشريرة مقارنة بغيرهم من الهمجيين الأفارقة، أم ما إذا كانوا يُنظر إليهم على أنهم أحفاد متحدرين من الزنوج العاديين، فإنهم يبدون اهتمامًا متساويًا بطلاب علم الأعراق البشرية، ويمكنهم الاستفادة من دراستهم (11 سبتمبر 1906، ص 6).

أكد الصحفي أن أوتا بينجا ربما يُمتع ذاته على قدر الامكان في هذا البلد، ومن السخف أن نشعر بخيبة الأمل على الإذلال والتدهور المتخيلين الذي يعاني منه. الأقزام

هـم أشـخاص كفـؤين إلى حـد مـا في غابـاتهم المحليـة.... ولكنهم منخفضـين للغايـة في النطاق البشري، والاقتراح بأن بينجا يجب أن يكون في مدرسة بدلا من قفص يتجاهل احتمـال كبـير أن تكـون المدرسـة مكانـا... مـن خلالها لم يستطع الاستفادة مـن أي شيء. إن الفكرة القائلة بإن الرجال متشابهين إلى حد كبير، باستثناء أنهم كانوا يفتقرون إلى فـرص الحصـول على التعليم مـن الكتـب، أصبحت الآن بعيـدة كـل البعـد. مـع التـدريب المتكيف بعناية مع حدوده العقلية، يمكن بلا شك تعلم هذه الأقزام أشياء كثيرة... ولكن ليس هناك فرصة لتعلم أي شيء في المدرسة العادية (11 سبتمبر 1906، ص 6).

إن العرض كان ناجحا للغاية لم يكن موضع شك. أدعى برادفورد وبليوم أنه في 16 سبتمبر، "تجـول 40 ألـف زائـر في حديقـة حيوانـات نيويـورك... الانـدفاع المفـاجئ للاهتمام... كان يعود بالكامل إلى أوتا بينجا "(1992، 185).

كانـت الحشـود كبـيرة للغايـة بحيـث عُـين ضـابط شـرطة لحراسـة أوتـا بـدوام كامـل (زعمت حديقة الحيوان أن هذا كان لحمايته) لأنه "كان دائماً في خطر التعرض للأذى من قبل الغوغاء" (برادفورد وبلوم 1992، 187).

على الـرغم مـن أنـه في ذلـك الوقـت كـان يعتقـد أن السـود كـانوا أدنى درجـة مـن الناحية التطورية مقارنة بالقوقـازيين وكـان اعتقـادًا شـائعًا، حتى من قبـل علمـاء بـارزين، وحبس واحـدٌ منهم في قفـص في حديقـة حيوانـات أدى لكثـير مـن الدعايـة والجـدل، خاصـة مـن الـوزراء وقـادة المجتمـع الأمـريكيين مـن أصـل أفريقـي الـذين كـانوا في طليعـة الاحتجاجات. ضـد حـبس أوتـا (آدمـز 2001، 40). كـان وضـع رجـل أسـود في قفـص هـو "نقطـة انطلاق قصـة أحـدثت عاصـفة مـن الاحتجـاج بـين وزراء الزنـوج في المدينـة

(بريدجز 1974,224) نُقل سخطهم إلى رئيس البلدية جورج بي. ماكليلان، الذي رفض القيام بأي شيء.

**كتب آدامز ما يلي:**

إن غضب الأميركيين الأفريقيين البارزين ليس مفاجئاً، لأن زوار حديقة الحيوان وجدوا أوتا بينجا يتشارك قفصاً مع دوهونغ، وهو إنسان الغاب.... في عصر كانت فيه النظرية الداروينية تقدم تبريرات علمية بانتظام للتحامل العنصري، اقترح المعرض وجود تقارب تطوري بين الأفارقة والقِرَدة. علاوة على ذلك، اقترنت تصرفات أوتا بينجا بالوحشية البدائية للرجل العنيف الذي يظهر غريبًا: كانت العظام متناثرة حول أرضية القفص، وشُجع على إظهار أسنانه الحادة في وجه الحشود أثناء احتجازه، والتي كانت مشحوذة كما هو معتاد للباتوا (آدمز 2001، 32).

عندما ارتفعت عاصفة الاحتجاجات، لم ير هورنادي أي سبب للاعتذار، قائلاً إنه "كان يحظى بدعم كامل من جمعية علم الحيوان فيما كان يقوم به (برفورد وبلومى 1992.182) من الواضح أنه لم يكن الكثير من الأشخاص مهتمين للغاية بفعل أي شيء حتى دخلت جماعة الأفرو أميركان في الغزو. على الرغم من أن بعض السود في ذلك الوقت قبلوا فكرة أن الأقزام كانوا "نوع معيب للجنس البشري"، فقد قرر العديد من وزراء السود وقف المعرض (نيويورك تايمز، 10 سبتمبر 1906، ص 1). وقد أغضبهم فكرة أن المعرض حاول إثبات أن السود بشكل خاص كانوا جنسا متدنيا.

عارض العديد من الوزراء الداروينية، وخلصوا إلى أن "المعرض يهدف بوضوح إلى إثبات الداروينية (نظرية التطور) والتي تعارض بشكل مطلق المسيحية ويجب عدم

السماح بمظاهرة عامة لصالحها (نيويورك تايمز، نُقشت في برادفورد وبلوم 1992، 183).

وجاء مقال في صحيفة تايمز ردًا على الانتقادات التي تقول إن العرض أدى إلى ترسيخ مفهوم الداروينية عن طريق السخرية من الوزراء بالكلمات التالية: "يعترض أحد الأخوين الملونين على المعرض الغريب على أساس أنه محاولة غير مجدية لإضفاء المصداقية على نظريات داروين الرهيبة... يجب إخبار الأخ الشقيق الملون بهذا التطور... تدرس الآن في الكتب المدرسية لكافة المدارس، وأنها ليست قابلة للنقاش أكثر من جدول الضرب "(12 سبتمبر 1906، ص 8). ومع ذلك، علق ناشرونز ويكلى قائلاً إن الوزراء المبدعون هم الوحيدون الذين "اهتموا حقاً" بأوتا (1992، 56).

بعض الصحفيين، انتقدوا أولئك الذين اعترضوا على المعرض لأنهم لم يقبلوا التطور بدلاً من الاستهزاء بحديقة الحيوان، في كلمات برادفورد وبلوم، كان "علماء وخطباء نيويورك" يتجادلون حول أوتا، وأولئك الذين اعتقدوا أن "البشر لم ينحدروا من القرود وأن الداروينية كانت غشًا ضد المسيحيين... كانت عرضة للسخرية على الصفحات الافتتاحية لصحيفة نيويورك تايمز (بيرفور ويلم 1992,191,196).

سرعان ما أصبح بعض البيض قلقين بشأن "الزنجي المحبوس"، وبعبارة السيفاكيس، فإن جزءًا من القلق كان بسبب "خوف الرجل ذو الملابس... أنه يمكن استخدام معرض بينجا لإثبات نظرية التطور الدارويني "(1984، 253). كانت الاعتراضات غامضة في كثير من الأحيان، كما هو الحال في مقال نشرته صحيفة نيويورك تايمز:

كان المعرض عبارة عن إنسان في قفص قرود. لقد وقع الإنسان في صورة بوشمان، وهو أحد السلالة التي لا يقيّمها العلماء في النطاق البشري، ولكن إلى الشخص

العادي غير المتخصص، كان هناك شيء ما غير سار.... ربما يكون من الجيد أن بينجا لا يفكر بعمق. ولو لم يكن كذلك فمن غير المحتمل أنه كان فخورًا للغاية بذاته عندما استيقظ في الصباح ووجد ذاته تحت سقف واحد مع قرود الأورانجوتان والقردة (9 سبتمبر 1906، ص 9).

على الرغم من اختلاف الآراء حول الحادث، لكنه أدى إلى العديد من الاحتجاجات الرسمية والتهديدات بالإجراءات القانونية التي وافق عليها مدير الحديقة في النهاية، و "أخيرًا. خرج القزم من قفصه." (سيفاكس 1984,253). وحالما أُطلق سراحه، أمضى أوتا غالبية وقته في المشي حول حديقة الحيوانات في بدلة بيضاء، وتتبعه حشود ضخمة.

عاد إلى منزل القردة فقط للنوم ليلا، لكن معاملة الزائرين كفضول وسخرية وسخر جعله في نهاية المطاف "يكره أن يطارده السياح الفضوليون والأولاد" (ميلنر 1990، 42). في رسالة إلى فيرنر، كشف هورنادي عن بعض المشكلات العديدة التي تسبب فيها الوضع، مدعيا أنهم لم يعرضوا أوتا بنجا في القفص منذ بداية المشكلة. منذ تملي ما سبق... أوتا بنجا... اشترى سكين نحت من غرفة التغذية للقرد، وذهب في كافة أنحاء الحديقة المزدهرة بطريقة أكثر إثارة للقلق، ولفترة طويلة رفض التخلي عنها. في نهاية المطاف أخذت منه. بعد ذلك بفترة وجيزة ذهب إلى نافورة الصودا بالقرب من بيت الطيور، للحصول على بعض المشروبات الغازية، ولكنه رفض الصودا التي حصل عليها في غضب عظيم.... هذا أدى إلى شجار عظيم. فقد حارب مثل النمر، واستغرق الأمر ثلاثة رجال لإعادته إلى بيت القرد. وقام بضرب عددًا من الزوار، و"أثار الموجودين" بشكل عام" (بريدجيز،1974، 227-228).

وفي وقت لاحق "قام بعمل قوسًا صغيرًا ومجموعة من الأسهم وبدأ في إطلاقها على زوار حديقة الحيوان بسلوك عدواني بغيض!" (ميلنر 1990، 42)، ووصفت صحيفة نيويورك تايمز المشكلة على النحو التالي:

كان هناك 40,000 زائرًا في الحديقة في يوم الأحد. ذهب ما يقرب من كل رجل وامرأة وطفل من هذا الحشد الكبير لرؤية بيت القرد. النجم الشهير في الحديقة رجل البرية الذي أتى من أفريقيا. (18 سبتمبر 1906، ص.9). خلال اليوم قاموا بمطاردته وعلى الصراخ والعواء والبعض منهم طعنوا في الأضلاع وآخرون تعثروا (18 سبتمبر 1906، ص9).

بعد أن قام أوتا "بجرح عدد قليل من المتنزهين، اضطر إلى مغادرة حديقة الحيوان من أجل أن يكون بخير" (ميلنر 1990، 42). ونتيجة الجدال استخلص "هورناداي بقرار أن معرضه أصبح أكثر اضطرابًا مما كان يستحقه وسلمه إلى القس جوردون، الذي ترأس كذلك ميتم هوارد للملونيين في بروكلين" (وارد1992، 14).

على الرغم من أن هورناداي أدعى أنه كان "يقدم عرضًا مثيرًا للاهتمام فقط وأن بينجا كان سعيدًا"، أشار ميلنر (1990، 42) إلى أن "هذا البيان لا يمكن تأكيده" نظرًا لأننا لا نملك أي سجل لمشاعر بنجا، ولكن الكثير من أفعاله تكشف أنه قد عاش بشكل سيئ في حديقة الحيوان. لسوء الحظ، لم تترك أوتا بينجا أية سجلات مكتوبة عن أفكاره حول هذا أو أي شيء آخر، وبالتالي فإن الجانب الوحيد من القصة التي لدينا هو سجلات فيرنر الضخمة، والكتابات التي كتبها هورناداي، والعديد من الصحف، وكتاب من 281 صفحة بعنوان "القزم في حديقة الحيوان" لفيليب فيرنر

برادفورد، حفيد فيرنر. برادفورد، في بحثه، كان من حسن الحظ أن فيرنر أنقذ ذاته من كل العالم. ومن المثير للاهتمام أن فيرنر يرتبط بما يشعر به وهو وجهة نظر الأقزام للتطور:

بعد أن تعرّضت للتقرب إلى الأقزام لإتمام الثقة المتبادلة، كنت أتجرأ على القول بإن بعض الحكماء في بلدي أكدوا أنهم ينحدرون من قرود الغابات. هذا البيان، من خلال إثارة الحالة المزاجية، والاحتجاجات المحتشدة، وإثارة موضوع النقاش الحاد الكثيف حول حرائق باتوا(فيرنر 1902أ، 190).

بعد أن غادر بينجا حديقة الحيوان، وجد منزلاً لبضع سنوات في الماضي. قبل كل شيء، تعلم أوتا قليلا من "دار الأيتام"، وألقى نظرة على شابة معينة هناك، وهي امرأة تدعى "كريولا".

لسوء الحظ، حتى مؤيدي أوتا صدقوا بعض القصص عنه، وحدث "حادث" قريبًا أشعل جدلاً. [أس ا رسولت]، [أوتا] كان قريبا وبعيدا على حدّ سواء من بروكلين و [كريولا]. في يناير 1910، وصل إلى مجتمع السود في لينشبورغ، فيرجينيا. وقد أولى بعض العائلات السوداء صغارها إلى رعاية أوتا. حيث شعروا أن أولادهم كانوا آمنين معه. فقد علمهم أن يصطادوا ويجمعوا عسلًا بريًا.

شعر الأطفال بالأمان عندما كانوا في الغابة معه. إذا كان هناك أي شيء، وجدوه مفرطًا في الحماية، إلا في عيون أحد الشباب.... حيث يمكن للدغة النحل أن تكون كارثية لطفل، ولكنه لا يستطيع أن يساعد نفسه، وكان يعتقد أن لسعات النحل كانت مفرحة (برادفورد وبلوم 1992، 206– 207).

سرعان ما أصبح أوتا مسيحياً وتم تعميده، وتحسنت مفرداته الإنجليزية بسرعة.

تعلم كذلك كيفية القراءة والتحدث في مدرسة لينشبورج. كان شائعًا بين الأولاد وتعلم العديد من الألعاب الرياضية مثل البيسبول. وبُذل كل جهد لمساعدته على الاندماج (وكان طبيعيًا إلى حد ما). عدة أحداث تسببت له في اليأس.

توقف أوتا بعد ذلك عن حضور الفصول الدراسية، أصبح يعمل عاملًا في مزرعة أوبيريبقيمة عشرة دولارات في الشهر بالإضافة إلى الغرفة والمجلس (برادفورد وبلوم 1992، 204). وافتقاره للتعليم هو بسبب موقفه الإفريقي، "ولكن في الواقع وعلى الأرجح" كان عمره ضد تطوره.

كان من المستحيل الحصول على التعليمات... من شأنه أن يكون أي ميزة له "(وارد 1992، 14). كان لديه فضول هائل ومحرك للتعلم ولكن يفضل اختبارات الأداء بدلا من نوع الاختيار من متعدد.

عمل في وقت لاحق كعامل في مصنع التبغ في لينشبورغ، فيرجينيا، ولكنه أصيب بالاكتئاب، والعدائية، والغير عقلانية. عندما تحدثوا إليه، لاحظوا أن الدموع في عينيه عندما أخبرهم أنه يريد العودة إلى المنزل. بعد التحقق من سعر تذاكر البواخر لأفريقيا، خلص إلى أنه لن يكون لديه ما يكفي من المال لشراء واحدة.

ولم يسمع من فيرنر في وقت ما ولا يعرف كيف يتصل به.

في النهاية، أزال أوتا القبعات من أسنانه. عندما عاد إلى الغابة مرة أخرى.

وبمجرد أن خرج عن الأنظار بأمان، أطلق النار على نفسه" (برادفورد وبلوم 1992، 14). وفي النهاية لم يتمكن أبداً من العودة إلى موطنه الأصلي، وانتحر أوتا بنجا بمسدس في 20 مارس 1916 (سانبورن 1916).



حتى النهاية، كان هورناداي غير إنساني، وهو يشوه الوضع بشكل خطير، حتى يفترض بشكل مشوه أن أوتا "يفضل الموت عن العمل من أجل العيش" (برادفورد وبلوم 1992، 220).في تقرير عن انتحاره الذي نشره هورناداي في نشرة زولوجيكال لعام 1916، أظهر مشاعره العنصرية المستوحاة من التطور مرة أخرى بوضوح:

أحضر شخص ما - تخلصوا منه فيما بعد - الزنجي الصغير إلى لينشبورغ منذ حوالي ست سنوات، ووضعه في كلية فيرجينيا اللاهوتية ، حيث عمل لسنوات عديدة للتعبير للمتخصصين له بأنه لا يمتلك قوة التعلم. وقبل سنتين أو ثلاث سنوات، ترك المدرسة وذهب للعمل كموظف (1916، 1356).

في كلمات هورناداي، انتحر أوتا لأن "العبء أصبح ثقيلًا إلى حد أن الشاب الزنجي حصل على مسدس مملوك إلى المرأة التي كان يعيش معها، وذهب إلى البقرة مستقرًا وهناك أرسل رصاصة الي قلبه، منهية حياته".

كتب حفيد فيرنر، الداروني نفسه، "سكان الغابات في إفريقيا ما زالوا يثيرون اهتمام العلم. يسعى علماء الأحياء إلى اختبار دمائهم وإحضار عينات من حمضهم النووي.

يُرسمون بأشكال جديدة من الأسئلة ذاتها التي كانت في يوم من الأيام تزعج فيرنر ومسجي؛ ما الدور الذي يؤديه الأقزام في تطور الإنسان؟ ما هي العلاقة التي تربطهم بالنوع البشري الأصلي. (برادفورد وبلوم 1992، 230-231).

وأضاف: "إن أتباع نظرية التطور اليوم لا تشملهم، مثلهم في ذلك مثل علماء الأنثروبومترية، التعليقات المهينة والعلاجات القاسية في دراستهم" (برادفورد وبلوم 1992-231). وهم الآن يعترفون صراحة بأن "انتصار الداروينية" كانت "بعد وقت

قصير من إنشائها [المسُتَخدَم] لتعزيز كل تقسيم ممكن حسب العرق والجنس والجنسية" (برادفورد وبلوم xx). كان جزءًا من المشكلة كذلك "الصحافة، مثل الجمهور، كانت مفتونة، أو مدمنة لمشاهد الرجل البدائي"(برادفورد وبلوم 1992، 7). المأساة، كما عبر عنها بوهلر في القصيدة، هي:

من أرض وطنه الظلام، إلى بلد حر، في مصلحة العلم... جلبت قليلا اوتا بنجا... نادرا ما أكثر من قرد أو قرد، ومع ذلك رجل في حين!... علمنا الحرية التي لدينا هنا في هذه الأرض من التقدم الأبرز - في هذا العصر النضج والحكمة - وضعنا له، في شرف كبير، في قفص القرد! منتصف الصحبة التي نقدمها له، القرود، الغوريلا، الشمبانزي (1906، 8).

## الملخص

جاء أوتا بينجا "القزم" إلى أميركا من قبل عالم الأنثروبولوجيا صاموئيل فيرنر ووجد في النهاية طريقه أو أكثر دقة أجبر على دخول حديقة الحيوانات، وتحديدًا في منزل قرد في حديقة حيوانات بونكس نيويورك.

كان الأشخاص الذين زاروا حديقة الحيوان يعرفون الغرض من المعرض واعترض البعض على ذلك على أساس أنه محاولة متعمدة لإثبات التطور.

ومع ذلك، فإن العنصرية الصارخة لا تتضح في أي مكان آخر مثل تصريحات الداروينية المعاصرة، التي أوضح العديد منها بوضوح أنهم يعتقدون أن "الجنس الزنجي" أقل تطوراً من القوقازيين، وأقل استحقاقاً كبشر.

إن وجود الأقزام، كما شعر نشطاء التطور، جعل كذبة في تعليم التكوين أن كافة

الرجال إخوة، جميعهم من نسل آدم وحواء. ما هو الدليل الإضافي الذي احتاجوا إليه أكثر من رابط حي، تنفس، وتطور، من الواضح أنه ليس مساوياً للرجال البيض، بل كان أكثر من مجرد قرد

يوضح هذا الحساب نتائج الداروينية وتأثيرها في المجتمع الأمريكي، وخاصة العلوم الأمريكية. كما أنها قدمت تقديرا لأوتا ومهارته المذهلة في البقاء على قيد الحياة في هذا العالم، وكيف أنه من دونه وغيره من الأقزام، فإن العديد من البيض، بما فيهم فيرنر نفسه، من المحتمل أن يكونوا قد ماتوا في الأدغال الإفريقية. مرة واحدة في أميركا، استوعب أوتا مهارات المعيشة الغربية لمساعدته على البقاء في عالم معادٍ له.

على الرغم من أن البيض كانوا مغرمين بجمال الأقزام، لكن البيغمي كان مثار اهتمامهم بالبيض - وكثير منهم كان يمكنهم تقليد سلوكهم، مثل طي أو كشف الخرائط، أو شتم الناموس، أو كتابة الملاحظات في دفاترهم. ومن المثير للاهتمام أن وجهة نظر أوتا عن التطور كانت مثل نظرية بيغميس إفريقيا، التي كانت "جزئية للغاية حول كيفية تطبيق نظرية التطور. عندما يتعلق الأمر بالرجال البيض المنحدرين من القردة، يقولون إنهم يعرفون ذلك طوال الوقت" (برادفورد وبلوم 1992، 157). كما يجعل الحساب أوتا شخصًا حقيقيًا لديه أفكار ومشاعر وعواطف إنسانية كاملة. تظهر هذه الخلفية المفارقة في كل من عرضه في حديقة الحيوان وكلمات معاصريه حول التطور.

لسوء الحظ لا يزال مفهوم "العرق البدائي" إلى حد كبير قائمًا، ويظهر استعراض حياة أوتا أنه رغم اختلافه ثقافيًا، كان شخصًا ذكيًا للغاية في عالمه الخاص، وهو كان في عالم كان البيض فيه أغبياء ومتلعثمون.

انتهت القصة بعد فترة طويلة من إطلاق أوتا من حديقة الحيوان عندما قام بالانتحار بشكل مأساوي في مارس عام 1916 باستخدام مسدس حيث كان يعيش آنذاك في لينشبورغ بولاية فرجينيا. أُكتشفت جثته يوم الاثنين، 20 مارس 1916. وهكذا انتهت عزلة أوتا القسرية من عائلته وشعبه، اغتيل غالبيتهم من قبل السباق "التطوري المتفوق" المصمم على استغلال أراضيهم وممتلكاتهم. من المفارقات هي أن موقع قبره غير معروف على الرغم من أن السجلات الرسمية تشير إلى أنه دفن في مقبرة الميثودية، وقد فشلت كافة الجهود المبذولة لتحديد موقعه حتى الآن (ديلاني 2007). قصة أوتا تحكي الكثير عن عنصرية الداروينية في ذلك الوقت.

ملاحظة: حُدثت التهجئة في بعض الاقتباسات.



## المراجع

راشيل آدامز، 2001. جانبي الولايات المتحدة الأمريكية: النزوات والخيال الثقافي الأمريكي. شيكاغو، مطبعة جامعة شيكاغو.

أتش بيركس أ، جيمس.1992." أوتا بنغا: الأقزام في حديقة الحيوان." جريدة المكتبة، أغسطس، 117 (13): 134.

فيليبس فيرنر برادفورد، وهارفي بلوم. 1992. أوتا بنغا: الأقزام في حديقة الحيوان. نيويورك: سانت مارتينز.

ويليامز بريدجز، 1974. جمع الحيوانات: تاريخ غير تقليدي لجمعية حيوانات نيويورك. نيويورك: هاربر وروو.

أم. أي بوهلر،1906. "أوتا بنغا." نيويورك تايمز، سبتمبر، 19، صفحة 8.

جاي بورز، 1905. أرض الأقزام. نيويورك: توماس واي. كراول وشركاه.

تي. جي. كرووكشانك، 1924. المغول في وسطنا. نيويورك: أي. أف. دوتون.

تيد ديلاني، 2007. الحياة بعد الموت: سر دفن أوتا بنغا. ورقة قدمت في مؤتمر اوتا بينغا الذي عقد في كلية ينشبورغ.

أم. أس.جابريل، 1906. "أوتا بنغا تقضي وقت لطيف: زائر في حديقة الحيوان لا يجد أي سبب للاحتجاجات حول الأقزام". نيويورك تايمز، سبتمبر13، صفحة 6.

أتيليوجاتي، 1937. غابة الأم الكبرى. نيويورك: أبناء تشارلز سكريبنر.

جين – بييرهاليت، 1973. قزم كيتابو. نيويورك: راندوم هاوس.

ويليام. تي هورناداي، 1906. "القزم أفريقية." نشرة مجتمع الحيوان، أكتوبر 23:

.302-301

----------. 1916 "انتحار أوتا بنغا، القزم الأفريقية." نشرة مجتمع الحيوان، مايو، 19 (3): 1356.

----------. 1922 عقـول وآداب الحيوانـات البريـة. نيويـورك: أبنـاء تشـارلز سكريبنر.

كـارولين فورنسـجاين، 1962. سلسـلة الأشـكال وكيفيـة عملهـا. نيويـورك: دوفـر، أعيد طبعه من النسخة الأصلية التي نشرها أبناء تشارلز سكريبنر.

اتـش اتـش جونسـتون، 1902. "أقـزام غابـة الكونغـو الكـبرى". تقريـر سميثسـون. صفحة 479-91.

----------. 1902. "أقزام غابة الكونغو الكبرى". الأدب الحالي. 32: 294-5.

أرثر. أتش. جي. كيـاني، 1907. "الفضـول الأنثروبولـوجي. أقزام العـالم. "الملحق العلمي الأمريكي، أغسطس 17، 64 (1650): 99.

أيه. بي. ليلود، 1899. "مـن خـلال أرض الأقـزام وبلد آكلي لحوم البشر البلد." أثنيوم.2: 894- 5.

ريتشاردميلنر، 1990. موسوعة التطور: بحث الأنسان عن أصوله. نيويورك: حقائق على الملف. مدمج.

مـون وشـركاه (المحـررين). 1904. "معـرض الحكومـة الفلبينيـة"، مجلـة سـاينتفيك أميركان، يوليو23، صفحة 64-67.

----------. 1905. "أقـزام الكونغـو". مجلة سـاينتفيك أميركـان، أغسـطس

.108 :107 :93 ،5

أوتا بنغا: الأقزام في حديقة الحيوان." 1992.مراجعة في الناشرون الأسبوعية. يوليو 27، 239 (23) :56.

روس ريمر، 1992. "الداروينية والبارنومية والعنصرية". مراجعة "أوتا بنغا: الأقزام في حديقة الحيوان". مراجعة كتاب نيويورك تايمز، سبتمبر 6، صفحة 3.

إلوين آرسانبورن، (المحرر). 1916. "انتحار أوتا بنغا، الأقزام الأفريقية." نشرة مجتمع الحيوان، مايو، 19 (3): 1456.

كارل سيفاكس، 1984. "بنغا، أوتا: رجل الحيوان،" في غريبي الأطوار الأمريكية، نيويورك: حقائق على الملف، صفحة 252-253.

كولين تورنبول، 1968. شعب الغابة. نيويورك: سايمون وشوستر.

صامويل بيفيرنر، 1901. "تنمية أفريقيا." المنتدى 32: 366-382.

----------. 1902. "تجربة تعليمية مع أكلة لحوم البشر". عمل العالم 4: 2289–2295.

----------.1902. "الأقزام الأفارقة." الأطلنطي 90: 184-95.

----------. 1904. "شؤون دولة الكونغو". المنتدى 36: 150-9.

----------. 1904. "جلب الأقزام لأميركا". المستقلة 57: 485 - 9.

----------. 1904. "كيف جلبت أقزام باتوا إلى معرض سانت لويس." هربرز الأسبوعية 48: 1618-20.

----------.1904. "الريادة في وسط أفريقيا." مراجعة. الدولة 78: 357-

8. اتش. أيه. كوبلنز. يتصل 36: 363-4. مستقل57: 739.

--------.1904. "مغامرات مستكشف في أفريقيا؛ كيف جلبت الأقزام إلى معرض سانت لويس." هربرز الأسبوعية. أكتوبر 22، صفحة 1618-1620.

---------.1905. "الأقـزام الأفارقـة." مجلـة سـاينتفيك أميركـان. مكمـل 59: 24، 567-24، 568.

---------. 1906. "الأقزام الأفارقة." العلوم المشهورة 69: 471-3.

---------. 1906. "منطقة الرجل الأبيض في إفريقيا". عمل العالم 13: 8227-36.

--------. 1907. "أفريقيا خمسون عاما ومن هنا". عمل العالم 13: 8727-37.

--------. 1907. "الغزو الأمريكي للكونغو." هربرز الأسبوعية 51: 644.

--------.1907. "الحكم البلجيكي على الكونغو." عمل العالم 13: 8568-75.

---------. 1908. "رحلة عبر أفريقيا." عمل العالم 16:10768-73.

--------. 1908." العرق الأبيض في المناطق الاستوائية." عمل العالم 16: 10715-20.

--------.1916. "قصـة أوتـا بنغـا، الأقـزام". نشـرة علـم الحيـوان، يوليـو19 (4): 1377-1379.

جيـوفري سـي وارد، 1992. "اوتـا بنغـا: الأقـزام في حديقـة الحيـوان." الـتراث الأمريكي، أكتوبر، 43: 12-14.

ريتشارد ويكارت، 2004. من داروين إلى هتلر: الأخلاقيات التطورية، علم تحسين النسل، والعنصرية في ألمانيا. نيويورك: بالجريف ماكميلان.

**مقالات صحفية عن أوتا بنغا في سانت لويس:**

"جلب الأقزام الأفارقة لمعرض العالم؛ أقزام مذهلة من وادي الكونغو لتكون في سانت لويس. بعض الحمر، وبعض السود. أنهم يسبقون الزنجي في أفريقيا الاستوائية. الأبطال الخائفون الذين يهاجمون الأفيال بجرأة مع رقصات وأقواس وسهام صغيرة ". منشور من سانت لويس ، يونيو 26، 1904.

"فصل لا يوصف لمغامراتي أثناء صيد الأقزام في إفريقيا [بواسطة] صمويل فيرنر". منشور من سانت لويس ، سبتمبر 4، 1904.

"البرابرة يجتمعون في ألعاب رياضية. الأقزام في قتال الطين، ورمي بعضها البعض حتى وُضع جانب واحد على الطريق. كرو هندي مايل مايل ران؛ النيجوترس لقطوا حدث تسلق القطب والباتاغوني فازوا السوريين في شد الحبل. منشور من سانت لويس ، أغسطس 6، 1904.

"أكلة لحوم البشر سيغنون ويرقصون ". منشور من سانت لويس ، أغسطس 6، 1904.

"انطلاقا من الأكواخ عبرالعواصف الممطرة؛ "الأقزام و"أينوس" يبحثان عن مأوى لليلة في المدرسة الهندية فهي تشبه سفينة نوح. المتوحشون يصرون على أخذ الحيوانات الأليفة من منازل الغابة للهروب من رعب البرق". جمهورية سانت لويس، أغسطس 20، 1904.

"الأقزام الغاضبون يهاجمون الزوار: أتش. أس. جيبونزدورانجو كولو. صورهم. لكن لم يعط أية خطوات. هو كان يتابع ويضرب؛ كان من الممكن أن يكون المال سلاحًا فعّالًا، لكنه لن يستخدمه.منشور من سانت لويس ، يوليو 19، 1904.

" المبعوث المعرض لضحايا الأقزام؟ لم يسمع المسؤولون الرسميون لمدة شهرين عن

المستكشف المرسل إلى إلي أفريكان وايلدز. قبيلة تستخدم السهام القاتلة. تعهد خطير لقسم الأنثروبولوجيا وافقت عليه الحكومة البلجيكية الاستعمارية ". منشور من سانت لويس ، الاثنين، إبريل 18، 1904.

"تكلف الهدايا إلى الزوج الملكي 2,50 دولار. الرئيس فرانسيس يجعله سعيدًا بقلوب الأقزام العظماء في العالم مقابل 8,35 دولارًا. برميل ملح للملك. والأفكار الأخرى ذات القيمة المماثلة تُعطى للأفارقة الصغار قبل المغادرة." منشور من سانت لويس ، ديسمبر 4، 1904.

"طلب الأقزام حمية القرد. السادة من جنوب أفريقيا في المعرض من المرجح أن يثبتوا أنهم منزعجون في مسألة الغذاء." منشور من سانت لويس ، يوليو 2، 1904.

الأقزام يرجفون أكثر من معسكر النار. "أعطنا البطانيات"، هو تحية إلى المبشر الذي جعلهم يخرجون من أفريقيا. قل إنها باردة في سانت لويس. تجاهل الدعاوى ورقة النخيل لمدفئة الملابس - يعلن الأمريكان معاملتهم كما لو كانوا القرود ". جمهورية سانت لويس، السبت، أغسطس 6، 1904.

"يبدأ رقص القزم بالهلع في معرض بلازا. رؤية الأفارقة الموحدين يتقدمون نحوهم، يرمون رماحهم، صراخ المرأة والحشد يتبعها في الإرهاب ". منشور من سانت لويس ، يوليو 1904.

"10000 شخص غريب عن المعرض؛ سيكون معرض بايك في العالم قريباً أكثر بقعة عالمية على وجه الأرض. حمولات السفن كلها في طريقها. ستتمثل أركان الأرض من قبل السكان الأصليين في روعتها المميزة." منشور من سانت لويس ، الجمعة، إبريل 1، 1904.

"لعرض رجل في معرض سانت لويس؛ د. مكجي جمع أنواع وغرباء من كل أرض. ويشرح خطط قسم علم الإنسان، الذي هو الأساس." نيويورك تايمز، نوفمبر 16، 1904.

"محاولة أو التعامل مع المتوحشين. سيبدأ العلماء في دراسة خاصة حول المعرض العالمي للقبائل في 1 سبتمبر." جمهورية سانت لويس، أغسطس 14، 1904.

"فيرنر يهرب من أكله من قبل أكلة لحوم البشر.رجل ذهب في البحث عن شركة الأقزام الأفريقية للكابلات."جمهورية سانت لويس، الخميس، مايو 5، 1904.

"معرض العالم قسم الأنثروبولوجيا: أجزاء من المدن القديمة سيقومونبتمثيلها والكشف عن التاريخ غير المكتوب. وترتيب كنوز العصور القديمة حتى تظهر إنجازات الرجل الحاصل في الماضي على التقدم المعاصر." جمهورية سانت لويس، الأحد، مارس 6، 1904.

**مقالات صحفية عن أوتا بنغا في نيويورك:**

"مصير الأقزام الأفريقي لا يزال غير محدد؛ مدير هورناداي بارك برونكس يرفع يديه. اللجوء لا يأخذه. بنغا في الوقت ذاته يضحك ويلعب مع الكرة وعضو الفم في نفس الوقت ". نيويورك تايمز، سبتمبر 18، 1906، صفحة 9.

"قزم بين الرئيسيات؛ أحد "البانتامز" من العرق الأفريقي في حديقة الحيوان – تحويلاته – ثلاثة وعشرون، وتزوج مرتين – للعودة إلى أفريقيا لاحقًا." [نيويورك] البريد المسائي، سبتمبر 10، 1906.

"كلمة لبنغا؛ السيد فيرنر يسأل نيويورك ألا يفسد صديقه، بوشمان. "نيويورك المنبر اليومي، أكتوبر 3، 1906.

"بنغا." نيويورك تايمز، سبتمبر 23، 1906: الافتتاحية، صفحة 8.

"بوشمان يشترك في قفص مع حديقة برونكس للقرود. بعض الضحك على نظرائه الغريبة، ولكن الكثيرين غير مسرورين؛ الحارس يحرره في أوقات. ثم، مع القوس والسهم، يأخذه الأقزام من الكونغو إلى الغابة ". نيويورك تايمز، سبتمبر 9، 1906، صفحة 9.

"بنغا تحاول أن تقتل. الأقزام تخفض في حارس الذين اعترضوا على أنه لديه غارب ". نيويورك المنبر اليومي، سبتمبر 26، 1906.

" يحصل منزل اليتيم الملون على الأقزام. لديه غرفة لذاته وقد يدخن إذا كان يحب. قد يتعلم إذا أمكن. عندما يعود إلى الكونغو يمكن أن يساعده ذلك لتطوير شعبه." نيويورك تايمز، سبتمبر 29، 1906، صفحة 7.

"الهروب من الجريدرون؛ رجل الأقزام الناجي من أكلة لحوم البشر يزور نيويورك." نيويورك المنبر اليومي، سبتمبر 16، 1906.

"الأمل لأوتا بنغا. إذا كان صغيرا، فهو ليس أحمق. ولديه سبب جيد للإقامة في أرض الرجل الأبيض. لن يدخل هنا؛ لكن رئيسه في أفريقيا قد يموت قريباً والعرف هو أن يكون له مأدبة أكل لحوم البشر ". نيويورك تايمز، سبتمبر 30، 1906، صفحة 9.

"صف أكثر حيوية للأقزام." نيويورك تايمز، سبتمبر 10، 1906.

" عرض الرجل والقرد رفض من قبل رجال الدين، القس ماكارثر يعتقد أن المعرض مهين. وزراء ملونون للتمثيل. القزم لديه قرد شبيه بالإنسان كرفيق الآن، وأعمالهم الغريبة تفرح حشود برونكس ". نيويورك تايمز، سبتمبر 10، 1906، صفحة 1.

" ام. سيلان يعض الوزراء الملونين.يرفض بقسوة استقبال الاحتجاج على تعرض الإنسان في قفص القرد." أميركان نيويورك، سبتمبر 12، 1906.

"احتجاج رجال الدين الزنجي؛ مستاء في عرض بوشمان في بيت القرد ". نيويورك المنبر اليومي، سبتمبر 11، 1906. صفحة 6.

"قانون الوزراء السود لتحرير الأقزام. سيطلب من العمدة أن يأخذونها من قفص القرد. اللجنة تزور حديقة الحيوان؛ المعارض العامة للأقزام ستقف، ولكنها ستستأنف، يقول السيد هورناداي ". نيويورك تايمز، سبتمبر 11، 1906، صفحة 2.

"لا يوجد مساعدات ل أم. سيلين. العمدة "مشغول للغاية" لرؤية لجنة الرجال الملونين. جاءوا للزيارة للاحتجاج على المعرض العام للقزم الزنجي في بيت القرد في حديقة الحيوان. ------- وقال الوفد من قبل تابعة لتقديم شكوى إلى جمعية علم الحيوان في نيويورك ".[نيويورك] البريد المسائي، سبتمبر 11، 1906.

"أوتا بنغا في ميدان سباق الخيل؛ القزم يلتقي بصديقه القديم، الفيل الصغير، يقدم برامج ". نيويورك المنبر اليومي، أكتوبر 3، 1906.

" أوتا بنغا الجديدة هي في الحقيقة سيد ملون. القزم الصغير الأفريقي، تم تعليمه طرق الحضارة في ملجأ هاورد الملون للأيتام." نيويورك الكرة الأرضية اليوم، أكتوبر 16، 1906.

"أوتا بنغا، القزم تعبت من أميركا؛ الصغير الأفريقي الغريب انتهت حياته أخيرا في ينشبورغ، فرجينيا. مرة واحدة في حديقة حيوان برونكس. رعايته الأمريكية وجدته داهية وشجاعة – أراد أن يكون متعلما." نيويورك تايمز، يوليو 16، 1916، صفحة 12.

"أوتا بنغا تقول إن الحضارة هي كل السحر. في معرض في حديقة حيوان نيويورك، في برونكس، هو يحكم بيت القرد عن طريق الرهبة. يريد الذهاب إلى المنزل لشراء له زوجة. الأقزام الإفريقيون يؤكدون أن نيويورك ليست رائعة وأننا جميعًا مجانين ". نيويورك

العالم، سبتمبر 16، 1906.

" أن تبقى الأقزام هنا؛ يريد الوزراء الملونين أخذه عندما يأتي الحارس ". نيويورك تايمز، سبتمبر 19، 1906، صفحة 1.

"لا يزال يثار حول بنغا." نيويورك تايمز، سبتمبر 23، 1906، صفحة 9.

"القزم الأسود في قفص القرد. معرض في "التذوق السيئ"، "الهجوم على الرجال النزيهين"، و "لا يستحقون حكومة مدينة نيويورك". جريدة نيويورك، سبتمبر 17، 1906.

"إن العمدة لن يساعد على تحرير الأقزام المحبوسة؛ وهو يشير إلى الوزراء الزنوج في جمعية علم الحيوان. الحشد يزعج القزم. في حالة عدم الحصول على أي إجراء من مصادر أخرى، ستطلب اللجنة من المحاكم التدخل." نيويورك تايمز، سبتمبر 12، 1906، صفحة 9.

"موضوعات الوقت. أرسله إلى الغابة ". نيويورك تايمز، سبتمبر 11، 1906، صفحة 6.

"موضوعات الوقت. الأقزام ليست هي النقطة ". نيويورك تايمز، سبتمبر 12، 1906، صفحة 8.

"حديقة الحيوان لديها كثير من الأقزام؛ هل يريد أي شخص هذا اليتيم في الخارج؟ هو لا يعض، هو لا يصوّت، أخلاقه، على الرغم من أنّه متنوع، فهو معتدل - البروفيسور فيرنر، المسافر الإفريقي، لماذا لا تأتي وتحصل عليه؟" شمس نيويورك، سبتمبر 17، 1906.



# الفصل الحادي عشر

## الداروينية واستغلال البشر المشوهين

## مقدمة

منذ أوائل القرن التاسع عشر وحتى اليوم، زار مئات الملايين من الأشخاص في كافة أنحاء العالم المتنزهات والسيرك (ليندفورز 1983؛ ميلنير 2002). حتى ظهور الرسوم المتحركة، كان السيرك الشكل الرائد للترفيه التجاري لأكثر من قرن (براندا وسبينس 1952). وكان من أبرز العروض الرئيسة في السيرك لعقود من الزمن، العروض التي يُقدَّم فيها الإنسان المشوه الذي أُعلن عنه على نطاق واسع على أنه "روابط داروين المفقودة" أو "القرد – الرجل" أو من "الرجال – القردة" أو "النساء – القردة".

عادةً ما تقام عروض السيرك هذه بشكل مخادع لتُظهر بشكل مقنع روابط الإنسان – القرد على النحو المطلوب وفقًا لنظرية داروين. وكانت العروض تاريخيًا واحدة من أكثر الأدلة إقناعاً بالداروينية بالنسبة لعامة الأشخاص. هذه "العروض، التي غالباً ما تقدم الأفراد كوسطاء همج بين البشر والحيوانات، واعتمد ذلك على اهتمام جديد بالجوانب البيولوجية للطبيعة البشرية بشكل عام والداروينية على وجه الخصوص" (زيميرمان 2001، 4).

من المعروف الآن أن كل هذه الحالات "الروابط المفقودة" المزعومة كانت لبشر طبيعيين مصابين بتشوهات جينية مختلفة أو أمراض التي تُحدد بدقة في غالبية الحالات من قبل الباحثين الطبيين (طومسون 1996). مثال على ذلك "شليتزي، الرابط

المفقـود"، وقـد كـان مصـابًا بصـغر الـرأس، كمـا كـان بالعديـد مـن الـروابط المفقـودة (هارتزمان 2005، 2010). كانت فكرة "الرابط المفقود" موجودة قبل داروين، ولكنها ظهرت في جوهرها مع نشر داروين حول أصل الأنواع في عام 1859. في حين أن العديد من الأفكار والموضوعات التي تناولها داروين لم تكن جديدة، فإن أصل الأنواع كان بوضوح منشورًا رئيسا والذي أحدث تغير جذري في طبيعة النقاش حول مسألة الأصول (برون وماسنجر 2003، 155).

يغطي هذا الفصل بعض الأمثلة الأكثر شهرة.

## قصة زيب

قُدم هذا المثال، وهو أحد أوائل العديد من "الروابط المفقودة"، في أوائل ستينيات القرن التاسع عشر بعد أشهر فقط من ظهور "أصل الأنواع لداروين" (كونهاردت وآخرون، 1995، 149). علاوة على ذلك، "كان بارنوم يعرف أن العالم مستعد للاعتقاد بإمكانية وجود" رابط مفقود "، وهو جسر حي يتنفس بين الرجل والقرد، ومن المرجح أن يدفع الكثير من المال لرؤيته بأعينهم" (هوبيرجر 2005، 122). فيما قام كونهاردت وآخرين بالدعوة لأحد عروض بارنوم البشرية العظيمة على مر التاريخ، وصُور بارنوم "الرجل – القرد" على الملصقات الإعلانية بأنه "لا شيء أقل من" الرابط المفقود "(1995، 149).




خُلد هذا "المخلوق المتوحش" الذي يدعى" زيب" من قبل كورير وإيفس. وادعوا أن تكوين زيب كان لإنسان الغاب بوجه انسان. وقد زعم السيرك أن تكوينه الذي يشبه القردة يتضمن" الرأس والجمجمة المثالية لإنسان الغاب، بينما الجزء السفلي من الوجه هو من أصل أفريقي" (كوك 1996، 148). ولدعم شكل القردة، ادعي كذلك أن أذنيه كانت بعيدة للغاية عن كونها أذن إنسان، وكانت أسنانه" مزدوجة تقريبا بالكامل"، ونتيجة لذلك، كان لا يستطيع غلق فمه بالكامل (ساكسون 1989، 99). أدعى السيرك أنه فُحص "من قبل بعض الرجال الأكثر علمًا لدينا"، وقد أعلنوا أن "هناك رابط يصل بين الحياة البرية الأفريقية وخلق المتوحشين" (ساكسون 1989، 99، التركيز في الأصل).

هذه "الحقيقة العظيمة بالنسبة لداروين" لم تكن فقط جزءًا ولكن طُلب منها كذلك أن تؤدي دورًا - حيث يُمنح طاقم طويل ليحمله على قول أنه لا يقف عادة على قدمين، بل سار مثل القرد (ساكسون 1989، 99). كان يلبس مئزر فقط، وعُلم

"لغة الأدغال" - أغلبهما همهات شنيعة - لمساعدته على تمثيل شخصية الرجل - القرد. وعندما أعطي له السيجار، كان ينخر ويبتسم، ثم يأكل السيجار (والاس 1959، 117). ممثل جيد، أقنع الملايين على التصديق أنه، في الواقع، الرجل القرد. وصفت الدعاية "أنه" اندماج بين زنجي أفريقي وإنسان الغاب، مما يدل على مدى قرب البشر والقردة من الناحية البيولوجية (آدمز 2001، 36).

في الحقيقة، كان قزمًا أمريكيًا من أصول إفريقية يدعى ويليام هنري جونسون (حوالي 1842- 1926)، والذي عانى من اضطراب دماغي يُعرف الآن باسم "صغر الرأس". ثم سمى مرض "رأس الدبوس" أو "الرأس المخروط"، المصابين بصغر الرأس لديهم مخ صغير بشكل غير طبيعي، ومصابين بتخلف عقلي، ولديهم العديد من المظاهر السطحية التي تشبه القردة. زعم أصدقاء جونسون أنه كان "شخص أبله جيد يتمتع بالعرض" (دورانت ودورانت 1957، 114).

وفقًا لكونهارت، وآخرون، جُند جونسون في مؤامرة لخداع العامة للاعتقاد بأنه كان حلقة داروين المفقودة (1995، 149). خلال تجربة سكوبس عام 1925، عرض "زيب، الرابط المفقود" ذاته كدليل لإثبات التطور (هارتزمان 2005، 50). وصف بأنه "الرجل القرد الذي قاموا بالاستيلاء عليه أثناء تأرجحه بين الأشجار في غابة أفريقية"، وكان "على عكس الرجال القردة الآخرين" لأنه "لم يكن قاسياً أو متوحشاً لدرجة أنه كان يجب تقييده أو تكبيل يديه أو احتجازه خلف القضبان"(ليندفورز 1999، 9).

لعب بشكل مقنع هذه المهزلة لأكثر من نصف قرن - من ستينيات القرن التاسع عشر حتى وفاته في عام 1926 (براندا وسبينس 1952، 242). قبل وفاته بقليل بسب

الالتهاب الرئوي في سن ال 81، وهو الآن رجل ثري للغاية، ورد أنه قال لأخته: "حسنًا، لقد خدعناهم لفترة طويلة" (براندا وسبينس 1952، 242). وقد استنتج البعض أن تعليق زيب "ربما كان يشير فقط إلى كونه" الحلقة المفقودة" (هومبيرجر 2005، 124). خلص برادنا وسبينس إلى أن زيب كان "أعظم شخص غريب" على مر العصور (1952؛ 242، 318).

## جوليا باسترانا: حلقة داروين المفقود



**جوليا باسترانا، التي عانت من الأمراض الوراثية العديدة، وقد اعتبرت حلقة الوصل المفقودة.**

ربما كانت من أكثر الروابط إقناعاً – والأكثر شهرة – روابط داروين المفقودة هي جوليا باسترانا (1834–1860). كان لديها فك مفرط النمو يشبه القردة، ولحية طويلة وشارب، وكان وجهها وجسمها بالكامل (باستثناء راحة يديها وباطن قدميها) مغطاة بشعر كثيف أسود، مجعد (أنونيموس 1855). وكان لديها كذلك أنف عريض ومسطح وشفاه سميكة وأذن كبيرة، وبطرق أخرى كانت تشبه القرد بشكل ملحوظ (ميلز 1974).

هذه السمات، بالإضافة إلى رقبتها السميكة القصيرة، وطولها الذي يبلغ ارتفاعه أربعة أقدام وست بوصات، لم تساعد إلا في دعم اعتبارها "المرأة القرد"، وهي "شبه إنسان"... بين الإنسان وإنسان الغاب" وحلقة داروين المفقودة (أوديل 1931، 413؛ لورانس 1857).

في الواقع، عانت جوليا من العديد من الأمراض الوراثية، بما في ذلك شكل من أشكال الشعرانية (تشوه ينتج مستوى هائلاً من نمو الشعر غير الطبيعي)يسمى بشكل صحيح فرط تكثف الجينات الوراثي أو فرط الشعرانية،كما أنها كانت تعاني من فرط تنسج اللثة، الذي ينتج عنه الفك الجاحظ الذي يشبه القرد(بونديسون وميلز 1993؛ أنافي وآخرين 1989؛ هورنينج وآخرين 1985).

كانت باسترانا واحدة فقط من أكثر من 50 شخصًا موثقًا ممن يعانون من الشعرانية، كثيرًا منهم كانوا "مغطون تمامًا بشعر طويل وكانوا قد أخذوا كعينات لحلقة داروين المفقودة" (دريمير 1973، 126). كثير منهم عملوا في السيرك كـ "رجال - قردة أو ذئاب بشرية ضارية" (ماوج 1997، 335).

يمكن أن يكون سبب حالة الشعرانية العديد من العوامل، بما في ذلك تشوهات الغدد الصماء. يمكن لقشرة الغدة الكظرية التالفة أو غير الطبيعية أن تنتج كميات زائدة من الأندروجينات (هرمونات الذكورة)، مما يؤدي إلى فقدان المرأة لسماتها الأنثوية، وتوقف الدورة الشهرية، وظهور العديد من السمات الذكورية، خاصة اللحية والصوت الغليظ. في الجنين الطبيعي الأنثى، يختفي الكيسوم (المنطقة الواقعة بين النخاع والقشرة للغدة الكظرية) تمامًا. عندما يستمر الكيسوم أو يتضخم بسبب الورم، يمكن أن تؤدي إلى وفرة شعر الوجه والجسم في الإناث. سبب آخر للشعرانية هو مرض وراثي نادر

يسمى فرط التشعر الشامل (سوسكيند وإستيرلي 1971).

إذا تطور الورم في الغدد الكظرية في شخص بالغ، يمكن أن تحدث حالة الشعرانية ذاتها. تُعرف عادةً باسم الشعرانية الكظرية، ويقومون بتصحيحها عادة عن طريق استئصال الورم. ويمكن كذلك أن يحدث شكل خفيف من هذه الحالة بواسطة انقطاع الطمث. قد تكون جوليا كذلك لديها مبايض قاصرة وربما ورم أو تشوهات أخرى تسببت في أن يقوم المبيضين بإنتاج هرمونات ذكورية كثيرة. ويدعم هذا الاستنتاج من الأدلة على أن والديها كانا كلاهما طبيعيين (كوكاين 1933، 249). لم يكن معروفا علاج لكافة هذه الحالات عندما كانت جوليا صغيرة.

أكثر ما أيد على كونها المرأة القرد كان وجهها: "لم يكن بها شيء أكثر شبهاً بالقرد من رأسها" (دريمير 1991، 73). فكها بارز للأمام كالغوريلا، شفتيها كبيرة إلى حد كبير. أعطاها الأنف المسطح والحواف الحادة مظهر مشابه بقوة لإنسان نياندرتال (أدمز 1990، 59- 60). تضمنت أسنان جوليا المعيبة ما بدا مثل ترتيب الأسنان الغير منتظمة، ويرجع ذلك على الأرجح إلى فرط تكون اللثة الشديد (تجاوز النمو في اللثة).

حتى أن بعضهم زعم أنه كان لديها مجموعة إضافية كاملة من الأسنان الطبيعية. والاستنتاج الخطأ بأن لديها مجموعة مزدوجة من الأسنان نتج عن حقيقة أن أنيابها السنخية السميكة يمكن الخلط بينها وبين الأسنان (بوندسون 1997، 242). تشارلز داروين، الذي "أبدى اهتمامًا بها بالتأكيد"، وفقًا لبوندسون (1997، 223)، أدام هذا التضليل.

وخلص داروين إلى أن جوليا كانت لها لحية ذكورية سميكة وجبهه ممتلئة بالشعر؛ قاموا بتصويرها، وظهر جلدها السميك للعرض؛ ولكن ما يهمنا هو أنه كان لديها في

كل من الفك العلوي والسفلي مجموعة مزدوجة غير منتظمة من الأسنان، صف موضوع بداخل الآخر، والذي ألقى د.بورلاند عليه الضوء. ونتيجة للأسنان الكثيرة، برز فمها، وظهر وجهها على شكل غوريلا (1896، 321).

لم يذكر داروين إذا ما كان يعتقد أنها كانت حلقة مفقودة، ولكن لا يبدو أنه يشعر بالقلق من كونها "محشوة" كالحيوان وعرضت للجمهور على أنها أحدهم بعد وفاتها. لاحظ جيلسيث وتوفيرود:

ربما كان تشارلز داروين على صواب حول شخصية جوليا، لكن من الناحية العلمية كان مخطئًا لأنه إن كان أحدهم قد أزعج ذاته وسألها، لكانت قد ردت على الفور بأنها بالتأكيد لم يكن لديها أية صفوف إضافية من الأسنان في فمها (على الرغم من أنها كانت تعاني من مشكلات في اللثة). (2003، 39).

يمكن أن يكون سبب تشوهات الأسنان له علاقة بالشعرانية أو يمكن أن يكون سببه داء الاسقربوط بسبب نظام غذائي يفتقر إلى فيتامين جـ عندما كانت صغيرة (فوجيل 1977؛ ميلز 1974). أسنانها، وأنيابها السنخية البارزة والفم ولثتها الكثيفة (فرط تنسج اللثة)، كل ذلك ساعد على دفع شفتيها إلى الخارج، مما أعطى لها "مظهر يُشبه القردة" كثيراً (جولد وبيلي 1896، 299؛ دريمير 1991، 80). كانت جوليا باسترانا ترتدي عادةً الملابس التي تكشف عن ساقيها وذراعيها وكتفيها حتى يتمكن الناس من رؤية شعرها الكثيف الذي يدعم الانطباع الوسيط بين القردة والبشر (دريمير 1991، 75).

وصفت منشورات الدعاية في ذلك الوقت جوليا بأنها "شبه إنسانية" و"هجين من الإنسان والقردة" (أدمز 1990، 59). في بعض الأحيان، وصفت باسترانا على أنها

"تقاطع بين الإنسان والقرد"، مما أعطى انطباعًا مضللًا بالقدرذاته بأن القردة والبشر كانوا قريبين للغاية لدرجة أنهم يمكن أن يتزاوجوا. عززت هذه الفكرة الاعتقاد بأن البشر تطوروا من القرود. حتى وصفها ريود بأنها نوع من القردة التي "انقرضت قبل عشرة آلاف سنة قبل آدم" (نُقلت من بوندسون 1997، 223).

كانت جوليا ناجحة للغاية لدرجة أنها لم تكن بحاجة إلى جولة في السيرك، ولكن يمكنها العمل ب ذاتها. عندما كانت في المسرح، عبر الجمهور عن "صيحات صوتية عالية. امرأة واحدة صرخت. أغمي عليها في مقعدها (دريمير 1991، 73). ولأنه لم يكن كافيًا بالنسبة لها سوى عرض الجمهور الذي يرى جسدها الذي يشبه القرود، فقد وضعت عرضًا للمواهب. بعض الدول، مثل ألمانيا، كل ما هو محظور باستثناء "الغريب" يدل على أن هؤلاء الأشخاص متدهورين.

للتغلب على هذه المشكلة، رقصت وغنت وغيرت جمهورها. بعد أن رقصت، "كان التصفيق عاصفاً ومتواترًا. قد تكون امرأة قبيحة، يبدو أن هذا هو قول الجمهور، لكنها تستطيع الرقص(دريمير 1991، 74)! غنت كذلك، في كثير من الأحيان باللغة الإسبانية أو الإنجليزية، وقيل لها إن صوتها عذب وغامر، مؤكدة صفاتها الإنسان القرد.

كان نجاح باسترانا كبيراً للغاية لدرجة أنه "اليوم، بعد مرور أكثر من مائة عام على وفاتها، ما زال الأشخاص يعرفون اسمها" (دريمير 1991، 75). أنتجت المخرجة الإيطالية الشهيرة كارلو بونتي في عام 1994 مسرحية عن حياتها بعنوان "المرأة القرد" (بونتي 1996).المسرحية، التي صدرت أصلاً باللغة الإيطالية باسم "المرأة القرد"، يكتشف رجل فتاة خجولة وحساسة، يغطي جسمها شعر كثيف، ويدرك أنها يمكن أن

تجعله غنياً عن طريق عرض الإثارة. وأكدت مسرحية أخرى كتبها شون برندرغاست، تستند إلى حياة جوليا، على استغلالها المأساوي (ماذر 1999).

وهناك فيلم آخر عن حياتها الذي تبلغ ميزانيته 40 مليون دولار، من إخراج تايلور هاكفورد، وبطولة ريتشارد جير كمدير لها. كتبت في الأقل رسالة دكتوراة واحدة وكتاب واحد عنها (فوتش 1918؛ جيلسيث وتوفيرود 2003). حتى أن الشعر قد كتب عن جوليا - وهي قصيدة واحدة بعنوان

"ابتهالات جوليا باسترانا"، (شابكوت 1998، 325- 329).

## حياتها المبكرة

حياة باسترانا المبكرة مغمورة بالغموض. أدعى أحد مديريها ذات مرة اكتشافها كطفل رضيع مهجور في منطقة نائية في أميركا الوسطى (ميلز 1974؛ دريمير 1973، 201). على الأرجح، ولدت في قبيلة من سييرا مادري الهنود في ولاية سينالوا على الساحل الغربي للمكسيك (بوندسون 1997، 218؛ دريمير 1991، 76). وزعمت المنشورات التي تعلن عن عرضها أن أقاربها "عاشوا في الكهوف، في حالة عري" وأن "سماتهم تشبه إلى حد كبير تلك الموجودة في"...إنسان الغاب [كذا]... [على الرغم من] أن لديهم الفكر ويستطيعون التحدث... كانوا دائمًا ينظرون إليه من قبل المسافرين كنوع من الارتباط بين الرجل والإبداع الغاشم (نقلا عن دريمير 1991، 76).

كان هذا التفسير ملفقًا لدعم الوهم بأن جوليا كانت الحلقة المفقودة لداروين. وفي الواقع كان لديها وظيفة حيث كانت تعمل في منزل الحاكم حيث تعلمت كيف تقرأ الإسبانية وتتحدث بذكاء. كان لديها هذا المنصب حتى قبل فترة وجيزة من مغادرتها

إلى أميركا في أبريل من عام 1854 (بوندسون وميلز 1993). قاموا "باكتشافها" عندما كان عمرها 20عام فقط من قبل رجل يدعى ريتز الذي أقنعها بالقدوم إلى الولايات المتحدة لتُعرض.

أقنع ريتز جوليا بمغادرة المكسيك بوعدها بحياة أفضل. وصلت إلى نيو أورليانز في أكتوبر من عام 1854، ثم توجهت مباشرة إلى نيويورك. تشير بعض الروايات التاريخية إلى أنها تعلمت في النهاية القراءة باللغة الإنجليزية وانغمست في الروايات الرومانسية – عالم الأحلام الذي سمح لها بأن تحلم أنها : إنسانة شابة جميلة ومعشوقة مثل البطلات التي قرأت عنهم (دريمير 1991، 83؛ ماذر 1999). أجرت العديد من المقابلات مع كبار الصحافيين وكان يصفها عادةً بأنها جيدة وطيّبة ولطيفة ومتربية، واجتماعية، و"ذكية وسريعة"، امرأة تتحكم في ذاتها – كل الأدلة التي تناقضت بشكل صارخ لادعاءات وضعها البشري القرد (بوندسون 1997، 225؛ ميلز 1974؛ لورانس 1857، 48). وسرعان ما تم عرضها في لندن في ريجنت وبيرلينغتون وفي معارض أخرى (لورانس 1857، 48؛ فان هار 1888، 46؛ ألتيك 1978).

الزعم الذي أدلى به بعض المعاصرين أنها كانت "زنجية" يعني أنها لم تكن امرأة قرد ولكنه الاحتيال. من الواضح أن هذا الإدعاء لم يكن جيداً بالنسبة للأعمال، ففحصها مديرها من قبل طبيب يدعى ألكسندر ب. موت، الذي خلص إلى أنها كانت هجينة من القردة البشرية حيث كانت طبيعة المرأة هي الغالبة على غاشمة الأورانجوتان" over the orangutan brute" (بوندسون 1997، 219؛ دريمير 1991، 79).

ولزيادة تعزيز الإدعاءات المروجة، فُحصت جوليا من قبل الطبيب كليفلاند د.س.

برينرد. قارن الطبيب شعر جوليا مع شعر أفريقي تحت المجهر وخلص من هذا "الاختبار" إن جوليا احتوت على " أثر للدم الزنجي" (بوندسون 1997، 219؛ دريمير 1991، 80). كما خلص إلى أنها جزء من "أنواع متميزة". ويمكن تفسير هذه الاستنتاجات الفاحشة بحقيقة أن الأطباء في القرن التاسع عشر كانوا في الغالب لم يتدربوا بشكل جيد، خاصة فيما يتعلق بالقضايا الجينية.

كان الآخرون أقل ميلاً لقبول التفسير التطوري. طلب من د. نيلاند، وهو مقارن تشريح، أن يحكم مكان جوليا في المملكة الحيوانية. وفقا لرأيه "إنها كانت إنسانة تماما" ولم تكن زنجية (بوندسون 1997، 220). استنتج عالم الطبيعة البريطاني فرانسيس ت. باكلاند أنها كانت "ببساطة شنيعة"، لكن فقط امرأة هندية مكسيكية مشوهة (بوكلاند 1865، 44- 51). من الواضح، أن الإدعاءات التي دعمت أنها المرأة القرد القبيحة كانت تستخدم للدعاية، وكانت مزاعم المرأة القبيحة هي السارية - قامت بجولة في كل من الولايات المتحدة وأوروبا لما يقرب من نصف عقد حتى ماتت بعد ولادة طفلها الأول في سن 26. عندما علم مديرها الأخير، ثيودور لينت، أن نجمته ستتركه لمدير آخر (كما حدث في الماضي)، أقنعها بأنه أحبها، وسرعان ما تزوجت (بوندسون 1997، 226). وفي نهاية المطاف أصبحت حاملاً وولدت فتى. قيل إنه عندما رأت جوليا ابنها، كانت مستاءة للغاية لأن الطفل كان لديه العديد من صفاتها القبيحة ثم ماتت في 25 مارس 1860، بعد أيام قليلة فقط من ولادته (ميلز 1974؛ فيدلر 1978، 145). يذكر الحساب الرسمي أنها توفيت في موسكو نتيجة لمضاعفات بعد الولادة. كانت كلماتها الأخيرة تقول، "أنا أموت وأنا سعيدة"؛ أعلم أنني قد أحببت نفسي" (ميلز،

1974، 10). ذُكر سبب الوفاة على أنه التهاب الصفاق، وهو عبارة عن عدوى في الغشاء البريتوني، وهو الغشاء الذي يشكل بطانة التجويف البطني، والتي قد تكون ناتجة عن ظروف المستشفى غير الصحية الشائعة في ذلك الوقت (بوندسون 1997، 229).

وقد بُددت أية شكوك حول دوافع زواجها الحقيقية عندما سمح بتحنيط لجسدها وابنهما من قبل البروفيسور سوكالوف في موسكو. ثم عرضهم السيد لنت لأي شخص على استعداد ان يدفع ثمن مقبول، الذي لم يكن زهيدًا. وأُجري التحنيط في معهد موسكو التشريحي، حيث حقق الأستاذ نتائج ممتازة. لاحظ براون وماسينجر أنه عندما ماتت أصبح من السهل الآن على رجال الطب فحص ومناقشة أجزاء جسمها، والتحدث بحرية عن أصلها المحتمل وتحديد موقعها في المخطط التطوري للطبيعة. من امرأة تحمل صفات المرأة الغوريلا، امتدت الحركة الداروينية (2003، 159).

سرعان ما عثر السيد لنت على "امرأة قرد" أخرى تسمى "زينورا"، وفي غضون بضع سنوات أصبح رجلًا ثريًا من عروض النساء القردة. في عام 1884 ذهب كالمجنون إلى روسيا كلاجئ سياسي، وتوفي بعد ذلك بوقت قصير. بعد وفاته، واستمر معرض جوليا وابنها في أوروبا لعقود من الزمن. أعيد جثثهم لفترة وجيزة إلى أميركا، ثم عادوا إلى المحيط الأطلسي ووضعوا في معهد الطب الشرعي في النرويج (بوندسون 1997، 241؛ أدمز 1990، 60). أراد بعض الأشخاص في هذا الوقت دفن جثامين جوليا وابنها في موطن جوليا في المكسيك، بينما أراد آخرون حفظها حتى يمكن دراستها بواسطة العلوم.

في وقت متأخر من السبعينيات، عُرضت جوليا على أنها "امرأة قرد" وخُزن جسدها في جامعة أوسلو، النرويج (براون وماسنجر 2003، 155).ثم عاد جسدها

أخيراً إلى سينالوا، دي لايفا، وهي مدينة في المكسيك، في عام 2013. وقاموا بعمل طقوساً كاثوليكية ودفنها في مقبرة محلية. ويشعر البعض أن تفاعلها هنا يرقى إلى دفن هذا الجزء المأساوي من التاريخ، بالمعنى الحرفي والمجازي، بحيث تُنسى جريمة التطور هذه. ففي المقابل، يريد اليهود أن يتأكدوا من أن العالم يعرف ما حدث أثناء المحرقة وأن يبقي الذاكرة حية بأية طريقة ممكنة.

## حلقات مفقودة أخرى

حتى قبل أن يقوم داروين بنشر عمله الكلاسيكي، كان السيرك في عيد بارنوم يظهر على الرجال القتلة المزعومين على أساس الاعتقاد، الذي نوقش من قبل العلماء آنذاك، أن الحياة قد لا تكون ثابتة، ولكنها تخضع لعملية تغيير تدريجي. لقد ترك الأمر لوالاس وداروين لصياغة نظرية الانتقاء الطبيعي، ولكن حتى قبل نشر أصل الأنواع المثيرة للجدل في عام 1859، تراكمت الأدلة الكافية لإقناع العديد من العلماء أن التطور قد حدث، على الرغم من أن آليته كانت وقتها مدركة بشكل ضئيل (ساكسون 1989، 97).

كان هناك معرض آخر لـ "رجل قرد مشوه ولكن موهوب" يدعى هيرفي ليتش، الذي حاول بارنوم تمريره كـ "الرجل البري من البراري" (ساكسون 1989، 98). كتب بارنوم ما يلي في الإعلانات التي أعلن عن عرضه في القاعة المصرية بلندن عام 1846:

هل هو حيوان؟ هل هو بشري؟... أم أنها هي السائدة منذ زمن طويل بالنسبة للارتباط بين الإنسان وأورانغ أو اوتانغ، وهو ما توصل إليه علماء الطبيعة لسنوات، لكنه لم يكتشف بعد؟... ملامحهم، واليدين، والجزء العلوي من جسمهم هي تشبه الإنسان، الجزء السفلي من الجسم، والساقين الخلفيين، هي بالتأكيد تشبه الحيوانات.

مغطى بالكامل، باستثناء الوجه واليدين، مع شعر طويل يتدفق من مختلف الظلال. إنه أكبر من رجل عادي الحجم، لكنه ليس طويل القامة.... طعامه هو المكسرات والفاكهة، على الرغم من أنه في بعض الأحيان ينغمس في وجبة من اللحم النيئ. إنه يشرب الحليب والماء والشاي، وجزء من النبيذ والبيرة (ساكسون 1989، 98).

في وقت لاحق ثبت أن "الرجل الوحشي للبراري" هو عملية احتيال، وحاول بارنوم حتى إنكار تورطه في التمثيلية. كما عُرضت القرود بشكل شائع كدليل على التطور، ويمكن للعروض أن تفلت منه عادة ولكن كانت قليلة.

كما عرضت حديقة حيوان لندن إنسانًا شقيًا يدعى جيني في منتصف ثلاثينيات القرن التاسع عشر، والذي استحوذ سلوكه الشبيه بالإنسان على خيال الجمهور، كما قدم العديد من المظاهر الهامة في الدفاتر التطورية الأولى لتشارلز داروين (براون وماسنجر 2003، 158- 159).

ساهم إعلان أمريكي من أصل إفريقي كحلقة مفقودة في العنصرية في القرنين الأخيرين (أدمز 2001، 164). كان بعض العارضين أكثر صدقاً وتجنبوا مطالبة "الحلقة المفقودة"، لكنهم زعموا أن النزوات كانت ارتدادات تطورية تسمى الأتافات:

واجه علماء الأنثروبولوجيا الداروينية بشكل مباشر للغاية في البرامج الغريبة، والتي غالباً ما حدثت في الأماكن ذاتها مثل النظارات الإثنوغرافية. وقد استخدمت هذه البرامج الداروينية لفرض أنواع مختلفة من البشر المشوهين كأفراد، أي الأفراد الذين أُعتقل تطورهم بطريقة أو بأخرى، ومن ثم قاموا بتبادل الخصائص مع أسلافهم من الحيوانات (زيميرمان 2001، 73).

ومن بين الروابط الأخرى التي يطلق عليها "المفقودون" ليونيل، وهو الرجل ذو الوجه الأسود الذي ولد في بولندا عام 1890 لوالدين طبيعيين.والذي عمل لسنوات في سيرك بيلي وبارنوم. وهناك "حلقة مفقودة" أخرى اسمها غريس غيلبرت (وصفت بأنها "الطفلة الصوفيّة") وأخرى تدعى "أنثى عيسو" (ولدت في ميشيغان في عام 1880) وقد جالت لسنوات. ومثال آخر على ذلك هو "جو جو"، الصبي ذو وجه الكلب الذي ولد في روسيا، كما كان فيدور جيفتيخو. وُصف في الإعلانات بأنه "متوحش" لا يمكن أن يكون متحضرًا.

وفي الواقع، كان متحضراً للغاية وتحدث الروسية والألمانية والإنجليزية. كما أن أحد أفضل الأمثلة على رابط داروينى المفقود هي بيرسيلا بيجانو، "الفتاة القردة"، وهي كذلك ضحية للشعرانية. عرضت من سن ال 3 سنوات في العروض، وتوفيت في نومها في 5 فبراير 2001، في سن 89 (هوفينز 2001). غالبًا ما ظهرت على خشبة المسرح مع شمبانزي مدَرَّب للتأكيد على حالتها المفقودة. "الفتاة القردة" بريسيلا والتي كانت تشبه كثيراً جوليا باسترانا، وزُعم أنها "فُتشت من قبل العديد من الأخصائيين، وهم جميعًا يدعون أنها كانت تحتوي على سمات" القرد (ليفينسون 1982، 59). ومثال آخر، هذه المسماة "فتاة الغوريلا" و "آلهة الإرهاب"، قام أوهايو بجولة في عام 1974 في مومي، تحت شعار للسؤال: "هل كان داروين على حق؟ هل تطور الإنسان من القرد؟" (ليفينسون 1982، 23).

## كراو: الرابط المفقود المثالي

عُرضت آخر [من وصفت بأنها ] :"حلقة داروين المفقودة"، وهي فتاة تدعى كراو

فاريني (1876-1926)، لأول مرة في أوروبا في أوائل ثمانينيات القرن التاسع عشر عندما كان عمرها ست أو سبع سنوات فقط، وبعد ذلك بقليل عُرضت في الولايات المتحدة (هارتزمان 2005، 54). من الواضح أنها من أصل هندي صيني، وهي منطقة معروفة الآن باسم لاوس، كانت الفتاة مغطاة بشعر أسود كثيف، وتفتقر إلى غضروف الأنف، ولديها أكياس خد التي يمكنها أن تقدمها إلى الأمام بدرجة الشمبانزي ذاتها، وجعلها كل ذلك أن تبدو مثل القرد (سنيجروفيكس 1999).

أولا، كانت تسمى "طفل القرد"، ثم، عندما نمت، "الفتاة القردة"، وأخيرا، أصبحت "امرأة القرد" (روزفيلز 1996، 126- 163). وصف وجه كراو بأنه "نوع مثير للانتصاب"، ومع قوّاتها الخارقة للقدمين والشفتين، [التي] أعطتها لقب "حلقة داروين المفقودة" (جولد وبيل 1896، 231). من أجل إقناع الجمهور بوضعها البشري القرد، قدموها "بطريقة احتيالية على أنها تحتوي على أكياس في فمها، وأصابع قدميها وغضروف في أنفها، وميزات سيمينية أخرى" (بوجدان 1988، 115).

عندما كانت فتاة صغيرة، صُورت في محيط غابة في أوضاع عززت عن قصد الإدراك العام لها كأنها هجين قرد إنساني (دورانت ودورانت 1957، 105). حتى أنها ادعت أنها كانت جزءًا من سباق كامل من "شعب القرد"، لكن حارسها الذي يدعي "ملك" لاوس أعطى كراو إذنًا لمغادرة البلاد (روزفيلز 1996، 163). في الواقع كانت "سيامي نموذجية" تعاني من "حالة مرضية" (روزفيلز 1996، 163).

عمل الخدعة: "الفتاة المشعرة من تايلاند" كانت "نجمة الإخوة رينغلينغ لسنوات" (دريمير 1973، 219). وُصف المعرض، الذي عُرضت فيه لأول مرة من قبل رجل

أعمال معروف في لندن يدعى فاريني، على النحو التالي:

لقد كان ذروة الجدل حول نظرية تشارلز داروين أن الإنسان كان ينحدر من مخلوقات تشبه القرد (لم يقل داروين أبداً أن الرجل ينحدر من القردة ذاتها) وكان أتباعه يأملون باستمرار في تحويل مخلوق وسيط بين الإنسان والقرود. بالنسبة للبعض يبدو أن كراو هو ما كانوا يبحثون عنه (دريمير 1991، 162- 163).

وكانت الحقيقة هي:

أصل الأنواع الداروينية، على الرغم من نشره قبل خمسة عشر عامًا من تقديم كراو إلى أوروبا وأميركا، كان لا يزال في ذهن الناس. كان الاندفاع نحو الاعتقاد في التطور يزداد قوة، وكان العلماء والعامة على حد سواء مفتونون وخدعوا على نطاق واسع بواسطة العينة الصغيرة في رغبتهم الأولية لإثبات علاقة [القرود والبشر] (هومبيرجير 2005، 116).

كما أدعى فاريني أن كراو تنتمي إلى قبيلة من "شعب القردة" الاستثنائي الذي عاش "عالياً في الأشجار"، وكانت تعيش على اللحوم النيئة والأرز. وقال فاريني إنه تلقى شخصياً إذنًا من العائلة المالكة البورمية لنقل الفتاة إلى إنجلترا وتبنيها لابنته. وتخطى ذلك بدعوى أنها كانت مثالًا لحلقة داروين المفقودة (جيلسيث وتوفيرد 2003، 95- 96).

وخلص هارتسمان إلى أن "كراو تم تسويقها كحلقة "داروين المفقودة"، وقد استفاد المروجون من النقاش، وقدموا كراو كدليل على أفكار داروين، وهي أرضية وسطية بين الإنسان والقرود.... أخذ بعض العلماء هذه المطالبة "في عداد المفقودين" على محمل الجد وركزوا في الواقع على أوراق كراو "(2005، 54).

عرضت في بعض المؤسسات الأكاديمية الرائدة في يومها باعتبارها "حلقة مفقودة"

داروينية (روزفيلز 1996، 163). لاحظ همبرجر أن د.إيه إتش كين قد قاد أنصار المجموعة الذين اعتقدوا أن كراو هي في الواقع، الحلقة المفقودة التي كانوا يبحثون عنها. تقترح نظريته أن هناك في أدغال لاوس سلالة من الأشخاص الأشعريين وكان هؤلاء الأشخاص الجسر بين الإنسان والحيوان. أن كراو كانت كل ما يحتاج إلى معرفته. أكد فحصه لها، دون أدنى شك، بإثبات بالضبط ما كانوا يبحثون عنه [لإثبات التطور القردي البشري] (همبرجر 2005، 116).

ولدعم طلبات السيرك والعلماء، قام السيد كوليتز - جارلو، العضو المناظر في المعهد الإثنوغرافي، بإجراء دراسة "علمية" على كراو عندما كان عمرها ست سنوات تقريباً. وقد وصفها بأنها تشبه القرد بشكل خاص، بعد أن كان شعرها ناعما أسودا سميكا يغطي رأسها وعنقها. ثم "أشار بالتفصيل إلى مدى تشابه هيكل وجهها مع الغوريلا (دريمير 1973، 163؛ وانظر كذلك إلى دريمير 1991، 74).

تحول الباحثون بقوة لرؤية "شعب القردة" الرائع (جيلسيث وتوفيرد 2003، 96). أحد الأمثلة يوضح أن الشرطة كانت أكثر ذكاء تجاه نظرية القرد لدى بعض العلماء. كان هذا الوضع "الشبيه بالقرود" واستنتاج "المفقودين" هو "على نطاق واسع"، ولكن من المعروف الآن أنه كان "وجهة نظر خاطئة" أن هاتشينسون أدعى أن "الصحف ساعدت ذلك على الانتشار" (1902، 2).

في عام 1884، عُرضت كراو في أكواريوم برلين. هنا، اعتقد بعض مروجي العروض عديمي الضمير أنها ستكون فكرة رائعة لوضعها في قفص مع القردة "الأخرى" - لم تفكر الشرطة الألمانية بذلك وربما كانوا على حق. أن أي شخص يمكن أن يفكر في

وضع طفلة صغيرة في قفص الغوريلا كان أقل من الغباء، على الرغم من أنه عمل من الإيمان الخالص. يقال، احتدم جدل كبير بشأن كراو وما إذا كانت إنسانية بالكامل أم لا. وهكذا، يمكن أن نشير إلى أن المروجين يعتقدون حقاً أنها كانت واحدة مع الغوريلا وأن الغوريلا ستراه على هذا النحو كذلك (همبرجر 2005، 116).

لم يتوافق كافة العلماء مع فكرة الرابط المفقود، وقاد غير المؤمنين د.فوفيل. كان، مثل كين، حريصًا للغاية على قبول كراو على أنها حلقة مفقودة، لكنه امتلك شكًا إذ كان أكثر علمًا بالعلوم حول كل شيء. على الرغم من أنه استطاع أن يرى أن كراو لديها خصائص جسدية كانت شديدة السمية، لكن فهمها للغة وردود الفعل الحادة والذكاء السريع جعلته على يقين من أن كراو كانت إنسانةً صغيرة، مصاباً بحالة من الترهل الشديد، ولا شيء أكثر من ذلك. لم تكن نصف قرد بعد كل شيء. لكن على الرغم من الإثبات، رفض كين قبول أي تفسير آخر غير التوضيح الذي ألقاه بخصوصها (همبرجر 2005، 116).

وخلص الخبير إلى أنه على الرغم من الذكاء العادي، وطلاقة اللسان في عدة لغات والقراءة الجيدة والتصرف على نحو مبهج، إذا كانت كراو منزعجة، فإن "طبيعتها البرية في وقت واحد تأتي إلى الصدارة. فترمي ذاتها على الأرض، وتتلو وتصرخ وتركل، وتعبر عن غضبها بسحب شعرها بطريقة خاصة للغاية (مقتبس مندريمير 1973، 163). كتب هارتسمان: "في الحقيقة كان سكان الشجرة المفترضين يقرأون جيداً ومتعددين اللغات وربما أكثر ذكاءً من العديد من المتبعين الذين دفعوا من أجل مقابلتها" (2005، 54).

من المحتمل أن تكون ذات "خصائص قبيحة"، ومن المفترض أن تكون حالة كراو ناتجة عن الشعرانية، ومن المحتمل أنها عانت من التشوهات ذاتها أو تشوهات مشابهة مثل جوليا باسترانا. ربما كما هو الحال مع جوليا، كان لديها نقص فيتامين (ج) عندما كانت طفلة، والتي قد تكون أنتجت بعض ميزات تشبه القرد مثل شفاهها البارزة. استمرت كراو في العروض حتى أصبحت نجمة من الإخوة رينغلينغ، في سيرك بارنوم وبيلي حتى توفيت في 16 أبريل 1926، عن عمر يناهز ال 49عاما.

## الدوافع لاستغلال الأشخاص المشوهين

في كثير من الأحيان لم يكن الدافع وراء السيرك والعارضين في المقام الأول لإثبات التطور للجمهور. ففي الواقع غالبية الحالات لم تعلم معارضهم إذا كانوا مرضي أو مشوهين. وكان الدافع الرئيسي بلا شك في كثير من الأحيان هو الحصول على المال. ومع ذلك، كانت النتيجة النهائية هي المساعدة في إقناع عامة الأشخاص بصحة الداروينية وكان أحد العوامل الأخرى المؤثرة في التسبب في التحويل السريع لقطاعات كبيرة من السكان إلى التطور الدارويني.

وقد خدع بعض علماء الأنثروبولوجيا المدربين وعلماء الأحياء. حتى خلص ميلنر، في دراسة أجريت في هذه الفترة، إلى أن "أنصار التطور الأوائل قد فكروا... كانت جوليا باسترانا بمثابة "ارتداد" لمرحلة شبيهة بالبشرية "(1990، 354). على الرغم من أن غالبية علماء الأنثروبولوجيا ومؤلفو الكتب لم يستخدموا هذه الأمثلة كدليل على الداروينية، فإن داروين وهاكل ووالاس ناقشوا هذه الأمثلة كدليل على التطور الكبير.

أحد "النصوص الأنثروبولوجية القياسية"، "الأجناس الحية للبشرية" (هوتشينسون

1902، 5)، تحتوي على صورة لجوليا باسترانا التي أُستخدمت في بعض المنشورات العنصرية الأمريكية التي ادعت أنها كانت هجينة "بين شخص أسود وقرد" (بوندسون 1997، 243). بل إن داروين وصف مظهر جوليا باسترانا بأنه "مثل الغوريلا" وكدليل على المدى الكبير للاختلاف الجيني الموجود لدى البشر والذي يسمح للاختيار الطبيعي بالاختيار (1896، 321). نحن نعلم الآن أن هذا التفرد لم يكن بسبب الاختلاف الجيني الطبيعي بل كان نتيجة أمراض نادرة.

وصف هيجل الانسة باسترانا كإنسان شبيه بالقرود الذي تطور من القرود طويلة الأنف (1905، 372). وزعم المؤلف أودري توبيينغ أن الصينيين "ظنوا لسنوات أن هؤلاء الأشخاص كانوا عودة إلى نموذج أولي من الأجداد مثل الرجل القرد" (1981، 113). ونادرا ما يكشف التطوريون عن هذه الحالات بشكل علني على أنها مزورة، وبالتالي، تصبح كدعم غير صحيح للداروينية، على الرغم من أن بعض الأطباء قاموا بفحص هذه "الروابط المفقودة" وتحققوا من أنهم مجرد بشر مُصابين.

قام بعض العلماء بفحص الإدعاءات الفردية، وخلصت إحدى الدراسات التي أجراها عالم الأنثروبولوجيا الإنجليزي البروفيسور كين إلى أن كراو كانت بوضوح جنس الإنسان الأول (سنيروفيكس 1999؛ وانظر كذلك إلى هاريسون 1883). ولاحظ راتفلز أن المجتمع العلمي و "المتعلمين"، ككل، يميلون إلى العبوس على مطالبات العارضين بـ "المتوحشين" و "الرجال القردة" بأن النزوات كانت في الواقع الروابط المفقودة ذات النظرة الكبيرة.... على الرغم من الشكوك، لكن الاهتمام العلمي في "الروابط المفقودة" نادرًا ما خفت حدته (1996، 162).

من خلال صمتهم، سمحوا بعدم الأمانة والخداع الصريح على مدى عقود. حتى أن بعض العلماء أعاروا هيبتهم وسلطتهم إلى الاحتيال [حتى أصبحوا ] "في عداد المفقودين". طلب المشاهدون من العلماء أن يوثقوا المصدر والمصداقية، وظهر تعليق العلماء في الصحف ومنشورات الدعاية. عُرضت بعض المعروضات على الجمعيات العلمية للمناقشة والمضاربة. لعب المشاهدون على الانتماء العلمي.

استخدموا كلمة "متحف" في عنوان العديد من العروض الغريبة وأشاروا إلى محاضرين عرض غريبين كـ "بروفسور" أو "طبيب". ربط المعارض الشريرة بالعلم جعل مناطق الجذب أكثر إثارة للاهتمام، وأكثر قابلية للتصديق، وأقل تفاهة لمشاعر المعارضة العادية للتسلية. (طومسون 1996، 29).

## تأثير عروض السيرك للقرد البشري على الأشخاص العاديين

كانت إحدى الأساطير الهامة التي نتجت عن الداروينية أنه يجب أن توجد، في مكان ما في الحاضر أو الماضي، أن هناك مخلوقات كانت وسيطة بين البشر والإنثربويدات. وتتعلق هذه الفكرة بنقل التفويض - أي أن أطفالنا أو أطفال أطفالنا قد يعودون إلى المخلوقات التي دون مستوى الإنسان التي كانت في وقت واحد في الماضي (فيدلر 1978، 241). كل من هذه الأفكار قاموا باستغلالها من قبل السيرك.

كم من ملايين الأشخاص شاهدوا هذه المعروضات "البشر القردة" المختلفة، ونتيجة لذلك، أصبحوا مقتنعين بأن الداروينية كانت صحيحة... وتكشف المقابلات أن تلك المعارض "تركت انطباعًا دائمًا" لدى بعض الأشخاص، مما أثر على الكثيرين لقبول التطور (بوندسون 1997، 217). كان هذا صحيحًا على الرغم من أن غالبية

هذه التشوهات البشر القردة كانت ناتجة عن عيوب طبية معروفة (غالباً ما تكون وراثية) وكانت معروفة جيداً حتى في القرن التاسع عشر (جولد وبيل 1896).

لم تكن هذه المعارض تجرد من الإنسانية بشكل صارخ فحسب، لكن العارضين في كافة الحالات تقريباً صدقوا على "النزوات" أمام العامة، إما كدليل على نظرية داروين للتطور، أو في بعض الأحيان، على الطرقات. على حد تعبير أوديل، "كان العالم يستعد تدريجيا لداروين ويفحصه من ناحية بارنوم" (1931، 413). بالنسبة للجماهير غير المدربة التي شاهدتها، كانت هذه المعروضات من القردة البشرية بلا شك مثيرة للإعجاب ومقبولة للغاية. خلاف ذلك، كما ذكرنا سابقا، لماذا يتدفق الملايين لرؤيتهم بسعر لم يكن رخيصا في يومه؟

## تأثير عروض السيرك للقرد البشري علي العنصرية

كانت السيدات الملتصقات والأشخاص الذين يشبهون القرد معروفين قبل فترة طويلة من نشر داروين لهذه الأنواع، كما قاموا باستخدامها كدليل على التطور الكلي قبل داروين. تمتد أفكار التطور البيولوجي إلى الوراء في التاريخ. حتى أن فولتير أدعى أن "الرجل الأبيض إلى الأسود مثل الأسود إلى القرد" (نقلًا عن فيدلر 1978، 240). وزعم آخرون أن "الزنوج كانوا نتيجة للتزاوج المتبادل بين البشر والسيميين". وكانت الأفكار العنصرية موجودة قبل داروين، لكن الأمور تغيرت بشكل كبير بعد نشر كتاباته. كتب فيلدر أن "الأساطير العنصرية لم تؤدِ دورا حاسما في تصور غير الأوروبيين من قبل الأوروبيين حتى انتصار نظرية التطور العضوي في داروين" أصل الأنواع والتي نشرت في 1859. ثم "امتدادها بالقياس إلى أوائل الأنثروبولوجيا التنموية "أصبحت

شائعة لأن ما يقرب من كافة قراء داروين في وقت مبكر اقتادوه إلى أن تقول إن وراء هومو سابينس"Homo sapiens " التطور البشري هوليس من الممكن ،ولا من المرغوب فيه - والكفاح من أجل البقاء على قيد الحياة، لذلك، على الرغم من أنها لا تتوقف عند هذه النقطة، ينتقل من ينتقل من المستوى البيولوجي إلى المستوى الاجتماعي أو الثقافي. هذا "الإنسوبولوجي الجديد" الذي دُرس، قد أثار الرجال من "البدائية" أو "الوحشية" إلى "الحضارة"، من ثقافة دون الأبجدية أو العجلة إلى ثقافة مطبعة وتقنية متقدمة، وباختصار، من الحياة "السيئة، البشعة والقصيرة" في غالبية أنحاء العالم إلى النوع الذي يتمتع به في أوروبا - وبعد فترة، الولايات المتحدة (فيدلر 1978، 240- 241).

يجادل فيدلر بأن العنصرية في الداروينية كانت هامة كذلك في التأثير على ظهور الأفكار والحركات العنصرية مثل كو كلوكس كلان. وعلاوة على ذلك، فإن إقناع العديد من الأشخاص بواقع التطور كان له كذلك العديد من الآثار الجانبية العنصرية غير المقصودة التي ساعدت بلا شك على إضفاء الشرعية على الحركات مثل كو كلوكس كلان. يوجد مثال على ذلك في فيلم 1915 بعنوان "ولادة أمة"، عندما يقول الأب الأبيض لـ "المولاتو" المتعلم في هارفارد الذي طلب يد ابنته في الزواج، "لقد عرفت حقيقة هامة أن رجلًا أو امرأة من سلالة الزنوج، على الرغم من أن قرنًا ما تمت إزالته، ستتكاثر فجأة مرة أخرى وينجب طفل نيغرو خالص، ثخين، غريب الأطوار، مسطحة الأنف، البشرة السوداء. يمكن لقطرة واحدة من دمك في عائلتي دفعها إلى الوراء ثلاثة آلاف سنة في التاريخ" (فيدلر 1978، 241- 242).

كما أن تأثير محاولات إزاحة الأشخاص المصابين والمشوّهين جينياً كحلقة داروين

المفقودة كان له كذلك آثار سلبية، إن لم تكن مأساوية، على الضحايا أنفسهم. فبدلاً من مساعدتهم على التعامل مع أوضاعهم، لا شك في أن هذا قد أدى إلى استمرار عدم توافقهم مع المجتمع، مما أدى إلى إنتاج العلامة المزورة "غريب"، الأمر الذي جعل الأمر أكثر صعوبة بالنسبة لهم لإقامة علاقات طبيعية معقولة مع الآخرين(فيدلر 1978؛ دريمير 1991). عانى غالبية من وصفوا بـ "الرجل القرد الدرويني" من فرط الشعر الزائدي الخانق (الشعر الطويل غير المصطبغ على كامل الجسم) أو أطراف الشعر المفرط الخلقي (الشعر المصطبغ الطويل على كامل الجسم) و/ أو فرط تنسج اللثة.

إدراك أن هؤلاء الأشخاص لم يكونوا في عداد الحلقات المفقودة ولكنهم مرضى من الناحية الطبية أو الوراثية، بالإضافة إلى تعاطف أولئك الذين تعلموا من محنتهم، ساهموا في التشريع والشعور المحلي الذي عارض عرض هؤلاء الأشخاص في برامج جانبية كما كانت شائعة في يوم من الأيام. وقد احتج العديد من قادة الكنائس على عرض جوليا باسترانا مرات عديدة خلال القرن الماضي، لأنهم لم ينظروا إلى ذلك على أنه قذر فحسب، وإنما كذلك مهين للإنسانية (بوندسون 1997، 239). إذا حاول شخص ما تقديم عرضًا مشابهًا اليوم، فلا شك أن الغضب الشعبي سيؤدي إلى إغلاق العرض سريعًا باعتباره عنصريًا ومخادعًا. ولسوء الحظ، فإن الضرر الذي تسببوا به قد انتهى الآن ولا يمكن التراجع عنه بسهولة.

## الملخص

لقد استغلوا البشر المرضى والمشوهين باعتبارهم "شاذين" لعدة عقود "لإثبات" الداروينية. كانت هذه المعروضات نقطة جذب رئيسة في العديد من العروض الرائدة في

السيرك لأكثر من قرن، ومن المحتمل أن تؤثر في ملايين الأشخاص لقبول نظرية التطور البشري. واحدًا من أحدث الأمثلة كان في عام 1974، ولا شك في وجود أحدث منها. حتى داروين وهيجل ووالاس ناقشوا هذه الأمثلة بوصفها دليلا محتملا على التطور الكبير. وفحص الأطباء هذه الروابط المفقودة الداروينية المفترضة وتحققوا من أنهم مصابون بالمرض ولكنهم من البشر العاديين. على الرغم من أن غالبية علماء الأنثروبولوجيا ومؤلفي الكتب المدرسية لا يستخدمون "النزوات" في السيرك اليوم لإثبات الداروينية، فإنهم نادراً ما يكشفون عن استخدامها بوصفها دعما احتياليا للداروينية. وبسبب صمتهم، فقد سمحوا بخيانة الأمانة باستمرار واستغلال المرضى لأكثر من قرن من الزمان.



# المراجع

راشيل أدامز، 2001. العروض الجانبية بالولايات المتحدة الأمريكية: الأهواء والخيال الثقافي الأمريكي. شيكاغو، إل: صحافة جامعة شيكاغو.

روسيل أدامز، (محرر). 1990. "النساء القردة المستغلة" في أسرار جسم الإنسان. نيويورك: منشورات وقت - الحياة.

ريتشارد ألتيك، 1978. عروض لندن. كامبردج، م.أ: صحيفة جامعة هارفرد.

ي.أنافي، ، ب. ليرمان، س. مينتز، س. كيفيتي. 1989. "التليف اللثوي العائلي مجهول السبب المصحوب بالتأخر العقلي والصرع وفرط التشعر."التطور الطبي للطفلعلم أعصاب542–538 :(4)31.

مصدر مجهول. 1855. هجين هندي! المرأة التي تحمل اسم، جوليا باسترانا. بوسطن، م أ: (يوجد نسخة في مكتبة جامعة يال.)

روبرت. بوجدان، 1988. عرض الأهواء: تقديم الشكاوى الإنسانية للتسلية والربح. شيكاغو، إل: صحافة جامعة شيكاغو.

بوندسون، ج.، أ.ي. ميلز. 1993. "جوليا باسترانا، التي لا توصف: مثال على فرط التشعر الوراثي العام مع فرط تنسج اللثة."المجلة الأمريكيةالجينات الطبية :(2)47 198–212.

بوندسون، يناير 1997. "القصة الغريبة لجوليا باسترانا."مجموعة من التساؤلات الطبية. إثاكا، نيويورك: صحافة جامعة كورنيل، ص. 244 -216.

فريدبراندا، هارتزل سبينس. 1952. القمة الكبيرة: أعوامي الأربعون مع أعظم

عرض على الأرض بواسطة فريد براندا كما قيل لهارتزل سبينس بما في ذلك قاعة المشاهير في السيرك. نيويورك:سيمون وشوستر.

جانيتبراون،، شارون ماسنجر. 2003. "المنظور الفيكتوري: جوليا باسترانا، المرأة ذات اللحية والمشعرة."المسعى159–155 :(4)27.

فرانسيز ت بوكلاند، 1865. تساؤلات التاريخ الطبيعي. المجلد 2. لندن: بينتلي.

ي.أ. كوكاين، 1933. التشوهات الموروثة للجلد وملحقاته. لندن: صحافة جامعة أكسفورد.

جيمس و. جر. كوك، 1996. (روزماري جارلانج طومسون، المحرر). "للرجال، الروابط المفقودة والمفردات: العمل الغريب لـ ب.ت. بارنوم ما هو المعرض."فريكيري: المنظورالثقافي للجسد الاستثنائي. نيويورك: صحافة جامعة نيويورك، ص. 157 -139.

تشارلز داروين، 1896. تنوع الحيوانات والنباتات تحت الاستئناس. نيويورك: د. أبليتون.

فريدريك دريمير، 1973. أشخاص خاصة للغاية؛ النضال والحب والانتصارات للانحرافات البشرية. نيويورك: منشورات أمجون.

---. 1991. "النساء القردة."ولدت مختلفة. نيويورك: بانتام، ص. 91 -27.

جوندورانت، أليس دورانت. 1957. التاريخ المصور للسيرك الأمريكي. نيويورك: أ.س. بارنيز.

ليزلي فيدلير، 1978. أهواء: أساطير وصور الذات السرية. نيويورك: سيمون وشوستر.

جوزيف فوتشز، 1917حول تريكوسون، لاسيما جوليا باسترانا. بون، ألمانيا: جامعة بون. أطروحة دكتوراه.

جورج امجولد، والتر ل. بيل. 1896. الشذوذات والفضول في الطب. فيلادلفيا، ب.أ: و.ب. ساونديرز.

كرستوفر هالز جيلسيث، لارز أو. توفيرد. 2003. ترجمه دونالد توماسونيس. جوليا باسترانا: القصة المأساوية للمرأة القرد الفيكتورية. إنجلترا: منشورات سوتون.

إرنست هايكيل، 1905. تطور الرجل. نيويورك: أبناء ج.ب. بوتنام.

ج.ب هاريسون، 1883. "كارو، المسمى الرابط المفقود،" تقرير الجمعية البريطانية لتطور العلم، ص. 575.

ماركهارتزمان، 2005. العروض الجانبية الأمريكية: موسوعة لأغرب وأعجب عروض الأداء في العالم. نيويورك: جيرمي تارتشير/ البطريق.

هامبرجر، فرنسا. 2005. كاربي فولك: أغرب العروض في العالم. نيويورك: شركة كينجستون للنشر.

ج.م. فيشر هورنينج، ب.ف. باركر، و.ج. كيلوي، ج.و. لوي. 1985. "التليف اللثوي مع فرط التشعر. تقرير حالة."مجلة علم الأسنان347–344 :(6)56.

سكوت هوفينيز، 2001. على ممر نشارة الخشب. يونيو.

.www.atomicbooks.com/shocked/0601/sawdust062001. html

اتش ان هوتشينسون، 1902. الأجناس الحية من البشرية. نيويورك: أبيلتون.

فيليب ب. جر كونهاردت، فيليب ب. كونهاردت الثالث، بيتر و. كونهاردت. 1995. ب.ت. بارنوم؛ أضخم عروض أميركا. نيويورك: ألفريد أ. كنوبف.

ج. ز. لورانس، 1857. "مقال قصير عن الأنثى ذات اللحية والمشعرة."لانسيت48)2).

ليفينسون، راندال. 1982. في البحث عن الفتاة القرد. ميليرتون، نيويورك: أبيرتير.

بيرنث ليندفورز، 1999. الأفارقة على خشبة المسرح. بلومينجتون، إ.ن: صحافة الجامعة الهندية.

---. 1983. "سيرك الأفارقة".مجلة الثقافة الأمريكية 14-9 :(2)6.

كريستين ماثير، 1999. مراجعة لـ "التاريخ الحقيقي للحياة المأساوية ووفاة جوليا باسترانا، أقبح امرأة في العالم" بقلم شون بريندبرجاست. مجلة المسرح.216 -215 :(2)51.

توماس هـ موج، 1997. "الجين المذؤوب" في ملحق العلوم. نيويورك: جروليير.

أ.ي.و. ميلز، 1974. "جوليا باسترانا: السيدة ذات اللحية."تقديم المجتمع الملكي الطبي164-160 :(2)67.

ميلنر، ريتشارد. 2002. المتوحشون والوحوش: ولادة حديقة الحيوان الحديثة. بالتيمور، م.د. صحافة جامعة جونز هوبكنز. ص. 39-38،121-116 ,11-110 ,75-74 .

---. 1990. موسوعة التطور. نيويورك: حقائق في الملف. "جوليا باسترانا"، ص. 354.

جورج. أوديل، 1931. حول مسرح نيويورك. المجلد 1857-1850] 6]. نيويورك: صحافة جامعة كمبوديا.

كارلو.بونتي، المنتج. 1996. المرأة القرد. ترجمات باللغة الإنجليزية. سياتل، و.أ: فيديو لشيء غريب. العنوان الأصليالمرأة القرد.

نيجل. روزفيلز، 1996. "الأزتيك والسكان الأصليون والأشخاص القرود: العلم والأوهام في ألمانيا 1900-1850،" ص. 172 -158، في طومسون 1996.

أ.هـ. ساكسون، 1989. ب.ت. بارنوم: الأسطورة والإنسان. نيويورك: صحافة

جامعة كلومبيا.

توماسشابكوت، المحرر. 1998. اللحظة التي صنعت المعجزة. كوينزلاند، أستراليا: صحافة جامعة كوينزلاند.

ديانا سنيجورويز، 1999. "الجنس والسيميون والمنظار في فرنسا في القرن التاسع عشر؛ أو، كيف تقول أن الإنسان من القرد."المجلة الكندية للتاريخ81-51 :34.

ر.، ن.ب. إستيرلي سوسكايند،. 1971. "فرط التشعر الوراثي الكامل."سلسلة المقارت الرئيسية لعيوب الولادة،106-103 :(8)7.

روزماري جارلاند طومسون، 1996. فريكيري: المنظور الثقافي للجسد الاستثنائي. نيويورك: صحافة جامعة نيويورك.

أودريي. توبنج، 1981. "الرجال البرية".ساينس دايجست أغسطس، ص. 113 -66.

فان هاري، ج. 1888. خمسون عامًا من حياة شومان. لندن: و.هـ. ألين.

فوجيل، ر.إ. 1977. "فرط تنسج اللثة ونقص حمض الفوليك بسبب العلاج بالأدوية المضادة للصرع: "علاقة نظرية."مجلة علم الأحياء النظري278-269 :(2)67.

إرفينج ولاس، 1959. شومان الرائع؛ حياة وأوقات ب.ت. بارنوم. نيويورك: كنوبف.

أندريو. زيمرمان، 2001. الأنثروبولوجيا ومكافحة الإنسانية في الإمبراطورية الألمانية. شيكاغو، إل: صحافة جامعة شيكاغو.



# الفصل الثاني عشر

## الداروينية تُعلم الإنسان أن الإناث أقل شأناً من الذكور

### مقدمة

إن مراجعة الكتابات البارزة في آواخر القرن التاسع عشر تكشف عن أن أحد الأعمدة الرئيسة لنظرية التطور المبكر، كان الاعتقاد بأن المرأة كانت أدنى منزلة من الناحية الفكرية والجسدية للرجل. كانت دونية الإناث استنتاجًا منطقيًا للنظرة الداروينية للعالم، حيث كان يُعتقد أنّ الذكور يتعرضون لضغوط انتقائية أكبر بكثير من الإناث، وخاصةً في الحرب، والتنافس على التزاوج والغذاء والملابس. بالمقابل، كانت النساء محميات من الانتقاء حسب المعايير التي تتطلب من الذكور البالغين توفير وحماية النساء والأطفال (شيرفي1973).

علم الدارونيون أنّه نتيجة لهذه الحماية، كان الانتقاء الطبيعي يعمل بنشاط أكثر على الذكور منه على الإناث. ونتيجة لذلك، أصبح الذكور "أكثر تطوراً" من النساء وأكثر تفوقاً في كافة المجالات الفكرية والمهارية. تعد عقيدة تدني المرأة مثالاً ممتازًا على حقيقة أن منطق الكرسي غالباً ما كان أكثر أهمية في بناء النظرية الداروينية أكثر من الأدلة الحفرية وغيرها من الأدلة التجريبية.

### الدليل على النظرية

ادعي الداروينيون على نطاق واسع أنّ المرأة كانت في "درجة أدنى من التطور" من الرجل لأن "التوقف المبكر لتطور الفرد" حدث في الإناث البشرية (جيلمور2001، 124). علاوة على ذلك، كان لدى النساء أدمغة أصغر وأقل تطوراً، ويعتقد أن لديهن "بدائية

أبدية" ويشبهن الأطفال. حتى أنّ أوتو فينينغر جادل بأنّ النساء "طفيليات اجتماعية"، "يجب أن يُقمعن من أجل نقاء العرق". لم تُعد النساء فقط أقل تطوراً من الرجال، ولكن كذلك رآها العديد من علماء الاجتماع أقل روحانيًا، وأكثر مادية، وأقل من الطبيعي، و"خطر حقيقي على الحضارة المعاصرة وكان لابد من قمعها لخير البشرية جمعاء" (غيلمور 2001، 125). جادل إيميل دوركهايم، مؤسس مجال علم الاجتماع الحديث، بأنّ النساء لم يكنّ متساويات مع الرجال، وهو عدم المساواة الذي ينمو بشكل متناسب مع الحضارة.

لم تكن هذه الآراء هي آراء أقلية صغيرة من المثقفين، بل كانت "وجهة نظر الأغلبية في علم الاجتماع التأسيسي في آواخر العصر الفيكتوري" (غيلمور2001، 124؛ غامبل 1849). أدت كتابات تشارلز داروين دورًا رئيسيًا في تطوير هذا الموقف. يشرح هذا الفصل كيف تطورت وجهات نظر كراهية النساء والأدلة المستخدمة لدعمها.

## أهمية الداروينية

إن الفكرة المركزية للداروينية هي البقاء للأصلح، الأمر الذي تطلب اختلافات بيولوجية يمكن أن تختار منها الطبيعة. نتيجة للانتقاء الطبيعي، كان من المرجح أن تنقرض الحيوانات الأقل شأنا، وعلى العكس، من المرجح أن تزدهر الحيوانات العليا وتنتج المزيد من النسل (داروين 1871). لقد أصبحت العنصرية البيولوجية للداروينية التي ترجع إلى آواخر القرن التاسع عشر موثقة جيداً ومعروفة على نطاق واسع. كانت نظرية تحسين النسل، المؤثرة بشكل خاص في تطوير العنصرية البيولوجية، نظرية تطورت من قبل ابن عم تشارلز داروين، السير فرانسيس جالتون (بيرغمان 1992؛ شتاين، 1988).

وهو معروف على نطاق واسع أنّه هو وأنصار التطور، بما فيهم داروين، زعموا أنّ المرأة كانت بيولوجياً وفكرياً أدنى من الرجل.

كانت فجوة الذكاء التي يعتقد الكثير من الداروينيين البارزين بوجودها بين الذكور والإناث كبيرة لدرجة أنّ البعض يصنف الجنسين على أنّهما نوعان متمايزان؛ الذكور كجنس متطور والإناث كجنس أدنى (لوف 1983). الاستنتاج واضح من التسمية النوعية ذات الحدين المستخدمة: هومو باريتاليس للنساء، هومو فرانتولس للرجال، يشبه هومو سابينز، هومو إيريكتس، هومو إرجاستر، هومو هيدلبيرجنسيس، وهومو نيندر ثيالستس.

جادل داروين ذاته بأنّ الاختلافات بين الذكور والإناث كانت كبيرة لدرجة أنّه كان مندهشًا من أنّ "مثل هذه الكائنات المختلفة تنتمي إلى النوع نفسه"، وكان مندهشًا من أن "الاختلافات الكبيرة" التي لم تتطور (روسر 1992، 59). مؤرخة علوم بارزة البروفيسورة سو روسر، وهي أكاديمية رائدة وحاملة لدرجة البكالوريوس والماجستير والدكتوراة في علم الحيوان من جامعة ويسكونسن - ماديسون. وتشمل أستاذيتها الأنثروبولوجيا وعلم الحيوان ودراسات النساء. وملخصها المكون من 52 صفحة حول عملها الأكاديمي الذي يشتمل على 13 كتابًا و73 فصلاً في الكتب و67 مقالة علمية العديد منها حول النساء في العلوم. كتبت: "هذه الكتابة في القرن التاسع عشر، ولكن رددها علماء الاجتماع (باراش 1977؛ ويلسون 1978) في هذا القرن، تشارلز داروين (1867) يشير تحديدًا إلى الاختلافات الشاسعة بين الذكور والإناث. ما أدهشه هو حقيقة أنّ هذه الكائنات المختلفة تنتمي إلى النوع نفسه. من أجل جعل التمييز بين الذكور والإناث أقوى ما يمكن، هناك حاجة إلى نظرية الانتقاء الجنسي. إنّه عامل

التمايز، الذي يضمن الفصل التام بين الجنسين، وعملهم في مجالين مختلفين تمامًا يتلاقيان فقط لغرض الإنجاب. حتّى إنّ داروين زعم أنّه من غير المنطقي أن نقول أنّه ينبغي أن يولد الذكر البشري من رحم أنثى، فهذا كأن نقول إنّ "الكنغر المثالي يجب أن يخرج من رحم دب" (داروين، 1967، 425؛ مقتبس من روسر 1992، 155).

ووضعت مزيدًا من التفاصيل، موضحةً بذلك: "مقترح داروين بأنّ الإناث والرجال يختلفون مثلما اختلفت الأنواع المنفصلة في ذهني منذ أن درست للمرة الأولى المقطع منذ 14 عامًا تقريبًا. في وقت مبكر من هذا العام أثناء القراءة في نص يحتوي على مدخل للبيولوجيا حول التعريفات المعيارية للتفاعلات بين الأنواع، ظهر هذا المقطع لداروين مرة أخرى. بدا لي أن تصنيف المرأة كنوع منفصل كان جزءًا هامًا لتطور بعض الحركات الماركسية - النسوية" (روسر 1992، 155).

علاوة على ذلك، استنتجت من أبحاثها التي استمرت لعقود من الزمان حول هذا الموضوع أنّ: "ما أصاب داروين بالاندهاش أنّه عندما راقب الذكور والإناث من الأنواع المختلفة في العالم الطبيعي لاحظ الاختلاف الهائل بينهما: "كيف أنّ يختلفان وهما من نفس النوع تقريبًا في كل الصفات المعروفة لدى علماء الطبيعة؟" (داروين 1859، 424). ما أدهشه هو حقيقة أن هذه الكائنات المختلفة تنتمي إلى نفس النوع. عندما شاهد العالم البشري في ضوء عوالم طبيعية أخرى، فوجئ بملاحظة أنّه حتى الاختلافات الأكبر لم تكن قد تطورت. "من حسن الحظ أنّ قانون المساواة في نقل الصفات الوراثية لكلا الجنسين موجود في الثدييات؛ وإلا كان من المحتمل أن يصبح الرجل متفوقًا في الموهبة العقلية على المرأة، مثل ذكر الطاووس في ريش الزينة على أنثى الطاووس"

(داروين 1871، 565). للوهلة الأولى قد يبدو من الغريب أنّ داروين يؤكد على الاختلافات بين الجنسين. يصور في أصل الأنواع الصراع من أجل الوجود باعتباره نزاعًا رئيسيًا في مجال الأجناس، بدعوى أنّ المنافسة تكون أشد بين أولئك المتقاربين في مقياس الطبيعة (داروين 1859، 76؛ روسر 1992، 59).

باختصار، كان الاختيار الطبيعي والجنسي في قلب الداروينية، وكانت دونية الإناث البشرية دليلًا رئيسيًا وشهادة رئيسية.

جادل داروين بأنّ الذكور شكلوا تطور الإناث حسب رغبتهم عن طريق الانتقاء الجنسي، تماماً كما يشكل مربي الحيوانات (ريتشاردز 1983 أ، 78). على العكس من ذلك، كانت الحرب تعمل على التخلص من الرجال الأضعف، مما سمح فقط للأصلح بالعودة إلى ديارهم والتكاثر. كما كان الرجال يعملون في الصيد، وهو نشاط آخر تخلص من الرجال الأضعف. في المقابل، لم تكن النساء عرضة لضغوط الاختيار هذه لأنهن "تخصصن في" التجمع" في الاقتصاد البدائي" (داير 1985، 122).

كان التفوق الذكوري فعالًا للغاية للتطور الذي ادعى جورج أنّ "عنصر التنافس الذكوري في الانتقاء الجنسي هو المفتاح، كما يعتقد داروين، لتطور الإنسان: من بين كافة الأسباب التي أدت إلى الاختلافات بين أجناس الإنسان، الانتقاء الجنسي كان الأكثر فاعلية (1982، 136). على الرغم من وجود كفاح الانتقاء بين المجموعات، لكنها كانت "أكثر شدة بين أعضاء نفس النوع" لأنّهم "لديهم احتياجات مماثلة ويعتمدون على الأرض ذاتها لتزويدهم بالطعام والأزواج." (ريد 1975، 45). حتى وقت قريب، زعم الدارونيون أنّ النضال المكثف للذكور داخل النوع ذاته كان عاملاً رئيسًا في

إنتاج التفوق الذكوري لكافة الأنواع الجنسية.

أسباب الاعتقاد في الدونية البيولوجية للمرأة معقدة، ولكن أفكار داروين الطبيعية والانتقائية كانت عاملًا رئيسيًا. كانت آراء داروين حول النساء منطقية من النظرية التطورية، "وبالتالي تغذي عدة أجيال من التحيز الجنسي العلمي" (ريتشاردز، 1983، 887). والأهم من ذلك أنّ أفكار داروين - كما أوضحت كتاباته - كان لها تأثير كبير في كل من العلوم والمجتمع. ونتيجة لذلك، أُلهم العلماء لاستخدام البيولوجيا وعلم الأعراق وعلم الأوليات من أجل بناء الدعم للموقف القائل بأنّ المرأة في وضع " بوضوح وبشكل لا رجعة فيه، تابع أدنى" للرجال (مورغان 1972، 1).

يمكن قياس مدى الآثار السلبية لهذه العقيدة من حقيقة أنّ مفهوم "الدونية البيولوجية للمرأة" أثر بشكل كبير على كثير من المنظرين الذين كان لهم دورًا كبيرًا في تشكيل جيلنا؛ من سيغموند فرويد إلى هافلوك إليس (شيلدز 1975). كما جادل ديورانت ببلاغة أنّ كلًا من العنصرية والتمييز على أساس الجنس كانا أساسيين في الداروينية: "قدم داروين نقاشه حول علم النفس في أصل الإنسان من خلال تأكيد التزامه بمبدأ الاستمرارية. واستقر داروين في قضيته بناء على مزيج من الحجج الزائفة والمجردة. الهمج الذين قيل إنّهم يمتلكون أدمغة أصغر وأطراف أكبر حجمًا من الأجناس العليا، والذين قيل أنّ حياتهم تهيمن عليها الغريزة وليس العقل، تم تصنيفهم كوسيط بين الطبيعة والبشر. ووسّع داروين هذا التنسيب قياسًا ليشمل ليس فقط الأطفال والمختلين عقليًا، ولكن كذلك النساء، وبعض ممن لديهم قوة الحدس، والإدراك السريع، وربما التقليد "من سمات الأجناس الدنيا، وبالتالي من سابقة ومتدنية من الحضارة" (ديورانت 1985، 295؛ أصل الإنسان 1871: 326-327).

## معتقدات داروين الشخصية

قد تعكس نظرية داروين للأعراق مواقفه الشخصية حول المرأة. على سبيل المثال عندما كان داروين يشعر بالقلق من أنّ أخيه، إيراسموس، قد يتزوج المؤلفة والمصلحة هارييت مارتينو (1802-1876)، كتب إلى أخيه، مشيراً إلى أنّه إذا تزوجها فلن يكون "أكثر من مجرد عبد زنجي لها. - تخيل إيراسموس المسكين كعبد زنجي للسيدة الفيلسوفة والحيوية للغاية." وأضاف داروين: "إنّ المساواة الكاملة في الحقوق جزء من عقيدتها. أشك كثيراً فيما إذا كانت المساواة قابلة للتطبيق. يجب أن نصلي من أجل "العبد الزنجي" المسكين" (داروين 1985، 518-519). وفقاً لديزموند ومور (1991، 201)، كان جزءًا من المشكلة هو أنّ السيدة مارتينو عادت لتوها من زيارة إلى أميركا "وكانت مليئة بحقوق ملكية الزوجة للبيت". كانت هارييت مارتينو من أبرز المدافعات عن تحرير المرأة (انظر سيرتها الذاتية 1877).

من بين المؤشرات الأكثر دلالة على موقف داروين تجاه النساء، التصريحات التي كتبها عندما كان شاباً عند سرد ما اعتبره مزايا الزواج، بما في ذلك الأطفال ورفيق دائم "سيشعرون بالاهتمام بأحد الأشياء التي يحبها ويلعب معها" أفضل من كلب على أية حال - المنزل، وشخص ما لرعاية البيت - سحر الموسيقى والألعاب ومحادثة الإناث السطحية. هذه الأمور جيدة لصحة الشخص" (1958، 232-233). حجج داروين ضد الزواج اشتملت على استنتاجه بأنّه لو بقي وحيدًا، لكان لديه حرية أكبر في السفر، وأقل مسؤوليةً وقلقًا، ووفرة في الوقت والمال. ويضيف أنّ وجود العديد من الأطفال قد يجبره على كسب لقمة العيش، مضيفًا أنّ زوجته قد لا تحب لندن. "ثم

العقوبة هي النفي والتدهور" (1958، 232-233).

أدرك داروين أنه، بصفته رجلاً متزوجًا، سيكون "عبداً رديئًا"... "أسوأ من زنجي"، ولكن بعد ذلك يتذكر أنّه "لا يمكن للمرء أن يعيش هذه الحياة بمفرده، مع الشيخوخة المترنحة، ودون أطفال لن ينظر في وجهه أحد". لخص داروين تقييمه على المذكرة الفلسفية التي تقول "هناك الكثير من العبيد السعداء" وبعد ذلك بوقت قصير، في عام 1839، تزوج ابنة عمه، إيما ويدجوود (1958، 234).

على أساس مثل هذه التصريحات، استنتج العديد من كتاب السير الذاتية لداروين أنّه كان يقلل من شأن النساء: "سيكون من الصعب تصور الانغماس في الملذات، شئ مزدرٍ، خنوع النساء للرجال" (برنت 1981، 247). جادل ريتشاردز بأن داروين قد حدد: "بوضوح الآراء حول الدونية الفكرية للمرأة ومكانتها الخاملة. لم تكن الزوجة تطمح لأن تكون رفيقة زوجها الفكرية، بل أن ترفه عنه في ساعات فراغه وتعتني بشخصيته وبيته، كي يتفرغ هو لأشياء أكثر أهمية. هذه النظريات كانت مغلفة داخل الدفاتر التي كتبها في ذلك الوقت الشاب الطبيعي الطموح قبل وقت قصير من العثور على "زوجته الناعمة اللطيفة على الأريكة". (على الرغم من أنّه طوال حياتهم معًا كان تشارلز هو الذي احتكر الأريكة، وليس إيما) (1983، 886).

غالباً ما ادّعى أنصار داروين "دائمًا أنّ سبب نظرة داروين العنصرية والتي تشمل التفرقة على أساس الجنس هي أنّ مجتمع داروين كان يُظهر هذه الخصائص ذاتها." من الواضح أنّ مجتمعه وطبقته الاجتماعية كانا مؤثرين، ولكن كما يلاحظ هال، لم يكن داروين "قليل الخبرة حتى أنّه ببساطة قرأ خصائص مجتمعه في الطبيعة" (1999).

تكشف قراءة أعمال داروين وتلاميذه عن أنّ عقيدة دونية المرأة كانت أساسية لنظرية التطور المبكر. لُخصت المبررات الرئيسة التي قدمها داروين لاستنتاجاته الدونية الأنثوية في عمله الكلاسيكي، أصل الإنسان. في هذا الكتاب، جادل داروين بأنّ الإناث البالغة من غالبية الأنواع تشبه صغار الجنسين وأنّ "الذكور أكثر تقدما من الناحية التطورية من الإناث" (كيلفز 1986، 8). واستنتج أنّه، بما أنّ تطور الأنثى يتقدم بمعدل أبطأ من التطور الذكوري، فإنّ المرأة كانت "في جوهرها، رجلاً متوقفاً" (شيلدز 1975، 749). سرعان ما انتشرت هذه النظرة المهينة للمرأة بين المعاصرين العلميين والأكاديميين الداروينين.

على سبيل المثال، جادل ألان ماكغريغور تلميذ داروين المعاصر وعالِم الأنثروبولوجيا، بأنّ المرأة كانت أقل تطوراً من الرجل وأنّ "المرأة جسديًا وعقليًا وأخلاقيًا، هي نوع من الأطفال البالغين. من المشكوك فيه أن تكون المرأة قد قدمت ولو فكرة ضئيلة تعود بالنفع على العالم" (1869، 210). وقد قبل كارل فوغت أستاذ التاريخ الطبيعي في جامعة جنيف العديد من "النتائج التي توصل إليها عالم الطبيعة الإنكليزي ، تشارلز داروين". يقول فوغت: "إن الطفل، الأنثى، والعجائز من البيض" جميعهم لديهم السمات الفكرية والشخصية "للزنوج البالغين" وأنّ الإناث في الفكر والشخصية تشبه كلًا من الرضع وأعضاء الأعراق "المتدنية" (1864، 192). جادل فوغت في دراسته بأنّ الإناث البشرية أقرب إلى الحيوانات الدنيا من الذكور وبالمثل لديهم "تشابه أكبر" مع القردة أكثر من الرجال (لوين 1987، 305).

وقد استنتج فوغت أنّ الفجوة بين الذكور والإناث تزداد مع تقدم الحضارات

وأكبرها في المجتمعات الأوروبية المتقدمة (ريتشاردز، 1983، 75). كان داروين "منبهرًا بعمل فوغت وفخورًا بتعداده بين مناصريه" (ريتشاردز 1983، 74). العديد من الداروينيين الآخرين الذين قبلوا الاستنتاج المتعلق بالانتقاء الجنسي كان لديهم قوة إبداعية هائلة من بينهم عالم فسيولوجي بارز جورج جون رومانيس. قبل موت رومان بوقت قصير، سلم داروين له قدرًا كبيرًا من البيانات. ولم يكن لديه وقت للفرز ووفقا لرومان: [أظهرت هذه البيانات] أنّه بينما تحرك الجنسين نحو أدوار أكثر تباينًا، أصبحت الإناث أدنى على نحو متزايد من حيث العقل وأكثر عاطفية. رومان شارك داروين في وجهة نظره أنّ الإناث كانت أقل تطوراً من الذكور؛ وهي أفكار عبّر عنها في العديد من الكتب والعديد من المقالات التي أثرت على جيل من علماء الأحياء. في جامعة بنسلفانيا، كتب عالم الحفريات الأمريكي المؤثر إدوارد شاربر كوب أن الحيوانات الذكور تؤدي "دورًا أكثر نشاطًا في الصراع من أجل الوجود". كل من رومان وكوب شمل البشر في تعميماتهم" (كيلفز1986، 8-9). استخدم رومان هذه البيانات لمواصلة عمله.

## الانتقاء الجنسي

لقد أدرك داروين أنّ العديد من الاختلافات بين الذكور والإناث ترجع جزئيا، أو حتى كليًا، إلى الانتقاء الجنسي. وقال إنّه من أجل تمرير جيناته، يجب على الذكر أن يثبت ذاته جسديًا وفكريًا على غيره من الذكور في المنافسة على الإناث. على العكس، يجب أن تكون المرأة متفوقة فقط في الجذب الجنسي. كما جادل داروين بأن "الانتقاء الجنسي يعتمد على نوعين مختلفين من النشاطات الداخلية: نضال الذكور مع الذكور لحيازة الإناث؛ واختيار الإناث بواسطة الزوج" (جورج 1982، 69). في كلماته، نشأ

التطور من "الصراع بين الذكور لحيازة الإناث" (داروين 1959، 88).

ودعماً لاستنتاجه، كتب داروين: "في الدول الهمجية، على سبيل المثال: الأستراليين، فإن النساء هم السبب الدائم للحرب بين أفراد القبيلة ذاتها وبين القبائل البعيدة"، مما يؤدي إلى الانتقاء الجنسي من التنافس الجنسي (1871، المجلد 2، 323). لدعم استنتاجه، يقتبس من هيرن الذي كتب أنّه في الحرب "بالطبع، أقوى حزب يحصل دائما علي الجائزة" أي النساء (1871، المجلد 2، 324). كما أشار داروين إلى العرف الهندي في أميركا الشمالية الذي تطلب من الذكور محاربة منافسيهم للحصول على زوجات. وكانت النتيجة أنّ الرجل الأضعف نادراً ما يمكنه "الحصول على الزوجة التي يفكر رجل أقوى أنه أحق بها" (داروين 1871، المجلد 2، 324). استخدم داروين العديد من الأمثلة المماثلة لتوضيح القوى التطورية التي اعتقد أنّها أنتجت رجالًا يتمتعون بالقوة البدنية والفكرية المتفوقتين ، أقدر على تَطويع الإناث جنسيًا. لقد أدرك أنه نظرًا لأنّ البشر تطوروا من الحيوانات الدنيا، "لن يعارض أحد أنّ الثور يختلف في التصرف عن البقرة، والخنزير الذكر عن الأنثى، والخيل عن الفرس، وكما هو معروف لدى حراس حدائق الحيوان، ذكور القرود أكبر من الإناث" (1871، المجلد 2، 326). جادل داروين بأنّ هناك اختلافات مماثلة بين البشر. وكانت نتيجة هذا الاختيار أنّ الرجال ليسوا فقط "أكثر شجاعة ومشاكسة وحيوية من النساء" بل يمتلكون "عبقرية أكثر ابتكارًا" (داروين 1871، المجلد 2، 316). إنّ العديد من سماتهم كان ينظر إليها على أنها "صفات للأعراق الدنيا، وبالتالي حالة سابقة متدنية من الحضارة" (داروين 1871، المجلد 2، 327). باختصار، استنتج داروين أنّ التفوق الذهني للذكور يثبت من

خلال حقيقة أنّ الرجال يصلون إلي: "مكانة أعلى في كل عمل تستطيع النساء تحقيقه؛ سواء كان يتطلب التفكير العميق أو العقل أو الخيال أو مجرد استخدام الحواس واليدين. إذا أُعد قائمتان من أبرز الرجال والنساء في الشعر والرسم والنحت والموسيقى والتاريخ والعلوم والفلسفة، لن يكون هناك مقارنة. قد نستنتج كذلك، من قانون الانحراف عن المعدلات، كما يوضحه جيدًا السيد جالتون، في عمله حول "العبقرية الوراثية"، أنّه إذا كان الرجال قادرين على التفوق على النساء في العديد من الموضوعات، فإن في المتوسط ، يجب أن تكون القوة العقلية في الرجل أعلى من المرأة" (1871، المجلد 2، 327).

حمل داروين على مدار حياته وجهات النظر هذه حول "تفوق الذكورية"، التي كان يعتقد أنها تنبؤ مركزي للتطور(ريتشاردز، 1983، 885). وقبل وفاته بوقت قصير قال داروين إنّه يتفق مع استنتاج جالتون بأنّ "التعليم والبيئة لا يحدث سوى تأثير صغير" على ذهن غالبية النساء لأنّ "غالبية صفاتنا فطرية وغير مكتسبة" (1958، 43).

باختصار، يعتقد داروين، كما يعتقد العديد من علماء البيولوجيا الاجتماعية، أنّ البيولوجيا وليس البيئة هي المصدر الرئيسي للصفات العقلية، بما في ذلك السلوك والأخلاق (ريتشاردز 1983، 67-68). من الواضح أنّ داروين تجاهل بشكل شبه كامل تأثير العوامل الأكثر أهمية، بما في ذلك الثقافة، والبيئة الأسرية، والتكيف الاجتماعي، وحقيقة أنّ هناك فرصًا مهنية وفكرية قليلة نسبيًا كانت موجودة في زمن داروين للنساء (ويليامز 1977).

وعلاوة على ذلك، وعلى الرغم من أن داروين نسب غالبية السمات النسائية إلى

الانتقاء الجنسي للذكور، فقد وصل إلى أنّ عدد صفات الذكور فقط هو الذي كان سببه انتقاء الإناث. وكان أحد الأسباب هو اعتقاده بأنّ غالبية الإناث لم يكن اختيارهن لصفاتهن البدنية أو العقلية (ريتشاردز 1983، 65). وبالتالي، فإن الرجال ليسوا فقط "أكثر قوة في الجسد والعقل من النساء"، بل "اكتسبوا قوة الاختيار"؛ التطور كان في أيدي الذكور، وكانت الإناث سلبية إلى حد كبير في هذا الأمر (داروين 1871، المجلد 2، 371). هذا هو السبب الذي جعل العديد من الداروينيين يعتقدون أن الغريزة والعواطف تهيمن على النساء، وهذا "أعظم نقاط ضعفهن" (شيلدز 1975، 742).

وشملت المشكلات الرئيسة في فرضية الانتقاء الجنسي حقيقة أنّ الزواج في العديد من المجتمعات يتم ترتيبه من قِبل الأقارب في الغالب لاعتبارات براغماتية، مثل توحد عائلات معينة، للحصول على مهر، أو لتحرير الوالدين من الحاجة إلى دعم النسل الأنثوي. كما جادل داروين بأنّ القوى الذهنية في الذكور: تطورت عادة قبل سن الإنجاب، ولن يتأثر مكونها الوراثي بالبيئة. التفوق الفكري للذكور البشرية كان فطريًا ولكن كيف حدث؟ عن طريق الانتقاء الجنسي، قال داروين، وليس عن طريق اختيار الإناث. قد تكون لحية الرجل نتيجة اختيار الإناث ولكن بالنظر إلى حالة النساء في القبائل الهمجية – حيث احتفظ الرجال بالنساء – في حالة من العبودية أكثر بكثير مما يفعله ذكر أي حيوان – ربما كان الذكر هو الذي اختار ذلك. قد تختلف معايير الجمال المختارة من قبل الذكر، حسب المعايير المختلفة للقبائل (جورج 1982، 74).

السمات التي قال داروين سببها يرجع إلى الانتقاء الجنسي تشمل الخصائص الجنسية الثانوية العديدة التي تميز البشر عن كافة الحيوانات الأخرى، بما في ذلك شكل

الجسم وخلو الأطراف من الشعر. ما يبقى دون إجابة هو ما السبب الذي يجعل الذكور أو الإناث يختارون صفات معينة عندما يتزوجون، هذه الصفات لن يفضلها زملاؤهم المغطون بالشعر على مدار الدهور، ولا يفضل أي من الرئيسيات الغير بشرية هذه الصفات "الإنسانية".

استنتاج داروين أنّ وجود سبب واحد يفسر مجموعة واسعة من الاختلافات الجنسية يمثل مشكلة (جورج 1982، 71). إذا كان الانتقاء الجنسي سبّب تطور لحية الذكور ونقصها في الإناث، فلماذا تفضل النساء الذكور الحليقة؟ من الواضح أنّ المعايير الثقافية حاسمة في تحديد ما يراه جذابًا جنسياً، وهذه المعايير تتغير، مما يمنع الاختيار الجنسي طويل الأجل المطلوب لتطويرها بيولوجياً (ميلمان 1980؛ بيلر 1977).

كما يعتقد العديد من الداروينيين أنّ الذكور هم الجنس الأفضل لأنهم اختلفوا بدرجة أكبر من الإناث في غالبية الصفات (داروين 1871). كان أمرًا مهمًا لأنّ غالبية الداروينيين قد قبلوا أنّ الخروج عن القاعدة يكون نتيجة لآليات تطورية ولسبب أن: "الذكور كانوا الجنس الأكثر تغيّرًا، فقد توصلوا سريعًا إلى أنّ الذكر هو العنصر التدريجي في هذا النوع وبمجرد إضفاء الشرعية على الانحراف عن القاعدة عن طريق النظرية التطورية، أصبحت لفرضية زيادة تقلب الذكور تفسيرات ملائمة لعدد من الاختلافات بين الجنسين، من بينها زيادة التكرار الذي حققه الرجال "التفوق" (تشيلدز1975، 743).

واستخدم مؤيدو تدني النساء أدلة مثل حقيقة أنّ نسبة أعلى من كل ممن لديهم كلًا من إعاقة أو موهبة عقلية كانوا من الذكور. لقد أدركوا أنّه بما أنّ الاختيار يعمل بدرجة أكبر على الرجال، فإنّ الذكور الأضعف سيُقضى عليهم بشكل أكثر صرامة

من الإناث الأضعف، مما يرفع المستوى التطوري للذكور ككل.

جادل نقاد داروين بأن الأمراض المرتبطة بالجنس (بالإضافة إلى العوامل الاجتماعية) كانت لها تأثيراً كبيراً في إنتاج العدد الأكبر من الذكور الذين ولدوا وهم ضعاف. علاوة على ذلك سيقومون بالحفاظ على الإناث الأضعف وفقاً للمعايير العالمية التي تحميهن. وعُرف عدد قليل من النساء على أنهن بارزات لأن أدوارهن الاجتماعية غالباً ما تقتصر على التدبير المنزلي وتربية الأطفال. علاوة على ذلك، أدت القيود المفروضة على تعليم وتوظيف النساء من قبل القانون والعرف إلى إجراء مقارنات بين الذكور والإناث عديمة الجدوى في تحديد القدرات الفطرية.

وبالتالي لا يمكن أن يعزى الاختلاف في الذكاء، ورباطة الجأش والفضيلة والنجاح المهني بين الذكور والإناث إلى علم الأحياء دون النظر إلى هذه العوامل الحاسمة. وقد ثبت في وقت لاحق أنّ غالبية الحجج التي تدور حول دونية المرأة والتي بدت ذات يوم مدعومة بشكل جيد (وبالتالي تم قبولها من قبل غالبية علماء الأحياء) بدت هذه الحجج غير صالحة، كما يتضح من التغييرات في المجتمع الغربي التي حدثت في الجيل الأخير (شيلدز 1975). كان الاعتقاد هو أنّ دور المرأة كربة بيت مكنت النساء اللواتي يعانين من الضعف من البقاء على قيد الحياة خارج البيئات المؤسسية، وهذا هو السبب في أنّ الدراسات الاستقصائية المؤسسية تشير إلى عدد أقل من السجينات.

## تأثير داروين على المجتمع

كانت لنظرية الانتقاء الطبيعي والجنسي لكل من الجسد والعقل عواقب وخيمة على المجتمع بعد وقت قصير من انتهاء داروين من أول أعماله الرئيسية في التطور في 1859.

كانت "الدونية الفطرية للإناث" مدعومة بقوة بالحتمية البيولوجية والأسبقية، من عقيدة "الطبيعة ضد الطبيعة". وبكلمات شيلدز، فإن الفكرة المهيمنة "للنظرية التطورية التي تطبَّق على العلوم الاجتماعية هي التفوق التطوري للذكر القوقازي" (شيلدز 1975، 739).

حتى أنّ أحد أنصار التطور في أواخر القرن التاسع عشر، جوزيف لو كونتي، توصل إلى أنّ اختلافات الذكور والإناث الناتجة عن التطور العضوي يجب أن تحد من دور المرأة الاجتماعي (ستيفنز 1976، 241). وبناء على ذلك، عارض لي كونتي حق المرأة في الانتخاب، لأنّ التطور جعل المرأة "غير قادرة على التعامل بعقلانية مع المشكلات السياسية وغيرها التي تتطلب انفصالاً عاطفياً ومنطقاً واضحاً" (ستيفنز 1976، 247).

بعد مراجعة نظرية "تابلو راسا" المقبولة على نطاق واسع والتي كانت تنص على أنّ البيئة كانت مسؤولة عن الشخصية، أشار فيشر إلى أنّ الداروينية أدت إلى تغيير جذري في المجتمع. السنة التي انتهى فيها داروين من الإصدار الأول غير المنشور من نظريته في الانتقاء الطبيعي [1842]، بدأ هربرت سبنسر في نشر مقالات حول الطبيعة البشرية. كان سبنسر فيلسوفًا سياسيًا وعالما اجتماعيًا بريطانيًا يعتقد أنّ النظام الاجتماعي الإنساني كان نتيجة للتطور. الآلية التي نشأ بها النظام الاجتماعي هي "البقاء للأصلح"، وهو المصطلح الذي قدمه هو، وليس داروين. في عام 1850، كتب سبنسر إحصائيات اجتماعية، وهي أطروحة فيها نظم الرعاية الاجتماعية المتعارضة، والصرف الصحي الإجباري والمدارس العامة المجانية، والتطعيمات الإجبارية، وأي شكل من أشكال "القانون السيئ". لماذا؟ لأن النظام الاجتماعي قد تطور من خلال البقاء للأصلح. الأغنياء كانوا أغنياء لأنهم كانوا أكثر لياقة؛ سيطرت بعض الدول على

الأخرى لأن هذه الشعوب كانت متفوقة بشكل طبيعي. بعض الأنواع العرقية أخضعت الآخرين لأنهم كانوا أذكى. التطور - كلمة أخرى أشاعها - أنتجت طبقات وأمم وأعراقًا متفوقة (1982، 115-116).

وأشار فيشر إلى أنّ تعاليم أنصار التطور الأوائل تضمنت ليس فقط أفكار حول العرق المتفوق، وإنما كذلك استنتاجات "الجنس المتفوق" وأنّ الذكور كانت مسيطرة على الإناث كنتيجة للتطور.

ويُعتقد كذلك أنّ الذكور أكثر تطوراً لأنهم تعرضوا تاريخياً لكثير من ضغوط الاختيار أكثر من النساء: كان الذكور الأقوى والأسرع والأكثر استعدادًا للبقاء على قيد الحياة وإحضار الطعام؛ وبالتالي، فإن الانتقاء الطبيعي يؤثر فيهم بدرجة أكبر من الإناث. يمكن أن يكون الصيد نشاطًا خطيرًا: فقد يضيع المرء أو يجرح، أو يصبح الصياد أحيانًا هو الفريسة.

ادّعى داروين أنّ السبب الرئيسي الآخر للتفوق الذكوري هو أنّ الذكور اضطروا للقتال والموت لحماية أنفسهم وأطفالهم وإناثهم. وجادل الدارويني توبينارد في القرن التاسع عشر بأنّ الذكور "يتحملون كل المسؤولية والاهتمام بالغد" وأنهم دائمًا "نشطون في محاربة البيئة والمنافسين البشريين". وبالتالي فهم بحاجة إلى مزيد من العقول "أكثر من المرأة التي يجب أن يتم حمايتها وتغذيتها؛ المرأة المستقرة التي تفتقر إلى أي مهنة داخلية، التي يكون دورها [الوحيد] هو تربية الأطفال والمحبة والسلبية (غولد 1996، 136).

باختصار زعم الدارونيون أنّ التفوق الذكوري يرجع إلى "الميراث من أسلافه الذكور نصف البشر وخلال العصور الهمجية الطويلة التي عاشها البشر، نجح أقوى الرجال

وأكثرهم جرأة، سواء في النضال العام من أجل الحياة أو في مسابقاتهم للزواج نجاحًا كان من شأنه أنّ يضمن لهم ترك ذرية أفضل بكثير" (داروين 1896، 563). وعلى العكس من ذلك، فإن النساء، عوضًا عن الصيد أو الحروب، كنّ يقمن بالمهام المحلية، التي غالباً ما تكون ضيقة النطاق، ومتكررة، ونتيجة لذلك كنّ أقل تأثراً بكثير بضغوط الاختيار.

التقليد القديم للذكور لحماية الإناث كان ينعكس بشكل خاص في سلوك الحرب: فقط الرجال يذهبوا للمعركة، وطبيعة الحرب حالت بشكل عام دون حماية الجنود من القتل المتعمد للإناث والشباب الذكور. وقتل النساء أو اختطافهن أو اغتصابهن في بعض الأحيان، لكنهن نادراً ما شاركن بشكل رسمي في الحرب كقوات قتالية. واستنتج داير أنّ القتال يقتصر على الذكور، لأنّ الرجال كانوا أكثر ملاءمة للقتال نظرًا لـ: "قوتهم البدنية وحريتهم من عبء الإنجاب. ما يقرب من كل ذكر حي لآلاف الأجيال فهم لغز الحروب. وكان الرجال متخصصين في وظائف الصيد والحروب للأسباب المادية ذاتها قبل اختراع الحرب المتحضرة (1985، 122).

وبما أنّ الانتقاء طويل الأمد يؤدي إلى الضعف، فإنّ كل تلك العوامل التي تسهل إنقاذ الضعفاء تسمح لهم بنقل جيناتهم الدنيئة إلى أبنائهم، الأمر الذي يعمل ضد التطور. كانت الإناث أدنى نتيجة للانتقاء الدارويني الأكبر للذكور مقارنة بالإناث، وبالنسبة للذكور، فإن المكاسب المحتملة إما في التكاثر الفوري أو في إمبراطورية من الزوجات والذرية كانت أكبر. كذلك هي احتمالات الإفلاس الفوري (الموت) أو الإفلاس الدائم من العزوبة اللاإرادية ولا يمكن تجنبها. يجب أن يعمل برنامج تنموي للذكور ضد الصعاب في محاولة للحصول على أعلى توزيع للياقة. سيتبين أن معدل

وفيات الإناث يفوق الذكور، وليس في الأنواع توليد الأعراس المتغايرة، ولكن في الإناث ذوات الذكورة (وليام 1977، 138-139).

كما جادل الداروينيون بأنّ المهارات تؤدي دوراً أكبر بكثير في الصيد والقتال أكثر من المهام المنزلية التي تقوم بها النساء. وبالتالي، فإن حياة النساء تتطلب عادة "مهارات أقل من المهارات المطلوبة للرجل. وتشير الأدلة المتوفرة إلى أنّ الرجال يتفاوتون أكثر في قدرات الصيد مقارنة بالمرأة في قدرات الجلوس، وبالتالي، كما هو الحال بالنسبة للعنف، فإن أعمال الاختيار تكون أكثر كثافة بين الذكور من الإناث" (سيمونز 1980، 162). بكلمات وليامز: في كل لحظة في الحياة، "الجنس المذكر يعمل على الارتقاء إلى الأعلى" (1977، 138).

## أهمية دونية الإناث في الداروينية

لقد كان غالبية الداروניين يعدون الدونية في الإناث جانباً أساسياً، ودليل لا يمكن نفيه على التطور الكلي. كان دليلاً مهمًا بشكلٍ خاص على مساهمات داروين الرئيسة في نظرية التطور، والاختيار الطبيعي والجنسي. لقد لاحظ جورج مدى أهمية النتيجة الدونية للمرأة بالنسبة للتطور: "فالفرق الرئيسي بين الرجال والنساء يكمن في قوتهم الفكرية، "الرجل يحصل على مكانة عالية في كل ما يعمل، أكثر من النساء؛ "إن تلك الاختلافات اللافتة للنظر، لا يمكن أن تكون نتيجة استخدام أو إهمال، لميرات الشخصيات المكتسبة، أو تلك التي تتطلب تفكيراً عميقاً أو عقلًا أو خيالًا أو مجرد استخدام للحواس والأيدي". للعمل الجاد وتنمية العضلات لم يكن من اختصاص الإنسان: "في المجتمعات البربرية تعمل النساء بجد وصعوبة.".. التفوق الفكري للذكور

البشرية كان فطريًا ولكن كيف حدث؟ عن طريق الانتقاء الجنسي، قال داروين، ليس باختيار النساء (1982، 74).

إن عقيدة النقص الأنثوي دليل رئيس للتطور عن طريق الانتقاء الطبيعي واعتبرت من قبل غالبية العلماء في آواخر القرن التاسع عشر. يدعي غولد أن كافة العلماء تقريباً اعتقدوا أن السود والنساء والمجموعات الأخرى كانوا أدنى من الناحية الفكرية وأقرب بيولوجياً إلى الحيوانات الدنيا من الذكور البيض (غولد 1996، 57). ولم يكن هؤلاء العلماء يكررون ببساطة تحيزاتهم الثقافية؛ ولكن كانت معتقداتهم مبنية على نظرية بحثية وتطورية موسعة، سيقومون الآن بمراجعة بعضها.

ولم يكن داروين ببساطة يقدم أسبابًا بيولوجية لدعم وجهة نظر كانت تُعتقَد على نطاق واسع في أيامه. أشار تافريس إلى أنه كان من المعتقد على نطاق واسع بين العلماء لقرون "أن غالبية أجزاء الجسم للرجال والنساء كانت قابلة للتبادل تمامًا، وأن الأجزاء التي لم تكن - تلك الأعضاء التناسلية المثيرة للاهتمام - كانت مع ذلك متماثلة: كانت الأعضاء النسائية هي ذاتها مثل الرجال، "تحولت في الخارج" (1992، 97). تسببت الداروينية في تغيير جذري في هذه النظرة المشتركة مرة واحدة، وأنتج العلماء في كافة المجالات التي تهاجم هذه الفرضية. بدلاً من ذلك، يؤكد العديد من الداروينيين على ما يرون أنه:

هوة بين الطباع الذكورية والأنثوية، الجسدية والعقلية. واستنتجوا إلى أن الاختلافات بين أجساد الذكور والإناث كانت شاسعة بالمثل، لأن تطوير الإناث قد اكتشفت في مرحلة أدنى من التطور. وقالوا إن النساء يمكن وضعهن على السلم

التطوري جنبا إلى جنب مع الأطفال، والقردة، والأشخاص "البدائيين". حتى الرسوم التوضيحية للهيكل العظمي للإناث تعكس هذا الإيمان بدونية الإناث. رسمت الهياكل العظمية النسائية مع جماجم صغيرة وأحواض واسعة، للتأكيد على فكرة أن المرأة كانت ضعيفة فكريا ومناسبة بشكل رئيس للوظائف الإنجابية (تافرز 1992، 97).

لتثبت علمياً أن هذا الفكر الرئيس في الداروينية يتطلب إنتاج روايات من البحوث التجريبية التي تدعم موقف النساء الأقل شأناً. حتى اليوم، لا يزال بعض علماء التطور يقبلون الكثير من هذه الاستنتاجات (راشكون وأنكني 1996؛ تشيلدز 1975). يشير جيبونز إلى أن العديد من أنصار التطور يتجاهلون الأهمية الحيوية للعوامل الاجتماعية ويتوصلون إلى أن الاختلافات الجنسية في النشاط العقلي لها "جذورها في الضغوط التطورية القوية على الجنسين خلال عصور ما قبل التاريخ عندما كان المخ يتوسع بسرعة" (1991، 958).

## قدرة دماغ الإناث الدونية

كان أحد المناهج التي ضبطت على أساس علمي لإثبات أن الإناث كانت أدنى من الذكور "يثبت" أن قدرتها الدماغية المتوسطة كانت أصغر. سعى الباحثون لأول مرة لإثبات قدرة الجمجمة الأصغر في الإناث من خلال قياسات الجمجمة، ثم حاولوا إثبات الهامة الأكثر صعوبة التي كانت لطاقة المخ علاقة سببية مباشرة بالذكاء (فان فالين 1974). وفُسر هذا النهج في التبرير نحو إثبات الدونية من قبل داروين:

بما أن الكليات العقلية المختلفة تطورت تدريجياً فإن المخ سيصبح أكبر بالتأكيد.... إن النسبة الكبيرة التي يتحملها حجم دماغ الإنسان لجسمه، مقارنة

بنفس النسبة في الغوريلا أو إنسان الغاب، ترتبط ارتباطًا وثيقًا بقواه العقلية العليا.... هناك علاقة قوية بين حجم المخ وتطور الكليات الفكرية التي تدعمها المقارنة بين جماجم الأجناس الهمجية والمتحضرة والأشخاص القدامى والحديثين، وعن طريق التشابه بين سلسلة الفقاريات بأكملها. (1896، 54).

أحد أبرز الباحثين الأوائل الذين استخدموا علم القحف لإثبات الدونية الفكرية للمرأة كان داروين بول بروكا (1824-1880). كان البروفيسور بروكا جراحًا في كلية الطب في باريس، وهو واحد من أرقى علماء الأنثروبولوجيا الفيزيائية في أوروبا ومؤسس الجمعية الأنثروبولوجية المرموقة (الرسوم 1979، 415). كان الشغل الشاغل لهذا المجتمع هو قياس السمات البشرية المختلفة، بما في ذلك الجماجم، من أجل "تحديد المجموعات البشرية وتقييم قيمتها النسبية" (جولد 1996، 115).

واستنتج بروكا إلى أنه في البشر الأصحاء، يكون المخ، في المتوسط، أكبر في "الرجال منه في النساء"، وأكبر في "الرجال البارزين من الرجال ذوي المواهب المتوسطة"، وأكبر "في الأعراق العليا من الأجناس الدنيا" (جولد1996، 115). وأضاف أن هناك أشياء أخرى متساوية، وأن "هناك علاقة ملحوظة بين تطور الذكاء وحجم المخ" (جولد1996، 115).

وفي ضوء استنتاجاته، لم يكن بحث بروكا سطحيًا كما قد نتوقع، ولكنه كان واسعًا وشاملًا بحيث لا يستطيع المرء قراءة كتاباته "دون اكتساب احترام كبير لرعايته في توليد البيانات" (جولد1996، 117). وركز بروكا على المقارنات الفكرية والجماعية وعلى كافة المقارنات التي جمعها، وكان أكبر قدر من المعلومات عن أدمغة النساء مقابل

الرجال (غولد 1996، 135). واستنتج إلى أن "الحجم الصغير نسبيًا لدماغ الإناث" يرجع إلى دقتها الجسدية والفكرية (جولد 1996، 136). وأضاف بروكا أن التباين بين أدمغة الرجال والنساء لا يزال يتزايد في المجتمع الحديث نتيجة "اختلاف الضغوط التطورية" (غولد 1996، 136).

كان قياس حجم المخ بالغ الأهمية في إثبات الدونية للمرأة، لأنه كان من المفترض أن حجم المخ يرتبط مع الذكاء. واعتبرت هذه العلاقة حاسمة من وجهة نظر بيولوجية وتطورية... كان هناك تأثيرًا سببيًا مباشرًا، من خلال الانتقاء الطبيعي في سياق التطور البشري، بين الذكاء وحجم المخ. كانت الميزة الانتقائية التطورية لزيادة حجم المخ هي القدرة الأكبر على الأداء الفكري الأكثر تعقيدًا. "الانتقاء الطبيعي على الذكاء بكثافة تقديرية حالية يكفي لشرح المعدل السريع لزيادة حجم المخ في التطور البشري" (جنسن 1980، 361).

الدارويني غوستاف لو بون (1841-1931)، مؤسس مجال علم النفس الاجتماعي ورائد في مجال السلوك الجماعي الذي كان دراسته الكلاسيكية هي سلوك الغوغاء، (1895)، وهو مألوف لكل طالب في العلوم الاجتماعية، علم أنه حتى في الأجناس الأكثر ذكاءً، هناك عدد كبير من النساء لديهن أدمغة: " أقرب في الحجم من تلك التي لدى الغوريلات منها إلى أدمغة الذكور الأكثر تطوراً. هذه الدونية واضحة لدرجة أنه لا يمكن لأحد أن ينافسها للحظة. فقط درجة ممن يستحق المناقشة.... نساء... تمثل الأشكال الأدنى من التطور البشري وهن أقرب إلى الأطفال والكبار، من الرجال المتحضرين. إنها تتفوق في التقلب، وعدم الاتساق، وغياب الفكر والمنطق، وعدم القدرة على التفكير. من دون شك توجد بعض النساء المتميزات... ولكنها استثنائية

مثل ولادة أي شيء بشع، كما على سبيل المثال في الغوريلا برأسين. وبالتالي، قد نهملهن تمامًا (غولد 1996، 136-137).

كان أنصار التطور الآخرين مقتنعين بأن الاختلافات العديدة بين أدمغة الذكور والإناث شملت فصوص أمامية أقل تطوراً وألياف دماغية أكثر نعومة وحيوية في الإناث. وكانت الفصوص الأمامية للذكور في كافة النواحي أكثر تطوراً من تلك الخاصة بالإناث، وهو اختلاف في الجنس وجد حتى في الجنين (الدروع 1975). الاختلافات المفترضة الأخرى التي أشارت إلى أن الذكور كانت متفوّقة شملت تعقيد وتشكيل الجيروسكوب والتلم والجسم الثفني ومعدل تطور قشرة الجنين (شيلدز 1975، 740—742).

دراسة حديثة أجراها فان فالين (والتي استنتجها العالم النفساني من جامعة كاليفورنيا - بيركلي آرثر جنسن كانت "المراجعة الأكثر شمولاً وتعقيداً في الآونة الأخيرة لكل الأدلة المتعلقة بحجم المخ البشري وذكائه") وجدت أن أفضل تقدير للداخل الجنسي قد يكون الارتباط بين حجم المخ ومعدل الذكاء "عاليًا مثل 0,3" (جنسن1980، 361؛ فان فالين 1974، 417). لسوء حظ الداروينيين، فإن العلاقة بين 0,3 تمثل 9 في المائة فقط من التباين بين الجنسين، وهو فرق قد يكون دليلاً على الاختبار والتحيز الثقافي أكثر من الدونية البيولوجية.

حتى إن شالتر يرى أن مقارنة حجم المخ والذكاء (السيطرة على الطول والوزن) يمكن تفسيره على أنه "لدى النساء أدمغة أكبر من الرجال" (شالتر1992، 181). ثم يشرح لماذا من السذاجة استخدام التحليل الإحصائي، مثل الانحدار المتعدد، لإجراء مقارنات بين أحجام الدماغ لدى النساء والرجال، حتى عندما يحاول المرء التحكم في

حجم الجسم والاختلافات في الوزن. يمكن للاستنتاجات السابقة أن تسمح للمرء بالمجادلة مقتنعاً بأن الأدمغة أكبر نسبيًا سواء للرجال أو النساء، حتى لو قام أحدهم بجمع كميات كبيرة من البيانات الدقيقة. لقد أساء العديد من الدارونيين في الماضي أو أساءوا فهم التحليل الإحصائي، وبالتالي قاموا بتصوير نفس النوع من الخطأ الذي وصفه شلايتر.

في استعراضه المكثف لعمل البروفيسور بروكا، استنتج غولد إلى أن استنتاجات بروكا تعكس فقط "الافتراضات المشتركة لأغلب الذكور البيض الناجحين خلال فترة وجود أنفسهم على القمة... والنساء السود، والفقراء أدناه "(1996، 117). كيف توصل بروكا إلى هذه الاستنتاجات؟ يجيب غولد بأن "حقائقه كانت موثوقة... لكن قاموا بجمعها بشكل انتقائي ثم التلاعب بها دون وعي في خدمة الاستنتاجات المسبقة "، أي الاستنتاج بأن النساء كن فكريًا أو أقل شأنا من الرجال، تمامًا كما تنبأ التطور.

أدى بحث بروكا الإضافي والمناخ الاجتماعي المتغير في وقت لاحق إلى تعديله لوجهات نظره، مستنتجًا أن الثقافة كانت أكثر أهمية مما افترضه هو وآخرون من الداروينيين لأول مرة (إليس 1934).

## الانقلاب على عقيدة دونية الأنثى

على الرغم من أن عدم المساواة كان يُعتقد منذ زمن طويل، "لقد ظل وضع المرأة الثانوي لفترة طويلة للغاية على افتراضات سهلة حول دونية الأنثى"، وقد حُقق في هذه الافتراضات الدونية علمياً منذ السبعينيات (روسر1992؛ فيي 1979، 415). كان الدافع الحديث للداروينية في الغالب مدفوعًا بالحركة النسائية لتحدي استنتاج داروين

بأن التطور قد أنتج رجالًا "متفوقين على النساء جسديًا وذهنيًا" (روسر1992، 58). وقد أظهرت هذه الانتقادات عيوبًا كبيرة في الأدلة المستخدمة لإثبات دونية الإناث، ونتيجة لذلك، حددت المغالطات في النواحي الرئيسة للداروينية (علية 1977). على سبيل المثال، تجادل إليزابيث فيشر بأن نظرية الانتقاء الطبيعي وانطباقها على البشر والمدعومة من قِبَل داروين أمر مشكوك فيه. يقتبس فيشر تشومسكي، الذي أشار إلى أن العملية التي يحقق بها العقل البشري حالته الحالية من التعقيد هي:

لغز كلي.... من الآمن تماماً أن نعزو هذا التطور إلى "الانتقاء الطبيعي"، طالما أننا ندرك أنه لا يوجد مضمون لهذا التوكيد، وأنه لا شيء أكثر من اعتقاد بأن هناك بعض التفسير الطبيعي لهذه الظواهر (تشومسكي 1972، 97).

كما جادل فيشر بأن الأبحاث الوراثية الحديثة قوضت بشكل خطير العديد من الجوانب الرئيسة لفرضية داروين - خاصة نظرية الانتقاء الجنسي. وعلى النقيض من مطلب الداروينية، حتى لو كان الاختيار الطبيعي يعمل بشكل مختلف على الذكور والإناث، فإن الذكور سيمررون العديد من جيناتهم العليا إلى أبنائهم وبناتهم، لأن غالبية "الجينات ليست موروثة على طول الخطوط الجنسية". وبصرف النظر عن الجينات الموجودة على الكروموسوم Y، "يتلقى الذكور الجينات من الأم والأب" (فيشر 1979، 112).

كان لدى داروين ومعاصروه القليل من المعرفة بالوراثة، لكن هذا لم يمنعهم من التوصل إلى استنتاجات شاملة حولها. حتى أن داروين قد أدلى بالإدعاء الكاذب بأن الخصائص المكتسبة عن طريق الانتقاء الجنسي تقتصر عادة على جنس واحد (كروك1972). ومع ذلك، أدرك داروين في مكان آخر أن المرأة تستطيع نقل غالبية

خصائصها إلى ذريتها من الجنسين، وهي حقيقة تجاهلها في غالبية كتاباته (1871، المجلد 2، 236، 298، 308، 329). على سبيل المثال، أدعى داروين أن العديد من السمات، بما في ذلك العبقرية والقوى العليا للخيال والعقل، "انتقلت بشكل كامل إلى الذكر أكثر من ذرية الأنثى. أصبح الرجل في النهاية متفوقًا على المرأة "(1871، المجلد 2، 328). لم يُذكر الأساس العلمي الذي تم على أساسه هذا الاستنتاج.

كانت وراثة الخصائص المكتسبة جزءًا هامًا من الداروينية. كان هناك سببان رئيسان وراء قبول داروين لوجهة نظر الذكور المتفوقة، وهما نظريته في نظرية "شمولية التخلق" ووجهة نظره في أن بعض الخصائص المكتسبة يمكن توريثها. من بين الضربات الرئيسة لكل من بانغينيسيس (وكافة أشكال اللاماركية الأخرى) كان عمل أوغست وايزمان ، الذي أثبت أن الخلايا التناسلية للحيوانات "متميزة، يمكن تحديدها وتمييزها في مرحلة مبكرة من التطور في كل من الذكور والإناث [و] لم تكن هناك طريقة يمكن أن تؤثر فيها خلايا الجسم على الخلايا الجرثومية "(جورج 1982، 63). على الرغم من أن غالبية العلماء ظلوا يدعمون اللاماركية بعد فترة طويلة من نشر عمل وايزمان، حيث دعم العمل الجديد بشكل متزايد استنتاجات وايزمان، توفي لامارك ببطء (على الرغم من أنه تم إعادة بعثه عدة مرات في التاريخ).

في وقت لاحق، أثبتت نماذج الوراثة مندليان ودي فريزيان أن الأم والأب ساهما بكميات متساوية من المعلومات الوراثية للكروموسوم الجسدي لكل من ذريتهم من الذكور والإناث. ومن عجيب المفارقات أن هذه الضربة الكبرى لنظرية التفوق الذكوري - التي جعلتها غير مقبولة إلى حد كبير - لم تسفر عن أي رفض واسع النطاق لهذه

النظرية. فقط حركة الحقوق المدنية أجبرت على إعادة تقييم المواقف التي كانت متأصلة للغاية في كل من النظرية العلمية والمعايير الثقافية للمجتمع.

إن علم الوراثة الحديث لا ينفي بشكل كامل الأسباب التي استُخدمت في استنتاج أن الإناث متدنية من الناحية التطورية، لأن بعض الصفات المرتبطة بالجنس لا يمكن أن يورثها عادة الذكور إلا على كروموسوم Y. يكون كروموسوم Y أقصر بكثير وله جينات أقل بكثير من كروموسوم X. لأن المرأة الطبيعية ترث اثنين من كروموسومات X، فإن العديد من الجينات المتعسرة الضارة على كروموسوم X الخاص بها والتي يقومون بإخفائها من قبل الجينات السائدة غير الضارة على كروموسوم X الخاص بها. الذكور ليس لديهم هذه الميزة. ويُعبر عن العديد من الصفات المقنعة في الإناث عند الذكور، لأن كروموسوم Y الذكور يفتقر إلى العديد من الأليات X. هذه الحقيقة تدل على التفوق الجيني للمرأة، وهذا هو السبب في أن العديد من الأمراض الوراثية مثل عمى الألوان والهيموفيليا أعلى بكثير في الذكور أكثر من الإناث. هذه الصفات الوراثية، على الرغم من ذلك، غالبًا ما تكون موروثة من خلال الأم والتي أعرب عنها فقط من قبل الأبناء (هاردي 1981).

## مساهمة داروين في التمييز الجنسي

على الرغم من أن نظرية داروين دعمت (وطورت في كثير من النواحي) العنصرية والممارسات الجنسية القائمة على أساس بيولوجي، إلا أن البعض يجادل بأنه لن يوافق على نتائج نظريته، ولا يمكن أن ينتهكها. ذهب كثير من تلاميذه إلى أبعد من ذلك – حتى اختتم ابن عم داروين جالتون من دراسته مدى الحياة حول موضوع "المرأة تميل

بكل قدراتها لتكون أقل شأنًا من الرجل" (شيلدز 1975، 743، التأكيد له).

وأضاف ريتشاردز أن "المنحة الأخيرة أكدت الدور المركزي الذي تلعبه العوامل الاقتصادية والسياسية في استقبال النظرية التطورية"، وأن الداروينية قدمت "الأسس الفكرية للإمبريالية، والحرب، والاحتكار، والرأسمالية، وعلم تحسين النسل"، والعنصرية، والتمييز على أساس الجنس. أن "دور داروين الخاص في هذا الأمر لم يكن ضئيلاً، كما أُكد في كثير من الأحيان" (1983، 88). بعد أن لاحظ أن داروين كان يعتقد أن الشاعر الشهير الدارثوني هربرت سبنسر كان "أعظم فيلسوف حي في إنجلترا.. واستنتج فيشر إلى أن الدليل على الآثار السلبية للتدريس التطوري في التاريخ لا يمكن إثباته:

فالأوروبيون كانوا ينتشرون في إفريقيا وآسيا وأميركا، وهم يتهمون الأرض ويخضعون السكان الأصليين ويذبحونهم. لكن أي ذنب خبوه الآن قد اختفى. نظريات سبنسر التطورية برهنت عليهم.... أصل الأنواع لداروين ، الذي نشر في عام 1859، صنع الانقلابًا. ليس فقط في الاختلافات العرقية والطبقية والوطنية، ولكن كل عاطفة بشرية واحدة هي المنتج النهائي التكيفي للتطور والاختيار والبقاء للأصلح (1982، 116).

اتفقت هذه الاستنتاجات الداروينية حول الإناث مع "الاستنتاجات العلمية الأخرى السائدة اليوم. من علم الأنثروبولوجيا إلى علم الأعصاب، أثبتت العلوم أن الفضائل الفيكتورية الأنثوية من السلبية، والحياة الأسرية، والأخلاق العظيمة (... أقل النشاط الجنسي) كانت متجذرة في البيولوجيا الأنثوية "(ستاينيم 1992، 133). ونتيجة لذلك، استنتج العديد من الأشخاص إلى أن "التاريخ التطوري قد منح المرأة جينات ورجالًا محليين ورعاة ذوي جينات محترفة" (هوبرد وآخرون 1979، 208). وأضاف ستاينم أن:

الصفات السلبية المرفوضة والطفولية من "الأجناس الداكنة" (التي كانت لا تزال تسمى "عبء الرجل الأبيض") كانت [كما يعتقد أنصار التطور] جزءًا من مصيرهم البيولوجي. كما دبر التطوريون أن سبب كل هذا هم " الرجال الذين لم يكونوا قوقازيين والنساء من كافة الأجناس كانوا أقل على مقياس التطور. في حالة العرق، كان هذا بسبب زمن تطوري بسيط.... في حالة المرأة القوقازية - التي كان من الواضح أنها كانت تتطور ما دامت مع نظائرها من الذكور - كان هناك سبب آخر. كانت الأنظمة العصبية الأقل تعقيدًا والذكاء الأقل للإناث هي التكيف التطوري لألم الولادة، والعمل المنزلي المتكرر، وغير ذلك من المهام البدنية وغير الفكرية. وبطبيعة الحال، افترض كذلك أن الإناث من الأجناس "الدنيا" أدنى من نظرائهن من الذكور (1992، 133-134).

لقد جادل العديد من علماء الأحياء في القرن التاسع عشر عن دونية النساء لأنهم اعتقدوا أن "التشدد النسائي اللامبالي هدد بإحداث اضطراب في الأجناس وتحويل عملية التطور المنظمة" (في 1979، 415). واعتمد باحثون آخرون النهج الذي تقوم به المنظمة الاجتماعية الجماعية في القرن الماضي وعوامل مماثلة في الحد ببطء من عدم المساواة القائمة بين الجنسين (بورجيز1963). كان للتدريس كذلك آثار واضحة على السياسة الاجتماعية:

بالنسبة لداروين، كانت الاختلافات الفكرية بين الجنسين، مثل اختلافاتهم الجسدية، قابلة للتنبؤ بالكامل على أساس النظر في الإجراء الطويل الأمد للانتقاء الطبيعي والجنسي.... كان الذكاء الذكري قد شُحذ باستمرار من خلال النضال من أجل حيازة الإناث (أي الانتقاء الجنسي) ومن خلال الصيد وأنشطة الذكور الأخرى مثل

الدفاع عن الإناث والشباب (وهذا هو الاختيار الطبيعي) (ريتشاردز 1983، 886 -887).

وأضافت، وفقًا لداروين:

"لقد أصبح الرجل في نهاية المطاف متفوقًا على المرأة". على هذا الأساس، جادل في كتابه "النسب" بأن التعليم العالي للنساء، والذي كان موضع جدل شديد في إنجلترا الفيكتورية، قد لا يكون له تأثير طويل المدى على هذا الاتجاه التطوري لزيادة ذكاء الذكور من أي وقت مضى.... سيعزز ذكاء الذكور باستمرار من قبل النضالات التنافسية الشديدة من الذكور والتي خضعت بالضرورة من أجل الحفاظ على أنفسهم وعائلاتهم، و "هذا سيميل للحفاظ على / أو حتى زيادة قدراتهم العقلية، ونتيجة لذلك، عدم المساواة الحالية بين الجنسين (ريتشاردز 1983، 886-887).

لقد كان إيمان النساء بالنقص متأصلًا للغاية في البيولوجيا التطورية التي استنتجها مورغان إلى أن الباحثين يميلون إلى تجنب "موضوع البيولوجيا والأصول بأكملها"، على أمل أن يتجاهل هذا التاريخ المحرج وأن يتمكن العلماء "من التركيز على ضمان الأشياء المستقبلية لتكون مختلفة "(1972، 2).

حتى العلماء النساء تجاهلن إلى حد كبير نظرية الدونية الداروينية (مارغوليس وساجان 1986؛ تانر وزيلمان 1976). يشدد مورغان على أننا لا نستطيع ببساطة تجاهل علم الأحياء التطوري، لأن الاعتقاد بأن "تراث الغابة وتطور الإنسان كآكلي لحوم قد ترسخ في عقل الإنسان بشكل صارم مثلما فعل جينيسيس على الإطلاق" وأن الذكور قاموا ببناء نظرية" بذاتها مدعومةً بمجموعة هائلة من الحقائق الموثوقة علمياً "(1972، 2—3). ويجادل مورغان بأن هذه "الحقائق" يجب إعادة تقييمها، لأن العلماء

"ضللوا" في بعض الأحيان بسبب التحامل والافتراءات الفلسفية. يجادل مورغان أنه على الرغم من أن عشرات الباحثين قد قلبوا النظرية القائلة بإن النساء أقل شأناً بيولوجياً من الذكور، فإنه يجب تحدي النظرية أكثر.

## التأثيرات الثقافية على وجهة نظر الداروينية للمرأة

كانت الثقافة ذات أهمية كبرى في تشكيل نظرية داروين (روسر1992، 56). كانت آراء الطبقة الوسطى الفيكتورية عن الرجال واضحة في كتاب "أصل الإنسان" والكتابات الداروينية الأخرى. ويشدد ريتشاردز على أن الافتراضات الفيكتورية لكل من حتمية وصواب دور المرأة في الأخلاق المعنوية المحلية:

ودور الإنسان كمزود عدواني حر وغرور، قد كُرست في إعادة بناء داروين للتطور البشري. أسلافنا الإناث... كانت الأمهات، الخجولة جنسيا، والأكثر من حيث العطاء، والإيثار، في حين أن أسلافنا الذكور كانوا "طبيعيين" تنافسيين وطموحين وأنانيين، لا يختلفون عن داروين نفسه... كتب في النسب: "الرجل هو منافس الرجال الآخرين؛ إنه مسرور بالمنافسة..." كان... النظام الطبيعي للأشياء، مثلما كان الرجل "أكثر ذكاءًا" من المرأة، كما أظهر داروين رضاه من خلال ندرة النساء البارزات المثقفات والمهنيات: "التمييز الرئيسي في القوى الفكرية للجنسين هو مبين من قبل الرجل الحصول على أعلى درجة في كل ما يأخذ، من النساء - سواء كانت تتطلب التفكير العميق أوالعقل أو الخيال أو بمجرد استخدام الحواس أو الأيدي (1983، 885).

وبالرغم من أن الداروينية عملت الكثير من أجل إعاقة حقوق الإنسان، لكن القوى الأخرى أثرت كذلك على قبول عقيدة دونية المرأة: قبل وقت طويل من داروين،

كان "مؤيدو التطور" في وقت سابق قد أعادوا النساء إلى دور الاستعباد والدونية في كل من الثقافات الدينية الإلحادية والشمولية. الصورة الشائعة لـ "رجل الكهف" الذي يسحبه من شعره، وكذلك الدور الخاضع للنساء في كافة الأديان الوثنية (موريس 1989، 135).

كما أن المفهوم الداروين للتفوق الذكوري قد ساعد على زيادة العلمنة. من المجتمع، وجعلت النظرية الطبيعية التطورية ترى أن البشر خلقوا بموجب القانون الطبيعي أكثر من الاتجاه الإلهي (جورج 1982). كانت الطبيعة هامة للغاية في تطوير عقيدة دونية النساء. لم تكن وجهة نظر داروين في الاختلافات الجنسية البشرية في النسب بدافع من الموجة المعاصرة المناهضة للنسوية... ولكن كان ذلك مركزيا في تفسيره الطبيعي للتطور البشري. لقد كان من وجهة نظره النظرية الموجهة أن الخصائص العقلية والطبيعية البشرية قد نشأت عن طريق عمليات تطورية طبيعية أدت إلى تأهب هذه الخصائص في الطبيعة بدلاً من التنشئة – للإصرار على الأساس البيولوجي للاختلافات العقلية والأخلاقية (ريتشاردز 1983، 97).

كانت إحدى الطرق الرئيسة لمهاجمة الاستنتاج التطوري لدونية الإناث هي نقد الدليل على الداروينية ذاتها. فيشر، على سبيل المثال، لاحظ أنه من الصعب أن نفترض نظريات حول أصول الإنسان على تنظيم الدماغ الفعلي "من أسلافنا الأحفوريين المفترضين، مع عدد قليل من الجماجم المشربة من الحجر الجيري – غالبيتها ضربت، تحطمت، وغيرت بطريقة أخرى بمرور ملايين السنين [للوصول إلى أي استنتاجات صحيحة على أساس هذا]... الدليل، قد تبدو فلكيةً "(1979، 113).

يضيف هوبارد أن "الصور النمطية للجنس الدارويني" ما زالت موجودة "في

المؤلفات المعاصرة حول التطور البشري. هذا هو الحقل الذي تكون فيه الحقائق قليلة ويفصل العينات بمئات الآلاف من السنين، بحيث يكون الحد الأقصى متاحًا لتحيز المحققين "(1979، 26). ثم يناقش هوبارد "جهلنا الساحق" بتطور الإنسان وحقيقة أن النظرية المقبولة حالياً هي مجرد تكهنات.

العديد من محاولات دحض وجهة النظر القائلة بأن النساء متدنّين فكريا، تُهاجم بشكل مماثل جوهر النظرية التطورية ذاتها، لأن هذا الاعتقاد يرتبط ارتباطًا لا ينفصل عن دونية المجموعة البشرية (التي يجب أن تكون موجودة أولاً كي يحدث الانتقاء الطبيعي). لقد أنتجت التقييمات النظرية للنقص الأنثوي العديد من الانتقادات الحاسمة والمنطقية لكل من الانتقاء الجنسي والطبيعي، بالإضافة إلى جوانب أخرى من الداروينية.

يمكن استخدام التطور للتناظر من أجل التفوق الذكوري، ولكن يمكن استخدامه كذلك لبناء حالة للعكس. تحتوي الأدلة على العديد من المناطق المفتوحة "للتفسير الفردي" التي استخدمها بعض المؤلفات النسويات وغيرهن "للقصة التطورية ذاتها لاستخلاص الاستنتاج المعاكس بالتحديد"، وهو ما يفترض أنه يثبت التفوق التطوري للمرأة (لوف 1983، 124). ومن الأمثلة البارزة على ذلك كتاب مونتاجو الكلاسيكي لعام 1952، "التفوق الطبيعي للمرأة". حتى أن بعض علماء البيولوجيا من النساء جادلن في نظرية التطور النسائي، مستنتجين أن المرأة هي جذع تاريخ التطور، والرجال ليسوا سوى فرع، سليل مُطَعم (هيل 1980). وحاول آخرون دمج "المعرفة التطورية الداروينية" التي قاموا بإصلاحها مع المثل العليا النسوية المعاصرة "(هيل، 1980، 263).

واستنتج هابجود إلى أن التطور يثبت أن الذكور موجودون لخدمة الإناث، مجادلين

أن "الذكورة لم تتطور في الفراغ"، ولكن بسبب اختيارها من قبل الإناث. ويلاحظ أن العديد من الأنواع الحيوانية هي كائنات تمثيلية وراثية ويمكن أن تتكاثر دون ذكور، وحقيقة أنها لا تحتاج إلى جنس الذكر تثبت أن "الذكور غير ضروريين" في بعض البيئات (هابجود 1979، 23-24). إنها الأنثى التي تتكاثر، والتطور يعلم أن البقاء مهم فقط إلى الدرجة التي تشجع على الإنجاب. وبالتالي، يجادل هافغود بأن الداروينيين يستنتجون أن الذكور تطورت فقط لخدمة الإناث في كافة جوانب حمل الطفل ورعايته، والتي من شأنها أن تشمل كلاً من ضمان أن تصبح المرأة حاملاً وحماية ذريتها أيضًا.

النظرية التحريضية الأخرى هي أن المرأة لم تكن متفوقة فحسب، بل أن غالبية المجتمعات كانت ذات يوم ذات ميول أولية. كما يجادل هؤلاء المراجعين بأن الهيمنة الأبوية كانت بسبب عوامل حدثت مؤخراً نسبياً (ريد 1975). وبالطبع، فإن النظريات التي تفترض الدونية التطورية للذكور تعاني من العديد من المشكلات ذاتها التي تعاني منها دونية المرأة.

## تأثير الداروينية على المجتمع

يجادل بعض العلماء، بما في ذلك بعض علماء الاجتماع، بأن الداروينية يجب أن تستخدم لإنتاج نظامنا الأخلاقي (غولدبرغ 1973). على سبيل المثال، جادل فورد بفكرة أنه يجب علينا القضاء على التحيز الجنسي على أنه أمر خطأ وأن "التمييز بين الجنسين الذي نراه كثيراً في مجتمعاتنا هو في الواقع"... نتيجة ضرورية للقيود التي يمارسها تطورنا. هناك عوامل واضحة تجعل الرجال أكثر عدوانية "(فورد، 1980، 8).

بعد استنتاج أن النقص في الإناث هو نتيجة للانتقاء الطبيعي، فإنه غالباً ما

ينطوي على أن ما ينتجه الانتقاء الطبيعي هو طبيعي، وبالتالي صحيح، أو على الأقل يعطي "كرامة معينة" للسلوكيات التي "قد نعدها شاذة أو حيوانية" (سيمونز 1980، 61). على سبيل المثال، يعرف النجاح التطوري بأنه ترك مزيدًا من النسل؛ وبالتالي، سيختار الاختلاط في الذكور البشرية. يستخدم هذا التفسير لتبرير الاختلاط في الذكور وعدم المسؤولية، ويجادل بأن محاولة تغيير "تصميم الطبيعة الكبير" هي غير مجدية (سيمونز 1980، 61).

حتى أن فوكس يجادل بأن معدل الحمل المرتفع بين الفتيات المراهقات غير المتزوجات اليوم يرجع إلى "تراثنا التطوري" الذي "يدفع" الفتيات الصغيرات إلى الحمل (1980). وبالتالي، يستنتج فوكس إلى أن المحظورات الثقافية والدينية ضد حمل المراهقين غير المتزوجين مآلها الفشل. رداً على هذه الأفكار، يُظهر تانج مارتينز أن تطبيق التطور على السلوك، وهو مجال يسمى علم الاجتماع، هو: خطأ وغير علمي، وهناك القليل من الأدلة الموثوقة لدعم الادعاءات الاجتماعية البيولوجية حول الاختلافات بين الذكور والإناث [و]... إن علم الاجتماع الاجتماعي البشري هو محدد بيولوجيًا ولا يخدم سوى تبرير وتشجيع اضطهاد المرأة من خلال إدامة فكرة أن هيمنة الذكور واضطهاد الإناث هي نتائج طبيعية للتاريخ التطوري البشري. وعلاوة على ذلك، فإنهم يجادلون بأن الاعتماد على سيناريوهات تطورية مشكوك فيها يمكن أن يستخدم لترشيد وتبرير سلوك الرجال البغيض. على سبيل المثال يمكن إعفاء الرجل في منتصف العمر الذي يترك زوجته في منتصف العمر من أجل امرأة أصغر سناً لأنه يتصرف وفقاً للنظرية الاجتماعية عن طريق التصرف من أجل تعظيم مساهمته الجينية إلى الأجيال القادمة عن

طريق ترك زوجة أقدم لديها "قيمة تناسلية منخفضة" لصالح أنثى أصغر سناً ذات قيمة إنجابية أعلى (1997، 117).

يجادل إيبرهارد بأن عدوانية الذكور المادية مبررة بالانتقاء الجنسي وأن "الذكور أكثر عدوانية من الإناث في الأنشطة الجنسية التي تجري التزاوج (ناقشها مطول داروين في عام 1871 وتأكدت عدة مرات منه...)" (إيبرهارد 1985، 67). وعلاوة على ذلك فإن الاستنتاج "الآن أصبح مقبولًا على نطاق واسع... أن الذكور من غالبية الأنواع أقل انتقائية وخطورة في التودد لأنهم يقومون باستثمارات أصغر في النسل "يستخدم لتبرير الاختلاط الجنسي عند الذكور (إيبرهارد 1985، 69). بعبارة أخرى، يُحدد اختلاط الذكور، وراثياً، وبالتالي هو "طبيعي" لأن "الذكور يربحون، من الناحية التطورية، من التزاوج المتكرر، والإناث لا" (تافرس 1992، 214).

والسبب هو أنه كلما زاد عدد الإناث اللواتي يتزوج بهن الذكور، كلما زاد إنتاجه – بينما تحتاج أنثى إلى ذكر واحد فقط لتصبح حاملاً. لا يمكن للتطور أن يتقدم إلا إذا اختارت الإناث الذكر الأكثر ملائمة، كما تنبأت به نظرية الانتقاء الجنسي لداروين. ولهذا السبب، يتمتع الذكور "برغبة في عدم التمييز" للتزاوج، بينما لدى الإناث "سلبيات تمييزية" (تافرس 1992، 214). حتى أن بعض النظريين يجادلون بأن الإكراه الجنسي (وحتى الاغتصاب) من قبل الذكور يتنبأ بالتطور:

التكيف النفسي يكمن وراء كل السلوك البشري. وهكذا، فإن الإكراه الجنسي من جانب الرجال قد ينشأ إما عن التكيف النفسي المحدد للاغتصاب – أو قد يكون أحد الآثار الجانبية للتكيف النفسي الأكثر عمومية غير المرتبط بشكل مباشر بالاغتصاب.

قد يساعدنا تحديد الإشارات البيئية المحددة التي صممها أدمغة الرجال من خلال الاختيار إلى العملية في تحديد أي من هذه التفسيرات المنافسة صحيحة.... تدعم البيانات الحالية كافة التنبؤات الستة، وهي بذلك تتفق مع الفرضية الخاصة بالاغتصاب، ولكن هذا لا يلغي فرضية الآثار الجانبية، والتي تتوافق كذلك مع النتائج، بالإضافة إلى المزيد من الأدلة على أن التزاوج القسري يزيد من ملاءمة الذكور الأجداد أثناء تطور الإنسان (ثورنهيل وثورنهيل 1992، 363).

كما يستنتج بعض الداروينيين أنه نظرًا لأن العديد من الاختلافات السلوكية الجنسية (مثل الاعتداء الجنسي من قبل الذكور) هي نتيجة للتطور، فهي، بالتالي، جزء لا يتغير من بيولوجيتنا (جيزيلين 1974). إن السعي إلى تغيير "النظام الطبيعي" لدونية النساء يتعارض كذلك مع "تصميم الطبيعة الكبير" (جيزيلين 1974). تقول سيمونز أن العديد من الاختلافات في السلوك والسلوك بين الجنسين فطرية ولا يمكن القضاء عليها عن طريق تربية متطابقة للذكور والإناث (1980، 162).

والسبب هو أن الإناث تطورت لتكون مخلصة وأن تكون الذكور خائنة، وأن تكون الذكور عادلة وأن الإناث تفتقر إلى إحساس بالعدالة – وأن تغيير هذه الاختلافات البيولوجية أمر مستحيل، أو في الأقل مليء بالصعوبات (جيزيلين 1974، 13). ردا على هذه الاستنتاجات، جادل ريتشاردز أن العلماء المهتمين بالحجج التطورية مثل هذه يجب عليهم استكشاف "الأبعاد الاجتماعية لكتابات داروين حول التطور البيولوجي والاجتماعي للمرأة".... دعم رؤية متحيزة وتمييزية لقدرات وإمكانيات المرأة.... الجزء الصغير من "أصل الإنسان | الذي يحمل اسم أصل الرجل، حيث

استنتج داروين الدونية الطبيعية والفطرية للمرأة من نظريته في التطور عن طريق الانتقاء الطبيعي والجنسي، أصبح سريع السمعة في المؤلفات النسوية (ريتشاردز 1983، 59- 60).

## الاستنتاجات والآثار

إن الاستنتاج الدارويني بأن المرأة دونية كان له العديد من العواقب الاجتماعية التاريخية المؤسفة. يُعتقد أن الانتقاء الجنسي حاسم في التطور، ومن بين البيانات التي تجمعها داروين وأتباعه لدعم دونية النساء، كانت تلك التي تدعم الانتقاء الطبيعي كانت هي الحاسمة (موسديل 1978). ونشأت نظرية تخلُّف المرأة بالنقص عن حقيقة تفيد أن الآلية الرئيسة التي من المفترض أصلاً أن تُفسر التقدم التطوري تبين أنها خطأ. هذه البيانات، على الرغم من اكتمالها اليوم، تشبه إلى حد كبير تلك التي استخدمها داروين لتطوير نظريته، مع دعم استنتاجات مختلفة جذريًا. يوضح هذا بوضوح مدى أهمية كل من الأفكار المسبقة والنظرية في تفسير البيانات. لقد تطورت فكرة الدونية التطورية للمرأة جزئياً لأن القياس كان آنذاك: وتمجد الآن كأساس أساسي للعلم: أراد كل من علماء التشريح والأخصائيين النفسيين قبل كل شيء آخر أن يكونوا "علميين"... كانت النظرية النفسية السابقة معنية بتلك العمليات العقلية الشائعة للجنس البشري: كان رجال القرن التاسع عشر أكثر اهتمامًا بوصف الاختلافات البشرية (في 1979، 419).

لم تُبحث هذه الاختلافات البشرية لفهمها (ومساعدة المجتمع على التغلب عليها)، بل لتبرير نظرية فرضت لدعم مجموعة محددة من المعتقدات الاجتماعية. لا يمكن تجاهل الآثار المترتبة على الداروينية اليوم، لأن نتائج هذا الاعتقاد كانت مأساوية، خاصة في مجال العنصرية، مما جعل التاريخ الضعيف للعلوم يتجاهل دور هذه الأمور في

علم داروين. يجب أن تعكس الآن الصورة المرتقبة والموضوع والمنظر من داون هاوس، بعيدًا عن الاهتمامات الاجتماعية والسياسية لزملائه من الفيكتوريين الذين أساءوا فهم مفاهيمه العلمية لترشيد إمبرياليتهم، وعلم الاقتصاد، والعنصرية والجنس، الطريق أمام الرجل التاريخي الناشئ، الذي كانت كتاباته في كثير من النواحي متناسقة مع محيطه الاجتماعي والثقافي (ريتشاردز 1983، 887، التأكيد مضاف).

ذهب هوبارد وزملاؤه (1979) إلى أبعد من ذلك وألصقوا بالداروينية "التفرقة الجنسية الصارخة" ووضعوا المسؤولية الرئيسة عن التمييز الجنسي في علم الجنس ومذهب الداروينية الاجتماعي، بشكل مباشر على باب داروين. لقد أظهر تقدم المعرفة أن الداروينية الاجتماعية ليست خطأ فحسب، بل ضارة بشكل مأساوي ولا تزال تؤثر سلبًا في المجتمع اليوم، كما هو الحال في الشكل الحديث الذي يطلق عليه علم الاجتماع. واستنتج هوبارد إلى أن داروين "وفر الإطار النظري الذي تمكن علماء الأنثروبولوجيا وعلماء الأحياء من خلاله من اعتماد عدم المساواة الاجتماعية بين الجنسين" (ريتشاردز 1982 أ، 60). وبالتالي، "من الهام فضح نظرية داروين الانتقائية، ليس فقط لأسباب تاريخية، ولكن كذلك لأنها" تظل جزءًا لا يتجزأ من النظريات البيولوجية المعاصرة "(هوبارت وآخرون1979، 16).

إن التفوق الذكوري هام للغاية لدرجة أن جورج يقول: "إن عنصر التنافس الذكوري في الانتقاء الجنسي هو المفتاح، كما يعتقد داروين، لتطور الإنسان" لأن داروين علم "من كافة الأسباب التي أدت إلى اختلافات في المظهر الخارجي. بين الأجناس البشرية، وإلى حد ما بين الإنسان والحيوانات الدنيا، كان الانتقاء الجنسي هو

الأكثر كفاءة "(1982، 136). سبب حاسم لاستنتاج داروين كان رفضه للاعتقاد الغربي بأن الرجل والمرأة كانا ابتكارات محددة صُممت لتكمل بعضها البعض. في المقابل، يعتقد داروين أن الأجناس البشرية "كانت تعادل أصناف النباتات والحيوانات التي شكلت مواد التطور في العالم العضوي بشكل عام"، وكانت النضالات التي خضعت لها الحيوانات للبقاء في قيد الحياة والتزاوج هي نفس الوسائل التي تشكلت في الأصل الجنسين والأعراق (ريتشاردز 1983 أ، 64).

بعد أن تجاهل داروين النظرة التقليدية، احتاج إلى استبدالها بأخرى، والنظرة الذي اختارها، النضال من أجل حيازة الإناث والغذاء، أدى إلى تنافس الذكور ضد الذكور الآخرين. إن الفكرة القائلة بأن التطور يحبذ الرجال الأكثر نشاطا وعدوانية جنسيا يؤدي إلى الاستنتاج بأن هذه الصفات قد اختيرت لأن هؤلاء الذكور معهم عادة ما يتركوا ذرية أكثر (هوبارت وآخرون1979). ولأن داروين استخدم الحيوانات كنماذج، جاء الداروينيون بالعديد من الاستنتاجات الخاطئة عن البشر (روسر1997، 22). يدرك الباحثون الآن أن هذا النهج غير صحيح لأسباب عديدة، بما في ذلك حقيقة أن درجة التماثل الجنسي في الإنسان الحديث العاقل أقل من غالبية الحيوانات، وحتى أقل من غالبية الرئيسات (زلمان 1997).

إن سياسة المساواة بين الجنسين الحديثة في كل من الولايات المتحدة وأوروبا، والافتقار إلى دعم وضعية النقص البيولوجي للإناث، هو أمر في تناقض كبير مع الاستنتاجات المستمدة من البيولوجيا التطورية في منتصف وآواخر القرن التاسع عشر (مونتاجو 1999). وفي حكم أصحاب السياسات، فإن تاريخ هذه التعاليم هو توضيح واضح للتجاوزات التي يمكن أن تقودها الداروينية (فيليبس 1984).

# المراجع

فلافيا ألايا، 1977. "العلوم الفيكتورية و"عبقرية" النساء".صحيفة أفكار التاريخ280-261 :38.

آنا سكوت.بيللر، 1977. السمنة& النحافة؛ التاريخ الطبيعي للسمنة. نيويورك: ماكجراو هيل.

جيري بيرجمان. 1992. "علم تحسين النسل وتطور سياسة العرق النازي."وجهات نظر حول العلم والإيمان المسيحي، يونيو، 123-109 :(2)44.

إليزابيث مان بورجيس،1963. ارتقاء النساء. نيويورك: برازيللير.

بيتر برينت، 1981. تشارلز داروين: رجل لديه فضول كبير. نيويورك: هربر ورو.

بيرناردكامبيلل، محرر. 1972. الانتقاء الجنسي وأصل الإنسان 1971 -1871. شيكاغو، إل: شركة ألدين للنشر.

نوامتشومسكي، 1972. اللغة والفكر. نيويورك: هاركورت وبراس والعالم.

جون هوريل كروك،1972. الإنتقاء الجنسي والإزدواج الشكلي والمنظمة الاجتماعية في الرئيسيات، في كامبل، المحرر.

تشارلزداروين، 1958. نورا بارلو، المحرر. السيرة الذاتية لتشارلز داروين 1809- 1882. نيويورك: شركة و. و. نورتون& شركاه.

---. 1959. أصل الأنواع عن طريق وسائل الانتقاء الطبيعي. لندن: جون ماري.

---. 1871. انحدار الإنسان والانتقاء فيما يتعلق بالجنس. لندن: جون ماري. مجلدين.

---. 1896. انحدار الإنسان والانتقاء فيما يتعلق بالجنس. نيويورك: د. أبليتون وشركاه. إصدار مُنقح.

---. 1897. أصل الأنواع عن طريق وسائل الانتقاء الطبيعي. نيويورك: د. أبليتون وشركاه، إصدار 1897.

---. 1985. (فريدريك بورخاردت وسيدني سميث، المحررين). التوافق عند تشارلز داروين. المجلد 1: 1836 -1821. نيويورك: صحيفة جامعة كامبردج.

أدريان ديسموندوجيمس موور. 1991. داروين. نيويورك: كتب وارنر.

جون آر دورانت،. 1985. "إرتقاء الطبيعة في انحدار الإنسان لدارين" في التراث الداروينى ديفيد كوهين، المحرر. برينستون ن.ج: صحافة جامعة برينستون.

جوين دير،1985. الحرب. نيويورك: شركة منشورات كراون.

ويليامز جابيرهارد، 1985. الانتقاء الجنسي والأعضاء التناسلية للحيوانات. كامبردج، م.أ: صحافة جامعة هارفرد.

هافيلوكإيليس، 1934. الرجل والنساء. دراسة للخصائص الجنسية الثانوية والثالثية. لندن: هينيمان.

إليزابيثفيي، 1979. "علم الجماجم في القرن التاسع عشر: دراسة جمجمة الأنثى".بيان تاريخ الطب433 -415 :53.

إليزابيث فيشر،1979. خلق المرأة؛ التطور الجنسي وتشكيل المجتمع. جاردن سيتي، نيويورك: صحافة أنكور/ دوبليداي.

هيلين يفيشر، 1982. تقلص الجنس؛ تطور السلوك البشري. نيويورك: شركة ويليام

مارو وشركاه.

بـراين جفـورد، 1980. أنمـاط الجـنس؛ الحـث علـى التـزاوج ومسـتقبلنا الجنسـي. نيويورك: صحافة سانت مارتن.

روبين فوكس، 1980. المصباح الأحمر لسفاح المحارم. نيويورك: إ.ب. دوتون.

إليزا بورتجامبـل، 1849. تطور المرأة: التحقيـق في عقيـدة نقصـها بالنسبة للرجـل. لندن: ساموبل الفرنسي.

ويلما جورج، 1982. داروين. لندن: كتاب فانتانا.

ميشـيل تغسـلين، 1974. اقتصـاد الطبيعة وتطـور الجـنس. بيركيلي، ج.أ: صـحافة جامعة كاليفورنيا.

آن جيبسـون، 1991. "العقـل كـ (عضـو جنسـي)". "علـم،30 أغسـطس، 253: 957– 958.

ديفيد دجيلمور، 2001. كراهية النسـاء: مرض الذكور. فيلادلفيا، ب.أ: صـحافة جامعة بنسلفانيا.

ستيفينجولدبيرج، 1973. حتمية البطريركية؛ لماذا تؤدي الاختلافات البيولوجية بين الرجال والنساء دائمًا إلى هيمنة الذكور. نيويورك: شركة ويليام مارو وشركاه.

ستيفين جايجولد، 1996. سوء قياس الرجال. نيويورك: و. و. نورتون& شركاه.

فريـد هـابجود، 1979. لمـاذا الـذكور موجـودون؛ تحقيـق في تطـور الجـنس. نيويـورك: شركة ويليام مارو وشركاه.

سارة بلافيرهاردي، 1981. المرأة التي لم تتطور أبدًا. كامبردج، م.أ: صحافة جامعة هارفرد.

ماري أيه هيل، 1980. تشارلوت بيركينْز جيلمان. صنع الأصل الأنثوي 1860– 1896. فيلادلفيا، ب.أ: صحافة جامعة تمبل.

ال اس هولينجورث، 1914. "التباين فيما يتعلق بالاختلافات الجنسية في التحصيل."الصحيفة الأمريكية لعلم الاجتماع530–510 :19.

روث هوبارد، 1979. "هل تطور الرجال وحدهم؟" في النظرة إلى النساء في نظرة علم الأحياء للنساء، ر. هوبارد وآخرين. المحررين. ص.35 -7، ص. 15.

---، ماري سو هينيفين وصديق باربرا. 1979. النظرة إلى النساء في نظرة علم الأحياء للنساء؛ مجموعة من النقد النسائي. ام ام أم أيه كامبردج: شركة شينكمان للنشر.

ديفيد هول، 1999. "العام سام يريدك." مراجعة لكتاب أسطورة الأساطير: هل التطور بناء اجتماعي؟ بواسطة مايكل روز. علم1132-1131 :284.

آرثر جينسين، 1980. الخطأ في الاختبار العقلي. نيويورك: الصحافة الحرة.

بيتيان كيلفيس، 1986. إناث الفصائل؛ الجنس والبقاء في مملكة الحيوان. كامبردج، م.أ: صحافة جامعة هارفرد.

روجر ليون، 1987. عظام المنافسة. نيويورك: سيمون وشوستر.

روزالينلوف، 1983. الداروينية والأنوثة: "سؤال المرأة" في الحياة والعمل لأوليف شرينير وتشارلوت بيركينز جليمان، ص. 131 -113.

لين مارجوليس، ودوريون ساجان. 1986. أصول الجنس؛ ثلاثة مليار عام من إعادة التركيب الوراثي. نيو هافين، س.ت.: صحافة جامعة يال.

هاريت مارتينيا، 1877. السيرة الذاتية لهاريت مارتينيا. بوسطن، م أ: جميز ر.

أوسجود وشركاه؛ إعادة الطبع في 1983. نيويورك: فيراجو.

آلان جيه ماكجريجور، 1869. "على الاختلافات الحقيقية بين عقول الرجال والنساء."مجلة جمعية الأنثروبولوجيا210 :7.

ماركيا ميلمان، 1980. مثل هذا الوجه الجميل؛ كونك سمين في أميركا. نيويورك: و. و. نورتون وشركاه.

آشلي مونتاجو، 1952. التفوق الطبيعي للمرأة. نيويورك: كتب لانسر.

---. 1999. التفوق الطبيعي للمرأة. الإصدار الخامس. ولنت كريك، س.أ: رومان وليتلفيلد.

إلاين مورجان، 1972. إنحدار المرأة. نيويورك: ستين والحاضر.

هنري موريس، 1989. الحرب الطويلة ضد الله. جراند رابيدس، م.إ: بيت باكر للكتب.

اس سليث موسيدال، 1978. "فساد - اعتبار علماء الأحياء الفيكتوريين لـ "سؤال النساء". "مجلة تاريخ علم الأحياء55-1 :9.

جون ايه فيليبس، 1984. حواء؛ تاريخ فكرة. سان فرانسسكو، س.أ: منشورات هاربر ورو.

إيفلينرييد، 1975. تطور المرأة؛ من العشيرة الأمومية إلى العائلة البطريركية. نيويورك: صحافة باثفيندير.

إيفلينريتشارد، 1983. "هل سيتفضل تشارلز داروين الحقيقي بالنهوض؟"العالم الجديد، 29 /22 ديسمبر، 887–884 :100.

---. 1983 أ. "داروين وانحدار النساء، في ديفيد أولدرويد وإيان لانجام،

المحررين. مجال أوسع من الفكر التطوري. هولاندا: د. ريديل، ص. 111 -57.

سو فروسر، 1992. علم الأحياء والأنوثة؛ تداخل متحرك. نيويورك: تواين.

---. 1997. "التأثيرات المحتملة للنظريات الأنثوية لدراسة التطور."الأنوثة وعلم الأحياء التطوري. عدله باتريشيا أداير جواتي. نيويورك: تشابمان&هال، ص. 41 -21.

جيه بي روشتون، ج.ب.، و كيه أو أنكني. 1996. "حجم المخ والقدرة المعرفية؛ الارتباط بالعمر والجنس والطبقة الاجتماعية والعرق."مراجعة المنشور النفسي،36–21 :(1)3.

دولف شلوتير، 1992. "الاختلافات في حجم المخ."الطبيعة17 سبتمبر، 181 :359.

ماري جانشيرفيي، 1973. الطبيعة وتطور جنسية الأنثى. نيويورك: كتب فينتاج.

ستيفاني ايه شيلدس، 1975. "الوظيفية والداروينية وعلم نفس المرأة؛ دراسة في الأسطورة الاجتماعية."الطبيب النفسي الأمريكي754–739 :(1)30.

جورج جيه ستين، 1988." العلم الحيوي وجذور النازية."العلماء الأمريكيين، يناير – فبراير، 58–50 :76.

جلوريا ستينيم، 1992. ثورة من الداخل؛ كتاب لاحترام الذات. بوسطن، م أ: ليتل، براون وشركاه.

ليستير د. ستيفينز، 1976. "التطور وحقوق المرأة في الثمانينات: أراء جوزيف ليكونت."المؤرخ252–239 :(2)38.

دونالدسيمونز، 1980. تطور جنسية البشر. نيويورك: صحافة جامعة أكسفورد.

تانج – مارتينز، ز. 1997. "العلاقة الفضولية لعلم الاجتماع الحيوي والأنوثة: حالة من الاختلافات الغير قابلة للتوفيق،" في الأنوثة وعلم الأحياء التطوري؛ الحدود

والتقاطعاتوالتخوم. باتريشيا جرواتي، المحرر. نيويورك: تشابمان وهال، ص. 117.

نانسي تانير، وأدريان زيهلمان. 1976. "النساء في التطور. الجزء الأول: الابتكار والانتقاء في أصول الإنسان."العلامات: مجلة المرأة في الثقافة والمجتمع608-585 (3)1.

تافريس، كارول. 1992. سوء قياس النساء؛ لماذا النساء ليسوا الجنس الأفضل، الجنس الأدنى أو الجنس المقابل. نيويورك: سيمون وشوستر.

آر ثورنهيل، ن. و. ثورنهيل. 1992. "علم النفس التطوري لجنسية الرجال القهرية."العلوم السلوكية والمخ363 :(2)15.

ليج فان فالين،1974. "حجم المخ والذكاء في الإنسان."المجلة الأمريكية للأنثرولوجيا الجسدية423-417 :40.

كارل فوجت، 1864. محاضرات عن الإنسان: مكانه في الخلق وتاريخ الأرض. جميز هانت، المحرر. لندن: باتيرنوستر لونجمان رو، جريين، لونجمان، روبرتس.

جورج كيه ويليامز،. 1977. الجنس والتطور. برينستون ن.ج: صحافة جامعة برينستون.

أيه زيلمان، 1997. "أجساد النساء، حياة النساء: منظور تطوري،" في منظور حياة - تاريخ تطور الأنثى، م. موربيك، أ. أيه ايه أيه زيلمان جالاواي، المحررين. برينستون ن.ج: صحافة جامعة برينستون.



# الفصل الثالث عشر

## تأثير الدراوينية الحاسم على الرأسمالية الشرسة

### مقدمة

تعد الدراوينية أمر مهم وحاسم، ليس فقط في دعم تطوير ونهوض كلا من النازية والشيوعية (وفي ظهور المحارق النازية والشيوعية)، ولكن سمحت كذلك بصعود العديد من اللصوص النبلاء[1] الرأسماليين الشرسين الذين برزوا في أواخر القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين (موريس وموريس 1996). ضف إلى ذلك أنّ داروين لم يؤثر فقط على العلوم الاقتصادية ولكن العلوم السياسية كذلك فضلًا عن كل العلوم الاجتماعية (هسيو 1986أ، 1986ب). وعليه، كان على كل علماء الاجتماع في القرن الواحد والعشرين أن يسووا حساباتهم مع كلًا من داروين وماركس (هودجسون 2006، 7).

بمراجعة المؤلفات الرائدة للمسمون "اللصوص النبلاء" الرأسماليين والتي تكشف كيف أنّ العديد منهم كانوا متأثرين بشكل كبير بما توصل إليه داروين من أنّ القوة ستقوم أخيرًا بتدمير الضعف، وأنّ إيمانهم بالدراوينية ساعدهم على تبرير هذه النظرة باعتبارها سليمة أخلاقيًا. نتيجة لذلك، فقد توصلوا إلى أنّ ممارساتهم التجارية الشرسة التي عادة ما تكون غير قانونية بل وغير أخلاقية أحيانًا أصبحت مبررة بالعلم. وقد خلصوا كذلك إلى أن مفهوم الدراوينية الذي ينص على البقاء للأصلح هو أمر لا مفر منه "لكشف التاريخ"، إذن، ولهذا السبب، فإنّ ممارسة الرأسمالية الشرسة لم تكن شيء

---

(1) اللصوص النبلاء (Robber Baron): استعارة ازدرائية أطلقها النقد الاجتماعي على رجال الأعمال الأمريكين تحديدًا في أواخر القرن التاسع العشر، الذين اتُّهموا بانعدام الضمير واستخدام أساليب ملتوية ليصبحوا أكثر ثراء.(الناشر)

غير أخلاقي، بل أخلاقيًا وطبيعيًا.ووفقًا لما توصل إلية جوليان هيكسلي، وإتش. بي. دي. كيتيلويل، فالدراوينية تؤدي إلى الكثير من الشرّ "من تمجيد الأعمال الحرة، ومبدأ عدم التدخل في الاقتصاد، والحرب، إلى العنصرية وحركة تحسين النسل الغير علمية، وفي النهاية إلى هتلر والنازية" (1965، 81). وكان المساهم الأعظم في هذا التشكيل المروع للرأسمالية هو الاعتقاد الدراويني الذي كان ينص على أنه من الطبيعي والصحيح أن يُستغل كلًا من الأشخاص الضعفاء، والتجارة الضعيفة؛ التجارة الضعيفة تستحق الفشل، وأنّه من الطبيعي أن تنجح التجارة القوية. الحقيقة هي أنّ الدراوينية الاجتماعية تخللت جوانب عديدة من الحياة الأمريكية في العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر، ولكن ليس بالوضوح والسرعة كما في مجال الأعمال. عندما توفي سبينسر في 1903 – في وقت كان فيه بيع 10 آلاف نسخة يعد الأعلى مبيعًا – فقد بيع أكثر من 238000 نسخة من أعماله. كانت الدراوينية الاجتماعية مبررًا ملائمًا للمنافسة الشرسة في مجال الأعمال التي شهدت: الوصول بالممارسات الاحتكارية إلى أقصى درجة ممكنة، والقضاء على المنافسين، وصعود عدد قليل من رجال الأعمال إلى قمة السلطة التي كانت أكبر بكثير من الحكومة أو القوى العاملة (زوبليكا 1992، 30).

فقد توصل بعض اللصوص النبلاء الرأسماليين إلى أن البقاء للأصلح كان أمر لا مفر منه لكشف التاريخ، فقد قاموا بتعديل سلوكهم وفقًا "لقانون الطبيعة" (جوسفسون 1934). فكانت النتيجة أن مستوى شراسة الأعمال التجارية قد وصل إلى درجة إباحة وتبرير القتل. عدم اهتمام اللصوص النبلاء بمصلحة المجتمع أو حتى عمال شركاتهم، أثّر بالسلب على حياة الملايين من البشر. في الغرب، ولعقود، كانت الإصابات الناجمة عن

ظروف العمل الغير آمنة سبب رئيسي في الموت والإصابات المستديمة. في حوالي عام 1900، كان يقدر معدل الوفيات (حالات الموت) ومعدل الإصابات (الجروح والمرض) من حوادث الصناعات بمليون عامل (هانتر 1965).

## ظروف العمل العامة في الثمانينيات

كانت ظروف مثل سيور المحركات وأعمدة الطاقة غير المؤمّنة تعد عادية في الثمانينيات وأغلب التسعينات. فكانت النتيجة فقدان الأصابع واليد وحتى الأطراف بأكملها. بالنسبة للعمال، فإن فقدان بعض أجزاء الجسم والإصابات الخطيرة كانت لا مفر منها نتيجة حياة العمل في المصنع أو الوظائف الصناعية عمومًا. كشفت دراسات على العمال أن أكثر من نصف الإصابات عبارة عن إصابات خطيرة مستديمة تتراوح من فقدان الأطراف حتى فقدان الرؤية أو السمع أثناء عملهم. في بعض المهن، يعاني تقريبًا كل عامل من إصابة، ففي الأغلب كل الجوانب محفوفة بالمخاطر؛ تقريبًا كل عمال تصنيع القبعات عانوا من التسمم بالزئبق، وتقريبًا كل عمال مصانع طلاء أقراص الساعات بالراديوم كانوا يصابون بالسرطان عاجلًا أم آجلًا (ستيلمان ودوم 1973).

حتى عندما كان يدرك أصحاب العمل تامًا مخاطر العمل التي يواجهها عاملوهم، فإن أغلبهم فعل القليل - أو لم يفعل شيئًا - للتحسين من ظروف بيئة العمل. عمال مسبك الصلب عادةً ما يعملون لمدة 12 ساعة يوميًا في درجة حرارة 117 فهرنهايت في مقابل 1,25 دولارًا يوميًا (بيتمان 1974، 68). لاحظ الرئيس هاريسون في 1892 أن معدل العمال الأمريكيين المعرضين لخطر الموت أكبر من معدل الموت في الحرب كجندي (بيتمان 1974، 70). خلد أبتون سينكلير الظروف البشعة في صناعة تعليب

اللحوم في كتابه الكلاسيكي حاليًا، الغابة، الذي كانت بداية نشره في 1906. يعد كتاب "الغابة" محفز كبير لتغيير قوانين العمل، وأخيرا فقد تُرجم هذا الكتاب لسبع عشرة لغة وبِيعت ملايين النسخ من هذا الكتاب، وحرك هذا الكتاب ثيودور رووسفيلت حيث أصبح يعمل من أجل إصلاح مجال الأعمال الجشع. وكانت النتيجة تدفق تيار من القوانين الهامة بما في ذلك قانون الغذاء النقي والأدوية.

كانت حياة البشر رخيصة بالنسبة للرأسماليين، فعلى سبيل المثال لا الحصر، المئات الذين ماتوا بلا داع أثناء تركيب السكك الحديدية (زين 1999، 255). وتضمنت الأسباب ظروف حياة عمال السكك الحديدية الفقيرة، وظروف العمل الفقيرة من حرارة شديدة وبرودة مفرطة، كذلك وأمراض مثل الملاريا المنتشرة بفعل الناموس، والحماية الغير كافية من هجمات الهنود. ومثال ممتاز على هذا الاستغلال، ما حدث عندما اشترى جي. بي. مورجان 5000 بندقية معيبة مقابل 3,50 دولارًا أمريكيًا للواحدة، ثم قام ببيعها للجيش بثمن 22 دولارًا أمريكيًا للواحدة. فكانت نتيجة هذه البنادق المعيبة أنها تُصيب عادةً أصابع ابهام مستخدميها (زين 1999، 255). أقام الضحايا دعوة، ولكن قضاء الاتحاد الفيدرالي حكم بأنّ البيع قانوني ومناسب. وكان الشائع في ذلك الوقت في مثل هذه الحالات أن تأخذ المحاكم جانب اللصوص النبلاء (بيتمان 1974، 71).

حيث تتلمذ غالبية القضاة على الداروينية، ولهذا السبب كانت نظرية البقاء للأقوى هي الأصح، بسبب ذلك كانت حياة غالبية الرجال والنساء رخيصة. قال أحد أصحاب الأعمال عندما طُلِب منه بناء سطح لحماية عماله: "الرجال أرخص من الألواح" (بيتمان 1974، 71). كانت شراسة الرأسمالية شديدة للدرجة التي دفعت

حكومات العالم في نهاية المطاف بإصدار مئات من القوانين ضد هذه الممارسات الشائعة. القوانين التي سُنت ضد الاحتكار ما هي إلّا مثال واحد على نتيجة الفساد الشائع أثناء هذه الفترة من تاريخ أميركا.

## من المسيحية إلى الداروينية

نشأ غالبية اللصوص النبلاء على التدين، ولكن سرعان ما تخلوا عن هذا المعتقد واعتنقوا أفكار داروين وسبينسر حول البقاء للأقوى. على سبيل المثال ستالين وماركس ولينين وهيتلر، وكارينجي - الذي اعترف ذات مرة بأنه كان معتنقًا للمسيحية ولكنّه استبدلها بالداروينية، فقد ذكر كارينجي في سيرته الذاتية أنه عندما انتابه الشك هو والعديد من أصدقائه في تعاليم الكتاب المقدس "بما في ذلك العناصر الخارقة للطبيعة وبالتأكيد كل مخطط الخلاص" اكتشف: "أعمال داروين وسبينسر.... أتذكر ذلك الضوء الذي تدفق بقوة وجعل كل شيء واضحًا. لم أتخلص فقط من اللاهوت وخوارق الطبيعة، ولكنني أدركت حقيقة التطور. بعدها أصبح شعاري ومصدر الراحة الحقيقي لي هو: "كل شيء يصبح جيد، عندما ينمو بشكل أفضل". فالإنسان لم يُخلق بغريزة من أجل تدهوره، ولكنه ارتقى من الأدنى إلى الأعلى. ولا يمكن تصور النهاية التي قد يصل إليها في مسيرته نحو الكمال" (1920، 327).

أول ما عرف كارينجي عن الداروينية بوضوح كان عن طريق مجموعة من "المفكرين الأحرار والتنويريين الباحثين عن دين جديد للبشرية" الذين التقاهم في بيت أستاذ جامعي بجامعة نيويورك (وول 1970، 364). وما انتهى إليه كارينجي يمكن تلخيصه في قوله: "قانون المنافسة - سواء كانت حميدة أم لا - هو أنّه لا يمكننا الهروب منها.



وبالرغم من أن القانون أحيانًا يمكن أن يكون قاسيًا على بعض الأفراد، لكن هذا لصالح المنافسة، وذلك لأنّه يضمن بقاء الأصلح في كل فرع" (مقتبس من هسيو 1986أ، 10). بعدها بقليل أصبح صديقًا للداروويني الاجتماعي الشهير هيربيرت سبينسر. على الرغم من أن كارينجي نفسه "داروينيًا"، لكنّه في الحقيقة استقى إلهامه من هيربيرت سبينسر. كان سبينسر يتطلع إلى تطبيق فكر تطوري عبر نطاق واسع من الأسئلة السياسية والاجتماعية. حالتة"قبل سبينسر"، قال كارينجي مرارًا وتكرارًا "كل شيء كان مظلم بالنسبة لي، قبله، ولكن بعد مجيئه أصبح كل شيء منيرًا وصحيحًا" (ميلنر 1990، 72).

في الواقع كان سبينسر - وليس داروين - هو المنشيء لعبارة "البقاء للأصلح" والعديد من الأفكار التي تظهر وكأنها داروينية، هي في الأصل مقتبسة من مؤلفات سبينسر (لوران ونيتنيغال 2001، 21؛ ميلنر 1990، 72). لاحظ البروفيسور أسما "Asma" أنه على الرغم من أن "سبينسر هو من صاغ عبارة البقاء للأصلح"، فإن داروين هو من تبناها في "إصداراته اللاحقة من كتابه أصل الأنواع".

وفقًا لما ذكره سبينسر وتلاميذه الأمريكيين - رجال الأعمال مثل جون دي. روكفلر

وأندرو كارينجي - فإن التسلسل الهرمي الاجتماعي يعكس القوانين الثابتة والعامة للطبيعة. تتجلى الطبيعة في بقاء القوي على قيد الحياة وهلاك الضعيف. وعليه، فالكيانات الاقتصادية والاجتماعية التي تبقى هي "القوية" والأفضل، وأمّا الكيانات التي لا تبقى فلا شك أنّه كان محتّم عليها الانهيار. كان الشئ الأفضل أنّ الرأسمالية نجت من الحرب الباردة، كذلك كما كان الشئ الأفضل أن نجت الثدييات في حقبة الحياة الوسطي التي انقرضت فيها الديناصورات. "كيف عرفنا أن الرأسمالية أفضل من الشيوعية وأن الثدييات أفضل من الديناصورات؟ لأنهم بقوا بالطبع" (أسما 1993، 11 التأكيد موجود في الأصل).

توصل ستانديفورد إلى أنّ كارينجي لم يجد في رحلاته أي شيء سوى دعم فكرته أن مبدأ البقاء للأصلح ليس فقط المبدأ الذي يعمل بموجبه نظام العالم، بل إنّ داروين قد برر كل خطوة يمكن أنّ يتخذها في حياته العملية. فمعيار القياس كان الدولار، وأي زيادة يحققها كارينجي كانت دليل عل التقدم نحو الأفضل (ستانديفورد 2005، 50). قام ستانديفورد بتوثيق فلسفة كارينجي الداروينية الشرسة (مبدأ البقاء للأصلح) وتطبيقها ليس فقط على منافسيه بل وعلى موظفيه أيضًا.

## داروينية كارينجي الاجتماعية

كان هيربيرت سبينسر (1820-1903) أحد تلاميذ داروين المشهورين. سبينسر كان عالم تحسين نسل ودارويني اجتماعي. استنتج أنّ سلالات معينة كانت أدنى وبذلك ستكون "مُختارة للانقراض". شعر أن الأشياء ذاتها ستحدث للأفراد الضعفاء. حققت العديد من كتب سبينسر أعلى مبيعات كما أنها كانت تستخدم ككتب

جامعية. وأثرت في العديد من أكبر ريادي الأعمال التجارية في العالم. كارينجي: "هو من قام بتبجيل سبينسر، واستبدل اللاهوت المسيحي بسياسة عدم التدخل، حيث أن كل شيء سيصبح جيدًا إذا كان ينمو بشكل أفضل... تبنى أقطاب الرأسمالية كل ظواهر ما وراء الطبيعة بلهفة حيث أنها أوجدت لهم المبرر المطلق لممارساتهم التجارية القاسية" (أسما 1993، 11).

كتب ومقالات سبينسر جعلته مشهورًا عالميًا بحلول 1870، وفي أميركا أصبحت له شهرة أكبر من ابن وطنه تشارلز داروين. تأسست المجلة الأمريكية الناجحة للغاية – مجلة العلوم الشعبية الشهرية – تأسست كمنتدى لأفكار سبنسر. قام الصناعي أندرو كارينجي بتقديم عشاء على شرفه، الذي حضره كل شخص من أشخاص العصر المذّهب. إلى الآن أعمال سبينسر لم تقرأ، واصبح اسمه يُتلقى بالتثاؤب، وهو ليس بطلًا حتى بالنسبة للفلاسفة أو التطوريين..... أصبح سبينسر كامتداد للرأسمالية الصناعية القائمة على مبدأ عدم التدخل بالمبررات الأخلاقية، على الرغم من أن الفكرة أصبحت تعرف باسم الداروينية الاجتماعية، لكنها كانت في الحقيقة السبينسرية الاجتماعية (ميلنر 1990، 415).

كانت المشكلة أن سبينسر خلص إلى أن التطور الاجتماعي سيقضي على الأفراد والشركات الأقل ملائمة أو الأضعف، ولا يجب على "الرجال العقلاء" أن يتدخلوا مع "قوانين" التطور التي لا تقهر. كانت النتيجة في اعتقاده هي مجتمع متطور ويعمل بسلاسة لينتج البضائع الجيدة لأعضائه المستقبليين. قانون التطور هو التقدم المستمر لتحقيق سعادة الفرد والمجتمع في نهاية المطاف (ميلنر 1990، 415).

أصبح كارينجي أغنى رجل في العالم، وكان الزعيم بلا منازع في صناعة الصلب. أهمية كارنيغي للرأسمالية، والداروينية إلى كارنيغي، أوضحها ميلنر على النحو التالي: "صعد كارينجي في قطاع الأعمال ليصبح المليونير الشرس ذا النفوذ الذي يستغل البشر والعالم ويسحق منافسيه، ثم يبرر أفعاله بفلسفة الداروينية الاجتماعية. وزعم أنّ المنافسة في مجال الأعمال تقدم خدمة للمجتمع من خلال القضاء على العناصر الأضعف. أولئك الذين يستطيعون البقاء في مجال العمل هم "الأصلح" ويستحقون هذه المناصب والمكافئات. ضم كارنيغي الأخلاق الرأسمالية إلى قانون الطبيعة (ميلنر 1990، 72).

تقريبًا من 1870 فصاعدًا، "أعلن كارينجي إلى العالم بصوت عالٍ – في الخطب العامة والكتب والمقالات وفي الأحاديث الخاصة وحتى في الخطابات الشخصية – أن اعتماده الفكري والروحاني هو على هربرت سبنسر" (وول 1970، 381). وفي منشوراته ومراسلاته الشخصية، يقدم كارينجي إشارات سهلة ومتكررة إلى العقيدة الداروينية الاجتماعية. فعبارات مثل: "البقاء للأصلح"، و"تحسين العرق" و"الصراع من أجل البقاء" خرجت بسلاسة من قلمه ومن بين شفتيه. فقد رأى مجال الأعمال على أنه صراع تنافسي عظيم، وكان دائمًا وبكل أسف على علم بالضعفاء الذين لم ينجوا (وول 1970، 389).

لقد تمسك أكثر رجال الأعمال الناجحين بالفكر الدارويني وذلك بعد أن حققوا النجاح، و لا شك أن ضحايا المنافسة الظالمة لم ينسبوا إخفاقهم إلى ضعفهم الشخصي أو عدم جدارتهم في صراع الحياة (وول 1970، 377). على الرغم من أنّ العديد من أنصار التطور المعاصرين تأسفوا على الداروينية الاجتماعية المفرطة، إلّا أنّها

كانت "مشهورة للغاية بين رأسماليي عدم التدخل في القرن التاسع عشر لأنه يبدو بالفعل أنها كانت تُعطي تصديقًا علميًا على المنافسة الشرسة في مجال الأعمال والسياسة" (موريس وموريس 1996، 83).



**صورة أندرو كارنيغي ووليام جينينغز برايان وغيرهم من رجال الأعمال في ذلك اليوم.**

لم يتخلَ العديد من الرأسماليين عن إيمانهم بالله تمامًا، ولكن بدلاً من ذلك حاولوا مزجها مع الداروينية. كانت النتيجة حلًا وسطًا إلى حدٍّ ما مثل التطور التوحيدي. ربما لم يكن غالبية رجال الأعمال الأميركيين من الداروينيين الاجتماعيين، ولكنهم كانوا يميلون إلى أن ينسبوا نجاحاتهم أكثر إلى سماتهم الشخصية مثل الذكاء والبراعة والمثابرة والفضيلة، بدلًا من نسبتها إلى سحق منافسيهم الأقل نجاحًا بشراسة. بعد كل شيء، كان غالبيتهم يرون أنفسهم مسيحيين يلتزمون بقواعد "حب جارك" و "عامل الناس كما تحب أن يعاملوك"، لذا، على الرغم من أنهم سعوا لتحقيق المستحيل – من خلال

خدمة الله[بالأعمال الصالحة] والثروة في وقت واحد - لم يجدوا صعوبة في التوفيق بين المسيحية والأفكار الداروينية حول الصراع من أجل البقاء، والبقاء للأصلح ولم يفكر أو يدرك أيًا منهم بحال من الأحوال أنّهم في حالة حرب اقتصادية مع زملائهم الصناعيون (أولدرويد 1980، 216)

ذكر جون دي. روكفلر أن "نمو شركة كبيرة هو ببساطة بقاء للأصلح؛ تطبيقًا لقانون الطبيعة" (غينت 1902، 29). مع احتفاظ آل روكفلر على الواجهة المسيحية، فقد اعتنقوا مذهب التطور ورفضوا سفر التكوين باعتباره من الأساطير. (تايلور 1991، 386). عندما تعهد أحد المتبرعين بمبلغ 10 آلاف دولار للمساعدة في تأسيس جامعة تحمل اسم ويليام جينينغز براين، ردّ جون دي. روكفلر الابن في اليوم ذاته بالتبرع بمليون دولار إلى كلية علم اللاهوت في جامعة شيكاغو (لارسون 1997، 183). فالفلسفة التي تبناها كارينجي لم تُعتنق من قبل روكفلر وباقي مؤسسي السكك الحديدية مثل جيميس هيل فقط، ولكن أيضًا من قبل أغلب الرأسماليين المعاصرين (موريس وموريس 1996، 87). حتى الرأسمالي الأمريكي المعروف هينيري فورد قد وجد في الرأسمالية الأساس المنطقي والرائع لأنظمة المشاريع الحرة. (ليفين وميلنر 1994، 161) فالاقتران بين كلًا من داروين والرأسمالية كان أفضل تعبير عما حدث لسبينسر في رحلته من إنكلترا لأميركا: "حتى وإن كان ضيوف العشاء غير مقتنعين تمامًا بمدى صحة أفكار سبنسر، إلا أنّ المأدبة أظهرت مدى الشعبية التي وصل إليها في الولايات المتحدة الأمريكية. عندما كان سبينسر على رصيف الميناء في انتظار السفينة التي سترجعه إلى انجلترا، شدّ على يد كارينجي ويومانز وصاح أمام الصحفيين: "ها هما أفضل صديقان

أمريكيان بالنسبة لي." ربما كانت هذه لمحة نادرة عن الدفء الذي تحمله شخصية سبنسر، ولكن الأكثر من ذلك أنّها مثّلت التناغم بين العلم – الداروينية الاجتماعية – الجديد ورؤية تطور مجال الأعمال."

كان لأفكار سبنسر آثار واضحة في مجالات أخرى كذلك. وأشار الراحل إسحاق أسيموف إلى أنه يمكن استخدام الداروينية لتبرير تجاهل المسؤولية الاجتماعية الطبيعية تجاه العاطلين عن العمل أو المحتاجين: "يبدوا أن هذه النظرة أصبحت رأيًا علميًا وذلك بفعل عالم الاجتماع الإنجليزي هيربرت سبينسر، الذي قام بتطبيق نظريات التطور التي عمل عليها في البداية عالم الطبيعة الإنجليزي تشارلز روبرت داروين في 1859. صاغ سبينسر عبارة "البقاء للأصلح". في 1884 – على سبيل المثال – جادل بأنّ العاطلين عن العمل أو من يشكلون عبئا على المجتمع، فإنّهم يتحتم عليهم الموت بدلاً من أن يصبحوا هدفًا للعون والإحسان. إذا فعلنا هذا نكون قد تخلصنا من الأفراد الذين لا يصلحون للبقاء وعززنا السلالة البشرية. كانت فلسفة بشعة للغاية حيث كانت تُستخدم لتبرير أسوأ دوافع البشر (1977، 94).

## ألهمت الداروينية الشيوعية والرأسمالية

من الموثق تاريخيًا أن داروين لم يلهم هتلر فقط ولكن ستالين ولينن. وأن هذا التطور ألهم كلًا من الشيوعيين والرأسماليين ولم تكن مفاجأة جديدة الحدوث، فكلاهما يعارض علانية القيم الأساسية المسيحية على جوانب مختلفة، وهذا ما يسمى "بالصراع الطبقي" الذي كان يُعتقد أنه جزء لا مفر منه من التاريخ (بيرلوف 1999، 266). كلًّا من الحزب اليساري اللينيني – الماركسي والحزب اليميني الرأسمالي الشرس كانوا ضد

نظرية الخلق، حتى عندما يقاتلون فيما بينهم، فإنهم يبقون متحدين ضد نظرية الخلق (موريس وموريس 1996، 82).

فبعد وقت قصير من نشر داروين مرجعه التاريخي في 1859، فُسرت نظرية "البقاء للأصلح" في علم الأحياء من قبل الرأسماليين على أنها مبدأ أخلاقي يقضي بالمنافسة الاقتصادية القاسية (راكيلس 1990، 63، انظر كذلك هيسيو 1986أ، 10). قام مليونير هيوسن رجل النفط ميتشيل هلبوتي الذي كان نموذجًا واضحًا للصوص النبلاء بتبرير أعماله الوحشية بحجة أنّه: "كما في الطبيعة؛ مبدأ البقاء للأصلح يسود" (مقتبس من أويلين وأويلين 1984، 113). لاحظ المؤرخ غيرترود هيميلفارب أن الداروينية قُبلت بسرعة في أنكلترا، ولكن تمت مقاومتها في فرنسا، أحد أسباب ذلك أنها بررت جشع اللصوص النبلاء. يُقال إنّ نظرية الانتقاء الطبيعي قد نشأت في إنكلترا فقط لأنّ سياسة عدم التدخل في إنكلترا هي التي وفرّت العقلية الأنانية - أنصار المذهب الذري[1]- اللازمة لها.

هناك فقط تمكّن داروين من أن يفترض بشكل قاطع أن الوحدة الأساسية هي الفرد، والغريزة الأساسية هي المصلحة الشخصية، والنشاط الأساسي هو النضال. يقول شبنغلر واصفًا أصل الأنواع بأنّه "تطبيق علم الاقتصاد على علم الأحياء" كما قال أنه تفوح منه رائحة المصانع الإنكليزية، أما عن الانتقاء الطبيعي، فقد ظهر في انجلترا لأنها

(1) المذهب الذّري: هو فكرة فلسفية تطورت في اليونان خلال القرن الخامس قبل الميلاد. تنصّ على أنّ الطبيعة تتكون من مبدأين أساسيين: الذرة والفراغ. وأن الكون كله يتكون من مجموعة من الأجسام غير القابلة للانقسام -الذرات- المحاطة بالفراغ والتي تصطدم وتتحد مع بعضها البعض مكونة كتل. واختلاف الأشياء في الكون يكون بسبب اختلاف عدد وكيفية اتحاد هذه الذرات. نفت هذه النظرية أي تدخل إلهي في خلق الكون، وهي نظرية باطلة علميًا وعقديًا.( الناشر)

كانت التعبير المثالي عن "فلسفة الجشع" الفيكتورية المتمثلة في أخلاقيات الرأسماليين واقتصاد مانشستر (1962، 418).

أدرك البعض أيضًا أنّ الأفكار الداروينة بالرغم من اعتمادها على "مؤلفات هيربيرت سبينسر بشكل أكبر من اعتمادها على تشارلز داروين" فإنّها تتضمنّ التصديق على الممارسات التجارية الدموية و"استخدام مؤيدوها لسياسة عدم التدخل في الاقتصاد للتخلص من غير الصالحين، وغير الأكفاء، والعاجزين (ميلنر 1990، 412). ربط الأمريكيون الانتقاء الطبيعي الدارويني وتطبيقه على البشر بعقلية البقاء للأصلح والتي بررت سياسة عدم التدخل الرأسمالية، والإمبريالية، والعسكرية. عقود قبل حملة "بريان ضد تدريس الدراوينية في المدارس"، زعم – على سبيل المثال – أندرو كارينجي وجون دي. روكفلر أنّ هذا مبرر لممارساتهم التجارية الشرسة (لارسون 1997، 27). وكما قال كولسون وبيرسي: "إننا اليوم نشعر بالفزع من هذا الموقف القاسي، وأننا محقون في هذا" (1994، 106).

## استخدام الداروينية لتبرير الرأسمالية الشرسة

كان البروفسور ويليام غراهام سومنر من جامعة برنستون أحد أبرز المتحدثين في الداروينية الاجتماعية، والذي خلص إلى أن أصحاب الملايين هم الأفراد "الأصلح" في المجتمع، وبالتالي: "استحقوا امتيازاتهم، لقد تم "اختيارهم طبيعيًا من بوتقة المنافسة." وقد وافق أندو كارينجي وجون دي. روكفلر واعتنقا فلسفات مشابهة والتي اعتبراها مبررًا علميًا لتجاوزات الرأسمالية الصناعية (ميلنر 1990، 412)

وأيد العديد من الأساتذة البارزين بالإضافة إلى هيربرت سبينسر تطبيق فلسفة

"البقاء للأصلح" في المجتمع. كبار علماء علم الاجتماع مثل كولي وسوروكين وسومر وروس وحتى بارك، جميعهم ملتزمون بعقائد البيولوجية العنصرية التي تبرر بل وتشجع سياسة البقاء للأصلح الاجتماعية (روزنتيال 1977)

في السابق كانت للنظريات التي تقول بأنّ السلوك شئ وراثي إلى حد كبير أثرًا في تعزيز قبول الرأسمالية المتطرفة والعنصرية والتمييز على أساس الجنس، وحتى الحرب (روزنتال عام 1997). وأشار روزنتال إلى أنّ هذا كان صحيحًا على الرغم من عدم وجود أي دليل علمي على أن السلوك الاجتماعي للإنسان أساسه بيولوجي، أو أن المنافسة التجارية/الاجتماعية، وهيمنة الذكور، والعدوانية، والإقليمية، ورهاب الأجانب، وحتى الوطنية، والحرب، والإبادة الجماعية هي قضايا بشرية قائمة على أساس جيني (روزنتال عام 1997). ومع ذلك، احتلت المذاهب البيوجينية مكانًا بارزًا طوال الوقت، ففي غالبية التاريخ الأكاديمي الأمريكي الاجتماعي كان مفهوم "الصراع من أجل البقاء" يعني بالنسبة للعديد من الرأسماليين تدمير من يرونهم منافسين أضعف وأقل قيمة. إن القيام بذلك كان مجرد نتيجة لقانون "البقاء للأصلح" الذي يعمل ليس فقط في الطبيعة، ولكن كذلك في كل مجالات الحياة الأخرى، بما في ذلك الأعمال التجارية. في رأي كارينجي "أنه على الرغم من أنّ قانون البقاء للأصلح ربّما يكون أحيانًا قاسيًا على بعض الأفراد، لكن هذا لصالح المنافسة، وذلك لأنّه يضمن بقاء الأصلح في كل فرع" (1920، 327). وخلص العديد من الداروينين إلى أن البقاء في مجال الأعمال يتطلب التمسك بالقوانين الداروينية وأنّ تجاهلها يمكن أن يؤدي للانقراض، كما حدث

بالفعل في عالم الأحياء. على الرغم من أن العديد من اللصوص النبلاء تبرعوا بمبالغ كبيرة من المال، إلّا أنّ الأفكار الداروينية أثرت عليهم في هذا أيضًا. فعلى سبيل المثال قام كارينجي وحده بالتبرع بـ 125 مليون دولارًا أمريكيًا في الفترة ما بين 1887 إلى 1907 ولكن "أيًّا منها لم يذهب لإغاثة الطبقات الفقيرة، فباعتباره دارويني جيد لم ير أن هناك مبرر لمحاولة انقاذ الأفراد الذين لا يصلحون. إلقاء المال في البحر كان أفضل بالنسبة له" (وايلي 1954، 92). لم يرَ اللصوص النبلاء أنّ الداروينية قوة سلبية بالضرورة، ولكن على حد قول رئيس جامعة كلارك - جي. ستانلي هول: "لا يوجد شيء يعزز التفاؤل مثل التطور. فالأفضل - أو على أية حال ليس الأسوأ - هو من يبقى على قيد الحياة. الكون يتطور إلى الأعلى، إلى مزيد من الإبداع وليس لإزالة الإبداع، من الغاز الكوني فصاعدًا؛ الكون يتقدم ويتطور ويتحسن" (1928، 546).

وُجد من تحليل جلسة استماع لجنة إضراب عمال فحم الإنتراسيت[1] (03/1902) أنّ: "تبنّى اتحاد منتجين الفحم الأيديولوجية الداروينية الاجتماعية، وخلطوا ما بين "البقاء للأصلح" و"حرية وحقوق الفرد" (دوكاس 1997، 367). وخلصت هذه الدراسة إلى أنّ شعبية الداروينية الاجتماعية في الفكر القومي في الولايات المتحدة يجب أن تُفهم على أنها من اختراع الرأسمالية (دوكاس 1997، 367).

---

(1) اضراب فحم الإنتراسيت (الحجري): اضراب نظمه اتحاد عمال المناجم في الولايات المتحدة عام 1902 من أجل الحصول على أجور أعلى وعدد ساعات أقل، وهددوا بقطع امداد المدين بالطاقة في الشتاء في الوقت الذي كانوا يعتمدون فيه على الفحم في تدفئة المنازل. وانتهى الاضراب -بعد تدخل الرئيس ثيودور روزفلت- بحصول العمال على زيادة في الاجور بنسبة 10% وتخفيض عدد ساعات العمل من 10 إلى 9 ساعات في اليوم.( الناشر)

## الأفكار الداروينية باقية حتى اليوم في مجال الأعمال

كما يشير عنوان أحد الكتب "داروينية الأعمال: التطور أو الذوبان"، فإنّ تطبيق المفاهيم الداروينية على الأعمال التجارية لا يزال إلى حد كبير يحدث حتى اليوم (ماركس 2002). قد تكون حالة إنرون هي المثال الأكثر شهرة ولكنها فقط تلامس سطح هذه المشكلة والميل إلى تأييد هذه الفلسفة (للمثال، انظر كات 1971). أحد الأمثلة المحتملة هي طريقة تطبيق روبرت بلاك وزملاؤه المؤلفون للداروينية الحديثة في كتابهم الأفضل مبيعًا الذي بعنوان داروينية المؤسسات. وخلص المؤلفون إلى أن الأعمال تتطور وتنمو وتتوسع بطرق يمكن التنبؤ بها ومن خلال مراحل محددة تشبه إلى حد كبير مراحل التطور البشري (1966).

تماشيًا مع مبادئ الداروينية، فإنّ "تطور الأعمال التجارية" الطبيعي يعني إمّا أن تبتلع منافسينك أو سيبتلعوك، كما جادل المؤلفون بأنّ الداروينية تنطبق بشكل أفضل على الشركات وليس الأفراد. تقول دراسة أكاديمية بواسطة هودسون كذلك بأنّ تطبيق الداروينية أمر أساسي لتطوير نظرية اقتصادية حديثة قابلة للتطبيق (2006). استنتجت دراسة بواسطة لوران ونيتينجال أنّ التطور الدارويني "هو أفضل نموذج لدينا"، لفهم ليس فقط عالم الطبيعة بل أيضًا العالمين الاجتماعي والاقتصادي (2001، 6-5). يوجد علاقة وثيقة بين الاقتصاد والنظرية الداروينية منذ تكوين نظرية داروين (2001، 15).

كتاب آخر شهير لريتشارد كوتش حقق أعلى مبيعات عام 2001 "قانون الأعمال الطبيعي: كيفية تسخير قوى التطور والفيزياء والاقتصاد لتحقيق النجاح في مجال الأعمال". الآن يوجد فرع كامل من فروع علم الاقتصاد يطلق عليه "علم الاقتصاد

التطوري". لقد نشروا على الأقل كتابين وجريدة الاقتصاد التطوري. أحد أكثر علماء الاقتصاد التطوري المؤثرين - ألفريد مارشال -، كان - هو وواحد من أشهر تلاميذه جون ماينارد كينيس - كانا متأثرين بشكل كبير بداروين وعلم تحسين النسل (غرونيوجن 2001، لورينت 2001)

حول تاريخ صناعة النفط في تكساس، أشار أوليان وأوليان إلى أنه حتى بعد الحرب العالمية الثانية، كان لا يزال هناك العديد من رجال النفط المستقلين الذين يعتقدون أن نجاح اقتصادهم قائم على فلسفة البقاء للأصلح الداروينية (1984، 113). نقل البروفيسور ديفيد جيليرنتر عن المدير التنفيذي السابق لشركة مايكروسوفت - روب غلاسر - أنّ أغنى رجل في العالم - بيل غيتس -: "رجل دارويني متعنت. يُعرف النجاح بأنه الإطاحة بالمنافسين وليس تقديم شيئًا مميزًا" (1998، 202).

الرد الرئيسي على تعدّيات الرأسمالية المبررة بالداروينية هو أن الأفكار الداروينية أُسيء استخدامها في الاقتصاد، وعلى كلٍّ، داروين ذاته يعتقد أن نظريته البيولوجية قدمت الدعم للمنافسة الاقتصادية الفردية ومبدأ عدم التدخل في الاقتصاد (فيكارت 1995، 609).

## الاستنتاجات

لعبت الداروينية دورًا حاسمًا في تنمية وتطور ليس فقط النازية والشيوعية ولكن أيضًا الرأسمالية الشرسة، ويتضح هذا جيدًا من خلال اللصوص النبلاء في القرنين التاسع عشر والعشرون. على الرغم من أنه من الصعب أن نستخلص بثقة أن الرأسمالية الشرسة لم لتزدهر ببهذا القدر إذا لم يقم داروين بتطوير نظريته التطورية، ولكن هناك شيء واحد واضح وهو أنه: إذا استمر كارينجي وركفلر والكثير من الرأسماليين الشرسين

الآخرين في اعتناق النظرة العالمية اليهودية - المسيحية[1] الخالصة التي كانوا عليها في شبابهم بدلًا من تحولهم إلى لداروينية، لم تكن الرأسمالية لتصبح غير إنسانية مثلما كانت في آواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين.

لا شك أنّ دوافع أخرى منها الطمع والطموح كانت عوامل في شراسة اللصوص النبلاء (وايلي 1959). ويميل الكثيرون إلى الادعاء بأنّ نجاحاتهم كانت بسبب العمل الجاد والذكاء والادخار والرصانة (وول 1970، 379) على الرغم من أنّ حياتهم تحكي شيئًا آخر، حيث أنّ الدروينية أعطت الكثير من الرأسماليين ما بدا أنّه مبررًا علميًا مما سمح بنقل الرأسمالية إلى التطرف الذي كانت عليه في بدايات القرن الماضي (موريس وموريس 1996، 84، هوفستادلر 1955)، قال وول: يبدو أن رجال الأعمال الأوائل في الصناعة الأمريكية ليس لديهم حاجة إلى معرفة نظرية سبنسر أكثر من الحيوانات المفترسة في الغابة، ومع ذلك كان مقبولًا بشكل عام أنّهم - مثل نظرائهم من الحيوانات المفترسة - تصرفوا في حياتهم اليومية بناءً على نظرية التطور الداروينية القاسية، فالأضعف كان يُلتهم والأصلح ينجوا، فقد استفادت الصناعة الأمريكية والمجتمع الأمريكي من هذا الصراع التنافسي من أجل البقاء. (1977، 376).

(1) جدير بالذكر أن الإسلام أرسى في عقول أتباعه حفظ الحقوق . بل وأمر بالإحسان ، قال تعالى ﴿وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَـٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [الأعراف: 85] ، وفي الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم قد قال **«قال اللهُ : ثلاثةٌ أنا خصمهم يومَ القيامةِ : رجلٌ أعطى بي ثم غدرَ ، ورجلٌ باع حرًّا فأكل ثمنَه ، ورجلٌ استأجرَ أجيرًا فاستوفى منهُ ولم يُعطِه أجرَه»** ، بل أخرج الشيخان في صحيحيهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في حق الرقيق أنه قال **«هم إخوانُكم . جعلهم اللهُ تحتَ أيديكم ، فمَنْ جعلَ اللهُ أخاه تحتَ يدِه ، فلْيُطعِمْه ممَّا يأكُلُ ، ولْيُلبِسْه مما يَلبَسُ ، ولا يُكلِّفْه مِنَ العملَ ما يَغلِبُه ، فإن كلَّفَه ما يَغلِبُه فلْيُعِنْه عليه»**. فإن كان هذا في الرق فالعمال لهم نفس الحقوق من باب أولى . ( الناشر )

كـان الضـرر النـاجـم عـن تطبيـق الداروينيـة في مجـال الأعمـال محفـزًا رئيسـيًا لوليـام جينينغز برايان في حملته لمواجهة انتشـار الداروينيـة. وأشـار لارسـون إلى أن برايـان "بنى حياتـه السياسـية علـى استنكار التجـاوزات الرأسماليـة والعسـكرية"، و"في 1904 رفـض الداروينية باعتبارها قانون لا يرحم، بواسطته يقوم القوي بالتخلص من الضعيف وأخذ مكانه" (1997، 27). وقد أظهر التاريخ تحقق مخاوف بريان، كما أظهر التاريخ أيضًا أن الداروينية أصبحت دينًا بالنسبة لكثير من الصناعيين. قدم بروفسور وول مثالًا ممتازًا بقوله: "التقـدم مـن خـلال التطور كلاهما - البيولـوجي والتكنولـوجي - جلـب للطبيعة والبشرية - الآلة والحديقة - التناغـم التام. كـان هـذا خلاصة إيمان كارنيجي بالوصول إلى الكمال المطلق للكون، وسيبقى على هذا الإيمان للسنوات الخمس والثلاثين القادمة (وول 1977، 366). كـان سبينسـر بالنسـبة لكـارينجي الإلـه. ففـي كلمـات كـارينجي نفسـه، سبينسـر "هـو أعظـم عقـل في عصـره وأي عصـر آخـر"، وأنّ "في مجلداتـه يوجـد الجـوهر النهـائي لكـل الحقيقـة والمعرفـة" (وول 1970، 390) مـن ناحيـة أخـرى تؤيـد المسيحية السلوك المناقض للداروينية: "لم يأمر الكتاب المقدس بأي حرب ضد أحد، بـل بحرب كـل شـخص ضـد نفسـه الأمـارة بالسـوء. مسـألة النجـاح ليسـت في طحـن المنافسين، بـل في رفـع المرء لذاتـه؛ وهمـا ليسـا بنفـس الشـئ. فـرص النجـاح مثـل فـرص الخلاص بـلا حـدود، يمكـن أن تستقبل الجنّة كل من يستحق. هـذا التصور السمائي للاقتصـادية يختلـف عـن فكـرة مالتوسـان، والتي تقضـي بـأن الفـرص محـدودة للغايـة، وأن صعود الفـرد يعني سقوط العديـد مـن الآخـرين. كانـت النظـرة الأكثـر تفاؤليـة، أنّ كـل انتصـار يمهـد للمزيـد، وهـي الفكـرة الـتي هيمنـت علـى كتابـات غالبيـة الأشـخاص الـذين

كتبوا عن "الاعتماد على النفس" (وايلي 1954، 83-84).

لو استمر اللصوص النبلاء في العيش معتمدين على ما استخلصه والي من المسيحية، فإن الإساءات الشائعة في القرن التاسع عشر ربما لم تكن لتحدث مطلقًا. على حد تعبير كولسون وبيراسي فإنّ: "اللصوص النبلاء الصناعيون لم يستخدموا المسيحية لتبرير طريقتهم الوحشية، بل استخدموا التطور" (1994، 106).

## الملخص

ساعدت مؤلفات الداروينين على تبرير ليس فقط الاستغلال القاتل للنازيين والشيوعيين، ولكن كذلك الممارسات الشرسة للرأسماليين الاحتكاريين مثل كارنيغي وروكفلر. "كانت الدراوينية تستخدم كذلك للدفاع عن المنافسات الفردية ونتيجتها الاقتصادية لرأسمالة "عدم التدخل" في انجلترا وأميركا. كتب أندرو كارنيجي أن "قانون المنافسة سواء كان حميدا أو لا، فهو موجود؛ لا يمكننا التهرب منه." ذهب روكفلر خطوة أبعد من ذلك (هيسيو 1986ب، 534).

باختصار: "قام صناعيو العصر المذّهب مثل أندرو كارينجي وجون دي. روكفلر وجيمس جي. هيل علنًا وبصراحة بتبرير كل ممارساتهم التجارية الشرسة باستخدام مصطلحات الداروينية الاجتماعية. فقد صرحوا بأنّ ما فعلوه كان صحيحًا والسبب في ذلك هو قانون داروين "البقاء للأصلح". بالتأكيد كان هناك خاسرون من هذه الممارسات، وبالتالي كان هناك فائزون. والذين أصبحوا فائزين أصبحوا كذلك لأنهم الأصلح. وفي النهاية، لم يكن ذلك لصالحهم، بل كان لصالح المجتمع" (لارسون 2002، 125). إن المساهمة الهامة للداروينية قد وُثقت جيداً خاصة التي طورها سبينسر إلى سياسة عدم التدخل الرأسمالية.

# المراجع

إيزاكأسيموف، 1977. الباب الذهبي: الولايات المتحدة من 1856 حتى 1918. بوسطن، م أ: شركة هوتون ميفلين.

ستيفين تي أسما، 1993. "الداروينية الاجتماعية الجديدة: تستحق فقرك الشديد."الإنسانية11 :(5)53.

أتو بيتمان، 1974. الأيام القديمة الذهبية -كانت رهيبة! نيويورك: البيت العشوائي.

روبرت آر بلاك، وارين أفيس، جين موتون. 1966. الداروينية المؤسسة – منظور تطوري على عمل المنظمة في المؤسسة الديناميكية. هوستون، ت.إكس: منشورات جولف.

أندرو كارنيجي، 1920. السيرة الذاتية لأندرو كارنيجي. جزن س. فان ديك، المحرر. أُعيد طباعته في 1986، بوسطن م.أ: صحافة جامعة نورث إيسترن.

إيفور كات، 1971. منظور كات: الداروينية الصناعية الحديثة. نيويورك: بوتنام.

تشارلز كولسون، نانسي بيارسي. 1994. نعمة خطيرة. دالاس، ت.إكس. كلمة.

ديميترادوكاس، 1997. "رأسمالية المؤسسة تحت التجربة: جلسات استماع لجنة اضراب فحم الأنثراست، 1903–1902.''المتطابقات: دراسات عالمية عن الثقافة والقوة398–367 :(3)3.

ديفيد جيليرنتير، 1998. "بيل جيتس."مجلة تايم205–201 :(23)152.

ويليام جينت، 1902. إقطاعنا الخيري. نيويورك: ماكميلان.

بيتر جروينيويجين، 2001. "اقتصاديات التطور لألفريد مارشال: نظرة عامة،" عند لورينت ونايت إنجال، ص. 61 -49.

جي ستانليهال، 1928. المراهقة وعلم النفس الخاص بها. نيويورك: د. أبليتون.

جيرترودهيميلفارب، 1962. دارون والثورة الداروبنية. نيويورك: و. و. نورتون.

جيوفريهودجسون، 2006. الاقتصاديات في ظل داروين وماركس. نورثامبتون، ماستشوستس: إدوارد إلجار.

ريتشارد هوفستادتير،1955. الداروينية الاجتماعية في الفكر الأمريكي. بوسطن، م أ: بياكون.

روبرتهانتر، 1965. الفقر. نيويورك: كتب الشعلة.

كينيثهسو، 1986 أ. الموت الأعظم: الكارثة الكونية والديناصورات ونظرية التطور. نيويورك: هاركورت، براس، جوفانوفيتش.

---. 1986بب. "أخطاء داروين الثلاثة."جيولوجية يونيو، 534-532 :14.

جوليان وهـ.ب.د. كيتليويلهوكسلي، 1965. تشارلز داروين وعالمه. نيويورك: الفيكنج.

ماثيو جوسيفسون، 1934. اللصوص النبلاء. نيويورك: هاركورت وبراس.

ريتشارد كوخ، 2001، القوانين الطبيعية للأعمال؛ كيفية تسخير قوة التطور والفيزياء والاقتصاديات لتحقيق نجاح الأعمال. نيويورك، نيويورك: العملة/ دوبليداي.

إدوارد جي لارسون، 1997. صيف الألهة: تجربة المنظور ومناظرة أميركا المستمرة حول العلم والدين. نيويورك: كتب أساسية.

---. 2002. نظرية التطور: تاريخ من التناقض. تشانتيللي، ف.أ: الشركة المعلمة.

جون لورينت، 2001. "كينز والداورينية." الفصل الخامس في لرويت ونايت إنجال.

---، وجون نايت إنجال. 2001. الداروينية والاقتصاديات التطورية. نورثامبتون،

ماستشوستس: إدوارد إلجار.

جوسيف ليفين، كينيث ميللر. 1994. علم الأحياء: اكتشاف الحياة. ليكسينجتون، ك.ي: العاصمة هيث.

إيريك ايه ماركس، 2002. داروينية الأعمال: تطور أم ذوبان: استراتيجيات التكيف لعصر المعلومات. تشيتشيستر، إنجلترا: جون ويلي وأبنائه.

ريتشارد ميلنر، 1990. موسوعة التطور. نيويورك: حقائق في الملف.

هنري موريس، جون د. موريس. 1996. ثلاثية الخلق الحديث. المجلد 3. المجتمع والخلق. الغابة الخضراء، أ.ر: كتب مرجعية.

دي آر أولدرويد، 1980. تأثيرات الداروينية. الأراضي المرتفعة الأطلنطية، ن.ج: صحافة الإنسانية.

روجر امأولين، ديانا دافيز أولين. 1984. المنقبون: رجال النفط المستقلون في تكساس. أوستن، تكساس: صحافة تكساس الشهرية.

جيمسبيرلوف، 1999. تورنادو في جانكيارد. أرلينجتون، م أ: كتب الملاذ.

جيمسراتشيلز، 1990. خلقت من الحيوانات: التأثيرات الأخلاقية للداروينية. نيويورك: صحافة جامعة أكسفورد.

ستيفين جي روزإنثال، 1977. "علم الأحياء الاجتماعية: تصنيع جديد أم أيدولوجية قديمة؟" بحث قدم في اتفاقية الجمعية الأمريكية لعلم الاجتماع في عام 1977.

أبتونسينكلير، 1906. الغابة. نيويورك: دوبليداي وشكراه.

ليسستاندفورد، 2005. مقابلتك في الجحيم. نيويورك: صحافة الأنهار الثلاثة.

جيانستيلمان، سوزان داوم. 1973. العمل خطير على صحتك. نيويورك: كتب عهد البيت العشوائي.

إيان تي تايلور، 1991. في عقول الرجال: داروين ونظام العالم الجديد. مينيابوليس، م.ن: منشورات تفي.

جوسيف افوال، 1970. أندرو كارنيجي. نيويورك: صحافة جامعة أكسفورد.

ريتشارد ويكارت،1995. "خطاب لداروين حديث الاكتشاف عن الداروينية الاجتماعية."إزيس 611–609 :86.

إيفرين ويللي، 1954. الإنسان المصنوع ذاتيًا في أميركا. نيو برونسويك، ن.ج: صحافة جامعة روتجيرز.

------. 1959. "الداروينية الاجتماعية ورجل الأعمال."متابعة المجتمع الفلسفي الأمريكي، 640–629 :(5)103.

هواردزين، 1999. تاريخ الشعوب في الولايات المتحدة. نيويورك: هاربر كولينز.

إيفان ال زوبيلكا، 1992. سوء الممارسة العلمية: مناقشة تطور الخلق. ليكسينجتون، ك.ي: كتب بريستول.



# الفصل الرابع عشر

## تأسيس الداروينية للإبادة الشيوعية

### مقدمة

من خلال مراجعة مؤلفات مؤسسي وقادة الشيوعية الذين قاموا بتوثيق نظرية التطور الطبيعي، فقد اتضح أنّ لها أهمية بالغة في تطور الشيوعية الحديثة، خاصة التي أشاعها داروين.

وافق العديد من أعمدة الشيوعية الرئيسين – بمن فيهم ستالين ولينين وماركس وماو وأنغلز – على النظرة العالمية التي صُورت في سفر التكوين حتى تعرفوا على داروين وغيره من المفكرين التطويرين المعاصرين، الأمر الذي أدى في نهاية المطاف إلى التخلي عن تلك النظرة العالمية والتحول إلى الإلحاد والداروينية (إنغلز 1876، هالستيد 1980، يونغ 1982). كانت الداروينية كذلك هامة للغاية في تحولهم إلى الشيوعية وإلى تمسكهم بنظرة عالمية أخرى أدت بهم إلى فلسفة قائمة على الإلحاد. الادّعاء بأنّ الأحداث الرهيبة في الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية لا علاقة لها بإلحاد ماركس ولينين، غير صحيح. ومن الأمثلة على ذلك المادة 124 من دستور الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية التي تنص على أنه "من أجل ضمان حرية المواطن الفكرية، تفصل الكنيسة في الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية عن الدولة، وتفصل المدرسة عن الكنيسة، من أجل حرية العبادة الدينية وحرية الدعوة ضد الدين مكفولة لكافة المواطنين". سمحت عبارة "حرية الدعوة ضد الدين" لأي أحد بأن مهاجمة المؤمنين ونبذهم، وهذا ما حدث في المدارس والجامعات السوفيتية. فلقد قاموا بالفعل بتأسيس أقسام للإلحاد، وذلك للتأكد

من أنها كانت جزءًا هامًا من منهج الدراسة الأكاديمي. ولا تظهر عبارة "فصل الكنيسة والدولة" في الدستور الأميركي، على الرغم من أن التعديل الأول ينص على أنّه "يلتزم الكونغرس بأن لا يضع أي قانون يحترم مؤسسة دينية أو يحظر الممارسة الحرة لها. وكانت الأديان المضطهدة في أميركا الاستعمارية قلقة للغاية بشأن محاباة الحكومة المدنية لبعض الطوائف المسيحية المعينة، كما كانت هذه الحال ذاتها في أوروبا. أراد الكثيرون إبقاء الدولة خارج الكنيسة، وطمأنتهم بأن الكنيسة ستحصل على الحرية الدينية الكاملة، في عام 1802 كتب الرئيس توماس جيفرسون رسالة إلى جمعية دانيبوري كونيتيكت المعمدانية مؤكدًا لهم أن التعديل الأول يحمي الشعب الأمريكي من خلال إقامة "جدار الفصل بين الكنيسة والدولة" للحفاظ على الكنيسة من تدخل الدولة.

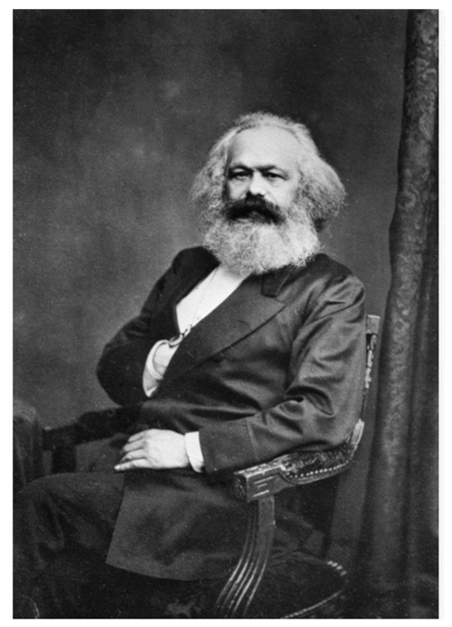
كما كان للداروينية تأثير سلبي عميق على أخلاق وسلوك هؤلاء الأعمدة الرئيسيين للشيوعية (راتشلز 1990، أولدرويد 1980، لينكزوسكي 1996، روز 1986). مثال على ذلك، أحد الأفكار الأساسية للشيوعية حول الثورة العنيفة التي يُطيح فيها القوي بالضعيف. كانت هذه النظرة العالمية جزءًا لا مفر منه من ظهور التاريخ الذي جاء من المفاهيم والاستنتاجات الداروينية. كانت النظرية الداروينية بمثابة وجهة نظر حاسمة ليس فقط في التأثير على تطور النازية ولكن كذلك في ظهور المحارق الشيوعية التي أودت بحياة ما يقرب 200 مليون شخص على أقل تقدير (كورتوا وآخرون 1999، 4، آزار 1999). كما لاحظ موريس أنّ: كلًّا من ماركس وهتلر مع كافة أسلافهم وشركائهم وخلفائهم من أنصار التطور العقائدي حاولوا بناء مجتمعاتهم على أُسس تطورية. هناك وثائق كثيرة حول هذه الفكرة، وعدد قليل منها يشكك في ذلك (1997، 419).

لم يكن التطور جانبًا ثانويًا، بل "كان اللبنة المركزية في المذهب الماركسي" كان الشيوعيون مقتنعين بأنّ التطور من الذرة إلى البشر قد حدث بالفعل، وأنّ كافة البيولوجيا قد تطورت بشكل تلقائي للأعلى، وأنه يجب القضاء بشكل فعال على الروابط البينية (أو الأنواع الأقل تطوراً). كانوا يعتقدون أن الانتقاء الطبيعي يمكن ويجب أنّ تتم مساعدته بفعالية، وبالتالي وضعوا تدابير سياسية للقضاء على [أولئك] الذين اعتبروهم "متخلفين" (ويلدير سميث 1982، 27). ولأسباب وجيهة للغاية "لقرابة قرن، اقترن اسم كارل ماركس باسم تشارلز داروين بعلاقة وثيقة" (بول 1979، 469). وكما كتب جون سبارغو في آواخر الستينيات، قال كارل ماركس: "لا شيء يمنحني أي سرور أكثر من ارتباط اسمي بداروين. عمله الرائع يجعلني محصّن، قد لا يكون داروين على علم بذلك، ولكنه ينتمي للثورة الاجتماعية (الشيوعية)" (كما ورد في فيكارت 1999، 15). يعتبر العديد من القادة الشيوعيين ماركس وداروين "المفكرين الأكثر ثورية وتأثيرًا في القرن التاسع عشر" (وين 1999، 362). علاوة على ذلك، عاش ماركس وداروين "على بُعد عشرين ميلاً فقط لمعظم حياتهم، وكان لهم العديد من المعارف المشتركين بينهم" (وين 1999، 312). "اقتران التطوريين بالثوريين" لم يتم في الجنة، بل اتضح أنّه تم في الجحيم. قال ستالين: "أنّ الداروينية الجديدة تُجهز التطور للثورة الشيوعية وتضع الأُسس الأرضية لقيام الثورة عن طريق إكمال عملية التطور وتسهيل نشاطها الإضافي. الماركسية تعتمد على الداروينية وتعالجها من دون نقد" (1954، 1، 304، 310). وكان العديد من الإصلاحيين المتطرفين نشيطين قبل نشر داروين لعمله الأساسي، أصل الأنواع في عام 1859. من هذا المنطلق، بما أن الإيمان الديني ساد بين

العلماء وغير العلماء قبل داروين، فقد كان من الصعب للغاية على هؤلاء المتطرفين إقناع الجماهير بقبول الإيديولوجيات اليسارية الشيوعية أو غيرها. ولهذا السبب، منعت الدول الغربية تطوير غالبية الحركات المتطرفة لقرون، لكنّ داروين فتح الباب أمام الماركسية من خلال توفير ما اعتقد ماركس أنه منطق علمي لإنكار الخلق، وبالتالي إنكار وجود الله (بيرلوف 1999، 244).

## مؤسس الشيوعية كارل ماركس يكتشف داروين

عُمّد ماركس لوثريًا في عام 1824، ودرس في إحدى المدارس الابتدائية اللوثرية، وحصد الثناء على مقالاته "الجادة" حول "الموضوعات الأخلاقية والدينية"، وحكم عليه معلموه بأنه سيكون ماهر إلى حد كبير في علم اللاهوت، كان كتابه الاول بعنوان "اتحاد المؤمنين مع المسيح" كان دراسة في حب المسيح (برلين 1959، 31، ورمبراند 1986،11). فقد بقي مسيحيًا ملتزمًا حتى الوقت الذي اطّلع فيه على كتابات مادية وإلحادية عندما كان طالبًا في جامعة برلين من 1836 حتى 1841 (كوستر 1989، 163).


*صورة لكارل ماركس عام 1875.*

كان إنكار ماركس لوجود الله، وتحوله إلى الداروينية حرجًا في تطوير نظرته الإلحادية المعروفة للعالم الآن باسم الشيوعية. وشدد ماركس مثل كافة الدارونيين أنّ نظرته

الشيوعية للعالم كانت قائمة على المنهجية والنظرية العلمية (كولمان 1931، 705). أُعجب ماركس بكتب داروين، ليس لغرض اقتصادي ولكن لأسباب أكثر جوهرية، وهي كون داروين ماديًا بحتًا، ولم يعد تفسيره يتضمن أي إشارة إلى أسباب غير مادية لا يمكن رؤيتها خارجاً أو من جانب آخر، لهذا السبب المهم، أصبح داروين وماركس رفقاء حقيقين (بيثيل 1978، 37)

كان كلّ من ماركس وإنغلز مقتنعين بأن داروين قد وجّه الضربة القاضية لنظرية الغائية في العلوم الطبيعية من خلال تقديم تفسير منطقي للتكيف الوظيفي في الكائنات الحية وإثبات تفسيره تجريبيًا. وبشكل عام، رحبوا بـ [نظرية] داروين" (جورافسكي 1961، 12). بيرلوف بصفته ملحد يساري سابق قام بدراسة الشيوعية وانتهى إلى أن التطور والماركسية يسيران جنبًا إلى جنب (1999، 244). يعتقد المؤلف فريدريك إنغلز الذي شارك ماركس في نظريته الشيوعية أن الأفكار الداروينية كانت جزءًا مهما في النظرة الشيوعية للعالم. كتب إنغلز إلى ماركس في عام 1859 يخبره أنه كان يقرأ كتاب داروين 1859 قائلًا: "لقد كان رائعًا للغاية. لم تسع المحاولات السابقة لإثبات التطور التاريخي في الطبيعة، وبالتأكيد لم يكن لها تأثير جيد على الإطلاق" في فهم البشر (كما ورد في باترسون 2009، 87). لاحظ المؤرخ كريس تالبوت أن كلًا من ماركس وإنغلز أكدّا طوال حياتهما على أهمية أعمال داروين (2012،1).

## كارل ماركس تحت تأثير الداروينية

كتب كارل ماركس (1883-1818) بلا كلل حتى مماته، حيث أنتج مئات من الكتب والدراسات والمقالات. حتى أن المؤرخة الماركسية آسيا برلين زعمت أنه لا يوجد

مفكر "في القرن التاسع عشر كان له تأثيرًا مباشرًا ومدروسًا وقويًا على البشرية مثل كارل ماركس" (1959، 1). رأى كلّ من هتلر وماركس العالم الحالي من حيث مبدأ "البقاء للأصلح" الدارويني الذي يشمل انتصار القوي وإخضاع الضعفاء (بانيكويك 1912، جورفيسكي 1961). علّم داروين أن "الصراع للأصلح" موجود بين كافة الكائنات الحية، بما في ذلك البشر. استنتج هتلر من هذه الفكرة أن "الصراع من أجل الوجود" الرئيسي بين البشر كان في المقام الأول بين الأعراق، لكن ماركس اعتقد أن النضال الرئيسي كان بين الطبقات الاجتماعية. اعتقد ماركس أنّه تم عمله بالتوازي مع داروين. اعتقد ماركس أنّه اكتشف قانون التنمية تمامًا مثل داروين. فقد رأى التاريخ كمراحل، كما رأى الداروينيون الطبقات الجيولوجية وأشكال الحياة المتعاقبة. جعل كلّ من ماركس وداروين الصراع هو الوسيلة للتنمية. ومرة أخرى، فإن قياس القيمة عند داروين هو البقاء على قيد الحياة مع التكاثر؛ حقيقة مطلقة تحدث بغض النظر عن الجودة الأخلاقية أو الجمالية للمنتج. فالمبدأ الذي يقوم به ماركس في قياس القيمة هو العمل المبذول؛ أيضًا حقيقة مطلقة تحدث دائما في الوقت المناسب، وتتجاهل كذلك فائدة المنتج. كان داروين، وماركس يميلان إلى التهرب والتعديل على حلهما الميكانيكي في وجه الاعتراضات (بارزون 1958، 170). على الرغم من أنهم قاموا بتطبيق الداروينية على مجموعات مختلفة، لكن هتلر وماركس كانا مدينين لداروين بأفكارهما الأساسية. كتاب أصل الأنواع قد أثار إعجاب ماركس أكثر من غالبية الكتب و"ربما أعمق من أي كتاب آخر قد قرأه" (كولب 1972، 332). يقول ماركس "إن كتاب داروين مهم للغاية ويخدمني ليس فقط كأساس للانتقاء الطبيعي في الصراع الطبقات في

التاريخ، بل ويشكل الضربة القاضية للغائية في العلوم الطبيعية أو في معناها العقلاني المشروح والمجرب" (زيركل 1959، 86).

قرأ ماركس أولاً كتاب أصل الأنواع لداروين بعد عام من نشره. كان متحمسا للغاية للكتاب الذي أعاد قراءته بعد ذلك بعامين (كولب 1972، 329). آمن ماركس بالكثير من أفكار داروين وقام بإرسال نسخة من كتاب رأس المال (نشر لأول مرة في عام 1867) إلى داروين. يصف ماركس ذاته بالمعجب الصادق لداروين (غولد 1974، 70) علاوة على ذلك، نظر ماركس بذاته إلى عمل داروين كتأكيد علمي على وجهات نظره الخاصة (ستاين 1988، 52).

هناك أدلة أخرى تدعم الاستنتاجات التي توصل إليها داروين والتي كانت مؤثرة للغاية على المحصلة العامة من استنتاجات ماركس وخاصة في الأقسام التاريخية لكتاب رأس المال. ودليل ذلك يتضمن أن الحقيقة التي توصل إليها ماركس قد استشهد بها مرتين في كتاب رأس المال عام 1862، حضر ماركس سلسلة تتكون من ست محاضرات قام بتدريسها توماس هكسلي، وكان محورها هو أفكار داروين ولم تتحدث عن أي شيء آخر سوى داروين والأهمية الهائلة لاكتشافاته العلمية (كولب 1972، 329-330). يفتخر الماركسيون والشيوعيون والاشتراكيون اليوم بالدور الذي أداه ماركس في نشر الداروينية. د.بيرنال — عالم الأحياء الماركسي - ذكر: "أنّ ماركس كان أحد المفكرين الأوائل الذين قبلوا الأفكار التطورية، بالرغم من الاعتقاد السائد بأنّ الفضل يرجع إلى داروين في جعلها هي المهيمنة في الجزء الأخير من القرن التاسع عشر. كان حدث تقديره لكتاب داروين أصل الأنواع على الفور دون نقد. منذ ذلك الوقت، امتدت فكرة التطور مع التغييرات المفاجئة بشكل

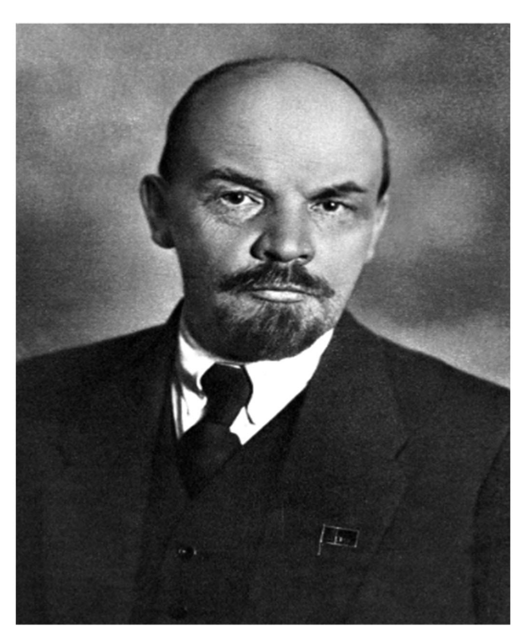
أكبر مما تخيله داروين إلى ما وراء عالم الكائنات الحية وصلت إلى الأرض والكون كله. في ضوء الاكتشافات الحديثة، أصبح العلماء الآن أكثر استعدادًا لقبول ظواهر الطبيعة على أنها مجموعة من الخطوات لا شئ يعطى أو يصنع. من الناحية الفكرية، فإنّ ماركس الذي رآها منذ أكثر من مائة عام، يقف كالمعيار الأول للعقل. ومع ذلك، إذا كان قد اقتصر على تأسيس وجهة نظر تاريخية مادية عالمية، لكانت البشرية قد فوتت شيئًا أكبر بكثير من أي بناء فكري آخر" (1952، 12-20).

وفقًا لما ذكره صديق مقرب من ماركس، كان ماركس من أوائل المفكرين "الرئيسين الذين أدركوا أهمية بحث داروين. ففي عام 1859 وهو عام نشر كتاب أصل الأنواع – وللصدفة الرائعة هو عام نشر المساهمة في نقد الاقتصاد السياسي لماركس – حينها أدرك ماركس أهمية داروين التاريخية. وبالنسبة لداروين، فقد كان يستعد لثورة مماثلة لتلك التي كان يجهز لها ماركس نفسه. قام ماركس بمجاراة كل ظهور جديد وأدرك كل خطوة للأمام، خاصة في مجالات العلوم الطبيعية (ليبكيكت 1968، 106).

بعد أن أصبح ماركس دارويني، رفض بشدة الايمان بالأمور الخارقة للطبيعة (برلين 1959، 30). كما أنه استنكر الدين ووصفه بأنّه "أفيون الشعوب"، وفي كل الدول تقريبًا التي استولى الشيوعيون فيها على السلطة ألغيت الكنائس كليًا او تم تعطيل عملها.

كان داروين وماركس اثنين من الرجال الأربعة المسئولين عن إنتاج العديد من الأحداث الأكثر أهمية في القرن العشرين (هيمان 1966). كان ماركس "مفتونًا" بداروين، وكان لأفكار داروين تأثيرًا كبيرًا ليس فقط عليه وعلى وإنغلز، بل كذلك على كل من لينين وستالين. كما أنّ كتابات هؤلاء الرجال ناقشت أفكار داروين بشكل

متكـرر (هيـير 1975). اعتنـق مـاركس وإنغلـز الداروينيـة "بحمـاس"، وتابعـا مؤلفـات داروين، وكثيرا مـا كـان هنـاك توافـق بـين آرائهـم (وآراء آخـرين) حـول اسـتنتاجات داروين (كـونر 1980، 4، هـاير 1975، مـاركس وإنغلـز 1936). أدرك الشـيوعيون أهميـة داروين في حركتهم، وبالتالي دافعوا بقوة عن داروين؛ "اعترفـت الحركـة الاشـتراكية بالداروينيـة كعنصر مهـم في نظرتها العالمية العامـة منـذ البداية. عنـدما نشر داروين كتـاب أصـل الأنواع في عام 1859، كتب كارل ماركس رسالة إلى فريدريك إنغلز قال فيها: "هذا هو الكتـاب الـذي يحتوي على أسـاس التـاريخ الطبيعي لوجهـة نظرنـا". ومـن بـين كافـة الباحثين البارزين في القرن التاسع عشر الذين تركوا لنا مثل هذا الموروث الغني بالمعرفة، نحـن ممتنـون بشـكل خـاص لتشـارلز داروين لفـتح الطريـق لنـا إلى فهـم التطـور الجـدلي للطبيعة" (كونر 1980، 12، 18).



الثوري والسياسي الروسي، فلاديمير لينين، 1920

## هل أرسل ماركس مسودة الطباعة[1] لـ رأس المال إلى داروين؟

كـان يُعتقـد على نطـاق واسـع أنّ مـاركس أرسـل مسـودة الطباعـة الخاصـة بكتـاب

(1) هي مسودة تتم طباعتها بهدف المراجعة بواسطة الكاتب أو المدققين اللغويين. وفي الماضي كانت عبارة عن عمود طويل ليس على صورة صفحات أو أوراق منفصلة.(الناشر)

رأس المال لداروين وعرض عليه أن يحتفظ بها. ولكن يُقال أنّ داروين رفض خوفاً من أن هذا الفعل قد يسبب له [الحرج] مع بعض أفرد عائلته إذا علموا بأي شكل من الأشكال أن عنده شئ يدعم توجيه الهجمات ضدّ الدين (كما ورد في كيث 1955، 234؛ الاقتباس الأصلي من معهد ماركس - إنغلز، موسكو). تشير أبحاث أخرى إلى أنّه في الواقع لم يكن كارل ماركس هو الذي أرسل الرسالة إلى داروين، بل إدوارد أفيلينغ زوج إليانور ماركس (وين 1999، 366-367). لم يكن الكتاب الذي أُرسل إلى داروين رأس المال الذي كان قد نُشر بالفعل عند إرسال الرسالة، ولكن كتاب تلميذ داروين

والذي كان جزءًا من سلسلة حُررت بواسطة "الملحدين"، ويساعدنا هذا الاستنتاج على فهم رسالة داروين، ولماذا شعر أنّ تأييد كتاب ملحد سيحرج عائلته. ويرجع هذا الاختلاط جزئيا إلى حقيقة أن "الملحد"، أفيلنغ وضع الرسالة في ظرف به رسائل من "بطليه الاثنين: ماركس وداروين". تكشف هذه الحادثة بوضوح عن وجود ارتباط وثيق بين داروين وماركس وكان ذلك من قبل الشيوعيين، ولهذا السبب يكون الاعتبار دائمًا لأعمال ماركس. أرسل ماركس إلى داروين نسخة من كتاب رأس المال ولا تزال في داخل بيت داروين إلى الآن (كلوب 1972، 333)، وكتب داروين أنّه "لشرف" له أنّ يتلقّى نسخة من "العمل العظيم" لماركس.

انعكست علاقة داروين وماركس عندما خلص الشيوعي البارز فريدريك ليسنر إلى أنّ كتاب رأس المال وكتاب أصل الأنواع كانا أكبر الإبداعات العلمية في القرن التاسع عشر (1968، 109). إن أهمية الداروينية في الوفيات المقدرة بـ 140 مليون شخص بسبب الشيوعية تعود جزئياً إلى أنّه: "بالنسبة لماركس، الإنسان ليس له طبيعة. الإنسان

هو صانع نفسه. وهو في حرية تامة من الأخلاق، أو من قوانين الطبيعية، أو من إله الطبيعة. فمن هنا ندرك لماذا تبرر الماركسية التضحية الوحشية بالبشر الذين يعيشون اليوم، الذين في هذه المرحلة من التاريخ يعتبرون بشكل جزئي بشر" (إيدلبرج 1984، 10). يضيف هالستيد أن الأساس النظري للشيوعية هو المادية المثيرة للجدل والتي شُرحت بشكل كبير بواسطة فريدريك إنغلز في كتاب ضد دابيرنج وكتاب منطق الطبيعة. اعترف بالقيمة الكبيرة للمساهمات التي قدمتها الجيولوجيا في إثبات وجود حركة مستمرة وتغيير في الطبيعة وأهمية عرض داروين وأنّ هذا ينطبق كذلك على العالم، فجوهر الإطار النظري بأكمله هو طبيعة التغيرات النوعية. هذا موضح كذلك من قبل إنغلز في منطق الطبيعة "حيث لا تحدث فيه التغيرات النوعية بشكل تدريجي ولكن بسرعة وفجأة، تأخذ شكل قفزة من مرحلة إلى أخرى." ها هنا إذن وصفة الثورة (هالستيد 1980أ، 216-217).

تنص الشيوعية على هذا من خلال "الدفاع عن الداروينية، الأشخاص الذين يعملون لتقوية دفاعاتهم ضد هجمات الجهود الرجعية وتمهيد الطريق لتحويل النظام الاجتماعي" أي: ثورة شيوعية (كونر 1980، 12)

## احتضن فريدريك إنغلز الداروينية

ربما لم يكن لأحد تأثير على ماركس أكبر من فريدريك إنغلز، كان زميل ماركس وشريكه في الكثير من الأعمال. إنغلز الذي نشأ كذلك على يد أب صارم و"تَقَوي"[1]

---

(1) الحركة التقوية: حركة لوثرية كانت تسعى للتأكيد على العقيدة الإنجيلية، وأيضًا ضرورة التقوى والإلتزام بالمسيحية على المستوى الفردي. بالرغم من أنها كانت حركة لوثرية إلا أنّها كان لها تأثير كبير على كل البروتستانتيين حول العالم.(الناشر)

ومؤمن بالكتاب المقدس. على الرغم من نشأته في أسرة مسيحية ورعه، إلّا أنّ إنغلز بدأ يتشكك في إيمانه عندما قرأ لعلماء اللاهوت الألمان الليبراليين مثل برونو باور من جامعة برلين (ورمبراند 1986، 36-37). الأهم من ذلك، كان أحد العوامل الرئيسة التي أثرت على أفكار هؤلاء اللاهوتيين الليبراليين هي مؤلفات داروين. وفي الوقت ذاته أصبح إنغلز معارضاً نشطًا ليس فقط للمسيحية ولكن معارضًا كذلك للإيمان بالله. من الواضح أن ذلك كان نتيجة دراسته في جامعة برلين (كوستر 1989، 164). كان السبب في معاداته للمسيحية والتحول إلى الإلحاد هو داروين. قال: "في هذه الأيام، وفي مفهومنا للتطور الكوني، لا يوجد على الإطلاق أي مجال لخالق أو حاكم" (إنغلز 1907، 15). وأضاف أنّه "لا يوجد خالق ولا حاكم للكون. لا يمكن خلق المادة والطاقة ولا يمكن إبادتها. العقل هو صورة للطاقة؛ هو وظيفة المخ. كل ما نعرفه هو أنّ العالم المادي محكوم بمجموعة من القوانين الثابتة. لذلك، فرجل العلم هو المؤمن بالمادية. وبخصوص الأمور التي خارج مجاله من العلوم التي لا يعرف عنها شيئًا، فهو يترجم جهله إلى اليونانية ويُطلق عليها اللاأدرية[1].

" (إنغلز 1907، 18). نسب أنغلز الفضل في هذه النظرة العالمية: "إلى داروين قبل أي أحد. لقد عالج المفهوم الميتافيزيقي للطبيعة بأكبر ضربة من خلال دليله على أن كافة الكائنات العضوية والنباتات والحيوانات والإنسان ذاته هو ناتج عن عملية تطوير مستمرة عبر ملايين السنين" (إنغلز 1907، 34-35). على قبرة ماركس خلال دفنه،

(1) اللاأدرية أو الأغنوستية: وهي توجه فلسفي يؤمن بأن القضايا الدينية أو الغيبية، وخاصة تلك المتعلقة بالقضايا الإلهية مثل وجود الله أو عدم وجوده أوما وراء الطبيعة، يزعمون أنها غير محددة وغامضة ولا يمكن لأحد معرفته.(الناشر)

قال إنغلز: "أنّه كما اكتشف داروين قانون التطور في الطبيعة العضوية، فقد اكتشف ماركس قانون التطور في التاريخ البشري" (تريدغولد 1972، 50، إنغلز 1968).

خلصت المؤرخة جيرترود هيميلفارب من خلال دراستها لداروين إلى أنّه كان هناك الكثير من الحقيقة في هذا التأبين لماركس: "ما اشتهر به كلًّا منهما كان أيقاع ومسار داخلي للحياة، أحدهما حياة الطبيعة، والآخر حياة المجتمع، تلك الحياة التي تعمل وفقًا لقوانين ثابتة، دون إرادة إله أو بشر. لم تكن هناك كوارث في التاريخ كما لم يكن هناك في الطبيعة. لا توجد هناك أية أفعال يتعذر تفسيرها ولا توجد أية انتهاكات للنظام الطبيعي. كان الإله عاجزًا تمامًا مثل الأفراد من البشر عن التدخل في القانون الداخلي الذاتي التأقلم مع التغيير الذاتي والتطور" [1] (هيميلفارب 1959، 422-423).

لاحظ هوفستاتر أنّ غالبية الماركسيين الارثوذكسيين الأوائل شعروا بأنهم في وطنهم في البيئة الداروينية. عندما قرأ ماركس كتاب أصل الأنواع في عام 1860، كتب

إلى فريدريك إنغلز وفي وقت لاحق إلى فريناند لاسال أنّ كتاب داروين مهم للغاية ويخدمني كأساس في العلوم الطبيعية للنضال الطبقي في التاريخ. فقد وُضِع عمل داروين وماركس جنبًا إلى جنب على رفوف المكتبات الاشتراكية في ألمانيا (1959، 115).

بالإضافة إلى ذلك كانت الكتب الشيوعية التي تدفقت من صحافة كير في شيكاغو - الناشر الرئيسي للكتب الشيوعية بالولايات المتحدة - تزيّن باستمرار بمقتبسات بارزة من داروين، وهكسلي، وسبنسر، وهيجيل (هوفستاتر 1959، 115).

---

(1) وهذا الفكر المنحرف عن جادة العقل والمنطق ناتج عن فهمهم الضيق لطبيعة الحياة، وأن الله لم يخلقها لتكون جنة بلا اختبار ولا امتحان .(الناشر)

## ماركس وإنغلز وداروين

شارك ماركس وإنغلز في تأليف كتاب كامل عن التطور (1955). في ذلك كان دليلا واضحًا على معرفة أساسية بالداروينية. على سبيل المثال، كتب الباحثون أن التقدم في علم الأحافير وعلم التشريح وعلم وظائف الأعضاء بشكل عام لا سيما منذ اكتشاف الخلية قد تراكمت فيه الكثير من الأدلة التي خلصت إلى أنّ التطور الكلي أصبح الآن حقيقة موثقة علمياً (ماركس وإنغلز 1955، 162 -163). كتبوا أنّ البحث الذي يقارن بين مختلف الأجهزة المتشابهة في الحيوانات المختلفة مع بعضها البعض لم يتم على مرحلة البلوغ فقط ولكن في كافة مراحل نموها. وكلما زاد التعمق في هذا البحث، كلما زاد تفتت الأنظمة المتحجرة للطبيعة العضوية الثابتة الغير قابلة للتغيير. لم تصبح الأنواع المنفصلة من النباتات والحيوانات أكثر تداخلًا بصورة غير قابلة للانفصال،

ولكن الحيوانات التي ظهرت مثل السُهيميات والذفافيات (هي أسماك مزدوجة التنفس ثنائية الرئة) التي سخرت من كل تصنيف سابق، وأخيرًا صودفت كائنات حية لا يمكن القول بأنها تنتمي للمملكة النباتية أو الحيوانية. ملأت المزيد والمزيد من الفراغات في سجل الحفريات بشكل يجبر حتى أكثر المترددين على الاعتراف بالتوازي المذهل بين تاريخ تطور العالم العضوي ككل (ماركس وإنغلز 1955، 162-163). وعلاوة على ذلك: "ندخل التاريخ بالشر. الحيوانات أيضًا لها تاريخ لأصلهم وتطورهم التدريجي وصولًا إلى الشكل الحالي" (ماركس وإنغلز 1955، 168). جادل داروين وماركس وإنغلز بأنّ: "المنافسة الحرة - الصراع من أجل الوجود - هي الحالة الطبيعية للمملكة الحيوانية" (ماركس وإنغلز 1955، 169). ويثبت تطبيق قوانين التطور على البشر

أن التطور "يمكن أن يرفع البشرية فوق بقية عالم الحيوان" (ماركس وإنغلز 1955، 169). ويضيفون أن التقدم العلمي في هذه العلوم بما فيها الجيولوجيا وعلم الأجنة وعلم وظائف الأعضاء والكيمياء العضوية أمر مهم لأن تطور أساس هذه العلوم الجديدة أظهر التنبؤات المذهلة بظهور نظرية التطور الأخيرة (على سبيل المثال جوته ولامارك) (ماركس وإنغلز 1955، 233). وقد خلصوا إلى أنّ البشر تطوروا من بروتوبلازم بسيط - وهذا الاعتقاد الذي طوره داروين أولًا - أي أنّ كل الحياة الموجودة اليوم بما فيها الإنسان هي نتاج عملية تطور طويلة من عدد قليل من الجراثيم وحيدة الخلية في الأصل، والتي نشأت بدورها من بروتوبلازم أو ألبيومين الذي أصبح موجودًا بالوسائل الكيميائية. بفضل كل هذه الاكتشافات الرائعة والاكتشافات الأخرى التي أحدثت تقدم هائل في العلوم الطبيعية، وصلنا الآن إلى النقطة التي يمكننا من خلالها إثبات الترابط بين العمليات في الطبيعة وبالتالي يمكن أن نقدم بشكل منهجي تقريبًا نظرة شاملة للترابط في الطبيعة من خلال الحقائق التي توفرها الطبيعة التجريبية ذاتها (ماركس وإنغلز 1955، 252-253).

وأضافوا أن العلم الطبيعي كان في حالة اضطراب في الماضي لكن خلال الخمسة عشر عامًا الماضية، توصل إلى استنتاج واضح نسبيًا. تم الحصول على بيانات علمية جديدة لم يسمع بها من قبل - إلّا تأسيس العلاقات المتبادلة - ومن ثمّ تُبعت بحالة من فوضى الاكتشافات الواحدة تلو الأخرى، فقط مؤخرًا أصبح تحقق ثلاثة اكتشافات ممكنًا: وهي اكتشاف الخلية، وتحول الطاقة، ونظرية التطور التي نُسبت فيما بعد إلى داروين (ماركس وإنغلز 1955، 234).

وبالمثل، فإن دراسة كتبها فريدريك إنغلز (1975) توضح أن ماركس وإنغلز كانا لديهم أكثر من مجرد متوسطة عن التطور.

## تحول ألكسندر هيرزين

كان يوجد شخص آخر له دور مهم في عملية التطوير التي شملت الحركة الشيوعية وهو ألكسندر هيرزن (1812-1870). وهو أول رجل يتحدث بوضوح عن التطرف الجديد في روسيا. كان في انسجام تام مع أفكار ماركس ورائد في الدعوة إلى تمرد جماهيري لتحقيق القوة الشيوعية. كانت نظريته عبارة عن نسخة روسية مميزة من الاشتراكية تستند إلى مجتمع الفلاحين، الذي قدم الأساس الأيديولوجي لكثير من نشاط الثوريين في روسيا حتى عام 1917. تأثر هيريزين كذلك بالداروينية.

تهتم مؤلفات هيرزن الجامعية أساسًا بموضوع التحول البيولوجي. يُظهر هيرزن معرفة جيدة بالمؤلفات العلمية الجادة لهذه الفترة. خصوصًا الأعمال التي أعلنت فكرة التطور [بما في ذلك] كتابات إيراسموس داروين - جد تشارلز وبشكل ما سلفه الأيدولوجي - تابع المناظرة بين أتباع كوفييه - الذين اعتقدوا بثبات الأنواع - وجيفروي - سانت - هيلاير المؤمن بالتحول أو التطوري، وبالفعل فقد وقف في صف الأخير، حيث أنّ فكرة التطور المستمر ضرورية لتوضيح التقدم التدريجي المطلق. باختصار يعتمد التدريب العلمي لهيرزن في الأساس على المواد الخام لفلسفة الطبيعة (ماليا 1961، 91).

هيرزن كان "الشخصية الأكثر حيوية" في الحركة التي أطاحت في النهاية بالحكومة الروسية وأقامت دولة شيوعية (شوب1951، 7). قَبِل العديد من الأشخاص الداروينية أولا، ثم قبلوا الشيوعية أو كما استنتج بوسي: "الماركسية حولت المثقفين؛ ولكن [فقط]

المثقفين الذين كانوا قد تحولوا إلى الداروينية بالفعل" (1983، 452).

كـان قبـول الداروينيـة ورفـض الـدين أمـرين حـاسمين بالنسـبة للشـيوعية الجديـدة والحركـات النازية لأسباب تشـمل أن الجيـل الـذي جعـل مـن الـرفض الأعمـى والنهـائي للدين كـانوا "علماء الاجتماع" الداروينيين، الذين اتبعوا ما تصوروا أنه يقود البيولوجيا الجديـدة، مما جعـل الإلـه مستحيلاً[في وجهـة نظره المزعومـة]. فعلـت الداروينيـة نفسـها أكثر من ذلك، فقد افترضت نظرية التغيير التطوري التي اعتنقها المثقفون بشغف وقاموا بتطبيقها ليس فقط على الأنواع البشرية كما اقترح داروين، ولكن كذلك على المجتمع البشري والدولة. لم يكن داروين هو بداية المعتقدات التطورية، لكن الداروينية في أوروبا الغربية وأميركا منحتهم شعبية واسعة. وقد استخدمها في بعض الأحيان رجال مثل هربرت سبنسر لتبرير بعض القوانين القائمة، ولكن في كثير من الأحيان استخدمت لمهاجمتها على أنها بالية. تحول نيقولاس دانيلفسكي وعدد قليل آخر إلى الداروينية لأغراض محافظة، ولكن في روسيا كان الإصلاح الدارويني هو القاعدة (تريدغولد 1972، 32).

كانـت دوافـع هتلـر لقبـول وتنفيـذ الداروينيـة مختلفـة عـن الـدوافع الداروينيـة للثـورات الشيوعية. ففي ظل التناغم الحادث بين العديد من علماء الأحياء الرائدين في عصره (بما في ذلك علماء الأحياء الألمان والأمريكيين والفرنسيين والإنجليز)، أعتقد هتلر أن الأعراق البشرية قد تطورت بشكل منفصل، وبالتالي كانت غير متكافئة، والتزاوج بين الأعراق قد يؤدي إلى الخلط بين الأعراق التي تتمتع بصفات متفوقة وتلك التى لديها سمات أقل جودة مما يؤدي إلى إنتاج نسل متوسط أو أسوأ. كان الحل لمشكلات الإنسان هو منع التزاوج بين الأجناس العليا والدنيا وضمان أن الأجناس العليا هي من

يحكم الأمة والصناعة وكافة المؤسسات (ماكرون 1995). فسر الشيوعيون نظرية داروين بطريقة مختلفة نوعًا ما. لقد رأوا النظرية الماركسية حول العمل كنظرية حاسمة في الانتقال من قرد إلى إنسان (إنغلز 1950). لكن الشاغل الأساسي لكليهما كان القضاء على الدين، "وكانت النازية والشيوعية معًا يصران على أن التطور الإلحادي كالعلمي حل محل الإله" (آزار 1990، 10). وتتضح الأهمية الجوهرية لاستئصال الدين عن طريق الشيوعية من خلال مراجعة تاريخ تطور الشيوعية، والذي يعود على الأقل إلى جورج فيلهلم فريدريش هيغل (1770-1831).

## لماذا كانت الشيوعية إلحادية وأسفرت عن الإبادات

الداروينية عادة ما تؤدي إلى إلحاد العديد من العلماء (بروفن 1999، إس123؛ انظر أيضًا لاش 1967، كارينجي 1972، بيرغمان 2010). لا شك أنها أثرت على ماركس في تبني الإلحاد. كما تأثر ماركس كذلك بشكل كبير بمفهوم الجدلية التي وضعها هيغل (هال 1985). لقد رأى جورج هيغل أن الدين والعلوم والتاريخ و "كل شيء آخر" يتطور إلى حالة أعلى مع تقدم الوقت (ماكرون 1995، 51). إنها تفعل ذلك من خلال عملية تسمى الجدلية، والتي تواجه فيها أطروحة (فكرة) نقيضًا (فكرة متعارضة)، لتنتج توليفة أو مزيج من أفضل الأفكار القديمة والجديدة (ماكرون 1995، 51). جادل ماركس بأن الرأسمالية هي الأطروحة، وأن طبقة الكادحين المنظمة هي النقيض. ففي الأساس، كان الصراع المركزي في الرأسمالية بين أولئك الذين سيطروا على وسائل الإنتاج (أصحابها، الطبقة الغنية، أو البورجوازية) وأولئك الذين قاموا بالعمل الفعلي (العامل أو الكادح). كانت الفكرة المركزية لماركس هي أنّ الجمع بين الأطروحة والنقيض (على

سبيل المثال الشيوعية) سينشأ عن الصراع بين طبقة الكادحين والطبقة المتوسطة. ويتجلى ذلك في عبارة ماركس الشهيرة "يا عمّال العالم اتّحدوا وأطيحوا بمضطهديكم."

وخلص ماركس إلى أنّ الجماهير (الأشخاص الذين يعملون في المصانع والمزارع) سيصارعون مع أصحاب الأعمال والأثرياء ورجال الأعمال. وبما أنّ هناك عدد كبير من العمال أكبر بكثير من الملاك، فقد اعتقد ماركس أنّ العمال سيصبحون في نهاية المطاف رجال أعمال من خلال الثورة العنيفة وسيستحوذون على مصانعهم وثرواتهم. وستكون النتيجة ديكتاتورية من قبل الطبقة الكادحة. اعتقد ماركس أنّ الملكية الخاصة ستُلغى، وأنّ العمال سيمتلكون البلاد بشكل جماعي، بما في ذلك المزارع ووسائل الإنتاج. ثم يتقاسم كافة العمال بالتساوي في ثمار عملهم، مما ينتج مجتمعاً طبقيًا يحصل فيه الكافة على مبالغ متساوية من المال.

ويتضح أن هذه الفلسفة جذبت ملايين الأشخاص، لا سيما الفقراء والمضطهدين والعديد من أبناء الطبقة الوسطى الذين كانوا مهتمين بالفقراء (ديل ريو 1976؛ أرلين 1984). غالباً ما أدت الثورات الشيوعية إلى سلب الثروة من الطبقات المالكة للأرض والأثرياء والصناعيين وغيرهم. ولقد بنى العديد من هؤلاء الأشخاص ثروتهم بالعمل الشاق والقرارات المهنية المذهلة ولم يكونوا مستعدين للتخلي عما فعلوه، فقد عملوا لعقود كثيرة بجد لتحقيق ذلك.

بشكل عام، أدى الاستيلاء على الأراضي والثروة من أصحاب الأملاك إلى قدر هائل من المقاومة، ونتيجة لذلك حدثت مجازر رهيبة أدت لإزهاق مئات وملايين من الأرواح. وغالباً ما كان من ضمنهم أصحاب المشاريع الأكثر موهبة، والصناعيين

الأكثر مهارة، والعمود الفقري الثقافي للأمة. وأدار العمال الشركات والمصانع التي كان يديرها في السابق ما وصفهم ماركس بـ"البرجوازيين". لسوء الحظ - وليس مفاجئًا - أنّ العديد من هؤلاء العمال افتقروا إلى المهارات والذكاء والصفات الشخصية اللازمة لإدارة هذه الأعمال. ونتيجة لذلك كان هناك منتجات رديئة وإنتاج منخفض وكمية هائلة من النفايات والتي كانت قاعدة لأجيال في العالم الشيوعي. لقد وحدت نظرية ماركس الداروينية والثورية و"لا يستطيع أي مؤرخ إنكار أنّ إدعاء ماركس بتقديم الإرشاد العلمي لأولئك الذين سيحولون المجتمع كان أحد الأسباب الرئيسة لتأثير مذهبه الهائل" (جورافيسكي 1961، 4). فعلى سبيل المثال كان الأساس المرتكز علية المذهب الماركسي هو أن الإنسانية تتطور نحو الشيوعية، وأن هذا التطور لا يمكن إيقافه كما لا يمكن إيقاف أميبا من التطور في المجال العضوي (أزار 1990، 219).

## معارضة ماركس المتعنتة للدين

كان من الأمور الحاسمة في تطوير نظرية ماركس، وكذا العديد من أتباعه، رفضه للدين وقيمه الأخلاقية وقبوله للنظرة العالمية اللاأدرية/الإلحادية. عندما فقد ماركس إيمانه المسيحي وأصبح ملحدًا، خلص إلى أن الدين الإيماني كان أداة للأغنياء لإخضاع الفقراء، كما لخّصه في قوله الشهير: الدين هو "أفيون الشعوب" (ماركس 1844، 57). يعد الأفيون دواء مسكن للألم، ووصف ماركس الدين بأنه له الوظيفة ذاتها، أي أنّه استُخدم لتهدئة المظلومين لأنّه أكد السلام واللاعنف وحب الجار. وكانت النتيجة أنّها جعلتهم يشعرون بتحسن لكنّ مشكلتهم لم تُحل، وخلص ماركس إلى أنّ الحل كان إعادة توزيع ثروة الأمة.

رأى ماركس أنّ الدين ليس مجرد وهم: فقد كان له وظيفة اجتماعية ضارة، ألا وهي صرف انتباه المضطهدين عن حقيقة اضطهادهم ومنع الأشخاص من رؤية الحقائق القاسية لوجودهم. طالما أنّ العمال والمضطهدين يعتقدون أنّ سلوكهم الأخلاقي والمعاناة ستكسبهم الحرية والسعادة في الجنة، فإنّهم سيسمحون لأنفسهم بأنّ يتعرضوا للاضطهاد. استنتج ماركس أنّ العمال لن يغيروا تصورهم للواقع إلا عندما يدركوا أنّه لا يوجد إله، ولا حياة آخرة، ولا يوجد سبب وجيه لعدم الحصول على ما يريدون الآن، حتى لو كان عليهم أن يأخذوه من الآخرين.

وخلص ماركس إلى أن الحل الوحيد هو إلغاء الدين، مما سيسمح للفقراء بالتمرد علانية ضد "مضطهديهم" أصحاب الأراضي والأثرياء ورجال الأعمال وغيرهم، وإعادة توزيع ثروتهم حتى يتمكن الفقراء من التمتع بثروات الرجال الأغنياء في هذا العالم. علاوة على ذلك، فإنّه إذا لم يقم الأغنياء بتسليم ثرواتهم دون نضال، فإنّ الجماهير ستضطر إلى الاستيلاء عليها بالقوة (ماكرون 1995، 216). لاحظ إيديلبيرج أنّ "عقيدة ماركس الأخروية؛ فلسفته المادية، صالحة لكافة الأغراض العملية، وهي عقيدة الثورة الدائمة؛ عقيدة لا يمكن أن تأتي نتيجة لشئ إلّا العنف المتكرر والإرهاب والاستبداد" (1984، 10).

ولهذا السبب خلص ماركس إلى أنّ "إلغاء الدين" هو شرط أساسي لتحقيق السعادة الحقيقية للشعب (1844، 58). ونتيجة لذلك كان حجر الزاوية الهام في الشيوعية هو نزع الأفيون (الدين) عن الناس وإقناعهم بأنّ عليهم أن يأكلوا ويشربون ويفرحوا الآن، لأنهم قد يموتون غدا. فالسبيل الوحيد لتحقيق ذلك والحصول على

الموارد هو القيام بأخذ الممتلكات التي تنتمي للأغنياء والنجاح في ذلك. وشدد ماركس على الاستنتاج الداروييني الذي ينص على أنّه بغض النظر عن الملذات الشخصية في الوقت الحالي، لا معنى ولا غرض للحياة لاحقًا، لأننا جئنا مصادفة إلى الطبيعة، وفي كل الأحوال هذا لن يحدث على الأرض مرة ثانية (غولد 1989، 233).

ومع ذلك لم يتم تفسير أحد العوامل الهامة بشكل ملائم في نظرة ماركس غير الواقعية (المثالية) للعالم. أولًا، الحقيقة التي أكدها الكتاب المقدس أنّ العمال يستحقون أجورهم. عادةً ما يستلزم بدء مشروع جديد قدراً هائلاً من المخاطر ويتطلب عملاً شاقاً للغاية وساعات طويلة من قبل الأشخاص الذين يجب أن يكون لديهم في كثير من الأحيان مهارات خاصة لتوجيه هذه المشروعات لتحقيق النجاح. في الأغلب تخفق غالبية المشاريع الجديدة، فمعدل النجاح يكون أقل من واحد من كل خمسة، ونجاح أغلبها عادة ما يكون فقط متوسطًا.

وفي المقابل، يمكن أن يحصل المرء على مكافآت هائلة إذا نجح المشروع. وما تشمله المكافآت ليس فقط الثروة والمكانة ولكن كذلك الرضا عن النفس بسبب تحقيق بناء مشروع ناجح. المقابل يجب أن يكون عظيمًا بما يكفي كي يتحمل الناس المخاطر التي تنطوي عليها. بعض الأشخاص الذين تخفق شركاتهم يفقدون كل شيء يمتلكونه. كان عاملًا رئيسيًا افتقدته الشيوعية مما أدى إلى فشلها.

لكي تضمن الشيوعية قوة قاعدتها، كان من الضروري تلقين الناس ضد الدين، لا سيمًا الديانات اليهودية والمسيحية والإسلامية التي تؤكد جميعها على أنّ حرمان الأشخاص من ممتلكاتهم دون دفع تعويضات هو أمر خاطيء وأنّ قتل الأشخاص

وسلب ممتلكاتهم هي خطيئة كبيرة. علاوة على ذلك، تشدد هذه الأديان ذاتها على أنّه في الوقت الذي يجب علينا أن ندافع عما هو صحيح، فإنّ العدالة ليست مضمونة في هذا العالم، ولكن الله وعد بالمكافآت في الجنّة لأولئك الذين يسعون إلى الخير[1].

ينص الكتاب المقدس على أنّه ينبغي اظهار الرعاية والرحمة والاهتمام تجاه الفقراء والأرامل والأيتام والمنبوذين اجتماعًا والمشوهين، بل وحتى المجرمين. وينص كذلك على أنّ العامل يستحق أجره، ويدين القتل حتى لو كان جزءًا من الثورة الاجتماعية؛ "وَإِنْ كَانَ أَحَدٌ يَقْتُلُ بِالسَّيْفِ، فَيَنْبَغِي أَنْ يُقْتَلَ بِالسَّيْفِ". (رؤيا 13: 10). لقد عملت المسيحية بشكل عام كقوة تحفظ الناس من الحرمان من ثمار عملهم. أشار جيه. إدغار هوفر إلى أن الشيوعيين يعتقدون أن أيًا كان ما يفعله الإنسان أو يفكر به أو يشعر به، فإنه يمكن تفسيره من حيث المادة الديناميكية وحدها، وأن هذه المسألة هي الشيء الوحيد الموجود. يدّعي الشيوعيون أن المادة شئ مكتفي ذاتيا، وتتطور ذاتيًا، ودائمة ذاتيًا إلى الأبد، ولا يوجد ما هو مخلوق أعلى أو إله مسئول عن الخلق أو الحفاظ على الكون. توصل الشيوعيون إلى أنّ كافة الاديان والأُطر الأخلاقية المستوحاة من المفاهيم

---

(1) لقد وضعت الأديان وعلى رأسها الإسلام نظامًا يضبط معاملات الناس مع أقاربهم وحكامهم وعمالهم . وشدد الدين عقوبة من يظلم غيره من البشر أو يعاملهم معاملة سيئة ، ، قال تعالى ﴿وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [الأعراف: 85] ، وفي الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم قد قال **«قال اللهُ : ثلاثةٌ أنا خصمهم يومَ القيامةِ : رجلٌ أعطى بي ثم غدرَ ، ورجلٌ باع حرًّا فأكل ثمنَه ، ورجلٌ استأجرَ أجيرًا فاستوفى منهُ ولم يُعْطِه أجرَه»**، بل أخرج الشيخان في صحيحيهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في حق الرقيق أنه قال **«هم إخوانكم ، جعلهم اللهُ تحتَ أيديكم . فمَنْ جعلَ اللهُ أخاه تحتَ يدِه ، فلْيُطْعِمْه ممَّا يَأْكُلُ ، ولْيُلْبِسْه مما يَلْبَسُ ، ولا يُكلِّفْه مِنَ العملِ ما يَغْلِبُه ، فإن كلَّفَه ما يَغْلِبُه فلْيُعِنْه عليه»**. فإن كان هذا في الرق فالعمال لهم نفس الحقوق من باب أولى . ( الناشر).

الروحية تقوم على الخيال. بالاعتماد على تفسيرهم المادي، يؤكد الشيوعيون أنّه لا يوجد فرق جوهري بين الإنسان والكائنات الحية الأخرى. الإنسان هو مجرد نتاج للكيمياء والفيزياء، ويختلف عن الكائنات الحيّة الأخرى فقط في درجة نموه. لذلك يقول الشيوعيون "أنّه حيث لا يوجد مخلوق أعلى، أي قانون أو تشريع أخلاقي مبني على المفاهيم الروحية يُعد غير صالح (1962، 31).

بالطبع لم يرفض ماركس كل الديانات لكنه رفض الديانة المسيحية واليهودية [والإسلام] وطور دينه الخاص، "دين الشيوعية" (بيردياف 1970، 243). كان دينه "نظامًا للميتافيزيقا الاقتصادية العالمية" ونظامًا لعلم الوجود (بيردياف 1970، 243). لقد أصبحت نتائج نموذج ماركس الإلحادي الآن مأساوية للغاية. فالمذهب الشيوعي معناه أن يأخذ كل واحد وفقًا لاحتياجاته وأن يعطي كل واحد وفقًا لقدراته، ولكن أصبح الكل يأخذ كثيرًا بقدر ما يستطيع ويعطي أقل قدر ممكن. وكانت النتيجة إفلاس غالبية الدول الشيوعية. في العقد الماضي، شهدنا انهيار غالبية الأنظمة الشيوعية واستبدالها إما بالحكومات الرأسمالية أو الاشتراكية. كوبا والصين لديهما الآن حكومات اشتراكية، الصين أقامت إصلاحات رأسمالية واسعة النطاق في سعيها للتعايش مع الرأسمالية، وكوريا الشمالية تتجه نحو حكومة اشتراكية.

إنّ جودة المجتمع ناتجة عن معايير قادتها. يجب أن يكون الأشخاص الأكثر تأهيلاً هم الذين يديرون المدارس والمصانع والحكومات. الفقر الاقتصادي الذي تعاني منه روسيا وغالبية دول أوروبا الشرقية بجانب وجود عوامل متشابكة معقدة يدل بشدة على إخفاق النظام الشيوعي.

كانت روسيا كذلك مصابة بالداروينية للدرجة التي جعلت فلاديمير سولوفيير يقول: "أنتج المفكرون الروس إيمانًا يستند إلى قياس منطقي غريب: الإنسان يمتد نسله إلى القردة، لذلك يجب أن نحب بعضنا البعض" (باين 1964، 629) حتى المجموعات النسائية كانت نشطة في إنتاج "القراءات الجيدة للأجيال الصغرى، وقاموا بإدراج أصل الأنواع لداروين على رأس قائمتهم" (ستيتس 1991، 69). كل هذا ليس مفاجئًا، باعتبار ما حدث في روسيا بعد تولي الشيوعية مباشرة. والأكثر من ذلك، "عندما وصل البلاشفة إلى السلطة في عام 1917، جعلوا هذا الإلحاد المتهور المتعصب أساس عملهم. هناك أدلة على أنهم لم يحظوا بدعم شعبي واسع. فقد كانوا في حالة من الصعود والهبوط أثناء حكمهم للبلد، ما حدث في القرى وكذلك في المصانع، قدرًا كبيرًا مما يمكن وصفه فقط بالتحول الجماعي التلقائي للإلحاد" (ويب وويب 1935، 1006-1007).

## تحول لينين إلى الداروينية

كان فلاديمير أوليانوف، المعروف للعالم باسم لينين (1870-1924)، كان متأثرًا أيضًا بشكل كبير بالداروينية. كان لينين مؤسس أول "دولة اشتراكية" والمنظم والقائد الأول لروسيا الشيوعية. حكم روسيا بيد من حديد حتى مات وتولى ستالين (أوبيكين 1969). كان لينين يدير روسيا وفقا لفلسفة "أقل لكن أفضل"؛ إعادة صياغة للانتقاء الطبيعي (شوارتز 1972، 30). نشأ لينين على يد والدين مؤمنين بالكتاب المقدس في منزل من الطبقة المتوسطة (ميلير وآخرون 1963، 33). ثم في حوالي عام 1892 أكتشف لينين مؤلفات داروين وماركس، وتغيرت حياته وحياة العالم بأكمله إلى الأبد (ميلر وآخرون، 1963، 36). يذكر المؤرخ آلان بيسانسون أنّ: "ادّعي أنّه تأثر بداروين

وهذا ما فعله لينين كذلك (وبالمناسبة هذا ما فعله هتلر أيضًا) (1981، 8).

وسرعان ما نشأ لدى لينين انبهار بأفكار تشارلز داروين، لدرجة أنّ الماركسية والداروينية أصبحت دينه الجديد (سيرفيس 2000). أوضح برتراند راسل أنّ المفهوم المادي للتاريخ أصبح حرفيًا يجري في دماء لينين (كلارك 1988). كان لينين يعتقد أن "داروين وضع حداً لنظرة الحيوانات والنباتات غير المترابطة والحديثة" التي خلقها الله "وغير القابلة للتغيير، وكان أول من وضع علم الأحياء على أساس علمي مطلق من خلال إنشاء التحور وتعاقب الأنواع" (لينين 1978، 142).

كان الحافز على تبني لينين للماركسية والداروينية حقيقة أن نظام التعليم الروسي الظالم ألغى فترة حكم والده بمهلة سنة واحدة، مما ألقى أسرته في حالة اضطراب في غضون عام من فقدان وظيفته، توفي والد لينين، تاركا لينين يشعر بالمرارة في سن 16 (كوستر 1989، 174). لقد كان لينين معجبًا للغاية بأبيه، الذي كان رجلًا متشددًا دينيًا وذكيًا، وكانت خسارته مدمرة. كان تحول لينين إلى الداروينية مكتملاً إلى درجة أن "العمل الفني الوحيد في مكتب لينين كان عبارة عن تمثال لقرد يجلس على كومة من الكتب - من بينهم أصل الأنواع - وينظر متأملًا جمجمة بشرية". نظرة داروين للإنسان هذه بقيت أمام نظر لينين أثناء عمله في المكتب، بينما كان يوقع الموافقة على الخطط أو أوامر الإعدام. كان القرد والجمجمة رمزًا لإيمانه، الإيمان الدارويني بأن الإنسان هو حيوان بهيمي، والعالم عبارة عن غابة، وحياة الأفراد غير متصلة بذلك. ربما لم يكن لينين رجلاً شريراً غريزيًا، على الرغم من أنّه أمر بالتأكيد بتطبيق العديد من الإجراءات الشريرة. ربما تذكره هيئة القرد والجمجمة بأنّه في العالم بحسب داروين، فإنّ

وحشية الإنسان ضد الإنسان أمر لا مفر منه. في نضاله ليحقق "جنة العمّال" من خلال وسائل "علمية" أمر بقتل العديد من الأشخاص. ربما ساعده القرد والجمجمة في كبت أي دفعات إنسانية بقيت من طفولته الجيدة (كوستر 1989، 174).

احتل هذا التمثال البرونزي البالغ طوله عشر بوصات موقعًا مهيمنًا على مكتبه (باين 1964، 629). يعلق باين أنه لا يوجد شئ جذّاب في مظهر القرد الذي هو عبارة عن شيء وحشي بمظهر قذر له رأس صغيرة وأكتاف منحنية كبيرة وأذرع متدلية طويلة، أمّا الجمجمة البشرية فكان الفم مفتوح والأعين فارغة فهي أقل جذبًا. يحدّق القرد في الجمجمة، والجمجمة تحدقّ في القرد، يمكننا فقط أن نخمن طبيعة الحوار اللامتناهي الدائر بينهما (1964، 626).

الأكثر من ذلك أنّ لينين كان يصرح بحبه للتمثال الذي وُضِع في مكان بارز ليراه الجميع. كان التمثال الوحيد على المكتب، وأول شيء تراه العين؛ وكلما نظر لينين من مكتبه للتحديق في الصورة الكبيرة للغاية لكارل ماركس واللوحة التي تحمل اسم ستيبان خالتورين بأحرف ذهبية، كان من المؤكد أنه سيرى القرد. هناك شعور ما أن وجوده الحي سيطر على الغرفة (باين 1964، 626-627).

بعد وفاة لينين وتحويل مكتبه إلى متحف، ظل التمثال قائماً لأن "لينين كان واحداً من هؤلاء الرجال الذين عرف تماماً ما كان يحبه وما لا يحبه. لم يكن هناك شيء في الغرفة لم يمثل شئ مهم بالنسبة له" (باين 1964، 627). كان هذا هو إخلاصه للداروينية وأي شيء آخر ربما مثله التمثال له؛ إنها تمثل انتصار الداروينية على البشرية.

باعتباره مخلص للشيوعية الروسية، فلم يكن لينين مجرد ملحد فقط، بل شعر بأنّ

الماركسية "تستلزم الإلحاد". لإن الإلحاد كان الطريق للعلوم والتقدم (سيرفيس 2000، 85، 148). ومن المؤكد أنّ سلوكه لا يتفق مع القيم المسيحية، فقد أمر أتباعه بسرقة البنوك، واستخدام القنابل بوصفها وسيلة للإرهاب، واللجوء إلى العنف إذا خدم ذلك هدفهم المتمثل في إنتاج ثورة شيوعية (سيرفيس 2000). حتى سقوط الشيوعية، كان الروس يعتبرونه أعظم بطل قومي لهم.

كيف يصبح الشخص شيوعيًا، وما أهمية الداروينية في هذه العملية، ذكرها شوارتز. وأشار إلى أنّه في الكليات كان الطلاب يدرسون أنّ المؤمنين بالإله لديهم عقول من الدرجة الثانية، وأنّه بما أنّهم أذكياء، فإنّهم لا يحتاجون إلى إله. يقبل هؤلاء الطلاب عادة الفرضية الداروينية المتعلقة بأصل البشر، والفرضية الماركسية المتعلقة بأصل الحضارة والثقافة والأخلاق والدين (شوارتز 1972، 34). وهكذا رأوا مستقبلهم في الشيوعية، وبالتالي كرّسوا حياتهم لتحقيق الأهداف الشيوعية (التي شملت الثورة العنيفة). وكانت النتيجة عهد الإرهاب الذي أودى بحياة الملايين خلال القرن الماضي وما زال يودي بأرواح كثيرة حتى اليوم.

## الحرب السوفيتية ضد المسيحية

دفعت العلوم الداروينية الشيوعيين السوفيتيين إلى شنّ حملات وحشية ضد الديانة المسيحية. ولاحظ ويب وويب أنّ هناك "جوانب إيجابية وإبداعية تجاه المعتقد العلمي في اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية"، ولكن كان هناك أيضًا "جانب سلبي ومدمر؛ الإتهامات العنيفة والاقتلاع الجذري - من كل أطراف الاتحاد السوفيتي - للدين وخاصة الديانة المسيحية" (ويب وويب 1935، 1004). أراد لينين استبدال

الـدين وخاصـة الـدين المسـيحي بـالعلوم وتحديـدًا العلـوم الداروينيـة وكـان مصـرًا علـى معارضته للديانة المسيحية. أصر على ذلك كقاعدة لكل تعاليمه، ونفى بشكل قطعي الوجود لأي مظهر من مظاهر خوارق الطبيعة، كما أنه أصر بشدة على أن الكون المعروف للبشرية (بما في ذلك العقل مساويًا للمادة) هو فلك العلوم، وأن هذا التقدم المطرد في المعرفة نتيجة لخبرة الإنسان في الكون، هي المرشد الوحيد الصالح للبشرية (ويب وويب 1935، 1006).

باختصار، اعتقد لينين أنّه لا يوجد مكان للمعجزة ولا يوجد خلود في أي مكان وأنّه لا يوجد روح غير العقل المؤقت للإنسان ولا بقاء ولا إحياء بعد الموت. رفض لينين الاعتراف بأي تردد أو نقاش في الأمر. هو لم يوافق على أي تحريف لهذه الاستنتاجات العقائدية من خلال استخدام كلمات مثل اللاأدرية أو الروحانية. لقد كتب مجلدًا كاملًا ليقول أنّه لا يعتبر من أتباعه أي شخص لا يعتبر الدين على أنّه خرافة وأنّه يؤدي إلى السحر دون أي أساس علمي كما قال ماركس "أفيون الشعوب" (ويب وويب 1935، 1006).

وأضاف هيتشنز أنّ لينين حاول في الواقع القضاء على المسيحية في روسيا: "إنّ مذكرة شوايا السرية التي أصدرها فلاديمير إيليتش لينين في 22 مارس/آذار 1922، أطلقت نهب الكنائس الروسية تحت رعاية الدولة على أمل استفزاز هيئة الكهنوت الأرثوذكسية إلى المقاومة ومن ثَمّ سحقها. "لكي نضع أيدينا على هذا الصندوق الذي يحتوي على العديد من الملايين من الروبلات الذهبية (وربما حتى العديد من المليارات)، يجب علينا القيام بكل ما هو ضروري، يجب علينا الآن أن نقدم المعركة الأكثر حسمًا

بلا رحمة إلى رجال الدين السود ونخضع مقاومتهم لمثل هذه الوحشية حتى لا ينسونها لعقود قادمة" (هيتشينز 2010،179).

اتضح أنّ هدف البلاشفة للحصول على الذهب من هذا المصدر كان مجرد طموح أو هدف زائف. إنّ الدافع الحقيقي هو دفع المسيحيين للدفاع عن أنفسهم ثم تدميرهم (هيتشينز 2010، 179-180). هذا الهدف نجح، ففي عام 1922 فقط، "قُتل 2691 من الكهنة، و1962 من الرهبان، و3457 راهبة" (كورتيوس 1999، 126). كتب وليام تشامبرلين خلال مسيرة الـ 12 عام كمراسل في موسكو أنه: "في روسيا يشهد أول الجهود لتدمير أي اعتقاد لتفسير الحياة على أنها خارقة للطبيعة" (مقتبس من هيتشينيز 2010، 179-180).

كما أن الكنائس التي حاولت تقديم التنازلات واستيعاب الشيوعية داخل معتقداتها المسيحية تعرضوا في نهاية المطاف للخيانة. على سبيل المثال، كانت المجموعة المعروفة باسم "الكنيسة الحية" مؤلفة من كهنة وأساقفة كانوا أكثر استعدادًا لوضع المسيحية الأرثوذكسية تحت تصرف مجلس مفوضي الشعب. لكن بعد أن خدموا البلاشفة من خلال تقسيم الكنيسة الأرثوذكسية وإضعافها، قُبض على قادة الكنيسة الحية (ويُفترض أنهم قُتلوا في السجن، حيث لم يُسمع عنهم بعد ذلك) حدث ذلك في أوائل الثلاثينات. الشيء ذاته حدث مع نظرائهم اليهود (يبيسكتسيا) (الأجزاء اليهودية من الحزب الشيوعي). انتهى أمرهم عام 1929، حيث تم تطهيرها من موظفيها عام 1937 ورئيسهم سيميون ديمانشتين أطلق عليه النار في السجن (هيتشينيز 2010، 198). فالنمط المتكرر هنا هو أنّ الداروينية أدت أولًا إلى الإلحاد ومن ثم إلى الشيوعية وفي النهاية إلى القتل الجماعي للمسحيين وغيرهم.

## ليون تروتسكي يصبح دارويني

كان التحول إلى الداروينية كذلك مهمًا في تطور ليون تروتسكي من اليهودية الأرثوذكسية إلى الماركسية الإلحادية (وولي 2001). ولد ليف دافيدوفيتش برونشتاين (ليون تروتسكي) في عام 1879. لعب ليون تروتسكي دورا رئيسيًا في تطوير الحزب الشيوعي الروسي. كواحد من مؤسسي الشيوعية السوفيتية وأعمدتها الرئيسين (وثاني أقوى رجل في روسيا لسنوات)، كان كذلك المنظم الرئيسي للجيش الأحمر السوفيتي الشهير. كانت إنجازاته في بناء الدولة السوفييتية الاستبدادية مثيرة للإعجاب لدرجة أنّ تروتسكي كان في طريقه ليخلف لينين لكنه خسر أمام ستالين في صراع على السلطة، وفي النهاية تم اغتياله، ومن الواضح أنها كانت أوامر من ستالين.

قرأ تروتسكي عن داروين أثناء وجوده في السجن بسبب أنشطته الثورية عندما كان شابًا. كان داروين ضروريًا في تحوله، وكان كتابه هو أول ما ذكره عندما تحدث عن الكتب التي قرأها أثناء وجوده في السجن (إيستمان 1970، 116). تشير حياة تروتسكي ومؤلفاته إلى أنّ داروين ترك داخله انطباعًا دائمًا عندما كان شابًا. وقد اعترف تروتسكي لاحقًا بأنّه "جادل حول الداروينية" في طريقه إلى أنّ أصبح ماركسيًا وأنّ "داروين دمر آخر إيديولوجياتي السابقة" (تروتسكي 1931، 103).

ادّعى تروتسكي أنّ قراءته للعلوم في السجن في أوديسا مكنته من تطوير النظرية العالمية القوية، ونتج ذلك بسبب أنّ: "فكرة التطور والحتمية (أي:فكرة التطور التدريجي الذي ترسمه طبيعة العالم العادي) استحوذت عليّ تماماً. لقد كان داروين يقف أمامي مثل البواب العظيم عند مدخل معبد الكون. لقد كنت مفتونًا بفكرته البسيطة والقيمة

والمتقنة والقوية في الوقت ذاته. وما أدهشني أكثر، هو أنّه عندما قرأت في أحد كتب داروين - سيرته الذاتية - أعتقد أنه كان محتفظًا بإيمانه بالله. لم أستطع فهم كيف يمكن لنظرية أصل الأنواع عن طريق الانتقاء الطبيعي والجنسي والايمان بالله أن يجدا مكانًا في الرأس ذاته" (إيستمان 1970، 117-118).

قام بدراسة الداروينية وأفضل الحجج ضد الكاثوليكية والبروتستانتية وغيرها من المذاهب (تروتسكي 1931، 117). وجد الحقيقة في ماركس وإنغلز ومفكرين آخرين ملحدين، وكان مهتما بشكل خاص بالعلاقة بين الماركسية والداروينية (تروتسكي 1931. 122، 127، 130).

## تحول جوزيف ستالين إلى الداروينية

الديكتاتور السوفيتي الثاني جوزيف ستالين 1879-1953 اسمه الأصلي (جوزيف جوغاشفيليس) وتكتب (Dzhughashvilis). والده كان مدمنًا على الكحول وكان شديد الغضب كالبركان، وكان يشعر بالغيرة من الاهتمام الذي أولته زوجته لابنهما جوزيف، لذلك عامل زوجته وإبنه بشكل سيء للغاية (سيرفيس 2005، 16). أخذ جوزيف الاسم الأخير وهو ستالين الذي يعني "الصلب" أثناء أيامه كثوري عنيف. عندما كان زعيمًا سوفيتيًا، قتل ستالين ما يقرب من 60 مليون شخص (أنتونوف اوفيسينكو 1981). كان طالباً لاهوتيًا مثل داروين، ومثل داروين كذلك فقد كان التطور العامل الرئيسي في تحول ستالين من مؤمن كتابي إلى ملحد (كوستر 1989، 176، سيرفيس 2005، 30، هامبر 1987).

عندما كان لا يزال تلميذًا في الكنيسة، بدأ في القراءة عن داروين وأصبح ملحدًا.

جي. غليورجدزي صديق الطفولة لستالين، قال: "بدأت أتحدث عن الله، فسمعني جوزيف، وبعد لحظة صمت قال "أتعلم، إنّهم يخدعوننا، لا يوجد إله." لقد دُهشت من هذه الكلمات فصِحت به قائلًا: كيف يمكنك قول هذه الكلمات سوسو (ستالين)؟ رد جوزيف قائلًا: "سأُعيرك كتاب لتقرأه، سيريك أنّ العالم وأنّ كل الكائنات الحية مختلفة تمامًا عما في مُخيلتك وأنّ كل هذا الحديث عن الله هو محض هراء" استفسرت منه: ما هذا الكتاب؟ "كتاب داروين، يجب عليك ان تقرأه" لقد أثّر فيّ جوزيف." (ياروسلافسكي 1940، 8-9).

أفاد مونتيفيوري أنّه عندما كان ستالين في الثالثة عشر من عمره، أخذه لادو كيتسكوفلي إلى مكتبة صغيرة في غوري حيث دفع خمسة كوبيك واقترض كتابًا، على الأرجح أنّه كان أصل الأنواع لداروين. قرأه ستالين طوال الليل، ونسى النوم حتى وجدته كيكي [والدته]. قالت: "حان وقت النوم، اذهب إلى النوم الفجر اقترب". رد قائلًا: "لقد أحببت الكتاب كثيرًا يا أمي، لا أستطع التوقف عن القراءة." مع تعمقه في القراءة، تزعزع إيمانه. في أحد الأيام كان سوسو [ستالين] وبعض الأصدقاء بمن فيهم غريشا غليورجدزي يرقدون على العشب في المدينة وهم يتحدثون عن الظلم في أنّ هناك أغنياء وفقراء، عندما أثار دهشتهم فجأة قائلًا: "الله ليس ظالما، إنه غير موجود. لقد خُدعنا. إذا كان الله موجودًا، لكان جعل العالم أكثر عدلاً." صاح غريشا قائلًا: "سوسو! كيف يمكنك أن تقول مثل هذه الأشياء؟" فأجابه: "سأعطيك كتابًا وسترى." وقدم له نسخة من كتاب داروين (مونتيفيوري 2007، 49).

قرأ ستالين ليس لداروين فقط ولكن كذلك لماركس ولينين (سيرفيس 2005، 40).

أثارت هذه الكتب إعجابه كثيراً وسرعان ما أصبح داروينيًا متعطشًا، تخلى عن إيمانه بالله وبدأ يقول لزملائه اللاهوتيين إنّ الأشخاص ينحدرون من القردة وليس من آدم (كوستر 1989، 176). وأصبح "ملحدًا متشددًا"، حتى أنه امتنع بشدة عن مساعدة ودعم الكنيسة (سيرفيس 2005، 13).

"لم يكن ستالين في شبابه في كنيسة غوري مشهورًا بداروين فقط، فقد بدأت شهرته بالأفكار الماركسية" (ياروسلافسكي 1940، 9). ويضيف ميلر أن ستالين كانت ذاكرته غير عادية، وكان يحصل على أعلى الدرجات في كافة المواد تقريبًا بجهد قليل للغاية، لدرجة أن الرهبان الذين علموه خلصوا إلى أنّه سيصبح كاهنًا بارزا. أصبح مهتمًا بالحركة القومية في مقاطعته الأصلية بعد خمس سنوات في المعهد. وفي نظريات داروين وفي كتابات فيكتور هوغو عن الثورة الفرنسية. كقومي كان مناهضًا للقيصرية، وانضم إلى مجتمع اشتراكي سري (ميلر وآخرون 1963، 77).

وكانت نتيجة هذه التجربة أنّ ستالين قد عاش طفولة وحشية بسبب ما اكتسبه في هذه الطفولة، فضلًا عن القراءة لداروين التي أقنعته أنّ الرحمة والرفق كانت مبادئ ضعيفة وغبية. لقد قتل بدم بارد حتى أنّ هتلر كان يحسده على ذلك؛ وقتل أعدادًا أكبر مما قام به هتلر (كوستر 1989، 177).

حاولت مؤلفات ستالين تبرير استخدامه للقوة الوحشية لتحقيق أهداف الداروينية بالسبل الداروينية. في كلماته: "التطور يجهز للثورة ويمهد لها الطريق؛ تبدأ الثورة عملية التطور وتسهل نشاطها الإضافي. توجد عمليات مماثلة تحدث في الطبيعة. يوضح تاريخ العلم أن الطريقة الجدلية هي الطريقة العلمية الحقيقية، ففي علم الفلك وعلم الاجتماع

وفي كل مجال نجد تأكيدًا لفكرة أن لا شيء أبدي في الكون، كل شيء يتغير، كل شيء يتطور. وبالتالي، يجب اعتبار كل شيء في الطبيعة من وجهة نظر الحركة والتنمية. وهذا يعني أن الروح الجدلية موجودة في كل العلوم الحالية، وأن التغييرات الطفيفة والكمية التي تؤدي عاجلاً أو آجلاً إلى تغييرات رئيسة ونوعية ينطبق عليها هذا القانون بقوة مساوية لتاريخ الطبيعة. ويظهر الشيء ذاته في علم الأحياء من خلال النظرية اللاماركية الجديدة، التي أسفرت عنها الداروينية الجديدة. لم يكن لامارك وداروين من الثوريين، لكن طريقتهما التطورية أقامت العلم البيولوجي [الدارويني] على أقدامه (ستالين 1906، المجلد رقم 1. 304-306).

ويضيف نقلاً عن السلطة السوفيتية: "الماركسية تقوم على الداروينية بدون نقد" (المجلد رقم 10، 310). كما يظهر الدور المركزي للداروينية في رفضه لاستنتاج كوفيير الأساسي. يرفض كوفيير نظرية داروين التطورية، فهو يعترف بأنّ الكوارث، والنوازل هي اضطرابات غير متوقعة "لأسباب غير معروفة". يقول الأناركيون بأنّ الماركسيين يلتزمون برأي كوفيير وبالتالي ينبذون الداروينية. يرفض داروين نوازل كوفيير، فهو يؤمن بالتطور التدريجي. أما الأناركيون أنفسهم يقولون بأنّ الماركسية تقوم على الداروينية دون نقد أي أن الماركسيين ينكرون نوازل كوفيير (المجلد 10، 310-311).

ما هو الرأي الصحيح؟ يخلص ستالين إلى أنّه "في رأي ماركس وإنغلز، فإن الثورة لا تولدها نظرية الأسباب غير المعروفة لـ "كوفيير، بل بأسباب اجتماعية محددة وحيوية تسمى "تطور القوى المنتجة" أي: التطور (ص 311).

أصدر ستالين، وهو أحد "أكثر الشخصيات شهرة في التاريخ"، بصفته رئيس

"ديكتاتورية أحادية الأيديولوجية"، أوامر بالقتل النظامي للناس على نطاق واسع (سيرفيس 2005، 3).

وأضاف كوستر أن ستالين قتل أناسًا لسببن رئيسيين، وهما أنّه كان يظن أنّهم يشكلون تهديدًا شخصيًا له أو لتقدم برامجه "مما كان يعني في المصطلحات الماركسية الداروينية نوعًا من التطور إلى الجنة الأرضية" (كوستر 1989، 178). والسبب الثاني هو كراهيته للرب ومن ثم اضطهاده للمسيحين (سيرفيس 2005). يؤكد ما كتبه باركادزه – أحد أصدقاء طفولة ستالين المقربين – على أهمية أفكار داروين بالنسبة لستالين، حيث كتب أنّه: "من أجل تحرير عقول طلابنا من أسطورة أنّ العالم قد أُنشئ في ستة أيام، علينا التعرف على الأصل الجيولوجي وعمر الأرض، وعلينا أن نكون قادرين على إثبات ذلك في المناظرات؛ كان علينا أن نتعرف على تعاليم داروين. لقد ساعدنا في هذا كتاب الإنسان في العصور القديمة لليلي، وأصل الإنسان لداروين والذي ترجم بواسطة سيشينوف، يقرأ الرفيق ستالين أعمال سيشينوف العلمية باهتمام كبير. انتقلنا تدريجيا إلى دراسة عن تطور طبقة المجتمع، مما أدى بنا إلى كتابات ماركس وإنغلز ولينين" (ياروسلافسكي 1940، 12-13).

"قراءة الأدب الماركسي في هذا الوقت يمكن أن تتسبب في معاقبة الشخص لأنها كانت تعتبر دعايا ثورية. كان ملموسًا بشكل خاص في المدراس الدينية، حيث ارتبط مجرد حتى ذكر اسم داروين دائمًا بالترهيب الشديد. قدم الرفيق ستالين هذه الكتب إلينا. كان أول شيء يتعين علينا القيام به – كما قال – هو أن نصبح ملحدين. بدأ العديد منا في اكتساب نظرة مادية وتجاهل الموضوعات اللاهوتية. إنّ قراءتنا في فروع

العلوم الأكثر تنوعًا لم تساعد شبابنا فقط على الهروب من روح المعتقدات المتعصبة وذات العقلية الضيقة، بل أعدت كذلك عقولهم لاستقبال الأفكار الماركسية. كل كتاب نقرأه، سواء في علم الآثار أو الجيولوجيا أو علم الفلك أو الحضارة البدائية، ساعد على تأكيد حقيقة الماركسية" (ياروسلافسكي 1940، 12-13).

نتيجة لتأثير لينين وستالين وغيرهم من القادة السوفييت، أصبح داروين بطلاً فكرياً في الاتحاد السوفييتي. هناك متحف داروين الرائع في موسكو، وقد أصدرت السلطات السوفييتية ميدالية داروين الخاصة تكريمًا لذكرى مرور مائة عام على تأسيسها (هوكسلي وأتش. بي. دي. كيتلويل 1965). برر ستالين حربه على الدين بالداروينية.

وكتب أن الحزب الشيوعي "لا يمكن أن يكون محايدًا تجاه الدين" ولكنه يجب أن يسعى لتدميره، ولهذا السبب فإنه يدير الدعاية المعادية للدين ضد كل التحيزات الدينية لأنه يقف وراء العلم، في حين أن التحيزات الدينية تتعارض مع العلم، لأن كل الدين هو نقيض للعلم. حالات مثل ذلك حدثت في أميركا، حيث تمت مقاضاة الدارونيين مؤخرا، لا يمكن أن تحدث هنا لأن الحزب يتبع سياسة الدفاع عن العلم في كل شيء" (ستالين 1927، المجلد رقم 10، 138).

القضية التي ذكرها ستالين هي محاكمة سكوبس في عام 1925، "وهي محاكمة جرت في ولاية تينيسي في الولايات المتحدة، والتي جذبت الاهتمام العالمي. تمت محاكمة أستاذ جامعي يدعى جون سكوبس لتدريس نظرية داروين في التطور. وجد الظلاميون الرجعيون الأميركيون أنه مذنب بانتهاك قوانين الدولة وطبقت عليه غرامة" (ستالين 1927، المجلد رقم 10، 394-395).

يضيف ستالين أن "السلوك الشيوعي، سيواصل القيام بالدعاية ضد التحيز الديني" لأن الحزب لا يمكن أن يكون محايدا تجاه ناشري التحيز الديني، وتجاه رجال الدين الرجعيين الذين يسممون عقول الجماهير العاملة. هل قمنا بقمع رجال الدين الرجعيين؟! نعم فعلنا. الشيء المؤسف الوحيد هو أنهم لم يُقض عليهم بالكامل بعد. الدعاية المعادية للدين هي الوسيلة التي من خلالها سيتم القضاء تماما على رجال الدين الرجعيين. تحدث الحالات في بعض الأحيان عندما يعيق بعض أعضاء الحزب التطور الكامل للدعاية المعادية للدين. إذا طُرد هؤلاء الأعضاء، فهذا أمر جيد للغاية، لأنه لا يوجد مكان لمثل هؤلاء "الشيوعيين" في صفوف حزبنا (ستالين 1927، المجلد 10، 138-139).

## الملخص

تُظهر مراجعة تاريخ الشيوعية أن أفكار داروين أدت دورًا بالغ الأهمية في تطوير هذا النظام ونموه (هويت 1963). في حين أنه من الصعب استنتاج أنّ الشيوعية ما كانت لتزدهر كما فعلت إذا لم يقم داروين بتطوير نظرية التطور الخاصة به، فمن الواضح أنّه إذا كان قد استمر ماركس ولينين وانغلز وستالين وماو في تبني النظرة العالمية اليهودية والمسيحية ولم يصبحوا داروينيين، لما انتشرت النظرية الشيوعية والثورات التي ألهمتها أبداً في العديد من البلدان.

ويترتب على ذلك أن المحرقة الناجمة عن الشيوعية (التي تسببت في أكثر من ربع مليار حالة وفاة) من المحتمل أنّها ما كانت لتحدث أبداً. في كلمات ألكساندر سولجينتسين الحائز على جائزة نوبل، "لو طُلب مني اليوم أن أذكر بإيجاز أكبر سبب للثورة المدمرة التي ابتلعت حوالي 60 مليون من شعبنا [الروسي]، لن أجد أصدق من

أن أكرر ذلك: "لقد نسي البشر الله. هذا هو السبب في حدوث كل هذا" (مقتبس من إيريكسون 1985، 24).

كانت المادية الداروينية حاسمة في تطوير نظرية ماركس الرئيسة عن "المادية الجدلية" لأنّه، حتى ظهور داروين، كان غالبية العلماء مؤمنين بنظرية الخلق. فقط عندما يكون هناك تفسير محتمل لوجود الخلق دون وجود الخالق، يمكن أن يستند الإلحاد على أساس فكري. وقد جادل البعض بأنّه إذا لم يتم تطوير نظرية التطور من قبل تشارلز داروين، فإن النظريين الآخرين كانوا قد طوروا في النهاية نظرية مشابهة للغاية. لا تختلف السياسة السوفييتية عن السياسة الحالية في أميركا: "هل هذا يعني أن الحزب محايد تجاه الدين؟ لا، ليس كذلك. نحن نجري وسنواصل الدعاية ضد التحيز الديني. تقر قوانين بلادنا بحق كل مواطن في اعتناق أي دين. هذه مسألة تخص ضمير كل فرد. هذا هو بالضبط السبب في أننا فصلنا الكنيسة عن الدولة. لكن في فصل الكنيسة عن الدولة وإعلان حرية الضمير احتفظنا في الوقت ذاته بحق كل مواطن في محاربة الدين، كل الدين، بالحجة، بالدعاية والإثارة" (ستالين 1927، المجلد رقم 10، 138).

هنالك مشكلة واحدة في مثل هذا الاستنتاج، وهي أنّ تشارلز داروين كان في وضع فريد من نوعه لتطوير ونشر النظرية بنشاط. كان لديه التصميم والوقت والمال والذكاء والشخصية المحببة لقضاء حياته كلها في نشر ما هو الآن، لسبب وجيه، يسمى"النظرة العالمية الداروينية" (تايلور 1991).

علاوة على ذلك كان داروين مروجًا فعالًا للغاية ولم يدخر الموارد ولا الوقت من أجل بيع نظريته. ركز أكثر من 20 كتابًا والآلاف من الرسائل والمقالات في المقام الأول

على موضوع واحد، لنشر فكره حول العالم. لا شك في أنّ باحثين آخرين كانوا ليطوروا أفكارًا متشابهة، كما كان لدى البعض قبل داروين، لكن من المرجح أنّه دون مروج ماهر ومكرس لوقته ومستقل مالياً، لم تكن أفكارهم لتعلق في الأذهان مطلقًا بالطريقة التي حققتها الداروينية، أو إن لاقت قبولًا فلن يستمر لوقت طويل. من الواضح أنّ كلًّا من ماركس وداروين قد غيرا التاريخ بشكل جذري. يدّعي يونغ – وهو من المعجبين بفكر داروين وماركس – أنّ كتاب أصل الأنواع لداروين، إلى جانب رأس المال، "من أهم الأعمال في التاريخ الفكري للقرن التاسع عشر" (1971، 440).

تشير هذه المراجعة حول تطور الماركسيين اللينينيين إلى أنّه من غير الداروينية، لربما لم تحدث المحرقة الشيوعية أبداً، أو كانت ستكون مختلفة للغاية وأقل بكثير في تأثيراتها. يدعم هذا الاستنتاج تعليق هسو على أنّ الداروينية تحتوي على "أكاذيب شريرة"، وأنها أنتجت ثمارًا فظيعة وليست قانونًا طبيعيًا وُضع استنادًا إلى الأدلة بل "عقيدة" (1986، 730). لخص المؤرخ البارز ويل ديورانت القضية على النحو التالي: "من خلال تقديم التطور بدلاً من الله كمسبب للتاريخ، أزال داروين الأساس اللاهوتي للإطار الأخلاقي المسيحي. والإطار الأخلاقي الذي لا خوف من الله فيه مهتز للغاية. هذه هي الحالة التي نحن فيه" (تم اقتباسها من موريس 1997، 473).

إن اهتمام الكثيرين هو: "إذا هيمن التطور، فإنّ أي معنى للحياة ومعه أساس الأخلاق سيسقط بكل تأكيد مثل برج بابل"، يدعمه التاريخ (ستيلي 1999، 1484).



# المراجع

أنتونوف – أوفسينكو، أنتون. 1981. عصر ستالين: صورة للطغيان. نيويورك: هربر ورو.

مايكل آرلن. 1984. رحلة المنزل. نيويورك: فارار، ستراوس وجيروكس.

لاري آزار، 1990. القرن العشرين في أزمة: مؤسسة الشمولية. دوبوك، إأ: كيندال – هانت.

تيريمس بول، 1979. "ماركس وداروين: إعادة نظر."النظرية السياسية، 4 نوفمبر، 7(4): 469–483

جاكوبس بارزون، 1958. داروين، ماكس، واجنير: نقد للتراث. الإصدار الثاني. جاردن سيتي، نيويورك: دوبليداي.

نيكولاسبيردياف، 1970. "دين الشيوعية،" في جوزيف ك. دافيز، رجل في أزمة. جلينفيو، إل: سكوت فوريسمان.

جيري بيرجمان. 2010. "لماذا تطالب الداروينية الأرثوذكسية بالإلحاد."مجلة بحث الإجابات3: 147–152.

برلين، إزاه. 1959. كارل ماركس: حياته وبيئته. نيويورك: صحافة جامعة أكسفورد.

جون ديزموند بيرنال،1952. ماركس والعلم. لندن: لورانس وويشارت.

ألاين بيسانكون، 1981. ظهور الجولاج: الأصول الفكرية اللينينية. نيويورك: الاستمرارية.

توم بيتهيل، 1978. "حرق دارون لإنقاذ ماركس."مجلة هربر، ديسمبر، 92–91 ,38–31.

رونالد دبليو كلارك، 1988. لينين. نيويورك، نيويورك: هربر ورو.

رالف جونيور كولب، 1972. "العقود بين كارل ماركس وتشارلز داروين."صحيفة أفكار التاريخ أبريل – يونيو، 2)35): 338 -329.

كليف كونير، 1980. "التطور مقابل الخلق: في الدفاع عن التفكير العلمي."مراجعة اشتراكية دولية (ملحق مجلة شهرية للمقاتل، نوفمبر.

ستيفنكورتويس، نيكولاس ويرث، جين - لويس بان، أندرزيج باكزكوسكي، كارين بارتوسيك، جين - لويس مارجولين. 1999. الكتاب الأسود للشيوعية: جرائم وارهاب وقمع. كامبردج، م.أ: صحافة جامعة هارفرد.

إدواردو ديل ريو، 1976. ماركس للمبتدئين. نيويورك: كتب بانثيون.

ماكس إياستمان، 1970. ليون تروتسكي: صورة للشباب. نيويورك: صحافة أمز.

بول إيديلبيرج، 1984. "كارل ماركس وإعلان الاستقلال: معنى الماركسية."مراجعة بين الكليات11-3 :20.

فريدريك إنجلز، 1876. الجزء الذي يلعبه العمل في الانتقال من القرد إلى الإنسان. نيويورك: منشورات دولية.

---. 1907. الاشتراكية: يوتوبي والعلمي. شيكاغو، إل: تشارلز هـ. كير& شركاه. ترجمه إدوارد أفيلينج.

---. 1950. الجزء الذي يلعبه العمل في الانتقال من القرد إلى الإنسان. نيويورك: منشورات دولية.

---. 1968. "جنازة كارل ماركس" في ذكريات عمل ماركس وإنجليز. موسكو: منشورات اللغة الأجنبية. منزل.

---. 1975. الجزء الذي يلعبه العمل في الانتقال من القرد إلى الإنسان. بكين: صحافة اللغات الأجنبية.

إدواردإريكسون، 1985. "سولجينتسين: صوت من جولانج."خلود، أكتوبر، 24-21.

ستيفين جايجولد، 1974. "تأخر داروِن."التاريخ الطبيعي70-68 :(10)83.

---. 1989. حياة رائعة؛ بورجيس شيل وطبيعة التاريخ. نيويورك: و. و. نورتون.

ال بيفير هالستيد،1980. "متحف الأخطاء."طبيعة208: 288.

---. 1980 أ. "بوبر: الفلسفة الجيدة، العلم السيء؟"عالم جديد217-215 :87.

بول هيير، 1975. ماركس وداروين: تراث متعلق بالإنسان والطبيعة والمجتمع. أطروحة دكتوراه، جامعة روتجرز.

ديفيد آر هيكي، 1992. "التطور والبيئة وانهيار الشيوعية السوفيتية. "الإنسانية-52:33 .35, 40

جيرترودهيميلفارب، 1959. داروِن والثورة الداروينية. نيويورك: و. و. نورتون.

بيتر هيتشينز، 2010. الغضب ضد الله: كيف قادني الإلحاد إلى الإيمان. جراند رابيدس، م.إ: زونديرفان.

ريتشاردهوفستادتير، 1959. الداروينية الإجتماعية في الفكر الأمريكي. نيويورك: شركة جورج برازيللير.

جون إدجار هوفر ،1962. دراسة الشيوعية. نيويورك: هولت، رينيهارت ووينستون.

جون هويت، 1963. كارل ماركس كمطور. هانتس، إنجلترا: إبم.

كينيث هسو، 1986. الموت العظيم: الكارثة الكونية والديناصورات ونظرية التطور. نيويورك: هاركورت، براس جوفانوفيتش.

ديفيد ال هول، 1985. "الداروينية والديالكتيك"، مراجعة لعالم الأحياء

الديالكتيكي، بواسطة ريتشارد ليفينز وريتشارد ليونتين، الطبيعة، 24-23 :320.

بول جي همبر. 1987. "وحشية إيمان ستالين."تأثير، أكتوبر.

هوكسلي، جوليان وهنري بيرنارد كيتلويل. 1965. تشارلز داروين وعالمه. نيويورك: صحافة الفايكنج.

ستانلي إدجارهيمان، 1966. البنك المتشابك: داروين وماركس وفريزر وفرويد ككتاب للخيال. نيويورك: جروسيت ودونلاب.

ديفيد جورافسكي، 1961. الماركسية السوفيتية والعلم الطبيعي؛ 1932-1917. لندن: روتليدج وكيجان بول.

آرثر كيث، 1955. إعادة تقييم داروين. لندن: واتس، ص. 234 -233.

جي دي كيرنيج، 1972. الماركسية والشيوعية والمجتمع الغربي: موسوعة مقارنة. نيويورك: هيردير وهيردير.

إي كولمان، 1931. "ماركس وداروين".العمل الشهري705-702 :(11)13.

جون كوستير، 1989. متلازمة الإلحاد. برينتوود، ت.ن: ولجيموث وهيات..

جون لاتشز، 1967. فلسفة الماركسية: دليل ببليوجرافي. تشابيل هيل، ن.س: صحافة جامعة شمال كارولينا.

جون لينسزوسكي، 1996. "خيانة المثقفين: التعليم العالي وثقافة الحرب وتهديد الأمن القومي للولايات المتحدة."المجلس السياسي، ص. 52 -35.

فلاديميرلينين، 1978. الأعمال المجمعة لـ ف.إ. لينين. المجلد 1: 1894 -1893. لندن: لورانس ي. ويشارت.

فريدريكليسنير، 1968. "ذكريات العمال لكارل ماركس" في ذكريات ماركس وإنجلز. موسكو: بيت اللغات الأجنبية للنشر.

ويلهيلمليبكنيشت، 1968. "ذكريات ماركس" في ذكريات ماركس وإنجلز. موسكو: بيت اللغات الأجنبية للنشر.

مايكل ماكرون، 1995. إيروكا! تفسير 81 فكرة رئيسية. نيويورك: بارنيس ونوبل.

مارتن ماليا، 1961. ألكسندر هيرزين وولادة الشيوعية الروسية. كامبردج، م.أ: صحافة جامعة هارفرد. أُعيد طبعه في 1971، نيويورك: جروسيت ودونلاب.

كارل ماركس،1844. "مساهمة في نقد فلسفة هيغل لليمين." إعادة طبعه في الكتابات السياسية المبكرة، عدله وترجمه جوزيف أومالي. كامبردج، المملكة المتحدة: صحافة جامعة كامبردج، 1994.

ماركس وكارل وفريدريك إنجلز. 1936. مراسلة 1895–1846، ترجمه دونا تور. نيويورك: منشورات دولية.

ماركس وكارل وفريدريك إنجلز. 1955. في الدين. موسكو. بيت اللغات الأجنبية للنشر.

ويليام ميللر، هنري روبرتس، مارشال شولمان. 1963. معنى الشيوعية. موريستون ن.ج." سلفر برديت.

سيمون سيباجمونتيفيور، 2007. ستالين الصغير. نيويورك: كنوبف.

هنري موريس، 1997. أن كلماتهم قد تُستخدم ضدهم. الغابة الخضراء، أ.ر: كتب مرجعية.

جيه دي أوبيتشكين، المحرر. 1969. ف.إ. لينين: سيرة ذاتية قصيرة. موسكو:

منشورات التقدم.

دي آر أولدرويد، 1980. تأثيرات الداروينية: مقدمة للثورة الداروينية. الأراضي المرتفعة الأطلنطية، ن.ج: صحافة الإنسانية، ص. 216.

أنطونيبانيكوك، 1912. الماركسية والداروينية. شيكاغو، إل: تشارلز أ. كير.

توماس اسباتيرسون، 2009. كارل ماركس، عالم الأنثروبولوجيا. نيويورك: منشورات بيرج.

روبرت باين، 1964. الحياة والوفاة للينين. نيويورك: سيمون وشوستر.

جيمس بيرلوف، . 1999. تورنادو في جانكيارد. أرلينجتون، م أ: كتب الملاذ.

ويل بروفين، 1999. "لا إرادة حرة."إزيس90:S117–S132.

جيمس بوسي، 1983. الصين وتشارلز داروين. بوسطن، م أ: صحيفة جامعة هارفرد.

جيمس راتشيلز، 1990. خلقت من الحيوانات: التأثيرات الأخلاقية للداروينية. نيويورك: صحافة جامعة أكسفورد، ص. 64.

مايكل روز، 1986. "علم الأحياء والقيم: نظرة حديثة،" في منطق وطرق وفلسفة العلم،بواسطة ماركوس وأخرين. منشورات علم إلسيفير ب.ف.

فريد شوارتز، 1972. الوجوه الثلاثة للثورة. فولز تشيرش، ف.أ: صحافة كابيتال هيل.

روبرتسرفيس، 2000. لينين: سيرة ذاتية. كامبردج، م.أ: صحيفة جامعة هارفرد.

---. 2005. ستالين: سيرة ذاتية. كامبردج، م.أ: صحافة بيلكناب لصحافة جامعة هارفرد.

ديفيدشوب، 1951. لينين. جاردن سيتي، نيويورك: شركة دوبلداي وشركاه.

جوزيفستالين، 1906. "الأناركية أو الاشتراكية."أخالي تسخوفربيا، 21،24، 28

يونيو و9 يوليو 1906، أُعيد طبعه في أعمال ستالين. موسكو: بيت اللغات الأجنبية للنشر، 6–304 :1954, 1).

---. 1927. "مقابلة مع وفد العمل الأمريكي الأول."برافدا، 15 سبتمبر، 1927، أُعيد طبعه في ج.ف. ستالين، أعمال. موسكو: بيت اللغات الأجنبية للنشر، 1954، مجلد 158 -97 :10.

---. 1954. أعمال، ج.ف. ستالين. موسكو: بيت اللغات الأجنبية للنشر، مجلد 1.

فينتانستييل، 1999. "لينجوا فرانكا."علم1484 :286.

جورج جيه ستين، 1988." العلم الحيوي وجذور النازية."العالم الأمريكي، 76: 58 –50.

ريتشارد ستيتيس، 1991. حركات تحرير المرأة في روسيا. برينستون ن.ج: صحافة جامعة برينستون.

كريس تالبوت، 2012. "ماركس وداروين: أعظم مفكرين ثوريين في القرن التاسع عشر."موقع الاشتراكية العالمي. الجزء 1.

إيان تي تايلور، 1991. في عقول الرجال: داروين ونظام العالم الجديد. مينيابوليس، م.ن: منشورات تفي.

دونالد تريادجولد، 1972. روسيا في القرن التاسع عشر. شيكاغو، إل: راند ماكنالي.

ليون تروتسكي، 1931. حياتي. نيويورك: أبناء تشارلز سكريبنر.

سيدنيويب، بياتريس ويب. 1935. الشيوعية السوفيتية: حضارة جديدة؟ نيويورك: لونجمانز، جرين وشركاه.

ريتشاردويكارت، 1999. الداروينية الاشتراكية. لانهام، م.د: منشورات علمية دولية.

فرانسيسووبين، 1999. كارل ماركس: حياة. نيويورك، نيويورك: و. و. نورتون& شركاه.

ويلدر – سميث، بيات. 1982. يوم وفاة ألمانيا النازية. سان دييجو، س.أ: كتب مرجعية.

باريوولي، 2001. "الاتصال الدارويني/ التروتسكيني".خلق، 55–54 :(2)23.

ريتشاردورمبراند، 1986. ماركس وساتان. بارتليسفيلل، أ.ك: شركة كتاب التضحية الحي.

إميليانياروسلافسكي، 1940. علامات مميزة في حياة ستالين. موسكو: بيت اللغات الأجنبية للنشر.

ربورت ام يونغ1971. "استعارة داروين: هل الطبيعة تختار؟"الوحش 503–442 :(3)55.

يانج، روبرت م. 1982. "مناظرة داروين."الماركسية اليوم22–20 :26.

كونواي زيركل، 1959. التطور وعلم الأحياء الماركسي والمشهد الاجتماعي. فيلادلفيا، ب.أ: صحافة جامعة فيلادلفيا، ص. 87 -85.



# الفصل الخامس عشر

## كيف ألهمت الداروينية المحرقة الصينية الشيوعية

### مقدمة

كان لتشارلز داروين وتلاميذه المقربين، وخاصة توماس هنري هكسلي وإرنست هيجيل، تأثيرًا عميقًا على سياسات الشيوعيين الصينيين والمحرقة التي سببوها لشعبهم. استنتج البروفسور أزار أنّ الداروينية كانت أساس الشمولية الحديثة في الصين وغيرها (1990). وفقا للمؤرخ الصيني هو شيه: "عندما نُشر كتاب توماس هكسلي "الثورة والأخلاق" في عام 1898، أُشيد به على الفور من قبل المفكرين الصينيين. قام الرجال الأغنياء بتدعيم طبعات صينية رخيصة بحيث يمكن توزيعها على نطاق واسع على الجماهير "لأنه كان يُعتقد أن الفرضية الداروينية، خاصة في تطبيقها الاجتماعي والسياسي، كانت حافزًا مرحبًا به لأمة تعاني من الجمود والركود على مدار سنوات عديدة" (ميلنر 2009، 79؛ مقتبس من الفلسفات الحية، 1931، المنشور بالصينية).

في حين لم تكن ترجمات يان فو التي في آواخر تسعينيات القرن التاسع عشر لأعمال داروين وهربرت سبنسر أول دخول للفكر الدارويني إلى الصين، إلّا أنّها سقطت على تربة خصبة في مطلع القرن وسرعان ما اكتسحت المجال الفكري الصيني "(كارل 1998، 1103). تُرجمت العديد من أعمال الداروينيين الرئيسة الأخرى، مثل "التطور والأخلاق" لهكسلي إلى اللغة الصينية في هذا الوقت (بورمان 1963، 5). شددت رانكين على أن الصين حاولت بحماس تبني "العلم" في مجتمعها و "العلم في عام 1903 كان يعني على وجه الخصوص الداروينية وخاصة الداروينية الاجتماعية،

والتي وعدت بتقديم شرح علمي عن أساليب العمل السياسي والمجتمع" (1971، 20). في غضون سنوات قليلة، أصبحت الداروينية مقبولة على نطاق واسع في الصين حتى أنّ "الجمل والشعارات التطورية" أصبحت أمثال صينية شائعة. أصبحت عقيدة "الشخصية الداروينية" متطرفة لدرجة أن الآلاف من الآباء قد أطلقوا على أطفالهم اسماء أشهر الدارونة، أو باسماء أفكار التطور: "لتذكير أنفسهم بمخاطر الإقصاء عن الكفاح من أجل الوجود، كأمّة أو أفراد". جنرال مشهور يدعى تشن شيونغ مينغ غيّر اسمه إلى "تشينج تسون" أو "الكفاح من أجل الوجود". اعتمد المؤلف شيه ذاته اسم "الملائمة" (شيه)، من عبارة "البقاء للأصلح". وأشار إلى أنه بسبب الرواج العظيم للتطور في الصين، اثنان من زملائه في الدراسة حملوا أسماء "الانتقاء الطبيعي يانغ" و "النضال من أجل الوجود سان"." (ميلنر 2009، 79، مقتبس من الفلسفات الحية، 1931، المنشور بالصينية).

نظرية داروين الثورية كانت "أول شعار يرفع في الصين خلال حركة الإصلاح في 1895-98، ردا على هزيمة الصين في الحرب الصينية اليابانية" (بوسى 2009، 162). كانت المجموعتان الرئيسيتان اللتان تعملان على تغيير الصين هما الإصلاحيين - الموالين لأسرة مانشو تشينغ - والثوريين - الذين أرادوا الانفصال عن الماضي -، وكلتاهما استخدمتا الداروينية لتوجيه فلسفتهما السياسية المختلفة. بما أن "التغيير" كان لعنة بالنسبة للمسئولين الصينيين المحافظين، فإن الإصلاحيين تحولوا إلى الداروينية كسلطة لتشجيع التغيير، ولم يقدموا داروين "كعالم طبيعة اكتشف حقيقة مدهشة عن الحياة ولكن كعالم سياسة اكتشف ضرورة حتمية كونية من أجل التغيير" التي استخدموها

لتبرير الثورة العنيفة (بوسي 2009، 162). وكتبت جمعية التطور الصينية، نقلاً عن توماس هكسلي، في عام 1919 أنه إذا كان التعليم "لا يمكن أن يغير بشكل جذري الحالة المتدهورة التي تعيش فيها الغالبية العظمى من البشرية، دعونا إذن نناشد بسرعة هذا المذَنّب الرحيم ليقضي على هذه الكرة الأرضية، وعلينا أيضًا معها" (ديرلك، 1989، 80).

## ماو تسي تونغ يصبح دارويني

كما كان للداروينية تأثير هائل على العديد من قادة الحزب الشيوعي الصيني الثوري الأعلى، بما في ذلك ماو تسي تونغ.



*صورة لماو تسي تونغ عند بوابة تيانانمن.*

الرئيس ماو كان "بلا منازع أحد أهم الشخصيات في القرن العشرين" في الصين وبقية العالم (بنتون وتشون 2010، 15). كان ماو تسي تونغ (1893-1976). هو أحد مؤسسي الحزب الشيوعي الصيني الحديث، وأول دكتاتور شيوعي صيني "شاب" قرأ للعديد من المؤلفين الغربيين، وخاصةً داروين وهكسلي وهربرت سبنسر وغيرهم من دارونيين القرن التاسع عشر. (شورت 1999؛ ديفيلرز1967، 26؛ بوسي 1983). تأسس أول حزب صيني شيوعي في يوليو عام 1921 من قبل تشن دوكسيو ولي دازاو. بعد أن تكبد الحزب الشيوعي خسائر فادحة على أيدي حزب الكومينتانغ في 1926-1927، تم بناء حزب جديد من قبل ماو تسي تونغ وتشوان لاي الذي أصبح أول رئيس

للحكومة (مايسنر 2007).

تربي ماو علي يد أم متدينة وأب متشكك دينياً، كما قرأ لتشارلز داروين، وهربرت سبنسر، وجون ستوارت ميل، وجان جاك روسو، أصبح "أكثر تشككاً" في الدين (سنو 1961، 128–129). رأي ماو أن الداروينية هي "زهرة عطرة"، وليست "عشبًا سامًا". على مدار التاريخ، في كثير من الأحيان فشلت الأشياء الجديدة والصحيحة في بداياتها في الحصول على اعتراف غالبية الأشخاص وكان عليها أن تتطور من خلال التقلبات والانعطافات. غالبًا يُنظر إلى الأشياء الصحيحة والجيدة لأول مرة ليس كزهور عطرة ولكن كأعشاب ضارة. نظرية داروين للتطور (كانت) قد رُفضت في وقت ما باعتبار أنها خاطئة وتعرضت للمعارضة المريرة (كما ورد في سينغ 2000، 18).

في الواقع، نظر ماو إلى "داروين، كما قدمه الداروينيون الألمان، كأساس للاشتراكية العلمية الصينية" (ستاين 1988، 52). وقد دعا ماو علانية إلى تحقيق الشيوعية العالمية باستخدام العنف والحرب على حد سواء؛ والسياسات التي طورها ماو لتحقيق هذا الهدف أدت إلى قتل ما يصل إلى 80 مليون صيني (روس 1986، 460). ويقدر آخرون أن العدد أقل بكثير، لكن من الواضح أن "الثورة التي قادها أودت بحياة الملايين، حتى "أكثر من 30 مليون حالة وفاة" (بنتون وتشون 2010، 15).

## نتائج حكم ماو الدارويني

كتب طبيب ماو الشخصي - الذي عرف ماو أفضل من كافة أصدقائه المقربين تقريباً -: "أنه كان يحترم ماو جدًا، لكن احترامه تبدد عندما عرف المزيد عن ماو بعد توطد علاقته معه بصفته مريضه. تشمل الأسباب التي دفعته إلى احتقار ماو: "ما هي

المبادئ الأخلاقية السامية التي اتبعها؟ لقد تخلى عن بينج ديهواي - أحد القادة الثوريين العظماء في البلاد، وهو رجل مخلص للقضية الشيوعية وكرس حياته لمصلحة الصين - كما لو كان قمامة، وكان يجمع النساء الشابات حوله مثل الأباطرة القدماء...لقد اتخذ الحزب الشيوعي بمنزلة "الشعب" وصعد بهم إلى السماء، بينما كان الشعب الحقيقي يتعرض للاضطهاد والاستغلال، ويجبرون على تحمل كل مشقة، وقبول كل إهانة، لمجرد البقاء. لم يكن "الشعب" سوى عدد كبير من العبيد مجهولي الهوية الذين لا حول لهم ولا قوة. كان هذا هو "المجتمع الجديد"، "العالم الجديد" للشيوعيين. كان جيانغ تشينغ محقاً لقد شعرت بالاشمئزاز. أصبحت "الصين الجديدة" فاسدة" (زيسوى 1994، 354-355).

ومن الأمثلة على ذلك: النظافة الشخصية السيئة لماو، ونمط حياته الاستبدادي في الفيلات الفاخرة، وعلاقاته الشاذة مع الممرضات أو المحظيات المختارات. كانت معاملته لزوجاته قاسية أو وحشية في كثير من الأحيان، ولو يكن أطفاله محظوظين بالتأكيد بكونه والدهم. لقد تُرك بعضهم مع الفلاحين، واختفوا خلال الحروب الثورية، ومات آخرون، وعانى اثنان من الأمراض العقلية (بينتون وتشون 2010، 16-17).

## تطبيق الداروينية على الحياة اليومية في الصين

لقد أوضح كينيث هسو مدى تطبيق الداروينية على الحياة اليومية في الصين عندما كان طالباً في الصين في أربعينيات القرن العشرين. لقد ادّعى أنه بعد تمارينهم الصباحية، كان مدير المدرسة يقوم باعطاء محاضرة لصفه، مبشرًا بالداروينية لما تبقى من الساعة: "كان يجب علينا أن نحارب في الصراع من أجل الوجود، لقد أخبرنا بذلك.

الضعيف سيهلك، فقط القوي سيبقى على قيد الحياة" (هسو 1986، 1). وأضاف هسو أنهم تعلموا أن المرء يكتسب القوة ليس بالعمل بجد كما علّمته والدته، ولكن من خلال النضال المستمر الذي من المرجح أن يسود فيه "الأصلح" وفقًا للداروينية. خلص هسو قائلًا: "لقد كنا ضحايا أيديولوجية اجتماعية قاسية تفترض أن التنافس بين الأفراد، أو الطبقات، أو الأمم، أو الأجناس هو الحالة الطبيعية للحياة، وأنه من الطبيعي كذلك أن يتغلّب المتفوق على الأدنى. في القرن الماضي وأكثر من ذلك، كان يعتقد أن هذه الإيديولوجية هي قانون طبيعي للعلوم، وآلية التطور التي صاغها بقوة تشارلز داروين في عام 1859 في كتابه أصل الأنواع. مرت ثلاثة عقود منذ أن دخلت إلى فناء المدرسة لسماع المدير يعارض حكمة عائلتي بادعائه التفوق الدارويني" (هسو 1986، 1-2).

في ضوء ما حدث في الحرب وما بعدها (وما قد يحدث في المستقبل)، اضطر هسو إلى التشكيك في نوع اللياقة الذي "أظهرته نتيجة هذه الصراعات. وباعتباري عالماً، يجب عليّ أن أتحرى بشكل خاص الصلاحية العلمية لمفهوم يمكن أن يُحدِث مثل هذا الضرر" كالداروينية (1986، 2).

استنتج هسو أنّ ماو كان مقتنعاً بأنه "دون الضغط المستمر للانتقاء الطبيعي"، فإن البشر سيتدهورون. لقد ألهمت هذه الفكرة ماو - على حد تعبير هسو - في الدعوة إلى "الثورة المتواصلة التي جلبت وطني إلى حافة الخراب" (1986، 13). كان دور طلاب الكليات في محرقة الشيوعية الصينية هامًا كذلك. عبّرت المقالات الافتتاحية وغيرها من المقالات صراحة عن وجهات نظره الإيجابية حول داروين، وتحتوي على الأفكار العامة ذاتها الموجودة في كافة منشورات الطلاب الراديكالية في عام 1903.

هناك موضوعات مألوفة للنضال الداروبني من أجل الوجود والتهديد الإمبريالي للوجود القومي والجهل وبربرية الشعب الصيني (رانكين، 1971، 71).

## العرق أصبح بارزًا في الصين

العرق – وفقًا للداروينية – كان كذلك عاملًا حاسمًا في جعل الصين "على حافة الخراب". مزج الثوريون الصينيون كراهية الأجانب التقليدية والمركزية الصينية بمفاهيمهم الجديدة من القومية والنضال الداروينى. الموضوعات العرقية التي سادت الأدب الثوري عام 1911... أظهرت ميلًا حقيقيًا لرؤية العالم بعبارات عنصرية. وهكذا كانت تنذر بالقومية المتطرفة المشوبة بالعنصرية المتشددة التي أظهرها الشيوعيون بعد عام 1949. وقد بدا موضوع العِرق مهمًا للغاية بالنسبة إلى الراديكاليين في عام 1911 بسبب علاقته بتطور الدولة.... جادلوا بأن الشعب الصيني الذي كان من سلالة تشينغ أزيلت بشكل خاص من الحكومة لأن البيت الحاكم كان من عرق مختلف (رانكين 1971، 26).

أحد الأمثلة على ذلك كان الرأي الذي يدعى "بيجينزم" – الاعتقاد بأن البشر لديهم أصلان منفصلان، العرق الأصفر والعرق الأبيض –. تم تطوير البيجينزم أكثر بواسطة جيانغ تشى يو بالتعاون مع ليانغ كيشاو. كانت أبحاث جيانغ حول أصول العرق الصيني تحت هيمنة وتأثير تيريين دي لاكوبيري. أنشأ جيانغ اتصالًا بين سوميرو – أكاديان الذين تنحدر منهم الإمبراطور الجنس الأصفر، ومجموعة فنو – تارتار المرتبطة لغويا مع المنغوليين، أو العرق الأصفر – (ديكوتيلا 1992، 74).

واستنتج الثوار أنّه من بين "العوامل التي تربط بين سكان بلد ما – اللغة والثقافة والتاريخ والجغرافيا – كان العرق هو الأهم" (رانكين، 1971، 26). وأضاف أن:

"الدول تشكلت من خلال النضال العنصري، وكنتيجة طبيعية، إذا كان العرق سيبقى على قيد الحياة، فعليه أن ينشئ أمة. إذا كان هناك عرقين في بلد ما، فإن الوحدة بين الشعب والدولة ستُدمر، أحد العرقين يمكن أن يكونوا أو يصبحوا عبيدًا، وبالتالي لا علاقة لهم بالدولة. ويمكن أن يكون أحد العرقين قد تم اعادة تشكيله أو تدميره، أو قد ينمي وعياً عنصرياً وينفصل لتكوين أمة جديدة كما حدث عندما انقسمت الإمبراطورية النمساوية المجرية. ومهما حدث، فإن الدولة المنقسمة عنصريًا ستفتقر إلى القوة الداخلية، وفي الوقت الذي تتصاعد فيه النزعة القومية العدوانية، فإنها تنذر بالدمار (رانكين، 1971، 26).

علاوة على ذلك يعتقد الثوار أن هذا الاستنتاج وضح بشكل كبير من خلال تأثير حكم مانشو في الصين. تكاد تكون كافة منشوراتهم حول الدونية المزعومة لعرق مانشو، ووحشيتهم المزعومة بغزوهم للصين واستغلال الشعب الصيني. غالبًا ما شعر الثوار بأنهم مجبرون على وضع تصنيفات عنصرية مفصلة لشعوب العالم (رانكين، 1971، 27).

وكما كان صحيحًا أيضًا في ألمانيا النازية، فإن تفاصيل مخططاتها العنصرية والسياسية، لم يكن مهمًا جدًا ولا ضروريًا أن تكون دقيقة للغاية. كانت وظيفتهم الرئيسة هي إضفاء هالة من التصديق العلمي على الرسائل العنصرية، وإظهار أن الصينيين والمانش[1].

هم حقًا شعوب مختلفة، على الرغم من الحقيقة المحرجة أن الاختلافات بينهم كانت أقل بكثير من تلك الموجودة بين كلًا منهما والعرق الأبيض (رانكين 1971، 26-27).

---

(1) شعب المانشو: هم مجموعة عرقية في الصين. السكان الأصليين لمنشوريا، وآخر سلالة امبراطورية في الصين (1644-1912). هم أكبر فرع من الشعوب التونغوسية، ورابع أكبر مجموعة عرقية في الصين، وأكبر مجموعة عرقية بدون منطقة حكم ذاتي، ويتوزعون في أنحاء الصين.( الناشر)

خلص كارل إلى أنّ: "السبب الرئيسي وراء الارتفاع المتسارع في استخدام لغة الداروينية الاجتماعية لوصف العالم وموقف الصين غير المستقر فيه هو مفهوم العرق" (كارل 1998، 1103).

## تطورات العنصرية في الصين

تطورت العنصرية في الصين ثلاث خطوات. أولًا: كانت فكرة الأصول المتعددة قديمًا، ثم المونوجينية (الأصل الواحد) بسبب تأثير المبشرين المسيحيين، وأخيرًا: العودة إلى مفهوم الأصول المتعددة بسبب تأثير الداروينية: "كانت الصين تؤمن بمفهوم الأصول المتعددة، في حين أن الغرب متشبعًا بالفرضية اليهودية - المسيحية.

حول المونوجينية. يصور الكتاب المقدس أبناء نوح كأجداد لكافة شعوب الأجزاء الثلاثة من العالم: البشرية تنحدر من أصل (جينس) واحد (مونو). في القرن التاسع عشر، كان على الفكر الأوروبي القضاء على آدم من أجل رفض وحدة البشرية. أُدخِلت أطروحة المونوجينية إلى الصين بواسطة المبشرين في القرن السابع عشر. لي زوباي - المتحول إلى المسيحية - (توفي 1665) كتب تاريخًا للكنيسة المسيحية بالصينية عام 1663، حيث قدم شعبه كفرع من اليهودية التي هاجرت إلى الصين (ديكوتير1992، 70-71).

يبدو أن المواقف العرقية الصينية توازي تحيزات الأمريكيين - الأوروبيين البيض في صيغتها "العلمية" (كارل 1998، 1103). كان هذا صحيحًا على الرغم من أن المفكرين الصينيين تلقوا نظرية التطور في سياق اجتماعي - سياسي مختلفًا تمامًا عن الغرب. كانوا يعملون في عالم رمزي أدى بهم إلى تعزيز جوانب مختلفة من النموذج

التطوري (ديكوتير 1992، 101).

لاحظت رانكين أنّه: "على الرغم من أن فكرة الصراع من أجل البقاء يمكن أن تستخدم في أي سياق تقريبي، إلّا أنّ ثوار 1911 كانوا يميلون إلى تطبيقه بشكل خاص على أساس عنصري" (1971، 30). وذلك لأن التفسير السائد لنظرية الانتقاء الطبيعي كان أحد أسباب التنافس العنصري (زونجزو زينجزينج) والبقاء العنصري (بوازونج). كان المصدر الخارجي الرئيس للإلهام هو الفلسفة التركيبية لسبنسر والنموذج الخطي للامارك (ديكوتير 1992، 101).

استخدم الصينيون الداروينية للتعامل مع وضعهم السياسي من خلال تبني "مبادئ الداروينية الاجتماعية لتفسير عمل الشؤون الدولية" والتي أعطت أهمية خاصة لمشكلة إنعاش الصين. قانون البقاء للأصلح أدان الأشخاص الذين يحكمهم الأجانب إلى التراجع. سيصبحون عبيدًا، غير قادرين على تطوير قدراتهم الطبيعية، ويصبحوا تحت الأرض تحت الطغيان الذي يعتقد الثوار أنه عنصر محتوم في الحكم الأجنبي. في الصين بدأت هذه العملية بالفعل. على مدى مائتين وستين سنة كان الصينيون عبيداً للمانشو، والآن بعد أن غرق المانشو تحت الهيمنة الغربية، أصبح الصينيون عبيدًا للعبيد (رانكين 1971، 29).


صورة لصن يات – سين

**على سبيل المثال**: افترض تسو جونغ ما يعادل "شكل عكسي للتطور إذا أخفق الصينيون في إصلاح أنفسهم؛ سيغرقون أعمق في العبودية، ويصبحون قردة، وأخيراً ينقرضون" (رانكين 1971، 29). هذه

المخاوف من الانقراض العرقي، والتي بدت في كتابات العديد من الثوريين الصينيين بما في ذلك صن يات - سين مبالغًا فيها عند النظر إليها من مسافة موضوعية. ومع ذلك، كانت عنصرا أساسيًا في رد الفعل ضد إمبريالية عرق آخر. وكانت التعبيرات امتداد مبالغ فيه لانشغال المتطرفين بالكفاح من أجل الوجود، وتصميمهم على القتال من أجل البقاء. حدة المخاوف العرقية للمثقفين المتطرفين الذين يرون أنفسهم يكافحون ضد شعب مختلف قد أوحى بها بعض أوجه التشابه بين تصريحات الثوريين الصينيين عام 1911 والمسلحين السود في الولايات المتحدة في الستينيات (رانكين، 1971، 29).

## الأخلاق الداروينية في الصين

في أذهان هتلر وستالين وماو، فإن معاملة الأشخاص كحيوانات لم تكن خطأ لأنهم جميعاً ظنوا أن داروين "أثبت" أن البشر ليسوا مخلوقات الله، ولكن حيوانات تنحدر من "كائن بسيط" خلوي. اعتقد هؤلاء الرجال الثلاثة أنه من المناسب أخلاقياً أن يزيلوا الأقل لياقة أو "يسوقوهم مثل الماشية في شاحنات إلى معسكرات الحشد العسكري أو معسكرات العمل الإلزامي والسخرة" إذا ساعد ذلك على تحقيق الأهداف التي تطالب بها فلسفة الداروينية (بيرلوف 1999، 225).

ويُشار إلى المدى الذي طُبعت به الداروينية في أذهان الشعب الصيني بحقيقة أن ماو كان لا يزال يستخدم المصطلح الدارويني "الانتصار للأصلح" حتى أواخر عام 1957 (بوسي1983، 452). حتى في فترة ما بعد ماو، كانت لا تزال بعض "الأساطير الداروينية" الأكثر ضررًا تؤثر في سياسة الحكومة الصينية (بوسي 1983، 452).

كما استخدم الأوروبيون الداروينية للمساعدة في تبرير إمبرياليتهم ضد الصين،

باعتبارهم العرق الأكثر ملاءمة، أعلنوا أنه من حقهم أن يحكموا الأعراق "غير الصالحة". والأكثر من ذلك أنّه على الرغم من أن الفكرة الداروينية: "عن الصراع من أجل البقاء يمكن أن تستخدم في أي سياق تقريبًا، لكن الثوريين عام 1911 كانوا يميلون إلى تطبيقه بشكل خاص على الناحية العرقية. لقد أصبحت الأزمة وشيكة الآن. كان العرق الأبيض قد أخضع بالفعل الأجناس السوداء والحمراء والبنية، تاركًا الصراع الحالي بين الأجناس البيضاء والصفراء. في هذه المعركة كان العرق الأبيض متفوقًا في الصناعة والقوة العسكرية والتنظيم الحكومي والروح المستقلة لشعبه. ومع ذلك، فإن مثال اليابان أظهر أنه من الممكن للعرق الأصفر أن يرتفع (رانكين، 1971، 30).

حتى أن بعض أنصار التطور قالوا إن "تراجع الصين سيؤدي إلى الانقراض إذا لم يُضبط"، لكن الثوار جادلوا بأن قوانين التطور يمكن تغييرها من خلال التدخل البشري، ولا يزال هناك وقت كي يتكيف الصينيون مع ظروف العالم الحديث إذا طوّروا أنفسهم بسرعة. ولإيجاد طريقة للخروج من المستقبل الذي لا يطاق والذي واجهته الصين من التطور، تخلى الثوريون عن العلم لصالح ممارسة الإرادة الحرة الفردية وسعوا إلى بديل عن القوة المادية في التجدد الأخلاقي (رانكين 1971، 30).

وتضيف أن العلاج للتدمير نتيجة "قوانين التطور" هو الثورة والعنف، وعلاوة على ذلك، فإن موقف الصين اليائس يبرر بل ويطالب باستخدام العنف (1971، 30-31). في الوقت نفسه، قبل الصينيون حجة داروين الإمبريالية، قال ليانغ تشى تشاو، أحد الإصلاحيين البارزين، في عام 1898: "إذا استطاعت دولة ما أن تعزز ذاتها وتصبح واحدة من الأصلح، وحتى إن قضت على غير الصالح والضعيف، لا يمكن تسمية هذا

غير أخلاقي، لماذا؟ لأنه قانون التطور" (بوسي2009 ، 162).

حاول لو شون (1881-1936) - وهو أحد أهم الكتاب الصينيين - أن يكون مفهومًا من الناحية العملية للثورة الصينية المستوحاة من الداروينية (بوسي 1998، فان 1998). اعتمد لو شون بشكل كبير ليس على داروين فحسب، بل وكذلك على هيجيل الذي "قبله بغير تشكك"، خاصةً ادّعاء هيجيل "معرفة كل شيء" من خلال فكرته أنّ "التطور التدريجي للجنس البشري" قد ثبت "بما لا يدع مجالًا للشك"، وأنّه "لا يوجد شيء لا يمكن تفسيره بالقانون الطبيعي" (بوسي1998 ، 75). ونتيجة لذلك، ساعد على "نشر الإيمان بخرافات العلم" (بوسي1998، 75). ولحسن الحظ، فإن لو شون "لم يستسلم للرأي الدارويني الاجتماعي بأن عرقه كانت حياته متدنية من الناحية التطورية" (بوسي1998، 77). لكن هذا لم يمنع الصينيين من الحكم على الأعراق الأخرى بأنّها أدنى من الناحية التطورية. كانت النتيجة كما يلي: "على الرغم من إمكانية استخدام فكرة النضال من أجل البقاء في أي سياق تقريبًا، لكن ثوار 1911 كانوا يميلون إلى تطبيقه بشكل خاص من الناحية العرقية. لقد أصبحت الأزمة وشيكة الآن. كان العرق الأبيض قد أخضع بالفعل الأجناس السوداء والحمراء والبنية، تاركا الصراع الحالي بين العرق الأبيض والأصفر يرتفع. الصين تواجه كارثة لكن الثوار كانوا يعلنون تحذيرًا عاجلاً: قوانين التطور الطبيعية ليست منيعة ضدّ التدخل البشري" (رانكين 1971، 30).

وتضيف: "العلاج: الثورة والعنف" (رانكين، 1971، 30).

## هيمنة داروين على السياسة الصينية

دعم بعض الإصلاحيين السياسيين المبكرين الديمقراطية، ولكن إدراكهم أن الأشخاص

في بلدهم كانوا غير مستعدين تماما للشكل الديمقراطي للحكم، فقد أكدوا على التطور التدريجي لداروين الذي من شأنه أن يمنح كلا من التوجيه والاستقرار لبلادهم. وهكذا، من خلال التماس "القانون الطبيعي" الدارويني، افترضوا أنهم يستطيعون الوصول إلى هدفهم. ونتيجة لذلك، أعاق المعتقد الدارويني العمل مباشرة نحو الديمقراطية نظرًا للاستنتاج بأن نموذج التقدم التدريجي هو قانون طبيعي ثابت يتطلب تحقيق كل مرحلة من أجل تحقيق الهدف النهائي، ألا وهو الديمقراطية.

بالمقابل، كما ذكرنا سابقًا، احتضن الثوار داروين كذلك، مستلهمين فكرة أن "الأعلى ينجو والمتدني يُهزم". كان الرجل الذي قدم التطور الدارويني إلى الإصلاحيين عام 1895 هو يان فو.

ناقش الإصلاحيون والثوريون بقوة "ملوحون بشعار داروين في كلا الجانبين" (بوسي 2009، 163). وشجع قادة هذه الحركات الأفكار العنصرية العلمية القادمة من أميركا وألمانيا في ذلك الوقت، واعتبروا أنفسهم "أكثر ملائمة" للحكم. وكتب بوسي: "للأسف أن كلا المعسكرين قبلوا وجهة النظر الغربية المنتشرة بأن داروين أثبت عدم مساواة الأجناس؛ إن أحد الأعراق كان "أصلح" وبالتالي أفضل من الآخرين. كان الإصلاحيون قد فعلوا ذلك في الأصل لفصل أنفسهم عن أولئك الذين وقعوا فريسة للإمبرياليين، مثل الأفارقة والهنود. لكن في منفاهم في اليابان، تحول الإصلاحيون والثورون على حد سواء بالغضب على المانشو ككبش فداء، واصفين حياتهم بالمتدنية، وأنّ غزوها "الغير شرعي" للصينين الهان[1] مسؤول عن تعرض الصين للخطر" (بوسي 2009، 163).

---

(1) شعب الهان: هي إحدى المجموعات العرقية التي يتكون منها الشعب الصيني وتمثل حوالي 92% منه. بقي الهان هم =

1- يرجع نمو الماركسية في الصين بعد الحرب العالمية الأولى جزئيًا إلى حقيقة أن الفلسفات الصينية السلمية التقليدية كانت تعد ضعيفة، والنظرة الماركسية للعالم "بدت لهم الأصلح على وجه الأرض لمساعدة الصين على البقاء" (بوسي 2009، 163). لم تكن هذه النتيجة بالكامل بسبب أفكار داروين، لكن داروين كان مشاركًا فيها كلها. للإيمان بالماركسية كان على المرء أن يؤمن بالقوى العنيدة التي تدفع البشرية، أو على الأقل اختيار التقدم الذي لا مفر منه من خلال مراحل محددة (التي يمكن مع ذلك تخطّيها). كان على المرء أن يعتقد أنّ التاريخ كان صراع طبقات وراثي عنيف (يكاد يكون صراعًا "عنصرياً")، وأنّ الفرد يجب أن يخضع بشدة للمجموعة، وأنّ على المجموعة المستنيرة أن تقود الشعب من أجل مصلحتهم، وأنّ الأشخاص يجب أن لا يكونوا إنسانيين تجاه أعدائهم، وأنّ التاريخ أكد أنّ النصر لأولئك الذين كانوا على حقّ والذين كافحوا (بوسي2009 ، 163).

ثم تسائل بوسي: "من الذي علم الصينيين هذه الأشياء؟ ماركس؟ ماو؟ داروين" (بوسي 2009، 163). وكانت النتيجة النهائية أن الثوار "قبلوا الإرهاب كأفضل طريقة للإطاحة بالحكومة المستبدة" (رانكين، 1971، 31). كانت النتيجة حمام دم لم يعرف التاريخ أكبر منه من قبل أو من بعد. بعض الفظائع التي ارتكبها الشيوعيون الصينيون موثقة من قبل يحي (2004). لقد استندت المحرقة الصينية إلى وجهات نظر عنصرية واستنتجت أن "الاختلافات العرقية قد قسمت الشعوب بشكل غير قابل للتسوية،

=

القومية الغالبة رغم انتقال البلاد من الإمبراطورية إلى العهد الاشتراكي فكل من الاباطرة وقادة الحزب الشيوعي وقواعده الشعبية من الهان. استمر حكم الهان لأكثر من 400 سنة. ( الناشر)

بحيث كان من المستحيل أن يشارك عرقان بالتساوي بشكل ودي في حكومة" (رانكين، 1971، 56).

## عدد ضحايا الصينين نتيجة الداروينية الماركسية

باستخدام وثائق أساسية خلص تشانج وهوليداي إلى أن ماو كان "مسؤولاً عن أكثر من 70 مليون حالة وفاة في زمن السلم، أكثر من أي زعيم آخر في القرن العشرين" (2005، 3). في حين أن البعض يشككون في هذا العدد، إلّا أنّ الأرقام الأخرى المقدمة لا تزال تقدر بالملايين (بنتون وتشون 2010؛ أزار 1990). يدّعي شوارتز (1972، 1985) أن محرقة ماو تسي - تونغ "الثورة الثقافية الكبرى" وحدها مسؤولة عن حوالي 29 مليون حالة وفاة، فضلا عن تعطيل حياة أكثر من 600 مليون شخص.

قام سونام توبجيال (1984، 7) بحساب أن الصينيين قتلوا 1,278,387 شخصًا خلال حكم التبت الذي دام 33 عامًا. وبالتفصيل: مات في السجون ومخيمات العمل 174,138 تبتيًا باعتبارهم جنساً أدنى تحاول الحكومة الصينية السيطرة عليه، وأُعدم 156,758 شخصًا، ومات 432,607 في الحرب، ومات 413,151 من الجوع و92,731 من التعذيب، وانتحر 9,300 شخص.

ومن بين 7000 دير من التي كانت متواجدة في الهيمالايا قبل استيلاء الصين عليها عام 1950، فقط 6 أديرة لاتزال نشطة اليوم. خلال ثلاث سنوات فقط، قتل الجيش الأحمر الصيني أو خسر من خلال الفرار من الجندية ما يقرب من 150,000 من جنوده لعصيان الأوامر، تقريبًا ما يساوي من لقوا حتفهم في العمل أو أُسروا أو خرجوا من الجيش لأسباب صحية (تشانغ و هاليداي 2005، 296).

## القاتل الجماعي بول بوت

لقد عدّل ماو تسي تونغ الداروينية من الصراع من أجل الوجود إلى "صراع" الثورة الثقافية، حيث حلت وجهة نظره الشيوعية محل أسلافه، مثل ستالين. كان لبول بوت - أحد أتباع ماو تسي تونغ - وجهة نظر مختلفة حول الصراع الدارويني. عرف بول بوت من خلال أستاذه جان بول سارتر فكرة التطور إلى صور أعلى" من الحياة والتي ترجمها إلى "الصراع الحضاري - القروي والذي مات فيه ربع السكان" (جونسون 2012، 138).

ونتيجة لذلك، سرعان ما أصبح بول بوت في كمبوديا أحد أسوأ قتلة الجماعات في العالم. وقاد الخمير الحمر[1] إلى إبادة جماعية ضد شعبه في نظام متعطش للدماء مستوحى من شيوعية الصين المسماة "ماو تسي تونغ" . وكان العرق عاملاً حاسماً في برنامج إبادة بوت، لكن ليست العنصرية الأمريكية أو الألمانية، ولكن عنصرية تستند إلى سمات جسدية لا ترتبط عادة بالعرق بمفهومه الغربي (كيرنان 2008، 26). وتشير التقديرات اليوم إلى أن نظام بول بوت قتل أو جوّع حتى الموت أكثر من مليون ونصف، ما يصل إلى ثلاثة ملايين من سكان كمبوديا البالغ عددهم ثمانية ملايين نسمة في غضون ثلاث سنوات فقط من 1975 إلى 1979.

كانت جمهورية الصين الشعبية المصدر الرئيسي للدعم المالي والعسكري لنظام بول بوت، وهي مسؤولة إلى حد ما عما حدث في ذلك البلد. ولقد كتب والتر موس:

---

(1) الخمير الحمر: أو الخميرية هم الحزب السياسي الحاكم في كمبوديا في الفترة ما بين 1975 و1979. كان زعيمهم هو بول بوت الذي حاول تطبيق نظام شيوعي زراعي راديكالي على شعبه. واسم خمير يأتي من كلمة كمبودية بمعنى فلاح حيث أنهم كانوا يقدّسون الزراعة.(الناشر)

"لدى وفاة ماو في عام 1976، كان أحد معجبيه في كمبوديا – هو بول بوت – يحاول تطبيق العديد من أفكار ماو في بلاده. جاء هذا الماركسي وزعيم الخمير الحمر إلى السلطة عام 1975. فعل ذلك بشكل جزئي – لأنّ القصف الأمريكي الكثيف لكامبوديا – كان أكثر من ثلاثة أضعاف حجم القصف الذي لحق باليابان في الحرب العالمية الثانية – قد زعزع استقرار البلاد وزاد بدون قصد دعم هذه المجموعة الشيوعية المتطرفة المعادية للغرب" (موس 2008، 19).

كما هو الحال في غالبية الدول الشيوعية: "قام الخمير الحمر بتحريم ممارسة الدين. لقد شنوا حرب طبقية شرسة، وهاجموا الحياة الأسرية والطبقات التقليدية والثقافة. باستثناء الطبقات العليا، كان الضحايا الرئيسيين أقليات عرقية مثل الصينيين والفيتناميين والمرضى (قُتل الكثيرين في المستشفيات أو طُردوا إلى الشوارع) والكاثوليك والمسلمين. كثيراً ما سُبق الموت بعمليات التعذيب الرهيبة، ولم يُظهر الخمير الحمر اللامبالاة بحياة الإنسان على المستوى الفردي فحسب، بل كانوا كذلك منخرطين في السلوك السادي" (2008، 19–20).

تأثر بول بوت بالداروينية ولكن بشكل غير مباشر بل نتيجة لتأثير الصين – موضوع هذا الفصل – ومع ذلك، كان "بول بوت مَن طبّق أفكار داروين بذبح عدد كبير من الكمبوديين" (أليكسس2007، 159). "ما كان يجمع بين بول بوت وماو وستالين والقليل من القادة الشيوعيين الآخرين، كان الاعتقاد بأن إعادة هيكلة المجتمع والحياة الإنسانية بررت قتل البشر. كانت أفكار مفكري القرن التاسع عشر مثل ماركس (1818–1883)، وداروين (1809–1882)، وفريدريك نيتشه (1844–1900)،

وكذلك الأفكار العنصرية والقومية والإمبريالية، تُستخدم في الغالب، بشكل صحيح أو بشكل خاطئ لتبرير عمليات القتل هذه" (موس 2008، 20، 34).

وكانت النتيجة أنّ "الخمير الحمر جلبوا تحولاً أكثر راديكالية للبلاد في فترة زمنية أقصر مما نجح فيه زملاؤهم الشيوعيون في الاتحاد السوفييتي أو الصين (موس 2008 ، 19). كما تأثر هو تشي مينه - زعيم الحزب الشيوعي في فيتنام - بأفكار داروين (بروشوكس2007 ، 38). استنتج بول جونسون أنّه في القرن العشرين، من المرجح أن أكثر من 100 مليون شخص قد قُتلوا أو جُوعوا حتى الموت نتيجة للأنظمة الشمولية المصابة بأنواع مختلفة من الداروينية الاجتماعية. لكن داروين ذاته أصرّ دائماً على النسبة العالية من التدمير الذي ينطوي عليه التكاثر. الطبيعة من وجهة نظره دائمًا مسرفة في الموت كما في الحياة. في الوقت الذي نُشر فيه أصل الأنواع، كان هناك حوالي 1,325 مليون شخص في العالم. بحلول الوقت الذي توفي فيه ماو تسي تونغ - آخر أكبر "المبيدين"- كان هو ذاته مسئولًا عن وفاة 70 مليون شخص - ارتفع مجموع البشر إلى 3,900 مليون في ذلك الوقت - (جونسون، 2012، 138).

## الاستنتاجات

كانت محرقة الصينيين والكمبوديين ممكنة لأن الداروينية كانت أكثر من نظرية علمية: فهي في الأساس نظرة شمولية للعالم، وموقف فلسفي حول طبيعة كل الواقع. إن المادية التي عززت النظرة الداروينية للعالم، ولّدت العنصرية العلمية وعلم تحسين النسل في الغرب، وأشعلت الحماسة الثورية في الشرق. يجب على الجيل الجديد فهم وإدراك أهمية هذه الحقيقة وتجنب القبول غير النقدي للجذور الفلسفية لأي علم (بوسي 2009، 163). عدد

الداروِنيين اليوم في الصين أعلى منه في غالبية الدول -74 بالمائة مقارنة مع 56 بالمائة في روسيا و52 بالمائة في إسبانيا ومصر[1] - وفقًا لدراسة واحدة. ومع ذلك قليلون يفهمون مساهمتها في تاريخهم المضطرب الأخير (ستيفنسون، 2009).



(1) لا أدري كيف اعتمد المصنف هذه النسبة الخاصة بمصر ، إذ لا يوجد انتشار لنظرية التطور في مصر حاليًا وما ينشره كهنة الإلحاد اليوم لتعريف الناس بها في مصر يُعد جديدًا على أسماع المصريين ، فضلًا عن النسبة وقت تصنيف الكتاب أو عام 2009 اثناء قيام ستيفنسون ! بهذه الدراسة المزعومة.(الناشر)

## المراجع

جوناس أليكسس، 2007. بأسم التعليم. ميتلاند. فلوريدا: مطبعة إكسلون.

لاري أذار، 1990. القرن العشرين في الأزمة: أسس الشمولية. دوبوك، لوا: كيندال – هانت.

جريجور بينتون، ولين شان (المحررين). 2010. كان ماو حقا وحشًا: الرد الأكاديمي على تشانغ وهاليدايز ماو: القصة المجهولة. نيويورك: روتليدج.

هاورد ال بورمان، 1963. "ماو تسي تونغ: الصورة اللامعة." الصين فصلياً 16: 1-55.

بيير بروشكس، 2007. هو تشي مينه: سيرة ذاتية. نيويورك: مطبعة جامعة كامبرج.

جونغ تشانغ، وجون هاليداي. 2005. ماو: القصة المجهولة. نيويورك: كنوبف.

فيليب ديفيلرز، 1967. ماو. نيويورك: شوكن.

فرانك ديكوتير، 1992. خطاب العرق في الصين الحديثة. ستانفورد، كاليفورنيا: مطبعة جامعة ستانفورد.

أريف ديرلك، 1989. أصول الشيوعية الصينية. نيويورك: مطبعة جامعة أكسفورد.

فا – تي فان، 1998. "كتاب مراجعة لو شيون وتطور." مجلة تاريخ علم الأحياء 32 (1): 218-220.

كينيث هسو، 1986. الموت العظيم: الكارثة الكونية، الديناصورات ونظرية التطور. نيويورك: هاركورت، بريس جوفانوفيتش.

بول جونسون، 2012. داروين: صورة من العبقرية. نيويورك: فايكنغ.

ريبيكا إيكارل، 1998. "خلق آسيا: الصين في العالم في بداية القرن العشرين". المراجعة التاريخية الأمريكية 103 (4): 1096- 1118.

موريس كايرنان، 2008. نظام بول بوت: العرق والسلطة والإبادة الجماعية في كمبوديا تحت الخمير الحمر، 1975- 79. نيو هافن، كونيتيكت: مطبعة جامعة ييل.

موريسميسنر،2007. ماو زيدونج: صورة سياسية وفكرية. مالدن، ماساتشوستس: بوليتي برس.

ريتشاردميلنر، 2009. عالم داروين: التطور من الألف إلى الياء بيركلي، كاليفورنيا: جامعة كاليفورنيا.

والتر موس، 2008. عصر التقدم؟ تصادم القوى العالمية للقرن العشرين. نيويورك: مطبعة أنثيم.

جيمس بيرلوف، 1999. اعصار في جنكيارد. أرلينغتون، ماساتشوستس: كتب الملجأ.

جيمس رييف بوسي، 1983. الصين وتشارلز داروين. بوسطن، ماساتشوستس: مطبعة جامعة هارفارد.

---------. 1998. لو شين والتطور. ألباني، نيويورك: مطبعة جامعة ولاية نيويورك.

---------. 2009. "داروين عالمي: الطريق الثوري" الطبيعة 462: 162-163.

ماري بي رانكين، 1971. الثوريون الصينيون الأوائل: المثقفون المتطرفون في شنغهاي وشيكيانغ، 1902-1911. كامبردج، ماساتشوستس: مطبعة جامعة هارفرد.

مايكل روس، 1986. "علم الأحياء والقيم: نظرة جديدة،" في المنطق، المنهجية، وفلسفة العلوم، بواسطة ماركوس وآخرون. منشورات إلسفير للعلوم.

فريد شوراتز، 1972. الوجوه الثلاثة للثورة. هبوط الكنيسة، فيرجينيا: مطبعة كابيتال هيل.

--------.1985. "طلب مبلغ فلكي في التعويضات." الحملة الصليبية المسيحية المناهضة للشيوعية، فبراير 1.

فيليب شورت، 1999. ماو: الحياة. نيويورك: هنري هولت.

لام ليسينج، 2000. ماو تسي تونغ تشاي والاقتصاد السياسي الصيني مع إشارة خاصة إلى ثورة التحديث ما بعد ماو. لويستون، نيويورك: مطبعة إدوين ميلين.

إدجرسنو، 1961. النجم الاحمر على الصين. نيويورك: مطبعة جروف.

جورج جيهستين، 1988. "العلوم البيولوجية وجذور النازية". عالم أمريكي 76: 50-58.

توني ستيفنسون، 2009. "مسح داروين يظهر التوافق الدولي على قبول التطور." المجلس البريطاني، www.britishcouncil.org/darwin.

سونامتوبجيال، 1984. "أكثر من 1,2 مليون توفي تحت حكم الصين." مراجعة تبتان 19 (3): 7.

هارون يحيي، 2004. سياسة الصين الشيوعية للقمع في تركستان الشرقية. اسطنبول: جلوبال للنشر.

د. لي زيزو، 1994. الحياة الخاصة للرئيس ماو. نيويورك، نيويورك: راندوم هاوس.



# الفصل السادس عشر

## نظرية الجريمة الداروينية : فصل مأساوي في التاريخ

### المقدمة

اعتقد الداروينيون أنّ الإنسان قد يرتد في بعض الأحيان جسديًا وذهنيًا إلى مرحلة ما قبل الإنسانية من التطور التدريجي. كانت هذه الحالة تسمي هذا بالتأسل الرجعي. ونتيجة لهذا الاعتقاد، كان تركيز علماء الجريمة الداروينية على تحديد النوع الإجرامي الذي يجب سجنه بشكل دائم لحماية المجتمع، حتى لو كانت الجريمة المحددة التي ارتكبها تعتبر جريمة صغرى، وفي المقابل إذا ارتكب "نوع غير إجرامي" جريمة خطيرة، فذلك كان يعد شذوذًا عن القاعدة، وبالتالي جادلوا بأنّ سجنه لن يقدم أي فائدة.

يعتقد علماء الجريمة الداروينينة أن العقوبة يجب أن تُناسب المجرم وليس الجريمة. تبنى علماء الجريمة هذه النظرية لشرح الجريمة على نطاق واسع، ونتيجة لذلك تأثر بها الرأي العام والسياسة الحكومية. لا تزال الصورة النمطية "للنوع الإجرامي" معنا بشكل كبير على الرغم من أن نظرية الارتداد التطوري كعامل مسبب في الإجرام تم دحضها قبل عقود.

التأثيرات الرئيسة للداروينية عن العنصرية والمحرقة والحرب العالمية الثانية كلها موثقة جيداً في هذا المجلد وفي أماكن أخرى (فيكارت، 2003). إنّ العنصرية التي تأثرت بالداروينية عززتها كانت بشكل خاص "موضوعاً متكرراً في الأنثروبولوجيا الأمريكية والبريطانية" (لوين 1987، 55). الأقل شهرة هو التأثير العكسي للداروينية تقريبًا على كل مجالات المساعي الإنسانية "ولم يكن هناك مكان لانتصار المادية العلمية أكثر مما

هو في مجال الجريمة والعقاب" بما في ذلك البانولوجيا[1] (ويست 2007، 42). تطورت نظرية الإصلاحيات[2] الداروينية جزئياً لأنه بمجرد تأسيس نظرية في مجال ما، فإنّه يتم تبنيها بشكل في المجالات أخرى دون إخضاعها للنقد. يحاول العلماء في معظم المجالات استيعاب النظريات التي يعتقدون أنها مقبولة بشكل جيد في مجالات أخرى، وفي بعض الأحيان دون فحص دقيق لها. يحدث هذا القبول غالبًا دون إدراك كامل للجدل حول النظرية في مجالها الأصلي نفسه.

أمثلة المجالات التي اعتمدت الداروينية دون إخضاعها للنقد مع عواقب مأساوية لا تشمل فقط علم الجريمة ولكن كذلك مجالات علم الاجتماع وعلم النفس بأكملها. هذه الحقيقة "توضح التأثير الهائل لنظرية التطور في مجالات بعيدة عن جوهرها البيولوجي. حتى أكثر العلماء تجريدًا ليسوا متحررين منها. تحتوي الأفكار الرئيسة على امتدادات عميقة وبعيدة المدى بشكل ملحوظ" (غولد 1977، 223). فمثلا: استغراق القرن التاسع عشر في عملية التطور عزز الفكرة المرتبطة بالتأسل الرجعي بأنّ المشكلات المجتمعية السلوكية تعود في الأصل إلى الكائنات الأدنى. يبدو أنّ أصل الأنواع (1859) لتشارلز داروين يصور صراعًا كبيرًا في كل المجالات بين الكائنات البدائية والمعقدة. في كتاب أصل الإنسان (1871)، أوضح داروين أن التطور يخلق التسلسل الهرمي للذكاء، والأخلاق، وخصائص إنسانية أخرى (رافتر1997، 37).

---

(1) البانولوجيا: هو أحد أفرع علم الجريمة ويشمل دراسة الجريمة والعقاب وكيفية إدارة السجون. ( الناشر )

(2) نظرية الإصلاحيات: مجموعة من الأمور في مجال العدالة الجنائية والتي تقوم بها الوكالات الحكومية للإشراف على العقاب، والعلاج، والإفراج المشروط، والاختبار، والسجن الإصلاحي وكل ما يخص المدانين. ( الناشر)

لقد قبل علماء الاجتماع الداروينية بشكل عام دون إخضاعها للنقد، خاصة بعد نشر كونت نظامه السياسي (بارنز 1948، 106-107). كان قبول الداروينية في علم الاجتماع مبنياً على فكرة أنّ تطور التنظيم الإجتماعي للإنسان جاء نتيجة لتطوره البيولوجي؛ وبالتالي فإن التطور الاجتماعي نتيجة لكنها متوازية بشكل أساسي مع التطور البيولوجي. لذا يجب فهم الخصائص والسلوكيات البشرية الفردية على أنها انعكاسات لهذا الميراث العضوي والبيولوجي العام؛ لا يتم تحديدها بالمنطق والحرية الفردية، ولكن تُحدد بيولوجيًا (فولد 1958، 10).

تأثرت العلوم السلوكية بالتطور البيولوجي لدرجة أن دراسة الثقافات والمجتمعات البشرية قد صاغتها نظريات التطور البيولوجي الحالية. كانت هذه حقيقة لعقود وأثرت على كل من النظرية والسياسة (موريس 1974). ذكر ويزرواكس أنّه في وقت مبكر - في أواخر القرن التاسع عشر "مبدأ التطور [البيولوجي] وتأثيره انتقل إلى مجال المشكلات الاجتماعية وكان له تأثير عميق على كل الأفكار" (1909، 42، غولد 1977، 223). لم تتسبب الداروينية في أن تصبح هذه الأفكار سائدة فحسب، بل كذلك لتكثيف التكهنات حول التطور وعلاقات البشر بالكائنات الأقل تعقيدًا. شكلت الداروينية أيضًا العمل الذي قام به عالم الإجتماع الإنجليزي هربرت سبنسر في العلوم الطبيعية الذي صاغ عبارة "البقاء للأصلح". وتكثفت هذه التكهنات بنشر أصل الأنواع عام 1859 الذي يجادل فيه داروين بأن "الأنواع التي لا تعد ولا تحصى والفصائل وعائلات الكائنات الحية التي تسكن هذا العالم، تنحدر جميعها من آباء مشتركة." بدت أفكار داروين منسجمة مع فكرة اعتبار المجرم شكل حيواني من الماضي البدائي. بالإضافة إلى

ذلك، فإنّ القنوات التي مرر داروين من خلالها أفكار مثل "البدائية، والأعضاء الضامرة أو المجهضة" يمكن أن يلاحظ أنّها تأكيدات لتقارير لومبروسو عن أسنان المجرم التي تشبه الثعبان وغيرها من الحالات الشاذة الحيوانية (رافتر 1997، 126).

في النهاية، أُدرك أن بعض تطبيقات الداروينية (مثل الداروينية الاجتماعية) تسببت في قدر كبير من الضرر.

## تاريخ التأسل الرجعي

نوقشت فكرة التأسل الرجعي للبشر لأول مرة من قِبل داروين في عام 1871. ومن الأمثلة على ذلك طرحه فكرة أنّ الأشخاص ذوي "أسوأ النزعات، والتي قد تظهر في بعض الأحيان دون أي سبب محدد لظهورها في عائلتهم، قد تكون انتكاسات لمرحلة البدائية الهمجية، التي لم تُمح على مدار أجيال كثيرة" (داروين 1881، 137). وبما أن الأشخاص المتأسلين تراجعوا وراثيا ليس فقط من الناحية السلوكية ولكن جسديًا كذلك، فقد جادلوا بأنّه يمكن التعرف على المجرمين في كثير من الأحيان عن طريق السمات الجسدية وحدها؛ أسنان غير طبيعية، وعدم تناسق الوجه، وآذان كبيرة، وبعض العيوب في العين، وملامح وجه "تشبه القرد"، وخصائص جنسية "معكوسة" (الشذوذ الجنسي)، كان ينظر إليها جميعًا بوصفها دليلًا ماديًا على الإنسان العدواني، وبالتالي نوع إجرامي (تايلور وآخرون 1973، 41).

كان مفهوم التأسل الرجعي عنصرًا أساسيًا في الأدلة التي استخدمها داروين لدعم نظريته، ويعتقد أنصار التطور أن "العودة إلى حالة سابقة الوجود" - والتي كانت مقبولة على نطاق واسع في أواخر القرن التاسع عشر - لا يمكن تفسيرها إلا من خلال نظرية

أن البشر ينحدرون من أحد المخلوقات الشبيهة بالقردة، لا يمكن تحديد سبب آخر لماذا بعض العضلات تظهر فجأة مرة أخرى بعد فاصل زمني من عدة آلاف من الأجيال، بالطريقة ذاتها التي تظهر فيها الخطوط الغامقة على الساقين والكتفين في الخيول والحمير والبغال بعد فترة من المئات أو ربما أكثر من آلاف الأجيال (داروين 1871، المجلد 1، 129).

وأضاف أن هذه الحالات من الارتداد: ترتبط ارتباطا وثيقا بتلك الأعضاء البدائية الواردة في الفصل الأول [من كتابه]. بعض الأجزاء البدائية في الإنسان والتي بعضها موجود دائمًا مثل: العصعص في كلا الجنسين، والأثداء عند الذكور. في حين أن هناك أشياء أخرى مثل: الثقب العظمي في العُرْف الإنْسِي فوق اللُّقْمَة العَضُدِيّة[1]

، تظهر أحيانًا فقط وبالتالي يمكن وضعها تحت عنوان الارتداد. وتكشف هذه التراكيب الارتدادية العديدة، بالإضافة إلى البدائية البحتة، بطريقة تخلو من الشك انحدار الإنسان من كائن أدنى (داروين 1871، المجلد 1، 129-130).

استنتج داروين أنّ التأسل الرجعي دليل "لا لبس فيه" على التطور البشري. وقد عزا ليل التفوق في المجالات متنوعة من الدين والأخلاق والفلسفة والعلوم إلى التأسل الرجعي: يمكن أن يُنسب الظهور العَرَضي لهذه القوى العقلية الاستثنائية إلى التأسل الرجعي، ولكن يجب أن تكون هناك بداية لسلسلة هذه الأحداث النادرة الغريبة.

---

(1) هو ارتفاع طفيف في الثلث السفلي من الحافة الوسطي لعظم العضد، ويشتد بروزه في الأسفل ليشكل حرف أمامي ترتكز فيه العضلة العضدية و العضلة الكابة المدورة ، وحرف خلفي للرأس الإنسي للعضلة الثلاثية الرؤوس العضدية ، وحرف متوسّط لإرتكاز الحاجز الإنسي بين عضلات العضد. ( الناشر)

فبحسب قانون التطور التدريجي، فنحن نعتقد أن البشرية قد تطورت ببطء من نقطة بداية متواضعة وجلفة، مثل هذه القفزات المتعاقبة لم تؤدِ فقط إلى أشكال ودرجات أعلى من الذكاء، ولكن في فترة أبعد من ذلك، قد تكون بقفزة واحدة قد حددت المسافة ما بين الذكاء الغير قابل للتطور للحيوانات المتدنية، والصورة الأولي والأدنى من العقلية القابلة للتطور والتي تجلت في الإنسان (1863، 504-505).

لم يُفَسّر أبدًا السبب المحدد وراء هذا الارتداد أو النكوص الجسدي والعقلي. ومع ذلك، فقد اعتبر التأسل الرجعي دليلاً أساسياً على التطور لعقود (بال 1918). كما شارك التأسل الرجعي الداروينية في الاحترام والقبول لعقود من الزمن، وأصبحت الشكوك أكثر تواترًا فقط بعد أربعينيات القرن العشرين. في أوائل عام 1940، ذُكر في كتيب أنه في الوقت الذي زُعم فيه أنّ التأسل الرجعي هو واحد من أكثر الأدلة المقنعة بالتطور و"ظاهرة مثيرة لاهتمام طلاب الوراثة"، فهي لا تقدم دليلًا على التطور. إذا كنا قد ننحدر بالفعل من مخلوقات تشبه القرد، فقد نتوقع العثور على بعض خصائص هذه الأسلاف التي تظهر الآن بين البشر. يُذكّرنا هذا "الدليل" أنه خلال السنوات القليلة الماضية، اقترح أحد العملاء بصورة رسمية أن جنون موسيقى الجاز الحالي كان تطوريًا [تأسل رجعي، متسببًا في محاكاة] تطور الحركات الإيقاعية لقنديل البحر (بيتيت1942 ، 82).

## تطبيق التأسل الرجعي على علم الجريمة

تبيّن أنّ تبني النظرية التطورية المسماة "التأسل الرجعي" في مجال الإصلاحيات هو مثال مأساوي لما يمكن أن ينتج عن القبول من دون نقض لأفكار من مجال إلى آخر. كان لتطور نظرية التأسل الرجعي في الإنسان - والتي فقدت مصداقيتها تمامًا الآن -

عواقب مأساوية لآلاف الأشخاص (رينيفيل 1995؛ غولد1996). كما قِيل، فإنّ التأسل الرجعي هو الاعتقاد بأن بعض السمات الجسدية يمكن أن تظهر في البشر نتيجة "رجوعًا" بيولوجيًا إلى مرحلة مبكرة من تاريخ تطورنا (رينيفيل 1995). وبحسب نظرية هيكل: "تطور الأجنة يُلَخِص الأسلاف"، فإن التأسل الرجعي ينص على أنّ تطور البشر المبكر يقتضي مروره من خلال تاريخنا التطوري. عندما يُعتَرض طريق هذا التطور التدريجي، فإن النتيجة هي ولادة نوع بشري أكثر "بدائية" (لومبروسو - فيريرو 1911). المصدر الرئيسي لهذه الفكرة هو داروين، الذي كتب: بالنسبة للبشرية، قد تكون أسوأ النزعات، والتي قد تظهر في بعض الأحيان دون أي سبب محدد لظهورها في عائلتهم، قد تكون انتكاسات لمرحلة البدائية الهمجية، التي لم تُمح على مدار أجيال كثيرة. يبدو أن هذا الرأي كان معروفًا بالفعل من خلال التعبير الشائع بأن هؤلاء الأشخاص هم الأغنام السوداء في العائلة (1871، المجلد 1، 173).

ذلك السلوك الذي من النوع البدائي كان نتيجة للانتقاء الطبيعي لأنه في وقت ما ساعد هذا السلوك على البقاء. أدرج لومبروسو وغيره من الداروينين ضمن السلوكيات المختارة، السلوك الذي نسميه الاغتصاب، بالإضافة إلى قتل الآباء، وقتل الأطفال، وأكل لحوم البشر، والاختطاف، وغير ذلك من "الأعمال المعادية للمجتمع التي وجدت في كافة أنحاء المملكة الحيوانية، وكذلك بني البشر الهمجيين" (ويست2007، 51). كتب نويس: في "عملية التطور، الجريمة كانت واحدة من المتطلبات الضرورية للصراع من أجل الوجود" (1888، 34). كما جادل العديد من الداروينيين، فإنّ الجريمة الآن خطأ لأنها لم تعد تؤدي دورًا ضروريًا في المجتمع البشري.

طُورت نظرية التأسل الرجعي كسبب للجريمة من قِبل المنظر الذي يعتبره الكثيرون أحد الآباء المؤسسين لعلم الجريمة، سيزار لومبروسو (1835-1909)، أستاذ الطب النفسي في جامعة بافيا (هارويتز 1994؛ بابا 1983؛ سيمون 1990؛ فولفغانغ 1961). أصبح لومبروسو واحداً من "أبرز" العلماء في التاريخ إلى أن أُدرك الضرر الذي تسببت به أفكاره، ثم أصبح واحدا من أكثر علماء الجريمة تعرضاً للهجوم في عصره (كول 1995). ناقش لومبروسو بعمق في كتابه "الإنسان الإجرامي" الذي صدر عام 1876 والذي ذكر فيه أنّ "المجرمين هم شكل من أشكال الارتداد لنوع بشري أكثر بدائية" (ليندسميث وآخرون، 1937). على حد تعبير رافتر، استنتج لومبروسو وأتباعه أنّ: المجرمين الذين لا أمل في تقويمهم "وُلدوا مجرمون" وهم ارتداد إلى مرحلة الإنسان شبيه القرد؛ مرحلة تطورية أكثر بدائية. من وُلدوا مجرمين يختلفون جذريًا عن الأشخاص الشرعيين، ويمكن للعلماء التعرف عليهم عن طريق شذوذهم الجسدي والعقلي، تمامًا كما يستطيع علماء الأنثروبولوجيا الفيزيائية تحديد أعضاء الأعراق المختلفة حسب خصائصهم الجسدية (1997، 110).

لقد قبل العديد من علماء السلوك من قبل الاعتقاد بأن "ارتداد" و"نكوص" الفرد (المسماه بالتأسل الرجعي عند داروين وعلماء الأنثروبولوجيا الإجرامية والأشخاص الذين يعملون في الإصلاحيات) تسبب في ولادة شخص بأخلاق ما قبل الإنسان في أسرة "طبيعية" (كوريلا 1910، 19). أكدّ هؤلاء الباحثون على أهمية العوامل البيئية والاجتماعية في الجريمة، لقد أمضوا الكثير من الوقت في قياس أجزاء مختلفة من الجسم خاصةً الجبهة والجمجمة، وخلصوا إلى أنّه كلما اقترب الشخص في تكوينه الجسدي من

القرد، كلما زاد "النكوص" التطوري والسلوكي.

اشتملت الصفات المحددة التي بحثوا عنها على "جمجمة أصغر مع سمات معينة موجودة بين الحيوانات، وجسم أطول، وأذنين على شكل مقبض، وعدم الشعور بالألم، وبصر حاد، واستخدام اليد اليسرى" (ويتزيل 2000، 29). واعتقدوا أن هذه الطريقة كانت علمية مثل الطريقة التقليدية التجريبية مقابل مجموعة التحكم وأساليب البحث الشائعة الأخرى المستخدمة في العلوم السلوكية (لومبورسو - فيريرو 1911). المصدر النهائي لهذه الفكرة هو داروين: بالرغم أنّ فكرة لومبورسو عن قياس أجسام المجرمين وجماجمهم مشتقة من الممارسات الأنثروبومترية للأنثروبولوجيا الفيزيائية المعاصرة، إلا أنّ تفسيره لهذه الخصائص على أنها تأسل رجعي يعكس تأثير تشارلز داروين (ويتزيل 2000، 29).

خلص غولد إلى أن نظرية لومبورسو ليست إلا مجرد إعلان مبهم بأن الجريمة وراثية - مثل هذه الادعاءات كانت شائعة بما يكفي في عصره - ولكن النظرية التطورية الخاصة تستند إلى بيانات الأنثروبومترية. المجرمون هم ارتداد تطوري بيننا. إنّ أصول الأجداد من الماضي تظل كامنة في الوراثة، وفي بعض الأفراد غير المحظوظين، يعود الماضي للحياة مرة أخرى، هؤلاء الأشخاص مدفوعين بالفطرة ليتصرفوا كقردة عاديين أو همج، ولكن مثل هذا السلوك يعتبر جنائيًا في مجتمعنا المتحضر (غولد 1996، 153).

وأضاف غولد أن المؤيدين يعتقدون أن هذا النظام سهّل أمر التعرف على من ولدوا مجرمين لأنهم يحملون علامات جسدية تدل على أصلهم كقردة. تأسلهم الرجعي جسدي وعقلي، لكن العلامات الجسدية أو الندبات - كما يسميها لومبروسو - أدلة قاطعة. يمكن أن يحدث السلوك الإجرامي كذلك في الرجال العاديين، لكننا نعرف "من

ولدوا مجرمين" من خلال بنيتهم الجسدية. البنية الجسدية في الواقع هي المصير، ولا يمكن لمن ولدوا مجرمين أن يفلتوا من الوصمة الموروثة: "نحن محكومون بقوانين صامتة لا تتوقف أبداً عن العمل وتحكم المجتمع بسلطة أكبر من القوانين المسجلة في كتبنا الأساسية. [باختصار، الجريمة] تبدو كظاهرة طبيعية" (غولد 1996، 153).

يعتقد العديد من علماء الجريمة أن هذا "النكوص" الرجعي قد جعل الضحايا يبدون أكثر كـ"حيوانات"، ويتصرفون بطريقة "بدائية ووحشية" أكثر من نظرائهم المتحضرين (فولد 1958، 28). وكان يُعتقد أن هؤلاء "البشر - الحيوانيين" الذين يطلق عليهم اسم "أشباه - المجرمين" هم أكثر عرضة للانخراط في الأنشطة الإجرامية. أقر لومبروسو بوجود عوامل أخرى، وأنّه ليس كل مجرم "مولود مجرماً"، لكن العوامل العضوية تمثل من 35 إلى 40٪ من النشاط الإجرامي، وأكدّ على أنّ العوامل المحددة بالولادة هي الأسباب الرئيسة، وأنّ العوامل البيئية من أقل الأسباب أهمية (ويست 2007، 51). ولقياس مستوى "الصفات الحيوانية" في شخص ما، قام العلماء بتقييم "الخصائص البدنية المختلفة لنزلاء السجون" لتحديد بعض السمات التي توجد عادة في الكتلة الإجرامية. من بين هذه الخصائص كانت العيون الواسعة، وانحسار الشعر، والشعر الأحمر، والفكوك القوية، واللحى الضعيفة، وما شابه. توصل لومبروسو إلى استنتاج مفاده أن المجرمين هم شكل من أشكال الارتداد التطوري لنوع بشري أكثر بدائية (روبرتسون1981، 183).

لم تكن هذه النظرية وجهة نظر مغمورة تبناها بعض المتطرفين، لكن ربما كانت أكثر العقائد التي ظهرت تأثيراً في الإصلاحيات من تقاليد الأنثروبومترية بأكملها (غولد 1996، 165-172). بالإضافة إلى ذلك، شغل لومبروسو مكانة عالية في "الحقبة

الرائعة من الدراسة الإيجابية للعالم" (كوريلا 1910). في عام 1896، استنتج عالم الجريمة الفرنسي البارز دالجن أنّ أفكار لومبروسو "أحدثت ثورة" في الإصلاحيات، و"لمدة 20 عامًا، كانت أفكاره تغذي المناقشات؛ كان المعلم الايطالي حاضرًا بشكل يومي في كافة المناقشات، التي أظهرت أفكاره على أنها أحداث هامة" (غولد 1996، 165). يضيف غولد أن ملاحظة دالجن حول الانتشار الواسع لقبول التأسل الرجعي كان دقيقاً، ولسوء الحظ، كان لها تأثيرًا كبيرًا على الإصلاحات: لم تكن الأنثروبولوجيا الإجرامية مجرد نقاش بين الأكاديميين، بل كانت حية. كان موضوع النقاش في الأوساط القانونية والجنائية لسنوات. لقد أثار العديد من "الإصلاحات"، وكان حتى مؤتمر ومعرض الحرب العالمية الأولى موضوعًا لعقد مؤتمر دولي يعقد كل أربع سنوات للقضاة والفقهاء والمسؤولين الحكوميين بالإضافة إلى العلماء (1996، 165-166).

## النظرة العالمية للومبروسو

في شبابه تبنى لومبروسو فلسفة "الفكر الحر" والداروينية، رافضًا الكنيسة وتعاليمها. استرشد لومبروسو في المقام الأول بالمادية و"بفكرة الداروينية عن تنوع الأجناس" (كوريلا 1910، 12). أصبحت نظرية لومبروسو "معيارًا مهمًا للحكم في العديد من المحاكمات الجنائية. مرة أخرى لا يمكننا معرفة عدد الرجال الذين أُدينوا بشكل غير عادل لأنهم كانوا موشومين على نطاق واسع، أوفشلوا في أن تتورد خدودهم، أو كان لديهم فكوك أو أذرع أكبر من المعتاد" (فيري 1897، 166 - 167، نقلا عن غولد 1996، 168-169). وكتب السيد فيري، كبير مساعدي لومبروسو، أن دراسة العوامل الأنثروبولوجية للجريمة توفر لأولياء الأمور والجهات المشرفة على القانون وسائل جديدة

وأكثر تحديدًا في الكشف عن المذنبين [السمات الطبيعية] تكفي في كثير من الأحيان لإعطاء وكلاء الشرطة التوجيه العلمي في استفساراتهم وعندما نتذكر العدد الهائل من الجرائم والمخالفات التي لا يعاقب عليها، بسبب نقص أو عدم كفاية الأدلة، وتواتر المحاكمات التي تستند فقط إلى تلميحات غير مباشرة، من السهل رؤية الفائدة العملية للعلاقة الأساسية بين علم الجريمة الاجتماعية والإجراءات الجنائية (فيري 1897، 166-167، مقتبس من غولد 1996، 168-169).

ويظهر تفكير لومبروسو واضحًا في مناقشته للجرائم التي دُعي لحلها، مثل قضية رَبِيبَين مُتهمَين بقتل امرأة. بعد الفحص، أعلن لومبروسو (1911، 436) أنّ أحد الربيبين كان "نموذجًا مثاليًا للمولودين مجرمين، بفكين كبيرين، ندبات على الجبهة، وعظام الوجنتين بارزة" هذا الربيب "تمت إدانته" على الرغم من عدم وجود أدلة. في قضية أخرى، تستند فقط إلى أدلة غير مباشرة، جادل لومبروسو بإدانة رجل متهم بسرقة وقتل مزارع غني. وشملت الأدلة شهادة بأن المتهم شوهد نائما بالقرب من الجريمة واختبأ في صباح اليوم التالي عندما اقتربت منه الشرطة. لم يعط أي دليل آخر على ذنبه.

نتيجة فحص لومبروسو أنّ هذا الرجل لديه "ملامح وجه تشبه النوع الإجرامي في كل شيء، وبالتالي، فإنه عند إضافة الأدلة التي يوفرها علم الأحياء إلى أن الأدلة، تصبح كافية لإدانته في بلد لا ترحم المجرمين" (1911، 437). على الرغم من أنّه تمت تبرئته، إلا أنّ لومبروسو شعر أنّه كان يجب إدانته على أساس الأدلة البيولوجية فقط.

## المأساة الرئيسة لمعتقد الراجعية لداروين وتأثيره على السياسة الاجتماعية

كما قيل، فإنّ الداروينية؛ تلك النظرية التي استخدمت بشكل بارز في الإصلاحات من قبل سيزار لومبروسو، الذي تدرب في كل من الطب النفسي والبيولوجيا. لقد حصل على معتقداته حول التأسل الرجعي خلال تدريبه الأكاديمي على التطور ودراسته لأعمال تشارلز داروين، الذي ربط البشر المعاصرين بالماضي غير البشري من خلال نظريته حول التطور. شارك لومبروسو لبعض الوقت في دراسة الاختلافات الجسدية بين المجرمين والبشر العاديين، لكن فكرته عن التأسل الرجعي كسبب للجريمة ظهرت فجأة أثناء تشريحه لجثة لص مشهور بالإجرام، حيث وجد لومبروسو أن مواصفات جمجمته تشبه تلك التي لرئيسات أدنى (ماكاغي 1976، 14).

وقد وُصِف لومبروسو كواحد من أشهر علماء الجريمة ومؤسس مدرسة الإصلاحات الوضعية، التي طبقت المنهج العلمي لدراسة سبب السلوك (كلاين 1996، لينتيني 1981، سكارتزيني 1981، كول 1995). يذكر البروفسور ماكاغي أنّ أهميته في تحفيز الأبحاث حول المجرم لا يمكن إنكارها. أهم كُتُب لومبروسو هو (الإنسان الإجرامي)، الذي نُشِر لأول مرة في إيطاليا عام 1876، والذي قدّم فيه مذهبه حول التأسل الرجعي. كان يُنظر إلى المجرمين على أنهم أنواع مختلفة من البشر يمكن تمييزهم عن غير المجرمين من خلال سمات جسدية معينة. هذه السمات تساعد على تحديد الأشخاص الذين حادوا عن المخطط التطوري.

يُعد هؤلاء الأشخاص أقرب إلى القردة أو إلى البشر البدائيين الأوائل أكثر من الأفراد المعاصرين؛ إنهم يمثلون ارتداد (تأسل رجعي) إلى مرحلة مبكرة من التطور البشري (1976، 14).



مشهد في قاعة المحكمة قبل تبرئة ليزي بوردن المتهمة هي ومحاميها من قبل الحاكم السابق روبنسون 1893

في كتابه الإنسان الإجرامي، أدرج لومبروسو سلسلة طويلة من الحكايات لإثبات أنّ السلوك المعتاد لكافة الحيوانات كان جنائيًا وغير أخلاقي. من بين العديد من الأمثلة التي قدمها هي الحيوانات التي تتغلب على غريمها في موسم التزاوج من خلال "القتل"، والحيوانات التي قتلت بسبب (مثل الفِيَلَة "المجنونة")، وغيرها من الحيوانات التي ترتكب القتل الجماعي من خلال التدافع. واستخدم أيضًا "كدليل" مثال النمل الذي قتل الأفراد المتمردة وأكلهم "كعقوبة". جادل لومبروسو بأنّ ما تفعله النباتات آكلة الحشرات للحصول على الغذاء هو "ما يعادل الجريمة".

وبعد أن أثبت ما يشبع رغبته بأنّ الحيوانات "مجرمة" بمعاييرنا، شرع بعد ذلك في حجة تدعم الرأي القائل بإن البشر الذين ارتكبوا "جرائم" مماثلة، لا بدّ أنهم ارتدّوا مرة أخرى إلى سلالتهم الحيوانية (رافتر 1997). حتى أن اللغة المستخدمة من قبل المجرمين الرجعيين - كما قال لومبروسو - كانت مشابهة لتلك التي استخدمتها "القبائل

الهمجية"، وزعم أن العديد من المحاكاة الصوتية وتجسيد الأشياء غير الحية أظهر هذا التراجع. قال لومبروسو (1911، 225): "إنهم يتكلمون مثل الهمج لأنهم همج حقيقيون وسط حضارتنا الأوروبية الرائعة". لقد اعتقد بأنّ هذا الاستنتاج ليس مجرد فكرة ولكنّه إلهام. "بمجرد رؤيتي لجمجمة ذلك [المجرم]، بدا لي فجأة مشكلة طبيعة المجرم؛ وهي أنّه كائن رجعي استُعيدت في شخصيته الغرائز الوحشية للإنسان البدائي والحيوانات المتدنية. وهكذا تم الايضاح تشريحًا: الفكان الضخمان، وعظام الخدين المرتفعة، وأقواس الحاجبين البارزة، وخطوط المنفردة في راحة اليد، والحجم الكبير لمحجر العين، وأذنان على شكل مقابض - موجودة في المجرمين الهمجيين والقردة - وعدم الإحساس بالألم، والبصر الحاد، والأوشام، والكسل المفرط، وحب العربدة، والشغف الذي لا يقاوم بالشر في حد ذاته، والرغبة ليس فقط في موت الضحية، ولكن في التمثيل بجثتها، وتمزيق لحمها، وشرب دمها" (لومبروسو 1911، 14-15).

شرح باحثون آخرون مفهوم "الأخلاقي البدائية" من وجهة نظر علم النفس كالتالي: افترض غودارد بالاعتماد على التفسير التطوري للتراجع الأخلاقي الذي استخدمه علماء الأنثروبولوجيا الإجرامية من قبله أنّ الغرائز "البدائية" "هي التي تقود الطفل إلى أن يصبح ذا ميول عدوانية تنضج عند عمر التسع سنوات، الآن إذا قُبض على طفل وقت تطوره في الوقت الذي يصبح كاذبًا أو لصًا أو منحرف جنسيًا أو أي شيء آخر قد يكونه لأن تلك الغرائز قوية فيه. لو كان قد قبض عليه سنة أو سنتين مبكرًا أثناء تطوره، لم يكن ليصبح منحل أخلاقيًا" (رافتر 1997، 138).

الأهم من ذلك أنّه "لم تكن نظرية لومبروسو عملًا علميًا مجردًا. لقد أسس

وأشرف على قيادة مدرسة دولية لـ "الأنثروبولوجيا الجنائية" التي قادت واحدة من أكثر الحركات الاجتماعية تأثيراً في أواخر القرن التاسع عشر" (بابا 1983). وقد نظمت مدرسة لومبروسو "الإيجابية" أو "الجديدة" حملة قوية من أجل إجراء تغييرات في تطبيق القانون وممارسات العقوبات (غولد 1977، 225). صاغ لومبروسو كلمة "علم الجريمة" للإشارة إلى دراسة السلوك الغير شرعي. وبفضل جهوده بدأت الجامعات في تدريس علم الجريمة. كما استخدم لومبروسو وكثير من طلابه المتميزين علم الأحياء ليجادلوا بأنّ العقاب يجب أن يكون مناسبًا للمجرم وليس الجريمة. يذكر غولد المثال التالي: قد يقتل رجل عادي في لحظة من الغيرة الغاضبة. ما هو الغرض من الإعدام أو السجن مدى الحياة؟ فهو لا يحتاج إلى الإصلاح، لأن طبيعته جيدة، المجتمع لا يحتاج إلى حماية منه، لأنه لن ينتَهِك مرة أخرى. وقد يكون شخص مولود مجرمًا في قفص الاتهام لبعض الجرائم الصغيرة. ما هي الفائدة التي ستقدمها العقوبة القصيرة؟ بما أنه لا يمكن إعادة تأهيله، فإن العقوبة القصيرة تبعده فقط بعض الوقت عن جرمه التالي، وربما الأكثر خطورة.... دافع اللومبروسيون الأصليون عن المعاملة القاسية لـ "المجرمين بالولادة" (1996، 170-171).

اعتبر غولد أن "سوء تطبيق القياسات البشرية والنظرية التطورية هو أكثر مأساوية لأن نموذج لومبروسو البيولوجي كان باطلاً تمامًا ولأنه حوّل الكثير من الاهتمام من الأساس الاجتماعي للجريمة إلى أفكار خطأ حول النزعة الفطرية للمجرمين" (1996، 170-171).

قيمت مدرسة الأنثروبولوجيا الجنائية الرجعية العديد من السمات الجسدية البشرية، بما في ذلك الآذان، للعثور على أدلة على التأسل الرجعي. على سبيل المثال يصف بيل (1894، 262) آذانًا شكلت زاوية حادة تقريبًا في القمة، وتتناقض مع "المنحنى الرشيق

الذي يميز الأذن العادية". استنتج بيل أن شكل الأذن الحاد هذا هو شائع للغاية في أولئك المدنسين بالميول الإجرامية أو الذين يميلون إلى شذوذ من نوع ما. ثم أعطى بيل مثالاً على أذن "رديئة، زيادة غير محببة للرأس البشري [التي] تدل على عقل منحرف أو غير متطور. إنها علامة على التطور الموقوف أو المشوه" (ص 262). بعد وصف الأذن الجنائية، خلص المؤلف إلى أنّ "مثل هذه الآذان هي إشارة على فقر الغريزة الأخلاقية الموروث"، وبالتالي علينا "دراسة هذه اللافتات التي وضعتها الطبيعة ومن ثمّ إعداد أنفسنا بذكاء للعمل من أجل تطوير عرقنا" (ص 262). ويعني هذا الرأي أن أحكام السجن يجب أن تستند بشكل أكبر على نوع أذن المتهم أكثر من الجريمة المرتكبة، وللأسف فإن الجرائم غالباً ما تستند إلى المورفولوجيا (علم الأشكال) أكثر من السلوك.

## النساء والتأسل الرجعي والجريمة

جادلت كذلك نظرية المرأة والجريمة التي طورها لومبورسو بأن الجريمة النسائية تفسرها نظرية التأسل الرجعي الداروينية: استنتج سيزار لومبروسو (1835-1909) - وهو من أوائل علماء الجريمة الذين قاموا بالتنظير حول سبب ارتكاب النساء للجرائم - أنّ الأفراد يتطورون بشكل تفاضلي ضمن القيود الجنسية والعرقية. واقترح أن الجنس البشري تراوح هرميًا من الذكور البيض، الذين كانوا الأكثر تطورا، وصولًا إلى الإناث غير البيض. اعتقد لومبروسو أن النساء يتقاسمن العديد من الصفات مع الأطفال وأنهن يعانين من نقص أخلاقي. وعزا مشاركتهم الصغيرة نسبياً في الجريمة إلى افتقارهم إلى الذكاء (سيمون 1983، 1665).

زعم لومبروسو أنّه حتى البِغاء يمكن تفسيره بالتأسل الرجعي (لومبروسو،1996).

وبرر ذلك بأنّ سلوك البغايا - ذلك الذي يدفعهن إلى إظهار مفاتنهن - يعزى في المقام الأول إلى التأسل الرجعي. يرجع ذلك أيضًا إلى الذكورة الكامنة وراء النوع الجنائي الأنثوي، ما نبحث عنه في الأنثى هو الأنوثة، وعندما نجد العكس في ذلك نستنتج كقاعدة أنه يجب أن يكون هناك بعض الشذوذ. ولفهم المغزى والأصل الرجعي لهذا الشذوذ، علينا فقط أن نتذكر أن الذكورة كانت من السمات الخاصة بالمرأة المتوحشة. كانت المرأة البدائية نادراً ما تكون قاتلة، لكنها كانت دائماً عاهرة، وبقيت حتى العصور نصف الحضارية. ويوضح التأسل الرجعي مجددًا، لماذا يظهر على العاهرات عدد من الخصائص التراجعية أكبر من التي تظهر على الأنثوي الإجرامية (لومبروسو وفيريرو 1895، 111-112).

زعم لومبروسو وفيريرو أن النساء أقل تطورًا من الذكور، ومن هذه الفكرة جاء الرأي بأن النساء اللواتي يتصرفن مثل الحيوانات أو يظهرن فقط بمظهر "متوحش" هو دليل على أن هؤلاء النساء أقرب إلى أصولهن الحيوانية. وبالتالي، سيكون لديهم صفات شاذة أخرى تثبت تأسلهم الرجعي، مثل الفك الكبير وعظام الخد (لومبروسو وفيريرو 1895، 112، كلين 1996). فسرت نظرية التأسل الرجعي كذلك الندرة النسبية لوجود النوع الإجرامي النسوي اللواتي فطريًا "أقل ميلًا إلى الإجرام من الرجال"، بأنّ ذلك يرجع جزئيًا إلى كونهن "بطبيعتهم أقل شراسة من الرجال" (لومبروسو وفيريرو 1895، 110).

ثم جادل باحثون آخرون بأن النساء أكثر انخراطًا في بعض أنواع الجريمة من الذكور. على سبيل المثال وصف دابليو. أي. توماس النساء بأنّهن "يتمتعن بقدرات فائقة على البقاء على قيد الحياة، لأنهم في أسفل مقياس التطور" (كلين1996، 167).

كانت أفكار لومبروسو حول المرأة والجريمة مؤثرة للغاية في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، خاصة في إيطاليا وفرنسا وألمانيا (بلاند وادان 1998، بابا 1983، رينفيل 1994). كان لدى كثير من أتباعه أفكار مشابهة حول النساء والتأسل الرجعي.

بكلمات كلاين، كان الطريق من لومبروسو إلى رؤيتنا الحالية للمجرمين "مستقيماً بشكل مفاجئ" (1996، 162). أثر عمله على العديد من علماء الجريمة البارزين، بما في ذلك أحد أكثر تلاميذ لومبروسو شهرة، إنريكو فيري (1856-1929)، الذي كان كذلك تلميذاً لداروين (ويست2007، 51). ومن التلاميذ المشهورين الآخرين للومبروسو: يوجينيو فلوريان، وروبرتو أرديغو، وفيلفريدو باريتو، ودابليو. أي. توماس (الذي كتب عدة مجلدات هامة عن الإصلاحات في أوائل القرن العشرين) (سكارتزيني 1981، لينتيني 1981).

مدى انتشار نظرية التأسل الرجعي الوراثي للجريمة يظهر في إدّعاء فيكارت أنّ غالبية علماء تحسين النسل ينظرون إلى الإجرام - أو على الأقل الميل إلى الإجرام - كشرط وراثي، كما اقترح العديد من علماء تحسين النسل حبسًا دائمًا للمجرمين المعتادين الإجرام. على سبيل المثال، اعتبر ريبرت أن المجرمين المعتادين يجب أن يعاملوا مثل المرضى العقليين، وأن يضعوهم بشكل دائم في المصحات. وافق لوشان حيث أنّ "الجريمة في الغالبية العظمى من الحالات هي مرض وراثي" وبالتالي "لا ينبغي اعتبار المجرم [كذلك قال] مجرد مجنون خالص، غير مسؤول عن أفعاله المريضة". لكن عدم تحميل المجرمين مسئولية جرائمهم لم تكن تعني ضمناً أنه سيتم الإفراج عنهم. في الواقع، فإنّ مفهوم تحسين النسل الجديد حول السجن جعل "عقابهم" أسوأ من النظام القديم.

دعا لوشان إلى "العزلة الكاملة والمنفردة للمجرم"، بدلاً من النظام الحالي للحبس المؤقت ثم إطلاق سراحه، الأمر الذي سمح للمجرمين بإنجاب أطفال في فترات ما بين السجن. عبّر لوشان عن إيمانه بأن إجراءات تحسين النسل القوية ستقضي في النهاية على الجريمة من المجتمع (2003، 137).

كان الحل للومبروسوي الرئيسي للجريمة، وخاصة المجرمين بالولادة، هو إزالتهم بشكل دائم من المجتمع، مما يعني السجن المؤبد (ويست 2007، 52). الحل الثاني هو منع الأشخاص الرجعيين من التكاثر، كما هو واضح في أفكار ريبرت (كلاين 1996، 161).

## نهاية النظرية الجنائية الرجعية

كانت الدراسة المبكرة الأكثر شهرة للتقييم التجريبي للرجعية كعامل في التسبب في الجريمة هو أن تشارلز غورينغ (1919). في دراسته، التي اعتبرت بعد ذلك نموذجا للدقة العلمية والتقنية، قارن غورينغ بدقة حوالي 3000 من المدانين الإنجليز مع مجموعات كبيرة من الإنجليز الذين لم يكن لديهم سجلات جنائية. المدانين الذين درسهم كانوا جميعاً متعاقبون، وقد افترض لهذا السبب أن غالبيتهم كانوا من "النوع الإجرامي الكامل". كما أجرى غورينغ مقارنات مع طلاب الجامعات الجامعيين وضباط الجيش البريطاني والمرضى في المستشفيات.

ووجد أنه "لم يكن هناك مزيد من النتوءات أو الخصائص الأخرى للرأس بين السجناء أكثر من المهندسين الملكيين" (فولد 1958، 53). على الرغم من أن عمل غورينغ أدى إلى ضربة قوية لنظرية الرجعية والجريمة، فقد استغرق الأمر سنوات عديدة لإقناع أتباعه الكثيرين بأن النظرية غير صالحة. لا تزال الرجعية قائمة في قانون العقوبات

الأمريكي في آواخر الأربعينيات (بيك 1986). كما يلاحظ غولد، تراجع لومبروسو ببطء تحت الوابل المتزايد من النقد لنظريته. ومع ذلك لم يتخل أبدا (أو حتى عن تعرضه للخطر) لاستنتاجه بأن الجريمة تعد بيولوجية. بدلا من ذلك، هو:

مجرد توسيع نطاق الأسباب الفطرية. كانت نظريته الأصلية تتمتع بفضاء البساطة والأصالة اللافتة للانتباه - فالمجرمون هم من القردة بيننا، يتسمون بالسمات التشريحية للرجعية. أصبحت الإصدارات اللاحقة أكثر انتشارًا، ولكنها كذلك أكثر شمولاً. وظلت الرجعية سبباً بيولوجياً رئيساً للسلوك الإجرامي، لكن لومبروسو أضاف عدة فئات من الأمراض الخلقية والانحطاط: "نحن نرى في المجرم"، كتب (1887، 651)، "رجلًا متوحشًا، وفي الوقت ذاته، رجلًا مريضًا". في السنوات الأخيرة، منح لومبروسو أهمية خاصة للصرع كدليل على الإجرام. وذكر في النهاية أن كل "مجرم مولود" يعاني تقريباً من الصرع إلى حد ما. لا يمكن حساب العبء الإضافي الذي فرضته نظرية لومبروسو على آلاف الحالات المصابة بالصرع، فقد أصبحوا هدفا رئيسًا لمخططات تحسين النسل في جزء منها لأن لومبروسو قد شرح مرضهم كعلامة على الانحلال الأخلاقي (1996، 164).

لم تكن الأدلة التجريبية ضد النظرية، والتناقضات اليومية لها، وحتى الافتقار إلى الأدلة هي الأسباب الوحيدة وراء السقوط النهائي للنظرية (موران 1978). وكان هناك سبب آخر هو أنه على الرغم من أن العديد من الباحثين وعلماء الجريمة أدركوا أن الفكرة الرجعية تشوبها عيوب قاتلة، فقد نظر العديد منهم إلى فرضيات بيولوجية جديدة لشرح الجريمة. ونتيجة لذلك، كانت النظريات الأخرى التي ضمت المجرمين مختلفة جسديًا عن

غير المجرمين، مثل نظريات شيلدون وآخرون. (1940)، وجاء لاحقاً في رواج.

السؤال الهام هو: "كيف أتت نظرية الارتداد لاتخاذ هذا المكان البارز في التصحيحات، كاملة مع أمثلة أقنعت العديد من المحترفين بصحة النظرية؟"

1. بمجرد إنشاء الاعتقاد، يمكن أن يجد مؤيدوه دعمًا له في كثير من الأحيان إذا ما نظروا لفترة طويلة وصعبة بما فيه الكفاية (جولد1996، 1976). في البحث عن السكان "المجرمين"، يمكن للمرء في كثير من الأحيان تحديد ما يبدو أنه أمثلة جيدة للمجرمين الذين لديهم خصائص الجسد "مثل القردة". ما لم يُستخدم مجموعة مقارنة من غير المجرمين، يمكن اكتساب رؤية محدودة فقط من خلال هذه التقنية. كانت العديد من الأمثلة على الأشخاص الذين أيدوا أن النظرية موجودة بين السكان الإجراميين، وكان من المفترض بدون بيانات أن الأمثلة المماثلة لم تكن موجودة (أو نادراً ما كانت موجودة) في السكان غير المجرمين. لاحظ توبنارد أن لومبروسو لم يقل: "ها هي حقيقة تقترح تحريضًا... [بالأحرى] استنتاجه هو مقدما، يسعى لإثبات، يدافع عن أطروحته كمدافع ينتهي به الأمر بإقناع نفسه... [لومبروسو] مقتنع للغاية "(1887، 676).

2. في بعض الأحيان، يكون احتمال مشاركة بعض الجنسيات أو الأجناس في الجريمة بسبب بيئتهم الاجتماعية أو تمييزهم أو أسباب أخرى. وتشمل هذه الأجناس بعض الخصائص التي كان من المفترض أن تكون نموذجية لشخص تافه. في أمريكا، كان البروتستانتيون الأنغلوساكسونيون البيض أقل شيوعا بين السكان المجرمين المدانين مقارنة بالأفراد الذين كانوا أعضاء في مجموعات الأقليات مثل السود والأرمن وغيرهم بسبب هذه الأسباب. قد يفسر هذا التفسير الكثير من الأمثلة الرجعية المزعومة، تماماً كما

قد يفسر الآن العدد غير المتناسب من السود في السجون الأمريكية (كلاين 1996).

3. بسبب المرض والمشكلات الصحية والفقر، وما إلى ذلك، قد يضع بعض الأفراد سمات مشابهة للأفراد الرجعيين. هذه السمات بدورها قد تزيد من صعوبة شغل وظيفة أو حتى تحقيق القبول الاجتماعي. ونتيجة لهذه العوامل، أصبح من الأصعب على هؤلاء الأشخاص أن ينخرطوا داخل قوانين المجتمع. قد يكونوا أكثر عرضة لإشراك أنفسهم في السلوك الإجرامي (ناشسون1985 ).

يوثق لينديسميث وليفين أن نظرية الداروينية عن الجريمة سرعان ما انتشرت إلى النخبة المختصة بالجريمة نتيجة لعدد من العوامل:

تسببت في قبول لومبوسيانون [نظريات الرجعية والتي شرحت من قبل عالم الجريمة الشهير سيزارو لومبرسو] كتطور منطقي للاتجاهات القائمة بالفعل في العلوم الاجتماعية. وكان من أهم هذه العوامل انتشار الداروينية. بعد نشر داروين للأصل في عام 1859، لم تقتصر المفاهيم الداروينية على العلوم البيولوجية فحسب، بل طُبقت كذلك بطريقة الجريمة في العلوم الاجتماعية - في الأنثروبولوجيا والعلوم السياسية وعلم الاجتماع (1937، 667).

يضيف ليندسميث وليفين أن أفكار لومبروسو، على الرغم من أنها ليست أصلية، ولكنها كانت جذابة لـ:

أولئك الذين انشغلوا بالداروينية وتطبيقها على مجالات فكرية أخرى. في العام ذاته الذي ظهر فيه أصل الأنواع، أُسس مجتمع أنثروبولوجيا في باريس، وشهدت العقود القادمة تنمية كبيرة للاهتمام في هذا المجال.... بشكل عام، قد يقال إن زيادة الهيبة في

العلوم الطبيعية وخاصة البيولوجيا أدت إلى بداية سلسلة من الواردات من واحد أو آخر من هذه المجالات إلى مجال العلوم الاجتماعية. يمثل اللومبرونيسم أول استيراد رئيس لهذه الشخصية في علم الإجرام (1937، 667-668).

كما يشير لينديسميث وليفين إلى أن تاريخ العلم يشمل فترات حيث "غالباً ما تمارس الخرافة والأزياء والظروف الاجتماعية تأثيراً لا علاقة له بسلامة النظريات أو بآثار الأدلة المتراكمة" (ص 671). وبالإشارة بالتحديد إلى النظريات اللومبروسية (لا سيما في الرجعية)، فإنهم يضيفون أن القبول الواسع النطاق لنظرية الجريمة في الومباروسية يمثل تراجعاً في مجال:

علم الجريمة بدلًا من الخطوة المقدمة. ربما يكون أفضل تفسير لظلم العمل السابق هو نتيجة لتغيير القيم المرموقة المرتبطة بالداروينية الاجتماعية في العلوم الاجتماعية، مع تزايد الشعبية في آواخر القرن التاسع عشر، من الأمراض النفسية وغير ذلك من الأفراد أو النظريات البيولوجية، وعزل علم الجريمة الأمريكية عن التطورات الأوروبية السابقة (ص 653).

بالإضافة إلى ذلك استنتج لينديسميث وليفين إلى أن انشغال اللومبروسيين بالداروينية وإيمانهم بأن أسباب الجريمة وجدت في بيولوجيا المجرم بدلاً من ذلك:

مما أدى به في علاقاته مع الآخرين إلى إخفاقهم في تقدير أهمية نوع البحث التاريخي الذي قام به أفي لاتيمنت وغيرهم. ما فعله لومبروسو هو عكس طريقة التفسير التي كانت موجودة منذ زمن جيري وكيتيليت، وبدلاً من الإبقاء على أن المؤسسات والتقاليد تحدد طبيعة المجرم، اعتبر أن طبيعة المجرم تحدد طبيعة المؤسسات والتقاليد (ص 661).

كما ينبغي التأكيد على أنه على الرغم من أن نظريات سببية الجريمة كانت شائعة

للغاية، لكنها تعرضت لانتقادات حادة من قبل البعض في أيامه. وقد أدرك عدد من علماء الأحياء في القرن التاسع عشر العنصرية المتأصلة في الداروينية، وميزوا فيها النظرية التي تقود العلم. وأدرك آخرون أن الأدلة التي استندت عليها الرجعية كانت ضعيفة أو حتى قريبة من عدم وجودها. وبالتالي لاحظ غولد أن نظرية لومبروسو الرجعية:

تسببت في إثارة كبيرة وأثارت واحدة من أكثر المناقشات العلمية سخونة في القرن التاسع عشر. لومبروسو، على الرغم من أنه أفرط في عمله بأعداد كبيرة من الأرقام، فإنه لم يقم بالاعترافات المعتادة للموضوعية الباردة. حتى هؤلاء الزعماء القدامى، تلاميذ بول بروكا، انتقدوا لومبروسو لموقفه المحامي، وليس العلمي (1996، 162).

على الرغم من أن المؤلفين اللومباروسيين قاموا فيما بعد بتعديل نظريتهم للسماح بتأثير العوامل الاجتماعية (حتى في حالة المجرمين الرجعيين تمامًا)، لكن قبلت النظرية من قبل العديد من الأشخاص لفترة طويلة بعد أن ثبت خطأها - وما زالت مقبولة من قِبل البعض اليوم (غيليريني1999،لوينتون1999؛ كابلن وآخرون1998؛ غيدينز1991؛ ناشسون1985؛ فاسيوليني1976 ؛ بورمان 1994 ). استنتج كلاين، مستشهداً بالعديد من الأمثلة، أن أفكار لومبروسو وتوماس وغيرهم من هذه المدرسة ما زالت تؤثر في نظريات الجريمة المعاصرة (1996، 175).

## التلخيص والاستنتاجات

وعلى الرغم من أن الرجعية كانت تعد عادةً كدليل رئيس على التطور، لكن الموضوع اليوم يعد "فترة مظلمة" في علم الجريمة (1986). على الرغم من أن العديد من أعمال القاضي لومبروسو "انحراف غريب"، فإن استنتاجاته تبعت منطقياً من الداروينية

وفلسفة الوضعيين في آواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين (بيك 1986). على غرار الأعضاء الأثرية، والعودة الجنينية، والأعضاء الناشئة، فإن المفهوم الكامل للرجعية هو إحراج للعلم البيولوجي اليوم. تقريبا تعد كافة الشروط المعروفة سابقا "بالرجعية" الآن أُدرجت على أنها تنتمي إلى مجال الطب.

الرجعية هي فصل آخر محرج في تاريخ الداروينية، والذي رغم دحضه، ما زال جزءًا كبيرًا من ثقافتنا، وما زالت "ثماره المرة" تصيب مجتمعنا (رافتر 1997؛ روزنبرغ 1974). ووثق هيكس أنه حتى فكرة جنون لومبروسو الإجرامية ما زالت مقبولة على نطاق واسع في ثقافتنا وفي أذهان منفذي القانون. وتشمل الأمثلة التي يعطيها الصورة النمطية غير الصحيحة للسطو على أنه شخص لديه "بروز للفك السفلي، وكسر في الأنف، وجبهة منخفضة، وغير مشرق" (هيكس 1986، 130-156). ويضيف هيكس أنه عندما يكون ضابط شرطة في التدريب، وطلاب الدراسات العليا في علم الإنسان، قام محققون من توكسون، أريزونا بدعوتهم:

لمشاهدة شريط فيديو جديد عن إجراء المقابلات والاستجوابات.... إن ردة فعلي على الشريط - الذي لم يشاركه رفاقي - انتقلت من الاهتمام إلى الكفر، فراقبت محقق الجيش يشرح كيف يمكن للمرء أن يحدد الأنواع الإجرامية من خلال بنية عظام الخد، والمسافة بين العينين، ودرجة نمو الحاجب، وتكوين الأنف، كل ذلك يتضح من الرسوم البيانية الكبيرة التي تصور الوجوه الجنائية النموذجية. أذكر أن الحواجب التي لا تفصل ولكنها تمثّل تواصلًا أكثر أو أقل شعرًا من أحد مقابس العين إلى السلالات الشائنة. (لدي واجب، وأنا أشعر بالخجل بأن أقول أنها مرتبطة)... وردود فعل رفاقي، الذين لم

يسمعوا مطلقًا عن لومبروسو؟ لقد أعجبت مديري. أراد قائد المباحث نسخة من الشريط. و مصلحة الضرائب والجيش — أنا ارتجف (1986، 130-156).

كانت علاقة علم الإجرام بالداروينية معقدة وذهبت إلى ما وراء الرجعية:

اقترحت العديد من نتائج العلوم الطبيعية أن التطور يعد هدف، وهدفه هو حضارة أرقى من أي وقت مضى. إذا كان هذا صحيحًا، فيعني ذلك أنه يجب أن يكون المجرم بدائيًا، وهو احتجاز من مرحلة تطورية سابقة. يبدو أن بعض أقوال داروين تعني التكيف مع التقدم. في الصفحات الأخيرة من أصل الأنواع، أعترض على " حرب الطبيعة... أكثر الأشياء تعجباً التي نحن قادرون على تصورها، يتبع إنتاج الحيوانات الأعلى مباشرة." في كتاب أصل الإنسان (1871)، الذي طبّق فيه داروين نظريته في التطور على وجه التحديد للبشر، ويجادل فيه أن كليات الإنسان الفكرية والأخلاقية هي "موروثة "و" متقنة أو مقدمة من خلال الانتقاء الطبيعي ". مع الطبيعة ذاتها التي تسعى جاهدة لدفع الحضارة، ينبغي على الدول التقدمية بالتأكيد أن تساعد علي ذلك من خلال التخلص من المجرمين المولودين (رافتر 1997، 127).

لا تزال النظرية تنعكس بشكل مأساوي في النظريات الحديثة المتعلقة بالتصميم البيولوجي (ناشسون1985 ؛ ميكال1995 ؛ شوتويل1998؛روزينبرج1975) وحتى في بعض مدارس "علم الجريمة النسوية" (براون1986؛ كلين1996؛ فاسيولي1976).

إن نظرية الرجعية هي مثال مأساوي على ميل العلوم السلوكية إلى تطبيق نظرية الداروينية بطريقة غير مقصودة. على الرغم من افتقار نظرية الرجعية إلى الدعم التجريبي، لكنها كانت لا تزال مقبولة بشكل غير مادي لعقود، وكانت تستخدم في

بناء النظرية من قبل علماء الجريمة وغيرهم. وكان السبب الرئيسي لقبولها هو أنها اعتمدت بشكل كبير على الافتراض بأن التجريبية قد ثبتت تجريبياً. وجزء من هذه المأساة هو الضرر الذي تسببت به هذه النظرية للتقدم العلمي عن طريق إساءة توجيه طاقة كبيرة إلى طريق مسدود غير منتج.

إن المأساة الأكبر هي حقيقة أن النظرية ربما أثرت على الإدانة الجنائية من قبل آلاف الضحايا الأبرياء. في الختام تنطبق كلمات ماكبث بشكل خاص على الرجعية: "عندما انطلق الحماس الأول [من التطور] وصدر مشروع القانون الخاص بالتعويضات، أدرك عالم الأحياء أن الأمور قد ذهبت أبعد من اللازم. كان هناك علم سيئ بالإضافة إلى علم الاجتماع السيئ... "(1971، 57). لسوء الحظ، جاء هذا متأخراً للغاية لآلاف الضحايا الذين تعرضوا للسجن والإعدام غير العادل، ويرجع ذلك جزئياً إلى نظرية الجريمة التي تستند إلى الداروينية في القرن التاسع عشر.



## المراجع

هاري إلمير بارنيز، المحرر. 1948. مقدمة لتاريخ الاشتراكية. شيكاغو، إلينوي: مطبعة جامعة شيكاغو.

إدجربيل، 1894. "الآذان الإجرامية." مجلة فرينولوجيكال نوفمبر 98 (5): 262-3.

لوسيبلاند، ولورا دون. 1998. علم الجنس غير الخاضع للرقابة. شيكاغو، إلينوي: مطبعة جامعة شيكاغو.

بيفرليبراون، 1986. "المرأة والجريمة: الأرقام المظلمة لعلم الجريمة". الاقتصاد والمجتمع 15 (3): 355-402.

إريكابورمان، 1994. استعراض "معاداة السامية وكره النساء وعدوانية الاختلاف الثقافي: سيزاري لومبيروزو وماتيلد ساراو" لنانسي هورويتز.مراجعة النسويات 53: 111-113.

جورج أف كول، 1995. العدل الجنائي الطبعة السابعة. نيويورك: شركة وادزورث للنشر.

تشارليزداروين، 1871. أصل الإنسان. نيويورك: طبعة المكتبة الحديثة.

---------. 1881. أصل الإنسان. لندن: جون موراي. أعيد طبعه 1896 من قبل دي. ابلتون وشركاه نيويورك.

فرانسافاسيولي، 1976. "الإجرام اليوم (الجزء الأول)."نقد - علم الاجتماع 37: 6-16.

مايكل باتريك غيغليري، 1999. الجانب المظلم في الرجل: تتبع أصول عنف الذكور. قراءة، بنسلفانيا: فرساوس. قراءة، بنسلفانيا.

أنتوني غيدنز،1991. مدخل إلى علم الاجتماع. نيويورك: دبليو. نورتون.

تشارلز بكمان غورينغ، 1919. المدان الإنجليزي: دراسة إحصائية. لندن: مكتب

صاحب الجلالة.

ستيفن جيجولد، 1976. "إحياء رجل إجرامي". التاريخ الطبيعي 85 (3): 16-18.

---------.1977. "المجرم كخطأ في الطبيعة" في أي وقت منذ داروين. نيويورك: دبليو. نورتون وشركاه.

---------.1996. سوء التدبير للإنسان. نيويورك: دبليو. نورتون وشركاه.

نانسي أنّ هارويتز، 1994. معاداة السامية وكراهية النساء ومنطق الاختلاف الثقافي: سيزاري لومبروزو وماتيلد سيرو. لينكولن، نبراسكا: مطبعة جامعة نبراسكا.

روبرت دي هايكس، 1986. "الحواجب الجنائية". الأمة 237 (8): 130، 156.

كارينا فيكابلان، وميريام أي. فيلدفايبر. 1998. بناء الذاتيات في ظل السياسات التعليمية للانتقائية الاجتماعية: منطق الميريتوقراطية. ورقة قدمت في الجمعية الدولية لعلم الاجتماع.

دوريكلين، 1996. "مسببات الجريمة الأنثوية،" في وجهات نظر علم الجريمة؛ قارئ. حرره جون مونكي ويوجين ماكلولين وماري لانجان. ألف السنديان، كاليفورنيا: ساج للنشر، صفحة 160- 182.

هانزكوريلا، 1910. سيزاري لومبروزو، رجل العلم الحديث. ترجمت من الألمانية من قبل إيدن بول. نيويورك: ريمان.

أورنالدولينتيني، 1981. "العضوية والعمل الاجتماعي من اردیجو إلى باريتو". كواديرني - دي - سيجيوليكا 29 (2): 192-215.

روجر لوين، 1987. عظام المنافسة. نيويورك: سايمون وشوستر.

آر. سي لوينتون، 1999. "المشكلة مع إجابة تطورية". مراجعة "الجانب المظلم من الرجل: تتبع أصول العنف الذكوري" بقلم مايكل باتريك غيغليري. الطبيعة 400: 728 -729.

أيه. وليفين ليندسميث، واي. 1937." لغز اللومبروسون في علم الجريمة." المجلة الأمريكية لعلم الاجتماع 42: 653 - 71.

سيزار لومبروسو، 1887. جريمة الرجل. باريس: أف. الكان.

----------. وويليام فيريرو. 1895. الجاني الأنثوي. لندن: تي فيشر أونوين. أعيد طبعه من قبل روثمان، ليتلتون، شركاه، 1980.

----------.1911. الجريمة وأسبابها وسبل الانتصاف. بوسطن، ماساتشوستس: ليتل براون.

----------. 1996. "النوع الجنائي في النساء وأصله الرجعي،" في وجهات نظر علم الجريمة: القارئ. ألف السنديان، كاليفورنيا: سيج للنشر.

فيريرو، لومبروسو - جينا. 1991. رجل إجرام، وفقا لتصنيف سيزار لومبروزو، يلخص باختصار من قبل ابنته جينا لومبروزو فيريرو، مع مقدمة من سيزاري لومبيروزو، موضحة. نيويورك: جي. بي. بوتنام.

تشارليز ليل، 1863.العصور القديمة للإنسان. لندن: جون موراي.

نورمان. ماكبيث، 1971. إعادة محاكمة داروين. نيويورك: الناشرون ديل.

تشارلز. ماكاجي، 1976. السلوك المنحرف. نيويورك: ماكميلان.

ماركمايكل، 1995. استعراض "معاداة السامية، كراهية النساء، ومنطق الفوارق

الثقافية: سيزار لومبراسو وماتيلد ساراو" لنانسي هورويتز. الحداثة / المعاصرة 2 (3): 185-186.

ريتشارد موران، 1978. "البحث الطبي الحيوي وسياسة مكافحة الجريمة: منظور تاريخي." أزمات معاصرة 2 (3): 335-557.

هنري موريس، 1974. المياه المضطربة للتطور. سان دييغو، كاليفورنيا: الناشرون كرياشون لايف.

ناشسون، إسرائيل. 1985. "الجوانب العصبية النفسية للسلوك العنيف: وظيفة نصف الكرة الأرضية". الجريمة والانحراف الاجتماعي 13: 37-64.

ويليام نويس، 1888. "النوع الجنائي." مجلة العلوم الاجتماعية، أبريل، 24: 32—34.

بال. اس. بي. 1918. "الإنعدام: انتكاسة الرجعية". مجلة العلوم العقلية 64 (266): 268 - 71.

إيميليو أر بابا، 1983. "العلوم الاجتماعية، الوضعية، والمشاركة السياسية في النقاش الأوروبي في المدرسة الإيطالية للأنثروبولوجيا الجنائية (1876-1900)." النقد — الاجتماعي 67: 90-113.

ويليام أتش بيتيت، 1942. "التطور" في البدع المكشوف، حرره وليام ايرفين. نيويورك: لويزو براذرز.

دانيال بيك، 1986. "وجوه الفوضى: لومباروسو وسياسة العلوم الجنائية في إيطاليا بعد التوحيد". ورشة عمل التاريخ 21: 60-86.

نيكول هان رافتر، 1997. إنشاء ولادة المجرمين. شيكاغو، إلينوي: مطبعة جامعة إلينوي.

مـارك رينيفيـل، 1994. "الأنثروبولوجيـا الجنائيـة في فرنسـا." علـم الجريمـة 27 (2): 185-209.

---------.1995. "النظريات البيولوجية للسلوك الجنائي." (علوم الطب) 11 (12): 1720-1724.

إيان روبرتسون، 1981. علم الاجتماع. نيويورك: الناشرون ورث.

تشارلز إي روزينبرج، 1974. "الفاكهة المرة: الوراثة، المرض، والفكر الاجتماعي في أمريكا القرن التاسع عشر. "وجهات نظر في التاريخ الأمريكي 8: 189-235.

روبرت روثنبيرج، 1975. الكتاب الكامل لرعاية الثدي. نيويورك: كراون للنشر.

ريكـاردو سكارتزيني، 1981. "البحـث في آواخـر القرن التاسـع عشـر: الصعاليك لفلورين وكافاجليري."

كوادريني - دي - سوسيولوجيكا 29 (2): 216-235.

دبليـو. أتـش شيلدون، ، أس. أس. ستيفنز، ودبليـو. بي. تـوكير. 1940. أصناف الجسم البشري. نيويورك: هاربر ورو.

ديفيد آيه شوتويل، 1998. "نظرة على الجنوح". العقلاني الأمريكي 43 (3): 10-11.

دوناتيـل سـيمون، 1990. "أصـول علـم الـنفس الجمـاعي في فرنسـا وإيطاليـا: مشكلات علم الاجتماع القضائي والجنائي". دراسة علم الاجتماع 28 (4): 507-517.

ريتا جيمس سيمون، 1983. "المرأة والجريمة"، في موسوعة الجريمة والعدالة، حرره سانفورد كاديش. نيويورك: مطبعة ماكميلان وفري، صفحة 1664- 1669.

إيان تـايلور، بولوالتون، وجـاك يـونج. 1973. علـم الجريمة الجديـد. لنـدن: روتلدج

وكيجان بول.

بول توبينارد، 1887. "الأنثروبولوجيا الجنائية." مراجعة الأنثروبولوجيا. السلسلة الثالثة 2: 658: 691.

جورج فولد، 1958. علم الجريمة النظري. نيويورك: مطبعة جامعة أكسفورد.

بول ويثرواكس، 1909. علم الأحياء النباتية. نيويورك: شركة ماكميلان.

ريتشارد ويكارت، 2003. من داروين إلى هتلر: الأخلاقيات التطورية، علم تحسين النسل، والعنصرية في ألمانيا. نيويورك: بالجريف ماكميلان.

جون جي ويست،. 2007. يوم داروين في أمريكا: كيف تم تجريد السياسة والثقافة من إنسانيتها باسم العلم. ويلمنجتون، ولاية ديلاوير: إيسي للكتب.

ريتشارد أف ويتزل، 2000. اختراع الجنائية: تاريخ علم الجريمة الألماني، 1880-1945. تشابل هيل، كارولاينا الشمالية: مطبعة جامعة كارولينا الشمالية.

مارفين يوجين وولفغانغ، 1961. "الرواد في علم الجريمة: سيزاري لومبيروزو (1835-1909)". مجلة القانون الجنائي وعلم الجريمة 52 (4): 361-391.



# الفصل السابع عشر

## الداروينية والمحرقة الشاملة في القرن العشرين

### مقدمة

قبول الداروينية وفقدان التأثير المسيحي الأساسي في المجتمع كانا عاملين رئيسيين في ظهور النازية والفاشية والشيوعية والرأسمالية الوحشية (انظر أزار 1990، برغمان 1999، برغمان 2001). تسببت هذه الحركات في العديد من الحروب والصراعات والمذابح والتي أدت إلى وفاة مئات الملايين من الأشخاص. كتب البروفيسور أزار أن كافة "الأيدلوجيات الشريرة في النصف الأول من القرن العشرين - الشيوعية والفاشية والنازية - يعود الفضل في حدوثها إلى التطور" (1990،218).

من الصعب أن نفترض كيف كان التاريخ سيختلف لو لم تحدث الثورة الداروينية مطلقًا، ولكن تُشير الأدلة إلى أنّه لو كان ماركس وستالين وهتلر وماو تسي - تونج وغيرهم من القادة الاستبداديين قد آمنوا (وعملوا بـ) نظرية الخلق المسيحية[1] ونظرتها للعالم، لما كانوا قد قبلوا بالإلحاد والمادية والاستبداد أو أثّروا في المذابح التي سيطرت على القرن العشرين. وخلص روميل في دراسته المكونة من ثلاثة مجلدات عن القتل الجماعي في القرن الماضي، إلى أن ستالين وهتلر وماو تسي - تونج كانوا على رأس القائمة بهذا الترتيب (2008، 8).

تُشير الأدلة التاريخية إلى أنّه قبل التحول إلى الداروينية، قبل كل من ماركس وستالين وهتلر وماو تسي - تونج ماجاء في المسيحية من أن كافة البشر أخوة لأنهم

(1) جدير بالذكر أن حقيقة خلق الله لآدم ليست مرتبطة بالنصرانية فحسب ، بل جاءت بها جميع الديانات السماوية .(الناشر)

جميعًا من نسل آدم وحواء (ميدفيديف 1989). إن كانوا قد استمروا في اعتناق الخلق المسيحي، لما أصبحوا قادة للحركات الاستبدادية المعادية للمسيحية التي عارضت المسيحية [وجميع الأديان] أيدولوجيًا. ولهذه الأسباب، فمن المرجح أن الداروينية كانت عاملًا مهمًا في وفاة ما يقدر بأكثر من 250 مليون شخص والمعاناة الهائلة التي لحقت بأكثر من مليار شخص. يمكن تقدير التأثير المأساوي الذي قام به هؤلاء الداروينون في تاريخ العالم من خلال مراجعة عدد الوفيات لحركتين فقط، الإبادة الألمانية والشيوعية. وقد استُخدمت الداروينية لتوفير الدعم الفكري لمجموعة كبيرة من السياسات القاسية والوحشية. تتضمن الأمور التي بررتها الداروينية الإجتماعية على سبيل المثال لا الحصر: العبودية، والإمبريالية، والعنصرية، والإبادة الجماعية، والمحرقة، والفاشية، والشيويعة، والحروب، وعدم مساعدة الفقراء. حيث لم يكن هناك في الماضي مبرر فكري واضح لغالبية هذه الأسباب، فقد قام داروين بتقديم مبرر، وقد دعم مبرره العديد من العلماء ذوي السمعة الطيبة في عصره. بين المؤرخين الذين ليس لديهم قوة للقطع بأن هذا الأمر غير مثير للجدل – على الرغم من أنه لا يُعبَّر عنه مباشرةً إلا نادرًا – أنّه يجب أن يُدرج داروين كأحد المسؤولين، إلى جانب العديد من النازيين عن المحرقة (هولدن 2000، 2-3).

إن الاعتراض الشائع على الاستنتاج بأن الداروينية لها تأثير مهم على الإبادة النازية والشيوعية يكمن في حقيقة أن داروين، بقدر ما نعرف، كان زوجًا وأبًا صالحًا ومعارضًا للعبودية ولم يُعارض ديانته علانية أبدًا. الحقيقة هي أن "داروين كان أول دارويني اجتماعي" والحجة القائلة بإنك "لا تستطيع لومه على الإبادة" لأنه "كشخص لم يكن ذلك الشخص السيء" غير صحيح لأنه "ما لم تدّعِ أن داروين كان رجلًا غبيًا للغاية

(وهو رأي لا أوافق عليه بالتأكيد)، فقد كان عليه معرفة استخدام نظريته التي سيطرحها. كما أن صفات داروين الشخصية ليس لها صلة بالأمر" (هولدين 2000، 4).

فالعديد من الطغاة الساديين القساة لديهم صفاتهم الجيدة. أحب هتلر الحيوانات، وخاصة كلبه بلوندي، وربما كان لطيفًا للغاية مع زوجته وأطفاله وبعض أصدقائه. وبالتالي، فإن إعفاء داروين من جرائم الداروينية الاجتماعية الأخرى لا يختلف عن د.فرانكشتاين الذي يدّعي أنّ القتل الذي ارتكبه الوحش الذي طوره لم يكن له علاقة به (هولدن 2000، 4). كما استنتج هولدن أن داروين توقّع "بوضوح" الاستخدامات التي ستطبق بناءً على نظريته، وأنّ داروين كان عنصريًا يعرف تمامًا "الاستخدام السئ" المزعوم لنظريته، وبالفعل نتج عن نظريته الكثير من المعاناة (السؤال الوحيد هو ما مقدار ما يمكن أن ننسبه إليه؟ وهو ما لا يمكن تحديده تاريخيًا بدقة) وعلى الرغم من تحفظي على استخدام المصطلح، فالبحكم على أثره التاريخي، يبدو لي أنه من المعقول أن نطلق على الداروينية أنّها شريرة. وخاصة أن النظرية هي مبدئية في الأساس ولا يمكنها - كما زُعِم - أن تفسر أصل الأنواع. لو كانت النظرية صحيحة، لكان من الصعب انتقادها، لأن أي محاولة لفرض الرقابة على العلم أمر خاطئ، وإن كانت تلك هي طريقة الكون، فعلينا فقط الاعتياد عليها (هولدن 2000، 4).

على الرغم من أنّ هدف داروين من تطوير نظرته التطورية للعالم كان واضحًا للغاية من كتاباته، لكن نادرًا ما كان يتحدّى الكتاب المقدس أو المسيحية[1] علانية أو بشكل مباشر لأنه كان يرى أن النهج الغير مباشر أكثر فاعلية (بيرلوف 1999، 152). في

(1) إذ كان داروين نصرانيًا قبل أن يتحول إلى المادية .(الناشر)

1873، كتب لابنه أن معارضة المسيحية علانية أقل فعالية بكثير من نهج "الباب الخلفي": "في الليلة الماضية تحدث كل من ديزي وليتشفيلد عن أنّ "جيه. ستيورات ميل" لم يُعبر مطلقًا عن قناعاته الدينية، حيث حثه والده على ذلك. اتفق كلاهما على أنّه لو فعل ذلك، لما كان له التأثير الذي قام به في العصر الحالي. فأضعف الإيمان، ما كانت كتبه لتكون مراجع علمية في أكسفورد. ليل مقتنع بشدة أنه زعزع الإيمان بعدم قوله أي شئ ضد الإنجيل، أكثر مما لو كان قد تصرف عكس ذلك. لقد قرأت مؤخرًا قصة حياة فولتير لمورلي ويصر بشدة على أن الهجمات المباشرة على المسيحية (حتى عندما كتبت بالقوة والنشاط الرائعين لفولتير) أحدثت تأثير أقل دوامًا؛ يبدو أن الجيد الحقيقي يتبع فقط الهجمات الجانبية البطيئة والصامتة (مقتبس من هيميلفارب 1962، 378).

## الداروينية والحرب العالمية الأولى

تعد الاسهامات الهامة للداورينية في التسبب في الحرب العالمية الأولى أقل شهرة. على قائمة الأسباب "الكبرى"، "الداروينية الإجتماعية" جزئيًا لأنّ "الداروينية الإجتماعية حثت الإمبريالية، والتي بدورها سوغت توسع الجيوش والقوات البحرية" (هاميلتون وهيرويغ 2003، 16). بين 1870 و1880، انتشرت فلسفة الداروينية في كافة أنحاء العالم الغربي، "حيث كان لها تأثيرًا كبيرًا، قبل الوصول إلى ذروتها في النظريات العنصرية المتطرفة للاشتراكية القومية (النازية)" (ويلير 1985، 179).

أحد الأمثلة العديدة في مطلع القرن على المؤلفات الضخمة المكرسة لتعميم الداروينية الإجتماعية هو ما كُتِب عام 1913 بواسطة الجنرال بيرناردي بعنوان من حروب اليوم. شرح هذا الكتاب فرضية أن الحرب كانت ضرورة بيولوجية لأنها ساعدت

على تخليص العالم من المتدنيين.

هذه النظرة للحرب "لم تكن محصورة على الجماعات المتطرفة، بل على العكس حصلت على قبول واسع خاصة بين الصحفيين والأكاديميين والسياسيين" في ألمانيا (كار 1979، 217).




**معسكر الموت النازي الألماني في أوشفيتز، بولندا. عند وصول اليهود المجريين في صيف 1944.**

كانت هذه الآراء مهيمنة على أعلى المستويات في الحكومة الألمانية وبين المفكرين. عند اندلاع الحرب العالمية الأولى، شارك المستشار الألماني، بيتمان – هولويغ، الإعتقاد الشائع بأن الصراع بين الأجناس العليا والدنيا كان أمرًا حتميًا (كارر 1979، 216– 219). في 1912، أشار العاهل الألماني كداروييني إلى الحرب العالمية

الأولى على أنها "حرب عنصرية انتقائية" ضد العبيد والأجناس "الدنيا" الأخرى (كيلوغ 1917). ويذكر هولدن أن الموقف المنتشر والرضا بأن الحرب كانت حتمية وطبيعية ومفيدة في التخلص من الأجناس الدنيا أُدرِج بشكل عام كأحد الأسباب العديدة للحرب العالمية الأولى من قبل مؤلفين حريضين. لقد فزع الأمريكي، العقيد هاوس، من موقف الرضا عن الذات والقتل الذي رأه عندما زار أوروبا في 1913، والذي كان إلى حد كبير نتيجة خطأ كتابات داروين.

المزيد من الأدلة على مدى جدية اتخاذ الداروينية الاجتماعية في مطلع القرن تظهر من خلال الدعاية الصادرة من قبل التحالف الألماني العمومي والمجموعات الأخرى داخل ألمانيا (1،2000).

ولهذا السبب، يجب إدراج الخسائر في الأرواح والممتلكات الناجمة عن الحرب العالمية الأولى كجزء من عدد الوفيات التقديري الناجم بشكل مباشر أو غير مباشر عن الحركة الداروينية.

## تأثير الداروينية على التاريخ

إحدى الطرق التي يمكن بها تقدير التأثير المأساوي لداروين على التاريخ عن طريق مراجعة الخسائر المرتبطة بالحروب، بما في ذلك الصراعات الشيوعية والنازية. عند مراجعة البيانات التالية، على الرغم من أن بعض الدول قد تبالغ في خسائرها لتشجيع التعاطف - أو حتى لتبرير بناء دفاع عسكري أقوى - ففي حالات كثيرة، ربما تكون المأساة الفعلية أكبر من غالبية التقديرات لأن التأثيرات الكاملة للحرب الكبرى لا يمكن معرفتها حتى عقود بعد انتهاء القتال. غالبًا ما تُستبعد الجروح التي لا تؤدي إلى خسارة

فورية للحياة. قد يموت الجنود من مضاعفات إصابات الحرب بعد مرور 20 عامًا أو أكثر، مثل الرجل الذي توفي بعد مرور 30 عامًا تقريبًا من إصابته برصاصة في عنقه خلال الحرب العالمية الثانية. لم يُتمكن من إزالة الرصاصة بأمان وتحركت ببطء، مؤدية للوفاة بعد سنوات عديدة. يُحسب هذا والعديد من الوفيات الأخرى المشابهة المرتبطة بالحرب على هذا النحو. في دراسة عن القتل بواسطة الحكومات، خلص روميل إلى أن القوة تقتل والقوة المطلقة أكثر عرضة للقتل. واستنتج أن 170 مليون شخص قد قتلوا من قبل الحكومة في جرائم القتل الجماعي التي درسها (2008، 1- 2).

## خسائر الحرب العالمية الأولى

كانت الخسائر المالية وخسائر الأرواح أكثر بكثير في حروب القرن العشرين من كافة الحروب الـ 5,300 الرسمية الكبرى التي حدثت خلال الـ 5000 عام السابقين مجتمعين. يوضح هذه الحقيقة، تقدير تحفظي لعدد القتلى في الحروب الغربية وحدها خلال القرون الثلاثة الأخيرة:

| القرن | خسائر الأرواح التقديرية |
|---|---|
| الثامن عشر | 3,000,000 |
| التاسع عشر | 5,000,000 |
| العشرين | 160,000,000 |
| الإجمالي | 168,000,000 |

إحدى دراسات هارفارد التي قيمت الحروب الـ 902 الكبرى التي حدثت بين 500 قبل الميلاد و1918 بعد الميلاد، خلصت إلى أن عدد المحاربين والخسائر في الحرب العالمية الأولى كانت أكثر بسبعة أضعاف من كافة الحروب المسجلة السابقة الـ 901 مجتمعة (فوستر 1945، 6). قدرت الخسائر التي تكبدتها ألمانيا في الحرب العالمية الأولى بنحو 1,824,000 قتيلًا و4,247,600 جريحًا؛ وبلغت خسائر روسيا 1,664,800 قتيلًا و3,784,600 جريحًا. بلغ إجمالي القتلى من كافة المعارك في الحرب العالمية الأولى أكثر من 23 مليونًا (روبرتس وآخرون 1979، 153)، وقدر عدد الضحايا بسبب الأعمال العسكرية والأمراض الناجمة عن الحرب والوفيات بسبب المجاعة أكثر من 40 مليونًا (هيرسش 1931).

## تكلفة الحرب العالمية الثانية

كانت التكلفة الإجمالية المباشرة وغير المباشرة للحرب العالمية الثانية أكثر بأربع مرات من الحرب العالمية الأولى، والتكلفة حوالي أربعة تريليون دولار في 1945 (فوستر 1945، 6). يجب وضع هذه الخسائر تحت مسمى وحشية هتلر.

تقدر خسائر الأرواح البشرية في الحرب العالمية الثانية من جراء الأعمال العسكرية والأمراض التي تنتشر في الحرب بأكثر من 65 مليونًا، وهو أكبر من حجم السكان الذين تقل أعمارهم عن 18 عامًا، والذين يعيشون في الولايات المتحدة بأكملها في ذلك الوقت (جراتان 1949، رايت 1942، 245). فقدت ألمانيا 6,9 مليون جندي على الجبهة السوفيتية، وتوفي ما يقدر بـ 27,5 مليون مواطن سوفيتي في معارك القوات الألمانية. بالإضافة إلى ذلك، هناك الملايين من الوفيات مرتبطة بالحرب، بما في ذلك

1,5 مليون نسمة ماتوا نتيجة للجوع في لينينغراد بسبب الحصار الألماني في مساعيهم للقضاء على سكان المدينة. وقدر العدد الإجمالي للوفيات بسبب الجوع والأمراض المرتبطة بالحرب فقط 12 مليون شخص تقريبًا.

وبالنسبة لخطط هتلر لحليفه السابق، روسيا، "لم يقدم هتلر أعذارًا لمذابحه أبدًا" ولكنه أعطى أوامر بتسوية لينينغراد بالأرض وذبح كافة السكان واحتفظ بمصير خاص لموسكو. عدم ترك شخص واحد على قيد الحياة، وعدم ترك حجر على حجر، وإغراق حطام المدينة تحت بحيرة كبيرة. قضت الأوامر للسندركوماندوس بقتل الرجال والنساء والأطفال، ومن يُظهر علامات التأثر من مشاهد قتل النساء والأطفال كان يعاقب بشدة. كان اليهود والبولنديون والروس دون البشر ولا يستحقون العيش (باين 1973، 67).

في ألمانيا، قُتل أو جُرح نصف الذكور البالغين (فرييد 1970). عدد الوفيات الأمريكية الرسمية في الحرب العالمية الثانية كان 402,339 نسمة، وقدرت التكلفة المباشرة لأميركا وحدها بـ 263 مليار دولار (المبلغ بقيمة الدولار في ذلك الوقت؛ المصدر: إحصاءات الحكومة الأمريكية).

يشير مصطلح "الهولوكوست" عادةً إلى القتل النازي لليهود الأوروبيين، ولكن ألمانيا ليست الدولة المتحضرة الوحيدة التي انغمست في المجازر الضخمة لسكانها (رابينوفتز 1979). في الواقع، هناك العديد من المذابح الكبرى في التاريخ كانت أكثر ضخامة من الإبادة اليهودية، وشُنَّت جميعًا من قبل الحكومات الشيوعية (أزار 1990). منذ الحرب العالمية الثانية، خاض البشر أكثر من 130 حربًا، بما في ذلك فيتنام، وكانت أطولهم في تاريخ الولايات المتحدة حتى حرب أفغانستان (مورو 1982 ,88).

## عدد القتلى بسبب الحركات الشيوعية

حتى وقت قريب، كانت الكتب التاريخية الأربعة الرئيسية التي سجلت الحقبة الستالينية هي دع التاريخ يحكم (1989) لروي ميدفيديف، والإرهاب العظيم (1968) لروبرت كونكست، وعصر ستالين (1981) لأنتونوف - أوفسينكو، وأرخبيل جولاج (1974) لألكساندر سولزينتسين. كان كتاب عصر ستالين لأنتونوف - أوفسينكو - وفقًا لستيفين كوهين (1981، 8)، أستاذ السياسة السوفيتية في برينستون - هو أحد الأعمال الحديثة الأكثر أهمية حول الإبادة الشيوعية.

كان أنتونوف - أوفسينكو الابن الوحيد للأب الشهيد مؤسس السوفييت، شاهدًا ومؤرخًا على الستالينية. والده وهو ثوري بولشيفي معروف، قاد حزب الاستيلاء على قصر الشتاء في أكتوبر 1917، وخدم في الحكومة السوفيتية الناشئة وترقّى إلى القائد والرئيس السياسي للجيش الأحمر. قدر أنتونوف - أوفسينكو عدد الوفيات (كما هو مبين في الجدول رقم 1) خلال الثلاثين عامًا الأولى من الحكم السوفيتي بنحو 18 مليون (198، 210- 213):

**الجدول رقم 1: عدد الوفيات في الثلاثين عامًا الأولى من الحكم السوفيتي:**

| | |
|---|---|
| قتلى الحرب الأهلية الشيوعية (بما في ذلك ضحايا المجاعة المرتبطة بالحرب واعدام "أعداء الطبقة") | 16,000,000 |
| الوفيات الناتجة عما يخص الزراعة (ويتضمن الوفيات بسبب المجاعة التي سببتها الحكومة والترحيل والإعدام) | 22,000,000 |
| التطهيرات في آواخر الثلاثينيات | 19,000,000 |
| قُتل أثناء الحرب (من خلال الترحيل الجماعي ووفيات المعسكرات وعمليات الإعدام الوقائية وعمليات الإعدام التحذيرية، وما إلى ذلك) | 15,000,000 |
| عمليات الإعدام والقمع بعد الحرب | 9,000,000 |
| **الإجمالي** | 81,000,000 |

## عدد القتلى بسبب الثورات الشيوعية الحديثة

وفقًا لتقرير معهد أبحاث الشؤون الخارجية في 1983، فإن الثورات "الشيوعية" الحديثة كانت سببًا في وفاة حوالي 140 مليون شخص. تضمن التقرير كافة الوفيات المبكرة بسبب الإعدام والمجاعة التي صنعها الإنسان والسجن والترحيل والعمل بالسخرة والصراعات المدنية والدولية. وذكر الإئتلاف أنّ ضحايا الشيوعية من عام 1917 إلى عام 1967 كان 46,2 مليون آسيوي و45 مليون سوفيتي و3,6 مليون أوروبي، ووصل المجموع الكلي للوفيات إلى 139,917,700. ويزعم دولوت (1985) أنّ الإبادة الشيوعية الأوكرانية حصدت أرواح 7 مليون شخص.

تجاوزت حصيلة الوفيات للشيوعيين الصينيين تلك التي سببتها حرب المحور، قبل وأثناء الحرب العالمية الثانية. قدّر واكر (1971) ما يصل إلى 63 مليون شخص لقوا حتفهم نتيجة الشيوعية الصينية في الفترة من 1927 وحتى يومنا هذا (انظر الجدول رقم 2).

**الجدول رقم 2 يوضح بعض أعداد الوفيات الشيوعية**

| الصراع | تقديرات الوفيات |
|---|---|
| الحرب الأهلية الأولى (1927-36) | 250,000 إلى 500,000 |
| الحرب الصينية - اليابانية (1937-45) | 40,000 إلى 50,000 |
| الحرب الأهلية الثانية (1945-49) | 1,200,000 إلى 1,250,000 |
| الإصلاح الزراعي قبل "التحرير" | 500,000 إلى 1,000,000 |
| حملات التصفية السياسية (1949-58) | 15,000,000 إلى 30,000,000 |
| الحرب الكورية | 500,000 إلى 1,234,000 |
| "القفزة الكبرى للأمام" والكومونس (1958-59) | 1,000,000 إلى 2,000,000 |
| الكفاح ضدّ الأقليات القومية | 500,000 إلى 1,000,000 |
| "الثورة الثقافية البروليتارية الكبرى" وما أعقبها (1965-1969) | 250,000 إلى 500,000 |
| الموت في معسكرات العمل الجبري و"تطوير" الحدود | 15,000,000 إلى 25,000,000 |
| حملات "مكافحة الجريمة" (1983 إلى الآن) | 500,000 إلى 1,000,000 |
| إجمالي التقديرات | 34,800,000 إلى 63,543,000 |

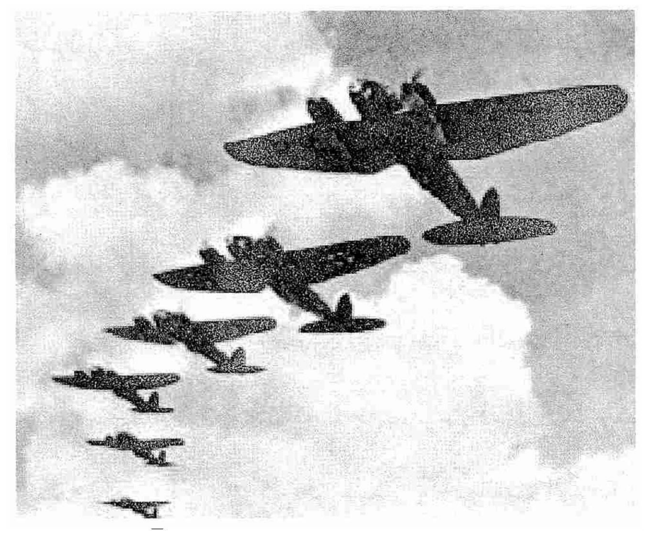
يدّعي شوارتز (1972، 1985) أنّ محرقة ماو تسي – تونج "الثورة الثقافية الكبرى" وحدها كانت مسؤولة عن وفاة حوالي 29 مليون نسمة، بالإضافة إلى تعطيل حياة 600 مليون شخص. في دراسة باستخدام وثائق أولية، يدعي تشانج وهاليداي أن ماو كان "مسؤولًا عن أكثر من 70 مليون وفاة في وقت السلم، أكثر من أي زعيم آخر في القرن العشرين (2005، 3). في حين أن البعض يشككون في هذا العدد، لكن الأرقام الأخرى المذكورة لا تزال في حدود عدة ملايين (بينتون وتشون 2010). قدر سونام توبيجال (1984، 7) أن الصينيين الذين قتلوا حوالي 1,278,387 شخص خلال حكمهم الذي استغرق 33 عام في التبت وحدها.

وبخاصة توفي 174,138 شخصًا من التبتيين في السجون ومعسكرات العمل، وتم إعدام 156,758 شخص، وتوفي في الحروب 432,607 شخص، وتوفي 413,151 بسبب المجاعة، و92,731 من التعذيب، و9,002 انتحارًا. وتبقى فقط ستة من الأديرة – التي لا تزال نشطة إلى الآن – الواقعة في جبال الهيمالايا من أصل 7000 دير قبل استيلاء الصينيين عليها عام 1950.

خلال ثلاثة أعوام فقط، قتل الجيش الأحمر أو فقد من خلال الانشقاق ما يقرب من 150,000 من جنوده بسبب القتل لعصيان الأوامر. اعتقد أن العديد قد قُتلوا أثناء العمليات أو أُسروا أو طردوا من الجيش (تشانج وهاليداي 2005، 296).

## إبادات أخرى للشيوعيين

قالت مؤسسة أبحاث د. شوارتز أن أكثر من مليوني شخص قد قُتلوا بواسطة حكومة بول بوت الكمبودي.



طائرات مقاتلة ألمانية (هينكل إتش إي 111إس) دخلت الخدمة عام 1937.

حقائق في الملف (20 فبراير 1981) نقلًا عن تقرير لجنة حقوق الإنسان للأمم المتحدة في 5 فبراير، والذي خلص إلى أن: الإبادة الجماعية التي ارتكبها نظام بول بوت لمدة خمسة أعوام "لم يسبق لها مثيل في قرننا، باستثناء رعب النازية". عندما سيطر الشيوعيون على البلاد في أبريل 1975، قُتل الملايين، بما في ذلك قرى بأكملها، ومجتمعات، ونساء حوامل أو نساء قُمن للتو بالولادة، وعجائز، وأُسر بأكملها، وأطفال حديثي الولادة، وحتى المرضى العقليين (2 فبراير 1979، حقائق في الملف).

عدد الرجال والنساء الكمبوديين الذين تم ذبحهم في الفترة من 1975 حتى 1978 يبلغ ثلاثة ملايين (سيهانوك 1980، 77؛ هاوك 1982، 21).

سيهانوك - أول رئيس لدولة كمبوديا بعد الثورة (استقال في 2 أبريل 1976)- يعتقد أن هذا التقدير مبالغ فيه، ولكنّه وافق على أنّ العدد كان مرتفعًا وأن "الخمسة ملايين المتبقين من الخمير كانوا بالكاد على قيد الحياة بعد ثلاثة أعوام من العمل

الجبري ومصاعب من كل نوع ومعاناة لا مثيل لها في كل تاريخ البشرية."

هؤلاء "العبيد" - كما يُذكرنا الكاتب - كانوا أطباء، وطلاب، وموظفين مدنيين مدربين تدريب عالي. والعديد من هؤلاء الذين هربوا سافروا عبر حقول الألغام في محاولة يائسة للوصول إلى الحدود، ولكن بالكاد فعلها واحد من كل عشرة منهم.

توفي البقية أو أُسروا أو قُتلوا. وقد أدى القضاء على عدد كبير من الأشخاص الأكفاء إلى جعل المجمع المحلي الصناعي والعسكري عديم الجدوى.

## تأتي الأمراض والمجاعة مع الحرب

ومن العواقب الكارثية للحرب ليس فقط القتل المباشر من قبل الجنود ولكن كذلك انتشار الأمراض بين كل من البشر والحيوانات الأليفة (وخاصة الماشية). تتسبب الحرب عادةً في اضطرابات عظيمة على كل من الإقتصاد وإنتاج الغذاء وتوزيعه، مما يؤدي إلى نقص الغذاء والمجاعات. تسببت الحرب العالمية الأولى في "وفيات مروعة من الأمراض" (غولدتورب 1978، 25). في الغرب وحده، تسبب تفشي الإنفلونزا عام 1918 في وفاة أكثر من 40 مليون شخص. على الرغم من أن الحكومات الغربية اتخذت اجراءات قوية لاحقًا في التعامل مع الطاعون، إلا أن الحرب تسببت في تفاقم مشكلة الإنفلونزا وأعاقت إلى حد كبير التحسن في مستويات المعيشة المدنية لعقود.

كانت المجاعات خدعة متعمدة في بعض الأوقات من قبل الحكومة للضغط على الأشخاص المتمردين للرضوخ (دولوت 1985). يدّعي أنتونوف - وفسينكو أن الإبادة السوفيتية عام 1932 كانت مجاعة متعمدة (1981، 64). مجموع المجاعات الإجبارية لستالين وتصفيته للكولاك أزهقت أرواح ما يقرب من 22 مليون شخص. في محاولة

لتلخيص عدد الوفيات الناتجة عن الإبادة الشيوعية بسبب الأمراض والمجاعات التي تسببها الحكومة، أصدرت إحدى الدراسات الأكثر توسعًا التي قام لها أشخاص استطاعوا الوصول إلى المحفوظات السوفيتية فائقة السرية السابقة التقديرات التالية:

| الأمة | الوفيات المقدرة |
| --- | --- |
| الاتحاد السوفيتي | 20 مليونًا |
| الصين | 65 مليونًا |
| فيتنام | ا مليونًا |
| كوريا الشمالية | 2 مليونًا |
| كامبوديا | 2 مليونًا |
| شرق أوروبا | 1 مليونًا |
| أميركا اللاتينية | 150,000 |
| أفريقيا | 1,7 مليونًا |
| أفغانستان | 1,5 مليونًا |
| الحركة الشيوعية الدولية | حوالي 10,000 |
| الإجمالي | الإجمالي 100 مليون |

المصدر: كورتويس وآخرون (1999، ص. 4)

## منذ عام 1970دولة من بين كل أربع دول خاضت حربًا

وتورطت خمس وأربعون دولة - رُبع دول العالم - في حروب منذ 1970، غالبيتها مرتبط بالشيوعية. تضيف الصراعات الشيوعية منذ 1900 خسائر في الأرواح لأكثر من 200 مليون شخص - يكافئ تقريبًا كافة سكان الولايات المتحدة، رابع دولة من حيث عدد السكان اليوم -. تضمنت غالبية هذه الصراعات الأكثر دموية الاستيلاء الشيوعي، بما في ذلك:

**كمبوديا**: تضمنت الحرب الأهلية 200,000 جنديًا فيتناميًا وكمبوديًا مقابل 63,000 من العصابات المسلحة؛ أربعة ملايين حالة وفاة منذ 1970.

**أندونسيا**: حرب العصابات التي تضمنت 269,000 جنديًا مقابل 6,500 من الثوار الوطنيين؛ من 100,000 إلى 250,000 حالة وفاة منذ 1975.

**أفغانستان**: تضمنت الحرب الأهلية 100,000 متمردًا مقابل 140,000 جنديًا سوفيتيًا وأفغانيًا؛ حوالي 100,000 حالة وفاة منذ 1978.

**الفلبين**: تضمنت حرب العصابات 112,800 جندي مقابل الآلاف من المتمردين الشيوعيين؛ 50,000 حالة وفاة منذ 1972.

**فيتنام**: تضمنت الحرب التقليدية 300,000 جندي صيني مقابل 200,000 فيتناميًا؛ 47,000 حالة وفاة منذ 1979.

**السلفادور**: تضمنت حرب العصابات 10,000 ماركسي مقابل 25,000 جنديًا؛ أكثر من 30,000 حالة وفاة منذ 1977.

**جواتيمالا**: تضمنت حرب العصابات 6,000 متمرد يساري مقابل 30,600

جنديًا؛ من 12,000 إلى 22,000 حالة وفاة منذ 1982.

**أثيوبيا**: تضمنت حرب العصابات 250,000 جنديًا أثيوبيًا مقابل 45,000 من الشيوعيين الإرتريتريين؛ ما يقرب من 30,000 حالة وفاة منذ 1962. (من تقرير مركز المعلومات الدفاعية "العالم في الحرب"، 1980).

وفقًا لسمبسون (1978): فقد تم ذبح أكثر من 25 مليون شخص في الحروب الشيوعية منذ 1945، كما سقط العديد من الوفيات في الحربين العالميتين. يُقدّر رايت أنّه على الأقل 10% من كافة الوفيات في الحضارة الحديثة يمكن أن تُعزى إلى الحرب (1942 ,246). منذ 1945، لم يمر أكثر من 26 يوم بدون اندلاع حرب ساخنة في مكان ما من العالم، وكانت غالبية هذه الحروب مستوحاة من الشيوعيين (سمبسون 1978)! إجمالي الخسائر غير المباشرة في الأرواح من الأمراض والإصابات المرتبطة بالحرب منذ 1945 حوالي 20 مليون أخرى. مثال على استمرار آثار الشيوعية ما يلي: قبل أربعين عامًا، كانت كمبوديا أكثر الدول تطورًا ونظافة في آسيا. كانت بنوم بنه مدينة مثالية ذات خدمات عامة ومتنزهات وحدائق عامة. ثم، في 1970، تورطت الدولة في [حرب] بين الماركسيين وقوات الحكومة عندما سيطر الخمير الحمر الماركسيين بالقوة على البلد في 1973، سرعان ما تدهورت الأمة إلى منطقة قاحلة في العالم الثالث (دابيل 2000، 29).

ونتيجة لذلك، أصبحت مساحات شاسعة من الأراضي الزراعية قاحلة، ومازال حوالي أربعة ملايين لغم أرضي مخبئين في حقول الأرز، مما يمنع الزراعة والتنمية. يوميًا تقريبًا، كان يتم قتل المزارعين أو تشويههم من قبل الأسلحة المضادة للأفراد التي زُرعت

خلال الحرب قبل أكثر من 20 عامًا. وبغض النظر عن هذه المشكلات السياسية والاقتصادية المدمرة، هناك معدّلات عدوى فيروس نقص المناعة البشرية/الإيدز التي قد تدمر الأشخاص. بنهاية هذا العام يتوقع مسؤولو الصحة 40,000 حالة إصابة كاملة بالإيدز في كامبوديا. يقول مسؤولو الصحة أنّ 250,000 كامبوديًا مصابون بالفعل بفيروس نقص المناعة البشرية. يزداد العدد بمقدار 100 شخص في اليوم. وعند فحص 7,346 من "العاملات في تجارة الجنس" في كمبوديا (المصطلح السياسي الصحيح لاسم "البغاء")، وجد أن 43% منهن نتيجتها إيجابية لفيروس نقص المناعة البشرية. "العاملات في تجارة الجنس" وعملائهن مسؤولون عن انتشار كافة حالات الإيدز في كمبوديا تقريبًا (دابيل 2000، 29).



**مدرسة جين دي أرك تحت النار في فريدريكسبرج، 1945.**

وفي الآونة الأخيرة، تمّ خوض 31 "نزاع مسلح ضخم" في 27 دولة في العالم منذ 1994! إن الثورات الداروينية والمعادية للمسيحية التي أدت إلى هذه الحروب والإبادات، أزهقت عشرات الملايين من الأرواح، والكثير من ثرواتنا، وأدت إلى فقر مدقع في حياة العديد من سكان العالم. يعيش أكثر من 60% من سكان العالم الآن في فقر، وحوالي نصفهم في فقر مهدد للحياة، و400 مليون نسمة على حافة المجاعة.

قدرت الأموال الإضافية اللازمة لتحقيق مستويات كافية من الغذاء والرعاية الصحية والتسكين لسكان العالم قبل بضع سنوات بنحو 20 مليار دولار. هذا المبلغ الضخم كان تقريبًا ما كان ينفقه العالم كل أسبوعين في ذلك الوقت في الحرب أو التحضير لها، والتي أغلبها حتى وقت قريب كان يتضمن صراعات شيوعية. يُنفَق الآن أكثر من 25 مليار دولار سنويًا لرعاية جرحى الحرب الأمريكيين، وغالبيتها في مستشفيات رعاية المحاربين القدامى على حساب الحكومة.

## يجب وضع هذا في الحسبان

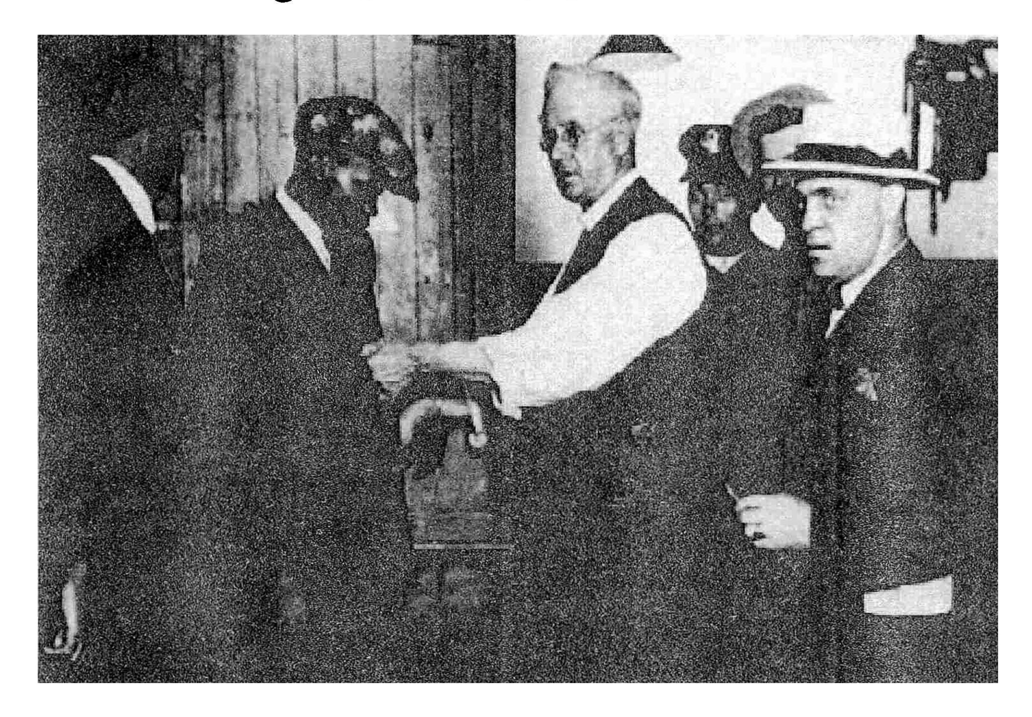
الداروينية عامل واحد فقط، بالرغم من كونه عامل بالغ الأهمية، أدى إلى الفاشية والشيوعية والرأسمالية والطغيان بدم بارد. هناك عوامل أخرى غير الداروينية كانت هامة في ظهور الإبادات المستوحاة من الإستبدادية الشاملة في القرن العشرين، ولكن هذه المراجعة تركز فقط على تأثير الداروينية. لقد لاقت الداروينية القبول على نطاق واسع في إنجلترا وفرنسا والولايات المتحدة، ولم تطور أي منهم أنظمة استبدادية مثل تلك الموجودة في ألمانيا أو إيطاليا أو روسيا. لهذا السبب، يجب علينا كذلك النظر إلى عوامل أخرى للتفسير الكامل لتطور الإستبدادية الشاملة.

لم تكن الشيوعية نتاج للداروينية فقط، ولكن كذلك نتاج ما يُدعى بمفكرين "التنوير" ونظام اجتماعي وتاريخي معين. العديد من العوامل التاريخية سبقت وأثرت على نمو وتطور الداروينية. على سبيل المثال، فإن أعمال كانت وهيكل وكونت وهؤلاء المفكرين الذين كانوا جزءًا مما يُسمى بـ "التنوير"، مع تركيزهم على العقلانية المفرطة وحتمية "التقدم"، جميعهم كان لهم تأثير هام في الفكر الغربي. لقد سار داروين بطرق عديدة على خطى هؤلاء المفكرين، ولاحقًا، كان ماركس ونيتشه وآخرون مهمين. كما كانت ما تسمى باسم "حركة العقلانية" حرجة كذلك ولها تأثير عميق في أوروبا الغربية والمسيحية في آواخر القرن السابع عشر.

ومع ذلك، فإنّ الداروينية كانت خطوة بالغة الأهمية في العملية التي أدت إلى الإستبدادية الشاملة، ولكن القومية والسعي إلى القوة وللإمبراطوريات كانا مهمين كذلك. وفي المقابل، ساعدت القومية الشرسة والإمبريالية التي تفشت في أوروبا خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر على إرساء الأساس والقبول لشكل معين من الداروينية.

تحت حكم لينين وستالين، أصبح الإتحاد السوفيتي "إمبراطورية شريرة" دموية، جزئيًا لأنّ الشيوعية الروسية كانت مادية وإلحادية ومطلقة. وبالرغم من ذلك، كانت الداروينية هامة كذلك في روسيا. لم يقم ستالين بتجويع ستة ملايين من الكولاكيين الأوكرانيين حتى الموت لأنه كان دارويني، ولكن كان سببه الرئيسي أنهم قاوموا الزراعية الجماعية ومنعوا إمداداتهم من الحبوب التي كانت تساعد على إطعام سكان موسكو. وعلى الرغم من ذلك، فإنّ الداروينية ساعدته وحكومته بوضوح على تبرير تطلعه للمجد الوطني، ولا سيما من خلال المساعدة في إبطال تأثير الدين.

إن الدوافع الواضحة كالقوة والثروة والمجد هي عوامل هامة في إتساع رقعة الأرض الوطنية، ولكن حتى هنا كانت الداروينية هامة لأن الدول الأوروبية كانت توسع نفوذها وآراضيها "خارج البلاد في آسيا وأفريقيا والمحيط الهادي. كان من المسلم به بطريقة ما، أنّه من حقّهم أن يفعلوا ذلك لأن الإنسان الأبيض الأوروبي كان متفوقًا وراثيًا على الأشخاص ذوي البشرة الداكنة، وعليهم أن يتولوا أمرهم نتيجة لذلك بالطبع" (أسيموف 1977، 89-94). ويضيف أسيموف أن هذه النظرة العالمية "جُعِلت علمية بواسطة أعمال هربرت سبنسر، الذي طبق أفكار نظرية التطور - التي أنشأها عالم الطبيعة الإنجليزي تشارلز روبرت داروين، في 1859- على المجتمع".



**شاب أمريكي من أصل أفريقي في شيكاغو في دراسة العلاقات العرقية وأعمال الشغب العنصرية.**

لقد كان سبنسر الذي قام بصياغة عبارة "البقاء للأصلح"، وفي 1884 جادل بأنّه ينبغي السماح للأشخاص الذين لا يعملون ويشكلون عبئًا على المجتمع بالموت بدلًا

من أن يُمنحوا المساعدة والإحسان. القيام بذلك - على الراجح - سيساعد على التخلص من الأفراد غير الأكفاء وتعزيز العرق. وقد كانت فلسفة مريعة والتي يمكن استخدامها لتبرير أسوأ الدوافع البشرية. فيمكن لدولة مستعمرة أن تدمر عدوها (كما دمر الأمريكيون الهنود) لأنهم كانوا "أكثر كفاءة"، ويمكن أن تُثبت أنها "أكثر كفاءة" لأنها دمرت عدوها. وبالفعل فإن استغلال بقية البشر من قبل الأوروبيين البيض يمكن أن يبدو على أنه لفتة نبيلة؛ حيث استطاع البيض المتفوقون مساعدة السلالات الأدنى في قارات أخرى من خلال توظيفهم كخدم والسماح لهم بالعيش على الفتات (أسيموف 1977، 89-94).

وأضاف أنّ أعدادًا ضخمة من المواطنين في الولايات المتحدة "تأثروا بفلسفة سبنسر، وما يؤلم أنّ الولايات المتحدة ساعدت على انتشار مباركة الإمبريالية، وخاصة أنّ "نهاية الحدود" في 1980 بدت وكأنها تركت مجالات توسعية أمريكية مع القليل للقيام به في الوطن" (أسيموف 1977 ,89- 94).

ومن العوامل الهامة في وقوع المحرقة، كانت البرامج المعادية للسامية والتعصب والذي كان قد ترسخ بعمق في الثقافة الأوروبية قبل داروين بفترة طويلة. وجد هتلر العديد من الألمان "المسيحيين" العاديين الذين يتقبلون قوانينه وتشريعاته المعادية للسامية، جزئيًا لأن المسيحية فقدت الكثير من حياتها وتأثيرها في ألمانيا وأكثر أوروبا. عززت الداروينية التحيزات القائمة ضد اليهود، ولكن لم يكن هذا هو العامل الوحيد الذي تسبب في المحرقة.

وكان لزوال التأثير المسيحي وفساد الكنيسة أهمية بالغة. كانت الكنيسة المسيحية المبكرة تعارض بشدة الصراعات العنيفة ودعمت بشكل متواصل مساعدة الضعفاء

والأقل قوة (باينتون 1960؛ نوتال 1971؛ مارين 1971؛ ماكغريغور 1954). يؤكد الكتاب المقدس بوضوح أننا يجب أن "نبحث عن الأشياء التي تصنع السلام وبناء بعضنا البعض" [1] (رومانز 14:19، الكتاب المقدس القياسي الأمريكي الجديد). لقد أُمر المسيحيون بأن "يكونوا مسالمين مع بعضهم البعض، ويساندوا الضعفاء، والكفاح من أجل المصلحة العاملة والعمل ضد ميل الفرد لإلحاق الضرر، ولكن، على العكس، السعي الدائم إلى ما في صالح الجميع" (1 تسالونيكي 4 :13-15). هذه التعاليم الواضحة المتكررة في الكتاب المقدس تتناقض مع الفلسفية الشيوعية والإستبدادية الشمولية، والتي تشدد على الثورة العنيفة وديكتاتورية البروليتاريا كحل "علمي" لمشكلات الإنسان.

يشرح اللاهوتيون بشكل عام هذه المقاطع على أنها تُشير إلى القول بإننا كأفراد، نسعى لتحقيق السلام ونحب أعدائنا (ماثيو 5 :44). تركز هذه الكتب المقدسة على العلاقات الشخصية الفردية، ولا يقتصر تطبيقها على النزاعات بين الأشخاص، ولكن تنطبق كذلك على النزاعات بين المجموعات. لو أنّ هتلر وستالين وماركس وغيرهم لم يرفضوا المسيحية الإنجيلية من أجل نظرة عالمية دنيوية "تنويرية"[2] داروينية، لما كان بوسعهم قبول البربرية المتأصلة في الأنظمة النازية/الشيوعية التي قادوها، وفقدان مئات الأرواح التي في الإبادات الجماعية - التي سبق الحديث عنها - ما كان ليحدث أبدًا.

(1) لا شك أن ما بقي صحيحًا ولم يُحرف في الكتاب المقدس فيه خير للبشرية وإن كان الله قد أنزل الكتاب الخاتم إلا أنه يظل الكتاب المقدس أفضل من هذه الافكار الإلحادية المادية التي تنكر وجود الخالق وتُحارب الأخلاق جملة وتفصيلًا .(الناشر)

(2) يُقصد بلفظة " تنويري " الفكر المنحل الغير ملتزم بالنظرة الأصولية المتمسكة بالدين ، وقد تعريفها في الحاشية وذكر ما بُنية عليه في الغرب ، إذ هي أقرب للعلمانية منها إلى الأديان، ولها روادها في الغرب كما لها ضُلالها في الشرق .(الناشر)

في النهاية، وضع الكتاب الذي كتبه داروين نظرية للأصول البيولوجية التي لم يكن لها أية آثار اقتصادية أو سياسية. ولكن بالرغم من أنّ الكثيرين قد يذهبوا بعيدًا للغاية لدرجة الإعتراف بأنّ الله خلق العالم من خلال عملية طويلة من التطور، فإنّ النتيجة النهائية لنظرية داروين كانت قتل عشرات الملايين من الأبرياء، وبذلك أصبح الأب الروحي لأعظم قتل جماعي في التاريخ (ورمبراند 1986، 86).



# المراجع

أنتونوف - أوفسينكو، أنتون. 1981. عصر ستالين: صورة للطغيان. نيويورك: هربر ورو.

إيزاك أسيموف،1977. الباب الذهبي: الولايات المتحدة من 1856 حتى 1918. بوسطن، م أ: شركة هوتون ميفلين.

لاري آزار، 1990. القرن العشرين في أزمة: مؤسسة الشمولية. دوبوك، إأ: كيندال - هانت.

رولاند اتش باينتون،1960. مواقف المسيحية تجاه الحرب والسلام. نيويورك: صحافة أبينجدون.

جريجوربينتون ولين تشون، المحررين. 2010. حقًا لقد كان ماو وحشًا: الرد الأكاديمي على تشانج وهاليداي ماو: القصة الغير معلومة. نيويورك: روتليدج.

جيري بيرجمان. 1999. "الداروينية والإبادة العرقية النازية".سين تيك جيه.13(2):101-111.

---. 2001. "مؤسسة داروين للشيوعية."ت.ج. الصحيفة التقنية95 -89:(1)15.

كار وويليام. 1979. تاريخ ألمانيا 1945-1815. نيويورك: صحيفة سانت مارتن.

جونج تشانج وجون هاليداي. 2005. ماو: القصة الغير معروفة. نيويورك: كنوبف.

ستيفن كوهين. 1981. مقدمة لأنطون أنتونوف - أوفزينكو، عصر ستالين: صورة للطغيان. نيويورك: هربر ورو.

روبرت كونكويست،1968. الرعب الأعظم. نيويورك: شركة ماكميلان.

ستيفين كورتويس، نيكولاس ويرث، جين - لويس بان، أندرزيج باكزكوسكي، كارين بارتوسيك، جين - لويس مارجولين. 1999. الكتاب الأسود للشيوعية؛ جرائم، ارهاب، قمع. كامبردج، م.أ: صحيفة جامعة هارفرد.

جريج دابيل،. 2000. "مجالات القتل الجديدة".العالم،18 مارس، 30–15(11):29.

ميرون دولوت،1985. التنفيذ باستخدام الجوع. نيويورك: نورتون.

فريلينج فوستر،1945. "مواكبة العالم".كوليرز،29 سبتمبر، ص. 6.

ليونارد فريد،1970. صنع في ألمانيا. نيويورك: منشورات جروسمان.

جيه ايهجولدثورب، 1978. علم اجتماع العالم الثالث. كامبردج، م.أ: صحيفة جامعة كامبردج.

ك. هارتلي. جراتان، ك. 1949. "تكلفة الحرب".هاربيرز، أبريل، ص.79 -76.

ريتشارد افهاميلتون، ، هولجير هـ. هيرويج. 2003. أصول الحرب العالمية الأولى. نيويورك، نيويورك: صحيفة جامعة كامبردج.

ديفيد هاوك،1982. "مقتل كمبوديا".الجمهورية الجديدة،15 نوفمبر، ص. 21-17.

ال هيرستش،. 1931. "التأثيرات الديموغرافية للحرب الحديثة"، في كيف ستكون صفات حرب جديدة؟ لندن: الاتحاد البرلماني الدولي.

جيرترود هيميلفارب،1962. داروين والثورة الداروينية. نيويورك: و. و. نورتون.

تيد هولدين،2000. "هل نظرية التطور مصدر للعنصرية والشر؟" مخطوطة غير منشورة.

فيرنون كيلوج،1917. ليالي المقر. بوسطن، م أ: الصحافة الأطلسية الشهرية.

ج.هـ.س ماكجريجور،1954. أساس العهد الجديد من السلمية. نياك، نيويورك:

منشورات الزمالة.

ألبيرت مارين، محرر. 1971. الحرب والوجدان المسيحي. شيكاغو، إل: شركة هنري ريجنري.

روي ميدفيديف،1989. لندع التاريخ يحكم. أصول وعواقب الستالينية. نيويورك: صحافة جامعة كمبوديا.

لانس مورو،1982. "ما وراء الحرب".وقت،17 مايو ص. 88.

جيوفريي نوتال،1971. المسالمة المسيحية في التاريخ. بيركيلي، ج.أ: العالم بدون مجلس الحرب.

روبرت باين،1973. مذبحة؛ مأساة بنجلاديش وظاهرة الذبح الجماعي عبر التاريخ. نيويورك: ماكميلان.

جيمسبيرلوف، 1999. اعصار في جنكيارد. أسطورة القسوة في الداروينية. أرلينجتون، م أ: كتب الملاذ.

دوروثي رابينويتز،1979. حول الإبادة. نيويورك: اللجنة اليهودية الأمريكية.

رون روبرتس، روبرت م. كلوس. 1979. الحركات الإجتماعية. سانت لويس، مو: السيرة الذاتية لموسبي.

رودولف ج روميل،2008. الموت من قبل الحكومة. نيو برونسويك، ن.ج: صفقة الناشرين.

أنطوني سامبسون،1978. "نريد أن نشن حرب".المبجل،1 مارس ص. 69 -59.

فريدريك ششوارتز، 1972. الوجوه الثلاثة للثورة. فولز تشيرش، ف.أ: صحافة

كابيتال هيل.

---.1985. "الحاجة إلى مبلغ فلكي للتعويضات"، الحملة المسيحية المضادة للشيوعية،1 فبراير.

نورودوم سيهانوك،1980. الحرب والأمل؛ حالة كمبوديا. نيويورك: كتب بانثيون.

ألكسندر سولجنيتسين،1974. أرخبيل جولاج. نيويورك: هربر ورو.

سونام توبجيال، 1984. "توفي أكثر من 1.2 مليون شخص تحت الحكم الصيني". مراجعة تبتية7:(3)19.

ريتشارد واكر، 1971. الخسائر البشرية للشيويعة في الصين. واشنطن، د. س: مكتب طبع حكومة الولايات المتحدة؛ ص. 15، انظر ششوارتز، 1972، قام بتحديثه الموجز المحافظ،10 أبريل (4) والأخبار المسيحية،30 أبريل، ص. 12.

هانز - أولريتش ويلر، .19851985. الإمبراطورية الألمانية، 1918 -1871. تُرجم من الألمانية بواسطة كيم كيم ترينور دوفر (نيو هامشير): منشورات بيرج.

كوينسي رايت، 1942. دراسة الحرب. شيكاغو، إل: صحافة جامعة شيكاغو.

ريتشارد رمبراند، 1986. ماركس وساتان. بارتليسفيلل، أ.ك: شركة كتاب التضحية الحي.



# الفهرس

لما كانت الداروينية من أخطر الأفكار التي انتشرت من منتصف القرن التاسع عشر وحتى الآن، وكان لها كبير أثر على العقائد والدماء، كان من المهم ترجمة مثل هذا الكتاب الرائع إلى العربية ، معذرة إلى الله جل وعلا، وبيانًا لخطر هذه الفكرة التي تدعو إلى الانحلال بكل جوانبه ومعانيه.

يوثق هذا الكتاب عدد المرات التي أُستغلت فيها الداروينية في غايات سياسية شريرة، ومدى سهولة ذلك من خلال تشكيلة واسعة من الأشخاص والحركات.

وكيف كان لهذه الفكرة كم هائل من الخسائر الفادحة على الفرد والمجتمع، وكيف تصرف معتنقوها كالهمج لا يراعون للإله حقًا ولا يعرفون للبشر قيمة، وإنما يتصرفون كالحيوانات إذ هم منهم واليهم ينتسبون — كما يزعمون- بل ويسعون أن تكون أفعالهم من جنس الكوارث الطبيعية التي لا تثمر إلا موت من يزعمون أنه غير صالح للبقاء!

فتجد في هذا الكتاب أثر الداروينية على هتلر وستالين وماو من حيث تحولهم إلى الإلحاد ثم من حيث تغير نظرتهم إلى البشرية وكيف كان لها الأثر الكبير في المذابح والمحارق التي قام بها هؤلاء وغيرهم.

- قام د.جيري بيرجمان بتدريس علم الأحياء وعلم الوراثة والكيمياء الحيوية والانثروبولوجيا والجيولوجيا والميكروبيولوجيا على مستوى التعليم الجامعي لأكثر من ٣٠ عامًا، لديه ٩ درجات علمية بما في ذلك ٧ شهادات عليا، وقد ألف أكثر من ٨٠٠ منشور.

الناشر

